التدبر الموضوعي في القرآن الكريم

قراءة في المنهجين: التجميعي والكشفي



إصدارات ملتقى (سحر البيان) الكتابي

التدبر الموضوعي في القرآن الكريم

قراءة في المنهجين: التجميعي والكشفي

(دروس ألقاها الشيخ علي آل موسى)

كتبها:

* عبد العزيز حسن آل زايد
* محمد حسن آل زايد
* موسى سعيد البحارنة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

هوية الكتاب:

* **الكتاب**: التّدبر الموضوعيُّ في القرآن الكريم.. قراءةٌ في المنهجين: التجميعيِّ والكشفيِّ.

:: دروس ألقاها **الشيخ علي آل موسى**.

* **كتبـها**: عبدالعزيز حسن آل زايد، محمد حسن آل زايد، موسى سعيد البحارنة.

* **الطبعة**: الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م. (٧٥٠ صفحة).

* **الناشر**: دار كميل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، طريق المطار، ص.ب: ٧٩٥٧/ ١١.

* dar_komail@yahoo.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

سورة البقرة/ ٢٨٦.



الإهـــداء

إلى كلّ من وقّر الله بتوقير كتابه..

إلى كلّ من أسهر بالقرآن ليله وأظمأ نهاره..

إلى كلّ من حمل القرآن ووعاه وطبّقه..

إلى كلّ من اختزن القرآن عقيدة وفكراً ومنهجاً..

إلى كلّ من تعلّم القرآن وعلّمه..

إلـى كلّ من إذا التبسـت عليه الفتن كقطـع الليل المظلم؛ لجأ إلـى القرآن، وجعله أمامه قائداً له، فانطوت عليه جوانحه، ولهج به لسانه، وعملت به جوارحه، فاهتدى بهدي القرآن، وبصر ببصيرة القرآن، ورشد برشد القرآن..

نهدي هذا الجهد المتواضع..

المعدّون



تقديم

سماحة المرجع السيّد محمد تقي المدرسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد للـه ربّ العالمين، وأفضل الصلاة والسـلام على النبـي المصطفى محمد وآله الهداة الميامين.

القرآن الكريم ذلك المصباح المنير الذي يشعّ من مشكاة الوحي على كلّ أفق، ولا تزال البشرية بحاجة إلى نوره للسير قدماً في معارج الكمال.

واليوم حيث تطغى المادية في حياتهم حتى كادت تحيط بهم ظلماتُها، ترى الناس أكثـر حاجة إلى الاهتمـام بكتاب الله المجيد الذي هو الكتاب الوحيد الذي لم تمسّـه يد التحريف. إنّه حبل الله الوحيد الذي لا يزال ممدوداً بين الله - سبحانه - وخلقه.

وهكـذا ينبغـي أن نسـتنطق القرآن حتى يحكم فـي الأمور المتشـابهة التي تعترض حياتنا.

نحن اليوم في أزمات حضارية شـتى، أبرزها وأهمّها (أزمة الرؤية) التي تشوشـت بفعل المادية الطاغية.

وسبيل استنطاق القرآن:

أولاً: تلاوته والتدبر في آياته الكريمة.

ثانياً: محاولة تطبيق آياته على الظروف المحيطة، بعد دراستها بدقة ودراسة الآيات بعمق.

ثالثاً: التجسير بين آياته الكريمة لمعرفة أبعاد تصديق آياته لبعضها البعض.

والدراسة التي بين أيدينا هي واحدة من المحاولات الجادة في هذا السبيل.

ونحـن إذ نتمنى أن نجد المزيد من هذه الدراسـات في سـبيل تقريب المجتمعات إلى أفق القرآن الكريم، نسأل العلي القدير أن يمنّ على المؤلف بالمزيد من التوفيق للسير قدماً في سـبيل تطوير دراسـاته القرآنية التي أنّى كثرت وتنوّعت فإنّها لن تسـتوعب أنوار الذكر الكريم.

والله المستعان..

محمد تقي المدرسي

١/ شوال/ ١٤٢٧هـ

المقدّمة

(القرآن دستور الحياة الخالد)..

تلك مقولة شائعة في حياتنا كمسلمين تغمر قلوبنا قناعةً بأنّ القرآن الكريم لم يأتِ ليكون كتاباً تُرسم حروفه على أثمن الورق وأجمله، ولا لنتعامل معه بوصفه صيدلية أدوية، أو محطّ بركة تُتلى على الميّت، بل ولا حتى ليكون مجرّد حلية لفظية تُقرأ بترتيل وتجويد، أو لنيل الأجر والثواب من الله.

لقد جاء القرآن ليكون (دستوراً) منه تُستمد الرؤى والأفكار والمواقف في حياة الفرد والجماعة، .. ليصوغ قلب المسلم وعقله وعمله، كما يصوغ الأمة المسلمة والدولة، وليكون نهجاً لـ(الحياة)، يغرس فيها التزكية والهداية والبصيرة، ويخرجها من الظلمات إلى النور، ويبعث فيها الحركة والفاعلية والنشاط، ليكون ثورة على الموت والخمول والكسل، وليكون مَعين الأمة (الخالد) الذي تُعرض عليه مستجداتها ومتغيّراتها، فيصفّيها وينقّيها بزلاله، ويبقى هو المحور الثابت الدائم، فهو صاحب القواعد الثابتة التي لا تتغيّر، والمستمرة مع حركة عجلة الزمن.

لقد منحه أن يكون دستور الحياة الخالد كونُه من الله المحيط بعالَمي الغيب والشهادة، العليم بحاجات البشر الثابتة والمتحوّلة، المنزّه عن القصور والرغبات، والذي وضع كتابه ليكون خاتمة الكتب والرسالات السماوية، فجاء قادراً على التفاعل مع كلّ حاجاتها، حاوياً لكلّ الحلول والآفاق التي تضيء لها مشوار الزمن الممتدّ ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ سورة الأنعام/ ٣٨، ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ سورة النحل/ ٨٩.

ومن ثمّ جاء الأمر الإلهي للبشر بالتدبر في هذا الكتاب النور، والاستلهام من ضيائه الوهّاج: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ سورة ص/ ٢٩.

بيد أنّ تحويله إلى دستور خالد للحياة كان يقتضي على الدوام أن يطوّر المسلمون مناهج وآليات للتعامل معه؛ لينفتح عليهم بأكبر مقدار ومستوى وصلوه، فالذي يحاور القرآن بمنهج لغوي فحسب، لن تُشرع أمامه سوى أبواب لغوية، ومن يتجاذب معه أطراف الحديث في العقائد أو الفقه أو الفلسفة فسينفتح عليه من الوجهة التي شرعها، فمن أين للقرآن أن يخدمنا في الحقول القلبية والمعرفية والسلوكية والتطبيقية؟!، ومن أين للقرآن أن يهمي علينا عطاءه في النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها..؟!

وإذا كانت فروع اللغة والأدب والنقد قد حظيت من قِبَل روّادها باهتمام كبير أبدع الكثير من النظريات المعرفية والمناهج العملية، فإنّ القرآن الكريم لم تُبذل له الجهود الموازية لها ولا الموازية لقيمته ومكانته، بحيث أصبح شرح النصّ الأدبي والجَنْي من ثماره أسهل من اقتحام النصّ الديني، وأضحى تسطير مجلد في شرح معلقة جاهلية - كمعلّقة امرئ القيس - أبسط من استخراج الأفكار والرؤى من سورة الكوثر!!

وإذا كان القرآن يحثّ على التدبر فيه والاستفادة منه، فهل هناك طرق عملية تذلّل الصعوبات وتمهّد الطريق؟، وهل هناك مناهج وسبل معيْنة على بلوغ مقدار أكبر من الاستفادة؟

لقد وقفت فكرة (قداسة النصّ الديني) - في بعض أشكال فهمها - واحدة من أهم العوائق في طريق إبداع تلك المناهج والسبل، فحيث تخلّص منها النصّ الأدبي - مثلاً - أمكن إيجاد مناهج عديدة لفهمه، وأخرى لقراءته، وثالثة لنقده، وظهرت اتجاهات ومدارس حريصة على الابتكار والتجديد فيه، وامتحان الرؤى المعرفية المقدّمة على بساط التعامل معه، والقيام بتطبيقات متنوّعة المشرب على النصّ الواحد.

أما القرآن فقد تمّ التعامل معه بوصفه نصّاً مغلقاً لا يفهمه إلا الله والمعصوم عليه السلام، وفُرضت تخويفات كثيرة على محاولة التعامل المباشر معه؛ وهذا ما أبعد الكثيرين عن حيوية الاستلهام الذاتي المباشر منه، وأبعده عن حركة الدرس الفاعل وعن التأثير الواسع في الحياة، حتى أمسينا نقرؤه كما نقرأ طلسماً مقدّساً ندندن بحروفه ولا نفهم معانيه، ولا نجسر أن نتحاور معه!!

ولم يكن ذلك الخوف المستكن في القلوب يرتع في حياة البعيدين عن التديّن والدرس الديني فحسب، بل كان القرآن على مدى أحقاب متطاولة بعيداً حتى عن المدارس الدينية والحوزات العلمية، وأمسى تفكيك الرواية بدءاً من سندها وعبارتها ومضمونها بما يتصل به من عمق التعامل مع علم الرجال والدراية وغيرهما أسهل من

فهم آية تتكلّم عن (التوحيد) الذي هو أهم أصل في الدين!!

وأمست البحوث العلمية الدينية ترتكز على القواعد الأصولية والكلامية والمنطقية والفلسفية أكثر مما ترتكز على آيات الكتاب العزيز، بحيث غدا ورود آية فيها يثير الغرابة والدهشة، ويأتي - غالباً - ضمن التأييد والاستئناس، لا ضمن التأسيس الذي تُشاد عليه دعائم بناء النظرية والفكرة، أو ضمن الاستدلال الذي يثبت صحتها وسلامتها!!

ولا نريد أن نقول: إنّ الساحة المعرفية خلت مطلقاً من المحاولات المعرفية لابتكار مناهج لسبر النصّ القرآني، ولكنّنا نريد أن نقول: إنّها يسيرة جداً، وبحالة شديدة من البطء، والبعد عن التطوير، والافتقار إلى إنزالها لعالم التطبيق والممارسة.

فقد انصبّ الاهتمام في الدرس والتفسير والتأليف القرآني على الجانب الموضعي التجزيئي التحليلي، وسيطرت التفسيرات الآخذة بهذا اللون التفسيري على مساحة زمنية طويلة من عمر الأمة الإسلامية تصل إلى ثلاثة عشر قرناً.

ولم تبدأ بذرة الدرس والتفسير والتأليف الموضوعي في القرآن الكريم إلا مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، متزامنة مع جهود السيّد جمال الدين الأفغاني في (المقالات التفسيرية) التي ازدانت بها مجلة (العروة الوثقى)، ثمّ فيما تلاها من جهود الشيخ محمد عبده، وما كتبه من مقالات تفسيرية، وما سنّه من منهج تفسيري يجمع بين معطيات المنهجين التحليلي والموضوعي معاً، تلك الخطوة التي انبثقت منها وسارت عليها (مدرسة المنار) التي اقتحمت بجهودها الموضوعية القرن العشرين، بحيث عُدّ هذا القرن عصر ميلاد التفسير الموضوعي القرآني.

وقد واصلت (مدرسة المنار) بجهودها المشوار، وراكمت عطاءاتها بحيث خلقت تموّجات كثيرة دراسية وتفسيرية وتأليفية في الحقل الموضوعي، وقد تلقف الأستاذ أمين الخولي وزوجته عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) الأسس من مدرسة المنار، وأشادا عليها بناء (مدرسة الأمناء).

وشهدت فترة السبعينات الميلادية من هذا القرن وما بعدها بزوغ شيء من الدراسات والكتابات القرآنية الموضوعية في العالم الإسلامي عموماً، ومزيداً من العناية بالدرس القرآني:

فقد دخل درس التفسير الموضوعي إلى العديد من الجامعات في العالمين العربي والإسلامي، وحلّ درساً رسمياً يتعاطاه بعض طلابها، لاسيما في حقل العلوم الشرعية،

ومن هذا ما شـهدته بعض جامعات المملكة العربية السعودية كجامعة الملك سعود، وما شهدته الجمهورية الإسلامية في إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية فيها.

كما دأبت حوزة الإمام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف – ومنذ فجر انطلاقتها الأولى أواخر السبعينات الميلاديـة في إيران – علـى الاهتمام بنوعي التدبر (الموضعـي التحليلي) و(الموضوعي التوحيدي)، وإحلالهما درسين أساسيين يتعاطاهما طلابها من لدن اليوم الأول.

وإلى جانب دخول التفسـير الموضوعي درسـاً في الجامعات والحوزات صدرت العديـد مـن الكتب في هـذا الميدان تصبّ فـي جانب التنظيـر أو التطبيـق، أو فيهما معاً، ومنها:

١ – المدرسة القرآنية، للسيّد الشهيد محمد باقر الصدر.

٢ – مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور مصطفى مسلم.

٣– التفسـير الموضوعـي بيـن النظريـة والتطبيـق، للدكتـور صـلاح عبـد الفتـاح الخالدي.

٤ – التفسير الموضوعي، للدكتور عمر عبد الله العيص.

٥ – التفسير الموضوعي: نظرية وتطبيقاً، للدكتور أحمد عثمان رحماني.

٦ – مفاهيم القرآن، للشيخ جعفر السبحاني.

٧– نفحات القرآن، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

كما صدرت مجلات قرآنية متخصّصة، منها: (المعارج)، و(القرآن نور)، ومجلات تعنى بالدراسات القرآنية كمجلة (البصائر).

وضمـن الفعاليات التـي يقوم بها (ملتقى سـحر البيان الكتابـي بالعوّامية) كان لنـا أن قدّمنا مجموعة من الـدروس في (التدبر الموضعي في القـرآن الكريم) أُلقيت فـي عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ثمّ مجموعة أخرى في (التدبـر الموضوعي في القرآن الكريم) في ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، سـعينا فيها – إلى جانب دراسـة التدبر الموضوعي بشـكل عـام – إلـى أن نصـل إلى (منهـج عملي) يسـاعد الراغـب في القيام بدراسـة تطبيقيـة لأمر ما.. يندرج ضمن مجـالات التدبر الموضوعي، كأن يدرس (موضوعاً) أو (مصطلحـاً) فـي القرآن الكريـم؛ عبر العناية بالخطـوات التطبيقيـة العامة لمناهج التدبر الموضوعي، والعناية بالوسـائل والطـرق والكيفيات التنفيذية التفصيلية ضمن

الخطوات نفسها، وتقديم نماذج تطبيقية لمجالات التدبر، مستفيدين من الكتب السالفة الذكر وغيرها..

وقد ارتأى الأصدقاء الأعزاء في الملتقى كتابة تلك الدروس وإخراجها في كتاب، فبذل الإخوة الكرام (عبد العزيز حسن آل زايد، ومحمد حسن آل زايد، وموسى سعيد البحارنة) الجهد الوافر في تدوينها وتعديلها، كما بذلوا سعيهم في جعلها على شكل دروس، ورفدها بإضاءات إثرائية للمستزيد، ووضع أسئلة في ختام كلّ درس منها.

وقد حبّذ الإخوة الكرام تسمية الأسئلة التي تلي كلّ درس بـ(تأمُّل)، بدلاً من (الأسئلة)، والإشارة لها - اختصاراً - برمز (ت) الذي يعني (تأمُّل)، بدلاً من (س) التي تعني (سؤال) بمناخها المدرسي الصارم، كما حبّذوا أن تكون التأملات بصيغة يخاطب بها المتلقي نفسه (أضعُ/ أذكرُ/ أربطُ/ أجري/ أستخرجُ/ أقارنُ، و....)؛ وإذا غاب هذا الأسلوب حلّ مكانه أسلوب آخر يشترك فيه الجميع في ضمير الجمع المتكلم: (ما هو رأينا/ أيّ نوعٍ نرتئي/ هل نكتفي)، أو تلك العبارات المحايدة التي لا يظهر فيها طرف بوصفه سائلاً وآخر بوصفه مسؤولاً: (ما هو أول/ ما المقصود/ ما هي التطبيقات/ ما الفرق/ هل يعتبر)، كلّ ذلك فراراً من أسلوب الفرض والأمر، وما يشعر به من عُلوية وخطابية. وتلك أساليب تربوية حديثة لجأتْ إليها - في الآونة الأخيرة - بعض المناهج الدراسية.

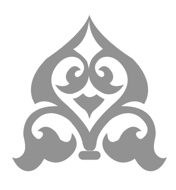
فلأخوتنا الكرام جزيل الشكر، وفائق الامتنان على كلّ ما قاموا به من جهد عظيم واعٍ، وإبداع سامٍ، وجعله الله تعالى في ميزان حسناتهم يوم القيامة، ومنّ عليهم بمواصلة العطاء القرآني، وإثراء المكتبة الإسلامية بوافر إنتاجهم.

كما نرفع خالص الشكر وأعبق العرفان لسماحة السيّد جعفر حسين العلوي (السعودية/ القطيف/ صفوى)، ولسماحة الشيخ سمير علي الربح (السعودية/ القطيف/ العوامية)؛ على ما أتحفانا به من رؤى ومعلومات ونقد علمي موضوعي لمسودة هذا الكتاب، كان لها جميعاً بالغ الأثر في تعميق هذه الدروس وتقويمها.

وفي الختام.. فإنّا لا نعدّ دراستنا هذه سوى محاولة في طريق الوصول إلى منهج موضوعي للتدبر، لها ما للتجارب الأولى من احتمالات الإصابة والتعثر، قد يتسنى لنا أو لغيرنا - في خطوات تالية - إنضاجها ورفدها بمستوى أشمل وأعمق في سبيل خدمة القرآن والدرس القرآني وإحلالهما في حياتنا، وفي سبيل الاقتباس المعرفي والاستلهام

العملي من كتاب الله، لاسيما في مجال تقديم (دراسات) و(موضوعات) تعتمد القرآن الكريم ورؤاه، عسى أن يأخذ الله بأيدينا لإعادة كتابه المجيد دستوراً خالداً للحياة، إنّه ولي التوفيق، وبه المستعان.

١/ ٩/ ١٤٢٧هـ
٢٤/ ٩/ ٢٠٠٦م
علي علي آل موسى
المملكة العربية السعودية
القطيف - العوّامية



الفصل الأول



مقدمات تمهيدية في التدبر والتفسير



- التفسير والتدبر.
- ضرورة التدبر في القرآن الكريم.
- كيف فُهِم القرآن الكريم؟
- مناهج تفسير القرآن الكريم.
- أنواع التفسير القرآني.



التفسير والتدبر

التفسير:

تأتي مفردة (التفسير) – في مدلولها اللغوي – بمعنى: «الإبانة»، و «كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل»[١].

فهو عملية إظهار وإبراز للمداليل القرآنية، وكشف للمعاني القرآنية المخبوءة في الألفاظ، وتوضيح مراد الألفاظ لاسيما مشكِلة الفهم أو صعبة الفهم.

أما عن المقصود بتفسير القرآن الكريم في الاصطلاح:

١ – فقد عرفه الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله) بأنّه: «علم يُعرف به فهم كتابُ الله المنزل على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم –، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه. واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[٢].

فالتفسير (علم)، وليس مجرّد نظرية أو منهج، وموضوعه القرآن الكريم، ويستهدف فهمه وبيان معانيه وأحكامه وحِكَمه؛ لكشف مراد الله تعالى فيه، وتنصرف كلمة (معانيه) – غالباً – إلى ما تكتنزه الألفاظ من مداليل وأفكار ورؤى، بينما تنصرف كلمة (أحكامه) – غالباً – إلى الجانب التشريعي منه، وكلمة (حِكَمه) إلى الجانب الأخلاقي، وعليه فالتفسير علم شامل يستهدف إبراز مراد الله والمحتوى القرآني سواء أعاد للأفكار

(١) ابن منظور، لسان العرب ١٠/ ٢٦١، مادة: (فسر).

(٢) محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: الدكتور زكي محمد أبو سريع ١/ ٤١.

والرؤى أم للتشريعات والأحكام، أم للأخلاق والقيم.

وهو وسيلة ومنهج لبيان القرآن (علم) وليس غاية في نفسه، ويقرّ - سلفاً - بإمكان فهـم القـرآن الكريم، وأنّـه ليس كتابـاً مسـتغلقاً لا تُعرف مفاداتـه، أو أنّهـا مقصورة على المعصـوم، وأنّ ألفاظـه تحمل مرادات حقيقيـة للخالق - جلّ وعـلا - يريدها منها، وأنّ ألفاظه ليست مخادعة مخاتلة لا تكشف المعنى المراد من خلفها!!

وهناك أدوات وعلوم تعين عليه، منها: علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ومعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغيرها..

وقريب من هذا التعريف ما ذكره السيّد محمد حسين الطباطبائي بأنّه: «بيان معاني الآيات القرآنية، والكشف عن مقاصدها»[١].

٢- وقـد عرّفه أبو حيان الأندلسـي (محمد بن يوسـف بن علـي) بأنّه «علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحْمَل عليها حالة التركيب وتتمّات لذلك»[٢].

وهذا التعريف لا يقصر علم التفسـير على (كشف المحتوى والمضمون القرآني)، بل يدخل بعض الأمور المتصلة بجانب (الشـكل) - أيضاً -، ومنها: (كيفية النطق بألفاظ القرآن)، التي تجتلب بعض الأمور من علم التجويد أو القراءات؛ لما لبعض ذلك من أثر في المعنى لاسيما المتصل باختلاف القراءات.

كما يشـير إلى إمكان وجود فروق في المعنى بين الحالة الإفرادية للفظ التي يُلتقط فيها منزوعاً من التركيب والسـياق، وبين المعنى في الحالة التركيبية التي يتخذ فيها اللفظ مكانه ضمن بنية جملة وتركيب وسياق، فقد يحدد السياق أنّ المعنى المختزن في اللفظة يُحمل على المعنى الحقيقي في مورد ما..، وعلى المعنى المجازي في مورد آخر.

٣- وقد عرفه محمد الطاهر بن عاشـور بأنّه: «العلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يُستفاد منها، باختصار أو توسع»[٣].

ومما يضيفه هذا التعريف أنّ للتفسير أنواعاً، منها ما يبحث ذلك باختصار وإيجاز، وما يبحثه بتوسع وتفصيل.

---

(١) السيّد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ١/ ٤.
(٢) مناع خليل القطان، مباحث في علوم القرآن/ ٣٢٤.
(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ١/ ١١.

٤- وقد عرفه الدكتور صلاح الخالدي بأنّه «علم يتم به فهم القرآن، وبيان معانيه، والكشف عن أحكامه، وإزالة الإشكال والغموض عن آياته»[١].

ومما يضيفه هذا التعريف أنّ من بين غايات التفسير إزالة الإشكال والغموض عن آيات الذكر الحكيم، فهناك إشكالات تعلق لدى البعض، وإشكالات أحدثها آخرون على القرآن، وهناك غموض في بعض الألفاظ والتراكيب نتيجة بُعدنا عن العربية، وعدم أنسنا باستعمالاتها، ومدى المحصول اللغوي لدينا، وينعكس ذلك الغموض - تبعاً - من الألفاظ والتراكيب إلى المعاني المستترة وراءها؛ لأنّ (الألفاظ قنطرة المعاني).

٥- ولعلّ أبرز تعريف لتفسير القرآن الكريم هو أنّه: «علم يبحث في كتاب الله؛ ليعرف مراده»[٢].

ومما يجلّيه هذا التعريف أنّ موضوع التفسير: كتاب الله، وليس

(١) الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق/ ١٤.
(٢) أحمد عثمان رحماني، مناهج التفسير الموضوعي، وعلاقتها بالتفسير الشفاهي/ ١.



المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي

المعنى الإفرادي هو: المعنى الذي تتخذه الكلمة حال انفرادها عن السياق، ككلمة (أسد) التي تدلّ على الحيوان المفترس المعروف. ويُسمَّى هذا المعنى - كذلك - بـ (المعنى المعجمي)؛ لأنّه مدوّن في المعاجم والقواميس اللغوية، كما يُسمَّى (الإجراء بالمعنى التصوري)؛ لأنّه المعنى المفهومي العام الشامل الذي يُتصوّر ويُدرك من الألفاظ.

أما المعنى التركيبي فهو: المعنى الذي تتخذه الكلمة ضمن تركيب الجملة، فـ (أسد)، معناها منفردة هو الحيوان المعروف، ولكن لو قلنا: (رأيتُ أسداً في حديقة الحيوان)، (رأيتُ أسداً يخطب على المنبر)، فإنّ السياق الذي وردت فيه كلمة (أسد) يؤثر في إعطائها معنى دون غيره، فهي في المثال الأول الحيوان المعروف، لكنّها في المثال الثاني بمعنى (الشجاع). ويسمّى هذا المعنى - كذلك - بـ(المعنى السياقي)؛ لأنّ الذي يحدده هو سياق الجملة، و(المعنى الجُمَلي)؛ لأنّ الجملة هي التي تحدده، لا الكلمة المفردة غير المسيّجة بالجملة، و(الإجراء بالمعنى التصديقي)؛ لأنّه المعنى التطبيقي الذي يشكل المصداق للكلمة، وهو مصداق محدد للكلمة، وليس عرضاً لجميع المحتملات منها كما يتمّ في المعنى المفهومي التصوري.

السنة المباركة أو الأصول أو قواعد النحو، وهدفه: معرفة مراد الله - سبحانه وتعالى - من كلامه في الآيات الشريفة.

أدوات المفسِّر:

والقيام بعملية التفسير تحتاج إلى التسلح بمجموعة من العلوم، أوصلها جلال الدين السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) إلى خمسة عشر علماً هي: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، والبيان، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وعلم الفقه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والحديث والسنن، والموهبة[١].

فالتفسير عملية لا يتمكن من القيام بها إلا من لديه ضوابط معيارية معيْنة؛ لذا كان على مرّ الزمن تقوم به قلة من العلماء ذوي الاهتمام، فشروط المفسِّر لا توجد في كلّ الناس ولا في أغلبهم، وإنّما في قلة قليلة منهم.

ونظراً لحاجة التفسير إلى الضوابط العالية والعلم الرفيع جاءت أحاديث تذمّ من يخوض فيه بغير علم، فقال الله - سبحانه وتعالى - في حديث قدسي: «ما آمن بي من فسَّر برأيه كلامي»[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «أكثر ما أخاف على أمتي من بعدي رجل يناول القرآن يضعه على غير مواضعه»[٣]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يُؤجر، وإن أخطأ كان إثمه عليه»[٤].

التدبر:

حين نريد التعرّف على المعنى اللغوي الذي تبسطه كلمة (التدبر)، نجد أنّها تحمل معاني واسعة تعود في جذرها إلى التفكر والتأمل.

فقد ذكر ابن منظور (محمد بن مكرّم) في (لسان العرب) أنّ معنى (التدبر في

---

(١) مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الموسوعة العربية العالمية ٧/ ٦٢.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ٨٩/ ١١٠، الباب ١٠، ح ١١.
(٣) نفسه ٨٩/ ١١٢، الباب ١٠، ح ٢٠.
(٤) نفسه ٨٩/ ١٠٧، الباب ١٠، ح ١.

الشيء) هو: «التفكر فيه»[1].

وبهذا يكون معنى التدبر في القرآن: التفكر فيه ومعرفة معانيه ومراداته.

ورأى الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) في (القاموس المحيط) أنّ (التدبر) هو: «النظر في عاقبة الأمر، ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ**﴾[2]، أي ألم يتفهموا ما خوطبوا به في القرآن»[3].

وعلى هذا التوضيح يكون معنى التدبر في القرآن: معرفة عواقب الأمور من لزوم العمل بمفاد الآيات ونتائجها.

وقريب منه ما ذكره الطريحي (الشيخ فخر الدين بن محمد) في (مجمع البحرين) من أنّ (التدبر): «هو النظر في إدبار الأمور وتأملها»[4].

ومركز الاهتمام في تعريف ابن منظور من جهة/ وتعريف الفيروزآبادي والطريحي من جهة ثانية فيه شيء من الاختلاف، فالأول يجعل التدبر عملية تسلط الضوء على الشيء ذاته (التفكر فيه)، بينما الآخران يكثفان نقطة الضوء على العاقبة والأوْل والمشارفة وما ينتهي له الأمر (عاقبة الأمر/ إدبار الأمور)، والمعنيان متكاملان، فالتدبر يسلط الضوء على الشيء ليعرفه، ومن ثمّ يعرف عاقبته ومآله، ليستفيد من الأمرين معاً.

فالتدبر إعمال عميق للعقل في القرآن للحصول على الهدي الإلهي، واستخراج الأفكار، وبناء المواقف.

الفرق بين التفسير والتدبر:

حين نقارن بين القيام بعملية (التفسير) وعملية (التدبر) نشهد أنّ الأحاديث حثّت على ألا يخوض غمار التفسير من لم يكن يملك زمام إمكاناته، ومن ثمّ فهو مقصور على فئة خاصة، بينما حثّت الآيات على التدبر للجميع. فقد مرّ بنا قبل قليل الحديث القدسي الذي يغلظ من وخامة التفسير بالرأي، كما مرّ حديث الرسول ﷺ الذي يتخوّف فيه من الذين يخوضون في معاني القرآن، ويصرفونها إلى غير مصارفها الصحيحة، ومرّت

(١) لسان العرب ٤/ ٢٨٣، مادة: (دبر).

(٢) سورة المؤمنون/ ٦٨.

(٣) محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط ٢/ ٤٠، مادة: (دبر).

(٤) الشيخ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين ٣/ ٢٩٨، مادة: (دبر).

رواية الإمام الصادق عليه السلام التي تجعل التفسير بالرأي في حالة صوابه فاقداً للأجر، وفي حالة خطئه حاملاً للوزر.

وعلى الطرف الآخر جاءت الدعوة للتدبر في القرآن وإعمال النظر في آياته ورؤاه موجهة لكلّ الناس: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[1]، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2].

وعادة ما يأتي التفسير شاملاً للقرآن المجيد كاملاً، بينما قد يقتصر التدبر على سورة أو مقطع أو عدة مقاطع أو موضوع من المصحف الشريف.

ومن ثمّ فالعمل الذي نستهدف نحن القيام به هو التدبر، ومحاولة التأمل في آيات الله، واجتناء شيء من ذخائرها الوفيرة، وليس محاولة كتابة تفسير قرآني.

---

(١) سورة النساء/ ٨٢.

(٢) سورة محمد/ ٢٤.

ضرورة التدبر في القرآن الكريم

لقد تقاطرت آيات الله كالغيث الهامي على الأرض، ساعية - بما أُوتيَتْ من سبيل - أن تجعل من الإنسان عموماً وقارئ القرآن خصوصاً قارئاً متأملاً متدبراً يفكّر في الأشياء والأقوال والأفكار والمواقف من حوله، في عملية تستهدف تجاوز القراءة السكونية أو السطحية أو القشرية، وتجاوز الوقوف عند مستوى الفهم النظري، وتسعى لتحريك العقل في استخراج الكنوز المدخرة في آيات القرآن المجيد، والاستفادة العملية منها.

ومن هذا المنطلق يقول الله - تبارك وتعالى -:

- ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١).

وكما حثّ القرآن الكريم على التدبر تحت عنوان (تدبر)، أكّد عليه بعناوين أخرى كالتفكر، والتذكر والتفقه:

- ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).
- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٣).
- ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(٤).

كما حثت السنة المباركة على التدبر في القرآن، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا لا

(١) سورة ص/ ٢٩.
(٢) سورة النحل/ ٤٤.
(٣) سورة الزمر/ ٢٧.
(٤) سورة الأنعام/ ٩٨.

خير في قراءة ليس فيها تدبر»[١].

وهذا ما ينشئ سؤالاً ملحّاً هو: لماذا نتدبر في القرآن الكريم؟، ما أهمية التدبر في القرآن الكريم؟

لماذا نتدبر في القرآن الكريم؟

نستطيع إجمال الإجابة في ثلاثة أهداف رئيسة، هي:

١- الهداية والبصيرة (الإيمان والتقوى):

وهي المحطة الأبرز والزاوية القائمة في مثلث أهداف التدبر، فالمهمة الأولى للقرآن هي إعادة صياغة شخصية الإنسان، والارتقاء به من الطين إلى الدين، ومن الصنمية إلى القيمية، وتربية نفسه والسمو بها لئلا يكتفي برغبات الجسد ويهمل طموحات الروح.

فقد أنزل الله القرآن: ﴿**هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[٢]، فالإنسان هو المعني ابتداء وانتهاء، وإليه تتوجه التصريحات والتلميحات ليعيد صقل ذاته وفقاً للمقاييس الإلهية، أماً عن كيفية معرفة تلك المقاييس فهنا تكمن أهمية التدبر وإعمال النظر في آيات الكتاب العزيز. وهكذا تتوالى الآيات القرآنية لتبيان الأهمية ذاتها، إنّها صبغة الإيمان ووشاح التقوى، وشعلة الهداية، ونفاذ البصيرة: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**﴾[٣]، ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾[٤]، ﴿**هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[٥].

إنَّ تقويم الشخصية الإنسانية وتجذير سدرة الذكرى في النفس هو المغزى الرئيس، إذ هي المزاد لجوع الحيرة وظمأ التيه، وشدّ الإنسان والحياة إلى المصدر العظيم الذي به تكتسب قيمتها وحياتها.. وهو الله – سبحانه وتعالى –، ومن هنا يقول علي عليه السلام:

---

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٢١١، الباب ٢٦، ح ٤.

(٢) سورة البقرة/ ١٨٥.

(٣) سورة طه/ ١١٣.

(٤) سورة الزمر/ ٢٧– ٢٨.

(٥) سورة الجاثية/ ٢٠.

«مـا جالـس هذا القـرآنَ أحدٌ إلا قام عنه بزيـادة أو نقصان: زيادة في هـدى، أو نقصان من عمى»(١).

٢- المعرفة والعلم (الأفكار والرؤى):

وإذا كانـت أحـدى ثمار التدبـر القرآني تكمن في تلوينه شـخصية الإنسـان بطيف الإيمـان، فـإنّ ثمرة أخـرى من ثماره تكمن في إشـادته بنـاء الصرح المعرفـي والرؤيوي وفـق ضوابط العقـل والعلم (الحقّ)، لا الوهـم والخرافة (الباطل)، وفي تأكيده الراسـخ على إعمال العقل والفكر بأقصى طاقة في شـتى الأرجاء؛ ليجعل الإنسـان يسبر أعماقها، ويصل إلى ما يختفي وراءها من أسرار أعمق من مجرّد الظواهر المحسوسة، شاملاً كتابي التكوين والتدوين معاً:

- ﴿إِنَّـا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢)، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣)، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّـاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤). وهذا في إطاره التدويني.

- ﴿إِنَّ فِـي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِـلاَفِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآيَـاتٍ لأُوْلِـي الألْبَابِ﴾(٥)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٦)، ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(٧)، وهذا في الإطار التكويني.

ونلحظ في الآيات السـابقة وغيرها كيف يسـعى القرآن إلى تحريك كلّ سبل العلم والمعرفـة عند الإنسـان، وتنشـيط العقـل والحسّ وأدواتهمـا، فيحث علـى الفهم والفقه والسمع والتذكر والتفكر و....

إنّها اليقظة الفكرية، والروح المعرفية التي تدغدغها الآيات وتستثيرها السور، وكما

(١) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي، ص ٢٥٠، الخطبة ١٧٦.
(٢) سورة يوسف/ ٢.
(٣) سورة النحل/ ٤٤.
(٤) سورة الزمر/ ٢٧.
(٥) سورة آل عمران/ ١٩٠.
(٦) سورة النحل/ ١٢.
(٧) سورة الأنعام/ ٩٨.

قال الرسول الأكرم ﷺ في إشارة إلى الجانب العلمي في الكتاب العزيز: «القرآن مأدبة الله فتعلّموا مأدبته ما استطعتم»[١]، ووضّح ذلك الأمير عليه السلام أيضاً حين قال: «ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»[٢].

فالتدبر يشذب المعرفة البشرية، وينمّق شتات الفكر ويقوِّم اعوجاجه، وقد قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «آيات القرآن خزائن العلم فكلّما فتحتَ خزانة فينبغي أن تنظر فيها»[٣]، ننظر فيها لنقتلع غرس الجهل، ونزرع غرس العلم، لنتوضأ من فيوضات نور العلم الأصيل، ويكون العلم هو الحادي لركبنا، فلا نتخبط في متاهات الجهل، ولا نقبل أن يكون الجهل قائداً لمسيرتنا.

٣- الموقف والعمل (السلوك والتطبيق):

أما الثمرة الثالثة، فإنّ التدبر لا يدفعنا فقط لإصلاح الظاهر وتقويم الباطن، وإنّما يدفع عجلة السلوك البشري نحو اتخاذ الموقف الصحيح، وممارسة العمل والهدف المسؤول، لا أن يبقى تحفة فكرية تعلّق في معرض الأفكار، وإنّما ليكون شلالاً متدفقاً بالعطاء، فكثيراً ما يؤكد الله - سبحانه وتعالى - على ثنائية الإيمان والعمل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٤].

وكثيراً ما يقرن القرآنَ الهادي بالعمل الرشيد، فلنتأمل هذه الآيات التي امتزج فيها هذان اللونان (القرآن/ العمل):

- **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾**[٥].

- **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾**[٦].

---

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ١٩، الباب ١، ح ١٨.
(٢) نهج البلاغة/ ٢٢٣، الخطبة/ ١٥٨.
(٣) بحار الأنوار ٨٩/ ٢١٦، الباب ٢٧، ح ٢٢.
(٤) سورة البقرة/ ٨٢.
(٥) سورة الإسراء/ ٩.
(٦) سورة الكهف/ ١ - ٢.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١].

وبعد أن تبينت الأبعاد الثلاثة الدافعة بنا نحو التدبر في القرآن الكريم ضمن مثلث (الإيمان، العلم، العمل)، نجد أنّه وعلى الطرف المقابل ومن جهة عكسية قد ذمّ الله أولئك الذين لا يتدبرون في القرآن العظيم، ولا يُعملون عقولهم فيه، يعنِّفهم بآيات التوبيخ:

- ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢].

- ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[٣].

- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[٤].

- ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٥].

لعلّ وعسى أن يؤوب القوم للمنهج الذي يسكب الهداية في قوالب العقل، ويحرض جوارح الإنسان نحو الفعل قبل القول.

يقول السيّد محمد تقي المدرسي: «إنّ التدبر في القرآن يعطي للإنسان فرصة لفهم محتوى القرآن الحكيم؛ لأنّ الله – سبحانه وتعالى – أودع في كتابه الكريم نوراً يهدي البشر إلى ربّه فيؤمن به، وبعد الإيمان يطبّق شرائعه»[٦].

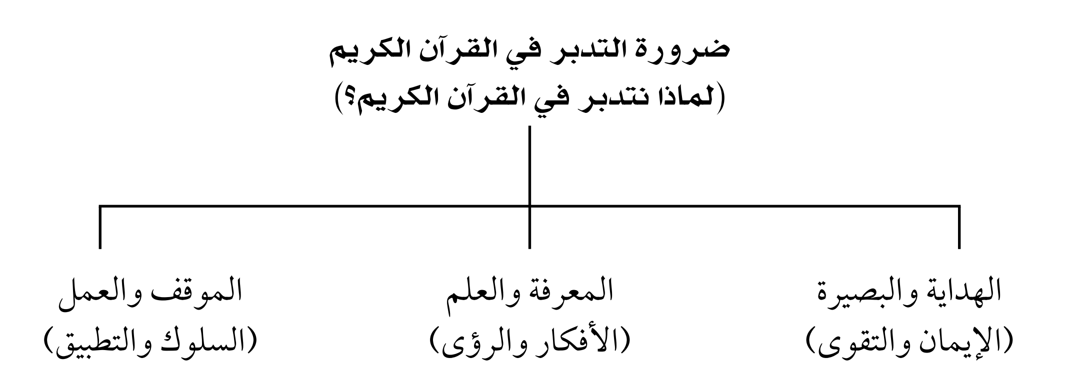
الخلاصة:

نستهدف من خلال عملية التدبر: استلهام الهدى، ونهل العلم، وترشيد الأعمال والمواقف، ومن الطبيعي أن يتباين حجم الاستفادة من الكتاب العزيز، والأمر عائد إلى

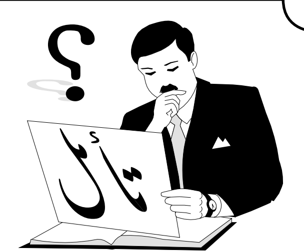
(١) سورة فصّلت/ ٤٠.
(٢) سورة محمد/ ٢٤.
(٣) سورة النساء/ ٨٢.
(٤) سورة الإسراء/ ٤٦.
(٥) سورة الفرقان/ ٣٠.
(٦) السيّد محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن ١/ ٢٥.

أنّـه ﴿سَـالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَـا﴾[1]، لا (بقدره)، فنحن أمام نهر خضم واسـع يغترف فيه كلّ بحسبه هو لا بسعة النهر.

ومع أنّ القرآن يعطي من يسـعى أكثر مما يسـتحق؛ لطبيعة الكرم الإلهي، لكنّه يريد منّا أن نكون نشـطين في فتح أبواب خزائنه؛ لنجتني أكثر فأكثر من جوهره ولؤلؤه، وكلما انفتحنا على القرآن أكثر أعطانا من خيراته أوفر.



(١) سورة الرعد/ ١٧.



ت١: أضع علامــة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ - التدبـر هو: إعمـال عميق للعقل في القـرآن للحصول على الهدي الإلهي، واستخراج الأفكار، وبناء المواقف. ( )

ب - حثـت الروايـات الجميع على تفسـير القـرآن، بينما قصرت التدبـر فيه على فئة خاصة. ( )

ج - الفرق الوحيد بين التدبر والتفسـير هو فيمن يقوم بإجراء العملية، لا في الطريقة والكيفية. ( )

ت٢: يرى السيوطي أنّ المفسّر يحتاج إلى ١٥ علماً ليقوم بعملية التفسير، فهل نكتفي بما ذكر أم أنّ المفسّر اليوم بحاجة للاطلاع على علوم أخرى ربّما منها بعض فروع العلم الحديثة؟

ت٣: هل كلّ تفسير تدبر، أم كلّ تدبر تفسير، أم لا ذا ولا ذاك؟

ت٤: نستطيع القول: إنّ للتدبر ثلاثة أهداف رئيسة، فما هي؟



كيف فُهم القرآن الكريم؟

حين نراجع حياة المسلمين نجد أنّ هناك أربعة أشكال أساسية لفهم القرآن الكريم ظهرت في التطبيق الفعلي عندهم، هي:

أولاً: الفهم التجريدي.
ثانياً: الفهم التاريخي.
ثالثاً: الفهم المصلحي.
رابعاً: الفهم الحيوي.

أولاً: الفهم التجريدي:

نقصـد بـ(الفهم التجريدي): ذلك الفهم النظري للقرآن، الذي يتعامل مع مفاهيمه بوصفها أفكاراً فحسب، فيفصل المفاهيم عن عالم الواقع والفعل والعمل، ويربطها بعالم الغيب[1].

فهو يرتكز على العناصر التالية:

١- التعامل النظري مع المفاهيم القرآنية.
٢- فصل المفاهيم القرآنية عن الواقع والفعل.
٣- ربط المفاهيم القرآنية بعالم الغيب.

فهو يجعل كلّ شـيء مجرّد (طرح فكري)، لا يسـتهدف أن يحمّل الإنسان مسؤولية، ولا أن يبعثـه نحـو نشـاط في حياته الفرديـة والاجتماعية، ولا أن يحرّكه للقيـام بدور التغيير للواقع الفاسـد من حوله، والرقي بالواقع الصالح، ويخلي الأشياء من ربطها بعالم الأسباب

(١) السيّد محمد رضا الشيرازي، التدبر في القرآن/ ١٣٩.

الشـهودية ويوكلهـا بالغيب وحـده؛ حتى يخلص من التسـاؤلات الملحة فـي داخله، والتي تضجّ وتقول: (وماذا بعد؟!)، (ما العمل؟)، (ما هي مسـؤوليتنا؟)، (ما هو دورنا؟)، فيزرّقها بإبر مخدرة تقول لها: (إنّ الأمر ليس إلا طروحات علمية مفاهيمية مشرقة).

ففـي قوله تعالـى: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَـنُ الرَّحِيمُ**﴾[١]، يُلاحظ الفهم التجريدي أنّ الآية الكريمة تتكلم عن الألوهية والوحدانية لله – عزّ وجلّ –، ويجد هـذا الفهم الفرصة مؤاتية هنا ليدخل في بحث الفرق بين معنى (الألوهية) و(الوحدانية)، وأدلـة وحدانيـة الله، ومعنـى الوحدانية، وأنواع التوحيـد، ثمّ معنى (الرحمـة الرحمانية) و(الرحمـة الرحيميـة)، ودلالـة القصر في حصـر الألوهية الحقة في اللـه، وربّما ينفذ من خـلال التعبيـر عن الله بـ(هـو)؛ ليبحث موضوع المطلـق اللامتناهي (اللـه)، والمحدود المتناهي (الخلق)، والفرق بين المطلق والمحدود، والعلاقة بينهما، و....

إنّها فرصة لتسطير بحوث عقدية وفلسفية واسعة.

وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿**وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾[٢]، فمن خلال هذه الآية الكريمة يدخل الفهم التجريدي إلى بحوث نظرية حول: الله والذات الإلهية، ومعنى الإرادة الإلهية وأنواعها، ومفهوم الظلم، ومعنى (العالمين)، وأدلة العدل الإلهي.

وهكـذا.. يتحوّل فهمنا للآية لمجرد فهم عقـدي تجريدي بدلاً من أن نفهم أنّ الله عـادل، وأنّ عدلـه غير مقصور على الآخـرة والماورائيات (الميتافيزيقيـا)، بل يمتدّ عدله ليشمل أقسام العدالة التالية:

أ- العدالة الكونية:

فالكون من الذرة إلى المجرة يرفل في بحبوحة العدل الإلهي، فالله هو الذي خلقه، ووفر له متطلباته المنسجمة معه، وجعله يسير وفق نظام دقيق حكيم عادل: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[٣]، ﴿**وَكُلُّ شَـيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾[٤]، ﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة/ ١٦٣.
(٢) سورة آل عمران/ ١٠٨.
(٣) سورة القمر/ ٤٩.
(٤) سورة الرعد/ ٨.
(٥) سورة الحجر/ ١٩.

ب- العدالة التشريعية:

فقد سنّ الله تشريعات وأحكاماً سمحة عادلة، فلم يكلّف فيها النفس فوق طاقتها ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[١]، وجعلها تدور مع مصالح الإنسان ومضاره، واختياره واضطراره، وصحته وسقمه، وحضره وسفره، وغير ذلك، فإذا حصل ظرف للإنسان (كالمرض والسفر) اقتضى التيسير عليه في عبادته، فأجاز له أن يصلي بالكيفية التي يستطيع، وأن يقصّر من الصلاة، وأن يفطر.

ج- العدالة الاجتماعية:

من عدل الله أن ينال كلٌّ جزاء عمله، ومن يأخذ بالأسباب يصل إلى تحقيق النتائج المترتبة، فإذا تركنا - نحن المسلمين - أسباب التقدّم سيلفنا التأخر بردائه، ويفوتنا ركب الفاعلية، ونعيش على هامش الحياة، ونصبح أُكلة بيد الطامعين حتى لو ترنّمت ألسنتنا آلاف الحقب بنغمة التوحيد، ولهجت بالدعاء والزفرات، فالله تعالى وضع قوانين عادلة يؤطرها قوله السّنني: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٢]، ففي الدنيا لا يوجد حظر على أحد - مسلماً كان أم كافراً - يمنعه من جني ثمرة أخذه بالأسباب، ولا حيلولة دون امتلاكه سبل التقانة والقوة ما دام نشطاً مثابراً.

د - العدالة الجزائية:

ولا تنتهي العدالة الإلهية عند هذه المنعطفات الدقيقة، بل تتجاوزها وتصل إلى العدالة الجزائية التي نراها من إكرام المحسن والثناء عليه، وتوبيخ المسيء وتقديم العقاب الرادع له ولأمثاله، وبالتالي تشمل علو شخصية المحسن، وتدني شخصية المسيء عند الناس في دار الدنيا؛ فنجد أنّ القلوب تتلفع بجلباب الكره لفعله السيء، وأنّ بيعه وتجارته ومعاملاته تكسد وتبور.

وهذا الثواب الذي يناله المحسن، والعقاب الذي يناله المسيء ليس مقصوراً على الآخرة، بل هو في الدنيا أيضاً، فيثني الناس على المحسن، ويرغبون في التعامل معه،

(١) سورة البقرة/ ٢٨٦.

(٢) سورة الإسراء/ ٢٠.

ويذمّـون المسـيء ويصدون عن التعامـل معه، وقد يلقى من العقاب مـا هو أكبر من ذلك كالسجن أو الحدّ[1].

- ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إلا الإحْسَانُ﴾[2].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[3].

- ﴿وَجَـزَاء سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِّثْلُهَـا فَمَـنْ عَفَـا وَأَصْلَـحَ فَأَجْـرُهُ عَلَـى اللَّـهِ إِنَّـهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[4].

- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[5].

ومـن هـذه العدالـة الجزائية ما يلقاه المكتشـفون والمبدعون – حتى لـو لم يفعلوا ذلـك لوجـه الله – فهم يلقون ثمرة جهدهـم من مدح الناس، والثنـاء العطر عليهم وعلى جهودهـم، وتخليـد أسـمائهم في سـجلات المبدعين، وتصـدّر أسـمائهم وصورهم في الجرائد والمجلات وشاشـات التلفاز وفي الموسـوعات المعرفية – كموسوعة (غينس) للأرقام –، ونيل براءات الاختراع، أو الحصول على (جائزة نوبل).

وهذا الفهم الواسـع للعدالـة يجعلنا نقيم أعمالنا وفقاً لهـذه الضابطة، فلا نظلم ولا نجـور؛ لأنّنـا نسـعى للتخلق بأخلاق اللـه في أنفسـنا وفي الناس مـن حولنا وفي الوجـود – حتى المادي منه –، فالعدل في التعامل مـع الطبيعة يحفظها لنا وللأجيال، والجور عليها من شأنه أن يؤثر في النظم الطبيعية والكونية بما يجلب الفساد والضرر؛ لأنّ اللـه جعـل الطبيعة قائمة علـى ميزان ومقـدار، والعبث فيها يشـكل خلخلة لتلك النظم والموازين.

وهكـذا نجد أنّ الفهـم التجريدي يجعل القرآن «كتاب موت.. بدل أن يكون كتاب حياة، فالقرآن لا يعني بالنسبة إلى حياة هؤلاء شيئاً، إنّه مجموعة من القضايا الميتافيزيقية.. والقصص التاريخية.. والطقوس العبادية..»[6].

---

(١) التدبر في القرآن/ ١٤٢– ١٤٣.
(٢) سورة الرحمن/ ٦٠.
(٣) سورة مريم/ ٩٦.
(٤) سورة الشورى/ ٤٠.
(٥) سورة الزلزلة/ ٧– ٨.
(٦) التدبر في القرآن/ ١٣٥.

ثانياً: الفهم التاريخي:

وهـو الفهم الـذي يتلقى قصص القرآن الكريـم بوصفها أحداثـاً ووقائع تاريخية.. الهـدف منهـا ذاتهـا، وبوصفها ترتبـط بذوات خاصـة وأفراد معينيـن، أي أنّـه لا ينفذ من القصص إلى العبر الكامنة وراءها، ولا يعتبرها (رمزاً) و(نموذجاً) حياً يتكرّر في كلّ زمان ومكان[1]، ويفسّر القرآن تفسيراً ظرفياً وفق معطيات زمان نزوله.

وهذا يعني توفر عنصرين أساسيين فيه:

- التركيز القصصي.
- التفسير الظرفي.

- الفهم التاريخي والتركيز القصصي:

بما أنّ القصص القرآنية تشكّل ما يقرب من ثلث القرآن الكريم، فقد اندفع البعض إلى الاهتمام بها من منحى شكلي خالص، فانصبّ هذا الفهم للقرآن على البُعد التاريخي المحضّ ليحيلها إلى فنّ سـردي يتكئ على إتقان الحبكة والحدث والشـخوص والزمان والمكان وغيرها من تقانات السـرد القصصي، دون أن يسعى لاستلهام العبرة من القصة، واسـتخراج الـدروس المفيـدة لحياة الفـرد والجمـع والمجتمـع، أو عقـد مقارنات بين الماضـي والحاضر، أو إيجاد مصاديق أخرى مماثلة للشـخصية التـي يحكي عنها القرآن الكريم، أو إيجاد مصاديق مستجدة للحدث الذي تعرضه الآيات.

ولا يكتفي البعض باستغلال القصص القرآنية في سبيل إيجاد قراءة تاريخية للقرآن، وإنّما يسـتغل أسـباب النزول - أيضاً - وفي شـأن ماذا هبطت الآيات؟، وما هو السبب؟، ومَن بطل حادثتها؟، وهكذا دواليك..

هواة الفهم التاريخي يستغلون القرآن في جانبين:

الأول: القصص القرآنية.

الثاني: أسباب نزول الآيات.

وبعبارة أخرى يحيل هذا الفهمُ القرآنَ الكريم إلى كتاب (تراث) وإلى قراءة تراثية، لا شأن لها بـ(المعاصرة) و(الحداثة)، ولا بالواقع والعصر.

---

(١) نفسه/ ١٤٤.

وهذا النوع من الفهم الذي يزجّ بالقرآن في معترك التاريخ وقضبان الحوادث يمتاز بمميزات، منها:

١- القصص القرآنية مجرّدة:

فالفهم التاريخي للقرآن يفصل القشور عن الجوهر، ثمّ يعكف في دراسته على القشور، فإذا جاء إلى قصة نبي الله نوح عليه السلام مع ابنه حوّلها إلى مشاهد درامية جوفاء، تُعرَض لنا لمجرد التسلية ومتابعة المجريات، أما أن نقرأ تلك القصة بعين العبر أو نقلّب أحداثها بيد المسؤولية فذلك ما لا نجده في مثل هذا الفهم (الحكويّ!)؛ إذ إنّ المهم هو أن تبصر كيف حاول ابن نوح عليه السلام أن يتسلق الجبل فراراً، ويقفز فوق الصخور هرباً، غير أنّ الموج العاتي ابتلعه بلا رحمة، وهل كان ابنه أم ابن زوجته من بعل قبله؟!، وأين ذاك الجبل؟!

هذه هي المعاني المكتنزة عندهم في قوله تعالى: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾[١].

٢- القصص القرآنية مقيّدة:

حيث يتمّ تضييق أفق القصة بحصرها في الأشخاص المحددين الذين وقعت معهم، والوقائع المباشرة التي حصلت، دون الخروج بمصاديق خارجية لتلك الأشخاص يجعلنا نراهم ماثلين أمامنا وإن تغيّر الزمان والمكان، أو إيجاد نماذج توازيها في الواقع المعيش اليوم، ودون وضع أحداث موازية لها تجري في واقعنا الحاضر.

فـ(نمرود) هو طاغية متجبِّر توفي واضمحل ولا نمرود بيننا اليوم!، تلك هي القراءة الموادعة للواقع والتي لن تنجب (إبراهيم) أبداً!؛ لأنّ إبراهيم هو الآخر اسم يدلّ على نبي مات، إنّها فهم مقلوب لمراد القرآن في عرضه لقصصه، فالله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[٢]، و(العِبرة والعَبرة والعُبور) كلّها مفردات مشتقة من التجاوز، أي أن لا يقف الإنسان عندها، وإنّما يتجاوزها لما وراءها

---

(١) سورة هود/ ٤٢- ٤٣.

(٢) سورة يوسف/ ١١١.

مـن أمر أهمّ؛ لذا كان علينا ألا نتحنّط في تلك الشـخصيات والأحداث المذكورة حرفياً، بـل نتجاوزهـا إلى كلّ نمرود خارجـي وإن اختبأ وراء قناع مزركـش زاه، وإلى كلّ حدث مشابه ولو فصله عن الماضي مئات القرون.

إنّ الروايـات الـواردة عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد علـى أنّ القصص القرآني نماذج سـتتكرر عبـر الزمن بلبـاس أو آخر، وتؤكد علـى أنّه لو كانـت الآية تنزل لتشـير إلى قبح شـخص بعينه وحسـب فإنّه بموت ذلك الشـخص سـتموت الآية معه، غيـر أنّ القرآن له ظاهر وباطن، ظاهره (نمرود) التاريخي، وباطنه كلّ طاغ متجبّر وإن اختلف الزمان، وهو بذلك يشـمل (يزيد، ومسـلم بن عقبة، والحجاج، وهتلر، وسـتالين، وصدام) على سبيل المثال.

يقـول الإمـام الباقـر عليه السلام: «نزل القـرآن أثلاثاً: ثلث فينـا وفي أحبّائنـا، وثلث في أعدائنـا وعـدوّ مَـن كان قِبَلَنـا، وثلث سـنة ومثل، ولـو أنّ الآية إذا نزلت في قـوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية؛ لما بقي من القرآن شيء، ولكنّ القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض، ولكلّ قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شرّ»[1].

لذا مضى أهل البيت عليهم السلام يطبّقون على الآية الواحدة أكثر من مصداق، وأكثر من شـخص، فحينما تأتي آية مادحة (الذين آمنوا) قد تشـير رواية بأنّ المقصود بها هو الإمام علـي عليه السلام، ولكن لا غرابـة إن وجدنا في رواية أخرى أنّها تعني الأئمة عليهم السلام بأجمعهم، بينمـا قد نجـد في رواية ثالثة أنّهـم كلّ المؤمنين المخلصين في سـبيل القيـم على امتداد الأعوام.. وكلّ تلك المصاديق استُنتِجت من آية واحدة تتحدث عن (الذين آمنوا).

ومـن هذا مـا يرويه جابر بـن يزيد الجعفي قال: «سـألتُ أبا جعفـر [الباقر] – عليه السـلام – عن شيء من التفسير فأجابني، ثمّ سألته عنه ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلتُ: جعلـتُ فـداك، كنتَ أجبتني في هذه المسـألة بجواب غير هذا قبل هـذا اليوم؟!، فقال: يا جابر، إنّ للقرآن بطناً، وللبطن بطن، وله ظهر، وللظهر ظهر»[2].

٣ـ الافتراء عنصر التشويق:

في سـبيل الحصول على عنصر التشويق والإثارة والإمساك بزمام لبّ القارئ يلجأ بعض روّاد الفهم التاريخي من المفسّرين إلى مجموعة من الأمور، أهمها:

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ١١٥، الباب ١٢، ح ٤.
(٢) نفسه ٨٩/ ٩١، الباب ٨، ح ٣٧.

أ- الأسطرة:

فهم يعمدون إلى تكديس الخرافات والأساطير (الميثولوجيا)، التي يتكئ القسط الأكبر منها على الروايات الإسرائيلية، حتى أصبحت بعض الصفحات التفسيرية أشبه ما تكون بحكايات (ملحمة جلجامش) و(الإلياذة) و(الأوديسة) و(ألف ليلة وليلة) و(سيرة أبي زيد الهلالي) و(سيرة سيف بن ذي يزن)، وليست فهماً منطقياً لآيات الله تعالى!!

ولأهمية هذه النقطة سوف نعرض نموذجين، ثمّ نقف وقفة تحليلية عامة عندهما:

النموذج الأول: إرم ذات العماد:

حين يتعرّض الثعلبي لقوله تعالى: ﴿**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ**﴾[١]، يقول:

«وقال الكلبي: كان طول الرجل منهم أربع مائة ذراع، وقال ابن عباس: يعني طولهم مثل العماد....، وقال مقاتل: كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً....، حدثني ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنّه خرج في طلب إبل له شردت، فبينما هو في صحارى عدن إذا هو قد وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن، وحول الحصن قصور كبيرة وأعلام طوال، فلما دنا منها ظنّ أنّ فيها أحداً يسأله عن إبله، فلم يرَ خارجاً ولا داخلاً، فنزل عن دابته وعقلها، وسلّ سيفه ودخل من باب الحصن، فلما دخل في الحصن إذا هو ببابين عظيمين لم يُرَ أعظم منهما، والبابان مرصعان بالياقوت الأبيض والأحمر، فلما رأى ذلك دهش وأعجبه، ففتح أحد البابين، فإذا هو بمدينة لم يرَ أحدٌ مثلها، وإذا قصور، كلّ قصر معلّق، تحته أعمدة من زبرجد وياقوت، وفوق كلّ قصر منها غرف»[٢].

وبعد أن يسجل النسفي نسَب (عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح)، يقول:

«كان لعاد ابنان: شداد، وشديد، فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر

---

(١) سورة الفجر/ ٧- ٨.

(٢) أبو إسحاق أحمد الثعلبي، الكشف والبيان، المعروف بـ(تفسير الثعلبي)، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي ١٠/ ١٩٧.

لشـداد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكها، فسـمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها، فبنى (إرم) فـي بعـض صحارى عدن في ثلاث مائة [سـنة]، وكان عمره تسـع مائة سـنة، وهي مدينة عظيمـة: قصورها من الذهب والفضة، وأسـاطينها من الزبرجـد والياقوت، وفيها أصناف الأشـجار والأنهار، ولما تمّ بناؤها سـار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعـن عبـد الله بن قلابة أنّه خرج في طلب إبل لـه، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثمّ، وبلغ معاوية خبره، فاستحضره، فقصّ عليه، فبعث إلى كعب فسـأله، فقال: (هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خـال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل لـه)، ثمّ التفت فأبصر ابن قلابة، فقال: (هذا ـ والله ـ ذلك الرجل)»[1].

النموذج الثاني: العماليق وعوج بن عنق:

حين يتعرّض الطبري والثعلبي لمسـيرة النبي موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو الأرض المقدّسة وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُـمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُـلِي وَعَزَّرْتُمُوهُـمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَـنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَـا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَـوَاء السَّـبِيلِ﴾[2]!، وقوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَـى إِنَّ فِيهَـا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّـا لَـن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[3]، يشـعّ في وجههما الأفق المفتوح لجملة: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ فيطيب لهما سرد القصص عن الجبارين (العماليق) وأحجامهم، وأحجام فاكهتهم.

يقول الثعلبي: «سـار موسـى ببني إسـرائيل حتى إذا قربوا مـن أرض كنعان ـ وهي أريحـا - بعـث هـؤلاء النقبـاء [وكان عددهم اثني عشـر رجلاً] يتجسسـون لـه الأخبار، ويعلمونه، فلقيهم عوج بن عنق، وكان طوله ثلاثة آلاف وعشـرون ألف ذراع وثلاث مائة

(١) أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، تفسير القرآن الجليل، المسمّى بـ(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ٥/ ٣٦٠.
(٢) سورة المائدة/ ١٢.
(٣) سورة المائدة/ ٢٢.

وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع[١].

قال ابن عمر: كان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من أقرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثمّ يأكله.

ويُروى لـه أنّه رأى نوحاً يوم الطوفـان فقال: احملني معكَ في سفينتكَ، فقال له: اخـرج يـا عدو اللـه، فإنّي لم أؤمر بـكَ، وطبّق الماء مـا على الأرض من جبـل وما جاوز ركبتي عوج، وعاش ثلاثة آلاف سنة، ثمّ أهلكه الله على يد موسى، وكان لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عسكرٌ فرسخاً في فرسخ، فجاء عوج حتى نظر إليهم، ثم جاء فنحت الجبل، فأخذ منه بصخرة على قدر العسكر، ثمّ حملها ليطبقها عليهم، فبعث الله إليه الهدهد ومعه المصّ - يعني منقاره - حتى نخر الصخرة فانثقبت فوقعت في عنق عوج فطوّقته، وأقبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وطوله عشرة أذرع، وطول عصاه عشرة أذرع، وتراقي السماء عشرة أذرع -، فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع بالأرض فقتله. قالوا: فأقبلت جماعة كثيرة ومعهم الخناجر، فجهدوا حتى جزّوا رأسه، فلما قُتل وقع في نيل مصر فجسرهم سنة»[٢].

وبعـد هذه التفاصيل يكمل الثعلبي قصة النقباء الاثني عشـر: «فلما لقيهم عوج بن عنق - وعلى رأسه حزمة حطب - أخذ الاثني عشـر، فجعلهم في حجزته وحجزة الإزار معقد السراويل التي في التكة، فانطلق بهم إلى امرأته وقال: انظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنّهم يريدون أن يقاتلونا، فطرحهم بين يديها، وقال: ألا أطحنهم برجلي، فقالت: لا، بـل.. خلِّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل، فجعلوا يتعرّفون أحوالهم، وكان لا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسـة منهم في خشـبة، ويدخل في شـطر الرمانة إذا نُزع حبّها خمسة أنفس أو أربعة»[٣].

ثم يتحدث الثعلبي عن أم عوج، وأنّ اسمها عنق أو عناق، وأنّها إحدى بنات النبي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأول بغـي فـي الأرض، «وكان كلّ إصبـع من أصابعها ثلاثـة أذرع وذراعين، وفـي كلّ إصبـع ظفران حديـدان مثل المنجلين، وكان مجلسـها جريباً مـن الأرض، فلما

(١) وحتى يتمّ التناغم الحسابي لهذا العدد في جرس صوتي متجانس جعله بعضهم «ثلاثة آلاف ذراع، وثلاث مائة، وثلاث وثلاثون ذراعاً، وثلث!!»، - أي (٣, ٣٣٣٣) ذراع!!، كما نقل ابن كثير، في (تفسير القرآن العظيم) ٢/ ٣٦.

(٢) الكشف والبيان، المعروف بـ(تفسير الثعلبي)، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي ٤/ ٣٦- ٣٧.

(٣) نفسه ٤/ ٣٧.

بغت بعث الله – عزّ وجلّ – عليها أُسُداً كالفيلة، وذؤباً كالإبل، ونسوراً كالحُمُر، وسلّطهم عليها فقتلوها وأكلوها»[١].

وقفة عامة:

وقبل أن نغادر نقل هذين النموذجين نقف على مجموعة أمور فيهما، أهمها:

الأول: رفد القصص بالتفاصيل الخيالية المدهشة:

فالنموذجان يسعيان بما أوتيا من قوة وتقانة لملء القصتين بالغرائبية والعجائبية والسحرية (الفانتازيا):

ففي نموذج قصة (إرم ذات العماد) تظهر التصويرات الخارقة، مثل: (كان طول الرجل منهم أربع مائة ذراع)، (يعني طولهم مثل العماد)، (إذا هو ببابين عظيمين لم يُرَ أعظم منهما)، (والبابان مرصعان بالياقوت الأبيض والأحمر)، (كلّ قصر معلّق، تحته أعمدة من زبرجد وياقوت)، (قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار).

ومن هذه التفاصيل المدهشة أنّ كعب الأحبار ذكر لمعاوية أوصاف من سيدخل إرم وغرضه: (سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له)، ثمّ التفت فأبصر عبد الله بن قلابة، فقال: (هذا ـ والله ـ ذلك الرجل)، فتطابقت النبوءة مع الشخص حتى أقسم كعب بالله على ذلك!!

وفي نموذج (العماليق وعوج بن عنق) تتراقص المدهشات السحرية الغرائبية:

* فعوج بن عنق مذهل: (طوله ثلاثة آلاف وعشرون ألف ذراع وثلاث مائة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع)، (كان عوج بن عنق يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من أقرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثمّ يأكله)، (طبّق الماء ما على الأرض من جبل وما جاوز ركبتي عوج)، (نحت الجبل، فأخذ منه بصخرة على قدر العسكر، ثمّ حملها ليطبقها عليهم)، (بعث الله إليه الهدهد ومعه المصّ حتى نخر الصخرة فانثقبت فوقعت في عنق عوج فطوّقته)، (النبي موسى ـ عليه السلام – طوله عشرة أذرع، وطول

(١) نفسه ٤/ ٣٧.

عصاه عشـرة أذرع، وتراقي السـماء عشـرة أذرع)، موسـى مع طوله (ما أصاب إلا كعب عوج وهو مصروع بالأرض)، (أقبلت جماعة كثيرة ومعهم الخناجر، فجهدوا حتى جزّوا رأسه)، (لما قُتل عوج في أريحا في فلسطين وقع جسمه في نيل مصر فجسرهم سنة).

* وأم عوج - واسـمها عنق أو عناق - مدهشـة: (كان كلّ إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع وذراعيـن، وفـي كلّ إصبع ظفران حديدان مثل المنجلين، وكان مجلسـها جريباً من الأرض).

* والحيوانـات فـي قوم عـوج (العماليق) فارعـة: (لما بغت عنق بعـث الله - عزّ وجـلّ - عليها أُسُـداً كالفيلة، وذؤبـاً كالإبل، ونسـوراً كالحُمُر، وسـلّطهم عليها فقتلوها وأكلوها).

* والفواكه في قوم عوج ضخمة: (عنقود عنبهم لا يحمله إلا خمسة من قوم موسى في خشبة، ونصف رمانتهم إذا نُزع حبّها يدخل فيها أربعة أو خمسة من قوم موسى).

* والأحـداث التـي جـرت فـي قوم عـوج خلابة: فــ(عـوج يحتجز السـحاب)، و(يشوي الحوت بعين الشمس)، و(طوفان نوح طبّق الأرض والجبال ولم يتجاوز ركبتي عوج)، و(بعث الله إلى عوج الهدهد ومعه المصّ حتى نخر الصخرة فانثقبت فوقعت في عنق عوج فطوّقته).

وهكذا، ومن أجل التشويق والإمتاع تمّت أسطرة البشر (عوج وطوله، وأمه وأظافرها، وقومه وأحجامهم)، وأسـطرة كائنات الطبيعة التي أضحت (أسـوداً كالفيلة، وذئاباً كالإبل، ونسوراً كالحمير)، وأسطرة الطبيعة (العنب وحباته، والرمان وقشوره)، وأسطرة الأحداث (حجز السحاب، شيّ الأسماك في عين الشمس، الطوفان لم يصل ركبتي عوج).

الثاني: إلهاب الخيال وتفعيله:

ففي النموذجين سـعي حثيث لرفد القصص بقدر من الكلمات والجمل المفتوحة على مدى يلهب المخيال، ويستحثه على تفعيل قدرته بما يخدم الحشد الأسطوري:

ففي (إرم): (حول الحصن قصور كبيرة وأعلام طوال)، (إذا هو ببابين عظيمين لم يُـرَ أعظـم منهما)، (فإذا هو بمدينة لم يرَ أحدٌ مثلها)، (وفيها أصناف الأشـجار والأنهار). وكأنّها لم تكتفِ بما نقلته بما صوّرته متحققاً في مدينة إرم من عظمة وجمال وأبهة باذخة، فسـعت بجملهـا المفتوحة تلك إلى إشـراك خيال المتلقي؛ ليسـهم هو الآخـر في إضفاء

لمساته الفنية في رفد الأسطورة وتلوينها بكلّ جميل فتان.

وكان عـوج (يتنـاول الحوت من أقرار البحـر) بما تحكيه كلمة (أقـرار) من عمق، وكان للنبي موسـى (عسـكرٌ فرسـخاً في فرسـخ) بما تحكيه من كثافة عدد وامتداد جند، بما يترك المجال خصباً للخيال ليتصوّر مدى تلك الأعماق التي تنزع أيدي عوج الحيتان منها، وعدد الجش الذي يملأ فرسخاً: هل هم على طريقة صفوف، أم جمع متكدس ومع ذلك كان بهذا الحجم الوفير؟!

الثالث: دور أهل الكتاب:

يوضّح نموذج قصة (إرم) دور أهل الكتاب في رفد هذه الروايات الإسرائيلية وهذا الاختـلاق التاريخي، فرواية الثعلبي تنتهي إلى وهـب بن منبه، وهو «مؤرخ، كثير الأخبار عـن الكتب القديمة، عالم بأسـاطير الأولين، ولاسـيما الإسـرائيليات، يُعدّ فـي التابعين، .....، وكان يقول: (سمعتُ اثنين وتسعين كتاباً كلّها أُنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وعشـرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا قليل)» [1]، وتفسـير رواية النسـفي لقصـة ابـن قلابة يصل إلى كعـب الأحبار، وهو «تابعي، كان فـي الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة»[2].

ونمـوذج العماليـق وعوج جاءت الأكثرية السـاحقة فيـه كلاماً تاريخياً مرسـلاً لـم ينسبه الثعلبي لأحد، وبعضه جاء على طريقة البناء لمجهول (ويُروى له أنّه رأى نوحاً يوم الطوفان)، مع الفارق الزمني الطويل بين الثعلبي وزمن نوح الذي تُنقل فيه القصة، وحتى مـا نقله عن ابن عمر لا يتضح أنّه حديث نقله عن رسـول اللـه، فهو مجرّد قول لا يبعد أن يكون مما تمّ تداوله في عصر الصحابة من روايات إسرائيلية كتلك التي نقلها بعضهم عن كعب الأحبار يوم قدم المدينة في خلافة عمر.

الرابع: تساهل الرواة والمفسّرين في النقل:

والمشـكلة أنّ كثيراً من المفسّـرين لكتـاب الله الكريم انجـرّ وراء تلك الحكايات

(١) خير الدين الزركلي، الأعلام ٨/ ١٢٥- ١٢٦.
(٢) نفسه ٥/ ٢٢٨.

الإسـرائيلية والروايات المختلقة دون سـبر وتمحيص، ظانين أنّ ذلك يندرج ضمن قول رسـول الله ﷺ: «بلغوا عنـي ولو آية، وحدّثوا عن بني إسـرائيل ولا حرج، ومن كذب علـيّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1]، متناسـين قولـه ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا...**﴾[2]»[3].

وذيـل الرواية يحكي قولـه تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ**﴾[4].

يقـول ابن كثير عـن قصة (إرم): «وإنّما نبّهـتُ على ذلك لئلا يُغتـرّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسّـرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يُقال لها (إرم ذات العماد)، مبنية بلبن الذهـب والفضـة: قصورها ودورهـا وبسـاتينها، وأنّ حصباءها لآلـيء وجواهـر، وترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب، وأنّها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد؛ فإنّ هذا كلّه من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم؛ ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك، ....، فهذه الحكايـة ليس يصحّ إسـنادها، ولو صحّ إلى ذلك الأعرابي، فقـد يكون اختلق ذلك أو أنّه أصابـه نوع مـن الهوس والخبـال، فاعتقد أنّ ذلك لـه حقيقة في الخـارج، وليس كذلك، وهذا مما يُقطع بعدم صحته»[5].

ويقـول عـن قصة (عوج بن عنـق والقوم الجبارين): «وقد ذكر كثير من المفسّـرين هاهنا أخباراً من وضع بني إسـرائيل في عظمة هؤلاء الجبارين....، وهذا شـيء يُسـتحى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين....، وهذا كذب وافتراء»[6].

وهذا التساهل في النقل هو ما جعل أئمة أهل البيت عليهم السلام يأخذون موقفاً صارماً من (القصّاصين)، ففي معرض تعليق الإمام الباقر عليه السلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، م ٢، ج ٤، ص ٢٠٧، باب (ما ذُكر عن بني إسرائيل).
(٢) سورة المائدة/ ٥٩.
(٣) صحيح البخاري، م ١، ج ٣، ص ٢٣٧، باب (لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها).
(٤) سورة المائدة/ ٥٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٦١.
(٦) نفسه ٢/ ٣٦.

يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾(1)، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الكلام في الله، والجدال في القرآن»، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾(2)، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «منهم القصّاص»(3).

الخامس: مخالفة الحقائق العلمية والكشوفات:

وإلى جانب كون ذلك من الإسرائيليات والروايات المصنوعة، فهو مخالف لحقائق العلم التي لم تجد في مكتشفاتها من آثار البشر والحيوانات والفاكهة ما يصدق وجود بشر طولهم (ثلاثة آلاف وعشرون ألف ذراع وثلاث مائة ذراع)، (يحتجزون السحاب)، ويطبخون على لهب الشمس!! ـ كعوج بن عنق –، بل.. ولا أثراً لشخص (طوله عشرة أذرع، وطول عصاه عشرة أذرع، وتراقي السماء عشرة أذرع) ـ كما يُدعى للنبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم تألف فيما اكتشفت (أُسُداً كالفيلة، وذؤباً كالإبل، ونسوراً كالحُمُر)، ولم تعثر على بقايا آثار لعنقود عنب لا يحمله إلا خمسة في خشبة، ولا قشر رمانة يسع أربعة أو خمسة أشخاص، خصوصاً إذا كانوا من قوم موسى الذي كان هو عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذجاً لهم بلغ طوله عشرة أذرع!!

ومخالف لحقائق العلم التي تقول بأنّ المسافة بين الأرض والشمس تبلغ ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ كم (٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ميل) لا يمكن لبشر حتى لو كان طوله الطول الخرافي لعوج أن يبلغ معها الشمس، كما أنّ درجة حرارة مركز الشمس تبلغ ١٥,٠٠٠,٠٠٠ درجة مئوية، وتبلغ درجة سطحها ٥,٥٠٠ درجة، وتصل درجة حرارة الإكليل الشمسي (الهالة المحيطة بها) إلى حوالي ٢,٢٠٠,٠٠٠ درجة مئوية(4)، وهذه الأرقام أعلى بكثير من درجة صهر الحديد (١,٥٣٥ درجة مئوية)، بل.. وأعلى من درجة غليان الحديد التي تبلغ (٣,٠٠٠ مئوية)(5)، فضلًا عن جسم عوج!!

ب- حشد التفاصيل التاريخية:

وإلى جانب الحشد الأسطوري والافتراء على الرسل يستثمر الفهمُ التاريخي

(1) سورة الأنعام/ ٦٨.
(2) سورة الأنعام/ ٦٨.
(3) بحار الأنوار ٨٩/ ١١١، الباب ١٠، ح ١٩.
(4) الموسوعة العربية العالمية ١٤/ ٢٤٧، ٢٥٥.
(5) نفسه ٩/ ١١١.

جهده لحشد التفاصيل التاريخية بوصفها تفسيراً للآيات.

إنّه يقف عند قوله تعالى حكاية عن نبيّه يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ، وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ: يَا أَبَتِ، هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ، مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]، فيقصي كلّ تلك الرؤى الأخلاقية والمفاهيم التربوية والحقائق المعرفية وغيرها التي يزخر بها هذا المشهد، ليتقوقع في أمور قشرية جداً، يبدأ فيها مع بداية قصة النبي يوسف عليه السلام، فيسلط الضوء على عدد إخوة يوسف وأسمائهم، ومَن الأكبر فيهم؟، ومَن الأصغر؟، وما هي أسماء أمهاتهم؟، وما اسم أم يوسف عليه السلام؟، وكم كان عمر يوسف حينها؟، وأين يقع الجبّ الذي ألقي فيه؟، وكم عدد الدراهم التي بِيع مقابلها؟، وما اسم امرأة العزيز؟، وما نوع الفاكهة التي قدمتها: هل هي الأترج أم البرتقال؟!، ثمّ كم سنة بقي النبي يوسف في السجن: سبع أم إحدى عشرة، أم ست عشرة؟، وما اسم الفتيَين اللذين دخلا معه السجن؟

وهكذا تمتد عملية السرد القصصي عنده إلى سلسلة أخطبوطية من التفاصيل التاريخية حتى يصل إلى المقطع العلوي الذي تحدثت عنه الآية السالفة، فينصب بحوثاً حول من هم أبوا يوسف المعنيّان في الآية؟: هل هما أبوه (يعقوب) وأمه (راحيل)؟، أم أبوه وخالته؟، وكيف كان ذلك العرش الذي رفعهما عليه؟، وممَ بُني؟، وما هي كيفية السجود له؟، ولماذا لم يقم يوسف إجلالاً لوالديه، وما العقاب الذي فعله الله به نكالاً لذلك؟، وما طبيعة (البدو) الذي خرجوا منه؟، وبماذا تمتاز (مصر) عنه؟، و....

وأمام زوبعة تفصيلية كهذه تصبح مهمة المفسِّر هي ذاتها مهمة القاصّ: البحث عن عنصر الزمان والمكان في الحدث، وإظهار الأبطال بأسمائهم وملابساتهم، وتصوير البيئة ومناخها، وتسجيل الأحداث، و....

وإذا كان المثال السابق قصة قرآنية استُغلّت بفهم تاريخي راح يحشد التفاصيل الخارجية على الآيات، فإنّ سبب النزول هو الآخر أحد المبرّرات التي تدفع بعض المفسّرين إلى المنحى التاريخي ذاته.

فإذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا

(١) سورة يوسف/ ١٠٠.

اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(١)].

قام المفسّرون ذووا الفهم الزمني باستثمار الآيات الشريفة السابقة للحديث عن معترك محتدم بين الصحابة والإمام علي عليه السلام، وأنّه المطبّق الوحيد لهذه الآية، وبعد ذلك يتتبعون سير الحادثة بدقائقها، وكيف كان علي عليه السلام لا يملك سوى دينار واحد فصرفه لعشرة دراهم كي يتمكن من التناجي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فناجى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بذلك عشر مرات حتى نُسخت الآية، بينما بخل بقية الصحابة بدنانيرهم ودراهمهم، فيكتفي هؤلاء المفسّرون بتقزيم الآيات في حلقة زمنية لا تمسّ واقعنا اليوم، ولا نستطيع أن نستلهم منها العِبر، بينما لو لم تُعْشِهم تلك النمطية لاغترفوا من معين الآيات دلاءً من الرؤى والبصائر من عدة زوايا، منها:

أهمية الصدقة في تزكية النفس وتحطيم الشحّ في الأعماق، فللصدقة والعطاء دور تربوي تزكوي هام في حياة الفرد والمجتمع، وهو ما قاله تعالى: **﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾**.

عدم الإثقال على القيادة، وذلك ما حدا بأن تنزُل الآيات، حيث تؤكد ضرورة احترام وقت العظماء - ونموذجهم في الآية المباركة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم -، وعدم إضاعته في سفاسف الأمور، وبأنّ وقتهم ثمين يفوق قيمة الدنانير والدراهم!

تصنّف الآيات السابقة إيمان الناس لصنفين:

الأول: إيمان تضحية: وهو المتمثل بعلي عليه السلام الذي يبذل الغالي والنفيس في سبيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي سبيل الحرص على الرسالة، وفي سبيل الارتواء من معينها الثرّ، وبذل كلّ شيء من أجل ذلك.

والثاني: إيمان مصلحة: فحين يُخيَّر البعض بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين الدنانير، يشرق في ناظريه وقلبه وهج خلاب للدنانير، فيقدّم مصالحه الآنية ويبخل بأمواله ولو كان ذلك في قبال المبدأ الذي يعلن الانتماء إليه.

ولنا أن نلحظ الفرق بين كلا المنهجين في الفهم، وأيّهما يلهمنا المراد الإلهي؛ إذ إنّنا من دون التجرّد من الفهم التاريخي سنبقى أسرى بُعد واحد، ولن نتمكن من فهم العمق المكتنز في الآيات.

لا يعني ذلك أنّنا ضد التاريخ وتفاصيله بكلياته، بل نحن ندعو لاستثمار التاريخ ما

(١) سورة المجادلة/ ١٢- ١٣.

دام يوصلنا إلى ما يريده القرآن بعرضه حادثة هنا وقصة هناك، فمن دون التاريخ لن نعرف من طبّق هذه الآيات؟، وكيف طبّقها؟، وما هو السبيل لتطبيقها اليوم؟، إلا أنّه لا يُحبَّذ الإبحار في التاريخ لأجل التاريخ وحسب!

وهذا ما يجعل القرآن – حين يذكر بعض القصص الماضية – قد يركز على أصل الحدث مركز الشاهد، ولا يذكر اسم صاحبه، إلى حدّ أن نجد قصة طويلة يخرج فيها النبي موسى عليه السلام مع (فتاه) لمقابلة (العبد الصالح) تمرّ بأحداث عظيمة من خرق سفينة، إلى قتل غلام، إلى إقامة جدار ليتيمين، دون أن نعرف اسم الفتى ولا اسم العبد الصالح:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[1].
- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2].

وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[3]، فالقرآن يقول: ﴿قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾، ولم يذكر اسمه مع أنّه نبي!!

ألم يكن باستطاعة القرآن أن يذكر أسماء هؤلاء بدلاً من الكناية؟!؛ ألم يكن يستطيع أن يذكر – مثلاً – أنّ اسم فتاه هو (يوشع بن نون)، واسم العبد الصالح هو (الخضر)، واسم النبي الذي طلب منه بنو إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً هو (إرميا، أو شموئيل، أو صموئيل)؟!

بلى.. كان يستطيع ذلك، فالسرّ لا يكمن في عدم المعرفة؛ فنحن نتحدث هنا عن القرآن كتاب الله العليم الخبير، وإنّما السبب أنّ القرآن يريد التركيز على الحدث واستلهام الرؤى منه، وعدم الانشغال بالأسماء، وهذا هو بالضبط الخطأ الذي يقع فيه أصحاب الفهم التاريخي حين يكون همهم معرفة أصحاب تلك الأسماء وصفاتهم وأين كانوا..، ويضيعون الهدف الحقيقي من القصة، والمغزى الفعلي المراد منها.

---

(١) سورة الكهف/ ٦٠.
(٢) سورة الكهف/ ٦٥.
(٣) سورة البقرة/ ٢٤٦.

ج - الافتراء على الأنبياء:

ولـم يقـف المنهج التاريخي في شـغفه عند حـدود الافتراء فيما يدعـم القصة، بل مضـى خلفـه ولو أدى إلـى الافتراء على الأنبياء والإسـاءة إليهم، وقد نقـل الفخر الرازي فـي معرض تفسـيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَـوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشَـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(١) رأياً للواحدي «أنّ يوسف - عليه السـلام - همّ بالفاحشة. قال الواحدي في كتاب (البسيط): قال المفسّرون الموثوق بعلمهم، المرجوع إلى راويتهم: همّ يوسـف - أيضاً - بهذه المرأة هماً صحيحاً، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه زالت كلّ شـهوة عنه. قال جعفر الصادق - رضي الله عنه - بإسناده عن علي - عليه السلام -: أنّه قال: (طمعت فيه وطمع فيهـا؛ فـكان طمعه فيها أن هـمّ يحلّ التكة)، وعـن ابن عباس - رضي اللـه عنهما - قال: (حـلّ الهميان، وجلس منها مجلـس الخائن)، وعنه - أيضاً -: (أنّها اسـتقلت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه)، ....، [و] أنّ يوسـف - عليه السـلام - لما قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾(٢)، قال له جبريل - عليه السلام -: ولا حين هممتَ يا يوسف؟!، فقال يوسـف عند ذلك: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِـي﴾(٣). ثمّ قال [الواحـدي]: والذين أثبتوا هذا العمل ليوسـف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء - عليهم السـلام - وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهمّ عنه»!!(٤).

- الفهم التاريخي والتفسير الظرفي:

وإذا كان التفسـير القصصي السـردي للقرآن وطريقة التعاطي معه والاستفادة منه؛ شـكلاً واضحـاً من أشـكال الفهم التاريخي، فإنّ هناك شـكلاً آخر أشـدّ خفاء واسـتتاراً، يكمـن في الفهم التاريخي للنصّ نفسـه ومدلولاته - حتى غيـر القصصي منها -؛ بإعطاء المفاهيـم القرآنية مدلولات تاريخيـة محدودة تقف عند حدود الفهم السـائد أو الممكن للنـصّ زمن نزولـه أو في الأزمنة التاريخيـة الأولى من عمر التاريخ الإسـلامي، وتغليف

(١) سورة يوسف/ ٢٤.
(٢) سورة يوسف/ ٥٢.
(٣) سورة يوسف/ ٥٣.
(٤) فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بـ (التفسير الكبير ومفاتح الغيب)، م ٩، ج ١٨، ص ١١٧ - ١١٨.

النـصّ بتلـك الدلالات التاريخية وعدم السـماح لـه بتنفس الدلالات الجديدة، والسـموّ برأسه إلى الآفاق الشامخة والمستجدة.

وهنا يُختزل مدلول النصّ في دلالات زمنية تاريخية أُعطيت للنصّ بوصفها مدلوله الفعلـي المطلق اللازمني، وقُصـرت مفاهيمه المفتوحة وألفاظه الواسـعة عليها، دون أن يُفتح المجال للنصّ - ما دام واسـعاً ومفتوحاً - أن يسـتوعب ما تقتضيه تلك السعة وذاك الانفتاح من استيعاب مفاهيم ومصاديق جديدة وكبيرة يختزنها في أحشائه من البداية، أو يأتي بها الزمن بعد حين.

أي أنّـه فـي زمن تاريخي قديم تـمّ إنتاج فهم معيّن للنصّ يناسـب الظروف العلمية والعقليـة فـي ذلك الزمن، ثـمّ فُرض ذلك الفهم بوصفـه الفهم الوحيـد الصحيح للنصّ، والمدلول الفعلي له، وقُطع النصّ عن اسـتيعاب المفاهيم والمصاديق المسـتجدة التي لا تناسـب ذاك الظرف التاريخي المنقضي، فوقف ذاك سـداً منيعاً أمام أيّ فهم جديد يمكن أن تنتجـه الأزمنـة اللاحقة، وحكم عليها سـلفاً بالخطـأ؛ لأنّ الفهم التاريخي السـابق عُدّ المرجعية الصحيحة لفهم النصّ وبيان معناه.

فبعد أن اتصل فكر المسلمين بالفكر الإغريقي وبالذات في مجال الهيئة البطليموسية التـي كانت تتصوّر السـماء من الجواهـر غير القابلة للفتق والرتق اجتزأ بعض المفسّـرين قوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالإِرْضِ فَانفُـذُوا**﴾[١]، وقالوا: إنَّه يسـتحيل على الإنـس والجنّ أن يصعدوا إلـى الآفاق؛ فإنَّ قوله فـي الآية ﴿**إِنِ اسْـتَطَعْتُمْ**﴾ ظاهر في التحدي، أي أنّكم لا تسـتطيعون أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض، وقطعوا ذلك عن قوله سبحانه ﴿**لا تَنفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ**﴾[٢].

وهكـذا فُرضت فكرة الجوهر البسـيط غيـر القابل للنفاذ والاختـراق التي نُظر لها باعتبارهـا حكماً عقلياً على النصّ الديني القرآني، وصرنـا في مواجهة واضحة بين العلم والنقل، بين الحقيقة العلمية في وصولهم إلى القمر والنفي القرآني لإمكانية ذلك، مع أنّ هذه التتمة تشير إلى أنّهم ينفذون ولكن بسلطان[٣]، والسلطان «هو العلم الذي يتحوّل إلى برنامج فقدرة فعلية»[٤].

(١) سورة الرحمن/ ٣٣.
(٢) سورة الرحمن/ ٣٣.
(٣) من هدى القرآن ١٤/ ٣٢١.
(٤) من هدى القرآن ١٤/ ٣٢٦.

بينما التفت قسـم ثان من المفسّـرين إلى تتمة الآية وإمكانية ذلك النفاذ بشرط توفر سلطان القوة والقهر والغلبة، ثمّ أعقبوا كلامهم بالقول: «وأنّى لكم ذلك»[١]، «وليس لكم قـوة علـى ذلك»[٢]، «ولا قوة لكم علـى ذلك»[٣]، أي أنّه من ناحيـة الإمكان العام ممكن، لكنّـه من ناحية الإمكان البشـري والفعل البشـري مسـتحيل، فارتدّ الأمر مـرة أخرى إلى استحالة مطبقة!!

وغالبـاً مـا ارتبط الرأي الثاني بقسـم ثالث يرجِّـح أنَّ هذه الآيات واردة في سـياق وصدد الحديث عن الآخرة لا الدنيا، ومن ثمّ فهي تتكلّم عن عدم إمكانية هروب الثقلين (الإنس والجنّ) من المحكمة الإلهية في ساحة المحشر والقيامة[٤].

وعلـى الرأي الثالث يكون صرف النفوذ المنفي فـي الآية إلى (النفوذ العلمي) من أقطـار السـماوات والأرض فـي عالم الدنيا؛ عزلاً وفصلاً عن السـياق العام لها (الحشـر والقيامـة)، «وقيل: المراد بالنفوذ المنفي في الآية النفوذ العلمي في السـماوات والأرض من أقطارهما. وقد عرفتَ أنّ السياق لا يلائمه»[٥].

وعلـى هذا فأصحاب التفسـيرين الأول والثالث فصلوا جزءاً من الآية عن سـياقها اللفظـي والمعنـوي بالبتـر أو فصل الدلالـة، ثمّ التزموا بالتفسـير التاريخـي للآية، فحكّم الأول القناعـات البطليموسـية، وقصـر الثالـث الآيـة على الآخـرة، بينما أثّر علـى الثاني السـياق التاريخـي الخارجي الفعلي وكون ذلـك النفاذ محالاً في زمانهـم (محال عادة)؛ فأعطوه بُعداً مطلقاً بوصفه محالاً في كلّ زمان (محال عادة وعقلاً).

وإذا عـاد هـذا ـ بأشـكاله المختلفـة ـ إلـى المفسّـرين المسـلمين، فقد تنـاول غير المسـلمين الآية بشـيء من التندُّر والسـخرية، فـ«حين وصل الإنسان إلى القمر اتخذ منه الصهاينة وغيرهم من أعداء الإسـلام وسـيلة للطعن بالقرآن؛ لأنّ هذه الآية تقول: لا ينفذ الإنسان من أقطار السماوات والأرض. وقد نفذ!!»[٦].

---

(١) الفضل بن الحسن الطبرسي، جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد ٢/ ٥٥٥.
(٢) تفسير الرازي (التفسير الكبير ومفاتح الغيب)، م ١٥، ج٢٩، ص ١١٤.
(٣) السيّد عبد الله شبّر، الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين ٦/ ١٣٣.
(٤) تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتح الغيب)، م ١٥، ج ٢٩، ص ١١٤، والميزان في تفسير القرآن ١٩/ ١٠٦.
(٥) الميزان في تفسير القرآن ١٩/ ١٠٧.
(٦) الشيخ محمد جواد مغنية، التفسير المبين/ ٧١٠.

أي أنّ هؤلاء - كذلك - فسّروا الآية تفسيراً تاريخياً، وألبسوها المدلول التاريخي الذي فصّله أولئك المفسّرون المسلمون من عدم إمكانية الوصول للقمر، الذي أثبت الواقع العلمي كذبه حين وصل الإنسان للقمر، ووطأه برجليه[1].

ثالثاً: الفهم المصلحي:

فهناك من يقرأ القرآن ليتصيّد ما يصبّ في خانة مصلحته الشخصية، أو قناعاته العقدية أو الفكرية أو السياسية أو غيرها..، أو ليتصيّد ما يصبّ في مصلحة الكيان والاتجاه الذي ينتمي إليه، ثمّ يوظف ما تصيّده لصالح تلك المآرب الشخصية والجمعية.

إنّه لا ينطلق من القرآن ليصوغ شخصيته وفكره، وإنّما يدخل على القرآن محملاً بقناعاته، ويريد أن يأخذ من القرآن ما يبرّر له ذلك، إنّه لا يريد أن يوافق القرآن، بل يريد القرآن أن يوافقه، ولا يساير القرآن، بل يريد من القرآن أن يسايره.

وباختصار: إنّه يريد أن يجعل القرآن مطية لمصالحه!!

والفهم المصلحي يتعدّد ويتنوّع بتعدّد وتنوّع المصالح: فهناك مصالح ذاتية، وعقدية، وسياسية، ومعرفية، واجتماعية، وغير ذلك، والجامع المشترك بين أنواع الفهم المصلحي هو استغلال آيات القرآن الكريم لحساب المصلحة.

وفيما يلي سنتناول ثلاثاً من المصالح السابقة:

١- المصلحة الذاتية:

يُروى أنّ القاضي يحيى بن أكثم كان مفتوناً بالشذوذ الجنسي (اللواط)، وكان يبحث في كتاب الله عما (يشرعن) له ذلك المنكر الوبيل، حتى أجازه، مبرّراً ذلك بأنّ القرآن الكريم يقول: ﴿**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾[2].

لقد فسّر ابن أكثم ﴿**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ**﴾ بأنّ الضمير والميم فيها للذكور العقلاء، ومع أنّهم ذكور فقد أقرّت الآية أنّ الله زوّجهم ﴿**ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا**﴾، وإذا كنّا نعلم معنى (يزوّجهم

---

(١) الشيخ علي آل موسى، ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟/ ٢٤٠- ٢٤١.

(٢) سورة الشورى/ ٥٠.

إناثاً)، فماذا يعني (يزوّجهم ذكراناً)؟، أليس معناه أنّ الله زوّج الذكور ذكوراً؟!

وهي فكرة وجدت لها عند أبي نواس هوًى وإن كان عمله استهتاراً بالحكم الشرعي، وليس قناعة بمفاد الآية، فقيل له يوماً: زوّجك الله من الحور العين، فقال: لستُ بصاحب نساء، بل الولدان المخلدين، ثمّ أنشد:

أنا الماجنُ اللوطيُّ دينيَ واحدٌ وإنّيَ فيْ كسبِ المعاصيْ لراغبُ
أدينُ بدينِ الشيخِ يحيى بنِ أكثمٍ وإنّيْ لِمَنْ يهوى الزنا لمجانبُ[1]

لقد قطع ابن أكثم تلك الآية عما قبلها، ثمّ فسّرها وفق مصلحته الذاتية وهواه، وحين نقرأ هذه الآية والتي قبلها يتضح لنا مدى التعسّف والقسر الذي قام به، يقول الله تعالى: ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾[2].

فالآيتان تتحدثان عن أصناف الذرية والنسل الذي يهبه الله للناس: فهناك من يهبه الله إناثاً فقط، وهناك من يهبه الله ذكوراً فقط، وهناك من يجعل الله ذريته ذكوراً وإناثاً، وهناك من يجعله الله عقيماً فلا ذرية لديه. والقسم الثالث من هذه هو الذي تلاعب فيه ابن أكثم، ففسّر ﴿**يُزَوِّجُهُمْ**﴾ بـ (يُنكحهم)، بدلاً من كونها: يجعل أسرتهم ذكوراً وإناثاً!![3]، فهي أسرة مزدوجة من الذكور والإناث، ليست ذكوراً خالصة، وليست إناثاً خالصة.

وكما فصل هذا الفهم المصلحي المتمثل في ابن أكثم تلك الآية عما قبلها من آيات فصلها عن غيرها من آيات الذكر الحكيم، فأين الآيات الواردة في قصة قوم لوط، وعدّ ذلك فاحشة ومنكراً وفساداً وظلماً، ومن ثمّ إنزال العذاب الماحق عليهم لفعلهم المشين، وجعلهم آية لمن يعقل، أو يتوسم، أو يؤمن؟!

يقول الله تعالى:

﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ***

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ٣/ ٢٤٣، (ولم نعثر على هذين البيتين في ديوان أبي نواس).
(٢) سورة الشورى/ ٤٩.
(٣) التدبر في القرآن/ ٣٣.

وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

وفي مقطع آخر يقول الحقّ – جلّ وعلا – عن نهايتهم البئيسة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ﴾[٢].

٢- المصلحة العقدية:

وإذا كنّا في المثال السابق قد شهدنا تفسير القرآن بدافع مصلحي شخصي، فسوف نشهد مع يوحنا الدمشقي – المسيحي الذي كان يرفل بالنعيم في قصور معاوية – تفسير القرآن وتوظيف آياته لصالح فكرته العقدية، فقد كان يؤمن بأنَّ السيّد المسيح عليه السلام أزلي قديم وليس مخلوقاً وفق عقيدته في ألوهية السيّد المسيح، ومع احتكاكه بالمسلمين، سعى لتوظيف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[٣].

فبما أنَّ القرآن نصَّ على أنَّ عيسى بن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم، صار ذلك وسيلة لأن يبثّ هذا الرجل بين المسلمين قدم كلمة الله عن طريق خاصّ، وهو أنّه كان يسألهم: كلمة الله قديمة أم لا؟ فإن قالوا: قديمة..، قال: ثبت دعوى النصارى بأنّ عيسى قديم، وإن قالوا: لا..، قال: زعمتم أنّ كلامه مخلوق[٤].

لقد تشبّث يوحنا الدمشقي بتلك الآية وتعبير (وَكَلِمَتُهُ)، وترَكَ الآيات التي تثبت بشرية النبي عيسى عليه السلام، ومنها: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٥]؛ لأنّ تلك – بتفسيرها – تخدم مصلحته، وهذه – بوضوحها – ينقض مصلحته!!

(١) سورة العنكبوت/ ٢٨- ٣٥.
(٢) سورة الحجر/ ٧٣- ٧٧.
(٣) سورة النساء/ ١٧١.
(٤) الشيخ جعفر السبحاني، الإلهيات ١/ ١٩٠.
(٥) سورة آل عمران/ ٥٩.

٣ - المصلحة السياسية:

وهنـا يقوم شـخص أو مجموعـة أو جهة باسـتثمار القـرآن الكريم لدعـم الأفكار والممارسـات والمواقـف السياسـية التـي يبتغونهـا، أو تبريـر مـا تفعلـه جهات سياسـية يرتضونهـا أو يسـتفيدون من ورائها، أو مواجهة سياسـات الآخرين المناوئين، فيسـبغون الشرعية على طرف، ويسلبونها عن الطرف المقابل.

أي أنّ هذا الاسـتثمار الديني يحقق غايات كثيرة، فهو يشـرعن العمل السياسـي الذي تقوم به الذات ومن ترتضيه، فيصلح لتزكية الذات وإقناع الأتباع والتحشيد الاجتماعي، وهو أداة تبرير وتطمين ومغازلة للقائمين بالفعل السياسي، وهو وثيقة تجريم لسياسات المخالفين، تضرب المختلف، وتسعى لتنفير الناس عنه، بوصفه (لاشرعياً)، أو خارجاً على الشرع.

وهكذا تصبّ روافد هذا الاستثمار في حقل الذات، وحقل الأتباع، وحقل الحاكم، وحقل أجهزة الحكم، وتجفف منابع المخالفين لتميت زرعهم.

فقـد اسـتثمرت السـلطات العباسـية مـا عُـرف بــ (محنـة خلـق القـرآن) للتنكيل بالخصـوم، فأخذ المأمون العباسـي برأي المعتزلة الذاهب إلى (خلـق القرآن وحداثته)، وجعل منه عقيدة رسـمية تدين بها الدولة، وتبعه في ذلك المعتصم، والواثق، مسـتفيدين من مثل قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّـن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إلا اسْـتَمَعُوهُ وَهُـمْ يَلْعَبُونَ**﴾[١]، وأنّ الله وصـف كلامه بأنّه (محدث)، فنكلوا بخصومهم، ومنهم: أبو حنيفة، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل. وبعد حين قلب المتوكِّل للفكرة (ظهر المجنّ)، وأخذ برأي الأشـاعرة في (قدم القرآن وأزليته)، مستفيداً مـن مثـل قوله تعالى: ﴿**إِنْ هَذَا إلا قَوْلُ الْبَشَـرِ**﴾[٢]، و «أنّ مَن زعـم أنّ القرآن مخلوق فقد جعلـه قولاً للبشـر، وهـذا ما أنكره اللـه على المشـركين»[٣]، فأخرج أحمد بـن حنبل من السـجن بعدما مكث فيه ثمانية وعشرين شهراً في أيام المعتصم، وأكرمه وأعزه، و «مكث مدّة لا يولِّي أحداً إلا بمشورته، وتوفي الإمام وهو على تقدمة عند المتوكِّل»[٤].

وإلـى جانب هذا المثال التاريخي يمكـن أن نضرب مثالاً من العصر الحاضر، فقد

---

(١) سورة الأنبياء/ ١- ٢.

(٢) سورة المدثر/ ٢٥.

(٣) أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق: الدكتورة فوزية حسين محمود/ ٥٦.

(٤) الأعلام ١/ ٣٠٣.

عُرف ميرزا غلام أحمد القادياني بعلاقته بالاستعمار البريطاني الذي جثم على صدر الهند يستعبد أهلها ويستغل خيراتها لقرون متطاولة، فأنشأ القادياني حركته عام (١٩٠٠م) بهدف إبعاد المسلمين هناك عن فريضة الجهاد؛ حتى لا يقاوموا المحتل البريطاني باسم الإسلام، وحتى يذعنوا للاستعمار ويطيعوه، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة (الأديان) التي تصدر باللغة الإنجليزية[١]، وقد وظّف في سبيل ذلك ما يخدمه من الآيات التي تتحدث عن السلم وطاعة أولي الأمر، كقوله تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٢].

- ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٤].

فالبريطانيون - بعدما سيطروا على القارة الهندية - أخذوا بمبدأ السّلم، وجنحوا له، فلابدّ أن نجنح نحن أيضاً، ولا تجوز لنا محاربتهم، ولأنّهم أولو الأمر فهم مفترضو الطاعة!!

ومثلما فعل أصحاب النموذجين السابقين، فقد فصل القادياني هذه الآيات عن غيرها، ثمّ فسّرها كما شاءت المصلحة، فالله سنّ السّلم كما سنّ الحرب، وجعل لكلّ موضعه:

فالسلم مع الذين لم يشرعوا القتال ضدنا، ولم يخرجونا من ديارنا، والحرب لمن فعل ذلك، وتلك قضية أوضحها الذكر الحكيم فقال: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٥].

---

(١) الندوة العالمية للشباب المسلم، الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة/ ٣٨٩ - ٣٩١.
(٢) سورة البقرة/ ٢٠٨.
(٣) سورة الأنفال/ ٦١.
(٤) سورة النساء/ ٥٩.
(٥) سورة الممتحنة/ ٨- ٩.

رابعاً: الفهم الحيوي:

وهنـا نقف عند الفهم الحقيقـي الحيوي للقرآن، فحينما نتعاطـى مع القرآن بنطاق ضيّق كتلاوته في مجالس العزاء، أو جعله وسـيلة للخيرة، أو صيدلية للاستشـفاء لبعض الأمـراض البدنيـة، أو جعلـه كتابـاً لجلـب البركة وهبـوط الـرزق، أو تميمة تدفـع البلاء والمصائب لا غير؛ نكون قد غفلنا عن أهمّ شـيء جاء القرآن لأجله وهو الهداية والتزكية والتذكـرة: ﴿ذَلِـكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيـهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيـنَ﴾[1]، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَـثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[2]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[3].

إنّ للقـرآن بنـاءه الحيـوي الذي يتفاعل به المسـلم مع الله، ومع الكـون والطبيعة، ومع أخيه الإنسـان، ولنا أن نذكر بعض سمات الفهـم الحيوي التي يفترق بها عن المناهج الثلاثة الأخرى: التجريدي والتاريخي والمصلحي:

١- العمل والفاعلية:

أهمّ سـمة في الفهـم الحيوي للقرآن الكريم هي العناية باسـتثارة المباحث القرآنية بـكلّ قوة نحـو العمل والفاعلية والتحرّك والنشـاط، ومحاولة إيجـاد فهم اجتماعي حتى للمباحث التي يظنّ كثيرون أنّها نظرية فحسب كمبحث (التوحيد) أو (صفات الله).

فـإذا وقـف المنهج الحيوي عند الآية التي سـبقت دراسـتها في الفهـم التجريدي: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[4]، فإنّه يسـعى إلى دراسـة صفات الله - تبارك وتعالى - على أنّها «مؤشـرات للسـلوك في مجتمع الخلافة، وأهداف للإنسـان الخليفة»[5]، ومنارات جاءت ليهتدي بها المسلم في سلوكه الاجتماعي.

فإذا كانت الآية تتحدّث عن التوحيد ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، فإنّ شعور المؤمن بأنّه في حضرة الله الواحد ومراقبته يجعله يتخلص من كلّ شـائبة سـواه، فينضح

(١) سورة البقرة/ ٢.
(٢) سورة الجمعة/ ٢.
(٣) سورة الغاشية/ ٢١.
(٤) سورة البقرة/ ١٦٣.
(٥) السيّد الشهيد محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة/ ١٢٤- ١٢٥.

بالتزكية، ويبني فكره وفعله وفق هدف واحد منشود.. هو الله.

وكـون الوحدانيـة ممـا يعود إلـى (توحيد الـذات والصفـات)، وأنّ اللـه لم يقصر توحيده على غاية معرفية عقدية فحسب يجعل التوحيد يهدف إلى غاية أخلاقية عملية.

وإذا ذكرت الآية السـابقة لله - سـبحانه - صفة ﴿**إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾، فذاك يحثّ المسلم على لزوم التخلّق بأخلاق الله، وإحلال هذه الصفة في قلبه وفكره وعمله، ويترشـح مـن ذلـك رحمـة تضفي مسـوحها الصادق علـى كلّ شـيء من حولـه: الجماد والنبات، الحيوان والإنسان، الأسرة والمجتمع، الصغير والكبير.

وإذا كان مـا مضـى مع (توحيد الذات والصفات) فـإنّ الفهم الاجتماعي يصل إلى الأنـواع الأخرى للتوحيد ليعطيها دلالة عمليـة اجتماعية، فإذا وقف عند (توحيد العبادة) فـي مثـل قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَـوَاء بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْـرِكَ بِهِ شَـيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْـهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾(١)، استخرج من من كوننا ﴿**لاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ**﴾، ما يؤدي إلى تهاوي كلّ صنم حجري وبشـري، حسّـي ومعنوي، خارجي وداخلي، وما توصلنا العبادة فيه إلى الإيمان بحاكميـة اللـه المطلقـة في التشـريع والتكوين، فهو - وحده - المشـرّع لعبـاده، ومن ثمّ لابدّ من إقامة كامل السلوك العملي للفرد والجماعة وفق التشريع الإلهي، ولا قيمة لنظم وتشـريعات بشـرية وضعية تخالف التشـريع الإلهي، ولا صحة لربط التكليف الشخصي بالدين مع فصل نظم الجماعة والمجتمع والدولة عنه. ولا عبادة أو خوف من أحد سوى اللـه؛ لأنّه ليس هناك من يملك السـلطة علـى مجريات هذا الكـون والطبيعة ونظمها غير الله، وكلّ شـيء في الوجود يعبده ويسـبّحه: ﴿**تُسَـبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّـبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾(٢)، وهكذا يشـعر المؤمن بأنّ هنـاك خيطاً ينظمه هو والكون معاً في طريق الله سـبحانه، وأنّ نظم التكوين والتشريع تسير معاً في اتجاه واحد وهدف واحد.. هو الله.

ومن صفات الله تعالى (العدل):

﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(٣)،

---

(١) سورة آل عمران/ ٦٤.

(٢) سورة الإسراء/ ٤٤.

(٣) سورة النساء/ ٤٠.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[١].

وعندما يكون من صفات الله تعالى (العدل)، فيلزم أن يقيم المسلم كلّ حياته وتصرّفاته وفق ميزان العدل والقسط، ويحوّل العدل إلى مظهر من مظاهر الفعل الاجتماعي في حياته، من باب أنّ الله عادل، والمؤمن يتخلق بأخلاق الله -جلّ وعلا-.

وهكذا نحقق في أنفسنا العدالة: الذاتية والخارجية، في أنفسنا ومع ما حولنا، ويكون فهمنا للعدالة الإلهية ونفي الظلم عاملاً ديناميكياً فاعلاً.

أما (توحيد الطاعة): ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[٢]، فذلك بأن نطيع ربَّ الأكوان، ونمتثل أوامره، ونتجنّب زواجره، وبالتالي نرفض الطاعة لغيره سبحانه.

وبطريقة الفهم الاجتماعي هذه يتحوّل المعنى العقدي إلى مفهوم ثوري ديناميكي حيوي يبعث الفاعلية والنشاط، ولا يغدو فهماً تجريدياً سكونياً خاوياً من المسؤولية وحسّ التفاعل الحقيقي، كذاك الذي رأيناه في الفهم التجريدي والتاريخي، فهم يستهدف جلب النفع للآخرين، لا العمل وفق المصلحة الذاتية ولو أركست الآخرين في المستنقع الوبيل.

وتأتي سورة (العصر) على قصرها كمؤشر يذكر أهم المحدّدات التي ينبغي أن تؤطر حياة المسلم، فتشير إلى لزوم أن تسير حياته نحو العقيدة الصادقة، والعمل الصالح، والدور الاجتماعي الذي يبرز بالتواصي والتفاعل مع الآخرين:

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣].

إذاً..، لابدّ من ربط القرآن الكريم بالحياة والمجتمع ليعطينا مفهوماً مختلفاً..، ولتتناغم تلك المفاهيم مع واقعنا الملموس، بدلاً من أن نحوّل آياته لبحوث تجريدية: تاريخية أو عقدية أو فلسفية أو فكرية أو....، بحوث هي أقرب للترف الفكري منها للفائدة الفعلية المرجوة.

---

(١) سورة فصّلت/ ٤٦.
(٢) سورة آل عمران/ ٣٢.
(٣) سورة العصر/ ١- ٣.

٢- كشف أسرار المستقبل:

والفهم الحيوي ليس قراءة ماضوية، بل تعني - إلى جانب الاستفادة من الماضي للحاضر - بالقراءة الاستشرافية التي تفتح عينها النافذة على المستقبل؛ لئلا تتفاجأ به على المستوى النفسي، ولتفكّر في محتملاته على المستوى العقلي، ولتستعدّ له على المستوى العملي.

عليهم أن يختزنوها في قلوبهم، ويعوها بعقولهم، ويعدوا لها المتطلبات العملية المناسبة؛ لتنير لهم درب المستقبل الآتي، وتضيء لهم أحداثه قبل أن تحصل، فيكونوا على أهبة الاستعداد النفسي والعقلي والعملي.

فقد أغدق القرآن الكريم على المسلمين بوابل هتان من التنبؤآت المستقبلية التي تخبرهم بما سيكون في المستقبل القريب (المحلّي والدولي)، والمستقبل البعيد.

ونعني بالمستقبل القريب ما يمكن لأبناء الرسالة الأول من معتنقي الإسلام أن يروه ويتحققوا من مدى صدقه وحصوله.

فعلى الصعيد المحلّي الداخلي أخبرهم القرآن بهزيمة قريش في مواجهة المسلمين: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾[١]، وزفّ لهم البشرى القادمة بفتح مكة التي كانت أعتى قلاع الكفر والشرك: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[٢].

وعلى الصعيد الدولي تحدّث القرآن الكريم في سورة الروم عن معركة للتوّ قد جرت بين الفرس والروم، لن تصل أخبارها للمسلمين قبل أقل من شهر ضمن تقانات نقل المعرفة آنذاك: ﴿**ألم * غُلِبَتِ الرُّومُ**﴾[٣].

ثمّ قدّم للمسلمين بُعداً استشرافياً مستقبلياً، ليخبرهم بأنّه في مدة أقصاها بضع سنين ستقع معركة فاصلة أخرى تدور فيها الدائرة على الفرس، وينتصر الروم المسيحيون، ويفرح المؤمنون (المسلمون)؛ لأنّ المسيحيين أقرب للعقيدة الدينية من الفرس والمجوسية: ﴿**فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ**

(١) سورة القمر/ ٤٤- ٤٥.
(٢) سورة الفتح/ ٢٧.
(٣) سورة الروم/ ١-٢.

لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

وكما تحدث للمسلمين عن أمر استقبالي (محلي ودولي)، ثمّ حصل وشهدوه بأم أعينهم، وعلتهم البهجة والغبطة كما أخبرهم، ذكر القرآن الكريم أسراراً ستقع في المستقبل البعيد عنهم، ولم تحصل إلى وقتنا الحاضر، وستحصل حتماً في مستقبل الزمان.

ونعني بالمستقبل البعيد: ما سيحصل في زمن لن يكون معتنقو الإسلام الأوائل أحياء فيه، وإنّما سيقع بعد رحيلهم وموتهم بسنين طوال، وتلك معجزة قرآنية أخرى؛ لأنّ الآيات التي تتحدث عنه موجودة بين دفتيّ الكتاب الصادق، تخبرهم أنّ هذا سيقع في مستقبل الزمان.

ومن هذا:

- **﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾**(٢).

- **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**(٣).

وفي أعماق القرآن زخمٌ ضخم من الأسرار التي لم تُكتشف بعد، تحتاج إلى التنقيب والغوص في الأعماق حتى تُستكشف ويُماط اللثام عنها من خلال فهم نظريات القرآن والسنن التي تحدّث عنها الله - تبارك وتعالى - في كتابه المجيد.

٣- مدرسة التربية:

وفي الفهم الحيوي فإنّ القصص القرآنية جاءت لتقدِّم للأفراد والجماعات والشعوب أحدث الوسائل التربوية والتطبيقات العملية السلوكية، وذلك من خلال طرْق مواضيع حساسة غاية في الأهمية، حيث نشهد استنباطات غاية في الروعة والبهاء، نستطيع بها معالجة الجوانب التربوية من خلال القرآن الكريم، ومنه نضع النقاط على حروفها بالنسبة لحلّ المشاكل التربوية المعاصرة، وأخذ الطرق المثلى للتربية بشتى جوانبها، هذه الطرق هي الأجدى نفعاً؛ لأنّها من لدن خالق البشر والعالم بما يصلحهم ويصحّح

(١) سورة الروم/ ٣- ٤.
(٢) سورة النمل/ ٨٢.
(٣) سورة الدخان/ ١٠- ١١.

مسارهم، والأعلم بما ينسجم مع خبايا نفوسهم وطبيعة تركيبتهم الجسمية والعقلية.

فقد تأتي هذه الحكم التربوية على شكل معيار وضابطة عامة، وقد تأتي في شكل قصة وحدث:

ومما جاء على شكل معيار قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾(١).

فإذا كان علم النفس قد قصر دراسته على (السلوك) باعتباره القابل للمعيارية والقياس والملاحظة، متخلياً عن دراسة (الشعور) الذي وجده داخلياً مختلفاً بين الناس، ومبتعداً عن دراسة (العقل)، فإنّ القرآن الكريم يصبّ اهتمامه في التربية على الجوانب الثلاثة معاً، فقوله تعالى: ﴿**يُزَكِّيهِمْ**﴾ إشارة للشعور والجانب النفسي الذي ينبغي أن يُطهّر وتُزال عنه الشوائب، وقوله: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**﴾ إشارة للجانب العقلي، فالعقل إحدى وسائل نيل العلم، وقوله: ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ إشارة للسلوك؛ إذ هي وضع الفعل في محله المناسب.

ومما جاء على شكل قصة وحدث قصة النبي يوسف عليه السلام التي أغرقها الفهم التاريخي في التفاصيل ومتاهات الاختلاق حتى أضاع نكهتها ورونقها، والتي حكى شيئاً منها قول الله تعالى: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ، وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ: يَا أَبَتِ، هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ، مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾(٢).

فبينما يغفل الفهم التاريخي عن الأسرار العظيمة التي تكتنزها الآيات الكريمة، يهتم الفهم الحيوي بأبعادها التربوية، ويحاول فهم تلك اللطائف والأسرار، فيتأمل المقطع السابق - مثلاً - تحت إطار (صفات المؤمن في الرخاء)، فيستنتج منه:

أ- عدم التكبر على ذوي الفضل:

يظهر هذا الموقف متمثلاً بإعلاء يوسف عليه السلام منزلة أبويه، وتضييفهما في أفخر مكان بمنتهى العزّ: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ**﴾، وعدم الاغترار والخيلاء بالمنصب.

(١) سورة الجمعة/ ٢.
(٢) سورة يوسف/ ١٠٠.

ب- التدبر في النعمة وشكرها:

فيوسف عليه السلام لم يغفل أنّها هبة إلهية ومنّة ربانية، يريد الله بها أن يُكمل له بقية العطايا، فقال عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ، هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، إنّه الله الذي أسدى وأنعم، وليس كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾(١)، ثمّ يتذكر حاله من قبل حين كان في غياهب السجن ففرّج الله عنه بإخراجه منه، كما فرّج عن كرب أهله.

ج- الصفح عن المسيء:

كلا!! لم يصفح وحسب، بل ولم يشر إطلاقاً إلى الجرم الذي ارتكبه إخوته في حقه، فلم يقل: (وقد أحسن بي إذ أخرجني من [الجبّ])، بما يحويه من تعريض بهم، بل قال: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، مع أنّه في الجبّ كانت الحلكة الأولى والموقف الأشد الذي صفع عمره الصغير وغصنه الغضّ الندي آنئذ، لكنّه لم يذكِّرهم به مراعاة لهم، بل ولم يكتفِ بالصفح أو عدم التذكير بالقبح، بل يكاد يضع نفسه موضع المخطئ، فيقول: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، بادئاً بنفسه، ولم يقل (بين إخوتي وبيني)!، أو (من بعد أن كاد لي إخوتي)!

د ـ دوام الثناء ومواصلة الطريق:

فيقول بلسان الشاكر الذي يلهج بالرضا بقضاء الله مهما دجى عليه ظلام الماضي وتكاثفت خيوطه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

ليس هذا وحسب، بل إنّه وفي حديثه الدافئ لأبيه منذ قوله: ﴿يَا أَبَتِ، هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾، عندما يصل لذكر الله وصفاته ينسى والده وكلّ الوجود من حوله، ويلتفت إلى ربّه في نغمة عشق طافح، ويغرق في مناجاة ربّه في لحظات أنس المحبّ بمحبوبه الأكبر، فيتضرّع: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ..﴾(٢)، ثمّ يطلب من الله أن يعينه على الاستقامة إلى آخر رمق، فيقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة القصص/ ٧٨.

(٢) سورة يوسف/ ١٠١.

(٣) سورة يوسف/ ١٠١.

والآن، هـل يسـتطيع الفهم التاريخي المجـرّد أن يُظهر هـذه الجوانب المضيئة في شخصية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!

والقصص التي مثل أهلها السـوء هي أسـلوب تربوي يتمّ التنفير منه عبر إبراز آثاره الوخيمة وعاقبته في الدنيا والآخرة:

﴿بَـلْ قَالُـوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَـلْنَا مِـن قَبْلِـكَ فِي قَرْيَـةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَـالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّـا وَجَدْنَا آبَاءنَـا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّـا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[(١)].

ومن قصص أهل السـوء قصة قارون الذي كان من قوم موسى، فكساه الله بالكنوز والثراء، فطوّح به الغرور والتكبر فأنكر فضل الله عليه، ولـم يصغ للناصحين، وانشـقّ عن قومه، وراح يزهو ويتبختر في أمواله وأبهته، فخلق تشوشـاً وتضارباً في الرؤية المجتمعية تجاه الثروة، ثمّ كان عاقبته الدمار والهلاك:

﴿إِنَّ قَـارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَـى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِـنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِـن كَمَا أَحْسَـنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَـادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِـدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَـرَجَ عَلَـى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ * فَخَسَـفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[(٢)].

ولعلّ واحداً من أهم أسباب كثافة ذكر قصص بني إسرائيل في القرآن الكريم هو ما أكّده الرسـول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من أنّ الأمة الإسلامية ستسير مسار بني إسرائيل، وقد أعلمهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال: «لتتبعُنّ سـنن من قبلكم شـبراً بشـبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سـلكوا جحر ضبّ لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟، قال: فمَن؟»[(٣)].

(١) سورة الزخرف/ ٢٢- ٢٥.

(٢) سورة القصص/ ٧٦- ٨١.

(٣) صحيح البخاري، م ٢، ج ٤، ص ٢٠٦، باب (ما ذُكر عن بني إسرائيل)، وفي موضع آخر ذكر

وبالتالي فذكر قصص بني إسـرائيل هو ذكر لنموذج عملي سـابق نسـتطيع أن نقرأ فيه مكامن القوة والضعف، الصعود والهبوط، الاسـتقامة والانحراف، ومن ثمّ يضمن لنا الطريقة المثلى بذكر النموذج المفصّل للحال الذي يمكن أن تكون عليه الأمة الإسلامية، فهي ليسـت أمثلة تاريخية بمقدار ما هي (نماذج ومصاديق) تتكرّر في كلّ زمان، وبمقدار مـا هـي قراءات للأفعال المسـتقبلية الممكن صدورها من أمة الإسـلام علـى نحو الفعل التكـراري المحتـذي لنمـوذج سـابق!!، أي أنّ أفعال المسـلمين تلك سـتكون نحواً من (التقليد والمحاكاة) التي أوضح الإسـلام سـيرورتها فيما مضى؛ لنعلم الأسلوب الأمثل للتعامـل القـادم معها إن حصلت، لا مجرّد كونها قصصاً تاريخية حصلت مع أمة سـالفة، وغدت متعة ذهنية.

وباختصـار: هي نموذج تربوي لما سـتمرّ به الأمة المسـلمة، بيّنه الله للمسـلمين، وأراهم طرق الصواب لتثبيتها في بنائهم، وطرق الخطأ ليتجنبوها.

وهناك سور قرآنية يغلب عليها الطابع التربوي:

فـ(سـورة يوسـف) مفعمة بمسـاهماتها فـي النواحي التربويـة التي تشـمل التربية الفردية - لاسـيما في تهذيب الغريزة -، والتربية الأسـرية، والتربية الاقتصادية (الترشـيد الاقتصـادي)، والتربيـة السياسـية عبر التأهيـل لمن سـيحرّك دفة هذيـن المقبضين. وقد تناولنا في النقاط السابقة بعضاً من الملامح التربوية الواردة في سورة يوسف.

و(سـورة النـور) تتحدّث باهتمام بالـغ بالتربية الأخلاقية، ولاسـيما في عفة البصر والفـرج: ﴿قُـل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُـمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُـنَّ إلا مَـا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِـنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِـنَّ أَوْ آبَـاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِـنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِيـنَ لَـمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَـاء وَلا يَضْرِبْـنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِيـنَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

هذا الحديث مع شيء من التغيير فقال: «لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم شبراً شبراً، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟، قال: فمن؟»، م ٣، ج ٩، ص ١٢٦، باب (قول النبي ﷺ: لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم).

(١) سورة النور/ ٣٠- ٣١.

٤- كسر الجمود:

التقاليد والأعراف المحلية تفرض سلطتها على المجتمع القابل لها، وتمسك بتلابيبه فتكون الآمر الناهي وميزان الفعل ومعيار الصحيح والمقبول، ومن ثمّ تعمى العين عن رؤية المفارقات والأخطاء، وتقبل الخطأ بوصفه الصواب.

وهذا ما جعل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء من قبله يواجهون مجتمعات لا تستطيع أن ترد على الحجة الدامغة، ولا تجد إزاءها إلا أن تركن إلى دفء المألوف الاجتماعي والعادة الجارية، لاسيما تلك الممارسات التي فتحوا أعينهم على الحياة وهي موجودة في المجتمع واعتنقها آباؤهم من قبلهم وساروا عليها، لكنّ الثقافة القرآنية تحطّم صخور هذه العقليات المتكلّسة المتشبثة بأعراف ما أنزل الله بها من سلطان، وبالتالي ترفع الغطاء لإيقاظ الأمة من سباتها العميق وبثّ دماء الوعي والصحوة الحقيقية في عروق الأمة؛ فتزدهر بساتين المجتمع بالعطاء والتفاعل، ثمّ يتمّ من خلال ذلك كسر النمطية الرتيبة والقفز إلى قمم إبداعية حديثة لم ترها العيون من قبل.

وهكذا جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم - كنموذج للأنبياء - ليهدّم الأصر النفسية والأغلال الخارجية المسيطرة على المجتمع: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1].

ومن ثمّ تشرب المسلمون الأوائل بفهم حيوي للقرآن كسر الجمود في الذات الساكنة، وفي الخارج الكالح، ففهموا القرآن ثورة ضد الكفر والشرك، وضد الظلم والطغيان، وحركة في الذات والمجتمع والعالم، فأضحى المؤمن يصغي لآية فيشرق فيه فيضٌ قدسيٌ فاعل، فيهجر المنام، وينصب نفسه خاشعاً في الليالي يناجي ربه، ويسمع آية فيمزّق الرؤى الجاهلية الخرقاء - لاسيما في العداوات والأحقاد الاجتماعية -، فأصبح فهمهم الحيوي للقرآن منطلقاً للتغيّر والتغيير الذاتي والغيري، الفردي والاجتماعي، العقدي والأخلاقي والعملي، وهكذا غدت القلة المؤمنة آنذاك نواة التغيير لوجه البسيطة وقائدة حركتها لقرون من الزمن: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم**

(١) سورة الأعراف/ ١٥٧.

مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

وهكذا نجد أنّ بصائر القرآن تعطينا منهجية إلهية سليمة للتعامل مع الوقائع والأحداث برؤية حيوية حركية ناضجة تتعانق مع روح السماء الحكيمة التي تضمن الفوز بالدارين.

٥- التحرّك السياسي:

فالفهم الحيوي يعنى باستخراج القيم والمعايير القرآنية للسلوك السياسي، وتقييم التحرّك الاجتماعي والسياسي، وإعطائه الصبغة الشرعية إن كان موافقاً لمنهج الله.

ويحثّ على أخذ الأحكام الدستورية من الله، وتطبيقها على أرض الواقع؛ لكي يتلوّن الفرد والمجتمع بصبغة الله: ﴿**صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**﴾[٢]، وعند ذلك سيشهد العالم ضرورة اللحاق بركب الحضارة الإسلامية، ويعطي رداً قوياً لمن يتنكر لمشروعية ممارسة السياسة من قِبَل الدين!

ونريد أن نقول من خلال الكلام السابق: إنّ الفهم الحيوي لا يقتصر على تحريك الفرد ضمن سلوكه الفردي، أو خلق الفاعلية الاجتماعية في المجتمع، وإنّما يمتدّ لشؤون الدولة والحكم وغيرها مما يدخل في النطاق السياسي؛ ليشدّ ذلك كلّه بخيط واحد يمسكه الدين.

ولا نريد – هنا – أن نتحدّث عن سمات التحرّك السياسي في القرآن الكريم، ولكنّنا نشير إلى آيتين مما تحدّث عن ذلك.

فقد ذكر القرآن الكريم لزوم كون (الرمز) الذي يشكل قمة الهرم السياسي منطلقاً في داخله من رحمة وتسامح تجعل الآخرين يلتفون حوله، لا من قوانين تعسفية أو ملتوية تتقلب ضمن (الغاية تبرّر الوسيلة)، أو (جوّع كلبك يتبعك)، أو (لنا الأرض ومَن وما عليها)، كما يلزم أن يشاور الآخرين؛ ليشعرهم بمشاركتهم في صناعة القرار وعدم استفراده به، ولكي يستفيد من عقولهم التي يضمها إلى عقله، كما يلزم أن تكون عنده

---

(١) سورة الفتح/ ٢٩.
(٢) سورة البقرة/ ١٣٨.

قدرة الحسم وشجاعة إصدار الرأي، يقول الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١].

وإذا كانت الآية السابقة تشير إلى لزوم أن يشاور الراعي رعيته، والحاكم أمته، ومن يمسك بالزمام مَن تحته وتحت مأموريته، أي أنّها في مقام مخاطبة الراعي والقمة، فإنّ هناك آية أخرى تحدّثت عن الشورى كسمة للأمة فيما بينها أيضاً: **﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**[٢]، فكانت في مقام مخاطبة الرعية والقاعدة والوسط الاجتماعي.

وبهذا تؤسس الآيتان لمبدأ الشورى في القمة والقاعدة معاً، وتحثهما على الأخذ بذلك، فإن قصّر أحدهما حرّكه الآخر بما أسسته الآية فيه من فاعلية وحركة طرفينية، فيشيد الحاكم حكمه على أسس الشورى، ويحرّك الأمة في سبيل المساهمة في الشأن السياسي، وتبني الأمة نفسَها على الشورى - وعياً وحقاً وممارسة - بما يجعلها تقف ضد استفراد شخص أو حزب أو فئة بالحكم.

٦- إشراقة الأمل:

من سطور القرآن المجيد يتنفس المؤمنون عبق الأمل، وخصوصاً الجماعة المؤمنة المستضعفة، وهذا ما يجعل الفهم الحيوي لا يقبل السوداوية المطبقة، ولا شعار (ما كان في الإمكان أبدع مما كان!)، ولا (جرى قلمُ القضاءِ بما يكونُ - فسيّانَ التحرّكُ والسكونُ)، وبذاك يجعل المؤمنين - دوماً - يعكسون المعادلة ليفتحوا كوة للتطلع، ويردموا هوة اليأس، ويتحلوا بالصبر والعمل اللذين هما النور الممزِّق لسدف الظلام؛ لأنّ **﴿اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾**[٣].

وحتى لو دجى الدهر، وتشابكت حجب الظلام، واصطخبت جحافله بجولات وطنين، يظلّ الفهم الحيوي النشط بداخلهم يغذيهم بأشراقة الأمل والتغيير، ويجعلهم يشحذون قواهم لتحريك الواقع الساكن نحو ذاك الإشراق المرتقب، ومن هذا النمير

---

(١) سورة آل عمران/ ١٥٩.
(٢) سورة الشورى/ ٣٨.
(٣) سورة الرعد/ ١١.

تستقي النفوسُ المتعطشة زلالَ التوازن الذي لو اختلّ لأطبق اليأس بجناحه الحالك على الأجواء، فالأمور لا تقف عند حدّ الحاضر ولو كان حالكاً، بل هناك مستقبل منشود نتطلع إليـه، ونسـعى من أجله، وهم يؤسسـون رؤيتهم الآملة تلك على ما وعدهـم ربهم من أنّ النهاية دوماً ستكون للحقّ:

- **﴿هُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّـهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**[1].

- **﴿وَنُرِيـدُ أَن نَّمُـنَّ عَلَـى الَّذِينَ اسْـتُضْعِفُوا فِـي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّـةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾**[2].

- **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[3].

فالقـراءة الحيويـة لآيّ القـرآن تبصر بعيـن إيجابيـة وإن تغلف الواقـع بالمصائب والرزايا والبلاء، وترى الإشراق المستتر خلف الواقع الدامس.

آثار الفهم الحيوي:

مـن طبيعـة المنهج الإلهـي (الحيوي) أنّه يُخرج المتمسـكين به مـن الظلمات إلى النـور، بخلاف المناهج الأخرى التي تظـلّ تتخبّط في المتاهات، وتتعثر بأحجار الضلال الملقاة في الطرق الوعرة: **﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَـرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُـوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِـكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[4].

وتتجلى آثار الفهم الحيوي في جانبين:

١- حركية المفهوم:

فالفهم الحيوي لا يقبل المفاهيم السـكونية ولا المخدِّرة - حتى لو أُلبسـت عنواناً قرآنيـاً -، وإنّمـا يتفاعل مـع المفاهيم الحيوية النابضة بالحركة والنشـاط، ومن ثمّ يبني له

(١) سورة التوبة/ ٣٣.
(٢) سورة القصص/ ٥.
(٣) سورة الأنبياء/ ١٠٥.
(٤) سورة البقرة/ ٢٥٧.

مفاهيم فاعلة (دينامية) تتحرّك، وتحرّك ما حولها.

أي أنّنا أمام أنواع من المفاهيم:

أ - مفاهيم حركية حيوية فاعلة (حية).

ب- مفاهيم سكونية خاملة (ميتة).

ج - مفاهيم تخديرية قاتلة (مميتة).

والفهم الحيوي للقرآن يبني المفاهيم الحركية، ويقاوم السكونية والتخديرية.

فإذا قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، رأى بأنّ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ هي نظرة للمجتمع المؤمن بوصفه ذاتاً واحدة ونفساً واحدة منسجمة داخلياً، ولا تتأثر ببذور الضعف التي تُنفث من خارجها، بما تختزنه من دلالة ميم الجمع (عليكم/ أنفسكم/ لا يضركم/ اهتديتم).

وهذا المفهوم يتناقض تماماً مع ما يفهمه البعض من أنّ الآية تحثّ على الفردية، وأنّه لا دخل للفرد بالآخرين ما دام يسير على الصراط المستقيم، ولزوم أن يعتني الإنسان بنفسه وتزكيتها ودفعها للعمل الصالح دون الحاجة إلى الاعتناء بالمجتمع من حوله، فكلٌّ منّا مكلّف بنفسه، ولا يضرّه من ضلّ إذا اهتدى، والإنسان ليس مسؤولاً عن تغيير المناخ الفاسد من حوله!!. هذا المفهوم الميّت المميت معاً..، فهو (ميّت)؛ لأنّه يجعل صاحبه لا يقبل الحِراك والفاعلية، وهو (مميت)؛ لأنّه ينفث السمّ في الآخرين، فيحيل النشِط - إن آمن به - جثة هامدة!!

أما لماذا عبّرنا عنه بأنّه (ميّت) و(مميت) على الرغم من اعتماده لدى البعض على فهم ديني؟، ولماذا لم نؤمن به وخلفه آيات وروايات؟!؛ فلأنّنا نرى أنّه يناقض المنظومة العامة للقيم الدينية، وأنّ تشكيل الرؤية لا يتمّ بأخذ مقطع يُفصل عن التركيبة العامة لنصوص الدين وأخلاقياته وضوابطه.

فلو كان الإنسان مسؤولاً عن نفسه فقط، ولا شأن له بالآخرين، فلماذا بعث الله الرسل؟، أوَليس لكي يؤدوا الأمانة بوصفهم ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]؟

(١) سورة المائدة/ ١٠٥.

(٢) سورة النساء/ ١٦٥.

ولماذا تحثّ آيات القرآن الكريم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغيير الواقع الفاسد: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**(١)؟

ولماذا يرى الرسول وخلفاؤه الأطهار عليهم السلام أنّ المؤمنين جسد واحد ويد واحدة ينبضان حسّاً وشعوراً بباقي الأجزاء؟، أي أنّهم (ذات جمعية واحدة): «المؤمنون في تبارِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى تداعى له سائره بالسهر والحمى»(٢)، «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»(٣).

ولماذا لم تأتِ الضمائر في الآية بالمفرد (عليكَ/ نفسكَ/ لا يضركَ/ اهتديتَ)؛ لتتفاعل مع الشعور بالفردية؟!

٢- فاعلية التطبيق:

وكما يتطلّب الفهم الحيوي مفاهيم حية، يتطلّب تطبيقاً فاعلاً لتلك المفاهيم، فلا تكون مفاهيم حيوية وحسب، بل تنزل إلى ميدان الفعل، وهو اشتراط طبيعي؛ لأنّ المفاهيم الحيوية تخلق الأفعال المنسجمة معها، ولو لم تتطلب ذلك لما كانت مفاهيم حيوية، وإنّما كانت ميّتة أو مميتة مغلّفة بعنوان الحيوية، كأولئك الذين ادعوا أنّهم عزموا الخروج للقتال مع المؤمنين ولم يعدوا له عدته: **﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾**(٤)، فهؤلاء كانت تهدهدهم فكرة الجلوس التي كان يقودها الخوف من الموت وملاقاة العدو.

وفي طرف التفاعل مع الفهم الحيوي تترشح تطبيقات تحكم كلّ شيء في مسيرة الإنسان، فتغدو جميع حياته فاعلية: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٥).

ويضحي صاحب الفهم الحيوي شعلة تشعّ أينما تكون، ويتدفق منها الخير أينما

(١) سورة آل عمران/ ١١٠.
(٢) بحار الأنوار ٧١/ ٢٧٤، الباب ١٦، ح ١٩.
(٣) الشيخ حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ١٨/ ٢٣٧، الباب ٢٧، ح ١.
(٤) سورة التوبة/ ٤٦.
(٥) سورة الأنعام/ ١٦٢.

تكون: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[١].

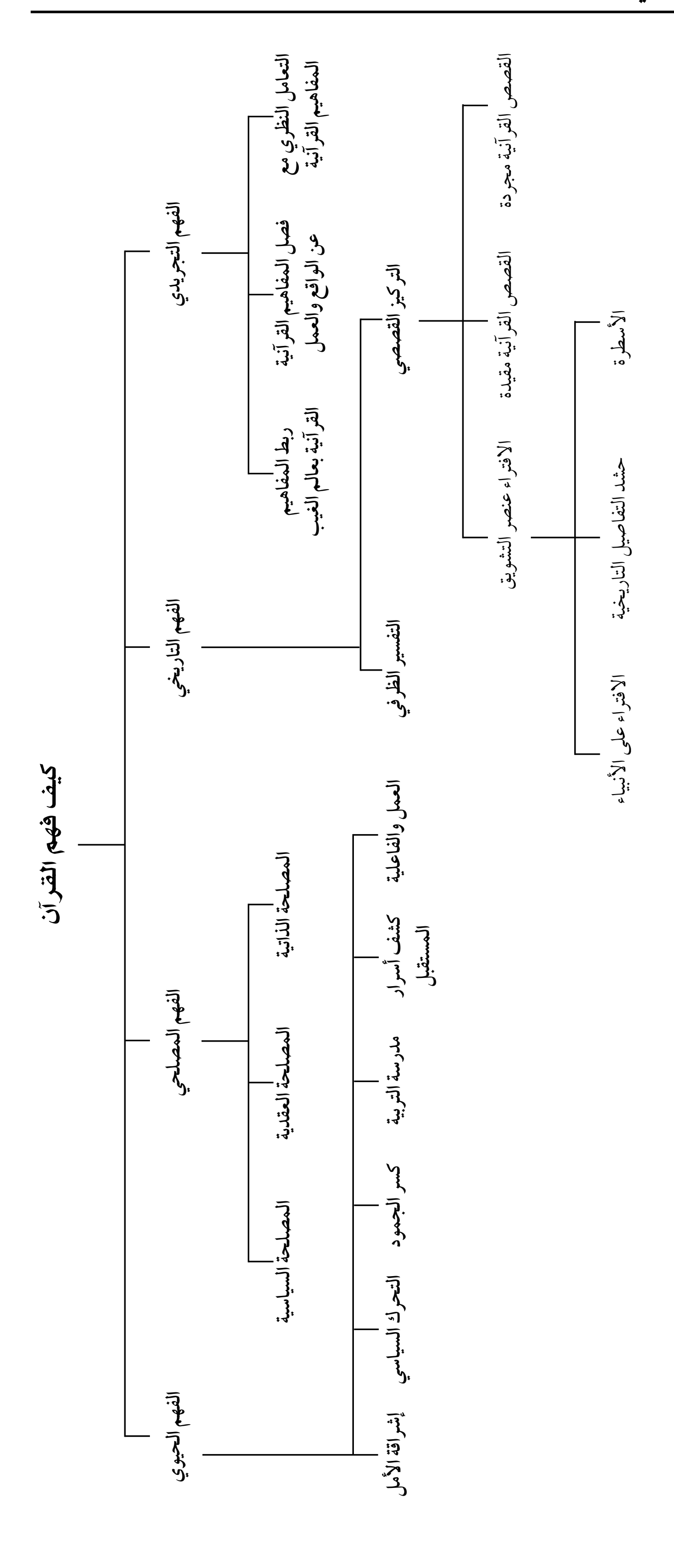
الخلاصة:

وهكذا ندرك أنّه شتان بين الاقتصار على المفاهيم النظرية التجريدية الضيّقة الأفق أو التاريخية السردية.. من جهة، والأخذ بالمفاهيم الحية المتناغمة مع القلب والفكر والسلوك من جهة ثانية.

ولا يُفهم مما مضى أنّنا ندعو إلى ترك الاستلهام الفكري النظري من القرآن الكريم، أو قطع الحاضر عن الماضي وعدم الاستفادة من التاريخ، ولا أنّنا نقصر استفادتنا من القرآن الكريم على جوانب الفعل والحيوية وحدها، وإنّما ندعو إلى تحريك الجانب النظري والتاريخي وأن لا نجمد عندهما، بل تتدفق المياه في الجداول، وتسقي الميدان العملي كذلك.

فنحن بحاجة ماسة إلى استلهام الفكر والمفاهيم من القرآن الكريم، وأن نعرض معارفنا وعلومنا وعقائدنا ونظرياتنا في شتى الحقول عليه، وأن نجعل ذلك يترشح - كذلك - على حياتنا العملية والاجتماعية.

(١) سورة مريم/ ٣١.


كيف فهم القرآن
الفهم التجريدي
التعامل النظري مع المفاهيم القرآنية
فصل المفاهيم القرآنية عن الواقع والعمل
ربط المفاهيم القرآنية بعالم الغيب
الفهم التاريخي
التركيز القصصي
القصص القرآنية مجردة
القصص القرآنية مقيدة
الافتراء عنصر التشويق
الأسطرة
حشد التفاصيل التاريخية
الافتراء على الأنبياء
التفسير الظرفي
الفهم المصلحي
المصلحة الذاتية
المصلحة العقدية
المصلحة السياسية
الفهم الحيوي
العمل والفاعلية
كشف أسرار المستقبل
مدرسة التربية
كسر الجمود
التحرك السياسي
إشراقة الأمل



ت١: أضعُ علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- روّاد الفهم التجريدي يستندون على القصص القرآنية وأسباب النزول. ( )

ب - هناك مَن يغالي في الفهم الحيوي ويستنبط من الآيات المتحدّثة عن توحيد الذات والصفات فهماً اجتماعياً. ( )

ج - الفهم الميّت والمميت قد يجريه البعض على الآيات القرآنية. ( )

ت٢: أختارُ الإجابة الصحيحة مما يلي:

١ - الفهم النظري للقرآن، والذي يربط المفاهيم القرآنية بعالم الغيب، ويفصلها عن عالم الواقع والفعل والعمل، هو:

أ- الفهم التجريدي. ب - الفهم التاريخي. ج - الفهم المصلحي.

٢- أهم سمة في الفهم الحيوي، هي:

أ- كشف أسرار المستقبل. ب- التحرّك السياسي. ج - العمل والفاعلية.

ت٣: قال تعالى على لسان المؤمنين من الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾[1].

أُجري على هذا المقطع القرآني كلاً من:

أ- الفهم التجريدي. ب - الفهم التاريخي. ج - الفهم الحيوي.

وأبيّن الفرق في التناول والتباين في النتائج التي سنحصل عليها.

ت٤: في الفهم التاريخي، هل كلّ قصة مجرّدة هي بالضرورة مقيّدة أم العكس؟، أم أنّه لا تلازم بينهما؟

---

(١) سورة الجنّ/ ١٣- ١٦.

ت٥: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(١)، في هذه الحكاية القرآنية ومتلمساً الفروق بين كلّ اتجاه عن الآخر، أقوم بالبحث عن نماذج لكلّ من:

أ- القصة المجرّدة. ب- القصة المقيدة. ج - القصة المختلقة.

ت٦: بينما كنّا نقرأ في أحد التفاسير ونتصفح ما كتبه مفسّر حول قصة نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عند عبوره وادي النمل، وجدنا أنّ المفسِّر قد عقد بحثاً مفصلاً حول (اسم النملة) التي حذرت بقية النمل، وأوردَ اختلاف الأقوال في هوية اسمها!؛ ليفرد أكثر من صفحة لمناقشة هذا الجانب، فما هو رأينا في الآتي:

أ - أين موقع هذا البحث من الأفهام الثلاثة (التجريدي، التاريخي، الحيوي)؟

ب- هل نعتقد أنّ التطرّق لمثل هذه التفاصيل ضروري ومفيد؟!

ت٧: في شأن التزاوج البشري يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢). أحاول أن أُعمِل الفهم الحيوي على هذه الآية مستخدماً أدوات حيوية ما أمكنني.

ت ٨: أتأملُ قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٣)، وأستخرجُ منها بعض أخلاقيات القائد الديني.

---

(١) سورة ص/ ٤١- ٤٣.
(٢) سورة الروم/ ٢١.
(٣) سورة آل عمران/ ١٥٩.



مناهج تفسير القرآن الكريم

حيـن نلقي نظرة على مناهج المفسّـرين المتَّبعة في كتبهم نجدهـا - عادة - تغلِّب منهجاً على غيره، وتأخذ بمعطياته، ومن تلك المناهج:

أولاً: التفسير بالمأثور (النقلي):

ويفسِّر القرآن بما ورد في (الأثر)، أي بالقرآن الكريم نفسه، أو بالسنة المباركة، أو بأقوال الصحابة والتابعين، فإن لم يجد التوضيح في ذلك لجأ إلى الشـعر العربي، ومعنى هذا أنّ هناك أربعة أقسام للتفسير بالمأثور، هي:

أ - تفسير القرآن بالقرآن.
ب- تفسير القرآن بالسنة.
ج - تفسير القرآن بقول الصحابة.
د - تفسير القرآن بقول التابعين.

وقد نشـأ التفسير الأثري في أحضان علم الحديث، فكان حفّاظ الحديث ومدونوه ينقلون الروايات الشريفة في شتى الجوانب، ومنها في تفسير بعض الآيات الكريمة.

ومن أبرز ما نقل المأثور: تفسـير ابن عباس الذي حمل عنوان (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس)، الذي جمعه الفيروزآبادي صاحب معجم (القاموس المحيط).

وفـي عصر التدوين توالى حفّاظ الحديث على تضمين الروايات المفسِّـرة للقرآن فـي كتبهـم الحديثية والروائيـة، وكان بعضهم يفرد فـي كتابه الحديثي بابـاً بعنوان (كتاب التفسير)، أو (ما ورد في التفسير)، أو (أبواب تفسير القرآن)، ويأتي في طليعة هؤلاء: يزيد بن هارون السُّـلمي، وشـعبة بن الحجّاج، ووكيع بن الجرّاح الرؤاسي، وسفيان بن عيينة،

والبخاري (محمد بن إسـماعيل)، ومسلم (بن الحجاج القشيري)، والترمذي (محمد بن عيسى).

ثمّ جاءت تفاسير قرآنية بالمأثور، ومنها:

١- (تفسير القرآن)، لعبد الرزاق بن همام.

٢- (التفسـير)، لابن أبي شـيبة (أبي بكر عبد الله بن محمد العبسـي)، الذي روى عنه الحديث: البخاري، ومسـلم، وابن ماجة (محمد بن يزيد القزويني)، وأبو داوود السجستاني (سليمان بن الأشعث).

٣- (تفسير القرآن)، لابن أبي شيبة (أبو الحسن عثمان بن محمد العبسي)، وروى عنه: أبو داوود السجسـتاني، وابن ماجة، وابن أبي حاتم الرازي (عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي).

٤- (تفسير القرآن العظيم)، لابن أبي حاتم الرازي - المتقدّم -.

٥- (جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري.

٦- (الكشـف والبيـان عـن تفسـير القـرآن)، للثعلبـي (أبـي إسـحاق أحمـد بـن إبراهيم).

٧- (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، للثعالبي (أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف).

٨- (معالم التنزيل)، للبغوي (أبي محمد الحسين بن مسعود).

٩- (تفسـير القرآن العظيـم)، للحافظ ابن كثير (أبي الفداء إسـماعيل بن عمرو بن كثير).

١٠- (الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور)، لجلال الدين السيوطي (أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد).

ومن كتب التفسير بالمأثور لدى الشيعة الإمامية:

١- (تفسير غريب القرآن) أو (الغريب في القرآن)، لأبان بن تغلب.

٢- (التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري).

٣- (تفسير القمي)، لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القمي.

٤- (تفسير العياشي)، لمحمد بن مسعود بن عياش السلمي.

٥- (الصافي)، للمولى محسن فيض الكاشاني.

٦- (البرهان) للسيّد هاشم البحراني.

٧- (نور الثقلين)، لعبد علي جمعة العروسي الحويزي.
٨- (كنز الدقائق وبحر الغرائب)، للميرزا محمد بن محمد رضا القمي، المشهور بـ (المشهدي).
٩- (بحر العرفان ومعدن الإيمان)، - مخطوط -، للشيخ محمد صالح البرغاني القزويني، ويبلغ ١٧ مجلداً حجرياً.
١٠- (كنز العرفان في تفسير القرآن)، - مخطوط -، للشيخ محمد صالح البرغاني القزويني، ويبلغ ٢٧ مجلداً حجرياً.

وإذا علمنا أنَّ (بحار الأنوار) للعلامة المجلسي كان في ١٧ مجلداً حجرياً، وعندما طُبع وصل إلى ١١٠ مجلد، فهذا يعني أنَّ (بحر العرفان) يقاربه أو يساويه، بينما (كنز العرفان) ينوف عليه!!، ولعلَّهما بهذا يكونان أكبر تفسيرين إسلاميين بالمأثور.

ومن التفسير بالمأثور لدى الشيعة الزيدية (فتح القدير)، للقاضي محمد بن علي الشوكاني.

ونموذجاً للتفسير بالمأثور ننقل المقطع التالي من تفسير (الصافي) للمولى محسن فيض الكاشاني، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَـرَ**﴾(١): «﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَـرَ**﴾: الخير الكثير، وفُسِّر بالعلم والعمل، وبالنبوة والكتاب، وبشرف الدارين، وبالذرية الطيبة.

وفي (المجمع) عن الصادق عليه السلام: هو الشفاعة.

وعنه - عليه السلام - قال: (هو نهر في الجنة أعطاه الله نبيه عوضاً من ابنه).

والقمي مثله. وفي (الأمالي) عن ابن عباس قال: (لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾، قال له علي بن أبي طالب عليه السلام: ما الكوثر يا رسول الله؟، قال: نهر في الجنة أكرمني الله به، قال علي عليه السلام: إنّ هذا النهر شريف فانعته لنا يا رسول الله، قال: نعم يا علي، الكوثر نهر يجري تحت عرش الله تعالى، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، حصاه الزبرجد والياقوت والمرجان، حشيشه الزعفران، ترابه المسك الأذفر، قواعده تحت عرش الله - عزّ وجلّ -، ثمّ ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جنب أمير المؤمنين عليه السلام وقال: هذا النهر لي ولك ولمحبيك من بعدي).

---
(١) سورة الكوثر/ ١.

وفـي (المجمـع) عـن النبي ﷺ أنّه سُـئل عنـه حين نزلت السـورة، فقـال: (نهر وعدنيـه ربـي، عليه خيـر كثير، هو حوضي، تـرد عليه أمتي يـوم القيامة، آنيتـه عدد نجوم السـماء، فيختلج القـرن[١] منهم فأقول: يا ربّ، إنّهم من أمتـي!!، فيُقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك).

وفي (الخصال) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (أنا مع رسول الله – صلى الله عليه وآله – ومع عترتي على الحوض، فمن أرادنا فليأخذ بقولنا، وليعمل عملنا، فإنّ لكلّ أهل نجيباً، ولنا نجيب، ولنا شـفاعة، ولأهل مودتنا شـفاعة، فتنافسوا في لقائنا على الحوض، فإنّا نذود عنه أعداءنا، ونسـقي منه أحبّاءنا وأولياءنا، من شـرب منه شـربة لم يظمأ بعدها أبـداً، حوضنا فيه مشـعّبان ينصبان من الجنة: أحدهما من (تسـنيم)، والآخر من (معين)، على حافتيه الزعفران، وحصاه اللؤلؤ، وهو الكوثر)»[٢].

ثانياً: التفسير العقدي (الكلامي):

ويركّـز كثيراً علـى الجانب العقائـدي الاسـتدلالي النظري، فيسـعى للبرهنة على القضايا والمباحث العقائدية وإثباتها ورد الفاسـد، كأن يناقش أصول الدين، فيبرهن على قضيـة التوحيد أو النبوة أو المعاد، أو ينقض فكـرة ثنائية الإله (إله النور وإله الظلمة) عند الزرادشـتية، أو فكرة التثليـث (الأب، والابن، وروح القدس) عند المسـيحيين، أو فكرة بنوة عزير لله عند اليهود، أو فكرة بنوة الملائكة لله عند العرب الجاهليين.

لكـنّ أكثـر التفاسـير العقدية اتجهت وجهة خلافية داخلية (إسـلامية – إسـلامية) تصبّ اهتمامها على مسـائل الخلاف بين السـنة والشـيعة، فبرزت تفاسـير تتبنى الوجهة العقدية للمسلمين السنة، ومنها:

١ – (منار السبيل في الأضواء على التنزيل)، للشيخ محمد العثمان القاضي.

٢ – (بشائر الرضوان في تفسير القرآن)، للأستاذ علي رفاعي محمد.

كما برزت تفاسير تتبنى الوجهة العقدية للمسلمين الشيعة، ومنها:

١ – (لطائف الغيبة والعواطف)، لأحمد بن زين العابدين العلوي.

٢ – (لوامع التأويل)، لمحمد المعصوم الاسترابادي.

(١) الاختلاج: الجذب والنزع. والقرن من الناس: أهل زمان واحد.
(٢) المولى محسن فيض الكاشاني، تفسير الصافي ٥/ ٣٨٢– ٣٨٣.

٣- (الكاشف)، للشيخ محمد جواد مغنية.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١)، قال الشيخ محمد العثمان القاضي: «أي وجوه يومئذ حسنة مشرقة تعرف فيها نضرة النعيم، تنظر إلى وجه ربّها عياناً بلا حجاب، وقد تواترت بها أحاديث سنة رسول الله، وهي من المتواتر، .... فعباده الصالحون ينظرون إليه كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر»(٢).

وقال الأستاذ علي رفاعي محمد في تفسيرها - بعد أن أورد بعض أحاديث الرؤية -: «هذه الأحاديث وغيرها كثير تدلّ قاطعة على أنّ المؤمنين يوم القيامة ينظرون إلى ربّهم في عرصات القيامة وفي الجنات، ومَن تأوّل (ناظرة) بأنّها تنتظر الثواب فقد بعُد عن الحقّ والصواب، ولم يفهم قوله تعالى في حقّ الكفار: ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٣)، فقد قال الإمام الشافعي: ما حجب الفجار إلا وقد علم أنّ الأبرار يرونه - عزّ وجلّ -، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - بما دلّت عليه الآية الكريمة»(٤).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(٥)، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «وحيث جاء في الآية الكريمة ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ نشير إلى النزاع القائم بين أهل المذاهب الإسلامية وفرقها من أنّ العقل: هل يجيز رؤية الله بالبصر أو يمنعها؟

قال الأشاعرة (السنة): إنّ رؤية الله بالبصر جائزة عقلاً؛ لأنّه موجود، وكلّ موجود يمكن رؤيته.

وقال الإمامية والمعتزلة: لا تجوز الرؤية البصرية على الله بحال، لا ديناً ولا دنيا؛ لأنّه ليس بجسم، ولا حالا في جسم، ولا في جهة.

وبعد أن منعوا الرؤية عقلاً حملوا الآيات الدالة بظاهرها على جواز الرؤية - حملوها على الرؤية بالعقل والبصيرة، لا بالعين والبصر، وبحقائق الإيمان لا بجوارح الأبدان على حدّ تعبير الفيلسوف الكبير محمد بن إبراهيم الشيرازي - المعروف بـ(الملا

(١) سورة القيامة/ ٢٢- ٢٣.
(٢) محمد العثمان القاضي، منار السبيل في الأضواء على التنزيل ٤/ ٢٨٦.
(٣) سورة المطففين/ ١٥.
(٤) علي رفاعي محمد، بشائر الرضوان في تفسير القرآن ٢٩/ ١٣٢.
(٥) سورة البقرة/ ٥٥.

صدرا)، وبـ(صدر المتألهين).

ومما استدلّ به الملا صدرا على امتناع الرؤية قوله: (إنّ الإحساس بالشيء حالة وضعية للجوهر الحاسّ، بالقياس إلى المحسوس الوضعي، ففرض ما لا وضعَ له أنّه محسوس كفرض ما لا جهة له أنّه في جهة))»[١].

والذي يُقال في آيات الرؤية يُقال في غيرها من آيات الصفات، مثل:

- ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٢].
- ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[٣].
- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[٤].
- ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾[٥].
- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[٦].
- ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[٧].

فقد تنوّعت تفسيراتها العقدية حسب اختلاف المذاهب الإسلامية في الرؤية العقدية:

أ – فذهب المشبهة إلى أنّ لله – سبحانه وتعالى – الأعضاء والأمور المذكورة في الآيات بما يشبه البشر.

ب– وقال الأشاعرة: له ذلك بما يليق بجلاله وكماله.

ج– وذهب بعض الأشاعرة إلى تفويض معنى تلك الكلمات إلى الله، بوصفها شيئاً من المتشابه الذي لا نعرف حقيقة معناه.

د – وأوّل المعتزلة ذلك بأمور معنوية (كالقوة، والرعاية، والرهبة، والتسلط، والسيطرة).

---

(١) الشيخ محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف ١/ ١٠٧.
(٢) سورة الذاريات/ ٤٧.
(٣) سورة الرحمن/ ٢٦– ٢٧.
(٤) سورة هود/ ٣٧.
(٥) سورة القلم/ ٤٢.
(٦) سورة طه/ ٥.
(٧) سورة البقرة/ ٢٥٥.

هـ- وقال الشيخ جعفر السبحاني بنظرية (الإجراء بالمفهوم التصديقي) أو (المعنى الجملي)، و«أنّ للمفردات حكماً وظهوراً عند الإفراد، وللجمل المركبة من المفردات معنى آخر»[١]، والأول نسمِّيه (المعنى الإفرادي)، و(المعنى المعجمي)، (المعنى التصوري)، والآخر نسمِّيه: (المعنى الجملي) و(المعنى السياقي)، (والمعنى التصديقي)، وأنّ الجملة (السياق) هو الذي يحدِّد أيّ المعاني هو المراد، كما يحدِّد نوع التعبير: حقيقي أم مجازي.

وخلاصة هذه النظرية: «أنّه يجب الإمعان في مفهوم الآية ومرماها ومفادها التصديقي (لا التصوري)، ثمّ توصيفه سبحانه بالمعنى الجملي المفهوم منها من دون إثبات المعنى الحرفي للصفات ولا تأويلها»[٢]، ويرى الشيخ السبحاني أنّ هذه النظرية هي حقيقة ما يعتقده الشيعة في صفات الله، فهم ليسوا مؤوِّلة - كما يُعتقد -، وإنّما يقولون بالمعنى الجملي، وأنّ تلك التعبيرات مجازية لا حقيقية[٣].

وقد انعكست وجهات النظر العقدية هذه في التفاسير، حتى أضحى من السهل أن نرى الشيخ محمد القاضي، والأستاذ علي محمد، - السابقين - يتبنيان الرأي الأشعري، و(مفاتيح الغيب) - المعروف باسم (التفسير الكبير) للفخر الرازي يتبنى الفكر الأشعري الممزوج بالفلسفة.

بينما تفسير (الكشاف) للزمخشري يتبنى الفكر المعتزلي.

والعلوي، والاسترابادي - السابقان - وتفسير (الكاشف) للشيخ محمد جواد مغنية يعتنقون الفكر الشيعي الإثني عشري، وظهرت آثار نظرية السبحاني في كتبه لاسيما (الإلهيات) و(مفاهيم القرآن).

ثالثاً: التفسير الفلسفي:

ويركِّز كثيراً على القوانين والقواعد العقلية الفلسفية، ومحاولة استلهامها من آيات القرآن الكريم، أو تطبيقها عليها، وغلب على تفاسير، منها:

١ - (مفاتيح الغيب) - المعروف باسم (التفسير الكبير) المتقدّم، للرازي.

(١) الإلهيات ١/ ٣٢٧- ٣٢٨.
(٢) نفسه ١/ ٣٢٧.
(٣) نفسه ١/ ٣٢٧- ٣٢٩.

٢- (تفسير القرآن الكريم)، للسيّد مصطفى الخميني.

وقد تأثر به (تفسير الميزان) للسيّد محمد حسين الطباطبائي.

كما تأثر به السيّد عبد الأعلى السبزواري في تفسيره (مواهب الرحمن)، وإن كان يسعى في بعض مواضع تفسيره إلى نقد بعض المباني الفلسفية اعتماداً على القرآن الكريم.

فابن سينا (الشيخ الرئيس) المقتنع فلسفياً بنظرية (العقول العشرة والأفلاك التسعة) يقرأ ﴿**وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾[(١)]، فيكتب: القصد من (العرش): الفلك التاسع الذي يُسمّى (فلك الأفلاك)، والملائكة الثمانية الذين يحملون عرش الإله يعني: الأفلاك الثمانية التي تقع تحت الفلك التاسع[(٢)].

ومن التأمل في قوله تعالى: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[(٣)]. استقى البعض موضوع الربط بين سنن الله التشريعية، وبين سنن الله التكوينية، فالاستغفار - وهو أمر تشريعي - له نتائج ضمن عالم التكوين، ومنها إدرار السماء بالغيث، ونماء الأموال والبنين، ونمو الطبيعة بما فيها من أشجار وأنهار.

فالفرز بين (عالم التشريع) وربطه بأحكام دينية، و(عالم التكوين) وربطه بنظم سببية علية ضمن عالم الطبيعة ما هو إلا فرز بشري، وإلا.. فالقرآن الكريم يرى أنّ مصدر العالمين والمقرِّر لقوانينهما واحد: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[(٤)].

فالآية تربط كلّ شيء بالله، وتحمل عبارة ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ التي تحكي هذين العالمين، فعالم التكوين تستحضره عبارة ﴿**لَهُ الْخَلْقُ**﴾، وعالم التشريع تستحضره كلمة ﴿**وَالأَمْرُ**﴾، فكلّ ما في هذين العالمين وقوانينهما ونُظُمهما وسننهما من إبداع الله وصنعه، وبيد الله وتدبيره، وخاضع لحكمة الله وإرادته.

---

(١) سورة الحاقة/ ١٧.

(٢) مجموعة من العلماء والباحثين، دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٣٥٩.

(٣) سورة نوح/ ١٠- ١٢.

(٤) سورة الأعراف/ ٥٤.

فالسنن التكوينية والتشريعية، أو عالما التكوين والتشريع، أو عالما الخلق والأمر؛ أسـماء مؤداها يشـير إلى نوعين من النُّظم الربانية يندرجان ضمن عنوان واحد كبير جامع هو (السنن الإلهية).

وكثيراً ما يعقد السـيّد محمد حسـين الطباطبائي بحوثاً وقضايا فلسفية – مستقلة أو ضمنية – في تفسـيره (الميزان)، فعند تفسـير **﴿يَا أَيُّهَـا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُـمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشـاً وَالسَّـمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * ..... * وَبَشِّـرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَـا مِـن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَـابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[١].

جاء عنوان رئيس هو (معنى الآيةِ المعجزةِ في القرآن وما يُفسَّـر به حقيقتها) تناول فيه مباحث فلسفية اندرجت تحت العناوين الفرعية التالية:

١ – تصديق القرآن لقانون العلية العامة.
٢ – إثبات القرآن ما يخرق العادة.
٣– القرآن يسند ما أُسند إلى العلة المادية إلى الله تعالى.
٤ – القرآن يثبت تأثيراً في نفوس الأنبياء في الخوارق.
٥ – القرآن كما يسند الخوارق إلى تأثير النفوس يسندها إلى أمر الله تعالى.
٦ – القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب.
٧– القرآن يعدّ المعجزة برهاناً على صحة الرسالة لا دليلاً عامياً[٢].

وقبل أن يسـدل السـيّد السبزواري الستار على تفسيره لسـورة (الفاتحة) يعقد بحثاً عنوانه (بحث فلسفي) يقول فيه:

«المعروف بين جمع من الفلاسفة لزوم السنخية بين العلة والمعلول، فالمباين من كلّ جهـة لا يمكن أن يصير علة للمبايـن كذلك، كما أنّ المباين من كلّ جهة لا يصدر من المباين كذلك، وبنوا عليه مباحث فلسفية وعرفانية.

ولكـنّ ظاهر قوله تعالى: **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[٣] وغيره من الآيات المباركة – الكثيرة

(١) سورة البقرة/ ٢١– ٢٥.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١/ ٧٣– ٩٠.
(٣) سورة الفاتحة/ ٢.

التي يأتي بيانها - ينفي ذلك، فإنّ موجِد العوالم ومربيها لا سنخية بينه وبينها؛ إذ لا سنخية بين الممكن بالذات والفقير المحضّ/ وبين الواجب بالذات والغني المطلق كذلك.

ودعوى: أنّ السنخية في مفهوم الموجودية متحققة. مردودة بأنّه لا عليّة ولا معلوليّة في المفاهيم، وإنّما هما من شؤون الحقائق، فما هو مشترك لا يتصوّر العليّة والمعلوليّة فيه، وما هو علة ومعلول لا يتحقق الاشتراك فيه، ....

ولذا ذهب جمع من محققي فلاسفة المسلمين إلى أنّ السنخية إنّما تصحّ في العلل الطبيعية، كتوليد النار للحرارة، وأما الفاعل المختار القدير فلا وجه لذلك فيه، كما عرفتَ»[1].

ومعنى هذا أنّ التأثر التفسيري بالفلسفة قد يكون تارة على نحو إثباتي (بنائي)، حين يتبنى المفسّر القضايا الفلسفية ويقبلها، وهذا ما نشهده - غالباً - في تفسير (الميزان). وأخرى يكون على نحو نقدي (نقضي)، حين يختلف المفسّر معها ويسعى لردها، وهذا ما يرد في بعض مباحث (مواهب الرحمن).

رابعاً: التفسير العرفاني (الصوفي):

ويجعل تفسير القرآن الكريم محطاً للإشارات والفيوض القلبية المرتبطة بالسلوك النظري والعملي إلى الله، حيث معرفة الله وأسمائه وصفاته وتجلياته، والعلم بطريق السير والسلوك إلى الله، وما يتطلبه من مجاهدة النفس وترويضها وتطهير القلب من الشوائب.

وقد ظهر هذا المنهج بارزاً في التفاسير الآتية:

١ - (تفسير القرآن العظيم)، لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري.

٢ - (حقائق التفسير)، لمحمد بن الحسين الأزدي السلمي.

٣- (لطائف الإشارات)، لأبي القاسم القشيري.

٤ - (جواهر القرآن)، لأبي حامد الغزالي.

٥ - (عرائس البيان في حقائق القرآن)، لأبي محمد روزبهان بن أبي النصر البقلي الشيرازي.

---

(١) السيّد عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن ١/ ٥٤- ٥٥، ومقصودهم من (السنخية بين العلة والمعلول): المماثلة والمشابهة بينهما، فالنار علة تُصدر مشابهاً لها هو الحرارة والإحراق، ولا يمكن أن تصدر عنها برودة؛ لأنّ النار والبرودة متباينان.

٦- (تفسير ابن عربي)[١]، لمحيي الدين بن عربي (محمد بن علي الأندلسي)، كما تأثر به كتابه (فصوص الحكم).

٧- تفسير آية البسملة: محاضرات معرفية، للإمام الخميني.

وتنطلق كثير من البحوث العرفانية هذه من مقولة ترى أنّ في القرآن كثيراً من (الإشارات) التي لا يفهمها إلا الخواصّ وضمن إدراك قلبي معيّن، ومن ثمّ فإنّها ليست واضحة للعوام، ولا تُتناول بالقراءة الظاهرة للآيّ القرآني.

يقول محيي الدين بن عربي في كتابه (فصوص الحِكَم) - متحدثاً عن قول هارون عليه السلام لأخيه موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**﴾[٢]:

«ثمّ قال هارون لموسى عليه السلام: ﴿**إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾، فتجعلني سبباً في تفريقهم؛ فإنّ عبادة العجل فرّقت بينهم، فكان منهم مَن عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له، ومنهم مَن توقف عن عبادته حتى يرجع إليهم موسى فيسألونه في ذلك. فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه، فكان موسى أعلم بالأمر من هارون؛ لأنّه علم ما عبده أصحاب العجل؛ لعلمه بأنّ الله قد قضى ألا يُعبد إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع، فكان عتب موسى أخاه هارون لِمَا وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإنّ العارف من يرى الحقّ في كلّ شيء، بل يراه عين كلّ شيء....، فغلبت عليه [موسى] الغيرة فحرقه، ثمّ نسف رماد تلك الصورة في اليم نسفاً وقال: ﴿**وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ**﴾[٣]، فسمّاه إلهاً بطريق التنبيه للتعليم؛ لِمَا علم أنّه بعض المجالي الإلهية....، فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سُلّط موسى عليه؛ حكمة من الله تعالى ظاهرة في الوجود ليُعبد في كلّ صورة، وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك، فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية، ولهذا ما بقي نوع من الأنواع إلا وعُبد: إما عبادة تألّه، وإما عبادة تسخير، فلابدّ من ذلك لمن عقل، وما عُبد شيء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد والظهور بالدرجة في قلبه؛ ولذلك تسمّى الحقّ لنا بـ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**﴾[٤]، ولم يقل رفيع الدرجة، فكثّر الدرجات في عين واحدة، فإنّه قضى ألا يُعبد إلا إياه في درجات كثيرة مختلفة أعطت كلّ درجة مجلًى

(١) هناك من ينسب هذا التفسير لابن عربي، وهناك من يشكك في نسبته إليه.

(٢) سورة طه/ ٩٤.

(٣) سورة طه/ ٩٧.

(٤) سورة غافر/ ١٥.

إلهياً عُبد فيها.....، والعارف المكمَّل من رأى كلّ معبود مجلى للحقّ يُعبد فيه»[١].

ومما قاله الدكتور أبو العلا عفيفي في شرح هذه العبارات: «لم ينكر موسى على عبدة العجل عبادتهم إلا من حيث إنّهم حصروا المعبود المطلق في تلك الصورة الخاصة التي هي صورة العجل، مع أنّ المعبود المطلق يأبى الحصر؛ لأنّه عين كلّ ما يُعبد، وقد نبّه موسى أخاه هارون إلى هذا السرّ لمّا غضب عليه في محضر من القوم وأخذ بلحيته ورأسه، .....، ويرى ابن عربي أنّ الوجود كلّه سلسلة من الكائنات سخّر بعضُها بعضاً، وسلسلة من الصفات والخواصّ يخضع بعضُها لبعض، وأنّه لا يُعبد شيء من الأشياء في العالم إلا بعد أن يتلبس بالرفعة في نظر العابد، ويظهر في قلبه بدرجة من التعظيم والتقديس؛ ولهذا ما بقي نوع من أنواع الكائنات في نظره إلا وعُبد بإحدى العبادتين: عبادة التألّه، وعبادة التسخير، والمعبود في الكلّ هو الواحد الحقّ، ولكنّه يُعبد على درجات متفاوتة في مجالِيه المختلفة؛ ولذلك قال عن نفسه: ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**﴾، ولم يقل رفيع الدرجة؛ لأنّه هو المعبود في صورة كلّ ما يُعبد ومَن يُعبد.. بدرجات يتفاوت فيها العابدون»[٢].

ويظهر من الكلام السابق لابن عربي أثر نظريته (وحدة الوجود) عليه، وكيف أمسى يرى أنّ كلّ ما يُعبد هو مظهر (مجلى) لله تعالى، وأنّ العبادة للعجل هي عبادة لله في أحد تجلياته، وما اعتراض نبي الله موسى على قومه في ذلك إلا لأنّهم قصروا عبادة الله على العجل في حين كان عليهم أن يعرفوا أنّ ذاك أحد المظاهر فقط لا ينبغي الاقتصار عليه، فغيره من الأشياء التي تُعبد، ومن الناس الذين يُعبدون هم كذلك مجالي لله تعالى؛ لأنّ «العارف المكمَّل من رأى كلّ معبود مجلى للحقّ يُعبد فيه»!!

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ**﴾[٣]، راح محيي الدين بن عربي يقول: البحران: بحر الجسم وهو مرّ ومالح، وبحر الروح الخالية من الجسم وهو جميل وسائغ. ﴿**بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ**﴾: بين هذين البحرين برزخ هو عبارة عن النفس الحيوانية التي ليست مثل الروح صافية وخالية، وليست مثل الأجساد (الغولية) الوسخة. ﴿**لا يَبْغِيَانِ**﴾: كلّ منهما لا يطغى على الآخر، لا الروح تستطيع أن تجعل الجسم صافياً مثلها، ولا الجسم قادر على أن يطغى على الروح ويجانسها ويجعلها مثله وسخة[٤].

---

(١) محيي الدين بن عربي، فصوص الحِكم، تعليق: الدكتور أبو العلا عفيفي/ ١٩١- ١٩٥.

(٢) نفسه/ ٢٨٥، ٢٨٧- ٢٨٨.

(٣) سورة الرحمن/ ١٩- ٢٠.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٣٥٩.

خامساً: التفسير الفقهي:

ويصبّ جلَّ اهتمامه على آيات الأحكام، وما يُستنبط منها من تشريعات، وفي كثير من الأحيان تمثِّل الآية المدخلَ للولوج إلى الآراء الفقهية المختلفة المستلة من الآية، والوقوف عند أدلتها الروائية وغيرها..، ومناقشتها.

وقد برزت في هذا الاتجاه تفاسير كثيرة فمن الكتب السنية في هذا الاتجاه:

١ - (أحكام القرآن)، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصّاص.
٢ - (أحكام القرآن)، لابن العربي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي الإشبيلي العربي.
٣- (أحكام القرآن)، للكيا الهراسي (علي بن محمد الطبري).
٤ - (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي.
٥ - (الإكليل في استنباط التنزيل)، لجلال الدين السيوطي.
٦ - (التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية)، لملا جيون.
٧- (نيل المرام في تفسير آيات الأحكام)، محمد صديق حسن.
٨- (تفسير آيات الأحكام)، للشيخ محمد علي السايس.
٩ - (تفسير آيات الأحكام)، للشيخ مناع القطان.
١٠ - (أضواء البيان)، للشيخ محمد الشنقيطي.

ومن الكتب الشيعية:

١ - (أحكام القرآن)، لقطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي.
٢ - (كنز العرفان في فقه القرآن)، للشيخ جمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري.
٣- (زبدة البيان في آيات القرآن)، للشيخ المقدس أحمد الأردبيلي.
٤ - (مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام)، لشمس الدين محمد الجواد، المشهور بـ (الفاضل الكاظمي).
٥ - (قلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر)، لأحمد بن إسماعيل الجزائري.
٦ - (آيات الأحكام)، للسيّد محمد كاظم اليزدي (صاحب العروة).
٧- (دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام)، للشيخ باقر الأيرواني.

يقول الشيخ محمد علي السايس في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(١): «واليد تُطلق على العضو المخصوص إلى المنكب، وعلى هذا العضو إلى مفصل الكفّ، كما في قوله تعالى لموسى – عليه الصلاة والسلام –: ﴿**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾(٢). والمراد ما كان إلى مفصل الكفّ، ولا خلاف بين السلف من الصدر الأول ولا بين فقهاء الأمصار في أنّ قطع يد السارق يكون إلى مفصل الكفّ لا إلى المرفق ولا إلى المنكب، وقال الخوارج تُقطع إلى المنكب، وقال قوم(٣) تُقطع الأصابع فقط»(٤).

ويقول الشيخ باقر الأيرواني: «ما هو المقدار المقطوع من اليد؟، المشهور، بل.. لم يُعرف فيه خلاف: قطع الأصابع الأربع وترك الراحة والإبهام، وتدلّ عليه موثقة سماعة بن مهران: «إذا أُخذ السارق

(١) سورة المائدة/ ٣٨.
(٢) سورة النمل/ ١٢.
(٣) إشارة إلى الشيعة الإمامية الذين يستندون إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾ (١٨) سورة الجنّ، فلا يصح قطع أحد المساجد السبعة التي يسجد بها الإنسان، بل يقولون بقطع أصابعه، وأنّ الله أطلق على ذلك لفظ الأصابع فقال: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ (٧٩) سورة البقرة، فأطلق (اليد) على (الأصابع)، وأنّ ذاك وقوف عند القدر المتيقن ونفي قطع الزائد المشكوك.
(٤) الشيخ محمد علي السايس، تفسير آيات الأحكام ١–٢/ ٥٩٢.

قصة الإمام الجواد عليه السلام والمعتصم في حدّ السرقة



قال زرقان: رجع ابن أبي داود من عند المعتصم وهو مغتمّ، فقلتُ له في ذلك، فقال: إنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمد بن علي الجواد عليه السلام، فسألنا عن القطع في أيّ موضع يجب أن يُقطع؟، فقلتُ: من الكرسوع؛ لقول الله في التيمم: ﴿ فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم ﴾(١)، واتفق معي على ذلك قوم، وقال آخرون: بل.. يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟، قال: لأنّ الله يقول: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾(٢)، قال: فالتفتَ إلى محمد بن علي عليه السلام فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟،

(١) سورة المائدة/ ٦.
(٢) سورة المائدة/ ٦.

قُطعت يده من وسط الكفّ، فإن عاد قُطعت رجله من وسط القدم، فإن عاد استُودع السجن، فإن سرق في السجن قُتل»[١].

وبضمّ هذه الموثقة إلى موثقة إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه السلام يتجلى مقدار الحدّ المقطوع، حيث ورد فيها: «تُقطع يد السارق ويُترك إبهامه وصدر راحته، وتُقطع رجله ويُترك له عقبه يمشي عليها»[٢].

هذا ما عليه الإمامية، وأما غيرهم فاتفقوا على قطع تمام الكفّ، واختلفوا في قطع ما زاد، فقيل بالقطع من المنكب، وقيل من المرفق»[٣].

سادساً: التفسير اللغوي (البلاغي):

ويركِّز على الكلمات، ووجوه نطقها وإعرابها، ودقة مجيء اللفظة في السياق، كما يركِّز على الجانب النحوي والصرفي والبلاغي في القرآن الكريم، وبعضه يعرض عبارته بأسلوب بلاغي مشوّق.

وهذا يعني أنّ التفسير اللغوي له مظاهر عدة، منها:

أ- وجوه النطق:

وهو يسلّط الضوء على وجوه قراءة الكلمة القرآنية، وعرض أشكال قراءتها، واختلاف القرّاء فيها.

ومن التفاسير التي برز فيها هذا اللون من

(١) الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، وسائل الشيعة ١٨/ ٤٩٣، الباب ٥، ح ٤.
(٢) نفسه ١٨/ ٤٩٠، الباب ٤، ح ٤.
(٣) الشيخ باقر الأيرواني، دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام ١/ ٥٨١.

قال: قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني مما تكلموا به، أيّ شيء عندك؟، قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: أقسمتُ عليك بالله لما أخبرتَ بما عندك فيه، فقال: أما إذا أقسمتَ عليّ بالله إنّي أقول: إنّهم أخطؤوا فيه السنة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيُترك الكفّ، قال: لِمَ؟، قال: لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين. فإذا قطعتَ يده من الكرسوع أو المرفق لم يبقَ له يد يسجد عليها، وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾[١]، يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[٢]، وما كان لله لم يُقطع، قال: فأعجب المعتصمَ ذلك، فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ[٣].

(١) سورة الجنّ/ ١٨.
(٢) سورة الجنّ/ ١٨.
(٣) وسائل الشيعة ١٨/ ٤٩٠، الباب ٤، ح ٥.

التناول: (مجمع البيان)، للشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي.

ففـي كلمة (تقـاة) في قوله تعالـى: ﴿**لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَـاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِيـنَ وَمَـن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْـسَ مِنَ اللّهِ فِي شَـيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَـاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَـهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ**﴾[1]، ينقل لنا الطبرسـي أنّه «قرأ يعقوب وسـهل (تقية) وهو قراءة الحسـن ومجاهد، والباقون (تقاة). وأمال الكسائي (تقاة)، وقرأ نافع وحمزة بين التفخيم والإمالة، والباقون بالتفخيم»[2].

ب- النحو والصرف:

وهـو يهتم بالمواقـع الإعرابية للكلمـات والجمـل القرآنية، كما يهتم باشـتقاقاتها الصرفية، والجذر الذي أُخذت منه، ومن ثمّ فهي ليست كتب تفسير بالمعنى المعتاد.

وقد نشأ في البداية صاباً جهده على إعراب الغريب والمشكل من مواقع الكلمات والجمل في القرآن الكريم، مثل:

١- البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات ابن الأنباري.

٢- إعراب مشكل القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي.

ثـمّ ظهـرت كتب تعـرب القرآن الكريـم بأكمله، ولا تقـف عند حـدود الغريب أو المشـكل منـه، ومن ذلـك: (الجدول في إعـراب القـرآن وصرفه) الذي صنفـه (محمود صافـي)، ويقع في اثني عشـر مجلـداً، ويذكر الإعـراب مختصراً، وبعـد أن يذكر إعراب مفـردات الكلمـات يذكر إعراب الجمل. وفي طبعات لاحقة منـه أضيف له فنون البلاغة ليكون عنوانه (الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه).

ففـي قولـه تعالـى: ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَـبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُـواْ أَنَّ اللّهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[3]، قال صافي:

«الإعراب:

(الـواو): عاطفة، (قاتلـوا): فعل أمر مبني على حذف النـون.. والواو: فاعل، (في

---

(١) سورة آل عمران/ ٢٨.

(٢) الشيخ أبو علي الفضل الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: السيّد هاشم المحلاتي ١- ٢/ ٧٢٩.

(٣) سورة البقرة/ ٢٤٤.

سبيل): جارّ ومجرور متعلق بـ (قاتلوا)، والتعليق على المجاز، (الله): لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور، (الواو): عاطفة، (اعلموا): مثل (قاتلوا)، (أنّ): حرف مشبّه بالفعل، (الله): لفظ الجلالة اسم (أنّ) منصوب، (سميع) خبر مرفوع، (عليم): خبر ثان مرفوع. والمصدر المؤول من (أنّ) واسمها وخبرها سدّ مسدّ مفعولي (اعلموا).

الصرف:

(سميع): من أوزان المبالغة - فعيل -، وهي صفة تدلّ على الثبوت والدوام، فهي صفة مشبّهة باسم الفاعل. (عليم): حُكمُه كحكم (سميع) في الوزن والصرف.

إعراب الجمل للآية ٢٤٤:

جملة (قاتلوا): لا محلّ لها، معطوفة على استئناف مقدّر.

وجملة (اعلموا): لا محلّ لها، معطوفة على جملة (قاتلوا)»[(١)].

ج - الفنون البلاغية:

وقد نشهد بعضها يركّز على الفنون البلاغية في الآية، فيسعى لتتبع وتلقط الموارد التي تصبّ في علم المعاني والبيان والبديع، فيستخرج التشبيه هنا، والاستعارة هناك، والكناية هنالك، والمجاز في مكان رابع، والمعاني التي يخرج لها الأمر أو النهي أو الاستفهام أو النداء في مكان خامس، والجناس والفاصلة والتضاد (التطابق والمقابلة) و.....، إلى آخر المباحث البلاغية.

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾[(٢)]: «شبّه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوّه فيه وأخذه منه كلّ مأخذ باشتعال النار، ثمّ أخرجه مخرج الاستعارة [المكنية]، ثمّ أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو: الرأس، وأخرج الشيب مميّزاً، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنّه رأس زكريا، فمن ثمّ فصُحت هذه الجملة، وشُهد لها بالبلاغة»[(٣)].

(١) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه، مراجعة: لينه الحمصي ٢/ ٤٣٢- ٤٣٣.
(٢) سورة مريم/ ٤.
(٣) جار الله محمود الزمخشري، تفسير الكشاف، تحقيق: خليل مأمون شيحا/ ٦٣٢.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً﴾(١)، مضى الزمخشري في توضيح الاستعارة التصريحية، حيث شبّهت الآية الإيمان بالله، أو القرآن، بالحبل، ثمّ حذفت المشبه، وأبقت المشبه به(٢).

وقد شُغل كثير من النقاد العرب القدامى بما عُرف بمشكلة (اللفظ والمعنى)، وهل سبب بلاغة القرآن خارجية غيبية تعود إلى الصرفة (الله صرف البشر عن إمكان الإتيان بمثل القرآن، أو صرفهم عن التفكير في الإتيان بمثله) كما رأى أبو إسحاق النظّام، والسيّد الشريف المرتضى، أم ذاتية داخلية تكمن في القرآن نفسه، وإذا كانت ذاتية فهل هي في ألفاظه أم معانيه أم الاثنين معاً، فذهب الجاحظ للرأي الأول، وابن قتيبة الدينوري للثاني، وعبد القاهر الجرجاني للثالث.

وقد جاء العديد من الكتب لمحاولة دراسة البلاغة القرآنية واستكناه طبيعتها، ومنها:

١- (مجاز القرآن)، لأبي عبيدة معْمر بن المثنى.

---

(١) سورة آل عمران/ ١٠٣.

(٢) تفسير الكشاف/ ١٨٦.

نظرية (النظم)



معنى (النظم) في اللغة: التأليف، و(نظم اللؤلؤ): جمعه في سلك واحد(١).

وقد ذهب الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ سرّ الإعجاز في القرآن الكريم يكمن في بلاغة نظمه، وعند تعريفه لـ (النظم) قال: «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه النحو»(٢).

وعرّفه ثانية فقال: «ليس هو شيئاً غير توخي معاني هذا العلم [النحو] وأحكامه فيما بين الكلِم»(٣).

ففي قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾(٤)، جاءت طريقة التعبير القرآني الباهرة عبر أمور، منها:

أ- تقديم ما حقه التأخير: (لله)، وذاك أفاد الحصر.

ب - تعريف (الأمر) بـ(أل)، وقد أفاد الشمول.

ج - التصريح بكلمتي (قبل) و(بعد)؛ لإفادة الشمول كذلك.

د - حذف المضاف إليه من كلمتي (قبل) و(بعد)؛ وأفاد ذلك الشمول أيضاً.

فلو قيل: (الأمر لله مِن قبل ومِن بعد) لم تعطِ المعنى البليغ الذي حوته الآية، وكذلك لو قيل: (لله أمرٌ مِن قبل ومِن بعد) وغيرها..

---

(١) لسان العرب ١٤/ ١٩٦، مادة: (نظم).

(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز/ ٧٧.

(٣) نفسه/ ٧٩.

(٤) سورة الروم/ ٤.

٢- (نظم القرآن)، للجاحظ (عمرو بن بحر).
٣- (أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز)، لعبد القاهر الجرجاني.
٤- (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، للفخر الرازي.

وقد وصلت هذه الدراسات اللغوية القرآنية - في بعض مستوياتها - إلى نظريات عميقة في البلاغة والإعجاز القرآني، كما في نظرية (النظم)، للجرجاني التي بسطها في كتابه (دلائل الإعجاز).

ومن التفاسير التي برز فيها هذا الاتجاه:
١- (الكشاف)، لجار الله الزمخشري.
٢- (البحر المحيط)، لأبي حيّان الأندلسي (محمد بن يوسف).
٣- (تفسير القرآن)، لابن تيمية (أحمد الحرّاني).
٤- (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، لأبي البركات عبد الله النسفي.
٥- (إرشاد العقل السليم)، لأبي السعود محمد بن محمد.
٦- (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي.
٧- (اللباب في علوم الكتاب)، لأبي حفص الدمشقي (عمر بن علي).
٨- (الدرّ المصون في علم الكتاب المكنون)، لابن السمين الحلبي (أحمد بن يوسف بن عبد الدائم).
٩- (أضواء البيان)، لمحمد الأمين الشنقيطي.
١٠- (التحرير والتنوير)، لابن عاشور (محمد الطاهر الثاني).

د- دقة الكلمة والجملة:

وهو تفسير بلاغي يركِّز على دقة اختيار القرآن الكريم لكلمة دون غيرها ضمن السياق الخاصّ (الجملة)، وعلى دقة اختياره لجملة دون غيرها ضمن السياق العام (السورة)، ويحاول استجلاء الرهافة في التعبير ومكمن الهدف المقصود، والإيحاء الذي تشعّ به تلك الكلمة أو الجملة ضمن السياق الذي وردت فيه، وعدم قدرة كلمات أو جمل أخرى غيرها اقتناص ذاك الإيحاء التعبيري الكاشف.

ومن الذين أولوا هذا المنهج اهتماماً بالغاً: الأستاذ أمين الخولي الذي شرحه في كتابه (مناهج تجديد)، وسارت على خطاه زوجته عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في

كتابها (التفسير البياني).

فعن دقة كلمة ضمن الجملة تقول بنت الشاطئ في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١]: «وفي التعبير عن الموت بالزيارة ملحظ بياني بالغ القوة: فاستعمال الزيارة بهذا المعنى صريح الإيحاء بأنّ الإقامة في القبر ليست إقامة دائمة، وإنّما نحن فيها زائرون، وسوف تنتهي الزيارة حتماً إلى بعث وحساب وجزاء. وهذا الإيحاء ينفرد به لفظ (زرتم) دون غيره، فلا يمكن أن يؤديه لفظ آخر كأن يُقال: قبرتم، أو سكنتم في المقابر، أو انتهيتم إليها، أو أقمتم بها، إلى غير ذلك من ألفاظ تشترك كلّها في الدلالة على ضجعة القبر، ولكن يعوزها سرّ التعبير الدالّ على أنّها زيارة، أي إقامة عابرة مؤقتة، يعقبها بعث ونشور»[٢].

وفي دقة ورود جملة في تعبير ما..، تتساءل بنت الشاطئ: لماذا قيّد الله تعالى وصف الليل في سورة الضحى بـ(إذا سجى)، فقال: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[٣]، ولماذا وصفه في آيات أخر بأوصاف أخرى مثل:

- ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾[٤].
- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[٥].
- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[٦].
- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[٧].
- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[٨].

وفي محاولتها لاستجلاء إيحاء ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، وعلاقتها بقوله: ﴿وَالضُّحَى﴾ وصلت إلى أنّ «اختيار المقسم به تُراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف....، [وأنّ]

(١) سورة التكاثر/ ١– ٢.
(٢) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ٢٠٦.
(٣) سورة الضحى/ ١– ٢.
(٤) سورة المدثر/ ٣٣.
(٥) سورة التكوير/ ١٧.
(٦) سورة الفجر/ ٤.
(٧) سورة الليل/ ١.
(٨) سورة الشمس/ ٤.

المقسـم بـه في آيتـي الضحى صورة مادية وواقع حسّـي يشـهد به الناس تألـق الضوء في ضحوة النهار، ثمّ يشـهدون من بعده فتور الليل إذا سـجى وسـكن. يشهدون الحالين معاً فـي اليـوم الواحـد دون أن يختـل نظام الكـون أو يكون في تـوارد الحالين عليـه ما يبعث علـى إنـكار، بل دون أن يخطر على بال أحد أنّ السـماء قد تخلت عن الأرض وأسـلمتها إلـى الظلمـة والوحشـة بعد تألـق الضوء في ضحى النهـار، فأيّ عجب فـي أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلّي نوره على المصطفى – صلى الله عليه وسلّم – فترة سكون يفتر فيها الوحي، على نحو ما نشهده من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق»[١].

هـ- التصوير الفني:

وقد أشـاد سـيّد قطب بنظرية (النظم)، ورأى أنّ الإمام عبـد القاهر الجرجاني كان على وشـك أن يكتشـف نظرية (التصوير الفنّي) «لولا أنّ قصة (المعاني والألفاظ) ظلّت تخايـل لـه من أول الكتاب إلـى آخره، فصرفته عن كثير مما كان وشـيكاً أن يصل إليه»[٢]، وقال: «رحم الله عبد القاهر، لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها»[٣].

ثـمّ رأى سـيّد قطب أنّ سـرّ الإعجـاز القرآني يكمن فـي (التصوير الفنّـي) البديع، فقال: «إنّ (التصوير) هو قاعدة التعبير القرآني في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض – فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال –»[٤]، وبسط نظريته هذه في كتابه (التصوير الفني في القرآن).

والمعنى الخاصّ لـ(التصوير الفنّي) هو: أن «يعبّر بالصورة المحسّـة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسـية، وعن الحادث المحسـوس، والمشـهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية»[٥].

والمعنى الواسع له يشمل كلّ ما من شأنه أن يدخل في عملية التصوير الفنّي (آليات تشكيل الصورة الفنية)، «فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنّه تصويـر بالنغمة تقـوم مقام اللون في التمثيل، وكثيراً ما يشـترك الوصف والحوار وجرس

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ٢٦.
(٢) سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن/ ٣١.
(٣) نفسه/ ٣٣.
(٤) نفسه/ ٩.
(٥) نفسه/ ٣٦.

الكلمـات ونغم العبارات وموسـيقى السـياق في إبـراز صورة من الصـور، تتملاها العين والأذن، والحسّ والخيال، والفكر والوجدان»[١].

وقال: «إنّ الجمال في ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[٢]، ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾[٣]، هو فـي ذلك الذي قاله الجرجاني من ناحية (النظم)، وفي شـيء آخر وراءه هو: هذه الحركة التخييلية السـريعة التـي يصوِّرها التعبير، حركة الاشـتعال التي تتنـاول الرأس في لحظة، وحركـة التفجيـر التي تفور من الأرض فـي ومضة، فهذه الحركـة التخييلية تلمس الحسّ وتثير الخيال، وتُشرك النظر والمخيّلة في تذوّق الجمال»[٤].

و- التعبير الفنّي:

وهذا اللون من التفاسـير يصبّ مادته في قالب أدبي يسـتدعي الكلمات الأدبية في تعبيره، ويستثير الخيال والصور الجمالية، ولعلّ أبرز تفسير في هذا المجال هو (في ظلال القرآن)، لسيّد قطب، ومنه نقتطف هذا المقطع الذي جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[٥]:

«ومشـهد النجوم في السماء جميل، ما في هذا شك، جميل جمالاً يأخذ بالقلوب، وهو جمال متجدّد تتعدّد ألوانه بتعدّد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مسـاء، ومن شـروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسـحاب، بل.. إنّه ليختلف من سـاعة لسـاعة، ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية، وكلّه جمال يأخذ بالألباب.

هـذه النجمـة الفريـدة التـي توصـوص هنـاك، وكأنّها عيـن جميلة تلتمـع بالمحبة والنداء.

وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان.

وهـذه المجموعـات المتضامـة المتناثـرة هنـا وهنـاك، وكأنّها في حلقة سـمر في مهرجان السماء، وهي تجتمع وتفترق كأنّها رفاق ليلة في مهرجان.

(١) نفسه/ ٣٧.
(٢) سورة مريم/ ٤.
(٣) سورة القمر/ ١٢.
(٤) التصوير الفني في القرآن/ ٣٣.
(٥) سورة الملك/ ٥.

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة، والزاهي المزهو ليلة، والمنكسر الخفيض ليلة، والوليد المتفتح للحياة ليلة، والفاني الذي يدلف للفناء ليلة.

وهذا الفضاء الوسيع الذي لا يملّ البصر امتداده، ولا يبلغ البصر آماده.

إنّه الجمال..، الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات»[(١)].

سابعاً: التفسير العلمي:

ويحاول تفسير القرآن الكريم من خلال استنطاق آياته التي تتحدَّث عن العلم، وتفسيرها وفق المعطيات والمكتشفات العلمية، تأسيساً على أنّ الله سبحانه هو خالق هذا الكون، والمطّلع على أدقّ وأخفى التفاصيل الموجودة فيه، وأنّ النظريات المستجدة، والقوانين الحديثة التي يكتشفها البشر هي في مسبوقات علم الله دون البديهيات، وأنّ الله سطّرها في كتابه ليفيد الإنسان بها من زمن مبكر، ولتكون إحدى الملامح المستجدة للإعجاز القرآني.

ومن أبرز الكتابات التي برز فيها هذا الاتجاه:

١- (كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلّق بالأجرام السماوية والأرضية، والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية)، للطبيب محمد بن أحمد الإسكندراني.
٢- بعض مقالات (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، للشيخ عبد الرحمن الكواكبي.
٣- (القرآن والعلم الحديث)، لعبد الرزاق نوفل.
٤- (القرآن: محاولة لفهم عصري)، للدكتور مصطفى محمود.

ومن أبرز التفاسير:

١- (تفسير جزء عمّ)، للشيخ محمد عبده.
٢- تفسير (الجواهر)، للشيخ طنطاوي جوهري.
٣- (التفسير الفريد)، لمحمد عبد المنعم الجمال.

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣٣- ٣٦٣٤.

يقول الشيخ عبد الرحمن الكواكبي: «إنَّ العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تُعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن، شاهدة بأنّه كلام ربّ لا يعلم الغيبَ سواه:

وذلك أنّهم كشفوا أنَّ مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآنُ بدءَ التكوين فقال: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ**﴾(١).

وحققوا أنّ الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا**﴾(٢)، إلى أن يقول: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾(٣).

وحققوا أنَّ الأرض منفتقة في النظام الشمسي، والقرآن يقول: ﴿**أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾(٤).

وحقّقوا أنّ القمر منشق من الأرض والقرآن يقول: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾(٥)، ويقول: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾(٦)»(٧).

وتعليقاً على قوله – سبحانه وتعالى – في سورة الفيل: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾(٨)، يقول الشيخ محمد عبده:

«وقد بيّنت لنا هذه السورة أنَّ ذلك الجدري أو تلك الحصبة [التي أصابت الجيش الحبشي] نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أنَّ هذا الطير من جنس البعوض أو

---

(١) سورة فصّلت/ ١١.
(٢) سورة يس/ ٣٣.
(٣) سورة يس/ ٤٠.
(٤) سورة الأنبياء/ ٣٠.
(٥) سورة الرعد/ ٤١.
(٦) سورة القمر/ ١.
(٧) الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد وطبائع الاستعباد، تحقيق: الدكتور أسعد السحمراني/ ٤٧– ٤٨.
(٨) سورة الفيل/ ١–٥.

الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الـذي تحمله الرياح؛ فيعلق بأرجـل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسـد دخل في مسامّه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وأنّ كثيراً من هذه الطيـور الضعيفـة يُعَدّ من أعظـم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشـر، وأنّ هذا الحيوان الصغير الذي يسمُّونه الآن (بالميكروب) لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها....، هذا ما يصحّ الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهـو مما لا يصـحّ قبوله إلا بتأويل إن صحـت روايته، ومما تعظم به القـدرة أن يؤخذ من اسـتعزّ بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسـماً -، ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر، ولا يُدرك بالبصر، حيث ساقه القدر»[1].

ولا نريد أن يوحي عرضنا للأمثلة السـابقة أنّنا نعتقد أنّ كلّ ما ذكره الذين يتبنون منهـج التفسـير العلمي خطأ ومجانب للصـواب، فقد أثبت المنظـرون في هذا الاتجاه التفسـيري أنّ بعـض تلك الآيات التي سـبق بها القـرآنُ العصرَ الحديثَ أمسـت ضمن الاكتشـاف العلمـي اليوم مـن البديهيات المسـلّمة في العلـم، ومن ذلك قولـه تعالى: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**[2].

فقد أشـار هذا المقطع العلمي، إلى أنّ الشمس تسير إلى نقطة مركزية معيّنة تجري باتجاهها، وسيكون ذاك مستقرها ومنتهاها، وأنّ الله قد جعل للقمر - وغيره من الإجرام - حركتيـن: الأولى: حركة محورية، حيث يدور الجرم حول نفسـه، وذلك مسـتنتجاً من قولـه تعالى: **﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾**، فهو اليوم في منزل وموقع لن يكون عليه غداً ولم يكن عليه بالأمس، وذاك يشـكّل ما يبدو عليه القمر من هلال، وتربيع أول، وبدر، وتربيع ثان، ومحاق آخر الشهر.

والثانيـة: حركـة انتقالية، حيث يدور الجرم حول من يتبعـه - كدوران القمر حول الأرض، ودوران الأرض حول الشمس -، وذلك مقتبس من قوله تعالى: **﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**.

---

(١) الشيخ محمد عبده، تفسير جزء عم/ ١٦٢.

(٢) سورة يس/ ٣٨- ٤٠.

ثامناً: التفسير التاريخي:

ويعرض التفسير على طريقة أحداث وقصص تاريخية ترتبط بالأمم أو الأفراد، ومن التفاسير التي تأثرت بهذا المنهج:

١- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري.

٢- (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، للثعلبي (أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم).

وقد حذا الثعلبي حذو الطبري، وأكثر من نقل القصص إلى حدّ وصفه فيه بعضهم بأنّه «ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها، والأخبار عمن سلف، سواءً كانت صحيحة أو باطلة»[١].

وهذا اللون من التفاسير إذا درس قصة النبي موسى - مثلاً - يسرع الخطى نحو عرض تفاصيل الأمور مثل: ما سبب اندفاع فرعون لقتل أولاد بني إسرائيل؟، وكيف وُلد موسى؟، ومَنْ أكبر موسى أم هارون؟، وما مقدار المدة التي عاشها موسى في قصر فرعون؟، و....

وحين تمرّ به قصة البقرة التي قال عنها النبي موسى لقومه: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٢]، يمضي خلف اسم الشخص الذي يملك تلك البقرة، وكيف أنّه لم يبع تجارته ذاك اليوم؛ لأنّه لم يرد إيقاظ أبيه، وأنّ والده كافأه إزاء ذلك البرّ بها، و....

وبالطريقة نفسها يبحث القصص الأخرى وما ورد عن الأمم الماضية، كالحديث عن آدم ونوح وإبراهيم وشعيب وعيسى ولقمان الحكيم، وعوج بن عنق ويأجوج ومأجوج وعاد وإرم ذات العماد وثمود وسبأ، و....، وقد أدى النهم للقصص والتفاصيل والأحداث إلى تسرّب الإسرائيليات والأساطير والروايات المختلقة والضعيفة إلى التفاسير التي سلكت هذا الأسلوب، وهو الأمر الذي حدا بالبعض أن يعدّ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن)، أغنى مصدر إسلامي بالإسرائيليات والأساطير النصرانية[٣]، فقد أخذ الطبري كثيراً عن كعب الأحبار، وتميم الداري، ووهب بن منبّه. وسار على نهج الطبري من بعده الثعلبي، والأدهى من ذلك أنّ أكثرها

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٥٥.

(٢) سورة البقرة/ ٦٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٥٦.

تلبّس باسم رسول الله ﷺ وحديثه!!

وما يفعله هذا المنهج عن قصص الأمم السابقة يفعله مع القصص القرآني عن عصر الرسالة حين تمرّ به آيات تتحدّث – مثلاً – عن معركة بدر أو أحد أو الأحزاب أو حُنين، أو عن المجادلة أو حادثة الإفك، أو....، فهي مرتعه الأخصب الذي يصبّ فيه قوَّته، وينفذ منه لتفاصيل القصص وشخوصها ومجرياتها و.....

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُوْدِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**﴾(١):

«يقول: لعن الله أصحاب الأخدود. وكان بعضهم يقول: معنى قوله: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأخْدُودِ**﴾: خبر من الله عن النار أنّها قتلتهم.

وقد اختلف أهل العلم في أصحاب الأخدود من هم؟

– فقال بعضهم: قوم كانوا أهل كتاب من بقايا المجوس.

.... عن جعفر بن أبزى قال: لما رجع المهاجرون من بعض غزواتهم بلغهم نعي عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، فقال بعضهم لبعض: أيّ الأحكام تجري في المجوس، وإنّهم ليسوا بأهل كتاب، وليسوا من مشركي العرب؟، فقال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : قد كانوا أهل كتاب، وقد كانت الخمر أُحلَّت لهم، فشربها ملك من ملوكهم حتى ثمل منها، فتناول أخته فوقع عليها، فلما ذهب السكر قال لها: ويحكِ فما المخرج مما ابتليتُ به؟، فقالت: اخطب الناس فقل: يا أيّها الناس إنّ الله قد أحلّ نكاح الأخوات، فقال الناس: إنّا نبرأ إلى الله من هذا القول، ما أتانا به نبي، ولا وجدناه في كتاب الله، فرجع إليها نادماً، فقال لها: ويحكِ إنّ الناس قد أبوا عليّ أن يقرُّوا بذلك، فقالت: ابسط عليهم السياط، ففعل، فبسط عليهم السياط، فأبوا أن يقرُّوا، فرجع إليها نادماً، فقال: إنّهم أبوا أن يقرُّوا، فقالت: اخطبهم فإن أبوا فجرّد فيهم السيف، ففعل، فأبى عليه الناس، فقال لها: قد أبى عليّ الناس، فقالت: خدّ لهم الأخدود، ثمّ اعرض عليها أهل مملكتك، فمن أقرّ وإلا.. فاقذفه في النار، ففعل، ثمّ عرض عليها أهل مملكته، فمن لم يقرّ منهم قذفه في النار، فأنزل الله فيهم: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُوْدِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**﴾، إلى ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * .... * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾(٢)

(١) سورة البروج/ ٤– ٥.
(٢) سورة البروج/ ٨ – ١٠.

حرّقوهـم، ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ فَتَنُـوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُـمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَـذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[١]، فلم يزالوا منذ ذلك يستحلون نكاح الأخوات والبنات والأمهات.

- .... وعـن قتـادة، قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَـابُ الأُخْدُودِ﴾ قال: حدثنـا أنّ عليّ بن أبي طالـب - رضي اللـه عنه - كان يقول: هم نـاس بمذارع اليمن، اقتتـل مؤمنوها وكفارها، فظهر مؤمنوها على كفارها، ثمّ اقتتلوا الثانية فظهر مؤمنوها على كفارها، ثمّ أخذ بعضهم علـى بعض عهداً ومواثيـق أن لا يغدر بعضهم ببعض، فغدر بهم الكفار، فأخذوهم أخذاً، ثـمّ إنّ رجـلاً من المؤمنين قال لهم: هل لكم إلى خير، توقـدون ناراً، ثمّ تعرضوننا عليها، فمن تابعكم على دينكم فذلك الذي تشـتهون، ومن لا.. اقتحم النار فاسـترحتم منه، قال: فأججـوا ناراً وعرضوا عليها، فجعلـوا يقتحمونها صناديدهم، ثمّ بقيت منهم عجوز كأنّها نكصـت، فقـال لها طفـل في حجرها: يا أمـاه، امضي ولا تنافقي. قصّ اللـه عليكم نبأهم وحديثهم.

- .... عـن ابـن عباس: ﴿قُتِـلَ أَصْحَابُ الأُخْـدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُـودِ﴾ قال: هم ناس من بني إسرائيل، خدّوا أخدوداً في الأرض، ثمّ أوقدوا فيها ناراً، ثمّ أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها، وزعموا أنّه (دانيال) وأصحابه.

- .... عـن مجاهـد، قولـه: ﴿قُتِـلَ أَصْحَابُ الأُخْـدُودِ﴾: كان شـقوق في الأرض بنجران، كانوا يعذّبون فيها الناس....»[٢].

ثـمّ يمضـي الطبري فـي ذكر قصة الغـلام الذي كان يتـردد على السـاحر والراهب وإيمانه بالله، وإبرائه الكمه والبُّرص والعُّمي بإذن الله، وفشـل الملك في قتله بإلقائه من أعلـى الجبل وبالإغراق، والطريقة التي دلّ الغـلامُ بها الملكَ لقتله وكيف أدخلت الناس في الإيمان بالله، ثمّ إحراق الملك لهم في الأخدود.

وقد اسـتغرقت القصص التي ذكرها الطبري في تفسـير هذه الآية ما يقارب الأربع صفحـات مـن القطع الكبير، عني فيهـا - كما رأينا - بالأقوال والقائليـن بها، مع تفاصيل الحدث والاختلاف في مكانه.

---

(١) سورة البروج/ ١٠.
(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: محمود شاكر ٣٠/ ١٦١- ١٦٣.

تاسعاً: التفسير الاجتماعي (الحركي، التربوي):

ويفسِّـر القرآن الكريم محاولاً التركيز على ما يبعث الحيوية والنشاط والفاعلية في الفـرد والجماعة والمجتمع والأمـة أو الدولة، ومن هنا جاءت تسـميته بـ (الاجتماعي)، وهو بذلك يسـتهدف رسـم منهج فاعل (حركـي) للعمل الديني والدعـوي والاجتماعي والسياسي؛ مما أكسبه اسم (الحركي).

وإلى جانب تسـميته بـ(الاجتماعي)، و(الحركي) يُسـمّى بـ (التربوي)؛ لأنّه ينظر «إلـى الـرؤى القرآنيـة على أنّهـا تربوية تتفاعل بشـكل إيجابـي وتفصيلي مع حياة البشـر المتعدّدة الجوانب»[١].

وإلى جانب تلك الأسماء التي أُطلقت على هذا المنهج التفسيري عُرفت المدرسة التفسيرية التي تسير على هذا المنهج باسم (المدرسة العقلية الاجتماعية في التفسير).

ويلخص الشيخ فيصل العوامي معالم هذا المنهج في ثلاث، هي:

١ - إبراز البُّعد التربوي الفردي.

٢ - إضاءة البُّعد التربوي الاجتماعي.

٣- بلورة البُّعد التربوي السياسي[٢].

ومن أبرز تفاسير هذا الاتجاه:

١ - (المنار) للشيخ محمد بن عبده، والشيخ محمد رشيد رضا[٣].

٢ - (تفسير القرآن الكريم)، لأحمد مصطفى المراغي.

٣- (محاسن التأويل)، لجمال الدين القاسمي.

٤ - (أضواء البيان)، لمحمد الأمين الشنقيطي.

٥ - (الأساس)، لسعيد حوّى.

٦ - (في ظلال القرآن)، لسيّد قطب.

---

(١) الشيخ فيصل العوامي، التفسير العلمي التربوي.. دراسة تمهيدية للمنهج المقترح لفهم القرآن/ ٧٨.

(٢) التفسير العلمي التربوي.. دراسة تمهيدية للمنهج المقترح لفهم القرآن/ ٧٩- ٨٥.

(٣) التفسير يبدأ من أول القرآن الكريم، وينتهي عند الآية ٥٣ من سورة يوسف، كان من أول القرآن إلى الآية ١٢٦ من سورة النساء من إنشاء الشيخ محمد عبده وتدوين الشيخ محمد رشيد رضا، ثمّ أكمله رضا إلى الآية ٥٣ من سورة يوسف.

٧- (من هدى القرآن)، للسيّد محمد تقي المدرسي.
٨- (من وحي القرآن)، للسيّد محمد حسين فضل الله.

فـ«قد رسم محمد عبده في تفسيره منهجاً تربوياً للأمة الإسلامية، يبعث مقوّماتها، ويثير أمجادها، وينادي بآداب القرآن من الشجاعة والكرامة والحفاظ»[١]، ومما تميّز به منهجه في التفسير «معالجته للمسائل الاجتماعية في الأخلاق والسلوك»[٢].

وقد كتب سيّد قطب بين [١٩٥٢- ١٩٥٤م] ستة عشر جزءاً من تفسيره (في ظلال القرآن)، ثمّ دخل السجن، فأكمله إلى نهاية الجزء السادس والعشرين[٣]، «ثمّ وفقه الله إلى إدراك سمة من سمات هذا الدين وخصيصة من خصائصه، واكتشف المنهج الحركي للقرآن الكريم؛ فالتزمه في الأجزاء الأربعة الأخيرة، ورأى أنّه لابدّ من إعادة النظر فيما كتب وأن ينطلق في ذلك من إدراكه الجديد، وقد كان له ذلك من الجزء الأول إلى نهاية الثالث عشر وأوائل الرابع عشر»[٤]، ثمّ قُتل فلم يكمل ذلك.

يقول سيّد قطب: «ونحن نؤكد على هذه السمة في القرآن.. سمة الواقعية الحركية؛ لأنّها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه.

إنّه لابدّ من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النصّ القرآني.

لابدّ من هذا لإدراك وجهة النصّ وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حيّ، ويواجه حالة واقعة كما يواجه أحياء يتحرّكون معه أو ضده. وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلّما تكرّرت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية، وعلى الأخصّ فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية....

إنّ هؤلاء الذين يتحرّكون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى.. هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية، وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن، ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه على النحو الذي أسلفنا، وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه

(١) الشيخ محمد هادي معرفة، التفسير والمفسِّرون في ثوبه القشيب ٢/ ١٠١٢.
(٢) نفسه ٢/ ١٠١٣.
(٣) الدكتور فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ٣/ ٩٩٧، ١٠١١.
(٤) نفسه ٣/ ١٠١١.

الأوراق في مواجهة الحياة المتحرّكة التي لا تكفّ عن الحركة»[١].

ويقـول السـيّد محمد تقي المدرسـي: «.... وفي الوقت نفسـه شـرعتُ في تأليف تفسـيري (من هدى القـرآن)، وركزتُ فيه علـى منهجية التحرّك في الأمة، فالتفسـير كان كتابـاً يتحـدّث عن التيار الإسـلامي وكيفية مواجهته مـع الجهات الأخـرى، بالذات عند اسـتعراض قصـص الأنبياء مـع أممهم..، فهـذه التجربة كوّنـت لديّ منهجيـه خاصة في الاستفادة من الآيات القرآنية»[٢].

ويقول السـيّد محمد حسـين فضل الله عن تفسيره: «وانطلقتْ هذه الدروس في خـطّ عملـي متحرّك يركز على اسـتيحاء أجواء القرآن من أجـل أن نعيش تلك الأجواء فـي حياتنـا الإسـلامية الصاعـدة؛ لأنّ القـرآن ليس كلمـات لغويـة تتجمّد فـي معناها اللغـوي، بـل هـي كلمات تتحـرّك في أجـواء روحيـة وعمليـة....، إنّنا نشـعر أنّه حياة تتحرّك وتعطي وتوحي وتهدي وتقود إلى الصراط المستقيم، فقد كانت آياته تتنزل في أجواء حركة الدعوة الإسـلامية لتراقب نقاط ضعفهـا وقوتها في خطوات الداعية وفي تحديـات الواقـع؛ لتضع لها القواعد الحيّة التي تقوّي جوانـب الضعف، وتحمي القوة من عوامـل الانهيار، وتوجّه الخطوات إلى أهدافها وتواجه تحديات الواقع بإصرار..، وبذلك كانت تتحرّك في جوّ الرسالة؛ لتخلق من خلاله جواً جديداً لها في داخل حركة المجتمع الإسلامي»[٣].

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[٤]، يعقد السيّد فضل الله بحثاً عنوانه (على القيادات أن تدرس خلفيات القاعدة) يقول فيه:

«نستوحي من هذا الموقف درساً جديداً للعاملين في سبيل الله..، وخلاصته: أنّ علـى العامليـن في سـبيل الله - سـواء أكانوا فـي موقع الدعوة أم كانـوا في موقع العمـل والحركـة - أن لا يتأثروا بالمظاهـر الانفعالية للإيمان فيمـن يتعاونون معهم

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٢٢.
(٢) السيّد محمد تقي المدرسي، (العقل والتأويل أصول المنهجية القرآنية المعاصرة)، حوار أجراه معه: الشيخ فيصل العوامي والشيخ عبد الغني عباس، مجلة (القرآن نور)، العدد ٣، السنة الثانية ١٤٢٥هـ، ص ١٠١.
(٣) السيّد محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن، م ١، ج ١، ص ٩.
(٤) سورة البقرة/ ٥١- ٥٢.

أو ممـن يتبعونهـم، بـل يحاولـون أن يدرسـوا - بعمـق - طبيعـة العوامـل الداخلية والمؤثـرات الخلفيـة التي اسـتطاعت أن تربط هـؤلاء بالقيادة أو بالخـطّ العملي أو بالفكرة الشاملة:

فقد تكون المؤثرات خاضعة لطبيعة القائد في قوته الفكرية أو جاذبيته الشـخصية أو انتماءاتـه العائليـة والقوميـة أو الإقليمية، وقد تكون الأسـباب متصلـة ببعض الأجواء العاطفيـة للقضيـة، أو ببعض ردود الفعل ضـد حركات معيّنة أو قيـادات خاصة تقف في الموقـف المعاكس لهـذه الحركة أو هذه القيـادة؛ مما يجعل من الارتباط بها تنفيسـاً عن عقدة أو تفجيراً لغيظ.

وربّمـا تكون العوامل المؤثرة مرتبطة ببعض المواقف السياسـية والاجتماعية التي تمثلها حركة الدعوة إلى الله في مسيرتها الطويلة، بحيث يُعتبر الارتباط بالدعوة الإسلامية مرحلياً من أجل الوصول إلى الموقف السياسي أو الاجتماعي المحدّد.

وقـد لا تكـون القضية نابعـة من ذلك كلّه، بل هـي منطلقة من خـطّ الإيمان الحقّ بالفكرة والخطّ والهدف.

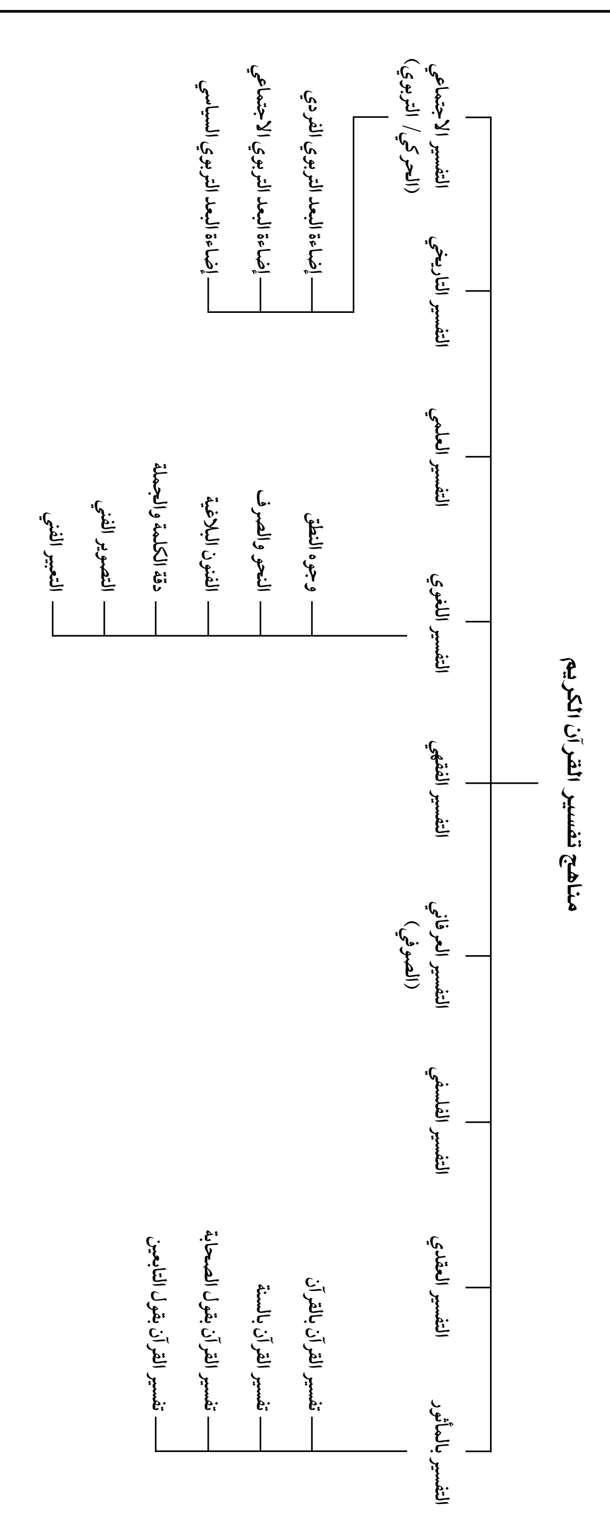
فلابـدّ للعامليـن من دراسـة ذلـك كلّه؛ لتكـون مواقفهـم مبنية على معرفـة عميقة للأرضيـة التي يقفون عليها، وللمجتمعات التي يتعاونون معها ويتحرّكون فيها؛ لأنّ ذلك قد يكلِّف العمل وجوده عندما تختلف حسابات الموقف أمام النماذج القلِقة التي تتكشّف عنها التجارب في صورة غير منتظرة»[1].

ملاحظات عامة على المناهج:

١- أحياناً يعلن المؤلف أنّه سيتبنى منهجاً ما..، وفي الأكثر لا يعلن.
٢- هـذه المناهج قد تُسـتعمل في التفسـير الموضعـي (التجزيئي)، وفي التفسـير الموضوعي (التوحيدي).
٣- قد يتأثر تفسير ما.. بمنهج واحد فقط، أو أكثر من منهج.
٤- قد يخضع تفسير ما.. بأكمله لمنهج، أو يخضع بعض منه فحسب.
٥- قـد تُسـتعمل هـذه المناهـج في حقل التفسـير القرآنـي، أو العلـوم المتأثرة به كالتاريخ أو قصص الأنبياء أو تفسير آيات الأحكام.

(١) من وحي القرآن، م ١، ج ٢، ص ٤٦- ٤٨.

٦- هذه المناهج وإن كانت في طابعها العام تجري في التفاسـير، لكنّها تنعكس - كذلك - على المتدبر المتشرب بها، ولو من قراءته في كتب التفسير أو الثقافة، ومـن ثـمّ ينبغي أن نعرف هذه المناهـج وخطوطها؛ لنتعـرّف عليها ونحن نقرأ معطيات التفاسـير والتدبر، ونأخذ بما نؤمـن به منها في عملية التدبر التي نقوم بها، ونبعد ما نراه فرضاً قسرياً على النصّ.


مناهج تفسير القرآن الكريم
التفسير الاجتماعي (الحركي / التربوي)
إضاءة البعد التربوي الفردي
إضاءة البعد التربوي الاجتماعي
إضاءة البعد التربوي السياسي
التفسير التاريخي
التفسير العلمي
التفسير اللغوي
وجوه النطق
النحو والصرف
الفنون البلاغية
دقة الكلمة والجملة
التصوير الفني
التعبير الفني
التفسير الفقهي
التفسير العرفاني (الصوفي)
التفسير الفلسفي
التفسير العقدي
التفسير بالمأثور
تفسير القرآن بالقرآن
تفسير القرآن بالسنة
تفسير القرآن بقول الصحابة
تفسير القرآن بقول التابعين



ت١: أضعُ علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- نشأ التفسير بالمأثور في أحضان علم الحديث. (   )

ب - التفسير الفلسفي هو الذي يجعل تفسير القرآن الكريم محطاً للإشارات والفيوض القلبية. (   )

ج - للتفسير اللغوي مظهر واحد هو: الفنون البلاغية. (   )

د - التفسير الذي عُدّ أغنى مصدر إسلامي بالإسرائيليات والأساطير النصرانية، هو تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن). (   )

هـ - صاحب تفسير (الكاشف) هو الزمخشري، وصاحب تفسير (الكشاف) هو الشيخ مغنية. (   )

ت٢: ما هو المقصود بالتفسير الكلامي؟، مع ذكر بعض الأمثلة لذلك.

ت٣: حين نعثر على تفسير قد سُكِبت ألفاظه في قوالب أدبية، واصطفت كلماته في زفاف بلاغي، غير أنّ مضمونه يبعث على التأهّب الاجتماعي والنهضة العملية في وجه الجمود المتخلف، ففي أيّ نوع نرتئي تصنيف هذا التفسير، ولماذا؟

ت٤: أبيّنُ لماذا قال الله - تعالى - في حكاية ولادة زوجة النبي زكريا عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ اللّـهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[1]، فجاء بالفعل (يفعل)، بينما قال في مورد حكاية ولادة السيدة مريم عليها السلام: ﴿كَذَلِكِ اللّـهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[2]، فجاء بالفعل (يخلق)؟ مع أنّ الحادثتين معاً تتكلمان عن إنجاب المرأة؟!

ت٥: عند التأمل في المعوّذتين نجد أنّنا في سورة الفلق أمام مستعاذ به واحد: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[3]، والمستعاذ منه أربعة: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

(١) سورة آل عمران/ ٤٠.
(٢) سورة آل عمران/ ٤٧.
(٣) سورة الفلق/ ١.

وَمِن شَــرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَــرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَــرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَــدَ﴾[١]. بينما في سورة الناس بالعكس؛ إذ نستغيث بثلاث صفات لله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾[٢]، والمستعاذ منه واحد هو: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾[٣]، ما هو سبب هذا الاختلاف؟، وما المغزى من الاختلاف بين طريقة السورتين؟

ت٦: بعد التعرّف على المناهج التفسيرية التسعة، فأيّها أؤيد؟، ولماذا؟

---

(١) سورة الفلق/ ٢- ٥.

(٢) سورة الناس/ ١- ٣.

(٣) سورة الناس/ ٤.

أنواع التفسير القرآني

إذا كنّا فيما سبق قد وقفنا عند بعض (مناهج التفسير)، فكانت قراءة في (المنهج) المتبَع، فإنّنا نستطيع أن نقف عند شكل آخر للتفاسير يعتمد على محاولة قراءتها من حيث (المادة) الداخلية المبثوثة فيها.

وهنا قد نجد أنواعاً من التفسير منها[١]:

١- تفسير مفردات القرآن:

ويبحث في معجم معنى كلمات القرآن كلاً على حدة، مرتبة حسب الترتيب الهجائي، مستشهداً على تلك المعاني بالآيات الكريمة.

ومن أبرز الكتب التي سارت على هذا النحو:

أ- (المفردات في غريب القرآن)، للراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد بن المفضّل).

ب - (وجوه القرآن) و(تفسير غريب القرآن)، وكلاهما لفخر الدين الطريحي.

ج - (قاموس القرآن) أو (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم)، للحسين بن محمد الدامغاني.

يقول الراغب الأصفهاني تحت مادة (قَسَط): «القِسْط: هو النصيب بالعدل كالنَّصَف والنَّصَفَة. قال تعالى: ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ**﴾ [يونس/ ٤]، ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ**﴾ [الرحمن/ ٩]. والقِسْط: هو أن يأخذ قِسْط

(١) للتفصيل في (أنواع التفسير) هذه راجع: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نفحات القرآن ١/ ٥- ٧.

غيره، وذلك جور. والإقساط: أن يُعطِي قِسْط غيره، وذلك إنصاف، ولذلك قيل: قَسَطَ الرجل - إذا جار -، وأقسَطَ - إذا عدل -. قال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجنّ/ ١٥]، وقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات/ ٩]، وتقسَّطنا بيننا، أي: اقتسمنا، والقَسَط: إعوجاج في الرِجلين بخلاف الفَحَج، والقِسْطاس: الميزان، قال: ﴿وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء/ ٣٥]»[١].

٢- التفسير الموضعي (التجزيئي):

وفيه يجري بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب الموجود في المصحف، ويتمّ توضيح معانيها ومفاهيمها، وهو الأسلوب المتبع في التفاسير القرآنية.

وقد يتمّ بتفسير القرآن كاملاً، أو بأخذ مقطع من القرآن الكريم - سورة، أو مجموعة آيات، أو آية - للتأمل والاستلهام، كأخذ سورة (النصر) - مثلاً - لاستخراج ما فيها من أفكار ورؤى.

ويقدِّر البعض أنّ عدد التفاسير التي تناولت القرآن الكريم كاملاً على هذا النحو (إلى الآن) بما يزيد على ألفي تفسير[٢].

وسنتناول هذا النوع التفسري بالتفصيل في الفصل الثاني.

٣- التفسير الموضوعي (التوحيدي):

وهو تفسير يسعى لدراسة موضوع قرآني من خلال مجموع آيات القرآن التي تكلمت عنه، أو من خلال سورة قرآنية أو مجموعة من الآيات أو من خلال آية يراها جامعة، أو يتناول سورة قرآنية بكلّ ما تعرضه؛ لأنّه يرى أنّ السورة القرآنية مهما طالت فإنّها تتناول موضوعاً واحداً تدور آياتها حوله[٣].

فهو يأخذ - مثلاً - موضوعاً معيّناً - كالصبر، أو الصداقة، أو الفتنة - ويقوم بدراسته على طول مساحة القرآن الكريم. وهذا يعني تتبّع الآيات في سور عدة وتلقطها، ما دامت

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ٢/ ٥٢١- ٥٢٢.
(٢) نفحات القرآن ٢/ ٥.
(٣) هذا الكلام ليس تعريفاً، وإنّما هو توضيح أوليّ، وسوف نأتي على تعريفاته في الفصل الثاني.

تلك الآيات مندرجة في العنوان الجامع والموضوع الذي تمّ اختياره دون ضرورة ترتيبها حسب السابق فاللاحق في تدوينها في المصحف الشريف أو في زمن النزول.

وقد يدرس سورة كاملة مبرزاً الموضوع الذي تعالجه وتتكلم عنه، أو مجموعة من الآيـات حوت موضوعاً مكثفاً، فهناك مواضع قرآنية اسـتطاعت أن تلـمّ بموضوع كامل، والتأمـل فيها يُعدّ تدبـراً (موضعياً)؛ لأنّه منصبّ على موضع معيّن، كما يُعدّ (موضوعياً)؛ باعتبار أنّها توفرت على موضوع.

ولعلّ هذا يحتاج إلى محاولة التعرّف على تلك الأماكن التي احتوت على موضوع كامل بحيث يمكن الاعتماد عليها في تدبر موضوعي.

ومن أمثلة المواضع القرآنية المشبعة التي اشتملت على موضوع كامل قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[1]، فهي تجيب على سؤال: ما هي طرق وحي الله للأنبياء؟

وقد نجيب عليها – من خلال الآية – بأنّها:

أ – الإلقاء في الروع، عبر الإلهام أو الرؤيا.

ب– المخاطبة من وراء حجاب.

ج– إرسال الملك (جبريل الأمين).

وقد مرّت – بهذا الترتيب – في الآية السابقة.

وبشكل آخر يمكن إرجاع هذه الطرق الثلاث إلى أسلوبين هما: الوحي بالمباشرة (الإلقاء في الروع)، والوحي بالواسطة (المخاطبة من وراء حجاب، أو إرسال الملك).

وسـينصبّ اهتمامنـا فـي هـذا الكتاب علـى هـذا النـوع، أي (التدبـر الموضوعي التوحيدي).

٤- التفسير الارتباطي:

ويتنـاول مواضيع القرآن المختلفة من حيث ارتباطهـا ببعضها، كأن يبحث العلاقة بين الإيمان والعلم والعمل الصالح. ويُسمى – كذلك – بـ(التفسير التسلسلي)، فيَصِل – مثلاً من خلال الآيات – إلى العلاقة التواشـجية التفاعلية بين هذه الثلاثة، فالإيمان يحثّ

(١) سورة الشورى/ ٥١.

على العلم، ويؤكد على لزوم السعي له، وعدم الأخذ بالظنون -غير المعتبرة- والشكوك والأوهام، كما أنّ العلم يقود إلى الإيمان، أي أنّ العلاقة بينهما علاقة تبادلية.

ويترشح عن الإيمان: العمل الصالح، حتى لا يخالف الإنسان إيمانه، وحتى لا يرتدّ نفاقاً مبطناً لبسَ فراء الإيمان. كما يترشح عن العلم: العمل الصالح حتى لا يخالف المرء يقينه الجازم.

كما يرتبط الإيمان بالعلم والعمل الصالح معاً، فيشكّل (الإيمان) المستوى العقدي القلبي النفسي في العلاقة، بينما يمثّل (العلم) المستوى العقلي الذهني الفكري، في حين يمثّل (العمل) المستوى العملي السلوكي التطبيقي.

وإذا آمن شخص بشيء أثّر في معارفه وأعماله، كما أنّ بلوغ معارف الإنسان إلى مستوى العلم - عبر البرهان والدليل القاطع - يجعله يؤمن بها قلبياً على المستوى النفسي (القطع)، وعدم التعامل معها بوصفها طروحات نظرية علمية فحسب، كما يملي عليه لزوم الاستفادة منها في الميدان العملي.

وهذا ما يجعل بعض الآيات تقرن الثلاثة في سياق واحد كما سبق أن رأينا في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾. وفي آيات أخرى يقترن الإيمان بالقول والعمل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾[١].

ولا يعني هذا أنّ الأمور المرتبطة تقترن دوماً في آية واحدة أو في آيات متلاحقة ومتجاورة في موضع واحد، فقد تكون متباعدة الموضع، إنّما المعيار وجود العلاقة الارتباطية بينها على نحو التشابه، أو التكامل، أو التفريع، أو التضاد، أو العلية، أو المعلولية، أو غير ذلك[٢]..

٥- التفسير الكوني:

«وهنا يتناول المفسِّر جميع مضمون القرآن فيما يتعلّق بعالم الوجود، وبتعبير أكثر

(١) سورة الصف/ ٢- ٣.

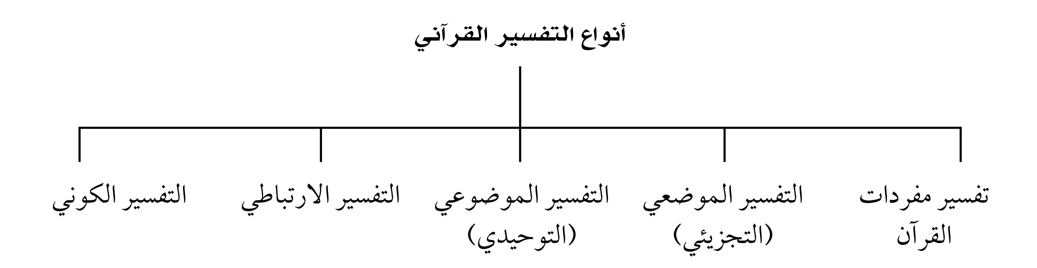
(٢) وسنتناول هذه العلاقات بالتفصيل في الخطوة الخامسة من خطوات التفسير الموضوعي الكشفي (اكتشاف الوحدة العضوية).

وضوحاً: يربط كتاب (التكوين) مع كتاب (التدوين)، وينظر إليهما معاً، ويفسِّرهما من حيث ارتباطهما ببعضهما»[١].

أي أنّه يتناول العلاقة بين عالم الطبيعة والقرآن الكريم، فيربط بين الشمس - مثلاً - والآيات القرآنية، مستفيداً من موقعها في الطبيعة وفوائدها وسائر ما يتصل بها، ومن صورتها في القرآن الكريم.

فنحن لا نقف عند الجانب (التكويني) وحده، ولا عند الجانب (التدويني) وحده، وإنّما نسبر أغوار الاثنين معاً، ونعقد العلاقة الترابطية بين الاثنين.

وحين نراجع مقدار ما حظيت به هذه الأنواع التفسيرية من اهتمام وانتشار بين المفسِّرين نجد أنّ «المشهور بيننا من بين هذه الأنواع الخمسة هو النوع الأول والثاني، وإلى حدٍّ ما.. النوع الثالث»[٢]، أما الرابع والخامس - (الارتباطي) و(الكوني) - فلم يحظيا باهتمام مناسب إلى الآن، لا على المستوى التنظيري، ولا على المستوى التطبيقي، ولعلّ حاجتهما إلى موسوعية القائم بهما، وسعة تشعبهما، والزمن الكافي، وعدم توفر العاكفين على الدراسات القرآنية بهذا المستوى تمثل بعضاً من الأسباب التي حالت دون بلوغ ذلك!!



(١) نفحات القرآن ١/ ٧.
(٢) نفسه ١/ ٧.



ت١: أضـــعُ علامة (✓) أمام العبـــارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- تفسـير مفردات القرآن هو الأكثر انتشاراً؛ نظراً لسهولة القيام به. ( )

ب - التفسير الكوني يركز على شرح الآيات المتطرّقة للكون والفضاء فقط.( )

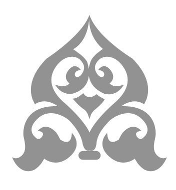
ج - التفاسـير التـي شـرحت القرآن الكريـم كاملاً نسـمّيها تفاسـير موضوعية؛ لأنّها تناولت كلّ سور وموضوعات القرآن. ( )

ت٢: تباينت التفاسير القرآنية في مادتها إلى ما يصل لخمسة أنواع تفسيرية، فأيّها باعتقادي نحن بحاجة إليه أكثر؟، ولماذا؟

ت٣: قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّـهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّـهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]. هل هذه الآيـة الموضِعية مما قد جمعت موضوعاً كاملاً؟، أوضّح ذلك.

ت٤: أقـومُ بالبحـث عن مثال قرآنـي لآيات ينطبق عليها اسـم (الموضعي/ الموضوعي).

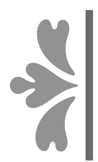
(١) سورة الأعراف/ ٣٣.



الفصل الثاني



التدبر الموضعي والتدبر الموضوعي



- مناهج التدبر:

أولاً: التدبر الموضعي (التجزيئي).

ثانياً: التدبر الموضوعي (التوحيدي).

- أقسام التدبر الموضوعي:

١- التدبر الموضوعي التجميعي.

٢- التدبر الموضوعي الكشفي.

- مجالات التدبر الموضوعي.



مناهج التدبر

أولاً: المنهج الموضعي (التجزيئي):

ونقصد به: «المنهج الذي يتناول المفسِّـر ضمن إطاره القرآنَ الكريمَ آية فآية، وفقاً لتسلسـل تدوين الآيات في المصحف الشـريف»[1]. أي أنّه يبدأ بسـورة الفاتحة، وينتهي بسورة الناس.

أو يتناول موضعاً – سورة أو آيات أو آية – بالدراسة ومحاولة استخراج ما فيها من أفكار ورؤى.

وكمـا نسـمّيه بـ(الموضعـي)؛ لأنّه يصـبّ جهده علـى الموضع (المقطـع) الذي يدرسـه دون أن يكون في عزمه أن يتتبّع الموضوع وتفصيلاته خارج ذلك المقطع. نسمّيه – أيضـاً – بــ(التجزيئي)؛ لأنّه يدرس الآيات جزءاً جزءاً بمعزل عن باقي الآيات التي في الموضوع نفسه لكنّها في أماكن ومواضع قرآنية أخرى.

كما يُسـمّى بـ(الترتيبي)؛ لأنّه يتناول السـور والآيات مرتبة حسبما هي مدوّنة عليه في المصحف الشريف، بينما الدراسة الموضوعية قد تبدأ بالمتأخر من الآيات –نزولاً أو تدوينـاً–، وتقدّمـه على ما هو قبله في النزول أو التدوين؛ فتقدّم آية في سـورة الناس على آية في سـورة الفاتحة أو البقرة؛ بناء على حاجة الموضوع وطريقته المنطقية في التركيب، وطريقته الهندسية في تسلسل الأفكار.

ويُسـمّى بـ(السـياقي)؛ لأنّه يفسِّـر الآيات كما هي في سـياقها التي هي فيه الآن في سـياج السور التي وردت فيها، ولا يسعى لانتزاعها ودمجها مع أخرى – قريبة أو بعيدة –

(١) السيّد الشهيد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية/ ٩.

لتشكيل موضوع واحد منها ضمن علاقة جديدة.

ويُسمّى بـ (اللفظي)؛ لأنّه يصبّ اهتمامه على توضيح معاني ألفاظ الآيات، وبيان معاني مفرداتها.

ويُسمّى بـ (العام)؛ لأنّه يدرس كلّ ما هو في السورة - مثلاً - دون أن يقصر دراسته على موضوع معيّن فيها.

ويُسمّى بـ (التحليلي)؛ لأنّه يفسّر القرآن الكريم آية آية، يقف في كلّ آية عند معاني كلماتها، وتفصيل أفكارها، وأسباب نزولها، فهو يحلّل الآيات وفق ترتيبها التدويني في المصحف، ويحلّل العلاقات والأجزاء ضمن آيات سورة ما..، أو الآية الواحدة.

ويُسمّى بـ (التفكيكي)؛ لأنّه يفكّك الآيات والعلاقات التي في داخلها إلى أجزاء صغيرة يدرسها، ويسبر معانيها وآفاقها، فيفكّك السورة - مثلاً - إلى آيات، والآية إلى جمل، وقد يفكّك الجمل إلى كلمات؛ ليتعرّف بدقة على المعاني التفصيلية لكلّ ذلك[1].

ويُسمّى بـ (المناسباتي)؛ لأنّه يفسّر الآيات بناء على ما بينها من اتصال وتناسب وتجاور يؤثر في معناها، مما يهتم به (علم المناسبات).

ويُسمّى بـ (البنائي)؛ لأنّه يرى في السورة القرآنية بناء وبنية ونسقاً متكاملاً متماسكاً، تتلاحم أجزاؤها في تشكيل وحدة واحدة وبناء واحد ونظام واحد، كما تشترك أجزاء المنزل (المبنى) في تشكيل الصورة الكلية للبناء.

فهذه عدة أسماء تُطلق على هذا النوع من التدبر أو التفسير:

١ - الموضعي.
٢ - التجزيئي.
٣ - الترتيبي.
٤ - السياقي.
٥ - اللفظي.
٦ - العام.
٧ - التحليلي.
٨ - التفكيكي.
٩ - المناسباتي.
١٠ - البنائي.

وأكثر ما سنستخدمه في هذا الكتاب هو مصطلحا: (الموضعي) و(التجزيئي).

(١) فالتحليلي والتفكيكي اسمان لمسمّى واحد، ولمدلول واحد، ولنوع واحد من الفعل هو تفصيل المركب إلى أجزاء.

بداية ظهور الاتجاه الموضعي:

وعلى نحو الطبيعة الجارية في انبثاق العلوم والمعارف بـذرة صغيرة، ثمّ تكاملها ونموها عبر مسيرها الزمني والخدمات المسداة إليها، مرّ التفسير الموضعي بمرحلتين:

١- مرحلة الرواية (المشافهة):

وكان التفسير فيها يُتداول شفوياً دون كتابة، وتتلقاه الأذن من الفمّ مباشرة دون استخدام القلم والورق لتدوينه.

ففي عهد الرسول الأكرم ﷺ، كانت البدايات الأولى للأخذ بهذا الشكل للتلقي، حيث كان النبي ﷺ يبيّن للناس ما يحتاجون إليه، ومن أهمه ما تتنزّل عليهم من آيات ربّهم - جلّ وعلا - بما فيها من معان وأحكام وحِكم، وحيث كان بعض الصحابة أو بعض الأعراب يسأل الرسول ﷺ عمّا يستشكل عليهم.

ثمّ استمرّ ذلك في عصر الصحابة، فكانت التفسيرات المنقولة عن أمير المؤمنين عليه السلام، أو عبد الله بن مسعود، أو أُبَيّ بن كعب، أو عبد الله بن عباس، أو أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس)، أو أبي الدرداء (عويمر بن عامر الخزرجي).

وقد عُدّ أربعة من هؤلاء أشهر وأعلم أربعة صحابة في التفسير، وهم: علي - وكان رأساً وأعلم الأربعة -، وعبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن عباس، وكان الأخير أصغرهم سناً، وأوسعهم باعاً في نشر التفسير(١).

يقول أبو عمر الزاهد: قال لنا عبد الله بن مسعود ذات يوم: «لو علمتُ أنّ أحداً أعلم مني بكتاب الله - عزّ وجلّ - لضربتُ إليه آباط الإبل، قال علقمة: فقال رجل من الحلقة: أَلَقِيْتَ علياً عليه السلام؟، قال: نعم، قد لقيتُه، وأخذتُ عنه، واستفدتُ منه، وقرأتُ عليه، وكان خير الناس، وأعلمهم بعد رسول الله ﷺ، ولقد رأيتُه ثبج بحر يسيل سيلاً»(٢).

ويقول عبد الله بن عباس: «جلّ ما تعلمتُ من التفسير من علي بن أبي طالب»(٣).

---

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٩٢- ٩٣، الباب ٨، ح ٤٢، والتفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب ١/ ١٨٧.

(٢) نفسه ٨٩/ ١٠٥، الباب ٨، ح ٨٣.

(٣) نفسه ٨٩/ ١٠٥، الباب ٨، ح ٨٣.

ويقول أيضاً: «علي عليه السلام علم علماً، علّمه رسول الله صلى الله عليه وآله، و رسول الله صلى الله عليه وآله علّمـه اللـه، فعلمُ النبي صلى الله عليه وآله من علم الله، وعلمُ علي مـن علم النبي صلى الله عليه وآله، وعلمي من علـم علـي عليه السلام، وما علمي وعلـم أصحاب محمـد صلى الله عليه وآله في علم علـي إلا كقطرة في سبعة أبحر»(١).

كما استمرّ في عهد التابعين، فتتلمذ على يد أمير المؤمنين جماعة، منهم: الأصبغ ابن نُباتة(٢).

وتتلمـذ علـى يد عبـد الله بن مسـعود: علقمة بن قيـس النخعي، وأبو وائل شـقيق ابن سـلمة الأسدي، والأسـود بن يزيد النخعي، ومسـروق بن الأجدع، وعبيدة بن عمرو السلماني، وقيس بن أبي حازم (قيس بن عبد عوف).

وتتلمـذ علـى يـد عبد اللـه بن عباس جماعـة، منهـم: مجاهد بن جبر، وسـعيد بن جبيـر، وعكرمـة بن عبد الله (مولى ابن عباس)، وعطاء بن أبي رباح، والحسـن البصري، وطاووس بن كيسان الخولاني.

كما تتلمذ آخرون على يدي أُبَي بن كعب، وأبي موسى الأشعري، وأبي الدرداء.

٢- مرحلة التدوين (الكتابة):

وبعد اجتياز مرحلة الرواية والمشافهة جاءت مرحلة التدوين والكتابة، وهمَّ بعض التابعين بكتابة التفسير، كما فعل علي بن أبي طلحة ومجاهد بن جبر، اللذان أخذا يدوّنان آراء ابن عباس.

«ولعلّ أول ما عُرف لنا من ذلك: تلك الصحيفة التي رواها علي بن أبي طلحة عن ابن عباس»(٣)، وهي صحيفة تتضمن تفسير شيء من القرآن لا كامل القرآن الكريم.

وأما عن عمل مجاهد، فيقول مجاهد: «عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أُوْقِفُه عند كلّ آية منها وأسأله عنها»(٤).

ويقـول ابـن أبي مليكـة: «رأيتُ مجاهداً سـأل ابن عباس عن تفسـير القـرآن ومعه

(١) نفسه ٨٩/ ١٠٥، الباب ٨، ح ٨٣.
(٢) التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب ١/ ١٨٨- ١٨٩.
(٣) الموسوعة العربية العالمية ٧/ ٥٩.
(٤) نفسه ٧/ ٥٧.

ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب..، حتى سأله عن التفسير كلّه»[١].

أما أول تفسير للقرآن الكريم من أول سورة الفاتحة إلى ختام سورة الناس، فيذهب ابن النديم (محمد بن إسحاق) [ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م] في (الفهرست) إلى أنّ أوّل تدوين كان في ذلك هو كتاب (معاني القرآن) للفرّاء [١٤٤ – ٢٠٧هـ]، [٧٦١– ٨٢٢م][٢].

والظاهر أنّ في كلام ابن النديم مبالغة؛ إذ الناظر في تفسير الفرّاء (معاني القرآن) يجد أنّه لا يعدو أن يكون تفسيراً لبعض ما أشكل من آيّ القرآن سورة سورة، وكتابه هذا أشبه بكتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معْمر بن المثنى [١١٢ – ٢٠٨هـ]، [٧٣٠– ٨٢٣م] الذي تناول فيه ما أشكل من القرآن فقط[٣]، لا كامل الآيات.

كما كتب عبد الرزاق بن همام [ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م] – وهو معاصر للفرّاء – تفسيراً شاملاً لكلّ آيّ القرآن، «واستطاع أن يجمع إلى جوار حديث الرسول – صلى الله عليه وسلّم – تفسيراً واسعاً يُعتبر من أوائل التفاسير التي كُتبت في عصر التدوين، وما يزال هذا التفسير مخطوطاً، وتوجد قطعة منه في دار الكتب المصرية. ويشهد لهذا أنّ الطحاوي (أحمد بن محمد بن سلامة) قد رجع إليه كثيراً في كتابه (مشكل الآثار)»[٤].

كما كتب أبان بن تغلب [ت ١٤١هـ/ ٧٥٨م] تفسيره المعنون بـ (الغريب في القرآن) أو (تفسير غريب القرآن)، وهو أسبق من الفرّاء وعبد الرزاق بن همام وأبي عبيدة، ومن ثمّ قال عنه خير الدين الزركلي: «ولعلّه أول مَن صنّف في هذا الموضوع»[٥].

ولعلّ أبرز نموذجين قديمين للتفسير الموضعي – حيث اكتمل في صورة تفسير كامل وشامل – هما:

أ– (جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري [٢٢٤– ٣١٠هـ]، [٨٣٩– ٩٢٣م].

ب – (التبيان في تفسير القرآن)، للشيخ محمد بن الحسن الطوسي [٣٨٥– ٤٦٠هـ]، [٩٩٥– ١٠٦٧م].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري) ١/ ٤٧.

(٢) الموسوعة العربية العالمية ٧/ ٥٨.

(٣) نفسه ٧/ ٥٨.

(٤) نفسه ٧/ ٥٨.

(٥) الأعلام ١/ ٢٦– ٢٧.

ثمّ لحقتهما في المضمار نفسه العديدُ من التفاسير، ومن أهمها:

أ - (مجمع البيان في تفسير القرآن)، للشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي.

ب- (الميزان في تفسير القرآن)، للسيّد محمد حسين الطباطبائي.

ج - (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل)، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

د - (المنير)، للشيخ الدكتور وهبة الزحيلي.

لماذا شاع التفسير الموضعي؟

هناك أمور عديدة أدت إلى شيوع التفسير الموضعي/ التجزيئي وانكماش التفسير الموضوعي/ التوحيدي، ومنها:

١- قدسية ترتيب آيات القرآن:

فالقرآن الكريم بصفته كتاباً مقدّساً وُضع بترتيب ونصّ معيّن من قبل النبي ﷺ، ويبدأ هذا الترتيب بسورة (الفاتحة)، ويُختتم بسورة (الناس)، «وقد بقي المسلمون -وحتى يومنا هذا- يحترمون هذه الصيغة وهذا الشكل التركيبي للقرآن الكريم، الأمر الذي أدى إلى التقيّد بهذا الترتيب في قراءة القرآن، وفي تفسيره ودراسته»[1].

ومن ثمّ جاءت تفاسير القرآن لتسير على ترتيب السور والآيات في المصحف، وتهتم بكلّ آية أو سورة على حدة، فنشأ التفسير موضعياً تجزيئياً.

بينما الأخذ بالتدبر أو التفسير الموضوعي كان يقتضي جمع الآيات على حسب (الموضوع) ومنهجية بحثه، وليس بالضرورة فيه التقيّد بالسابق فاللاحق، فقد يُقدّم اللاحق على السابق كما قدّمنا قبل قليل.

ولسيادة البحث عن التفسير اللفظي للآيات، وغياب فكرة البحث عن موضوع كامل في القرآن، والخوف من بحث الآيات ضمن ترتيب آخر وفقاً لموضوعها؛ شكل كلّ ذلك انتشاراً للتفسير الموضعي، وانحساراً للتفسير الموضوعي.

٢- سيطرة النزعة الروائية والحديثية في التفاسير:

فقد نشأت بذرة التفاسير القرآنية في حديقة الحديث والرواية، وما كانت التفاسير

(١) السيّد محمد باقر الحكيم، تفسير سورة الحمد/ ١٠٣.

الأولـى إلا جمعـاً للأحاديـث والروايات حول سـورة معيّنة أو آيـة معيّنة، وتُعـرَض فيها الآيات وأقوال المعصومين عليهم السلام المتعلقة بها فحسـب، وهي – في الغالب – شروحات وتوضيحات موضعية.

وعلـى هـذا النحـو جاء (تفسـير القمـي)، لأبي الحسـن علي بـن إبراهيـم القمي، و(تفسـير العيّاشـي)، لمحمد بن مسعود بن عيّاش، و(جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري.

وقـد سـعى علماء الحديث – في البدايات – إلى عـدم التعليق على الروايات حتى بالجمع بينها واسـتخراج رؤى موضوعية: إما لأنّ همّهم كان جمع الأحاديث والروايات لا القيـام بدراسـات موضوعية لها، وإما لسـيطرة الخوف من هاجس الوقوع في التفسـير بالرأي الذي حذّرت منه الأحاديث.

فالأحاديث المذكورة في فضل سـورة كذا، وأجر قراءتها، أو التي توضّح معنى آية ما.. تدفع بالإنسـان إلى التأمل التجزيئي في ذلك الفصل بذاته بشـكل مستقل؛ لأنّها تأتي متفرّقة وموزعة حسـب السـور والآيـات، لكنّها لم تُرفد بجمعها تحـت عنوان موضوعي واحد، ولا الخروج منها برؤية متكاملة.

وهكذا ظلّ السعي لجمع الأحاديث وتدوينها دافعاً لجمعها على شكل تجزيئي، لا على أسـاس موضوعي، ولا على أسـاس دراسة موضوعية؛ مما أخّر فكرة محاولة ترتيب الآيات ترتيباً موضوعياً، والاستفادة منها على شكل موضوعي.

٣- غلبة التفسير اللفظي للمفردات القرآنية:

فمن يسـتقريء التفاسـير يجد أغلبها يـدور حول توضيح معانـي الكلمات، وبيان معنى مفردة بمفردة ثانية أسـهل وأقرب للفهم ومتناول العرف، مبرِّرة عملها بأنّنا أصبحنا بعيديـن عن زمـن النصّ؛ مما يؤدي إلى تحـوّل بعض الألفاظ فيه إلـى مفردات وتراكيب غريبة غير مألوفة عند كثيرين ممن لا إلمام لهم بمفردات اللغة، ولا أنس عندهم بتراكيبها، بحيـث انتقلت بعض الألفاظ والأسـاليب لديهم من البديهي الـذي يتملاه العربي بفطرته ويناغيه بسليقته إلى معاني معجمية لا تُعرف من دون القاموس.

وأمام هذه الدوافع التفسـيرية جاءت أغلب كتب التفسـير متوشحة بنظرة موضعية ضيّقة همّها شـرح المفـردات والجمل بأخرى قريبة، لا القيام بعمل موضوعي يسـتهدف الوصول إلى اسـتخراج موضوع من القرآن الكريم، ويسـتدعي القيام بتركيب الآيات من

جديد وفقاً للعلاقات التي يحتاجها ذلك.

فإذا مرّت بكلمة (حرج) في مثل قوله تعالى: ﴿**مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ**﴾[1]؛ شُرحتها بـ (المشقة)، وإذا مرت بكلمة (لينة) في قوله تعالى: ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾[2]؛ شُرحتها بـ(النخلة).

٤- ضعف الحاجة للبحث الموضوعي:

فقد كان الناس في زمن الرسول الأكرم ﷺ يعيشون النظريات الإسلامية من خلال التطبيق النبوي، فكان لديهم فهم ارتكازي إجمالي للنظرية، فلم يشعروا بأهمية البحث الموضوعي، خصوصاً في القضايا الاجتماعية، أما في عصرنا الحاضر، فهناك نظريات أخرى في الواقع الخارجي تفرض على المسلم أن يندفع للتعرّف على نظرية الإسلام في ذلك: هل هي مؤيدة أم مخالفة أم مشذّبة، «فبرزت الحاجة إلى المنهج الموضوعي في التفسير لسدّ هذه الحاجة»[3].

فبروز نظريات مفصّلة في القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها..، والتي تبرز من خلال الاطلاع المعرفي على نتاجات العقل البشري، ومن خلال التفاعل العملي مع الواقع الخارجي الذي تزدحم فيه تلك النظريات، وحاجة المسلم لسنّ عمله وفق الدين والشريعة، أمور تضافرت لتحثّه على المقارنة وسبر تلك الموضوعات في القرآن الكريم؛ للتوصل إلى النظرية القرآنية، والتوصل منها إلى الرؤية الأصوب للواقع الخارجي وما يحمله، وذاك ليس بالضرورة أن يكون مجموعاً في مكان واحد في القرآن، فنحن نعلم أنّ طريقة البناء القرآني ليست طريقة ذكر فصول وموضوعات معرفية، وإنّما تتناثر فيها المعارف متفرّقة الأماكن، فالخيط الذي يشدّ أطراف الآية لبعضها أو أطراف الآيات في سورة بحيث تدور في فلكه هو غرض الهداية والتزكية والتربية الذي يعدّه القرآن هدفه الأهم، فنشأت الحاجة عند المسلم لإعادة ترتيب الآيات موضوعياً ومعرفياً للوصول إلى النظرة المتكاملة في ذلك.

إنّ المقارنة بين عصر المسلمين الأول - لاسيما في زمان نزول الوحي -، وبين

(١) سورة المائدة/ ٦.

(٢) سورة الحشر/ ٥.

(٣) تفسير سورة الحمد/ ١٠٤.

زماننـا الحاضـر، تفيد بتعقد الموضوعـات في زماننا وتكاثفها بمسـتوى لم يكن في ذلك الزمـن، ومن ثمّ من الطبيعي أن يقود للحاجة إلى البحث الموضوعي لتلك الموضوعات المسـتجدة وفقـاً لرؤيـة القرآن، ومـن الطبيعي – كذلك – أن لا تنشـأ تلـك الحاجة لدى القدماء الذين لم يعايشوا تلك المشكلة لا على الإطار المعرفي، ولا على الإطار التطبيقي؛ بالمستوى الذي نعيشه نحن الآن، مما كان ناتجه المتوقع تكاثف الأسباب لبروز الحاجة للتدبر الموضوعي في زماننا أكثر مما كانت عليه في زمانهم.

يُضاف إلى ذلك أنّ المسلم في زمان نزول الوحي كان إذا داهمه موضوع لا يعرف جوابه مضى للرسـول ﷺ ليجيبه، وقد تنزل في ذلك آيات ووحي، فضلاً عن أحاديث النبـي وآلـه التي رفدت مسـيرة الأمة بما تحتاجه، فلـم يكن بحاجة للقيـام بعملية البحث الموضوعي في القرآن الكريم بما تتطلبه من سعة وجهد.

أمـا نحـن – في زمـان انقطـاع الوحي، وانتقـال المعصوميـن إلى الرفيـق الأعلى، وغيـاب المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، وضياع كثير من الأحاديث والروايات، واختلاط السـليم منها بالسقيم – فما السبيل أمامنا للتعرّف على وجهة نظر الدين في الأمور؟!

إنّ واحدة من السبل أمامنا أن نستنطق القرآن، ونلمّ جوانب الموضوع المبتغى من كلّ مكان فيه، ونضع ذلك متجاوراً؛ لنستلهم منه الأفكار والرؤى العامة.

٥- مشكلات الاتجاه الموضوعي:

فهنـاك عدة مشـكلات تعتـرض طريق التدبر أو التفسـير الموضوعي أسـهمت في انكماشـه وابتعـاد الكثيرين عنه، وقلة الدراسـات المقدّمـة فيه قياسـاً بالموضعي، وعلى الطـرف المقابـل أسـهمت في انتشـار التفسـير الموضعي، وسـوف تمرّ بنا تحـت عنوان (مشكلات التدبر الموضوعي) حينما ندرس التدبر الموضوعي.

الآثار السلبية المترتبة من التفسير الموضعي:

لا ننفي أنّ للتفسـير الموضعي كثيراً من الإيجابيات مثل: إمكانية أخذ مقطع ولو صغير لدراسـته واسـتفراغ الجهد فيه، ومـن ثمّ تكثيف الضوء عليه بقـوة، وتفجير أكبر قـدر ممكـن من بؤر النصّ وطاقاتـه..، ولكنّه من طرف آخر تركَ بعض الآثار السـلبية، ومنها:

١- التناقضات المذهبية والفكرية:

إنّ مـن يحـدد نظره في زاوية واحدة من ركن اللوحة سـيعتقد أنّها تشـير لموضوع معيّن، بينما لو نظر لها كاملة ككيان واحد فلا شـك سـيختلف رأيه؛ لأنّ (جزء الصورة لا يعكس الصورة كاملة)، وكذلك الأمر مع القرآن الكريم الذي تحوّل إلى معترك سـجال، وإلى موقد كلّ يدني قرصه إليه!!

وبمـا أنّ القـرآن به المحكم والمتشـابه، والعام والخاصّ، وغيـر ذلك..؛ فقد توفر لذوي الهوى والمآرب والمتسـرّعين والبسـطاء أن يقفوا عند موضع أو آية، ويسـتخرجوا منه ما لا يريده القرآن!!، وسنضرب لذلك مثالين:

أ- مذهبياً:

نلاحظ أنّ بعض المذاهب الإسلامية تؤمن بعقيدة (الجبر) في أفعال العباد، وأنّهم مسيّرون وليسوا مخيّرين، وأنّ الإنسان مجرّد مكتسب للتأثير الجبري، وأنّ كلّ ما يحدث في مسرح الوجود - ومنه الإنسان - إنّما هو (قضاء وقدر) إلزامي لا سبيل للإنسان لدفعه أو تغييره أو الخروج عليه، فآمن هؤلاء بنظرية (الكسـب)، وراحوا يستدلون بالقرآن على ذلك، كقوله تعالى: ﴿**بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[١]، ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾[٢]، ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ**﴾[٣]، ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾[٤].

وعلى الطرف المناقض تماماً للقول بالجبر، يعتقد آخرون بعقيدة (التفويض)، وأنّ الله أوكل للإنسـان جميع أعماله، وأنّه ليس مجبراً في شـيء منها أبداً، وراح هؤلاء أيضاً يسـتدلون على فكرتهم بالقرآن الكريم، ومن جملة أدلتهم: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**

(١) سورة البقرة/ ٨١.
(٢) سورة الكهف/ ١٧.
(٣) سورة إبراهيم/ ١٨.
(٤) سورة النساء/ ٧٨.

فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾[١]، ﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ**﴾[٢]، ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[٣].

والخطأ الناشئ من كلا الطرفين هو أنّهم اكتفوا بالنظر لآية واحدة فقط أو لخطّ معيّن من الآيات مع قطعها عن الآيات الأخرى المخالفة في الموضوع ذاته، بينما من يدقق النظر في قراءة موضوعية توحيدية سيرى أنّه «لا جبر ولا تفويض، ولكن.. أمر بين أمرين»[٤]، وتلك تمثل النظرة الوسطية الجامعة لشتات الموضوع، وقد حكتها بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[٥]، ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[٦]، ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[٧].

ومن ثمّ تصحّ نسبة الفعل الإنساني إلى الله؛ لأنّه الذي وهب القوة والقدرة والإمكانات، كما تصحّ نسبته إلى الإنسان؛ لأنّه الفاعل المباشر الذي منحه الله دواعي التكليف من عقل وإرادة وقدرة واختيار، فوضع الفعل في أحد تلك الخيارات والإمكانات، لكنّ إقدامه على خيار دون سواه سيجعله مسؤولاً عن فعله الإرادي وتصرّفه الاختياري.

وهذا يعني أنّ الآيات التي تنسب الفعل إلى الله، واستُلّ منها القول بالجبر والكسب تتحدث عن الله باعتباره القادر واهب القوة، والتي تنسب الفعل للإنسان، واشتُق منها القول بالتفويض تتكلم عن تلك القدرة والاختيار المعطاة للإنسان، وأنّ النظرية الأشمل صحة نسبة ذلك إلى الله بوصفه الواهب، وإلى الإنسان بوصفه المباشر، فلا الإنسان خارج عن قدرة الله، ولا مجبر بفعل قدري مسلط عليه، وإنّما هو متصرّف بالهبة الإلهية في إمكانات واختيارات، كمن أُهديت إليه سكين: فهو يستطيع أن يقطّع بها الفواكه للضيوف، ويستطيع أن يقتل بها الناس!!

(١) سورة الإسراء/ ٨٤.
(٢) سورة هود/ ١٢١.
(٣) سورة الإنسان/ ٣.
(٤)- الشيخ محمد ين يعقوب الكليني، الكافي، تحقيق: محمد جعفر شمس الدين ١/ ٢١٠، الباب ٥٢، ح ١٣.
(٥) سورة الإنسان/ ٣.
(٦) سورة الشمس/ ٧- ١٠.
(٧) سورة الكهف/ ٢٩.

ب- فكرياً:

بإمكاننا أن نجري مثالاً في الوادي الفكري، وهو محاولة البعض إثبات نظرية أصل الأنواع والنشوء والارتقاء والتطوّر، التي ظهرت قديماً من لدن اليونان، ثمّ تزعمها - فيما بعد - (دارون) وزميله (ولاس) وإن اختلفوا معهم في بعض تفصيلاتها، ومحاولة هذا البعض الاستدلال لها من الآيات الكريمة!!

فإذا ذهبت نظرية التطور إلى أنّ بدء الحياة كان في الماء، وأنّ أصل الأنواع الحية واحد، ثمّ تطوّرت، وعبر سلالات - بدأت بالحيوان وحيد الخلية (الأميبا) أو (الأيبّى)، ومرّت بحلقات توالت، حتى ظهر القرد الذي هو أرقى الحيوانات، وأنّه هو الحلقة الوسيطة بين الحيوان والإنسان؛ لأنّه يمتلك صفات بشرية ملحوظة، وفي عالم القرود يأتي (الشمبانزي) كأعلى سلالة فيها، ومنها تطوّر الإنسان!!، - وهكذا ظهر الإنسان كنوع راق من الحيوانات، وأنّ سنة التطوّر تعمل بهذه الطريقة عبر عاملين هما: البيئة والوراثة[١].

راح بعض من اعتنقها من المسلمين يقلّب آيات الله بحثاً وتنقيباً حتى يعثر على آيات يظنّها تؤيد النظرية، وهبَّ يعلن بأنّ الله في القرآن لا يعارض نظرية النشوء والارتقاء وإنّما يؤيدها، ومضى يسرد الآيات لدعمها.

وواحد من هؤلاء كان الدكتور مصطفى محمود الذي يقول:

«ثمّ يأتي ذكر الحياة: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾**[٢]، **﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء﴾**[٣]، **﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾**[٤]، **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾**[٥].

والحمأ المسنون هو الطين المنتن المختمر. فهو - مرة - يذكر أنّ الحياة خُلقت من الماء، ومرة يذكر أنّها خُلقت من تراب، ثم يعود فيخصص ويقول من الطين، أو على

---

(١) هذا ملخص لنظرية التطوّر العامة، لا لخصوص نظرية التطوّر عند دارون وولاس، فهناك من يقول عنهما: إنّهما قالا بالتطوّر، ومجيء الإنسان من الحيوانات لكنّهما لم يذكرا أنّه جاء من القرد، وأنّ الحلقة بين الحيوان والإنسان عندهما مجهولة قد تكون هي إنسان الكهوف.

(٢) سورة الأنبياء/ ٣٠.

(٣) سورة النور/ ٤٥.

(٤) سورة الكهف/ ٣٧.

(٥) سورة الحجر/ ٢٨.

وجه الدقة: الماء المنتن المختمر بالتراب، وهو اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربع مئة سنة.

وفي سورة الأعراف يروي بتفصيل أكثر: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾(١)، وفي هذه الآية يحدّد أنّ خلق الإنسان تمّ على مراحل زمنية ﴿**خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ**﴾، والزمن بالمعنى الإلهي طويل جداً: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾(٢)، ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾(٣)، وفي مكان آخر: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾(٤).

هذه إذن أيام الله، وهي شيء كالآباد والأحقاب بالنسبة لنا، فإذا قال الله: ﴿**خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**﴾، ثمّ اكتملت الصورة بتخليق آدم فـ﴿**قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ**﴾، معنى هذا: أنّ آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا، وأياماً بزمن الله الباري.

﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾(٥)، ومعناها: إنّه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها.

﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾(٦): إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوي فيها شيئاً يُذكر.

ويقول القرآن عن الله إنّه هو ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾(٧): أي أنّه هدى مسيرة التطوّر حتى بلغت ذروتها في آدم.

﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾(٨): وأسفل

---

(١) سورة الأعراف/ ١١.
(٢) سورة الحج/ ٤٧.
(٣) سورة الحج/ ٤٧.
(٤) سورة المعارج/ ٤.
(٥) سورة نوح/ ١٣- ١٤.
(٦) سورة الإنسان/ ١.
(٧) سورة طه/ ٥٠.
(٨) سورة التين/ ٤- ٥.

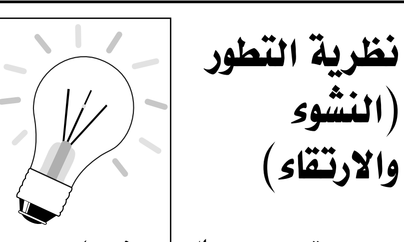
سافلين هي هاوية التيه المادي.. إلى طين المستنقعات.. هذه المرة مجرّد جرثومة في طين الأرض.. إلى نقطة بدء أولى.. من الصفر، وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في انبثاق متدرّج عبر خمسة آلاف مليون سنة - كما تقول لنا علوم البيولوجيا -، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا، صعداً إلى الإسفنج والرخويات والقشريات.. الخ.. الخ، في رحلة قاسية وعبر صراعات دامية مع بيئات تكافح فيها الحياة الوليدة بالمخلب والناب»[١].

وهكذا يوافق محمود القول بنظرية أصل الأنواع، والنشوء والارتقاء، ومذهب التطوُّر، وأنّ أصل الحياة بدأت في الماء بخلية واحدة (نفس واحدة) هي الأميبا، التي شهدت تطورات ﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾ مرّت بالإسفنج والرخويات والقشريات، و....، ثمّ ظهر الإنسان كنوع راقٍ منها!!

ونستطيع أن نرى كيف أنّ هذه النظرة التجزيئية للاستدلال على طريقة خلق الإنسان تؤدي إلى تخبّط وليّ لعنق النصّ، بينما يتمّ الإغفال عن المعنى الصحيح للآية، بل ويتمّ التغافل عن الآيات الأخرى الصريحة في خلق الإنسان - مباشرة - من طين لا عبر سلالات حيّة تطورية، تلك الآيات التي تبيّن خلقه الأولي من تراب: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ**

(١) الدكتور مصطفى محمود، القرآن: محاولة لفهم عصري/ ٦٥- ٧٢.

نظرية التطور (النشوء والارتقاء)



قال الفيلسوف الإغريقي (إنكسماندرس): إنّ الإنسان لم يبدأ كإنسان، وإنّما تطوّر عن السمك، ورأى العالم الصيني (تشوانغ) أنّ الإنسان تطوّر عن حصان!!

ثم ظهرت نظرية متكاملة عن الارتقاء في العصور الإسلامية على يد مِسكوين وإخوان الصفا، ملخص هذه النظرية: أنّ الكائنات الأرضية لم تتكوّن مستقلة عن بعضها البعض، كما أنّها لم تظهَر دفعة واحدة وإنّما تطوّرت من نوع إلى آخر.

وحسب هذه النظرية فإنّ الجماد - أي المادة غير الحيّة - ظهر أولاً، ثمّ تطور إلى نبات، وتطور النبات إلى حيوان، وتطوّر الحيوان إلى إنسان.

وقد حاول (تشارلز دارون) - أشهر زعماء نظرية (النشوء والارتقاء) - إثبات صحة هذه النظرية، فذهب إلى أنّ الحياة لم تنشأ دفعة واحدة، وإنّما نشأت بالارتقاء التدريجي، وعزا سبب التطور إلى عاملَين هما: البيئة

والوراثة(١).

ومما يؤخذ على هذه النظرية: أنّها فشلت في تقديم تفسير لسرّ الحياة وأصلها، فقد افترضت النظرية أنّ الحياة بدأت من خلية واحدة، ولكنّها لم تبيّن مَن الذي حرّك الخلية الأولى، وجعل الحياة تدبّ فيها(٢).

كما يؤخذ عليها أنّها تخالف فكرة (الخلق الرباني) المباشر للإنسان من طين التي تؤمن بها الأديان السماوية الثلاثة، وقد قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾(٣).

ولم تفسّر سبب توقف تطور الأنواع الموجودة، وعدم مواصلتها مسيرة الارتقاء، لنرى تحوّل الأنواع الدانية إلى أنواع راقية، وتحوّلها إلى إنسان، وتحوّل الإنسان إلى نوع أرقى، ولماذا يقتصر توالد الأنواع من مثيلاتها، فالبشر يتوالدون من البشر، والأسود من الأسود، والخيول من الخيول، وهكذا..

(١) مجموعة من الكتاب، الموسوعة العلمية المبسطة (٤)، غرائب جسم الإنسان وعجائبه/ ٣٤٤.
(٢) الموسوعة العربية العالمية ٢٥/ ٣٥٧.
(٣) سورة ص/ ٧١.

طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١)، ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ**﴾(٢).

٢- التناقض عند المفسّر نفسه:

وبغضّ النظر عن الاختلافات المذهبية والفكرية التي قد تنشأ عند المتباينين في ذاك الخضم، فقد كان من إفرازات الأخذ الموضعي: أنّ نجد التناقض بارزاً عند المفسّر ذاته وفي كتاب واحد!!، فهو على سبيل المثال حين يصل إلى آيات الدعوة والتبليغ يتكلم حول ضرورتها، وبأنّ الداعية الإسلامي ينبغي أن يتواصل مع المجتمع ولا ينأى بنفسه عنه؛ إذ إنّ الأنبياء كانوا أبناء مجتمعاتهم يتداخلون معها: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ**﴾(٣)، وفي موضع آخر يخوض هذا المفسّر في قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام حيث ينقل الله - سبحانه وتعالى - على لسان نبيّه قوله: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا**﴾(٤)، فيستنتج المفسّر أنّ الإنسان ينبغي أن يعتزل المجتمع

(١) سورة غافر/ ٦٧.
(٢) سورة ص/ ٧١.
(٣) سورة الفرقان/ ٢٠.
(٤) سورة مريم/ ٤٩.

الفاسد، لئلا تتسرب إليه ضلالاتهم!!

ويواصل المفسّر حديثه فنراه يؤمن بالصلابة في الدعوة، وذلك حين تطرّقه لقصة نبي اللـه إبراهيم في تحطيمه للأصنام: ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَّهُـمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ**﴾[١]، وفي موضع آخر يتناول أمر الله لنبييه موسـى وهارون عليهما السلام: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَـى**﴾[٢]، فيتحدّث عن لزوم اللين في الدعوة علّه يُدخِل الطرف الآخر إلى بستان الهداية، أو لا يكون شماعة للعزوف عن الإيمان.

إنّ هذه الرؤى التجزيئية لا تشعُر بالمفارقة والتناقض؛ لأنّها ليست متجاورة، ولأنّ صاحبها لا يدرجها في رؤية كليّة ومحور جامع وسـؤال موحِّد، وإلا.. لرأى – مثلاً – أنّ كلاً منهـا يمثـل حالة ضمن ظـروف معيّنة، أو أنّها تختلف بحسـب اختلاف الأشـخاص الذيـن نواجههـم، لكنّ ذهنه الذي اعتـاد التعامل التجزيئي الموضعـي مع الآيات لم يعتد خلق رؤى كلية تعتمد على علاقات مشتركة تنتظم حولها الأشياء والجزئيات.

٣- إعاقة إيجاد نظرية قرآنية للأمور:

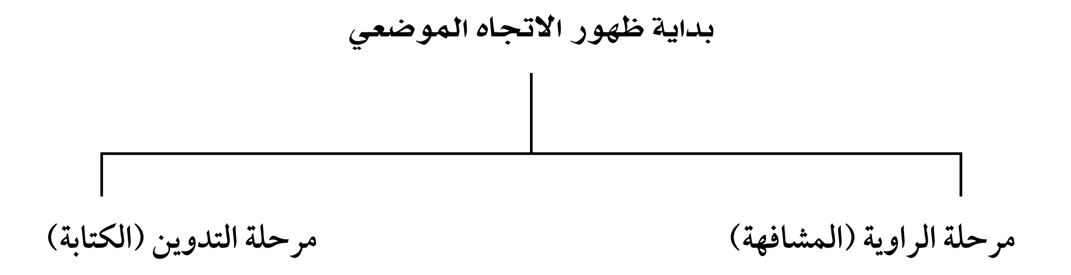
إنّ المتدبر الذي يصرف تأمله في المعنى اللفظي للآيات، ويرهق تفكيره في منهج جزئي للقرآن، ويعالج كلّ موضع بمفرده دون أن يربطه بالمواضع الأخرى لا شك أنّه في غمـرة انهماكه بالتفاصيل والنظريات الجزئية، سـيغفل عن إيجـاد رؤية متكاملة لمختلف الجوانـب المعروضـة في القـرآن للموضوع الواحـد؛ لذا لن نجده ينصِـبُ موضوعاً ما.. ليجـري عليه بحثاً فـي كلّ الآيات الكريمة، لكي يتعرّف على الصـورة الكليّة لذلك الأمر من وجهة نظر الوحي.

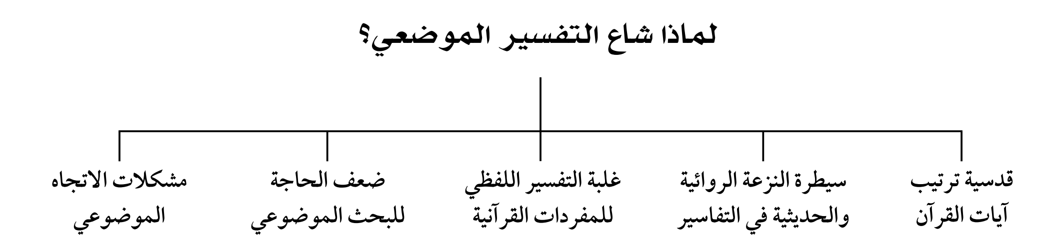
فموضـوع مثـل: (الحريـة)، قد يقـدّم ملاحظـات جزئيّة متناثـرة عنه عند مـروره بآيات متفرقة الموضع تتناول بعض أطرافه، كقوله تعالى: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِـمْ**﴾[٣]، ولكـن.. مـا هي حدود الحريـة؟، وهل تُنتـزع أم تُعطى؟، وما العلاقـة بين الحرية والأدب؟، وهـل هنـاك فـرق بيـن الحرية لدى المـرأة عنها لـدى الرجل؟، وهل ثمـة حرية في الاعتقـاد بالديانـة كقوله تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّيـنِ**﴾[٤]، أم أنّه لا موقع للحرية في هذه الزاوية

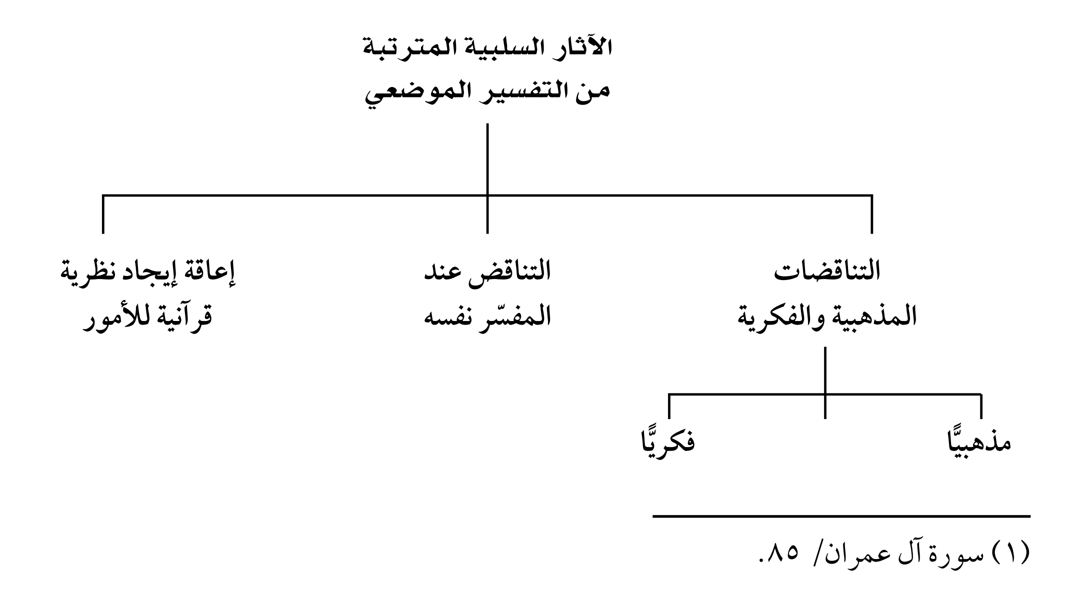
(١) سورة الأنبياء/ ٥٨.
(٢) سورة طه/ ٤٣- ٤٤.
(٣) سورة الأعراف/ ١٥٧.
(٤) سورة البقرة/ ٢٥٦.

كفهم لقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١]؟

وهكذا دواليك الكثير من الجوانب والجهات التي تدلّ على أنّنا بحاجة لمعرفة النظرية الشاملة برمّتها حول هذا الموضوع أو ذاك في جنبات القرآن الكريم.







(١) سورة آل عمران/ ٨٥.



ت١: أضــعُ علامة (✓) أمام العبــارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- الاتجـاه (الترتيبي) هـو اتجاه ثالث في التدبر لا يندرج ضمن الاتجاهين: الموضعي والموضوعي. ( )

ب – التدبر الموضعي أقدر على التغلب على التناقضات المذهبية والفكرية من التدبر الموضوعي. ( )

ج – وجـود آيـات متشـابهة هـو السـبب الحقيقـي والفعلي لوجـود التناقضـات عند المفسّرين أو المفسّر ذاته، وليس الاقتصار على الجنبة الموضعية. ( )

د – الآثـار الثلاثـة المذكـورة للاتجـاه الموضعـي تؤكد علـى أنّ مجمـل الإنتاجات الموضعية سلبية. ( )

ت٢: ضمن ما ســبق من كتب ومؤلفين: ما هو أول تفســير شامل في القرآن الكريم؟، وكيف نثبت ريادته الزمنية؟

ت٣: أقــارنُ بين مرحلة الرواية ومرحلة التدويــن في الاتجاه الموضعي من حيث: الوفرة، والمنهجية، والعمق، والشمولية.

ت٤: ما الفرق بين التفسير التجزيئي والتوحيدي؟، أستقصي بعض التفاسير في كلا الجانبين.

ت٥: أليس غريباً حقاً أن نعدّ التفاســير التي فسَّرت كلّ آيات القرآن الكريم من الفاتحة إلى الناس بأنّها تفاسير موضعية تجزيئية؟!

ت٦: أذكرُ أحد المتناقضات المذهبية أو الفكرية التي كان منشــؤها قرآنياً من غير الأمثلة المذكورة.

ت٧: أذكرُ بعض إيجابيات التفسير التجزيئي.

ثانياً: التفسير الموضوعي (التوحيدي)

ما المقصود بـ (التفسير الموضوعي)؟

حاول العديد من العلماء والباحثين تبيين وتقريب المقصود بـ (التفسير الموضوعي)، ومن تعريفاتهم:

١ - «هو لون من التفسير يتتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بتفسيرها يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال الآيات الكريمة، فينسّق بين عناصره، ويقدّم له بمقدمة حول أسلوب القرآن الكريم في عرض أفكار الموضوع، ويحاول أن يقسّمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويستدل بالآيات القرآنية على كلّ ما يذهب إليه ويتحدث عنه، مع ربط ذلك كلّه بواقع الناس ومشاكلهم ومحاولة حلّها وإلقاء أضواء قرآنية عليها»[1].

وقد عبّر هذا التعريف عن التفسير الموضوعي بأنّه (لون من التفسير)؛ لئلا يغفل عن وجود لون أو ألوان أخرى، هو الموضعي بما يتفرّع منه من تفسير إجمالي، وتحليلي، ومقارن.

كما جاء هذا التعريف تعريفاً بالخطوات بدلاً من أن يكون تعريفاً ببيان المفهوم والماهية المقوّمة لهذا اللون. وهي خطوات تقتصر على الشكل التجميعي من التفسير الموضوعي، دون أن تشمل خطوات الكشفي الذي يعنى بالسورة من حيث كونها شاهد وحدة موضوعية تامة، ومن ثمّ فهو يقتصر على شكل واحد من التفسير الموضوعي هو التوحيدي التجميعي، ويخرج قسماً كاملاً من التفسير الموضوعي هو التفسير الكشفي.

---

(١) الدكتور مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي/ ٢٧.

٢- «اصطلاح مستحدَث أطلقه العلماء المعاصرون على جمع الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد التي اشتركت في موضوع ما..، وترتيبها حسب النزول ما أمكن ذلك، مع الوقوف على أسباب نزولها، ثمّ تناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط، وإفرادها بالدرس المنهجي الموضوعي الذي يجليها من جميع نواحيها وجهاتها، ووزنها بميزان العلم الصحيح الذي يبيّن الباحث معه الموضوع على حقيقته، ويجعله يدرك هدفه بسهولة ويسر، ويحيط إحاطة تامة تمكنه من فهم أبعاده والذود عن حياضه»[(١)].

وهذا التعريف يشير إلى أنّ (التفسير الموضوعي) جانب جديد في التفسير القرآني، وأنّ تسميته هذه ظهرت في العصر الحديث (القرن العشرين الميلادي)، ولم تكن معروفة من قبل.

لكنّه - كسابقه - تعريف باعتبار الخطوات لا باعتبار المفهوم والماهية، ويقتصر على خطوات التجميعي دون الكشفي، ويقتصر على لون واحد من لونيّ الموضوعي هو: التجميعي دون أن يشمل الكشفي، ويلحّ على أنّ التفسير الموضوعي يرتب الآيات حسب النزول ما أمكن، وهذا يدلل على حضور غايات معيّنة جعلت التعريف يسجّل هذا الشرط كالغاية الفقهية التشريعية التي تحتاج لكي تعرف الناسخ والمنسوخ وتدرّج الأحكام إلى ترتيب الآيات حسب زمن النزول، والترتيب وفقها ليُعلم التشريع الأخير ليتمّ امتثاله، وإلا.. فالدراسة القرآنية التي ترتجي تناول (موضوع) في القرآن الكريم - مثلاً - قد لا تقتضي ترتيب الآيات حسب النزول، وإنّما حسب معايير أخرى منهجية تستدعيها طبيعة البناء المنطقي للموضوع، كتقديم الأسباب على النتائج، والنتائج على الحلول، والحلول على العوائق، أي أنّ حضور الغاية الفقهية لدى المعرِّف كان كثيفاً إلى حدٍّ أنّه اشترط الترتيب الزمني في كلّ التفسير الموضوعي، بينما الأمر ليس كذلك، فهناك مجالات من التفسير الموضوعي تحتاج إلى ترتيب الآيات منهجياً لا زمنياً.

٣- «هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية فيبيّن ويبحث ويدرس»[(٢)].

ويتميّز هذا التعريف عن سابقيه بأنّه تعريف حسب (الموضوع)، لا حسب الخطوات. ولكنّه يسمّي التفسير الموضوعي (اتجاهاً)، وهي كلمة غير مَرضيّة في الفكر،

---

(١) الدكتور عبد الحي الفرماوي، البداية في التفسير الموضوعي/ ٥٢.
(٢) المدرسة القرآنية/ ١٢.

ترى أنّ الاتجاه مجرّد ميل أو رغبة قد لا يكون واضحاً ذا خطوات محددة ومدروسة وموصلة إلى الهدف، بخلاف تسميته بـ(وسيلة) أو (منهج)، فـ(الوسيلة) كيفية وآلية محددة للهدف، و(المنهج) طريق قائم على الوضوح والخطوات وتحقيق التطلعات والرغبات والهدف المنشود[1]، والمنهج يشتمل على أهداف ومحتوى ووسائل وتقويم، والاتجاه ليس له هذه المحددات الواضحة.

كما أنّ هذا التعريف يقتصر على قسم من التفسير الموضوعي هو التجميعي التوحيدي، ولا يشمل التفسير الموضوعي الكشفي السوري، وفضلاً عن ذلك فإنّه لا يشير إلى خطوات تعين على دراسة هذا اللون من التفسير.

بالإضافة إلى أنّه يقتصر على مجال واحد من التفسير الموضوعي التجميعي التوحيدي هو مجال دراسة (الموضوع)، دون أن يشير إلى مجالات أخرى كدراسة (المصطلح) و(الأسلوب) و(الأداة).

٤- «الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعاً من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده»[2].

وفي هذا التعريف عدول عن كلمة (الاتجاه) إلى كونه (دراسة)، بما تحمل هذه الكلمة الجديدة من دلالات بحثية تفترض وجود الهدف والمنهجة، وهو - كسابقه - تعريف باعتبار الموضوع لا الخطوات.

غير أنّه يَشترط في التفسير الموضوعي الخروج بنظرية قرآنية، وقد لا يتوفر ذلك في كلّ تفسير موضوعي أو في كلّ موضوع يُطرق فيه، بل.. قد يكتفي الباحث بمجرّد إيجاد تصور للموضوع.

كما أنّه تعريف يقتصر على القسم التجميعي التوحيدي من التفسير الموضوعي، ولا يشير إلى القسم الآخر منه وهو الكشفي السوري، ويقتصر على جانب واحد من جوانب التفسير الموضوعي التجميعي هو: الموضوع.

٥- «إنّه المنهج الذي يتخذه المفسّر سبيلاً للكشف عن مراد الله تعالى من خلال الموضوعات التي يطرحها، والقضايا التي يعالجها، توضيحاً لهداية القرآن، وتجلية

(١) الدكتور زيد عمر العيص، التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ٣٠.
(٢) المدرسة القرآنية/ ١٧.

لوجوه إعجازه»[١].

وفي هذا التعريف تسمية لهذا اللون التفسيري بأنّه (منهج) وليس (اتجاهاً)؛ لما تختزنه كلمة (منهج) من دلالات إيجابية، وما تحمله كلمة (اتجاه) من دلالات سلبية سبق أن بيّناهما.

غير أنّ هذا التعريف لم يبين ما إذا كانت هذه (الموضوعات التي يطرحها) تتجلى من خلال سورة أو من خلال القرآن كلّه، ومن ثمّ فهو لا يبين محدّدات قسمي التفسير الموضوعي: التجميعي، والكشفي، ولا يشير إلى الكشفي أصلاً.

٦- «منهج مستحدَث في الدراسة القرآنية يستهدف سبر أغوار الموضوعات المختلفة من اجتماعية وأخلاقية وكونية وغيرها..، من خلال تفسير سور القرآن بعدِّها كلاً يعبِّر عن موضوع واحد، أو من خلال تفسير الآيات المجموعة للتعبير عن عناصر موضوع معيّن لغرض الخروج بتصوّر سليم حوله أو نظرية علمية فيه»[٢].

وهو الآخر تعريف اعتمد كلمة (منهج)، وعدّ اللون السوري الكشفي من قسماً من التفسير الموضوعي، وأدخله فيه حين أشار إلى أنّه قد يتمّ من (من خلال تفسير سور القرآن بعدِّها كلاً يعبِّر عن موضوع واحد) الذي يشير للكشفي، كما أشار لسبب إدخال الكشفي، وهو كون السورة (كلاً يعبِّر عن موضوع واحد)، كما أشار إلى اللون التجميعي بقوله: (أو من خلال تفسير الآيات المجموعة للتعبير عن عناصر موضوع معيّن)، وهو بذلك قد أشار إلى شكلي التفسير الموضوعي، بالإضافة إلى أنّه لم يشترط في التفسير الموضوعي الوصول إلى نظرية قرآنية، وأشار إلى أنّ غرض وهدف التفسير الموضوعي لا ينحصر في الوصول إلى (نظرية علمية في الموضوع)، بل.. قد يكتفي بالتوصل إلى (تصور سليم حول الموضوع).

بيد أنّ كلمة (الموضوعات) والأمثلة التي ساقها لها قد توحي باقتصار التفسير الموضوعي على مجال (الموضوعات) دون مجالات أخرى كـ (المصطلح) و(الأسلوب)، و(الأداة).

٧- «منهج ينهض بتفسير الآيات المتضافرة على إبراز خصائص موضوع محدّد في القرآن كلّه، أو في سورة منه، مركّزاً ومعبّراً عن قضية محدّدة تتبلور عنها نظرية في

(١) الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم، التفسير الموضوعي في كفتي ميزان/ ٢٤.
(٢) نفسه/ ٢٤.

قضية من قضايا الحياة، أو تصوّر من أمور الكون والملكوت»[(١)].

وهو - كسابقه - تعريف اعتمد كلمة (منهج)، وشمل قسمي التفسير الموضوعي حين قال: (في القرآن كلّه، أو في سورة منه)، كما أشار إلى أنّ ناتج القيام بالتفسير الموضوعي قد يكون الوصول إلى (نظرية) قرآنية، أو (تصور) قرآني.

٨- «هو عملية منهجية تتجه نحو الآيات القرآنية، من حيث موضوعها لا موضعها؛ بغية الكشف عن الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم، وتصنيفها تحت ما يناسبها من مجالات، وإفرادها في كتابات تبرز ما فيها من دلالات وهدايات»[(٢)].

وهو تعريف يرى في التفسير الموضوعي (عملية منهجية)، كما يخرج منها التفسير الموضعي حين يقول: (من حيث موضوعها لا موضعها)، كما يشير إلى أنّ للتدبر الموضوعي مجالات، وإلى ضرورة كتابة الدلالات والهدايات حتى يكون تفسيراً موضوعياً، وعدم كفاية التأمل الذاتي الباطني غير المكتوب.

٩- «هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى وغاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة؛ لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع»[(٣)].

ويرتقي هذا التعريف إلى حدّ أن يعدّ التفسير الموضوعي علماً، وعدم الاكتفاء بعده (لوناً من التفسير) أو (منهجاً)، أو (عملية منهجية)، غير أنّه تعريف يقتصر على القسم التجميعي من التفسير الموضوعي، ولا يشمل تفسير السورة؛ الأمر الذي توحي به كلمة (جمع آياتها المتفرّقة)؛ تأسيساً على أنّ السورة لا تحتاج إلى عمل تجميعي، فهي مجموعة في المصحف، بينما الذي يحتاج إلى ذلك هو اللون التجميعي.

١٠- «هو العلم الذي يتخذ من الموضوعات الظاهرة أساساً في الكشف عن منهج القرآن وأسلوبه في معالجته لها، متخذاً من القواعد والشروط في التفسير سلّماً للوصول إلى هدي الكتاب وجلال شأنه»[(٤)].

وهو - كسابقه - يطلق كلمة (علم) على التفسير الموضوعي، غير أنّ تعبير

---

(١) الدكتور أحمد عثمان رحماني، التفسير الموضوعي: نظرية وتطبيقاً/ ٤٨.
(٢) التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ٢١.
(٣) الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي/ ٢٠.
(٤) مناهج التفسير الموضوعي، وعلاقتها بالتفسير الشفاهي/ ١٤.

(الموضوعات الظاهرة) الوارد فيه ليس واضح المعنى، فهل هناك موضوعات باطنة؟، وهل تدخل هذه في التفسير الموضوعي؟

كما أنّه لم يبيّن ما إذا كانت هذه الموضوعات تتجلى من خلال سورة أو من خلال القرآن كله، أي أنّه كلام عام لم يشر إلى التجميعي والكشفي.

١١ - «علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر»(١).

وهو تعريف مكثف مختصر، يرى التفسير الموضوعي (علماً)، ويشمل قسمي الموضوعي: الكشفي (سورة) والتجميعي (أو أكثر)، لكنّه لم يشر لخطوات أيّ من المنهجين.

١٢ - «علم يعنى بالكشف عن موقف القرآن من قضية ما..، في ضوء ما يتصل بها من آيات، ضمن منهج ذي مجالات وخطوات»(٢).

وهو تعريف يشير إلى أنّه (علم)، ويسير وفق (منهج)، وله (مجالات)، و(خطوات)، وجملة (ما يتصل بها من آيات) مفتوحة قد تشير إلى أنّ تلك القضية تتصل بها آيات سورة (كشفي)، أو تتصل بها آيات من القرآن عموماً (تجميعي)(٣).

ملاحظات إجمالية على التعريفات:

ويمكننا أن نقف مع التعريفات السابقة وقفة عامة؛ لتسجيل بعض الملاحظات الإجمالية:

١- التفسير الموضوعي هل هو اتجاه أم منهج أم علم؟!

فالتعريفات السابقة تختلف فيما بينها في أنّ التفسير الموضوعي هل هو اتجاه أم منهج أم علم، وقد يعود هذا التردد إلى التسامح في استعمال بعض المفردات، وعدم الالتفات إلى الفروق الدقيقة بينها، أو الاختلاف في مدى نضج أدوات وآليات هذا اللون التفسيري، فقد تكون عند البعض مجرّد ميل عام (اتجاه)، وقد يراه البعض ذا طرق

(١) مباحث في التفسير الموضوعي/ ١٦.
(٢) التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ٢١.
(٣) للاطلاع على الملاحظات على التعريفات راجع: التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ١٠- ١٤، ومناهج التفسير الموضوعي، وعلاقتها بالتفسير الشفاهي/ ١٢- ١٤.

وأساليب وخطوات واضحة ومحددة فهو (منهج) من مناهج علم التفسير، وقد يراه البعض ناضجاً إلى حدّ كبير من العمق والاستقلال الذي توحي به كلمة (علم).

٢- التعريف المفهومي والتعريف بالشرح والتمثيل:

وإذا كان التعريف العلمي يُفضّل فيه أن يكون تعريفاً مفهومياً جامعاً مانعاً يوضّح المعنى المقصود بجلاء، ويجمع الأفراد، ويطرد الأغيار، فإنّ بعض التعريفات السابقة كانت تعريفات مفهومية، غير أنّ كثيراً منها كان شرحاً لفظياً يوضّح المفردة بمفردة أخرى، أو كان تعريفاً بالمثال وتعداد خطوات العمل والتنفيذ.

ولعلّ من أسباب قلة التعريفات المفهومية: صعوبة جلاء الحقائق وإدراكها، وصعوبة صياغة تعريف (جامع مانع)، ومدى وضوح المعرّف في ذهن المعرِّف (الباحث)، وارتكاز هذه التعريفات على معنى ذهني له شيء من التمثل والوضوح في ذهن المتلقي يمكن الاتكاء عليه والإحالة عليه والإلماح إليه دون الحاجة لبيان وصياغة مفهوم له.

٣- الاختلاف في المدى: الكشفي والتجميعي:

وقد أثرت رؤية المعرِّف لمدى شمولية وسعة التفسير الموضوعي في تعريفه، فمن يعدّ الجانب الكشفي جزءاً من التفسير الموضوعي، عمّم دائرة التعريف ليشمله، ومن يرى التفسير الموضوعي مقتصراً على الجانب التجميعي فحسب، قصره عليه، وبدا ذلك كلّه في التعريفات.

٤- الاختلاف في المجال:

أثرت رؤية المعرّف للمجالات الداخلة تحت الجانب التجميعي، أو تحت الجانب الكشفي، في التعريفات، فمن يرى أنّ التجميعي متعلق بـ (الموضوع) فقط، سلّط تعريفه على أنّ التفسير الموضوعي يعنى بدراسة (الموضوع) في القرآن الكريم، دون أن يشير إلى أنّه يدرس كذلك (المصطلح) و(الأداة) و(الأسلوب) في القرآن الكريم، أي دون أن يعمّمه لكلّ ما يقوم على تجميع الآيات في مساحة القرآن كاملة.

ومن يرى أنّ الكشفي مختصّ بدراسة (السورة) أشار إلى ذلك في تعريفه، دون

أن يشـير إلـى أنّه يسـع مجالات أخـرى - يُدخلها آخرون في الكشـفي -، ومنها: دراسـة (موضوع من موضوعات السـورة)، و(المقالة التفسيرية) التي تدرس آية أو آيات فحسب ضمن رؤية موضوعية.

لماذا سُمّي بـ (الموضوعي) و(التوحيدي)؟

ونصـل إلـى تسـاؤل مـؤداه: لمـاذا يُسـمّى هـذا النـوع مـن الممارسـة القرآنيـة بـ (الموضوعي) و(التوحيدي)؟

١- الموضوعي:

سُمِّي بذلك؛ لأنّه:

أ- يتناول موضوعاً واحداً، ويختار الآيات المشتركة في ذلك الموضوع.

ب - يمثّـل فيه الواقـع الموضوعي (الخارجـي) محطة مركزية حسّاسـة، يتمّ فيها طرح أسئلة الواقع على القرآن الكريم، ووضعها بين يديه ليجيب عليها.

٢- التوحيدي:

وسُمِّي بذلك؛ لأنّه:

أ - يوحّـد بيـن مدلولات الآيات المختارة، ويضعها ضمـن توليفة واحدة ومركب نظري متكامل، تنتظم حول (جامع مشترك).

ب - يوحّد بين التجربة البشرية والقرآن الكريم، لا بمعنى إخضاع القرآن وإرغامه للتجربـة، بل بمعنى التوحيد بينهما في سـياق بحثي واحد تتمازجـان فيه وتنصهران معاً؛ لنسـتخرج فـي الأخير معدناً جديداً هـو النظرية القرآنية تجاه التجربة البشـرية وما تختزنه من مقولات فكرية أو معايشات حياتية أو نظريات كونية أو غير ذلك، أو نصل إلى تصور سليم حول ذلك.

معاني غير مقصودة من (الموضوعية):

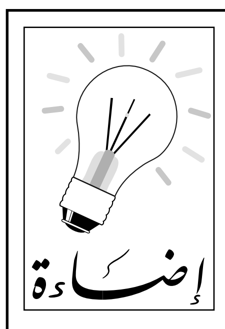
وواضـح أنّ لفظـة (الموضوعيـة) فـي وصفنا لهذا النـوع من الدراسـات لا يُقصد

بها بعض المعاني الواردة – لغة واستعمالاً – لهذه الكلمة، مثل:

١- الموضوعية بمعنى الأمانة والنزاهة (في مقابل التحيّز).

٢- الموضوعية بمعنى الأمر العام (في مقابل الذاتي أو الشخصي).

المعاني الأربعة للفظة (الموضوعية)



تُطلق كلمة (الموضوعية) على معانٍ أربعة، هي:

١- نسبة للموضوع (مقابل الموضع).
٢- الواقع الخارجي (مقابل الداخلي).
٣- النزاهة والتجرّد (مقابل التحيّز).
٤- الأمر العامّ (مقابل الذاتي الشخصي).

فهذه المعاني اللغوية والاستعمالية لا نقصدها عندما نستعمل مفردة (الموضوعي) و(الموضوعية) في التمييز بين الدراسة الموضعية والموضوعية للقرآن الكريم؛ لأنّ الموضوعية – بمعنى الأمانة والنزاهة – مطلوبة في كلا الأسلوبين: التجزيئي والتوحيدي.

وكذلك الحال للموضوعية – بمعنى الأمر العام – يحتاجها المتدبر الموضعي والموضوعي معاً؛ إذ التجرّد من الذاتية والرؤى والأفكار الشخصية شرط عام في عملية البحث المنهجي عموماً، وفي عملية الاستلهام من القرآن الكريم خصوصاً؛ حتى نكون تلاميذ مخلصين للحقيقة والمعرفة، ونستضيء بشمس الوحي وألقه، ولا نفرض عليه آراءنا وأهواءنا.

الطريقة والهدف في المنهج الموضوعي:

المنهج (الموضوعي/ التوحيدي) يختلف في الطريقة عن المنهج (الموضعي/ التجزيئي)، فهو «لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية.... في القرآن الكريم»[1].

وكما يختلف معه في الطريقة يختلف معه في الهدف من الدراسة، فهو لا يبتغي

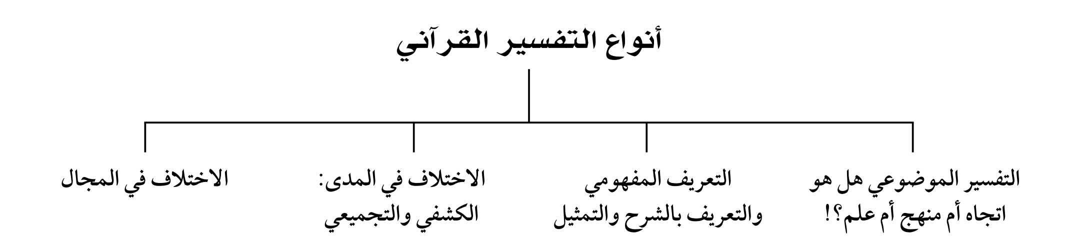
(١) المدرسة القرآنية/ ١٢- ١٣.

الحصـول علـى أكبر قدر مـن المعارف والمعلومـات ولو كانت متناثرة، وإنّما يسـتهدف «الحصـول علـى نظريـات قرآنيـة ذات محورية خاصـة بمواضيـع تمسّ جوانـب الحياة الفكريـة الثقافيـة والاجتماعيـة، بحثاً مـن زاوية قرآنية للخـروج بنظرية قرآنية بشـأن تلك المواضيع»(١)، أو بتصور صحيح لها.

ففي هذا المنهج تقوم الدراسة القرآنية على أساس الموضوعات في حقول العقيدة أو الاجتماع أو الكون أو غيرها..، فيستقصي الباحث آيات القرآن بمجملها للبحث حول عنوان محدّد، مثل: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، أو التواضع، أو النظام السياسي، أو المرأة، أو السماء، أو الأرض، أو الرؤية القرآنية نحو الآخر المختلف، أو غير ذلك..

«ويسـتهدف التفسـير التوحيدي من القيام بهذه الدراسـات: تحديـد موقف نظري للقرآن الكريم - وبالتالي للرسالة الإسلامية - من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة أو الكون»(٢).

إنّـه يسـتقريء القرآن الكريـم لأيّ عارض يداهمه، ويلجأ إلـى معينه لجوء الظامئ إلى المنهل العذب، فمتى تاه أو احتار في جنبة معيّنة، هرول يحثّ الخطى إلى المصحف الشريف مستنداً إليه في معرفة موقفه الكلي ورؤيته الأوسع تجاه الأمور.



(١) التفسير والمفسّرون.. في ثوبه القشيب ٢/ ١٠٣٧.
(٢) المدرسة القرآنية/ ١٣.

مراحل ظهور المنهج الموضوعي في التفسير

نستطيع أن نقول: إنّ الشكل الموضوعي في التفسير مرّ - أو سيمرّ - بثلاث مراحل، هي: مرحلة البدايات، ومرحلة النضج، ومرحلة الانتشار.

المرحلة الأولى: مرحلة البدايات:

بزوغ الأسلوب الموضوعي في التفسير مرّ - في بداياته - بخطوات متتابعة، تبدأ من القرآن الكريم نفسه ودعوته لإرجاع المتشابه إلى المحكم، ودعوته لتفعيل الجمع الموضوعي بين الآيات، وقيامه بالعرض الموضوعي الفعلي لبعض الموضوعات، ثمّ بما قام به المعصومون عليهم السلام من استلهام فكري من القرآن، واستفادات موضوعية من القرآن، ثمّ بجهود العلماء في علوم القرآن والاستفادة منه:

١- القرآن ودعوته إلى إرجاع المتشابه إلى المحكم:

من بين ما يحويه الذكر الحكيم آيات محكمات وآيات متشابهات، وتدعو آياته لعدم الخوض في المتشابه، ورده إلى المحكم؛ لتتضح دلالته ومعناه، فهي دعوة للمتلقي لتفعيل ذهنه وإعمال عقله عبر القيام بـ(الجمع الموضوعي) بين الآيات لاستخراج الفكرة.

يقول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾[١].

(١) سورة آل عمران/ ٧.

أي أنّ المتلقي عليه أن يأخذ تلك الآيات المتشابهة التي تمثل أولاداً وأبناء، ويعيدها إلى حاضنة الأم التي هي الآيات المحكمة، ثمّ يستخرج الرؤية المفسّرة للآيات المتشابهة وفقاً لما تفيده وترشد إليه الآيات المحكمة.

٢- القرآن وتفعيل الجمع الموضوعي:

ودعا القرآن في بعض آياته إلى تفعيل الجمع الموضوعي، وقيام الرسول ﷺ والمسلمين بالجمع بين الآيات؛ لاستخراج الرؤية والبصيرة، فكانت تأتي آيات تحيل على آيات أخرى، ومن ثمّ ففهمها يحتاج إلى الرجوع لتلك الآيات الأخرى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾(١).

وهذه الآية الشريفة تحمل عبارة ﴿**إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ**﴾، وهي إحالة على ما تُلي عليهم مِن قبل مِن آيات كريمة حملت أحكام بهيمة الأنعام، ومنها:

- ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢).

- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٣).

- ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ**﴾(٤).

---

(١) سورة المائدة/ ١.
(٢) سورة الأنعام/ ١٤٥.
(٣) سورة البقرة/ ١٧٢.
(٤) سورة المائدة/ ٣.

٣- القرآن والقيام بالعرض الموضوعي:

قلنا: إنّ الطريقة التي يتبعها القرآن في عرض موضوعاته هي ذكرها منجمة مفرّقة في المواضع حسب ما يقتضيه غرض الهداية والتربية، لا حسب ما يقتضيه العرض المعرفي من وضع الموضوع كاملاً في مكان واحد وفصل واحد، لكنّ هذا لا يعني أنّ القرآن لا توجد فيه مواضع مكثفة ذكر فيها أقسام الموضوع كاملة في مورد واحد، فهو - أحياناً - يضع أمام المتلقي (القارئ/ السامع) الموضوع وأقسامه؛ يبصرها متآخية في مكان واحد.

وإذا كانت الخطوتان السابقتان تحتاجان من المتلقي القيام بفعل حتى يصل إلى الموضوع: فيجمع بين المتشابه والمحكم، ويفعّل ذهنه بالجمع الموضوعي بين الآيات، والانطلاق من الآيات المحيلة إلى المحال عليها؛ لإكمال الصورة، إذا كان هذا في الخطوتين السابقتين، فإنّ هذه الخطوة الثالثة تعطي المتلقي الموضوع جاهزاً مجموعاً في مكان واحد.

ومن أمثلة العرض الموضوعي في القرآن الكريم:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * .... * وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾[1].

فهي توضّح أنّ الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف:

أ - أصحاب اليمين.

ب- أصحاب الشمال.

ج - السابقون.

٤- أهل البيت عليهم السلام والاستلهام من القرآن:

ثمّ جاءت- مبكراً - وفي زمن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام كثير من الاستلهامات المستفادة من القرآن الكريم، والتي تُذكر، ثمّ تُذيّل بآيات قرآنية هي المعين الذي استُخرجت منه تلك الاستفادات.

(١) سورة الواقعة/ ١، ٧- ١٤.

وهـذا يعنـي أنّنـا نقصـد بـ(الاسـتلهام) مـن القـرآن: اسـتفادة الفكـرة مـن القرآن والاستشـهاد عليهـا من آياته الكريمـة، وليس بالضرورة أن تكون تلـك الفكرة أو الأفكار جميعاً منخرطة في عنوان واحد وموضوع واحد، فقد تكون نصائح أخلاقية عامة.

ففـي وصية الرسـول الأكرم ﷺ لعبد الله بن مسـعود والتـي دوّنها كتاب (بحار الأنـوار) في ١٩ صفحة يسـتخرج الرسـول ﷺ مجموعة من المواعظ تلـو أخرى، ثمّ يرفدها بالآيات الشاهدة عليها، ومما ورد فيها:

«يا ابن مسـعود، لا تتكلّم إلا بالعلم، بشـيء سـمعتَه ورأيتَه؛ فإنّ اللـه تعالى يقول: **﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾**[١]، وقال: **﴿سَـتُكْتَبُ شَـهَادَتُهُمْ وَيُسْـأَلُونَ﴾**[٢]، وقـال: **﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَـنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ قَعِيدٌ * مَـا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾**[٣]، وقـال: **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**[٤]»[٥].

ويقول ﷺ في مقطع آخر من هذه الوصية: «يا ابن مسـعود، لا تحملنّك الشـفقة علـى أهلكَ وولدكَ على الدخـول في المعاصي والحرام؛ فإنّ اللـه تعالى يقول: **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ﴾**[٦]، وعليكَ بذكر الله والعمل الصالح؛ فإنّ الله تعالى يقول: **﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾**[٧]»[٨].

وكمـا فعـل رسـول اللـه ﷺ فـي وصيتـه لابـن مسـعود حيـن راح يسـتلهم من القـرآن، ويسـتدلّ منـه، مضى الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشـام بـن الحكم، ومنها: «يـا هشـام، ثمّ ذكرَ [اللـه] أولي الألباب بأحسـن الذكر، وحلاهم بأحسـن الحِلية، فقال: **﴿يُؤتِـي الْحِكْمَـةَ مَن يَشَـاء وَمَن يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيـرًا وَمَا يَذَّكَّـرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَـابِ﴾**[٩]، وقـال: **﴿وَالرَّاسِـخُونَ فِـي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِـهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَـا وَمَا يَذَّكَّرُ**

(١) سورة الإسراء/ ٣٦.
(٢) سورة الزخرف/ ١٩.
(٣) سورة ق/ ١٧- ١٨.
(٤) سورة ق/ ١٦.
(٥) بحار الأنوار ٧٤/ ١٠٥- ١٠٦، الباب ٥، ح ١.
(٦) سورة الشعراء/ ٨٨- ٨٩.
(٧) سورة الكهف/ ٤٦.
(٨) بحار الأنوار ٧٤/ ١٠٨، الباب ٥، ح ١.
(٩) سورة البقرة/ ٢٦٩.

إلاَّ أُوْلُـواْ الألْبَـابِ﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَـاتٍ لأُوْلِـي الألْبَابِ﴾[٢]، وقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَـمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّـكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٣]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الألْبَـابِ﴾[٤]، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٥]، وقـال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَـى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْـرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾[٦]، وقـال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧]»[٨].

٥- أهل البيت عليهم السلام والاستفادة الموضوعية من القرآن:

وإذا كنّـا فـي الخطوة السـابقة نرى اسـتفادة رؤى وأفكار من الآيات والاستشـهاد عليها من القرآن الكريم، فهنا سـيتطور الوضع إلى اسـتفادة موضوع متماسـك يندرج في عنوان واحد، ثمّ الاستشهاد عليه من آيات الذكر الكريم.

فإلى جانب الجهود العظيمة عند أهل البيت عليهم السلام في الاستلهام من القرآن، نجدهم يقومون بـ(الجمع الموضوعي) بين الآيات؛ لاستخراج موضوعات قرآنية، فهاهو رسول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم يبرز أنّ هناك أموراً اسـتأثر الله بالعلم بها، فـلا يعلمهنّ غيره، فيقول: «مفاتيح الغيـب خمس»[٩]، ثمّ يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّـاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١٠].

وفـي مورد آخر ينقل لنا عبد الله بن مسـعود أنّه لما نزلت هـذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ

(١) سورة آل عمران/ ٧.
(٢) سورة آل عمران/ ١٩٠.
(٣) سورة الرعد/ ١٩.
(٤) سورة الزمر/ ٩.
(٥) سورة ص/ ٢٩.
(٦) سورة غافر/ ٥٣.
(٧) سورة الذاريات/ ٥٥.
(٨) الكافي ١/ ٥٩، (كتاب العقل والجهل)، ح ١٢.
(٩) صحيح البخاري، م ٣، ج ٦، ص ١٤٤ (كتاب التفسير).
(١٠) سورة لقمان/ ٣٤.

وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1]؛ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، «قلنا: يا رسول الله، أيّنا لا يظلم نفسه؟!، قال: ليس كما تقولون: ﴿**لَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾: بشركٍ، أوَلم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[2]»[3].

وسار على خطى رسول الله تلميذه البارّ أميرُ المؤمنين عليه السلام، فراح يستخرج الموضوعات من القرآن الكريم، ويربط بين الآيات، وفي إحدى رواياته الشائقة مضى عليه السلام يعرض موضوعاً مفصّلاً حول (أقسام الكفر في القرآن الكريم)، مذيّلاً كلّ قسم بالآيات التي اشتُق منها. يقول عليه السلام: «وأما الكفر المذكور في كتاب الله تعالى فخمسة وجوه، منها كفر الجحود، ومنها كفر فقط، - والجحود ينقسم على وجهين -، ومنها كفر الترك لما أمر الله تعالى به، ومنها كفر البراءة، ومنها كفر النعم»[4].

ثمّ يفصِّل أمير المؤمنين عليه السلام الوجوه الخمسة:

الأول: كفر الجحود:

وهو على وجهين:

أ- جحود الوحدانية: ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ**﴾[5]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[6].

ب - جحود المعرفة (جحود الشيء بعد معرفته): ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا**

---

(١) سورة الأنعام/ ٨٢.

(٢) سورة لقمان/ ١٣.

(٣) صحيح البخاري، م ٣، ج ١، ص ١٧٢، (كتاب أحاديث الأنبياء). وذكره - كذلك - باختلاف يسير في الألفاظ في: م ٢، ج ٦، ص ١٤٣- ١٤٤ (كتاب التفسير)، وذكر الإمام أحمد بن حنبل الرواية في مسنده بعبارة أوضح، فقال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ شقّ ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأيّنا لا يظلم نفسه؟!، قال: إنّه ليس الذي تَعنونَ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّه إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾، إنّما هو الشرك»، مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٦٢٤، (مسند عبد الله بن مسعود)، ح ٣٥٧٩.

(٤) بحار الأنوار ٦٩/ ١٠٠، الباب ٩٨، ح ٣٠. والمصدر ٩٠/ ٦٠- ٦١، باب (ما ورد عن أمير المؤمنين في أصناف آيات القرآن)، والباب عبارة عن رواية واحدة مفصّلة.

(٥) سورة الجاثية/ ٢٤.

(٦) سورة البقرة/ ٦.

أَنفُسُـهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[١]، **﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**[٢].

الثاني: الكفر فقط [٣].

الثالث: كفر الترك:

قـال تعالـى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَـا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْـفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَـكُم مِّن دِيَارِكُـمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْـهَدُونَ﴾**[٤] - إلـى قوله تعالى -: **﴿أَفَتُؤْمِنُـونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُـرُونَ بِبَعْـضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَـلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِـزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَـوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**[٥].

الرابع: كفر البراءة:

قـال تعالـى على ما حكاه عن نبيّه إبراهيـم عليه السلام: **﴿كَفَرْنَا بِكُـمْ وَبَدَا بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾**[٦]، فقد تبرّأ إبراهيم منهم ما داموا كفاراً.

وقـال في قصـة إبليس: **﴿إِنِّي كَفَـرْتُ بِمَآ أَشْـرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾**[٧]، فقـد تبرّأ منهم إبليس، وسُمِّي ذلك كفراً.

وقـال تعالى: **﴿إِنَّمَـا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِـي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾**[٨]، فهاهم الذين في النار يتبرّؤون من بعضهم البعض، ويكفرون ببعضهم البعض!!

الخامس: كفر النعم:

قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: **﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾**[٩].

---

(١) سورة النمل/ ١٤.
(٢) سورة البقرة/ ٨٩.
(٣) ويبدو أنّ هذا الوجه سقط من كتاب (بحار الأنوار).
(٤) سورة البقرة/ ٨٤.
(٥) سورة البقرة/ ٨٥.
(٦) سورة الممتحنة/ ٤.
(٧) سورة إبراهيم/ ٢٢.
(٨) سورة العنكبوت/ ٢٥.
(٩) سورة النمل/ ٤٠.

وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾(٢)، وبعد أن انتهى الأمير عليه السلام من أقسام الكفر راح يبيّن وجوه الشرك في الكتاب العزيز والكثير من الموضوعات القرآنية الأخرى(٣).

من أحفل الروايات بالموضوعات القرآنية

إضاءة

ذكر العلامة المجلسي في (بحار الأنوار)، ج ٨٩، (ما ورد عن أمير المؤمنين في أصناف آيات القرآن)، رواية مفصلة تقع في ٩٧ صفحة (ص٢- ٨٩)، ينقلها الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام هي أحفل رواية رأيناها بذكر الموضوعات والأقسام والتفاصيل، والاستدلال عليها من القرآن الكريم، وفيها يجيب علي عليه السلام على أسئلة أصحابه، وقد تناولت الرواية من خلال القرآن موضوعات كثيرة، منها:

١ـ الناسخ والمنسوخ. ٢ـ المحكم والمتشابه.
٣ـ العام والخاصّ. ٤ـ العزائم والرخص.
٥ـ الحلال والحرام. ٦ـ المعطوف والمنقطع.

وهذا التبيان الوافي لأنواع الكفر في القرآن الكريم، وكون بعضها – ككفران النعم – ليس كفراً عقدياً مخرجاً من الملة، مما تحتاج الأمة الإسلامية إلى التعرّف عليه لاسيما في عصرنا الحاضر، حتى تقف في وجه تلك الفتاوى التكفيرية التي لا تكاد تبصر آية قرآنية وصفت البعض بأنّه كافر ـ كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٤) –، حتى تحكم بكفره العقدي، واستحلال دمه وعرضه وماله، وجواز قتله وقتل نسائه وأطفاله!!، دون أن تعرف أنواع الكفر والفرق بينها، أو أنّ الآية تتكلم عن الكفر العقدي أو غيره.

وإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام فيما ورد قبل قليل قد ذكر (أقسام الكفر)، فسوف نجد – في رواية أخرى – الإمامَ الصادقَ عليه السلام يبيّن (أصول الكفر ومؤسِّساته) فيقول:

(١) سورة إبراهيم/ ٧.
(٢) سورة البقرة/ ١٥٢.
(٣) انظر الرواية مفصّلة في: بحار الأنوار ٦٩/ ١٠٠- ١٠٣، باب ٩٨، ح ٣٠. والمصدر ٩٠/ ٦٠- ٦١، باب (ما ورد عن أمير المؤمنين في أصناف آيات القرآن).
(٤) سورة المائدة/ ٤٤.

٧ـ أنواع الضلال.	٨ـ أنواع الوحي.
٩ـ أنواع الفتنة.	١٠ـ أنواع القضاء.
١١ـ أقسام النور.	١٢ـ أقسام الأمة.
١٣ـ أنواع الرخصة.	١٤ـ أنواع الردّ.
١٥ـ ضروب الخلق.	١٦ـ أسباب بقاء الخلق.
١٧ـ معايش الخلق وأسبابها.
١٨ـ واجبات الجوارح.	١٩ـ درجات الإيمان.
٢٠ـ طاعة ولاة أمر الله.	٢١ـ وجوه الكفر.
٢٢ـ وجوه الشرك.	٢٣ـ وجوه الظلم.
٢٤ـ أقسام الفرائض وحدودها.
٢٥ـ الأمر والنهي.	٢٦ـ الزجر.
٢٧ـ الترغيب.	٢٨ـ الترهيب.
٢٩ ـ الجدل ومعانيه.	٣٠ـ القصص وأقسامها.
٣١ـ الأمثال.	٣٢ـ التنزيل والتأويل.
٣٣ـ عصمة الأنبياء.

«أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأما الحرص فإنّ آدم عليه السلام حين نُهي عن الشجرة حمله الحرص على الأكل منها، وأما الاستكبار فإبليس حين أُمر بالسجود لآدم استكبر، وأما الحسد فابنا آدم حين قتل أحدهما صاحبه حسداً»[1].

وأصول الكفر هذه مبنية ومستلة من الآيات الواردة في شأنها.

وإذا كان ما رأيناه قبل قليل من فعل أمير المؤمنين عليه السلام وحفيده الإمام الصادق عليه السلام هو تحريك لما نسمّيه (الجمع الموضوعي)، فسنرى في فقرة لاحقة أنّ الإمام العسكري عليه السلام يجري (الجمع التفسيري) لبيان معنى ﴿**الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ**﴾[2]، وأنّ الإمام الباقر عليه السلام يقوم بـ(الجمع الترتيبي) بين الآيات؛ ليستخرج عدة المتوفى عنها زوجها.

كما سنشاهد كيف يستثمر الإمام علي عليه السلام (الجمع الاستنباطي)؛ ليستخرج أقلّ مدة للحمل، وكيف يستعمل الإمام الكاظم عليه السلام الجمع الاستنباطي؛ لاستخراج حكم الخمر.

ونصل مما مضى إلى أنّ أهل البيت عليهم السلام لم يقفوا عند حدّ الاستلهام الفكري من القرآن، بل مارسوا أنواعاً عديدة من الجمع بين الآيات؛ للوصول إلى رؤية أو حكم أو

(١) بحار الأنوار ٦٩/ ١٢١، الباب ٩٩، ح ١٦.
(٢) سورة الفاتحة/ ٧.

موضوع، ومن أبرز أنواع الجمع تلك:

أ - الجمع التفسيري.

ب- الجمع الترتيبي.

ج - الجمع الاستنباطي.

د - الجمع الموضوعي.

وسوف نتناول أنواع الجمع هذه بالتفصيل حينما ندرس خطوة (ترتيب الآيات)، بوصفها واحدة من خطوات التدبر الموضوعي عند حديثنا عن (منهج التدبر الموضوعي).

٦- العلماء وعلوم القرآن:

وتأتي خطوة أخرى في مسار العناية بالقرآن؛ باهتمام العلماء بما عُرف باسم (علوم القرآن) التي يُعنَى بها: «العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن. وقد يُسمّى هذا العلم بـ (أصول التفسير)؛ لأنّه يتناول المباحث التي لابدّ للمفسّر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن»[1].

أي أنّه البحث عن شؤون القرآن، ودراسة الأمور التي تدور (حول) القرآن[2].

فقد ألف العلماء في المحكم والمتشابه، والعام والخاصّ، والمطلق والمقيّد، والناسخ والمنسوخ، والمنطوق والمفهوم، وإعجاز القرآن، وأمثاله، وأقسامه (جمع قسَم)، وجدله، وقصصه، ومكيّه ومدنيِّه، ونزوله، وأسباب نزول آياته، والقراءات، والأحرف السبعة، والأشباه والنظائر، و.....

كما بحثوا آيات الأحكام والاستفادة الفقهية من القرآن، وآيات العقيدة والجدل للاستفادة العقدية منها، وهكذا..

وأكثرُ الفنون المنطوية تحت (علوم القرآن) دفعهم إليها: حثّ القرآن على إعادة متشابهه إلى محكمه، ورغبتهم في (تفسير القرآن بالقرآن)، هذا العلم والفنّ الذي تنامى حتى أضحى قسماً مركزياً من التفسير بالمأثور، إلى جانب تفسير القرآن بالسنة، وبقول

(١) مباحث في علوم القرآن/ ١٥- ١٦.

(٢) التفسير والمفسِّرون في ثوبه القشيب ٢/ ١٠٣٧.

الصحابة والتابعين.

ولا يسعنا - هنا - أن نسرد كلّ مؤلفات التابعين والعلماء في هذه الحقول[١]؛ بيد أنّا نشير إلى أنّ هذا الاهتمام بدأ مبكراً عند بعض المهتمين، فقد ألف محمد بن صاحب الكلبي - وهو من أصحاب الإمامين الباقرين عليهما السلام - كتابه (أحكام القرآن)، ويبدو أنّه أول كتاب في هذا المجال، فهو سابق بسنين لكتاب الإمام الشافعي في الموضوع نفسه[٢].

وألف محمد بن علي الحكيم الترمذي (الأمثال من الكتاب والسنة).

وألف أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى كتابه (مجاز القرآن)، وألف الإمام عبد القاهر الجرجاني كتابيه (أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز) في البلاغة القرآنية.

وألف أبو جعفر النحاس (الناسخ والمنسوخ)، والواحدي (أسباب النزول).

وألف مقاتل بن سليمان البلخي كتابه: (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم)، والدامغاني كتابه (قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم).

وألف ابن القيّم (التبيان في أقسام القرآن) [٣].

كما سعى بعض العلماء - وعلى الأخصّ العلامة المجلسي في موسوعته (بحار الأنوار) - إلى بدء كلّ باب من أبوابها بعرض الآيات القرآنية الواردة فيه والاستفادة منها في المبحث، وتشكيل رؤية قرآنية عن الموضوع المراد طرقه قبل الولوج إلى الأحاديث والروايات الشريفة.

المرحلة الثانية: مرحلة النضج:

وإذا كان ما مضى يمثّل مرحلة البدايات الموضوعية للقرآن الكريم، وقد استمرت قروناً ممتدة، وشهدنا في ختامها اهتمام العلماء بـ(علوم القرآن)، كما ظهر شيء من بوادر (موضوعات القرآن)، فقد جاءت مرحلة النضج للتفسير الموضوعي في القرن العشرين الميلادي، وما شهده من فروع وتخصصات، وبحوث معرفية تفصيلية، ومحاولة البعض

---

(١) وقد أوردنا بعضها عند الحديث عن (مناهج تفسير القرآن الكريم).

(٢) نفحات القرآن ١/ ١٧.

(٣) كلمة (أقسام) - هنا -: جمع (قَسَم)، كقوله تعالى: ﴿والعَصْرِ﴾، وليست جمعاً لـ (قِسْم) بمعنى (جزء وأجزاء).

الوصول إلى رؤية قرآنية حول موضوع معيّن، بالإضافة إلى دخول (التفسير الموضوعي) مادة درسية في بعض الجامعات.

والمقصود بـ(موضوعات القرآن): القيام بدراسات في القرآن الكريم تتناول الموضوعات في القرآن ذاته للحصول على نظريات قرآنية أو تصور قرآني، أي دراسة الأمور (في) القرآن نفسه[1].

ومن ثمّ فهناك فرق بين (علوم القرآن)، و(موضوعات القرآن)، فالأولى تتناول أموراً (حول) القرآن الكريم، كالمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، ، والمكي والمدني. والثانية تتناول موضوعات (في) القرآن الكريم، كالقيام بدراسة عن التوحيد، أو الإنسان، أو العفو والصفح، أو البحار، أو غير ذلك.. في القرآن الكريم.

والتفسير الموضوعي يعدّ من الحقول الداخلة في (موضوعات القرآن).

ونستطيع أن نختزل (مرحلة النضج) هذه في أنّها تدور حول محور (موضوعات القرآن)، وقد شهدت بذاتها خطوات متتابعة متكاملة، منها:

١- جهود الأفغاني:

يؤرخ البعض لظهور اللبنة الأولى للموضوعات القرآنية بجهود السيّد جمال الدين الأفغاني (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) عبر (المقالات التفسيرية) التي كان يكتبها في مجلة (العروة الوثقى)، وسعيها لإبراز موضوع أو فكرة من خلال آية أو مجموعة من الآيات؛ لأنّها جعلت من الكشف عن الموضوعات القرآنية غاية تبيح إلى حدّ ما.. تتبع الألفاظ وتجميعها وعدم الاكتفاء بتحليلها في موضعها.

وتعتبر هذه الخطوة التي تنتمي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي الممهد الفعلي لظهور التفسير الموضوعي في القرن العشرين.

٢- مدرسة المنار:

وتأتي اللبنة الثانية حين تلقف الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) من أستاذه السيّد جمال الدين الأفغاني فكرة المقالات التفسيرية، وراح يواصل الكتابة لها، وأضاف لها تفسيره للقرآن الكريم في جامع الأزهر الشريف بطريقة يجمع فيها بين

(١) التفسير والمفسِّرون في ثوبه القشيب ٢/ ١٠٣٧.

المنهجيـن: الموضعي التحليلي/ والموضوعي التوحيدي، بالشـكل الذي بدا شـيء منه فيما دوّنه تلميذه الشـيخ محمد رشـيد رضا (ت ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) في تفسير (المنار)، والنفاذ في بعض المواضع لتناول موضوعات ودراستها.

وبجهود الشيخ عبده في المنهج الذي سار عليه في تفسير (المنار) تكون (المدرسة العقليـة الاجتماعية في التفسـير) قد ولـدت، وبزغت للعيان، وعُرفت بهذا الاسـم نتيجة للمنهج العقلي الاجتماعي الذي تسير عليه في التفسير، كما عُرفت باسم (مدرسة المنار)، تسمية لها باسم عنوان التفسير الأول الذي أصدرته.

وإذا كان الجهد التفسـيري الذي يحويه (تفسـير المنار) بين دفتيه يعود للشيخ عبده منه ما امتدّ من أول تفسـير القرآن إلى الآية ١٢٦ من سـورة النسـاء فحسـب، أنشأه الشيخ عبده، ودوّنه الشـيخ محمد رشـيد رضا، فقد مضى الشـيخ رضا في إكمال مشوار التفسير على خطى ومنهج أستاذه، فأتمّ التفسير إلى الآية ٥٣ من سورة يوسف، وضمّه إلى تفسير (المنار)، كما قدّمنا في (التفسير الاجتماعي الحركي التربوي).

وسار على هذه الطريقة في التفسير الشيخ محمود شلتوت (ت ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) في تفسـيره المسـمّى (تفسـير القرآن الكريم)، الذي تناول فيه الأجزاء العشرة الأولى من القـرآن الكريم بطريقة تجمع بين النهجين: الموضعـي والموضوعي، فكان يتتبّع المفردة أو الموضـوع عنـد ذكر أول آية لـه، فلدى ورود لفظـة (الحمد) في سـورة الفاتحة تناول موضـوع (الحمد في القـرآن)، وتتبّع مواطن ورود تلك الكلمـة، وكذلك فعل عند ورود لفظة (البرّ)، فقدّم بحثاً في (البرّ في القرآن).

كمـا سـار على الخطى نفسـها تلميذ آخر للشـيخ عبـده هو الشـيخ أحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م) في (تفسير المراغي).

وهـذه الطريقـة التي تجمـع في عطائهـا التفسـيري بين شـكلي التفسـير التحليلي والموضوعـي تبناهـا - فيمـا بعـد - السـيّد محمـد حسـين الطباطبائـي (ت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م). فـي تفسـيره (الميـزان)، والسـيّد عبـد الأعلـى السـبزواري (ت ١٤١٤هــ/ ١٩٩٤م) في تفسيره (مواهب الرحمن).

٣ - مدرسة الأمناء:

تلقـف الأسـتاذ أمين الخولـي (ت ١٣٨٦هــ/ ١٩٦٦م) نواة المنهـج الجديد من عند مدرسـة المنار، وسعى للتأصيل لها؛ بغية إبراز تفسير موضوعي، فألف كتابه (مناهج

تجديـد)، ووضع فيه الخطوات العملية لمنهج (التفسـير البياني الأدبـي للقرآن الكريم)، ومنها:

«أ- الأصل في المنهج: التناول الموضوعي لما يُراد فهمه من كتاب الإسلام، ويبدأ بجمع كلّ ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس.

ب – في فهم ما حول النصّ: تُرتب الآيات فيه حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، كما يُستأنس بالمرويات في أسـباب النزول من حيث هي قرائن لابسـت نزول الآية، دون أن يفوتنا أنّ (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) الذي نزلت فيه. وليس السبب فيها بمعنى الحِكمية أو العِلية التي لولاها لما نزلت الآية، وأنّ الخلاف في أسباب النزول يرجع غالباً إلى أنّ الذين عاصروا نزول الآية أو السورة، ربطها كلٌّ منهم بما توهم أنّه السبب في نزولها.

ج – فـي فهـم دلالات الألفـاظ: نقدّر أنّ العربيـة هي لغة القـرآن، فنلتمس الدلالة اللغويـة الأصيلـة التـي تعطينـا حـسّ العربية للمـادة فـي مختلف اسـتعمالاتها الحسـية والمجازيـة، ثـمّ نخلص لِلَمح الدلالـة القرآنية بجمـع كلّ ما في القرآن مـن صيغ اللفظ، وتدبر سياقها الخاصّ في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كلّه.

د– في فهم أسرار التعبير: نحتكم إلى سياق النصّ في الكتاب المحكَم، ملتزمين ما يحتمله نصّاً وروحاً، ونعرض عليه أقوال المفسّرين، فنقبل منها ما يقبله النصّ، ونتحاشى ما أُقحم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات والتأويلات المذهبية.

كمـا نحتكم إلـى كتابنا الأكبـر [القرآن] فـي التوجيـه الإعرابي والأسـرار البيانية، نعـرض عليه قواعد النحوييـن والبلاغيين، ولا نعرضه عليها وقـد وضعها علماء أكثرهم طارئ على العربية لم يكسبوها ذوقاً وسليقة، وإن أجادوها علماً وصناعة»[١].

وقد حمل راية منهج (التفسير البياني) بعد أمين الخولي، زوجته عائشة عبد الرحمن (بنت الشـاطئ)، وقدّمت فيه العديد من التطبيقات تضمنها كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم) وغيره.

٤- الموضوعات المستقلة:

مهدت الجهود الماضية لبروز كتب ودراسـات مستقلة تتناول بعض الموضوعات

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ١٠- ١١.

القرآنية من خلال الكتاب العزيز:

- فكتب مهدي علام دراسة حول العفو في القرآن.
- وكتب الشيخ محمد شلتوت رسالتين حول: (القرآن والقتال)، و(المرأة في القرآن الكريم).
- وقد كتب عباس محمود العقاد (المرأة في القرآن الكريم)، و(الإنسان في القرآن الكريم)، و(الفلسفة القرآنية).
- وكتب الدكتور الشيخ محمد دراز (دستور الأخلاق في القرآن).
- وكتب محمد عزت: (الدستور القرآني في شؤون الحياة)، و(سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن)، و(القرآن والضمان الاجتماعي).
- وكتب السيّد الشهيد الصدر (سنن التاريخ في القرآن الكريم)، المشهور باسم (المدرسة القرآنية)[1].

وهكذا شهدنا بعض الموضوعات القرآنية المعاصرة، وسعياً حثيثاً لكتابة دراسات قرآنية، أو تأليف كتب عن ذلك، انتهاء بكتابة تفاسير موضوعية، أو دورات حول موضوعات عدة تناولها القرآن المجيد، وإذا كانت هذه بمجموعها تنتمي للحقل التطبيقي، فقد رأينا أخيراً السعي للقيام بعملية تنظير معرفي للتفسير الموضوعي.

أي، شهدنا جهوداً تصبّ في حقلي: التطبيق العملي، والتنظير العلمي. وسندرس هذا مفصلاً عندما نتحدّث عن (الخطوة الخامسة في التدبر الموضوعي: الاستفادة من التفاسير)، وسنذكر أسماء بعض الدراسات والكتب والموسوعات التي عنيت بالتفسير الموضوعي: تنظيراً أو تطبيقاً.

غير أنّا نشير إلى تأخر الجهد التنظيري عن التطبيقي، وحاجته إلى عمق التقنين المنهجي، الأمر الذي سعت إلى سدّ شيء منه كتب مثل:

١- المدرسة القرآنية، للسيّد الشهيد محمد باقر الصدر.
٢- المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد.
٣- البداية في التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الحيّ الفرماوي.
٤- مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور مصطفى مسلم.

---

(١) حول جهود (مدرسة المنار، ومدرسة الأمناء، والموضوعات المستقلة) راجع: التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ٤٨- ٦٦، والدكتور زاهر عواض الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم/ ١٥.

٥- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، للدكتور زياد خليل الدغامين.
٦- التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل، للدكتور زيد عمر العيص.
٧- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي.
٨- التفسير الموضوعي: نظرية وتطبيقاً، للدكتور أحمد عثمان رحماني.
٩- مناهج التفسير الموضوعي، للدكتور أحمد عثمان رحماني.
١٠- التفسير الموضوعي للقرآن، للدكتور أحمد الكومي، والدكتور محمد القاسم.
١١- التفسير الموضوعي في كفتي ميزان، للدكتور عبد الجليل عبد الرحيم.

كما نشير إلى أنّنا حين نتحدّث عن (مرحلة النضج) فإنّنا نعتقد أنّنا لا زلنا في بداياتها وباكورة خطواتها، وأنّ التدبر الموضوعي يحتاج إلى خطوات كبيرة ومتلاحقة في بعديه: التنظيري والتطبيقي؛ لتطويره وتنضيجه، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم التي تبدأ بذرة ثمّ تنمو -بالسقي والعناية- حتى تصبح دوحة فارعة.

وبدمج جهود المرحلتين نخلص إلى أنّ التفسير الموضوعي مرّ بالخطوات التالية:

١- القرآن ودعوته إلى إرجاع المتشابه إلى المحكم.
٢- القرآن وتفعيل الجمع الموضوعي:
٣- القرآن والقيام بالعرض الموضوعي.
٤- أهل البيت والاستلهام من القرآن.
٥- أهل البيت عليهم السلام والاستفادة الموضوعية من القرآن.
٦- العلماء وعلوم القرآن.
٧- العلماء وموضوعات القرآن.

المرحلة الثالثة: مرحلة الانتشار:

وإذا كانت كتابة الموضوعات القرآنية قد بدأت على أيدي روّاد قلائل يكتبون فيها، فإنّنا ننتظر ببالغ الصبر انتشار البحث القرآني، واتساع التعاطي معه في الجامعات والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات، والاهتمام بالموضوعات القرآنية.

ومع وجود مادة التفسير الموضوعي في بعض الجامعات، وكتابة بعض البحوث والرسائل والأطروحات الجامعية حول موضوعات قرآنية، ووجود بعض المجلات المتخصّصة في القرآن الكريم، أو نشر بعض موضوعاته، وصدور بعض الكتب والتفاسير الموضوعية، وعقد ندوات ومؤتمرات لعرض ومناقشة الموضوعات القرآنية إلا أنّ هذا الانتشار والحضور ليس بالمستوى الذي يتوازى مع مكانة وأهمية القرآن الكريم في حياة المسلمين كدستور خالد لها، ولا مع سعة ووفرة وعمق الموضوعات القرآنية، ولا مع ما يستحقّ أن نعدّه مجسّداً لدخول مرحلة ثالثة.

فهذا المستوى من الانتشار لا يقارن - حتى الآن - بما تحظى بها الموضوعات الأدبية، ولم يرتكز كأساس راسخ حتى في المجاميع الدينية من حوزات وجامعات ومعاهد.

ومن ثمّ فنحن نرى أنّ (مرحلة الانتشار) هي مرحلة فرضية لا زالت في عين الترقب والغيب، لم نلجها بعد، وإنّما نتلهف ونتطلع إليها؛ حتى تُثار الموضوعات القرآنية بسعة وعمق، وبما يتناسب مع التنظير للواقع وتحريكه وصياغته وفقاً للقرآن الكريم، وحتى تتمّ الاستفادة من المعين القرآني ليروي الأرض، ويجعلها تشرق بكلّ زرع بهيج.

والخلاصة في المراحل الثلاث: أنّنا نعتقد أنّ التدبر (والتفسير) الموضوعي سبر (مرحلة البدايات)، وأنّه الآن في بداية (مرحلة النضج)، ويترقب ميلاد (مرحلة الانتشار).

تساؤلات عتيدة

ويستطيل أمام نوعية فهمنا للتدبر الموضوعي ودعوتنا الملحّة لممارسته، ثلاثة أسئلة فارعة مؤداها:

١ - القرآن نزل منجّماً مجزّءاً، فما الداعي للموضوعي؟

٢ - الحديث والفقه والتفسير: أيّها سبق الآخر موضوعياً؟، ولماذا؟

٣- مجموع التدبر الموضعي هل يشكّل تدبراً موضوعياً؟

القرآن نزل منجّماً مجزّءاً فما الداعي للموضوعي؟

لا شك أنّه سؤال جدير بالطرح والعرض، فالقرآن الكريم والسنة النبوية (الإسلام عموماً) قد صاغ مدلولاته تفصيلياً، أي مفرّقة حسب الزمان والمكان والغرض، بل ومختلفة حسب السائل وحاجته ومستواه، ولم يطرح النظرية الشاملة في مكان واحد وزمان واحد وباب واحد.

فالقـرآن الكريم لم يذكر سـورة مسـتقلة أو بابـاً أو فصلاً خاصاً بعنـوان (العلم) أو (التوحيـد) أو أو (الـزواج) أو (الطبيعـة) أو غيـر ذلـك..، وإنّمـا جاءت معارفـه في هذه الحقول وغيرها موزّعة على ١١٤ سورة، وعلى ٦٢٣٦ آية، وعلى مدى ٢٣ سنة هي فترة نزول القرآن الكريم.

ثـمّ لما اكتمل نزول القرآن الكريـم رتبه النبي ﷺ - بأمر من الله - وفق التدوين الموجود في المصحف الشريف الآن، فجاءت سـور مدنية - كالبقرة - في أول القرآن، وجـاءت سـور مكيـة - كالنـاس - فـي آخـره، ووضعت آيـات مكية فـي السـور المدنية والعكس، فلم يرتبه النبي ﷺ وفق النزول، ولا وفق الموضوعات.

والأمر نفسـه في السـنة المباركة، فلم يذكر النبي ﷺ النظرية العامة دفعة واحدة في موضوع صفات الله أو المعاد أو الإمامة أو الأخلاق أو الجهاد أو السياسـة أو الكون أو سـنن التاريـخ أو....، وإنّمـا جاءت موزّعة فـي أقواله وأفعاله وتقريراتـه وصفاته على مدى حياته الكريمة كاملة.

وهكذا نصل إلى أنّ منهج القرآن والسنة هو توزيع المادة حسب الغرض (التربوي)، لا حسب الغرض (المعرفي) الذي يستدعي جمع شتات الموضوع في مكان واحد ودفعة واحدة.

وإذا كان منهج الإسلام - قرآناً وسنة - ألا تأتي النظرية على شكل معرفي متكامل في مكان واحد وفي دفعة واحدة، وإنّما تُوزّع حسـب الفائدة التربوية، وإذا كان أمام النبي ﷺ إمكانية لترتيب الآي وفق الموضوعات فلم يفعل، فلماذا نأخذ نحن بمنهج مخالف لما ارتآه القرآن والسنة؟!، ولماذا نتبّع الدراسة الموضوعية التي لم يسيرا عليها؟!، ولماذا نعيد ترتيب الآيات وفقاً للموضوع البحثي المخالف للتدوين التوقيفي في المصحف؟!

وللإجابة على هذا السؤال نقول:

إنّ الصحابـة حيـن إصغائهم للآيـات الشـريفة كان عندهم فهمٌ ارتـكازي إجمالي لنظرية الإسلام، وتعارفٌ عام لمدلول تلك النظرية، فكانت التفصيلات تُصاغ في أذهانهم بيسر متحولة لكليات، يساعدهم على ذلك عدة أمور، منها:

١- القرب اللغوي والتلقي الفطري:

فهـم يفهمون مدلولات القرآن بشـكل مباشـر، دون الحاجة لشـخص يشـرح لهم المداليـل اللغوية، وقد أسـهم هذا في اسـتنتاج الكليات لديهم بيسـر وسـهولة، ولا يضرّ

بهذا وجود أشخاص لا يعرفون معنى كلمة (أباً) في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[1]، أو (الكلالة) في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾[2]، أو كلمة (عُجاب) في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[3]؛ لأنّ الصورة العامة لمجتمع لا تُقيّم بحالات شاذة ومتفرّقة، وإنّما تقيّم بالظاهرة العامة السائدة فيه، والظاهرة السائدة في المجتمع العربي أنّه كان سليقياً فطرياً يتلقى اللغة بعفوية، بدليل بقاء الاستشهاد باللسان العربي إلى سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧م حين وجدوا تفشي اللحن وفساد الألسن؛ فأسقطوا الاستدلال بلسان أهل المدن، ثمّ ألحقوا بهم أهل البوادي في سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م، وبدليل اتكاء كثير من تفسيرات ابن عباس للآي القرآني على شواهد شعرية أو نثرية من ألسنة العرب، واعتماد المفسّرين على ذلك النهج لكشف دلالات الألفاظ والأساليب القرآنية.

كما لا يضرّ - أيضاً - جهل الناس بالمعاني الخاصة التي استحدثها الإسلام للألفاظ، والمعاني التي نقل إليها الألفاظ العربية (الحقيقة الشرعية)، كنقله للفظة (الصلاة) من معنى (الدعاء) إلى هذه الأقوال والأفعال المخصوصة التي تُبتدأ بالتكبير وتُختتم بالتسليم، فنحن نتحدث عن قربهم اللغوي لا الاصطلاحي الشرعي..

٢- المناخ القرآني العام للحياة الإسلامية:

فقد كان الجو حولهم محاطاً بالرسالة، وأجواء الدولة الإسلامية، ويمكن للمسلم أن يدرك ارتكازاً عاماً لنظرية (المسجد) في حياة المسلمين عبر ما يراه حوله من نظام قائم للمسجد: هيئة، وأدباً، ووظيفة.

٣- التطبيق النبوي للآيات:

وإلى جانب كون الصحابة في ذلك الوقت من أهل اللغة الأقحاح الذين تلقوها بقلوبهم ووعوها بسليقتهم وفطرتهم، ومعاني مفرداتها حاضرة في ألبابهم، والصورة التركيبية العامة للجمل جلية في أدمغتهم، كانوا يحتكّون مباشرة بممارسة النظرية من رائدها الأكبر - الرسول الأكرم ﷺ - في مقام التجسيد والممارسة، فيدركون بذلك

(١) سورة عبس/ ٣١.
(٢) سورة النساء/ ١٧٦.
(٣) سورة ص/ ٥.

الرؤية الكلية للآيات.

أي أنّ المناخ الإسلامي الذي أرخاه النبي ﷺ كان يسهِّل عليهم فهم المدلولات القرآنية، وكانت التفسيرات المعصومة للآيات حاضرة لديهم مفهوماً وتطبيقاً، فضلاً عما تغدقه عليهم البيئة الإسلامية العامة من موجِّهات للفهم القرآني.

كان ذلك في حال أضحى فيه ذوق المتلقي سليماً لدى الأغلبية الساحقة من العرب المشافهين للقرآن عموماً، ولدى الأغلبية الساحقة من المسلمين كذلك، وقبل أن تفسد ألسنة العرب بما اكتسبوه من مخالطتهم لغير العرب، وتزاوج معهم، وبُعد عن منبع اللغة الصافي؛ مما كان له الأثر الأكبر في خلخلة السليقة اللغوية وتعكيرها.

أما نحن في هذا الزمن، فمن جهة نعيش البعد عن الينابيع الأولى للغة وعن النصّ وحضور المعصوم عليه السلام، فلم نحرم من التلقي العفوي المباشر للغة ومن معطيات الجو الإسلامي فحسب، بل أمسى كثيرون منّا لا يعرفون معنى كثير من المفردات العربية التي أضحت لديهم كلمات معجمية قاموسية مستغلقة، ولا يعرفون مفاهيم الجمل العربية (التراكيب)، لاسيما كلّما انتمت تلك الجمل إلى الماضي، ولم يعد أكثرنا يهتزّ لبيت شعر أو أداء لغوي بليغ.

ومن جهة ثانية، تشاكلت علينا أطروحات بشرية بعيدة عن روح الشريعة ومقاصدها، كبعض النظريات الشرقية والغربية التي تُعَدّ إسهاماً بشرياً ليس بالضرورة أن يوافق الفكر الديني الإسلامي أو يلائم مناخه وروحه، بل.. والأعظم من ذلك نجد أنّ الفكر المنتَج في بلاد المسلمين هو نفسه ليس بالضرورة أن يوافق الإسلام، فكم هي التداخلات بين الاتجاهات الفكرية، وكم هي الخيوط الرفيعة بين الأفكار، بحيث غدا من السهل جداً أن نرى طرحاً ينطلق من التنظير الإسلامي/ القومي في وقت واحد، أو يلبس الإسلام والليبرالية في الوقت نفسه، أو ينتهج الإسلام والاشتراكية في إيديولوجية واحدة!!

ومن جهة ثالثة، فقد استجدت أطروحات جديدة لم تكن موجودة زمن النصّ، سواء في حقل الدراسات الإنسانية أو الطبيعية، فقد نشأت نظريات تدعو لتبني الفكر الإنساني والعولمة واندماج الثقافات، وجاءت أخرى بنظريات حديثة في الهندسة الوراثية، وبلغت شأواً رفيعاً في سبر قوانين الطبيعة وريادة الفضاء وغير ذلك.

ومن جهة رابعة، فقد ظهرت - ولاسيما مع ازدهار اللسانيات الحديثة - مناهج ونظريات في قراءة النصّ وتفسيره ونقده، كالبنيوية والأسلوبية والسيميائية والتفكيكية، ومناهج في تفسير النصّ الديني نفسه، كالهرمنوطيقا. وهذه المناهج والنظريات لها

أدوات ونتائج خاصة في قراءة النصّ قد تختلف عن القراءة التراثية أو السائدة.

وإزاء هـذا البعد عن زمن النصّ، ووجود هذا التداخل المعرفي، وهذه الطروحات الجديـدة، وتلك المناهج التي اسـتجدت في قراءة النصّ أو نقـده، ماذا نفعل حتى نعرف المقصـود والمـراد في النـصّ الديني؟، ومـاذا نصنع حيـن نريد التعرّف علـى وجهة نظر الإسـلام والقـرآن تجـاه المعـارف والمبتكرات الجديـدة؟، وكيـف نبني لنا موقفـاً تجاه المستجدات العلمية والعملية في واقعنا الخارجي؟!

ما هي نظرية الإسلام السياسية؟، وما هي وجهة نظره في فنون السياسة القائمة؟، وما هي نظريته في الحقل الإنساني والاجتماعي والطبيعي؟، وما هو رأيه في جوانب الطروحات الإنسانية والاجتماعية والطبيعية التي بناها الفكر البشري وإسهامات علمائه؟، وبشكل عام: ما هي نظريته في الأمور؟، وما وجهة نظره تجاه الموجود في عالمنا الخارجي؟

أي أنّنا نبحث عن نظريته في مناخه وبيئته الإسـلامية، ونبحث عن نظريته في مناخ وبيئة المتحقّق في الخارج من إسهامات خارج نظرته أو من المناخ الاجتماعي العام الذي لا يتمثّل - بالضرورة - تأسيس أموره وفق الدين ومرئياته.

وفـق هـذه الصعوبـات المحيطة بنـا وسـبل تجاوزها، لا خيار لنا سـوى اسـتقراء النـصّ الدينـي (الآيات القرآنية والأحاديث والروايات)، واسـتجلاء النظرية الإسـلامية، واستخلاص الرؤية الأصوب للواقع الخارجي وما فيه.

فلكي يتعرّف الإنسان على مداليل اللغة أو النصّ الديني هناك أسلوبان:

أ- فإمـا أن يعيـش مـع أهلها ليفهم الدلالات مباشـرة بالممارسـة اليومية. وهذه - عندنـا - (سـالبة بانتفاء الموضوع)؛ إذ غـاب عنا زمن العربية الأصيلـة، واندثرت القبائل العريقة التي كانت تتنفس العربية كما تتنفس الهواء، كما بعُد عنا العهد النبوي وأهل بيت العصمة عليهم السلام.

ب - وإما أن يفهم القواعد العريضة، والنظرية العامة لتلك الدلالات. وهذا ما نسعى له بإيجاد تدبر موضوعي توحيدي يقرّب لنا الدلالات، ويعيّشنا في المناخ المفقود.

ولأنّ فهـم تلـك القواعد واسـتلهامها المتكامـل التفصيلي يسـتدعي جمع الآيات المتحدثـة عـن الموضـوع آنى كانت، فلا سـبيل أمامنا لاسـتخرج تلك الرؤيـة الكلية إلا ممارسـة التدبـر (أو التفسـير) الموضوعـي الـذي يجمع شـتات الموضـوع، ويوحد بين عناصره وفق العلاقات الكلية.

الحديث والفقه والتفسير: أيّها سبق الآخر موضوعياً؟، ولماذا؟

عندما نعقد مقارنة بين كتب الحديث وكتب الفقه وكتب التفسير، ونحاول التعرّف على أيّها الذي حاز قصب السبق في النظرة الموضوعية التوحيدية، سنبصر الآتي:

أولاً: كتب الحديث:

منذ زمن مبكر احتاج جامعو الحديث إلى ترتيب الأحاديث والروايات ترتيباً موضوعياً، ولأنّ غايتهم - في الطابع الأعم - فقهية، راحوا يدونون الأحاديث والروايات التي تتكلم عن موضوع فقهي واحد في باب واحد؛ ليسهل التعامل معها عند محاولة استنباط الحكم الشرعي، وهكذا بدت التجارب الحديثية الأولى عند السنة والشيعة:

١- كتب الحديث عند السنة:

فقد رتب الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م) أحاديث كتابه (الموطأ) وفق ترتيب موضوعي توزع على ٦١ (كتاباً) (= فصلاً)[(١)]: بدأها بـ(كتاب وقوت الصلاة)، ثمّ (كتاب الطهارة)، ثمّ (كتاب الصلاة)، وختمها بـ(كتاب أسماء النبي).

ورتب البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) أحاديث صحيحه وفق ترتيب موضوعي، فقسّمه إلى ٩٧ كتاباً، بدأها (بكتاب بدء الوحي)، ثمّ (كتاب الإيمان)، ثمّ (كتاب العلم)، وختمها بـ(كتاب التوحيد).

كما رتب مسلم (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م) صحيحه وفق ترتيب موضوعي، بدأه بـ(كتاب الإيمان)، ثمّ (كتاب الطهارة)، ثمّ (كتاب الصلاة)، وختاماً بـ(كتاب التفسير).

وعلى هذا المنوال من السرد الموضوعي للأحاديث سارت بقية الصحاح الستة: (سنن ابن ماجة)، لمحمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م)، و(سنن أبي داود)، لأبي داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م)، و(سنن الترمذي)، لمحمد عيسى الترمذي (ت

---

(١) كان القدماء يُطلقون على فصول كتبهم اسم (كتاب)، ثمّ يقسّمون (الكتاب) إلى (أبواب)، ومن هنا أطلق الإمام مالك بن أنس على كلّ فصل من كتابه (الموطأ) اسم (كتاب)، فجاء عنده (كتاب وقوت الصلاة)، (كتاب الطهارة)، (كتاب الصلاة)، وهكذا..، واشتمل (كتاب وقوت الصلاة) على أبواب منها: (باب وقت الجمعة)، (باب من أدرك ركعة من الصلاة)، (باب النوم عن الصلاة)، و....

٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، و(سنن النسائي)، لأحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، والذي خرج عن التقسيم وفق الموضوعات كتاب (مسند الإمام أحمد بن حنبل) للإمام أحمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، الذي وُزع وفق (مسانيد الرجال) (= الرواة)، فبدأه بمسند أبي بكر، ثمّ مسند عمر، ثمّ مسند عثمان، ثمّ مسند علي، وختمه بمسند القبائل.

٢- كتب الحديث عند الشيعة:

وإذا انتقلنا إلى بداية كتب الحديث الشيعية التي وصلتنا (الجوامع المتقدمة)، فسنجد أنّها وزعت أحاديثها وفق الترتيب الموضوعي:

فقد رتب الشيخ الكليني (ت ٣٢٩هـ/ ٩٤١م) كتابه (الكافي) وفق ترتيب موضوعي بدأه بـ (كتاب العقل والجهل)، ثمّ (كتاب فضل العلم)، ثمّ (كتاب التوحيد)، وختمه بـ (كتاب الأيمان والنذور والكفارات)، ثمّ (الروضة).

ورتب الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م) كتابه (مَن لا يحضره الفقيه)، وفق الترتيب الموضوعي، فبدأه بـ (باب المياه وطهرها ونجاستها)، ثمّ (باب ارتياد المكان للحدث، والسنة في دخوله والآداب فيه إلى الخروج منه)، ثمّ (باب أقسام الصلاة)، وختاماً بـ (باب النوادر).

كما رتب الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) كتابيه: (التهذيب) و(الاستبصار) ترتيباً موضوعياً.

وعلى هذا المنوال ذاته في توزيع الكتاب وفقاً للتقسيم الموضوعي سارت (الجوامع المتأخرة) مثل: (الوافي)، للفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م)، و(وسائل الشيعة)، للحرّ العاملي (ت ١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م)، و(مستدرك الوسائل)، للشيخ حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م)، و(بحار الأنوار)، للعلامة المجلسي (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م).

ثانياً: كتب الفقه:

وحين شرع العلماء في تأليف الكتب الفقهية جاءت كتبهم مرتبة ترتيباً موضوعياً:

- فالتي جاءت تعليقاً على كتب الحديث ذات الطابع الفقهي - كالمجاميع الحديثية السنية والشيعية الأساسية - سارت على ترتيب الكتب المشروحة في عرض الأحاديث

وتوزيعها على (كتب) و(أبواب)، فبحوثها موزّعة على أبواب مثل: باب الطهارة، باب الصلاة، باب الصيام، باب الزكاة، و....، وتجمع في كلّ باب محتوياته الخاصة المتعلّقة به من آيات وروايات وقواعد ومقتبسات، وتتناولها بالدراسة والمعالجة.

- والتي جاءت لعرض الفروع وتفصيلات الأحكام، هي الأخرى سارت على الترتيب الموضوعي لأبواب الفقه، ومن أمثلتها في فقه المذاهب الأربعة:

١ - (الأسدية)، للقاضي أسد بن الفرات بن سنان، المتوفى في ٢١٣هـ/ ٨٢٨م (في الفقه المالكي).

٢ - (المهذب) لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، المتوفى في ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م (في الفقه الشافعي).

٣- (المبسوط في الفقه)، للشيخ ابن سهل محمد بن أحمد السرخسي، المتوفى في ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م (في الفقه الحنفي).

٤ - (المغني)، للشيخ عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، المتوفى في ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م (في الفقه الحنبلي).

ومن أمثلتها في الفقه الشيعي الإمامي:

١ـ(تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة)، للشيح محمد بن أحمد بن الجنيد الإسكافي، المتوفى في ٣٨١هـ/ ٩٩١م.

٢ - (المبسوط)، للشيخ محمد بن الحسن الطوسي، المتوفى في ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م.

٣- (السرائر)، لابن إدريس محمد بن منصورالحلي، المتوفى في ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م.

٤ـ(شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام)، للشيخ نجم الدين جعفر بن الحسين الهذلي (المحقق الحلي)، المتوفي في ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م.

٥ - (كتاب الخلاف)، للعلامة الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي، المتوفي في ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م.

وكما حصل ذاك مع الكتب القديمة تأليفاً سارت على هديه الموسوعات الفقهية الحديثة، ومنها:

١ - (الحدائق الناضرة)، للشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م).

٢ - (جواهر الكلام)، للشيخ محمد حسن النجفي (ت ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م).

٣- (مستمسك العروة الوثقى)، للسيّد محسن الحكيم (ت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).
٤- (الفقه)، للسيّد محمد مهدي الشيرازي (ت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).
٥- (الفقه الإسلامي وأدلته)، للدكتور وهبة الزحيلي (معاصر).

ثالثاً: كتب التفسير:

وعلى عكس ما مضت عليه كتب الحديث وكتب الفقه من توزيع مادتها وفقاً للترتيب الموضوعي، فقد اشتهرت التفاسير بتناول القرآن الكريم موضعياً تجزيئياً طبقاً لتتابع السور في المصحف الشريف:

فعند المقارنة بين المنهجية الحديثية والمنهجية التفسيرية نشهد أسبقية انتشار المنهج الموضوعي في الحديث عليه في التفسير؛ لأنّ تدوين الحديث سبق تدوين التفسير، ولأنّ التفسير في بذرته الأولى نشأ في أحضان الحديث، فكانت كتب الحديث تنقل تفسيرات النبي ﷺ والمعصومين عليهم السلام للقرآن الكريم، وغالباً ما تعقد باباً باسم (كتاب التفسير)، ولأنّ كتب التفسير مع بدايتها المتأخرة عن الحديث سارت وفق التفسير الموضعي المناسب للترتيب التدويني للآيات والسور في المصحف العزيز، لا وفق الترتيب الموضوعي.

فبعض الكتب الحديثية الموضوعية كـ(الموطأ) تعود إلى القرن الثاني الهجري، والموسوعات الفقهية الروائية الموضوعية للبخاري ومسلم والكليني والصدوق والطوسي وغيرهم..، والتي بلغت مستوى عالياً من النضج الموضوعي تنتمي إلى مساحة زمنية تمتدّ بين القرنين الثالث والرابع الهجريين، بينما التفسير الموضوعي للقرآن الكريم تعود أولى ممهداته وهي (المقالة التفسيرية) إلى القرن الرابع عشر الهجري (النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي) مع جهود السيّد الأفغاني، وتعود أولى بذور تجاربه وهي تفسير (المنار) إلى العصر الحديث، وقد توفي مؤلفه الشيخ محمد عبده في القرن الرابع عشر الهجري (بداية القرن العشرين).

وهذا يعني أنّ ظهور الطريقة الموضوعية في الحديث سبقت ظهورها في التفسير بأكثر من ألف ومئة سنة.

أما عند المقارنة بين الطريقة الموضوعية في الفقه وفي التفسير، فقد وجدنا كتباً فقهية تأخذ بالطريقة الموضوعية تنتمي إلى القرن الثالث الهجري ككتاب (الأسدية)

المتقـدّم، كما وجدنا موسـوعات فقهيـة تفريعية تتبنى الطريقـة الموضوعية، يعود بعضها للقرن الرابع الهجري كـ (تهذيب الشـيعة لأحكام الشريعة)، بينما ظهرت تباشير التفاسير الموضوعية القرآنية مع (المنار) في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي).

وهـذا يعني – أيضاً – أنّه لدى المقارنة بين المنهجية الفقهية والمنهجية التفسـيرية في الإطار العام سـنجد أنّ شـيوع الشـكل الموضوعي التوحيدي التكاملي في الفقه كان أسبق بكثير من انتشاره في التفاسير[1]، وأنّ هناك أكثر من ألف ومئة سنة فاصلة بين ظهور الشكل الموضوعي في هذين الحقلين.

ولدى الموازنة بين كتب الحقول الثلاثة السابقة (الحديث/ الفقه/ التفسير)، نجد أنّ أسبقها في الأخذ بطريقة التوزيع الموضوعي هو الحديث، تلاه الفقه، تلاه التفسير.

مجموع التدبر الموضعي هل يشكِّل تدبراً موضوعياً؟

عندما يقوم المتدبر بجمع التدبرات الموضعية المتفرقة، ويضعها في مكان واحد، فهـل يعتبـر ذاك تدبراً موضوعياً متكاملاً؟!، أم أنّه يجـب الإلمام بالعلاقة الجامعة بين كلّ الآيات في رؤية موحّدة تتسق فيها المحاور والنقاط، حتى يكون تدبراً موضوعياً؟

وبعبـارة أخرى: هل التدبر الموضوعي عبارة عن جمع للأفكار المتناثرة في التدبر الموضعي، أم أنّه إعادة لبلورة تلك الأفكار ضمن علاقات جديدة ناظمة، ومحاور جديدة جامعة تصنع منها (موضوعاً)؟

وهنـا يمكـن للبعـض أن يتسـاءل: إنّ المتدبـر (أو المفسّـر) الذي سـلك الميدان الموضعي التجزيئي في حال إتمامه لتناول كتاب الله يكون قد قام بدراسة كلّ سور القرآن كاملة ومرتبة، فلماذا – إذاً – نسمي عمله وتفسيره (موضعياً/ تجزيئياً)؟!

وللإجابة على ذلك نقول: إنّ السرّ يكمن في أنّ التسمية بـ (الموضوعي) تنظر إلى الهـدف المتوخـى من البحـث وناتجه لا في الطريقـة المعمول بهـا؛ إذ إنّ المحصلة التي سـيجنيها المتدبر (والمفسّـر) التجزيئي هي مجموعة آراء وتفاسير لسورٍ وآيات لا ترتبط هذه الأفكار مع بعضها في عنوان مشـترك، ولا تتفرع بأسـلوب منطقي، فالناتج هو رؤى متناثـرة كعقـد لؤلؤ منصرم، لا يجمع حباته خيـط، ولا ينظم تبعثرها إطـار؛ لذا فإنّنا حين نطلق اسـم (تدبر أو تفسـير تجزيئي) لا نعني بذلك أنّ القائم به اكتفى بدراسـة جزء ورَقِيّ

(١) المدرسة القرآنية/ ١٥– ١٨.

من القرآن بمقدار ما نقصد أنّ المؤدى الذي سنصل إليه هو آراء مجزأة ومتفرقة.

وإنّنا حين نذكر اسـم (تدبر أو تفسـير موضعي) لا نريد وصمـه بأنّه يبتر المواضع، ويفصِـل مضامينها عن مضامين الآيات الأخرى أو السـياق العام أو الأحاديث الشـريفة، وإنّمـا نريـد الإشـارة إلى أنّ ناتج هذه التأمـلات ما هو إلا نافذة من نوافـذ القرآن، أما بقية البنـاء القرآني من نوافذ وغيرها، فلم يتمّ النظـر إليه، ومن ثمّ فالنظرة الموضعية لا تعكس الصورة المتكاملة للموضوع في القرآن الكريم.

وكذا.. فالتدبر الموضعي ناتجُ دراساته تعطي مجموعة مدلولات متناثرة دون الكشف عن أوجه الارتباط والترتيب المتعاضد الذي يوصله إلى نظرية متكاملة أو تصور واضح.

وهـذه الملاحظـات المتفرّقة لم يُلحظ فيها العلاقة الجامعـة بين الأجزاء (الإطار، المحور، الجامع المشترك)، وينطبق عليها ما قاله الجشطلتيون في نظرية المجال: (الكلّ يختلف عن مجموع الأجزاء).

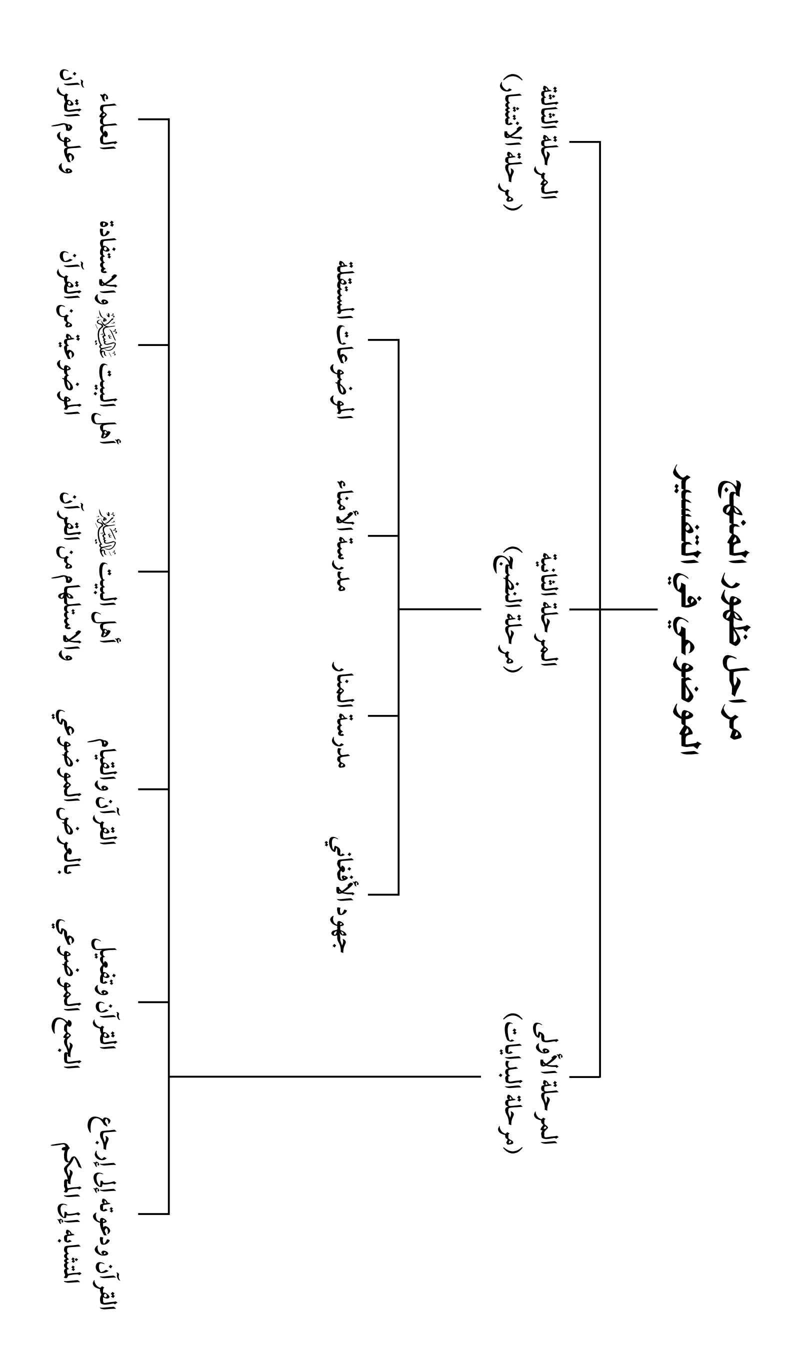
وتلـك الملاحظـات المتفرّقة أشـبه بحديث شـخص عن رأس، وحديثـه – ثانية – عن يد، وحديثه – ثالثة – عن سـاق، دون أن يتحدث عن (الإنسان) المتكامل الأعضاء، والصورة العامة المتكاملة التي تلعبها الأعضاء مجتمعة، التي تبرز الإنسان بوصفه كلاً واحداً متناسقاً.

أو هي أشبه بشخص تكلم عن حجرة، وتكلم – أخرى – عن مطبخ، وتكلم – ثالثة – عن سـاحة، وتكلم – رابعة – عن سـور، لكنّه لم يدرك أنّ الشـيء الذي يتحدث عنه هو (منزل)، وما تلك إلا مرافقه المتنوّعة!!

فالتدبـر الموضوعـي الذي نترقبـه ليس مجرّد لـمّ وجمع لمتفرّقـات الملاحظات الجزئية المتناثرة، وإنّما هو دراسة لموضوع بعد آخر اهتداء بالرؤية القرآنية، بحيث تنتظم الملاحظـات والأفـكار فـي كلّ موضوع ضمن رؤيـة موحَّدة وخيط جامـع، وبهذا يقرّب التدبر الموضعي المسافة للخلوص إلى تدبر موضوعي.

وبعبارة ثانية، فالتدبر الموضوعي ليس مجرّد تراكم عددي لملاحظات جزئية، بل.. هـو محـاور وأفـكار وتفاصيل تدور حـول صلب واحد، إنّـه ليس ملاحظة حـول (العلمية والموضوعيـة) فـي محاججـة النبـي إبراهيـم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومـه فـي الكواكب والأصنـام التي يعبدونها، ولا ملاحظة حول (البرهان) الذي يطالب القرآن به خصوم الرسل، ولا ملاحظة حـول (اللين) في حوار موسـى وفرعـون، ولا ملاحظة حول مبدأ (النصفـة) الذي عامل به النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نصارى نجران، وإنّما هو موضوع قرآني عنوانه (شروط الحوار).

فالتدبر الموضوعي ليس عبارة عن جمع كلّ ما ذُكر من ملاحظات حول (التوحيد فـي القـرآن) في مـكان واحد بعدما كانت موزّعة حسـب ما تقتضيه الآيـات، وإنّما هو أن نقـدّم موضوعـاً حول (التوحيـد في القرآن) يتنـاول العلاقات العامة بيـن الآيات؛ لتتوزّع على محاور مثل: مبرّرات التوحيد، أنواعه، ركائزه، نواقضه، و....



التأصيل الشرعي للتدبر الموضوعي

سبق وأن قلنا: إنّ الهدف من التدبر الموضوعي هو: الوصول إلى النظرية القرآنية أو التصور السليم تجاه الأمور، وأنّ ذاك يستدعي في أحيان كثيرة ترتيب الآيات وفقاً للمبتغى الموضوعي الذي لم يرتب القرآن آياته وفقه، ويستدعي الجمع بين آيات متفرّقة في الأماكن وفي الأزمان وفي الأحداث، فهل هذا العمل صحيح ومبرّر شرعاً؟!، وكيف نؤصل لفعلنا هذا؟!

إنّ أخذنا بالتدبر الموضوعي وممارستنا له مؤسس على أمور، منها:

١- الممارسة المعصومة:

فالقرآن الكريم، والنبي الأكرم، وآله الأطهار، مارسوا عملياً طريقة التدبر (أو التفسير) الموضوعي، فدعا القرآن لردّ آياته المتشابهات إلى المحكم للجمع بينها، واستخراج الرؤية المتكاملة، وردّ العام إلى الخاصّ، والمطلق إلى المقيّد، والمنسوخ إلى الناسخ، والمجمل إلى المفصّل، والغامض إلى المبيّن.

والنبي الأكرم وآله الميامين جمعوا بين آيات متباعدة – نزولاً على النبي وترتيباً في المصحف –، واستخرجوا منها رؤى متكاملة متعاضدة، ومن ذلك ما قدّمناه من أمثلة في فقرتي (أهل البيت والاستلهام من القرآن)، و(أهل البيت والاستفادة الموضوعية من القرآن)، وهذا يثبت مشروعية الفعل.

٢- الوحدة البنائية للقرآن الكريم:

فالقرآن بناء تتكامل مكوّناته كما تتكامل مرافق المنزل، ويتركب من أعضاء وأجزاء

يجمعها كلّ واحد ووحدة عضوية واحدة، وتتوزع فيه الأدوار والوظائف يحكمها نظام واحد، ومن ثمّ فلا غنى لعضو وجزء منه عن الأعضاء والأجزاء الأخرى، كما لا تغني عين الإنسان عن سمعه، ولا تغني رجله عن يده.

ووفقاً لتلك الوحدة البنائية جاء هذا البناء ليحوي المحكم والمتشابه، والعام والخاصّ، والمطلق والمقيّد، والناسخ والمنسوخ، و....، وقد يذكر أحد هذه الأمور في سورة، والآخر في سورة أخرى.

فالقرآن إذا تناول حكماً تكليفياً لا يجمع كلّ ما يتعلق به في مكان واحد، ولا يبحثه في موضع واحد، فقد يذكر الحكم المنسوخ في موضع، والحكم الناسخ في موضع آخر.

وإذا تناول موضوعاً من موضوعات العقيدة أو الكون أو الإنسان أو غيرها، فإنّه لا يتناوله في مكان واحد، فقد يعرض جانباً في موضع، وجانباً آخر في موضع آخر، وقد يذكر سبباً في سورة وسبباً آخر في سورة ثانية، والنتيجة في سورة ثالثة، والنموذج التطبيقي لذلك الموضوع في سورة رابعة؛ لأنّ آيات القرآن مرتبة ترتيب هداية وتربية لا ترتيب فصول علمية وحقول معرفية.

وإذا تناول قصة وحدثاً (كقصة موسى)، فقد يوزعها على سور كثيرة؛ بناء على ما يستدعيه جوّ الهداية في السورة وإطاره ومحدداته، وما يقتضيه الشاهد ومقداره.

ومن ثمّ فالتعرّف على النظرية القرآنية في أمر، أو التصور السليم له، لا يمكن انتزاعها من موضع واحد، وإنّما تستدعي تتبّع مواضعها المنبثة على نحو تكاملي.

وقد ذمّ القرآن أولئك الذين يجزّئونه، ويأخذون ببعضه، ويتركون بعضاً: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[١]، ﴿**كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾[٢].

٣- الإحاطة الشاملة للقرآن:

فالقرآن على محدودية حروفه وتناهيها اللفظي صِيغَ بطريقة إلهية جعلت معانيه

(١) سورة البقرة/ ٨٥.

(٢) سورة الحجر/ ٩٠- ٩١.

غير متناهية، وذات قدرة عظيمة على احتواء كلّ جديد، وقد قال الله - سبحانه وتعالى - عن صفة الشمول هذه: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾[١]، ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[٢]، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما من شيء تطلبونه إلا وهو في القرآن، فمن أراد ذلك فليسألني عنه»[٣].

ومن ثمّ فنحن على قناعة تامة بإمكان معالجة كلّ ما يحتاجه الإنسان - في المجالين المعرفي والتطبيقي - من زاوية قرآنية، وإن يكن ثمة عجز فليس في القرآن وإنّما هو في قدرتنا على الاستلهام منه، وفي هذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله، لكن لا تبلغه عقول الرجال»[٤].

وهذا يعني أنّ القرآن الكريم محيط بكلّ الموضوعات التي تدهم البشرية، وتحتاجها البشرية، مهما استمرّ الزمان، وأنّنا عبر العودة المنهجية للقرآن يمكن أن نجد ذلك، ومن هذا أن نتصيّد ما يتصل بالموضوع ولو تفرّقت أماكن المعالجة والعرض.

٤- محاكاة القرآن الكريم للموضوعات:

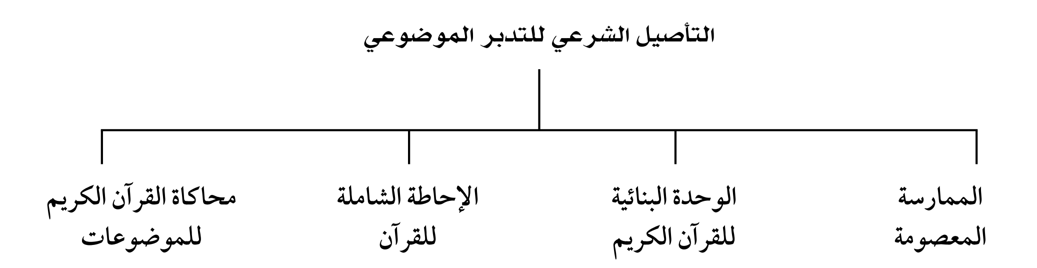
وآيات القرآن مع نزولها في زمن تاريخي محدّد تحكمه عوامل البساطة من حيث رقي العقل والعلم والابتكار، حيث كانت طبيعة الطفولة المعرفية لدى البشر، وحيث كان العرب وإمكاناتهم المحدودة، إلا أنّه قادر على استيعاب أحدث الموضوعات في شتى الجوانب الإنسانية والاجتماعية والطبيعية، ولعلّ واحدة من أهم ما أتاح له ذلك هو مجيئه من الخالق للبشر، العالم بخفاياهم ونفوسهم، والخالق للطبيعة ونظمها، وفوق ذلك العالم بما يخفى على الإنسان من عوالم وقوانين ووجودات لا يبصرها، أي أنّه من قِبَل ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾[٥]، ومما أتاح له ذلك - أيضاً - مرونة الأصول والقواعد فيه، الأمر الذي أمكنه من التفاعل مع التطبيقات والمستجدات.

وحول هذه المحاكاة للموضوعات يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي،

(١) سورة الأنعام/ ٣٨.
(٢) سورة النحل/ ٨٩.
(٣) وسائل الشيعة ١٨/ ١٣٥، الباب ١٣، ح ٢٠.
(٤) بحار الأنوار ٨٩/ ١٠٠، الباب ٨، ح ٧١.
(٥) سورة الرعد/ ٩.

ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»[١].

وهذا يعني أنّنا بحاجة للعودة إلى القرآن الكريم لنقرأ فيه الإجابة على الموضوعات المستجدة في حياة البشر ومعارفهم، وأن نعرض عليه حتى أحدث الموضوعات؛ ليعطي رؤيته فيها، وقد تكون تلك الموضوعات المستجدة بحالة من السعة والعمق والتشعب بحيث تحتاج إلى استنطاق الكثير من مواضعه، وتفعيل أخلاقياته ومقاصده العليا.



(١) نهج البلاغة/ ٢٢٣، الخطبة ١٥٨.

لماذا نمارس التدبر الموضوعي؟

وهنا نتساءل: ما أهمية التدبر الموضوعي؟، وما فائدة القيام به؟، وما المردودات التي تعود علينا منه؟، وما الهدف الذي نرتجيه من ممارسته؟

وللإجابة على هذا التساؤل نشتقّ ثلاثاً من الفوائد التي نجنيها منه:

١- استجلاء الموضوعات القرآنية:

فنحن نحتاج التدبر الموضوعي لاستجلاء الموضوعات القرآنية التي تنير لنا الشؤون الحياتية والأسرية والاجتماعية والكونية وغيرها من القرآن الكريم، لاسيما مع إخفاق كثير من النظم الوضعية والتجارب المعرفية البشرية في وضع حلول لكثير من موضوعات الإنسانية ومشكلاتها، وبذاك يتمّ سدّ شيء من الفراغ الذي تعيشه معظم المجتمعات البشرية، كما يتمّ تجلية جوانب الموضوعات القرآنية الخصبة بتفصيلاتها، مما لا يهيّئه التفسير العام المنصبّ على موضع.

إنّ التفسير الموضعي قد يدرس آية أو آيات أو سورة، لكنّ ذاك سيكون مختزلاً بمقدار تلك المواضع التي يصبّ جهده الدرسي عليها، وضمن أفكار جزئية يقتبسها، بينما التدبر الموضوعي قد يأخذ موضوعاً، ويبحثه على مستوى القرآن الكريم كاملاً؛ ليصل إلى رؤية أكثر تكاملية وشمولية؛ بتعاضد آيات الذكر الحكيم من شتى مواضع القرآن لرفد ذلك الموضوع.

٢- فسح المجال للدراسات التخصصية:

فالتدبر الموضوعي يشرع الباب للدارسين في شتى المجالات والتخصصات؛

لتجليـة مـا يتعلـق بتخصصاتهـم بصـورة أعمـق: فالفقهـاء يسـتطيعون به تسـليط الضوء علـى المباحث الفقهيـة، وأرباب اللغة يدرسـون به الظواهـر اللغويـة والبلاغية، ورجال الاقتصاد يسـبرون به شـؤون المال والتوزيع والإنفاق، ومنتجو الفكـر والثقافة يبرزون به العلـم والمعرفة والحِـراك الثقافي، ورواد الفلك والفيزياء يعرضـون به الجوانب الكونية والطبيعية، وهكذا مع رجال الفلسفة، والسياسة، والقانون، والهندسة، والأحياء، و....

وبهـذا يسـتطيع كلّ ذي تخصـص أن ينطلق مـن القرآن الكريم ليسـبر موضوعات تخـدم تخصصـه، وأن يمتحن المعرفة البشـرية بعرضها على القـرآن الكريم؛ ليرى مدى موافقته أو مخالفته لها، أو تهذيبه وتشذيبه لبعض رؤاها.

وإلى جانب فتحه المجال للتخصصات، فهو - كذلك - يناسب الدراسة الجامعية القائمـة علـى التخصـص في المجـال، والتخصص فـي البحـث والدراسـة، والتي تعنى بالتركيـز أكثر مما تعنى بالانسـياح وتكثير الموضوعات البحثية؛ طلبـاً لنتائج معمقة. كما يناسب مجلات الدراسات، ويناسب المؤتمرات والندوات المعتمدة على تركيز الباحث على نقطة معيّنة يسـتجليها ويبرزها، بدلاً من الخوض في تشـعبات كثيرة تجعل الدراسـة سـطحية، وقـد تتداخـل مـع عناوين أخـرى مقدّمـة ليلقيها باحثـون آخـرون، أو تجهض بحوثهم.

وهـذا يعنـي أنّ عالـم اليـوم المتكـئ علـى (التخصصـات، الجامعـات، البحوث الدراسـاتية المركـزة، النـدوات، المؤتمـرات) أسـهم في انتشـار الاعتماد على التفسـير الموضوعي.

ومن نماذج الدراسات التخصصية التي صدرت في هذا المجال الكتب التالية:

- (الحروف العاملة في القرآن الكريم)، لهادي عطية الهلالي.
- (دراسات فنية في قصص القرآن)، للدكتور محمود البستاني.
- (حركة التاريخ في القرآن الكريم)، لعامر الكفيشي.
- (نظرية العلم في القرآن)، لغالب حسن.

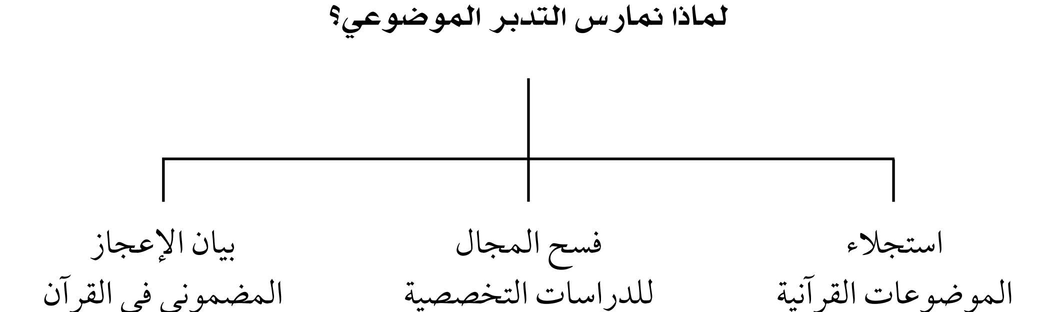
٣- بيان الإعجاز المضموني في القرآن:

فالتدبر الموضوعي يكشف لنا أنّ سرّ الإعجاز القرآني لا يقف عند حدود الإعجاز البلاغي أو التشـريعي أو العلمي أو العددي أو غيرها..، مما تمّ تناوله، بل.. إنّ واحداً من

أسرار إعجازه هو: ضخامة ما يحمله من موضوعات تتناغم مع حركة البشرية ومستجداتها، وهذا يبيّن نوعاً جديداً من الإعجاز القرآني يتمثل في معنى القرآن وحضريته وسعة محتويات موضوعاته التي تعدّ بالآلاف مع أنّه محدود الصفحات (يُحمل في الجيب)، وأتى به رجل أمي في أمة أمية[1].

إنّ النبي الأمي محمداً ﷺ عاش في بيئة صحراوية فقيرة معرفياً، ولكنّ كتابه الذي أُرسل به يتحدث عن موضوعات إنسانية واجتماعية وكونية لا يسفر وجه الزمن إلا عن تأييدها، وقد اعترفت الأمة الإسلامية من موضوعاته لأكثر من أربعة عشر قرناً فلم تنفد خزائنه: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾[2].

وهاهم كثيرون من منظري المسلمين يسترفدون من نهره الطامي لمناقشة الأمور المعاصرة والحديثة فيرفدهم بأجمل الدرر، وفي هذا دلالة إعجازية على أنّ القرآن لم يبتكره محمد ﷺ، وإنّما كان رسالة تلقاها بأمانة، وحفظها بأمانة، ووعاها بأمانة، وأداها بأمانة: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾[3].



(١)- دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم/ ١٦- ١٧.
(٢) سورة الكهف/ ١٠٩.
(٣) سورة النور/ ٥٤.



منطلق التدبر الموضوعي

إزاء جدلية (النصّ/ الواقع)، من أين يبدأ التدبر الموضوعي رحلته ومسيرة انطلاقته؟، هل يبدؤها من النصّ، أم من الواقع؟!، هناك وجهات نظر عديدة محتمَلة للمنطلق، سمّاها بعضهم بـ (أنماط التفسير الموضوعي) [١]، وتلك المحتملات هي:

١- الانطلاق من القرآن إلى الواقع:

فالتدبر الموضوعي بحث وراء مواضيع مطروحة في القرآن الكريم، فالمفسّر «قد يعمد إلى مواضيع طُرحت بذاتها في القرآن، فيُحاول استخراجها واستجلاء أبعادها وحدودها من القرآن»[٢]، وهي الطريقة التي اتبعها الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (مفاهيم القرآن)، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي في (نفحات القرآن)[٣].

٢- الانطلاق من الواقع إلى القرآن:

فهو مسائل معروضة على القرآن الكريم، والمفسِّر - هنا - «يعمد إلى مواضيع هي ضرورات الحياة الحاضرة فيعرضها على القرآن؛ لغرض استجلاء نظرة القرآن بشأنها ومعرفة أبعادها وحدودها منه بالذات»[٤]، وهي الطريقة التي سار عليها الشيخ مصباح اليزدي في (معارف القرآن)[٥].

---

(١) التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب ٢/ ١٠٤٢.
(٢) نفسه ٢/ ١٠٣٧.
(٣) نفسه ٢/ ١٠٤٢.
(٤) نفسه ٢/ ١٠٣٧.
(٥) نفسه ٢/ ١٠٤٢.

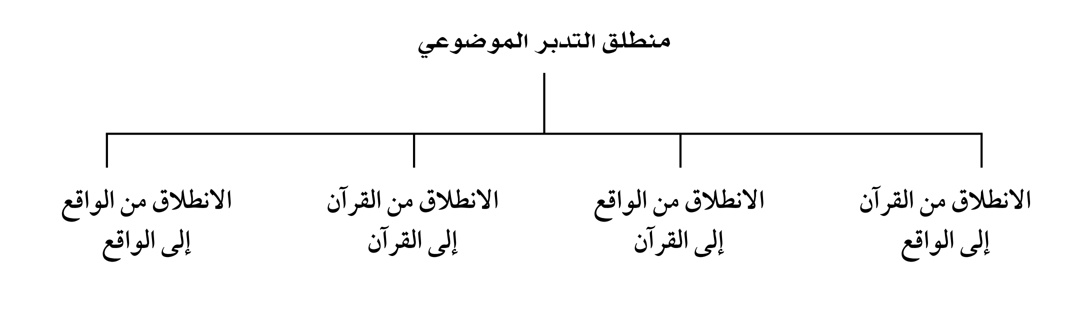
«وقد رجّح السيّد الشهيد الصدر هذا اللون الثاني الذي هو محاولة لفهم وصفة القرآن بشأن معالجة أدواء هي حاضرة الحياة»[١]، وفضّله على الأول الذي يكون بحثاً وراء مواضيع مطروحة في القرآن الكريم. في حين رجّح الشيخ ناصر مكارم الشيرازي الأسلوب الأول[٢].

٣- الانطلاق من القرآن إلى القرآن:

أي أنّ دائرة البحث تكون داخل القرآن فقط، ولا تهتم بمدى الاستفادة من موضوعات الواقع والحياة، لا على نحو كونها منطلقاً للدراسة، ولا على كونها مرجعاً ومرسى لها، وهذا هو القسم الذي سبق أن عبّرنا عنه بأنّه دراسة (مغلقة)، وهو الشائع في تعامل المفسّرين مع القرآن الكريم، ومنه التفاسير اللفظية التي جاءت لتوضيح معاني المفردات القرآنية، كـ (تفسير القرآن الكريم)، للسيّد عبد الله شبّر.

٤- الانطلاق من الواقع إلى الواقع:

أي القيام بدراسة تعنى بموضوع من مواضيع الواقع دون أن تكون لها صلة بالقرآن الكريم، ودون العود له في الاستلهام. وهي - كما هو واضح - خارجة عن دائرة الدراسات القرآنية، وإنّما ذكرناها لاستيعاب أفراد القسمة المعتمدة على متغيّرين (القرآن، الواقع) والتي تقتضي خروج أربعة أقسام منها.



(١) نفسه ٢/ ١٠٣٨.
(٢) نفحات القرآن ١/ ١٩.

مميّزات التدبر الموضوعي

وهنا ينتصب أمامنا سـؤال هام يقول: ما هي مميّزات التدبر الموضوعي؟، وما هي مرجّحاته على الموضعي؟

إنّنـا حين نفضّل التدبر (أو التفسـير) الموضوعي علـى الموضعي التجزيئي؛ فذاك يعود لما يتميّز به الموضوعي من ملامح وعطاءات تفضّله على الموضعي، ومنها:

١- التفاعل مع الواقع الخارجي:

ففـي التدبـر الموضوعي قـد ينطلق المتدبـر من الواقـع الخارجي وما يعـجّ به من نظريات ومعارف وجهود بشـرية، ثمّ ينطلق إلى القـرآن الكريم ليعرض ذلك عليه ليعطي رأيه فيه، ثمّ ينطلق – مرة أخرى – إلى الواقع الخارجي بنتاج بحثه في القرآن الكريم، فهو يحكـي التفاعل القوي مع الواقع الخارجي وما فيه، «فهنا يلتحم القرآن مع الواقع، يلتحم القـرآن مـع الحياة؛ لأنّ التفسـير يبدأ من الواقـع وينتهي إلى القرآن، لا أنّـه يبدأ من القرآن وينتهـي بالقـرآن؛ فتكون عمليـة منعزلة عن الواقـع، منفصلة عن تراث التجربة البشـرية، بـل هذه العملية تبدأ من الواقع، وتنتهي بالقـرآن بوصفه القيّم والمصدر الذي يحدّد على ضوئه الاتجاهات الربانية بالنسبة إلى ذلك الواقع»[١].

وقد يبدأ من القرآن منطلقاً نحو الواقع وما فيه من نظريات بشرية وتجارب؛ ليعرف رأي القرآن فيها.

فهـو في الحالين يربط بين النصّ القرآنـي والواقع الموضوعي، بين الوحي الإلهي والتجربـة البشـرية، وبهـذا يتغلب على الطـرح الفكري المسـتوحي من النـصّ بعيداً عن

(١) المدرسة القرآنية/ ٢٢.

الواقع، والطرح الفكري المستوحي من الواقع بعيداً عن النصّ، ويوجد اللحمة والتكامل بين الوحي والواقع؛ فلا تكون تلك الأفكار (نصّية) تعيش عالم النظرية والمثالية فحسب، ولا (واقعية) تعيش عالم الحصول والفعل، وتخلو من المستند الشرعي والتأصيلي.

أما التدبر الموضعي فقد ينطلق من القرآن إلى القرآن، ولا يربط ذلك بالواقع الخارجي، ولا يعني هذا الكلام أنّ التدبر الموضعي - بالضرورة - ليس فيه ربط بالواقع الخارجي، فحتى هذا النوع من التدبر يمكن ربطه بالواقع الخارجي، غير أنّ ذاك الربط سيكون محدوداً؛ لأنّه يتفاعل مع جزء وموقع لا بسعة الانفتاح التي يحكيها التدبر الموضوعي الذي يشرع دائرة البحث على القرآن الكريم كاملة.

٢- استخلاص النظريات القرآنية:

فالمتدبر هنا يتجاوز الوقوف عند الأبجديات اللغوية، أو التمعن عند المدلولات التفصيلية، وينطلق إلى أفق القرآن الرحب بكلّ أطيافه؛ ليصوغ نظرية تستجمع أعواد الآيات المتفرقة إلى حزمة واحدة متينة ومشدودة بحبل واحد وثيق، فهو يجمع النقاط المشتتة المتفرّقة المتباعدة في نقطة مركزة مجتمعة منصهرة في بوتقة واحدة؛ ليصل إلى حقائق جديدة وأسرار لم يتمّ الوصول إليها بالتفسير التجزيئي، ومن ثمّ كان التدبر الموضوعي هو الأوسع أفقاً والأكثر عطاء.

٣ـ الوصول إلى تصور سليم:

وإذا لم يصل التدبر الموضوعي إلى درجة تشكيل نظرية قرآنية؛ نتيجة لصعوبة الموضوع المطروق، أو تواضع إمكانيات الدارس، أو غير ذلك، فلا أقل من السعي للوصول إلى تصوّر سليم واضح للأمور والأشياء، يتغلب على الغبش الرؤيوي أو التصور الخاطىء لها.

٤- تكامل الرؤية (تلافي التناقضات):

فالتدبر الموضوعي يرى الصورة المتكاملة لآيات القرآن لا جزءاً منها، فيدرك القاعدة العامة باستثناءاتها، يبصر الخطوط العريضة ويتلمس فروعها، فلا يكون بذلك

عرضة للتناقضات، أو مصيدة لاضطراب الأفكار، بخلاف ما لو أخذ الفكرة من موضع فحسب من القرآن، فقد يصل إلى فكرة تناقض فكرة أخرى يستفيدها من موضع آخر، بحيث لو وضع الفكرتين معاً على طاولة واحدة لأمكنه اكتشاف الرؤية التكاملية بين الفكرتين.

فأخذ الصورة والفكرة من موضع، وتعميمها بوصفها النظرة القرآنية، قد يوقعنا في أخطاء جسيمة؛ لأنّ ذاك قد يكون بعض الصورة، والوصول إلى التصور السليم يحتاج إلى جمعها ورفدها بأجزاء الصورة المذكورة في أماكن أخرى من القرآن الكريم.

ومن ثمّ يكون التدبر الموضوعي أدقّ استنتاجاً؛ لما يتوفر في رؤيته وأفكاره التي استخرجها من رؤية متكاملة شاملة.

٥- العمق:

التدبر الموضوعي يسعى لتحصيل أوجه الارتباط بين المدلولات التفصيلية للآيات من أجل الوصول إلى النظرية القرآنية، ويسعى لاقتناص تلك النظرية من القرآن الكريم بأكمله وعدم الاقتصار فيها على مكان وموضع، وإنّما يغوص عميقاً في سبر الدلالات ونظم الآيات في علاقات مشتركة بينها بما يجعلها تتكامل في سبيل الوصول إلى الرؤية الواسعة[1]، وهذا العمق يرفض الاكتفاء بالنظرة السطحية أو الأولية للآيات التي تكتفي بالتفسير اللغوي اللفظي للمفردات.

٦- التجدّد والاستيعاب:

أمام المستحدثات المتلاحقة والموضوعات المتكاثرة، وفي زمن الانفجار العلمي والثورة المعرفية والقرية الكونية وثورة الاتصال، لابدّ للمتدبر أن يواكب الحدث، ويغترف من معين القرآن الذي لا ينضب، حتى يربط المتحوّل بالثابت، ويعطي حكماً للمستجدات، وحتى يرتبط بالواقع ولا تكون دراسته نظرية فحسب، وحتى يعثر على التطبيقات والمصاديق للنماذج القرآنية.

فالمتدبر موضوعياً ينبغي عليه الاستفادة من التجربة البشرية التي تعينه وتمده بمواد

(١) نفسه/ ١١- ١٢.

خامّ غير معالَجة ليعالجها قرآنياً، أو معالجة مسبقاً بأداة بشرية ليحاكمها بالقرآن، فيأخذ السليم، ويذر السقيم، ويوجّه المعرفة والتجربة البشريتين وفقاً للرؤى القرآنية.

فالتدبر الموضوعي هو الأقدر على متابعة الجديد، ومناقشته، وإبداع الرؤى المتعلقة به مما يكتنز في طيات سطور القرآن بعد أن يستنطقها.

٧- الشوط القصير للموضوع:

وحين تكون المقارنة بين أن ندرس موضوعاً ما.. في القرآن الكريم - كما يفعل التدبر الموضوعي في بعض مجالاته -، وبين أن نتدبر موضعياً في القرآن الكريم بأكمله، فسوف تكون المقارنة لصالح البحث الموضوعي، فالتدبر الموضعي - في هذه الصورة - يحتاج إلى وقت طويل لإنهائه، وهذا ما عبّر عنه السيّد الشهيد الصدر بـ (المبرِّر العملي) حين قال: «أود أن أذكر مبرّراً عملياً، وهو أنّ شوط التفسير التقليدي طويل جداً؛ لأنّه يبدأ من الفاتحة وينتهي بسورة الناس، وهذا الشوط الطويل بحاجة من أجل إكماله إلى فترة زمنية طويلة أيضاً»[1].

غير أنّ وجه المقارنة هنا إنّما يصحّ حين نقارن بين (موضوع قرآني واحد) من طرف/ وبين التدبر في القرآن بأكمله من طرف آخر، أما حين تكون المقارنة بين التدبر الموضوعي لموضوعات القرآن/ والتدبر الموضعي للقرآن فسوف يكون الشوط في التدبر الموضوعي أطول بما لا قياس فيه، وحين تكون المقارنة بين (موضوع)/ وبين (موضع) قرآني فقد تميل الكفة حيناً في الشوط للموضوع، وأخرى للموضع؛ حسب طول كلّ منهما ومدى عمقه والتفصيلات المتعلقة به.

وعليه فنحن أمام صور مختلفة من المقارنة يختلف فيها طول وقصر الشوط للموضعي أو الموضوعي، وهي:

أ- مقارنة موضوع قرآني/ بموضع قرآني للتدبر، وقد يكون أحدهما أطول من صاحبه، وليس بالضرورة أن يكون التدبر الموضوعي هو الأقصر.

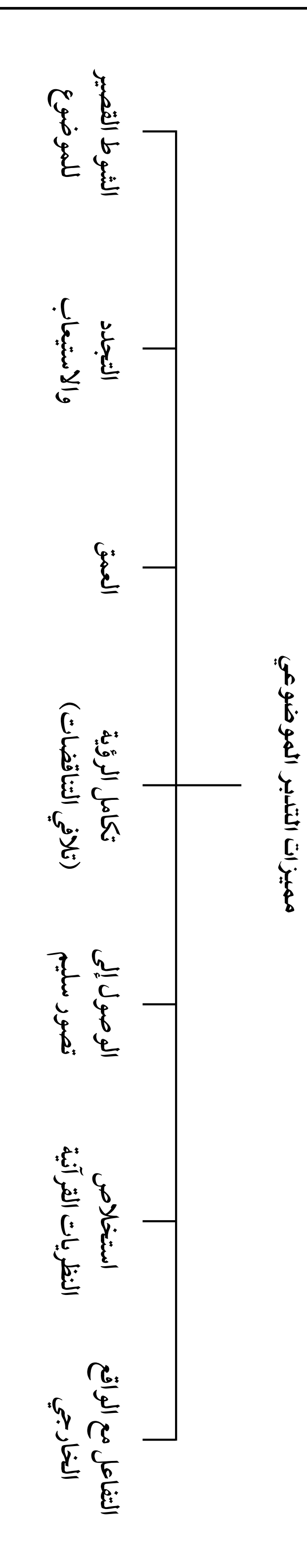
ب - مقارنة موضوعات القرآن الكريم كاملة/ بالتدبر الموضعي للقرآن كاملاً، وسوف يكون التدبر الموضوعي هو الأطول.

ج - مقارنة موضوع قرآني/ بالتدبر في القرآن الكريم بأكمله، وسوف يكون شوط

(١) نفسه/ ٤١.

التدبر الموضوعي قصيراً قياساً لكامل القرآن، وهذا الذي عناه السيّد الشهيد الصدر.

وتجدر الإشارة في ختام هذه النقطة إلى أنّنا لا نقصد من أفضلية الموضوعي إلغاء التجزيئي الموضعي؛ لأنّنا مقتنعون بأهميته، وأنّه طريق للموضوعي، بل نقصد عدم الاقتصار عليه، أو الاكتفاء بالوقوف على أعتابه..، فنحن لا ندعو لإلغاء منهج، بل ندعو لإضافة منهج إلى منهج، وشقّ طريق إلى جانب طريق، وإبداع شكل إلى جانب شكل.


مميزات التدبر الموضوعي
الشوط القصير للموضوع
التجدد والاستيعاب
العمق
تكامل الرؤية (تلافي التناقضات)
الوصول إلى تصور سليم
استخلاص النظريات القرآنية
التفاعل مع الواقع الخارجي

مشكلات التدبر الموضوعي

قلنا عند دراستنا لأسباب شيوع وانتشار التفسير الموضعي: إنّ واحدة منها هي (مشكلات التفسير الموضوعي). فالتفسير الموضوعي تعترض طريقه مجموعة من المشكلات أدت إلى تأخر ظهوره وانكماش تطبيقاته وتنظيراته، ومن أهم المشكلات التي تعترض مسيرته:

١- المــــدة:

فالوقت الذي يستهلكه التدبر الموضوعي - غالباً - أكثر مما يستهلكه التدبر الموضعي، فالبحث عن الكلمات المفتاحية، والتنقيب عن الآيات المتحدثة عن الموضوع، والاستفادة من الروايات الشريفة المساندة وغيرها من النقاط المنهجية تستهلك مدة أطول؛ لأنّ البحث الموضوعي لا يقتصر - غالباً - على مقطع صغير أو محدّد (آية أو آيات أو سورة)، وإنّما يستهدف بحث الموضوع في القرآن الكريم بأكمله، وفق علاقات بحثية جديدة.

وحين قلنا - قبل قليل -: إنّ شوط التدبر الموضوعي قصير وشوط الموضعي طويل قصدنا به: زمن تناول موضوع واحد في الموضوعي في قبال زمن تناول القرآن الكريم موضعياً، فتناوله كاملاً موضعياً يحتاج إلى وقت أطول من تناول موضوع واحد فيه.

أما حين نقارن بين تناول موضع (مقطع) - سواء أكان آية أم سورة أم جزءاً من سورة - بـ(موضوع)، فسنجد - غالباً - أنّ الموضوع يستهلك وقتاً أطول مما يحتاجه التدبر الموضعي، وأنّ شوط التدبر الموضوعي طويل، وشوط التدبر الموضعي قصير!!

وقلنا: (غالباً)؛ لأنّا ندرك أنّ القضية نسبية تختلف حسب المتناوِل (الأشخاص)،

والمتناوَل (المقطع/ الموضوع)، وطريقة التناول (مختصر/ مفصّل)، ومنهج التناول (وصفي/ تحليلي/ مقارن). فقد يسهل على شخص التدبر الموضعي وعلى آخر الموضوعي، وقد يكون المتناوَل مقطعاً طويلاً في قبال موضوع قصير، أو العكس، أو يكونا متساوين، وقد تكون طريقة التناول للموضعي مختصرة في قبال تناول موضوعي مفصّل أو العكس، وقد يتمّ تناول الموضعي وصفياً في قبال تناول الموضوعي تحليلياً أو مقارنياً، أو العكس.

فلو تمّ تناول الموضعي بالمنهج المقارن، وعُملت موازنة بين التفاسير في سورة قرآنية، فلربّما سيكون الأمر أطول من القيام بدراسة موضوع قرآني.

فالمسألة نسبية، ليست حدية صارمة مطلقة.

٢- الجهد:

فالتفسير الموضوعي ليس مجرّد الوقوف عند آية أو سورة، والتعرّف على معنى مفرداتها أو الجانب المفهومي فيها، أو استخراج بعض الأفكار والرؤى منها، بل.. ولا يقف عند حدّ جمع الروايات المتعلّقة بها، أو أقوال بعض العلماء فيها، وإنّما يسعى لاكتشاف علاقات جديدة ناظمة بين الآيات، توحّد الآيات المتباعدة في سلك واحد هو بمثابة العنوان الجامع أو المحور المشترك، ومقارنته بتراكم معرفي وتجارب متطاولة في دنيا البشر.

ومن ثَمّ فالعمل الذي يصرفه المتدبر الموضوعي يفوق بأضعاف مضاعفة ما يبذله المتدبر الموضعي، فحتى نقوم - مثلاً - بدراسة سورة معيّنة سنبذل تعباً ما.. وطاقة ما..، ولكن أن نتتبع موضوع (الحوار في القرآن الكريم) [1]، ونصوغه على شكل نقاط منهجية، فنكتشف أنّ الحوار القرآني يعقد تارة بين المؤتلف والمؤتلف كحوار الله مع الملائكة، وتارة أخرى بين المؤتلف والمختلف: كحوار الله مع إبليس، وتارة ثالثة بين المختلف والمختلف: كحوار فرعون مع السحرة قبل إيمانهم، وأنّ له آداباً وأسباباً وشروطاً ونتائج ومعوّقات و....، إنّ استكمال البحث بمثل هذه الشاكلة يحتاج لجهد أشد، وتعب أضنى.

---

(١) هناك كتاب بعنوان (الحوار في القرآن)، للسيّد محمد حسين فضل الله.

٣- الدقة:

فالتفسير الموضوعي يحتاج إلى دقة في معرفة الكلمة التي سنلج منها إلى البحث القرآني – خصوصاً حينما تكون تلك اللفظة حديثة غير مذكورة بلفظها في القرآن الكريم –، ويحتاج إلى دقة في تصيّد الآيات الدالة على الموضوع، ودقة في التعامل معها تحليلاً وتركيباً، ودقة في الفرز والتبويب، ودقة في التصنيف والتقسيم، ودقة في الاستنتاج.

٤- الربط:

إذ كثيراً ما تصادفنا آيات تبدو للوهلة الأولى أنّها متعارضة (تعارض بدْوِي أوَّليّ)؛ لذا فنحن بحاجة لمزيد من الدقة لمعرفة أيّها الخاصّ وأيّها العام؟، وأيّها المطلق وأيّها المقيِّد؟، وأيّها الناسخ وأيّها المنسوخ؟، وأيّها السابق وأيّها اللاحق؟، وأيّها السبب وأيّها النتيجة؟، وما الربط بين المذكور في سورة والمذكور في أخرى؟، هل هو إعادة له، أم هو سبب آخر؟، أم تفصيل لجزئيات سبب أو نتيجة؛ وهذا كلّه لنتمكن من الربط بينها في سلاسة، إنّه أمر لا يمكن تمييزه وفعله في لمحة بصر!!

٥- السعة:

فالقرآن الكريم تناول الكثير من الموضوعات، وتناول الموضوع الواحد من جهات عدة، أي أنّ مقصودنا من (السعة): سعة الموضوعات القرآنية، فهو لم يقتصر على الجانب التشريعي (بتفاصيله)، بل امتد للجوانب الإنسانية والطبيعية والكونية.

٦- المعرفة:

فقبل الخوض في أغوار دراسة موضوعية معيّنة ينبغي استيفاء الإطلاع على الإسهامات المعرفية المقدّمة فيها بشكل لائق، فحينما نريد استخلاص نظرية تدور حول: (الإرهاب الفكري: قراءة قرآنية)، فنحن بحاجة مسبقاً للتعرف على مفردة (الإرهاب) وما هو المقصود منها بالضبط؟، ثمّ نتعرّف على أنواعه، و(الإرهاب الفكري)، ومن ثمّ تتبّع خطوطها العريضة، والغوص بانسياب في تفاصيلها الدقيقة إن كنّا نروم استنتاج رؤية متميّزة من ثنايا القرآن الكريم.

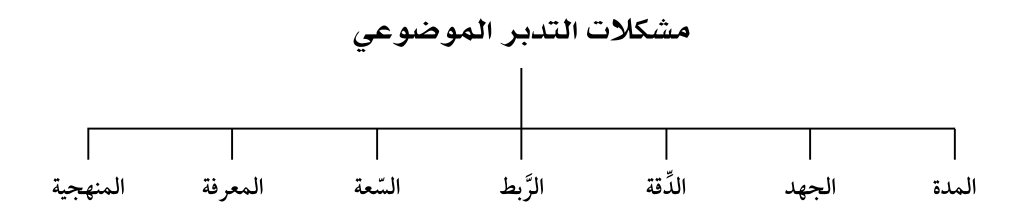
فمـدى النتيجة التي سـنصل إليها من خلال القيام بدراسـة لموضـوع ما في القرآن الكريم تتوازى بشـكل طبيعي مع مسـتوى المعرفة عند الباحث ومقـدار التراكم المعرفي الذي يقدّمه بين يديه قبل الشـروع في الدراسـة القرآنية، ومن ثمّ قد يتناول شخصان - كلٌّ علـى انفراد - موضوعاً قرآنياً واحداً، لكنّ مدى عمق الناتج سـيكون مختلفاً جداً بينهما؛ إذ ربّما لا يصل أحدهما حتى إلى مستوى لملمة الأفكار الظاهرة، بينما يغوص الآخر إلى أعماق الأعماق.

وبعبارة أخرى، فإنّ مستوى التأملات الموضوعية التي يخرج بها المتدبر أو المفسّر تتأثر بمستواه الثقافي ومدى ما يختزنه في ذهنه من معارف، وما يضعه بين يدي القرآن قبل الشروع بعملية البحث والاستقصاء.

والسـبب في هذا: أنّ التدبر الموضوعي (أو التفسـير الموضوعـي) يدمج المعرفة البشـرية بالقـرآن الكريم، وليس دراسـة مغلقـة تبدأ بالقـرآن وتنتهي به وتظـلّ داخله. إنّه يريـد أن يعـرض تلك المعرفة بيـن يدي القرآن ليعطي القرآنُ رأيَه فيهـا: قبولاً أو رفضاً أو تشذيباً.

٧- المنهجة:

والاتجـاه الموضوعـي - حتى يؤتـي ثماره رائقـة زاكية - يتطلب مـن القائم به أن يكون منهجياً؛ ليحسن وضع الأسئلة، ويحسن الاستنتاج، ويحسن توزيع الموضوع على محـاور ونقاط، ويحسـن ترتيب النقاط والمحـاور: أيّها قبل وأيّها بعـد؟، إنّه ليس مجرّد تراكم نقاط بأيّ حال وبأيّ شـكل اتفق، وليس عرضاً للأفكار بحسب تسلسل الآيات في المصحف الشريف والسور.



أوجه الاختلاف بين المنهجين: الموضعي والموضوعي

وإذا كنّا فيما مضى قد تطرقنا للمنهجين الموضعي والموضوعي كلاً على حدة، فسوف نسعى هنا لعقد مقارنة بينهما؛ لنبصر شيئاً من سمات الاختلاف والافتراق بينهما:

١- المتلقي السلبي والمتلقي الإيجابي:

المتدبر الموضعي عادة ما يكون متلقياً سلبياً[١]، يبدأ من النصّ وينتهي إليه دون أن يصهر الاحتياجات المتجددة في الزمن الحديث بقالب الآيات القرآنية، فهو يحكي لنا ما يريده القرآن تفسيرياً وحسب، فيزيل الغموض المتكلس على الألفاظ، ويستوفي الشرح في معاني الكلمات.

وعلى الطرف الآخر يكون المتدبر الموضوعي إيجابياً، يبدأ من ملابسات الواقع؛ ليعثر لها على معالجة قرآنية، إنّه يذهب للآيات محمّلاً برؤى وأفكار، بهموم وقضايا، ثمّ يسكبها بأجمعها في نهر القرآن، يحاوره ويناقشه؛ لترشده الآيات للصواب، وتهديه درب الفوز والرشاد. أو يبدأ من آيات القرآن ويتجه نحو الواقع وما فيه من أفكار ومواقف وغيرها؛ ليرى مدى تطابقها مع القرآن الكريم. أي أنّ نقطة الانطلاق فيه قد تكون من القرآن، وقد تكون من الواقع، لكنّ من يقوم بها في الصورتين لا يقبل أن يكون مجرّد مصغ ساكن، وإنّما هو محاور مستزيد.

---

(١) المقصود من (السلبي) – هنا –: من يمثل دور المتلقي المصغي فحسب، دون أن يكون محاوراً للنصّ، و(الإيجابي): هو من لا يكتفي بدور المتلقي فحسب، بل يحاور النصّ، ويلقي عليه الأسئلة، ويتجاذب معه أطراف الكلام.

وقد نستوحي من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»[١]. نستوحي دلالة تشير إلى طريقة التعامل مع القرآن بأن نعرض عليه مشاكلنا العصرية وقضايانا المستجدة ثم نستنطقه عن الجواب الشافي ليلهمنا الدواء الناجع.

ومن هنا نرى أنّ من متطلبات المتدبر الموضوعي أن يكون منفتحاً على الزمان والمكان، على الإنسان والحياة والطبيعة والكون بمتغيّرات ذلك كلّه، متابعاً ومطلعاً على التجدد الفكري والتجارب المعرفية البشرية والمتطلبات العصرية، وليس مثل مقابله الذي تحدّه – في الغالب – الظرفية (الزمكانية) التي نزل فيها النصّ، والمحدودية الفكرية، والاهتمام اللفظي.

ونرى أنّ المتدبر التجزيئي – في الأغلب – قد يتشرنق بشيء من الدلالة التي صُبغت بها زمن النصّ، حيث يبدأ بالقرآن وينتهي به في انعزال تام عن الواقع البشري، أما المتدبر التوحيدي فهو (عارف بزمانه) وثقافته وأحداثه، يعرض كلّ معرفة عنده وكلّ متغيّر على دستور الحياة الخالد: القرآن الكريم؛ ليستلهم البصيرة الواعية والفكر الحيّ والموقف الرشيد، دون أن يحمِّل القرآن ما لا يحتمل، أو يلوي عنق النصّ ليفضي إلى المستجدات الراهنة في قسر وإجبار.

وبهذا يكون التدبر الموضوعي دراسة (منفتحة) تبدأ من الواقع الخارجي والمعرفة البشرية ماضية نحو القرآن الكريم، أو تبدأ من القرآن الكريم ماضية نحو الواقع الخارجي والمعرفة البشرية؛ لتقوم – في كلا الصورتين – بعملية الهضم والاستيعاب والمناقشة للفكر والمعطى البشري: تراثاً ومنجزاً، نظريات واكتشافات وتجارب، بينما قد يكون التدبر الموضعي دراسة (منغلقة) تبدأ بالقرآن وتنتهي به.

والواقع أنّنا حين نصف دور المتدبر الموضعي بأنّه (منغلق/ سلبي) نقصد بذلك ما هو مألوف في أكثر كتب التفاسير والمتّبع في طريقة العرض التقليدية لدى أغلب الكتّاب والمؤلفين، ولذلك نسعى أن نقرن ذلك بكلمات مثل (في الأغلب) (وغالباً)، و(قد)؛ حتى لا نقع في مطبّ الأحكام التعميمية والإطلاقات، ولذلك لا ننفي أنّ بعض ما أُلف في كتب التدبر الموضعي التجزيئي وممارساته العملية صار يشترط (التطبيق الخارجي) و(الربط بالواقع) و(الإلمام الثقافي) واحدة من أهم خطواته ومنهجه، كما لا ننفي وجود كتب وتفاسير صدرت مؤخراً وتسعى جاهدة لرفد مادتها ومحتواها بالتطبيقات

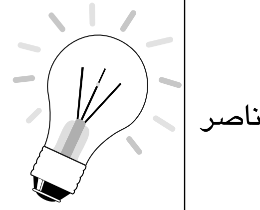
(١) نهج البلاغة/ ٢٢٣، الخطبة ١٥٨.

الخارجية.

يقول السيّد محمد تقي المدرسي:

«عندما نعقد العلاقة بين القرآن وبين واقعنا المعاش سنكون أعمق فهماً للواقع، وأعمق إدراكاً للقرآن في نفس الوقت، فعملنا هذا يشبه إلى حدّ كبير أن نعطي فكرة ثمّ نضرب مثلاً لها، فحينئذ تصبح الفكرة أكثر وضوحاً، كما أنّ المثل - بدوره - سيصبح واضحاً.

وإذا ما أردنا أن نستفيد حقاً من القرآن الكريم بالنسبة إلى الواقع الخارجي فإنّ علينا أن ندرس الواقع الموضوعي كلّه، فكما قلنا فإنّ الآيات القرآنية يجب أن تُدرس من خلال السياق، وكذلك الحال بالنسبة إلى الواقع الموضوعي فإنّنا يجب أن ندرسه من خلال سياق التأريخ له»[1].



زوايا مثلث الإبداع

للإبداع ثلاثة عناصر أساسية:

الأول: المبدع: وهو -هنا- (الله).

الثاني: النصّ: وهو - هنا -: (القرآن).

الثالث: المتلقي: وهو - هنا -: (الناس)، وهو العنصر الهام في دراستنا، والذي نريد تفعيله وتنشيطه، وإلا فالعنصران الأولان فاعلان بمنتهى الحيوية.

وهكذا فإنّ مشكلة السلب والإيجاب لا تكمن في الله - تعالى - وأنّه لا يهتم بالبشر ومتغيّراتهم وحاجاتهم، وليست في القرآن الذي أبدعه فجعله يفيض بالأنهار المترعة، وإنّما تكمن في دور الإنسان ومدى فاعليته تجاه النصّ، ومستوى قدرته على الاستفادة المثلى منه في واقعه المتحرّك واهتماماته الضخام.

٢- المدلولات التفصيلية والمدلولات العامة:

من خلال النقطة السابقة نتوصل إلى أنّ القارئ الموضعي (التجزيئي) يكتفي - عادة - بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات، فينقل الأحداث، ويزيح ستار الغموض، فحين يتأمل سورة أو مقطعاً سينقلنا من حدث لآخر، ومن دراما إلى دراما أخرى، ومن شاهد لغوي إلى نكتة عقدية، مفصّلاً أدقّ الجزئيات، كلّ شيء باسمه، وكلّ طيف بلونه،

(١) السيّد محمد تقي المدرسي، القرآن حكمة الحياة/ ٧٠.

كلّ ذاك على نحو من الأفكار والملاحظات المتناثرة التي لا تجمع بينها رؤية واحدة وجامع مشترك.

غير أنّ المتدبر الموضوعي يتجاوز ذلك إلى صياغة مركب نظري قرآني (نظرية قرآنية تنتظم فيها التفصيلات كلٌّ في مكانه)، (تصور قرآني سليم وواضح للموضوع)، فحين الحديث عن شخصية الحاكم السياسي في القرآن الكريم، سيتمّ الاستفادة من صورة عادلين حكموا كذي القرنين والنبي داوود والنبي سليمان والنبي محمد، وصورة ظلمة حكموا كنمرود وفرعون، ومن تفاصيل القصص والأحداث والمواقف والأقوال و....؛ لاستخراج نظرية عامة للموضوع.

م	المتدبر الموضعي	المتدبر الموضوعي
١	متلقي سلبي	محاور إيجابي
٢	يسرد ويفصّل	يصوغ ويركّب

التدبر الموضعي والتدبر الموضوعي: أيهما يحتاج إلى الآخر؟

الإجابة هي أنّ كلا الشكلين يفتقران لبعضهما البعض:

فالتدبر الموضوعي (التوحيدي) يحتاج للموضعي (التجزيئي) في توضيح المفاهيم اللفظية، والمدلولات التجزيئية، والزوايا الفرعية التفصيلية؛ ليقوم التدبر الموضوعي بوضع اللبنة المناسبة في الموقع المناسب من الموضوع البحثي؛ لذا قد يُعتبر التدبر التجزيئي بذوراً ينطلق منها المتدبّر للخلوص إلى نظرة توحيدية للقضايا.

فالتدبر الموضعي يقوم بعمل تحليلي/ تفكيكي للنصّ يكثف فيه الضوء على الفروع والتفاصيل واستجلائها، ومنها ينطلق التدبر الموضوعي إلى القيام بعمل تركيبي/ بنائي يعتمد على إعادة تشكيل تلك التفاصيل وفق علاقات جديدة ورؤية كلية للموضوع.

والتدبر الموضعي (التجزيئي) يفتقر للموضوعي (التوحيدي) في معرفة الرؤية الأكبر للأمور، بدلاً من الاكتفاء بزاوية ضيّقة حرجة، وتلك الرؤية الأكبر تفيده في معرفة رؤية قرآنية كلية للموضوع، وعدم الاكتفاء بعرض الجزئيات مبعثرة، أو تصويرها بوصفها مطلقات فكرية للرؤى القرآنية.

ولنفترض أنّنا ندرس قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1]، وتعرّفنا ـ عبر التدبر الموضعي ـ على دلالة ﴿**إِنَّمَا**﴾ على الحصر، ومعنى (الولاية)، وأنّها جاءت بصيغة المفرد ﴿**وَلِيُّكُمُ**﴾ مع أنّ المشمول بها ثلاثة هم ﴿**اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ**﴾؛ لإثبات أنّها ولاية واحدة لها مستويات، ومن ثمّ فالإفراد هنا أدقّ من الجمع (أولياؤكم)، وتعرّفنا على المقصود من ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ وهل هم عموم المؤمنين، أم أئمة أهل البيت عليهم السلام، أم أمير المؤمنين عليه السلام؟، كما تعرّفنا على المقصود من ﴿**وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾، وهل المقصود منها: وهم

(١) سورة المائدة/ ٥٥.

خاشعون، أم وهم منحنون للركوع في الصلاة، إلى غير ذلك..

سنرى أنّ التدبر الموضعي أعطانا ثراء جميلاً للمدلولات التفصيلية للآية، وقد يتلقف التدبر الموضوعي منه ذلك، ويطرح سؤالاً مركزياً عاماً مؤداه: ما مراتب الولاية في القرآن الكريم منطلقاً من هذه الآية؟

وقد نصل إلى أنّ الولاية في القرآن المجيد لها ثلاث مراتب هي:

١ـ الولاية الذاتية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ﴾:

وهي ولاية الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وتُسمّى - كذلك - (الولاية الأصلية) أو (ولاية الآصال)؛ لأنّها الأصل والمصدر للولاية، والأسّ الذي تتفرّع منه المراتب الأخرى للولاية.

فالأصل يقتضي (أنّ لا ولاية لأحد على أحد)، ثمّ تُخصَّص هذه القاعدة العقلية العامة بمخصّصات عقلية أخرى تقضي بولاية الله على البشر؛ لأنّه الخالق، فله الولاية على خلقه، ولأنّه المنعم، فله ولاية على من أنعم عليهم، وشكر المنعم التام يقتضي تلك الولاية، ولأنّ البشر (ممكن الوجود)، ووجوده متقوّم بوجود الباري تعالى (واجب الوجود)، ولا وجود استقلالي للممكنات دون الواجب، فهو وليّها والقائم عليها، ولأنّه لابدّ من حفظ النظام، ولابدّ من سائس وولي يسعى لاستخراج القانون الأصلح للمجتمع وتنفيذه، والعقل يحكم بضرورة هذا لكي يتعايش الناس، وتسير أمورهم، كما يحكم أنّ الله العارف بشؤون البشر هو الأولى أن يضع لهم ذلك النظام والتشريع.

ومن ثمّ فهناك أربعة مخصّصات عقلية تثبت ولاية الله، وهي:

أ - الخالقية.

ب- شكر المنعم.

ج - قيمومة الممكن بالواجب (الأصل الفلسفي).

د - حفظ النظام[1].

والآية الشريفة تشير إلى هذه الولاية الأصلية لله.

---

(١) الشيخ علي آل موسى، (السلطان والمجتمع: بحث فقهي في آلية التعامل)، تقرير لبحوث الشيخ عبد اللطيف الشبيب رحمه الله، مجلة (البصائر)، العدد ٢١، السنة التاسعة، خريف ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ١٢- ١٥.

٢- الولاية الامتدادية: ﴿وَرَسُولُهُ﴾:

وهـي ولاية مـن افترض الله ولايته على العباد، وتُسـمى - أيضـاً - (ولاية التبع)، و(الولاية التبعية)؛ لأنّها امتداد وتبع لولاية الله.

فمن ولاية الله تنشأ الولاية لمن منحه الله إياها على العباد، وهنا تقع ولاية الرسل والأوصياء، ومنها ولاية الرسول ﷺ التي هي امتداد وفرع لولاية الله تعالى، وإذا قلنا: إنّ المقصـود مـن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ هم أئمة أهل البيت عليهم السلام، فسيكونون عليهم السلام من الداخلين ضمن الولاية الامتدادية، وسنبحث عن مثال قرآني شاهد للولاية الاعتبارية.

٣- الولاية الاعتبارية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾:

وهـي ولايـة من سـنّ اللـه والمعصـوم ولايتـه (ولو في بعـض شـؤون ومتعلقات الولاية)، كولاية المؤمنين على بعضهم، وولاية الآباء على الأبناء.

وإذا فسّـرنا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُـواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّـلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ بمعموم المؤمنين، فسـيكون هذا شـاهداً لهذه الولاية الاعتبارية، وإذا فسّـرناه بأئمـة أهـل البيـت عليهم السلام وأدخلنا ذلك فـي الولاية الامتدادية، وفتشـنا عن مثـال للولاية الاعتبارية (ولاية المؤمنين عموماً) فسنقف عند مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وإلـى جانب أنّنا اسـتفدنا من التدبـر الموضعي في الوصول إلـى رؤية موضوعية، سنرى أنّ هذه الخطوط الثلاثة للولاية تمثل مساراً قرآنياً عاماً كثر ذكره في القرآن الكريم على نحو ذكر مراتب الولاية في آية واحدة أو في آيات متفرّقة، ومن ذلك:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُـولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَـنُ تَأْوِيلاً﴾[2].

---

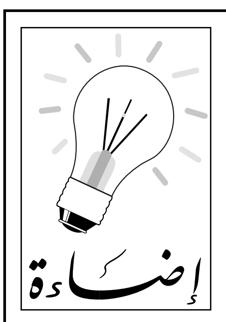
(١) سورة التوبة/ ٧١.

(٢) سورة النساء/ ٥٩.

- ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾[1].

- ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[2].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[3].



التفسير التجزيئي والتفسير التوحيدي عند السيّد الشهيد الصدر[4]

- الاتجاه التجزيئي في التفسير:

« المنهج الذي يتناول المفسّر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية، وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف » .

- حصيلة تفسير تجزيئي:

« مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية،عدد كبير من المعارف والمدلولات القرآنية ولكن في حالة تناثر وتراكم عددي » .

- الاتجاه الموضوعي في التفسير:

« هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية.... في القرآن الكريم » .

---

(١) سورة البقرة/ ٢٥٧.
(٢) سورة الأحزاب/ ٦.
(٣) سورة الأنفال/ ٧٢.
(٤) راجع: السيّد الشهيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، إعداد وترتيب: الشيخ محمد جعفر شمس الدين/ ٢١- ٢٢.

- هدف التفسير الموضوعي:

«تحديد موقف نظري للقرآن الكريم - وبالتالي للرسالة الإسلامية - من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة والكون».

- الدراسة الموضوعية:

«تطرح موضوعاً من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده».

- المركب النظري القرآني (النظرية):

«يكون معبِّراً عن موقف قرآني تجاه موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية».

- الموضوعية:

«تبدأ من الموضوع، من الواقع الخارجي، من الشيء الخارجي، وتعود إلى القرآن الكريم. تختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد يقوم بعملية توحيد بين مدلولاتها من أجل أن نستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع».

- منطلق التفسير الموضوعي:

«يبدأ من الموضوع الخارجي، وينتهي إلى القرآن الكريم..، يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد».

- التفسير التوحيدي:

«يوحّد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم..، يوحِّد بين مدلولات الآيات ضمن مركب نظري واحد».



ت١: أضعُ علامة (✓) أمــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- (الجمع الموضوعي) بين الآيات منهج ابتكره العلماء ولم يستخدمه المعصومون. ( )

ب - سبقت الكتابة الموضوعية في الفقه أختها في التفسير بأكثر من ألف سنة. ( )

ت٢: هــل بالفعل هناك تأصيل للاتجاه الموضوعي في التفســير أم أنّه مجرّد هرطقة عصرية؟!، أوضِّحُ ذلك.

ت٣: (لا حاجة لنا للتدبر الموضوعي؛ لأنّ أهل البيت عليهم السلام لم يقوموا به ولم يحثوا عليه).. ما رأيي في هذه العبارة؟

ت٤: هــل نوافق على تســمية الاجتهادات الموضوعية في تفســير القرآن في القرن العشــرين الميلادي على أنّها بداية (مرحلة النضج)، بينما نطلق على دعوة القرآن بإرجاع المتشابه إلى المحكم، واستلهام أهل البيت من القرآن، وكذلك جهود العلماء التابعيــن لهم والممتدة لقرون طويلة بأنّها (مرحلة البدايات)؟!

ت٥: من وجهة نظري أيّهما أفضل في التدبر الموضوعي: الانطلاق من الواقع إلى النصّ (القرآن)، أم الانطلاق من النصّ إلى الواقع؟!، مع التعليل.

ت٦: حين نصف التدبر الموضعي بأنّه غير موضوعي، ألا نكون بذلك نشــك في نوايا الآخرين بوصمنا لهم أنّهم غير نزيهين وغير موضوعيين؟!

ت٧: يرى البعض أنّ من أهم متطلبات المنهج الموضوعي في مقابل الموضعي هي: الدقة، الجهــد، المعرفة.. أليس هذا تحامل على المنهج الموضعي، وكأنّنا نصفه بأنّه خالٍ من هذه الأمور؟

ت٨: لماذا لا نعدّ مجموع التفسير الموضعي تفسيراً موضوعياً؟

ت٩: إن كان هنــاك ادعاء بأنّ التدبــر الموضوعي أفضل بكثير من الموضعي، فلماذا لم ينزل القرآن موضوعياً وإنّما نزل منجّماً موضعياً؟!

أقسام التدبر الموضوعي

ينقسم التفسير الموضوعي إلى قسمين، هما:

١- التفسير الموضوعي التجميعي:

«التفسير الموضوعي التجميعي قسم من منهج التفسير الموضوعي العام، يستهدف سبر أغوار الموضوعات القرآنية من خلال القرآن كلّه، عن طريق تكوين شبكة علاقات بين النصوص للخروج بتصوّر حول الموضوع أو نظرية فيه»[١].

وسُمي (تجميعياً)؛ لأنّ صاحبه يقوم بجمع الآيات القرآنية المتفرّقة في القرآن كلّه؛ ليركب منها موضوعاً جديداً، فهو تجميعي تركيبي[٢].

فهو منهج يستدعي القيام بعملية (استقرائية) تتتبّع الآيات التي تحدثت عن الموضوع الذي يُزمع درسه، وجمعها.

وهذا القسم هو الأشهر من بين القسمين، وأكثر الذين تحدثوا عن التفسير الموضوعي كان في أذهانهم هذا القسم، بحيث غدت كثير من تعريفاتهم لا تكاد تنظر إلا إلى هذا القسم، فانسحب المستوى التطبيقي الذي يبصرونه على المستوى النظري والتعريف الذي قدّموه للتفسير الموضوعي.

وفي التفسير الموضوعي التجميعي تندرج المجالات التالية:

أ - دراسة (موضوع) في القرآن الكريم.

---

(١) مناهج التفسير الموضوعي، وعلاقتها بالتفسير الشفاهي/ ١٧.

(٢) التفسير الموضوعي: نظرية وتطبيقاً/ ٦٥.

ب- دراسة (مصطلح) في القرآن الكريم.

ج- دراسة (أداة) في القرآن الكريم.

د - دراسة (أسلوب) في القرآن الكريم.

لأنّ الجامع المشترك بينها جميعاً هي أخذ شيء ودراسته على مساحة القرآن الكريم كاملاً، و(تجميع) الآيات التي تناولته، والخروج برؤية وتصور من خلالها.

٢- التفسير الموضوعي الكشفي:

التفسير الموضوعي الكشفي قسم من التفسير الموضوعي العام، «يستهدف سبر أغوار السور القرآنية؛ لكشف وحدتها الموضوعية، والوقوف على تصوّر سليم للموضوع الذي تعبّر عنه»(١)، أي أنّ صاحبه يهدف اكتشاف وحدة الموضوع في السورة الواحدة(٢).

فهو لا يدرس الموضوع على امتداد القرآن الكريم، وإنّما يدرس (سورة) واحدة، ليكتشف الوحدة الموضوعية فيها.

بيد أنّ هناك مَن يُجريه على (دراسة موضوع في سورة)، أو دراسة موضوع في مجموعة من الآيات، أو آية مباركة (المقالة التفسيرية)؛ ومن ثمّ يمكن أن يُدرج تحت التفسير الكشفي المجالات التالية:

أ- دراسة (سورة) قرآنية.

ب - دراسة (موضوع في سورة قرآنية).

ج - (المقالة التفسيرية): وهي تتناول فكرة أو موضوعاً من خلال آية أو آيات.

وقد نشأت تسميات عديدة له:

أ- فيُسمّى بـ(التفسير الكشفي)؛ لأنّ صاحبه يهدف لاكتشاف وحدة الموضوع في السورة، فهو تحليلي كشفي بخلاف الموضوعي الجمعي، الذي هو تجميعي تركيبي(٣).

ب - ويُسمّى بـ(التفسير السوريّ)؛ لأنّه يدرس السورة القرآنية بوصفها وحدة

(١) نفسه/ ١٢٤.

(٢) نفسه/ ٦٥.

(٣) نفسه/ ٦٥.

موضوعية[١].

ج – ويُسمّى بـ(التفسير الوحدويّ)؛ لأنّه يقوم على فكرة وجود الوحدة الموضوعية في السورة[٢].

د – ويُسمّى بـ(التفسير الموضعي/ الموضوعي)؛ لأنّه يأخذ موضعاً للدراسة، لكنّه موضع تكثف فيه الموضوع، وألمّ بجوانبه أو بكثير منها، بحيث يمكن الاتكاء على ذاك الموضع في دراسة الموضوع القرآني وآفاقه.

ومع أنّه (لا مشاحة في الاصطلاح)، إلا أنّنا نرجّح تسميته بـ(الكشفي):

أ- لأنّه لا يختصّ بدراسة السورة فحسب حتى نسمّيه (السوريّ)، بل قد يدرس بعضها فقط، كأن يدرس موضوعاً فيها فحسب، أو موضوعاً تناولته آيات فيها أو آية واحدة منها، كما يتمّ في دراسة (موضوع في سورة)، وفي (المقالة التفسيرية).

ب – ولأنّ مصطلح (الوحدويّ) مبني على كون هذا التفسير يقوم على فكرة (الوحدة الموضوعية في السورة)، مما يوحي أنّه يقصره على دراسة السورة فحسب، مما لا يجعله شاملاً لدراسة موضوع في سورة، أو مقالة تفسيرية.

ج – ولأنّ تسميته بـ(الموضعي/ الموضوعي)، ربّما يُفهم منها أنّها تقسّم التدبر إلى ثلاثة أقسام: موضعي، وموضوعي، وموضعي/ موضوعي. في حين دُرج في التقسيم على أنّه نوعان، وما اصطُلح عليه بـ(الموضعي/ الموضوعي) هو تدبر موضوعي، لكنّه من موضع مكثف، فهو لا يمتّ إلى الموضعية بصلة، إلا اشتقاقه من موضع واحد.

على أن نعمّم دائرة المقصود من (الكشفي)، لا لخصوص الكشف عن الوحدة الموضوعية في السورة فحسب، وإنّما للكشف عن الوحدة الموضوعية عموماً، سواء أكانت في السورة، أم في موضوع تناولته سورة، أم موضوع تناولته آيات أو آية، أي أنّه كاشف عن وجود موضوع واحد متناسق.

التفسير الكشفي هل هو تفسير موضوعي؟!

وقد وقع الخلاف كثيراً في عدّ التفسير الكشفي قسماً من التفسير الموضوعي؛ لأسباب منها:

(١) نفسه/ ١٢٣.

(٢) نفسه/ ٦٦.

أولاً: ما المقصود من (الوحدة الموضوعية) في السورة؟

درج كثير من منظري المنهج الكشفي على القول بأنّ كلّ سورة قرآنية تنظمها وحدة موضوعية راسخة، وما دامت هناك وحدة موضوعية لكلّ سورة، فتناول السورة يعني دراسة موضوع قرآني؛ وذاك يجعل دراسة السورة مما ينطوي تحت طيّ (التفسير الموضوعي) لا (الموضعي).

وهذا الدليل والقاعدة الذي تمّ تأسيس الفكرة عليه غير مسلم عند البعض؛ لأنّهم يتساءلون: ما معنى (الوحدة الموضوعية) للسورة؟

أ- هل المقصود أنّ السورة تتلاحم آياتها وتترابط كترابط أعضاء البدن، منتجة كلاً منسجماً؟

ب - أم المقصود أنّ كلّ سورة من سور القرآن تدور حول موضوع واحد، فهناك سورة خاصة عن العلم - مثلاً -، وأخرى عن التقوى، وثالثة عن المعاد؟

ج - أم المقصود أنّ السورة تتناول موضوعاً تفصيلياً متكاملاً لجميع المفردات والمباحث التي ترد فيها، كما لو تحدثت سورة عن (العلم، التقوى، المعاد)، بحيث تغني دراسة السورة عن دراسة ذلك في الآيات والسور الأخرى؟

إن كان الأول، فترابط الآيات وتلاحمها يدلّ على (الوحدة العضوية)، لكنّه لا يدلّ بالضرورة على أنّ السورة تتناول موضوعاً واحداً، فلا يثبت (الوحدة الموضوعية).

وإن كان الثاني، فالوجدان يقطع بعدمه، فليس هناك سور مخصصة علمياً ضمن حقول، بل.. قد تتحدث السورة عن أكثر من موضوع، لاسيما السور الطوال.

وإن كان الثالث فهو غير معقول؛ لأنّ بعض سور القرآن تتناول شذرات من موضوعات، لا تغني عما ذكرته وأكملته سور أخرى.

ومن ثمّ فالمعاني السابقة المقصودة من (الوحدة الموضوعية): إما قائمة على الخلط بينها وبين الوحدة العضوية، وإما يقطع الوجدان والملاحظة بعدم صحتها، وإما غير معقولة أصلاً!!

والذي يبدو أنّ منظري المنهج الكشفي يقصدون من الوحدة الموضوعية: أنّ تشابك آيات السورة ينتج موضوعاً جديداً متكاملاً لها، وتقاطعه مع الموضوعات الأخرى إنّما يتمّ بقدر ما يخدم الموضوع الأصلي فحسب، لا بما يسدّ عن جميع الموضوعات

التفصيلية الأخرى في القرآن الكريم.

ولنضرب لذلك مثالاً:

قد يريد أحدنا أن يدرس موضوع (الصدق، القائد، المؤمن) في القرآن، فيحتاج كلّ موضوع منه إلى عمل شامل واسع في القرآن حتى يصل إليه، يناسبه استثمار أدوات التدبر الموضوعي التجميعي، لكن.. يمكن أن تأتي سورة لتتحدث عن (صدق القائد المؤمن)، فهي عمل مركز لدراسة هذا المحور فقط، وذاك موضوعها، ومن ثمّ لا يتطلب ذلك أن تقوم السورة بدراسة مسهبة عن (الصدق) وأنواعه، وفوائده، و.....، ثمّ دراسة أخرى مسهبة عن (القائد)، وأنواعه، وكيفية بنائه، وعناصر تأثيره في أتباعه، و.....، ثمّ دراسة ثالثة مسهبة عن (المؤمن)، ومنازله، وثوابه، و....

وهذا أشبه بكاتب أو خطيب يكتب أو يلقي موضوعاً ما..، فيستفيد بقدر من موضوعات أخرى لصالح موضوعه المركزي الأساس، لكنّه لا يتجاوب معها بما يحيل موضوعه (كشكولاً مسطحاً) يضيع عنصر التركيز. قد يتناول - مثلاً - (أثر الشمس في عملية التمثيل الضوئي عند النبات)، فلا يستطرد في موضوع تفصيلي عن (الشمس)، وماهيتها، وحجمها، وكثافتها، وعمرها، ودرجة حرارتها، والغازات التي تتفاعل فيها، والبقع الشمسية، والشواظ الشمسي، وبُعدها عن الأرض!!، ثمّ موضوع تفصيلي ثان عن (الضوء)، وثالث عن (النبات)!!

إنّ هذا العرض المسطح ربّما ينمّ عن رغبة في الاستعراض العلمي، أو عن سذاجة معرفية في التعاطي مع الموضوعات، أو عن خلل منهجي بحثي!!

وحين نقول بالوحدة الموضوعية للسورة، إنّما نريد القول: إنّها تحتوي على موضوع كامل، قد يكون دقيقاً جداً، لكنّ ذاك لا يستدعي حديثها عن مجموع موضوعات الكلمات التي ترد فيها، وإنّما تتعامل معها بما يصبّ في رافد الموضوع الأساس.

ويبدو أنّ الذين أنكروا الوحدة الموضوعية في السورة لم يلتفتوا إلى هذا التفريق، بالإضافة إلى أنّهم يوزعون مجاميع الآيات على مقاطع يدرسونها تفصيلاً، لكنّهم لا يتعمقون في البحث عن الرابط بين تلك المقاطع، الرابط الذي خوّل الولوج لما ظنّوه نقلة في السورة إلى موضوعات متباعدة، ومن ثمّ ظنوا بأنّ السورة القرآنية تتحدث عن موضوعات شتى.

ثانياً: آيات السورة هل حقاً بينها وحدة موضوعية؟!

النقطة السابقة كانت تدور حول مشكلة مفهومية، والنقطة التي سنبحثها الآن تدور حول الجانب التطبيقي.

وقد أسفرت الإجابة عن السؤال السابق عن إجابتين:

١- نفي الوحدة الموضوعية:

ذهب البعض إلى عدم وجود الوحدة الموضوعية في كثير من سور القرآن، لاسيما السور الطوال، فهي تحمل موضوعات متباعدة جُمعت في سياج سورة واحدة!!

ومما استدلوا به على نفي الوحدة الموضوعية:

أ- النزول التدريجي المنجّم للقرآن:

يقول الشيخ عزّ الدين عبد السلام: «إنّ القرآن نزل في نيّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، ولأسباب مختلفة؛ وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض؛ إذ لا يحسن أن يرتبط تصرّف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب، كتصرّف الملوك والحكّام والمفتين، وتصرّف الإنسان في نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة. وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرّفات مع بعض، مع اختلافها في نفسها، واختلاف أوقاتها»[١].

ويقول الدكتور زيد عمر العيص معلقاً على هذا النصّ: «يُفهم من كلام العزّ أنّه يستبعد من حيث الأصل مسألة الوحدة الموضوعية في السورة»[٢].

وهذا النصّ من العزّ - في أصله - مسوق لنفي الوحدة العضوية لا الموضوعية، لكنّ نفي الوحدة العضوية بما يعنيه من عدم ترابط الأجزاء، يقتضي نفي الوحدة الموضوعية، وإن كان إثبات الوحدة العضوية لا يثبت الوحدة الموضوعية، فقد يكون الكلام متصلاً مترابطاً لكنّه ليس في موضوع واحد، بينما إثبات الوحدة الموضوعية يثبت الوحدة العضوية؛ لأنّ الكلام حين يكون بأجمعه في موضوع واحد فذاك يثبت بالضرورة

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٧١- ٧٢.
(٢) التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ١١٦.

أنّه مترابط متواصل.

يقـول الدكتور فهـد الرومي في معرض تقريـر رأي أصحاب المدرسـة العقلية في التفسير: «وإثبات الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية بصورة جلية؛ يثبت ارتباط الآي بعضها ببعض، فتتناسق آياتها وتتلاحم حتى تكون كالسبيكة الواحدة»[١].

وسندرس هذا النصّ للشيخ عزّ الدين في فقرة (اكتشاف الوحدة العضوية).

ب- تحديد موضوعات السور أمر اجتهادي:

ويرى هؤلاء النافون لـ (الوحدة الموضوعية) أنّ دراسـة السـورة دراسة موضوعية يتوقف على تحديد موضوعها (العنوان، الإطار العام) الذي يشـكل المحور الذي ترتكز عليه أفكارها، وتحديد الموضوعات (العناوين) للسـور بوصفها موضوع السورة القرآنية أمـر اجتهادي تخميني ظني، يقوم به الباحث والمفسّـر، فهو «مَن يجعل للسـورة الكريمة هدفـاً ينتزعـه مـن ملاحظـة معانيها، ثمّ ينـزّل الآيـات المتعددة فـي السـورة لتحقيق هذا الهدف»[٢].

وذاك الأمـر الاجتهادي لا يمنع من بروز اجتهـاد مقابل ومخالف يرى أنّ موضوع السـورة شيء آخر مختلف!!، وذاك ما نشـهده في تحديد موضوع السورة عند المفسّرين الذين يحرصون على تلخيص موضوع تتكلم السـورة عنـه، فهم جِدُّ مختلفين في تحديد الموضوع أو العنوان أو المحور العام أو السـياق العام الذي تدور حوله السـورة، هذا إن لم يغيّر المفسّر نفسُه رأيَه في موضوع السورة ومحورها!!

وقد استعرض الدكتور زياد الدغامين آراء عشرة مفسّرين أكثرهم من المعاصرين، وذكر الإطار العام الذي ارتآه كلّ منهم لسورة الحجر، ورأى في أقوالهم تبايناً مشهوداً، ثمّ عقب على ذلك بقوله: «الناظر في هذه الأقوال جميعاً يسعه أن ينكر ما يُسمى بـ (الوحدة الموضوعيـة) فـي سـور القـرآن الكريم؛ نظـراً لتباين هـذه الأقـوال، وتباعدهـا، وطريقة تقسيمها»[٣].

والنتيجـة التـي توصّـل إليها هـؤلاء أنّ «هذا الضـرب من الدراسـات لا يدخل في

(١) الدكتور فهد الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير/ ٢٢٥.
(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي/ ٢٤- ٢٥.
(٣) الدكتور زياد الدغامين، منهجية البحث في التفسير الموضوعي/ ١٥٠.

التفسير الموضوعي؛ لأنّ موضوعه - وهو هدف السورة المتعددة الآيات - أمر التماسي اجتماعي تختلف فيه الأنظار، فكيف تُصنّف الآيات في السورة على هدف مختلَف في تحديده؟، وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟، مع أنّ الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها أو معانيها المتحققة، وإلى أن تقوم لهذا الضرب خطة علمية محكمة القواعد واضحة المعالم فإنّنا نعدّه من باب الدراسات القرآنية العامة وليس في التفسير الموضوعي»[١].

ج - إغفال بعض موضوعات السورة:

يرى الدكتور رجب بيومي أنّ الحرص على القول بالوحدة الموضوعية للسورة سيؤدي إلى إغفال بعض موضوعات السورة التي لا تنسجم مع العنوان العام الذي وضع لها، حتى يسلم للباحث القول بهذه الوحدة، دون أن يعكر عليه شيء، وفي هذا جناية على البحث[٢].

فلو افترضنا أنّنا قلنا عن موضوع (سورة الإسراء) بأنّ «العنصر البارز في كيان السورة، ومحور موضوعاتها الأصيل هو: شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وموقف القوم منه في مكة»[٣]، وعبّرنا عن هذا المحور الاجتهادي المستنبط بأنّه (المحور الواحد)، فقلنا: «في تلك الموضوعات المنوّعة حول ذلك المحور الواحد الذي بيّنا يمضي سياق السورة في أشواط متتابعة»[٤].

لنفترض أنّ ذلك قد تمّ، فهل ينطبق هذا المحور على ما ذكرته السورة من قصة آدم وإبليس، وتكريم الله للإنسان وحمله في البرّ والبحر؟!

يقول الله تعالى في قصة إبليس وآدم في هذه السورة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي/ ٢٥.
(٢) الدكتور محمد رجب بيومي، البيان القرآني/ ١٩٥.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٠٨.
(٤) نفسه ٤/ ٢٢٠٩.

يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[١].

د - التحقق والوقوع:

ولو افترضنا أنّ الأدلة السابقة لم تكن ناهضة لنفي الوحدة الموضوعية؛ فيكفي أن نقوم بقراءة ذاتية لسور القرآن الكريم؛ لنرى أنّ كثيراً منها يضمّ موضوعات من الصعب إدراجها تحت عنوان واحد.

ولنأخذ نموذجاً لذلك قوله تعالى في (سورة الطارق):

﴿وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[٢].

فما العلاقة الموضوعية بين القسَم بالسماء والطارق والنجم الثاقب وبين وجود الحافظ على الإنسان؟، وما العلاقة بين ذلك وبين المادة المنوية التي يتكوّن منها الإنسان ومكانها؟، وما العلاقة بين القدرة على إعادة الإنسان في الآخرة وبين القسَم بالسماء والأرض؟، وما علاقة هذا بصدق القرآن وجدّيته؟، وما علاقة صدق القرآن وجدّيته بكيد الكافرين والردّ الإلهي عليه وإمهال الكافرين؟!

ومن ثمّ اعترف بعض المؤمنين بالوحدة الموضوعية في السور بصعوبة اكتشاف تلك الوحدة، فقال الدكتور محمد عبد الله دراز: «إنّه يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية/ والأفكار الثانوية، أو اكتشاف العلاقة بين هذه الأفكار بعضها مع بعض، أو بينها وبين النواة المركزية للسورة»[٣].

٢- إثبات الوحدة الموضوعية:

ورأى آخرون أنّ السورة القرآنية الواحدة - قصيرة كانت أم طويلة - تدور حول

(١) سورة الإسراء/ ٦١- ٦٥.
(٢) سورة الطارق/ ١- ١٧.
(٣) الدكتور محمد عبد الله دراز، المدخل إلى القرآن الكريم/ ١٢٢.

موضـوع واحـد، تندرج جميع آياتها فيه، ويجمع آياتها إطار واحد وجامع مشـترك موحِّد (محـور عام/ سـياق عام)، تتـوزع مقاطعهـا وفقه على موضوعـات جزئيـة متفرعة منه، مما يسـتدعي قـراءة السـورة بعناية لاكتشـافه والتعرّف عليـه، وبذاك يكـون بينها (وحدة موضوعيـة)، سُـمّيت - أيضـاً - بـ(الوحـدة المحوريـة)، بالإضافة إلى وجـود (الوحدة العضوية) فيها.

ومما استدلوا به لإثبات الوحدة الموضوعية:

أ- الشتات الموضوعي أمر مستهجن:

الشـتات الموضوعي يعني اتكاء الكلام على نقلات طفرية فجائية من موضوع إلى موضوع، وذاك يحدث في ذهن المتلقي حالة من التشوش الذهني والنفسي!!

والتفكيـر العميـق في آيات السـورة يفضي إلى أنّهـا تتناول موضوعـاً واحداً، وأنّ الـكلام المفـرّق الذي لا ينظمه إطار واحد أمر مسـتهجن ممجوج لـدى المتلقي ننزّه عنه كلام العاقل الحكيم من البشر، فضلاً عن كلام سيّد الحكماء وربّ العقلاء!!

ومـن ثمّ فتناول سـورة واحـدة يعني تناول موضـوع كامل من خلالهـا، وأنّ القول بكـون آيات السـورة تدور حول موضوعات شـتى لا يربـط بينها رباط موضوعـي - تبعاً لاختلافها في زمن النزول والمناسبات والأحداث - أمر غير صحيح، ولهذا وقف هؤلاء مع التفسـير والتدبر الكشـفي؛ لأنّه يكشـف ويبيّن وحـدة الموضوع في السـورة القرآنية، ويتناولها اعتماداً على هذا المعيار والأساس.

ب - توزيع الآيات في السور وفق وحدة الموضوع:

الوحي إنّما أمر النبي ﷺ بإعادة توزيع الآيات حسـب السـور؛ لأنّه جمع رُوعي فيـه كون آيات السـورة تدور حول موضوع واحد؛ لذلك جـاء الأمر الإلهي بتدوينها بهذه الطريقة لا حسب ترتيبها التاريخي الذي تعددت فيه الأزمان والأماكن والأحداث.

ج - التطبيق الفعلي لدى بعض الباحثين:

عندما فسّـر فخر الديـن الرازي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًـا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَـتْ آيَاتُـهُ أَأَعْجَمِـيٌّ وَعَرَبِـيٌّ قُلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُدًى وَشِـفَاء وَالَّذِيـنَ لا يُؤْمِنُونَ فِي**

آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[١]، ربطه بقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[٢]، ثمّ قال:

«وكلّ مَن أنصف ولم يتعسّف عَلِمَ أنّنا إذا فسّرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة [فصّلت] من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد»[٣].

وعندما تحدث أبو إسحاق الشاطبي عن أنّ للنظر في الآيات اعتبارين، أحدهما باعتبار تعدد القضايا فيها، وثانيهما باعتبار النظم والترتيب التوقيفي الذي عليه السور في المصحف، قال: «وجميع ذلك لابدّ فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات: فاعتبار جهة النظم – مثلاً – في السورة لا يتمّ إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه؛ غير مفيد غاية المقصود، كما أنّ الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما.. لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها.

فسورة البقرة – مثلاً – كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بُثّ فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمّم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال – وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب –، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك»[٤].

وحينما قام الدكتور محمد عبد الله دراز بدراسة في سورة البقرة وبعض السور الأخرى، توصل إلى وجود روابط موضوعية، فقال:

«الواقع أنّنا وجدنا أكثر مما كنّا نتطلب من بحثنا، فقد كنّا نبحث عما إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة، ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أنّ هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحدداً يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضّح الآيات الافتتاحية من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسة، ثمّ يتبع ذلك التدرجُ في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء، وإنّما يحتلّ كلّ جزء

(١) سورة فصّلت/ ٤٤.
(٢) سورة فصّلت/ ٥.
(٣) تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، م ١٤، ج ٢٧، ص ١٣٥.
(٤) إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة ٣/ ٤١٤– ٤١٥.

المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة»[١].

وهذا يعني أنّ المشكلة في عدم إدراكنا لتلك الروابط هو الفكرة النمطية المتوارثة لدينا في عدم وجود صلات وعلاقات بين الآيات والسور، فضلاً عن القراءة السطحية والعجلى للآيات والسور، ومن ثمّ فالقراءة المعمقة المتأنية للآيات أو السور قد تكشف عن وجود روابط متينة تبيّن دوران آيات السورة حول محور.

الموضوع الجلي والموضوع الخفي:

غاية ما في الأمر أنّ الموضوع جلي واضح في بعض السور، وخفي في بعضها الآخر:

ومن السور القرآنية ذات الموضوع الواحد الجليّ: (سورة المنافقون) التي تتناول موضوع المنافقين، ومن السور ذات الموضوع الذي يحتاج إلى سبر وإعمال عقل لاكتشافه: (سورة الفاتحة)، فربّما نتلمس أنّها تتكلم عن موضوع علاقة الإنسان بالله من خلال زاويتين هما: الثناء، والدعاء، وفي مجال الثناء تندرج الآيات التالية: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[٢]. وفي مجال الدعاء تندرج الآيات التالية: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾**[٣].

وقد جاء عن رسول الله ﷺ حديث يوضّح انقسامها إلى هذين القسمين (الموضوعين الفرعيين)، يقول فيه: «قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي: فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل:

إذا قال العبد: **﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**، قال الله - عزّ وجلّ -: بدأ باسمي، وحقّ عليّ أن أتمّم له أموره، وأبارك له في أحواله.

فإذا قال: **﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، قال الله - جلّ جلاله -: حمدني عبدي، وعلم أنّ النعم التي له من عندي، وأنّ البلايا التي دُفعت عني فبتطوّلي، أشهدكم أنّي أضيف له إلى نعم الدنيا نعمَ الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة، كما دفعتُ عنه بلايا الدنيا.

---

(١) المدخل إلى القرآن الكريم/ ١١٨- ١١٩.

(٢) سورة الفاتحة/ ١- ٤.

(٣) سورة الفاتحة/ ٥- ٧.

فـإذا قـال: ﴿الرَّحْمـنِ الرَّحِيـمِ﴾، قال اللـه - عزّ وجلّ -: شـهد لي بأنّـي الرحمن الرحيم، أشهدكم لأوفرنّ من رحمتي حظّه، ولأجزلنّ من عطائي نصيبه.

فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال الله - جلّ جلاله -: أشهدكم كما اعترف عبدي أنّي مالك يوم الدين، لأسـهلنّ يوم الحساب حسـابه، ولأتقبلنّ حسناته، ولأتجاوزنّ عن سيئاته.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، قال الله - عزّ وجلّ -: صدق عبدي، إياي يعبد، أشهدكم لأثيبنّـه على عبادته ثواباً يغبطه كلّ مَن خالفه في عبادته لي، فإذا قال: ﴿وإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ﴾، قال الله - عزّ وجلّ -: بي اسـتعان، وإليّ التجأ، أشـهدكم لأعيننّه على أمره، ولأغيثنّه في شدائده، ولآخذنّ بيده يوم نوائبه.

فـإذا قـال: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُسـتَقِيمَ﴾ إلى آخر السـورة، قال اللـه - عزّ وجلّ -: هـذا لعبدي، ولعبدي ما سـأل، فقد اسـتجبتُ لعبـدي، وأعطيته مـا أمّل، وأمنتُـه عمّا منه وجِل»[(١)].

وفي رواية أخرى أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال لأبي حنيفة: «ما سورةٌ أولها تحميد، وأوسـطها إخـلاص، وآخرهـا دعاء؟، فبقي متحيّـراً، ثمّ قال: لا أدري، فقـال أبو عبد الله [الصادق] عليه السلام: السـورة التي أولها تحميد، وأوسـطها إخلاص، وآخرها دعاء.. سورة الحمد»[(٢)].

فالحمـد تتحدث عنه الآيـات الأربع الأولى منها، والإخلاص تتحـدث آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والدعاء تتحدث عنه الآيتان الأخيرتان.

ومن خلال هذا العرض الأوليّ لسورة الفاتحة نصل إلى الآتي:

أ - السورة تتحدث عن موضوع واحد هو العلاقة مع الله.

ب- باعتبار الوجهة التي تتوجّه إليها السـورة يمكن قسـمتها إلى قسمين هما: قسم لله، وقسـم للعبد. وباعتبار المحتوى الداخلي (المواضيع) فيها يمكن قسمتها إلى ثلاثة أقسام هي: الحمد، والإخلاص، والدعاء.

ج- السورة تتحدث عن محورين للعلاقة مع الله هما: الثناء والدعاء.

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٢٢٦- ٢٢٧، الباب ٢٩، ح ٣، وقريب منه ما ذكره الإمام محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ٤/ ٢٧٠.
(٢) نفسه ٨٩/ ٢٣٥، الباب ٢٩، ح ٢٢.

د – العلاقـة بيـن محوريّ الثناء والدعاء هي: أنّ الله – سـبحانه وتعالى – هو الإله الربّ الجامع للصفات الخيّرة (مما تضمّنه القسم الأول من السورة)، ومن ثمّ يحتاج الإنسان إلى أن يسأل الله ويدعوه مستفيداً من صفات الله تلك (القسم الثاني من السـورة)، وموفراً في نفسه شـرطاً أساسياً هو (الإخلاص) الذي من شأنه قبول الثناء واستجابة الدعاء.

هـ– تقدّم محور الثناء؛ لأنّ الإنسان به يستحضر تلك الصفات التي سوف يستثمرها في دعائه.

أثر الخلاف في الوحدة الموضوعية:

والخلاف في وجود الوحدة الموضوعية أو عدم وجودها في السور والآيات ليس خلافاً نظرياً أو ترفاً فكرياً، بل.. له آثار في الطريقة الدرسـية المترشـحة عنه لدى إجرائها وتطبيقها على الآيات:

– فمـن لا يؤمـن بالوحـدة الموضوعية سـيدرس الآيات دراسـة مبعثـرة، لا تنتظم أفكارها ضمن موضوع واحد، وستكون النتيجة التي يصل إليها أشبه بحكم كثيرة وجميلة قيلت في خطبة، لكن ليس بين تلك الحكم جامع مشترك.

– ومـن يؤمن بالوحدة الموضوعية سـيدرس الآيات دراسـة منهجيـة منطقية، تقرأ فيها موضوعاً واحداً، له تفريعات مشـتقة منه، وسـيُعمل عقله لاكتشاف تلك الوحدة بين الآيات، وبين المقاطع، وفي السورة عموماً.

وجهة نظر:

بقي أن نشـير إلى أنّ هناك من يسـلّم بالوحدة الموضوعية للسـورة، ولا يرى كفاية دراسـة سـورة للإلمام بالموضـوع في القـرآن الكريم؛ لأنّ دراسـة السـورة وحدها يعني قصرها عن السور والآيات الأخرى التي تحدثت عن الموضوع.

وبهذا يكون التفسـير أو التدبر الكشـفي السوريّ الذي يتناول سورة هو – في أسلم صوره – استقراء ناقصاً لا يعطي رؤية شمولية للموضوع القرآني، وبتناوله سورة واحدة لا يلمّ بجوانب الموضوع في القرآن الكريم، ولا يكشف عن الرؤية القرآنية العامة للموضوع، الرؤية الكلية التي ربّما يُذكر بعضها في سور أخرى غير السورة التي قصرنا عليها البحث؛ ومـن ثمّ فهذا النوع من التفسـير أو التدبر إنّما هو تفسـير موضعي تجزيئـي، والجدير بأنّ

يُسمى تفسيراً أو تدبراً موضوعياً إنّما هو التفسير والتدبر التجميعي؛ لأنّه يمكن فيه القيام باستقراء تام وتتبع تفصيلي للموضوع يسهم في تشكيل صورة كلية للنظرية القرآنية عن موضوع من الموضوعات.

والذي نعتقده أنّ السورة القرآنية تشتمل على الوحدتين: العضوية والموضوعية معاً، فأجزاؤها وأعضاؤها متصلة متماسكة متواشجة في كلٍّ واحد؛ مما يوفر الوحدة العضوية، وآياتها تدور حول موضوع واحد وصلب واحد وفكرة رئيسة واحدة؛ مما يوفر الوحدة الموضوعية.

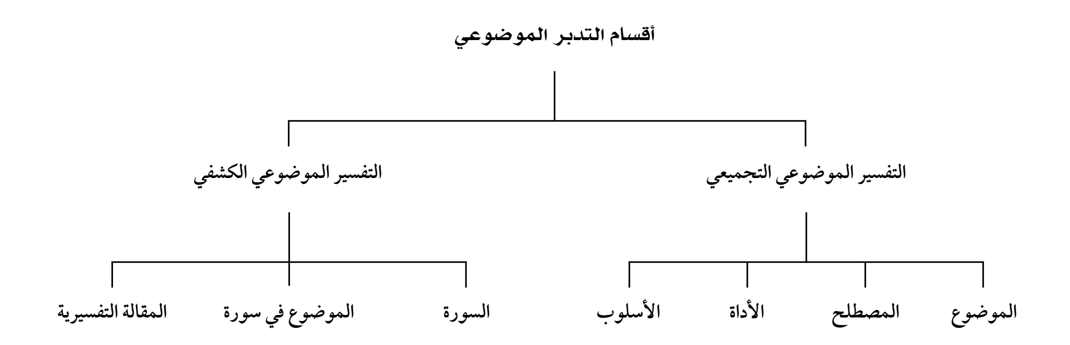
ومن ثمّ فدراسة سورة قرآنية إن تمّ القيام به على نحو واعٍ وشامل سيوجِد موضوعاً متماسكاً، وبذاك يجعل دراسة السورة الواحدة أمراً مندرجاً ضمن (التدبر أو التفسير الموضوعي).

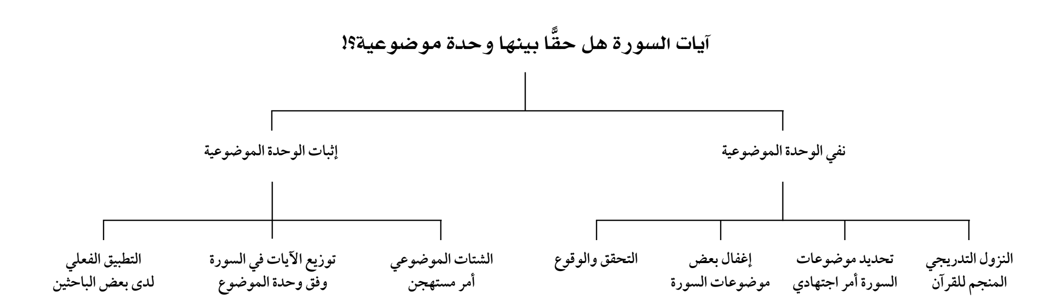
وأما دراسة (موضوع في سورة)، فهو لا يتناول موضوعات السورة كاملة، فضلاً عن أن يتناول الموضوع في كامل القرآن الكريم، فهو - غالباً - تناول لآيات محدودة، ويعطي رؤية مجتزأة عن الموضوع، لا يستقدم باقي أجزاء تلك الصورة من الآيات القرآنية الأخرى، ومن ثمّ فهو دراسة موضعية تجزيئية، وهذا لا ينفي إمكانية العثور على موضوع متكامل في سورة واحدة، ولكنّ ذاك من القليل النادر.

وأما (المقالة التفسيرية)، فهي - الأخرى - في أغلب نماذجها دراسات موضعية تجزيئية، تعتمد على موضع مكثف الدلالة يتمّ تناول الأبعاد فيه، وفي بعض نماذجها تظفر بمواضع تناولت الموضوع كاملاً، ومن نماذج ذلك ما سبق أن رأيناه في قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾**[(١)].

فهذا الموضع القرآني تناول جميع أشكال الوحي الإلهي إلى البشر: الوحي (الإلهام)، أو من وراء حجاب، أو إرسال الرسول الملك (جبريل الأمين).

(١) سورة الشورى/ ٥١.


أقسام التدبر الموضوعي
التفسير الموضوعي التجميعي
التفسير الموضوعي الكشفي
الموضوع
المصطلح
الأداة
الأسلوب
السورة
الموضوع في سورة
المقالة التفسيرية


آيات السورة هل حقًّا بينها وحدة موضوعية؟!
نفي الوحدة الموضوعية
إثبات الوحدة الموضوعية
النزول التدريجي المنجم للقرآن
تحديد موضوعات السورة أمر اجتهادي
إغفال بعض موضوعات السورة
التحقق والوقوع
الشتات الموضوعي أمر مستهجن
توزيع الآيات في السورة وفق وحدة الموضوع
التطبيق الفعلي لدى بعض الباحثين



ت١: أضعُ علامـــة (✓) أمام العبــارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- لا يوجد فرق بين (الوحدة العضوية) و(الوحدة الموضوعية). ( )

ب - التفسير الكشفي يختلف تماماً عما يُسمى بـ (التفسير الموضعي/ الموضوعي). ( )

ج - التفسير أو التدبر الكشفي السوريّ الذي يتناول سورة هو استقراء تام يعطي رؤية شمولية للموضوع القرآني. ( )

د - اتفق الدارسون على وجود الوحدة الموضوعية في جميع سور القرآن. ( )

هـ - السورة القرآنية الطويلة يلزم أن تحمل موضوعات متفرقة لا تنتمي لوحدة موضوعية. ( )

ت٢: ما المقصود بـ (الوحدة الموضوعية) عند الكشفيين؟



مجالات التفسير الموضوعي

اختلف الباحثون كثيراً في مجالات التفسير الموضوعي:

- فقصرها بعضهم على مجال واحد هو: دراسة (الموضوع) في القرآن الكريم[١].
- وقصرها آخرون على مجالين اثنين هما: الموضوع، والمصطلح (المفردة)[٢].
- وقصرها قسم ثالث على مجالين اثنين هما: الموضوع، والسورة[٣].
- وعدّ البعض المجالات الثلاثة السابقة معاً: الموضوع، والمصطلح، والسورة[٤].
- ورآها البعض ثلاثة مجالات هي: الموضوع، والمصطلح، والأداة.
- وأوصلها البعض إلى ستة هي: الموضوع، والمصطلح، والأداة، والسورة، والموضوع في سورة، والمقالة التفسيرية[٥].

وبدلاً من الخوض في نقاش تقييمي لهذه الآراء، نفضّل أن نبيّن المقصود من هذه المجالات، وسنضيف لها مجالاً سابعاً هو: الأسلوب، وسنعيد ترتيبها بناء على ما نراه من تقارب بين المجالات:

١- الموضوع:

أي دراسة (موضوع) عقدي أو أخلاقي أو اجتماعي أو فقهي أو كوني أو غير ذلك..

(١) المدرسة القرآنية/ ١٢، ١٣.
(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي/ ٢٤.
(٣) منهجية البحث في التفسير الموضوعي/ ١٤.
(٤) انظر: التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ١١٤.
(٥) نفسه/ ١١٤.

علـى طـول القرآن الكريم، كـ: التوحيد، أو التواضع، أو الزواج، أو الزكاة، أو الأرض، أو المال.

وهذا هو أشـهر مجالات التفسـير أو التدبـر الموضوعي، إلى حـدّ أنّ كثيرين ممن درسـوا التفسـير والتدبر الموضوعـي أو نظّروا له، نظـروا إليه من هـذه الزاوية، ومن هذا المجال.

٢- المصطلح (المفردة):

وهنا نقوم بدراسـة (مصطلح) أو (مفردة) في القرآن الكريم، كأن نبحث عن معنى (النعمة) أو (الشـرك)، أو (الحرج)، أو (الصوم)، أو (الشـهيد)، أو (السـماء)، أو.... في القرآن الكريم.

و»الموضوعـات المتصلـة بدراسـة الألفـاظ كثيـرة، فمنها: ما يـدرس الألفاظ من جانبهـا المعنوي، وثباتها على معانيها أو اتسـاع هذه المعانـي، أو ضيقها، أو تحوّلها عنها إلـى معـان أخـر. وكذا دراسـة الألفاظ من جانـب علاقتهـا بمدلولاتهـا، أو علاقة مباني الألفـاظ بمعانيهـا. يُزاد على هذه الجوانب: جانب تعقب معاني الألفاظ عبر عصور اللغة المعتمَدة، وما حلّ بطائفة منها من تطوّر»[١].

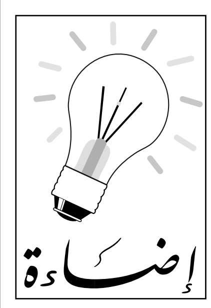
ومن الكتب القديمة التي اهتمت بمعاني القرآن:

أ- (مفـردات القـرآن)، للراغـب الأصفهانـي (الحسـين بن محمد بـن المفضّل)، الذي رتّب كتابه فصولاً حسـب الحروف الهجائية التي لجذور الكلمات القرآنية (أصول الكلمـات)، أسـمى كلّ فصل كتابـاً: (كتاب الألف، كتـاب الباء، كتاب التـاء، .... كتاب اليـاء)، وفي كلّ فصـل يذكر الكلمات المبدوءة بذاك الحرف، مع عرض الآيات الشـاهد على ذاك المعنى.

ب- (قامـوس القـرآن أو إصـلاح الوجـوه والنظائـر في القـرآن الكريم)، للشـيخ الدامغانـي (الحسـين بـن محمد)، وهـو الآخر رتّب الكلمات حسـب الترتيـب الهجائي لجذورها اللفظية، وفي كلّ جذر يذكر المعاني التي اسـتخدمها القرآن له، مسـتدلاً لذلك من الآيات القرآنية.

---

(١) نفسه/ ١٤٨- ١٤٩.



التطور التاريخي للغة وأشكال تغيّر المعنى

عندما نبحث عن معنى كلمة في اللغة في زمن ما.. فبحثنا هذا (تزامني تواقتي تعاصري) (= سنكروني)، وعندما نبحث معنى كلمة في أزمنة مختلفة، لنرى هل بقي معناها كما هو أم تغيّر، فبحثنا (تطوري تعاقبي تاريخي) (= دياكروني).

وحين ندرس كلمات اللغة دراسة تطورية تاريخية، سنرى أنّ كلماتها قد تشهد أنواعاً ثلاثة من تغيّر المعنى، نسمّيها (أشكال تغيّر المعنى)، وهي:

الأول: توسيع المعنى:

وهو انتقال معنى الكلمة من خاصّ إلى عام، فتشير إلى معنى أكبر مما كان لها في السابق، ويصبح مدلولها أوسع من ذي قبل، ويكون المعنى السابق أخصّ من المعنى الحاضر[1].

يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً**﴾[2].

و(الفردوس) هو: أعلى درجة في الجنة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنّه أوسط الجنة وأعلى الجنة»[3]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لكلّ شيء ذروة، وذروة الجنة الفردوس»[4]، ويرى المفسّرون أنّه «أفضل مناطق الجنة»[5].

في حين يطلق الناس لفظ الفردوس على جميع الجنة؛ باعتقاد أنّه اسم مرادف للجنة، فتوسعت دلالته - استعمالاً - من أعلى مكان في الجنة إلى الجنة كلّها.

---

(١) الدكتور أحمد مختار عمر، علم الدلالة/ ٢٤٣.
(٢) سورة الكهف/ ١٠٧.
(٣) صحيح البخاري، م٣، ج ٩، باب (وكان عرشه على الماء)، ص ١٥٣.
(٤) السيّد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن ٦/ ٣٠٥، ح ٦٨١٤.
(٥) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٩/ ٣٤٣.

الثاني: تضييق المعنى:

وهو تحويل دلالة الكلمة من المعنى الكلي إلى المعنى الجزئي أو تضييق مجالها، أي تحديد معاني الكلمات، وتقليلها، وتخصيصها[١]، فيكون المعنى السابق أعمّ من المعنى الحاضر، فهذه النقطة تماماً خلاف الأولى.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

فقد كانت كلمة (اللحم) ذات معنى عام، ينطبق على لحوم البهائم والطيور والأسماك، وفي الآية عدّ القرآن الأسماك لحماً، بينما العرف الحاضر لا يعدّها من اللحوم، ويقصر اللحوم على البهائم (اللحوم الحمراء)، والطيور (اللحوم البيضاء)، وفي بعض الأعراف تُطلق كلمة اللحوم على لحوم البهائم فقط. أي أنّ المعنى عندنا ضاق عما كان عليه من سعة في الاستعمال القرآني.

الثالث: نقل المعنى:

وهو انتقال الكلمة إلى معنى جديد معادل في النسبة للمعنى السابق، فالمعنيان (السابق/ والحاضر) هنا متساويان، وليس هناك أعمّ أو أخصّ[٣].

يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[٤].

فكلمة (استعمار) تعني: طلب التعمير، وهو مدلول إيجابي خيّر استعملته الآية فيه، فالله - سبحانه - استعمر البشر في الأرض، أي طلب إعمارهم لها. بيد أنّ المحتلّ الأجنبي سمّى ممارساته السيئة في بلادنا (استعماراً)، فساء معنى الكلمة نتيجة اقترانه بتلك الأفعال، وأمسى معناها مرادفاً للإذلال والتخريب والسلب والنهب والقتل والاحتلال، المفروض من قوة غازية على شعب آخر.

---

(١) علم الدلالة/ ٢٤٥.
(٢) سورة النحل/ ١٤.
(٣) علم الدلالة/ ٢٤٧.
(٤) سورة هود/ ٦١.

٣- الأداة:

فهناك أفعال وأسماء وحروف لها أثرها الإعرابي أو المعنوي أو الاثنين في المفردة أو الجملـة، وبعضها لا عمـل نحوي له، وإنّما يقتصر على التأثيـر المعنوي، ويمكن أخذ واحد منها وتتبعه في القرآن الكريم لمعرفة ذاك فيه:

- فمن الأفعال: الأفعال الناسخة (كان وأخواتها)، وأفعال القلب (ظنّ وأخواتها)، وأفعال المقاربة (كاد وأخواتها).

- ومن الأسماء: أسماء الشرط (مَن، مهما، كيفما، ....)، وأسماء الاستفهام (مَن، كيف، أيان، ....).

- ومـن الحروف: الحـروف الناسـخة (إنّ وأخواتها)، والحـروف الناصبة للفعل المضـارع (أن، لـن، كـي، إذن)، وحروف الجـرّ (مِن، فـي، عن، ....)، وحـروف الجزم (لمْ، لما، لا الناهية، لام الأمر)، وحروف الشرط (إن، إذا، لو، ....)، وحروف الاستفهام (الهمزة، هل)، وحروف العطف (الواو، الفاء، ثمّ، أو، ....).

والسـبب الذي يجعلنا نسـمّيها (الأدوات) بدلاً من أن نسمّيها: الأسماء - مثلاً -، أو الحروف: أنّ بعضها يتوزع بين الاثنين معاً، فأدوات الشـرط منها أسـماء كـ (مَن، ما)، وحروف كـ (إنْ، لو)، وأدوات الاسـتفهام - كذلك - تتوزع بين أسـماء كـ (أين، كيف)، وحروف كـ (الهمزة، هل).

وواضح أنّ دراسـة (الأدوات) في القرآن الكريم لا يختصّ بالعامل منها فحسـب، فبعض الأدوات السابقة لا عمل نحوي لها مثل: (الهمزة، هل، إذا، لو).

وعلـى هذا يمكن أن نقوم - مثلاً - بدراسـةٍ عن (إلى) فـي القرآن الكريم؛ لنتعرّف على دلالاتها ومعانيها فيه، وأثرها الإعرابي، أو عن (هل) ومعانيها.

٤- الأسلوب:

فنتنـاول أسـلوباً قرآنياً تسـير عليه آيـات القـرآن الكريم، كالحديث عن المسـتقبل بصـورة الماضـي، وأسـلوب المثـل القرآنـي، وأسـلوب العـرض القصصي، وأسـلوب الاستفهام، وأسلوب الأمر، وأسلوب النهي، وأسلوب الشرط، وأسلوب النداء، و....

فالقـرآن - مثـلاً - يتحدث في بعـض الآيات بصورة الماضي الـذي يفيد - ضمن

طابعه العام – حصول الشيء قبل زمن التكلم – كما يقول النحو العربي –، بيد أنا سنرى أنّ مضمون الآية الشريفة سيحصل في المستقبل، وهذا ما دوّنه القرآن الكريم عن المحاورة التي ستتمّ بين الله تعالى ونبيّه الكريم عيسى بن مريم عليه السلام، والتي يقول فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(١).

فهذا الحوار الذي جرى بالفعل الماضي من قِبَل السائل (الله)، والمجيب (النبي الكريم عيسى عليه السلام)، جسّده فعلا (قال) صدر أحدهما عن الباري – جلّ وعلا –: ﴿قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، وصدر الآخر عن نبيّه عيسى عليه السلام: **﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾**.

والقرآن يستخدم هذا الأسلوب لإفادة تحقق ذلك مستقبلاً، وأنّه لشدة يقين حصوله حُكي بصورة الماضي الذي وقع وحصل، ومن ذلك لوحة مفصّلة عن يوم القيامة وأحداثه، حكتها سورة الزمر:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٢).

وربّما يدرج كثيرون (الأسلوب) ضمن (الموضوع)، بيد أنّا فضّلنا فصله؛ لئلا يغطي الطابع العام الذي يتمّ تناوله في الموضوع الذي هو محتوى على الأسلوب الذي هو طريقة أداء، وكيفية عرض، وشكل تقديم، فأغلب ما يتمّ تناوله في الموضوع هو: ما

(١) سورة المائدة/ ١١٦.

(٢) سورة الزمر/ ٦٨– ٧٤.

يتصل بالقضايا المضمونية (المحتوى) سواء أكانت فكرية أم اجتماعية أم كونية أم غير ذلك..، وما تتمّ دراسته في (الأداة) – غالباً – لا يتجاوزها إلى التعرّف على الأسلوب، ولأنّ بعض الأساليب ليست مرتبطة بأدوات – بالمعنى الذي يتمّ فيه تناول الأدوات – ، فبعض هذه الأساليب مرتبطة بالبلاغة وعلومها كالتقديم والتأخير، وتنزيل غير العاقل منزلة العاقل، وتنزيل العاقل منزلة غير العاقل.

٥- السورة:

وهنا يتمّ دراسة سورة كاملة – كسورة البقرة أو الكوثر –، «وتعود المسألة في أصلها إلى القول بالوحدة الموضوعية للسورة، فمن قال بها سوّغ أن تكون السورة مجالاً من مجالات التفسير الموضوعي، ومن لم يتصوّر وجود الوحدة في السورة استبعدها من مجالات هذا التفسير»[(١)].

٦- الموضوع في سورة:

وهنا يتمّ دراسة موضوع واحد من الموضوعات الفرعية في السورة، فنجري دراسة عن (المنافقين) من خلال سورة البقرة – مثلاً –، ويتمّ قدر الإمكان التعرّف على الموضوع من خلال النطاق المحدّد للدراسة والعيّنة المذكورة لها (سورة البقرة)؛ خوفاً من تتبّع الموضوع في القرآن بأكمله؛ فيدخل ذلك في دائرة دراسة (موضوع في القرآن الكريم)، بدلاً من كونها دراسة لموضوع في سورة.

ومن الأشياء التي يحدّدها ذكر النطاق والعيّنة (ككون الموضوع في سورة الأعراف فقط): تسهيل العملية الدرسية بدلاً من سعتها في القرآن كاملاً، وإمكان تجميع جهد الباحث لصبّه في النطاق المحدّد، وتحري الدقة والعمق والتركيز، وعدم مؤاخذة الباحث على عدم سبره للموضوع في السور الأخرى.

ويحبّذ البعض في (الموضوع في سورة) أن يجعل عنوان البحث أو الدراسة معتمداً على عنوان أصلي يحمل المحدّدات (المنافقون في سورة البقرة)، ومن هذا كتاب (تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام)، لإبراهيم زيد الكيلاني.

---

(١) التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ١١٦.

بينما يميل آخرون إلى الاعتماد على عنوان أصلي، وآخر فرعي يحمل المحدّدات (المنافقون في القرآن الكريم: قراءة في سورة البقرة)، (المنافقون في القرآن الكريم: سورة البقرة نموذجاً).

٧- المقالة التفسيرية:

وهنا يتمّ كتابة مقالة من خلال آية، أو من خلال مجموعة آيات، يتجلى فيها الموضوع المراد الحديث عنه، أو النقاط المراد إبرازها من الموضوع، كأن نكتب مقالة عن (أدب الأنبياء مع الله) تتناول الموضوع من خلال قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾[(١)].

ومن خلال هذه الآيات نكتب مقالة عن طريقة خطاب النبي عيسى عليه السلام لله، وكيفية توجيهه لطلب الحواريين، وكيف غيّر الأسلوب الذي جاء من قبل الحواريين ذا إيحاء تشكيكي بقدرة الله: ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء**﴾، وذا إيحاء تشكيكي بنبوة عيسى: ﴿**وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا**﴾، وذا أهداف محدودة مباشرة: ﴿**نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا**﴾، وذا رغبة في الإعلان والمشاهرة: ﴿**وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾!!

تلك كانت صيغة طلب الحواريين، لكنّ النبي المسيح عليه السلام حين وجّه الطلب إلى الله أعاد صياغته، بما يمكن أن نقف فيه عند الملامح التالية للأدب النبوي:

أ- تقديم الثناء على الله، وقد اختار فيه النبي عيسى عليه السلام اللفظين الجامعين لصفات (الألوهية) الحقة ﴿**اللَّهُمَّ**﴾، ولصفات (الربوبية) والرعاية منه - سبحانه - بخلقه وشؤونهم ﴿**رَبَّنَا**﴾.

ب - حذف أداة النداء، بما يشعر بالقرب، فلم يقل: يا إلهنا، يا ربّنا، بل قال: ﴿**اللَّهُمَّ رَبَّنَا**﴾، وتلك عادة يذكرها القرآن في الدعاء الموجّه إلى الله سبحانه: ﴿**رَبَّنَا**

(١) سورة المائدة/ ١١٢- ١١٤.

آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١)، ﴿**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾(٢)، ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾(٣)، ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا**﴾(٤)، ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء**﴾(٥)، ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾(٦).

ج – استشعار العناية الربانية، بنسبة الذات البشرية إلى الله، فلم يقل: ربُّ، بل.. ﴿رَبَّنَا﴾، فأضاف (ناء المتكلمين) إلى كلمة (ربّ)؛ وذاك يفيد الخصوصية، ففرق بين (أبٍ، ابن ، أخٍ ، عمٍّ)، و(أبي، ابني، أخي، عمّي).

د – الاعتماد على طريقة الدعاء المتيقِن بقدرة الله، بدلاً من السؤال الشاكّ: ﴿**رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء**﴾.

هـ – تغيير ترتيب الأهداف: ﴿**تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾، وقد انزاح غرض الأكل منها – الذي كان الأول في الترتيب عند الحواريين –، إلى الأخير في دعوة النبي عيسى: ﴿**وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾.

و – المجيء بغرض الأكل عبر الكناية – بدلاً من التصريح –: ﴿**وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾، وهذا الرزق (المائدة) سيأكلون منه، لكنّ السيّد المسيح عليه السلام لم يذكر ذلك مباشرة، بخلاف الحواريين الذين صرّحوا بذلك، وقالوا: ﴿**نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا**﴾.

ز – الثناء على الله وحمده ختاماً – كما كان بدءاً – بما يليق به: ﴿**وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾.

ولا يخفى أنّنا جئنا بها هنا كنقاط، في حين يتمّ تقديمها في (المقالة التفسيرية) مصاغة بفنيات المقال، بما تستدعيه من بسط وربط وغير ذلك.

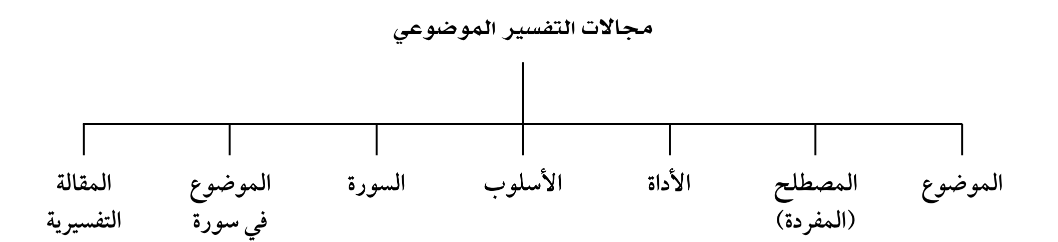
---

(١) سورة البقرة/ ٢٠١.
(٢) سورة آل عمران/ ٨.
(٣) سورة الفرقان/ ٧٤.
(٤) سورة نوح/ ٢٨.
(٥) سورة إبراهيم/ ٤٠.
(٦) سورة الأعراف/ ١٥١.

ملاحظة:

في حين يتضح عود (الموضوع، المصطلح، الأداة، الأسلوب) إلى دائرة (التفسير الموضوعي)؛ لكونها تتناول المحور الذي تختاره على طول آيات الكتاب العزيز، يناقش البعض في عود البحث في (السورة، الموضوع في السورة، المقالة التفسيرية) إلى التفسير الموضوعي، ويراها داخلة في الموضعي التجزيئي؛ لأنّها تقصر دراستها على موضع معيّن، ولا تُجري عملها على القرآن كاملاً، وقد مرّ بنا ذلك حين عرضنا (أقسام التفسير: التفسير الكشفي).

كما يتضح أنّنا مع قبولنا لهذه السبعة معاً بوصفها تفسيراً أو تدبراً موضوعياً، فإنّ الأربعة الأولى منها تدخل ضمن التفسير أو التدبر الموضوعي التجميعي، والثلاثة الأخرى منها تنطوي تحت إطار التفسير أو التدبر الموضوعي الكشفي.





ت١: أضعُ علامة (✓) أمــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- تعـدّ دراسـة (الموضـوع) فـي القـرآن الكريـم أشـهر مجالات التفسير أو التدبر الموضوعي. ( )

ب - دراسـة (الأدوات) في القرآن الكريم يختصّ بالعامل منها فحسب، مثل: حروف الجرّ. ( )

ت ٢: ما هي مجالات التفسير الموضوعي السبعة؟، وهل يمكن استثناء بعضها عن دائرة الموضوعية؟

ت ٣: الخلافــات في تصنيــف المجالات موضوعياً هل هي خلافات ســطحية وزوبعة في فنجان، أم لها دلالات تطبيقية معرفية في مجرى البحث؟

ت ٤: قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَــيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَــفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَــا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَــرُونَ﴾[1]، كيف لا يُقبل منها عدل؟، لنحلّ الإشــكال عبر إجراء دراسة موضوعية لمفردة (العدل) في القرآن الكريم.

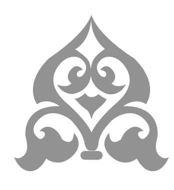
ت٥: يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾[2].

ضمن بحث (الأداة) في القرآن الكريم أبحثُ عن أثر حرف الواو في كلمة (وأرجلكم) في اختلاف كيفية الوضوء عند المذاهب الإسلامية.

(١) سورة البقرة/ ٤٨.

(٢) سورة المائدة/ ٦.





الفصل الثالث



منهج التدبر الموضوعي التجميعي



- البحث عن المصطلح.
- جمع الآيات.
- فرز الآيات وترتيبها.
- الاستفادة من الروايات.
- الاستفادة من التفاسير.
- التطبيق الخارجي.
- الرؤية المتكاملة.



الخطوة الأولى: البحث عن المصطلح

إنّ أول عمـل نقـوم بـه في عملية التدبـر القرآني هـو تحديد العنـوان أو الموضوع المراد دراسته.

وحين نعتزم أن نقوم بدراسة لموضوع ما.. في القرآن الكريم، فقد نجد المصطلح المراد بحثه موجوداً باللفظ ذاته في القرآن الكريم، وقد نجد له ألفاظاً قرآنية عدة تعبّر عنه، وقد يصعب علينا العثور المباشـر على الآيات التي تتحدّث عنه حتى لو وضعنا له عنواناً؛ لأنّ القـرآن لا يعقد فصولاً موضوعية ويدرج كلّ الآيـات التي حولها تحتها، والموضوع الواحد ربّما تتناوله آيات عدة في القرآن الكريم تنتمي إلى سور كثيرة - كما قدّمنا -.

كمـا تواجهنا عقبة ثانيـة تكمن في أنّ المصطلح المتـداول عندنا اليوم (المصطلح الحديث أو المعاصر) قد يختلف عنه زمن النصّ، كما لو أخذنا مصطلحات مثل: الفضاء، الطبيعة، حركة التاريخ، الآخر المختلف، العولمة.

مـن هنا فنحن بحاجة إلـى التعرّف على (المدخل القرآني) الذي يمكن أن نجد فيه العنـوان المختار للدراسـة، أو المحور الذي نعتـزم القيام به، وبعبارة ثانيـة: أن نعثر على اللفظ أو التعبير القرآني الذي نستطيع عبره أن نسبر موضوعنا في القرآن الكريم.

ونقف الآن عند أنواع المصطلحات التي قد تجسِّر لنا المسافة بين عنواننا المختار والنصّ القرآني، وتسهِّل علينا عملية الوصول للمداخل القرآنية:

١- المصطلح المباشر:

ونعني بالمصطلح المباشـر: المصطلح الذي نسـتعمله اليوم باللفظ عينه المتداول في النصّ القرآني، أي أنّ المصطلح في زمن الصدور وفي زمن الرجوع واحد، ومن أمثلة

ذلك المصطلحات التالية:

– التوحيد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١).

– النبوة: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(٢).

– الخُلُق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٣).

– العفو: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٤).

– النفاق: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(٥).

– الصلاة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٦).

– الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٧).

– الجبال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(٨).

– البحار: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(٩).

---

(١) سورة الكهف/ ١١٠.
(٢) سورة آل عمران/ ٧٩.
(٣) سورة القلم/ ٤.
(٤) سورة الحج/ ٦٠.
(٥) سورة التوبة/ ١٠١.
(٦) سورة البقرة/ ٢٧٧.
(٧) سورة البقرة/ ١٨٣.
(٨) سورة النمل/ ٨٨.
(٩) سورة التكوير/ ٦.

- الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١].

- الذهب: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٢].

وهذا النوع من المصطلحات لم يختلف فيه الإطلاق بين زماننا/ وزمان النصّ، ومن ثمّ فهو أسهل الأنواع تناولاً؛ لأنّ العثور عليه في النصّ القرآني مباشر، غاية ما في الأمر أنّ هناك (مادة) للفظ، وهناك (هيئات وصيغ ومشتقات) تتفرّع منها، تعود في جذرها اللغوي إلى تلك المادة، وحين نريد البحث عن لفظ علينا أن لا نقف عند مادته الأصلية فقط، بل نبحث عنه في الصيغ المشتقة منها أيضاً:

فحين نريد البحث عن (العمل) قد نجده في مادته (الفعل الماضي: عَمِلَ)، أو (المصدر: عَمَلٌ)[٣]، وقد نجده في صيغ أخرى، مثل: يعمل، تعمل، يعملون، تعملون، اعمل، اعملوا، عامل، عاملون، وغيرها..، ومن ذلك:

- عمِلَ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[٤].

- عمَل: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٥].

- يعمل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٦].

- تعمل: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا

---

(١) سورة الحديد/ ٢٥.

(٢) سورة آل عمران/ ١٤.

(٣) هناك خلاف بين النحويين في أنّ الأصل الذي اشتُقت منه الكلمات هل هو الفعل الماضي أو المصدر؟

(٤) سورة طه/ ٨٢.

(٥) سورة هود/ ٤٦.

(٦) سورة النساء/ ١٢٤.

لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾(١).

- يعملون: **﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**(٢).

- تعملون: **﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**(٣).

- اعمل: **﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**(٤).

- اعملوا: **﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾**(٥).

- عامل: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾**(٦).

- عاملون: **﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾**(٧).

٢- الكلمات المساعدة (الرديفة):

قد لا تكفي بعض الكلمات لدراسة محور كبير، فماذا نصنع؟

نجند النشاط في البحث عن كلمات قريبة من كلمات المبحث المراد، حتى نتمكن من رصد أكبر عدد ممكن من تلك الكلمات المساعدة، فلو كان البحث المتناول حول (الإنسان في القرآن الكريم)، فسوف نستفيد من كلمات رديفة لكلمة (الإنسان) كـ(الناس، البشر، بني آدم).

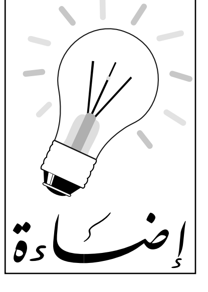
فالمقصود من الكلمات المساعدة: الكلمات الرديفة والمقاربة للمصطلح القرآني

(١) سورة الأحزاب/ ٣١.
(٢) سورة البقرة/ ١٣٤.
(٣) سورة البقرة/ ١١٠.
(٤) سورة سبأ/ ١١.
(٥) سورة المؤمنون/ ٥١.
(٦) سورة آل عمران/ ١٩٥.
(٧) سورة الصافات/ ٦١.

الذي نريد أن نبحثه، والتي وردت – هي الأخرى – في القرآن الكريم، فالمصطلح الأصلي والمصطلح الرديف واردان في القرآن الكريم.

ولابدّ – هنا – أن نشير إلى أنّنا لا نقصد من الرديف والمترادف معناهما البلاغي من وجود لفظين لهما المعنى عينه، والذي وقع الخلاف فيه كثيراً بين علماء اللغة، إلى حدّ دفع بعضهم لإنكار وجود المترادف في اللغة، وذهب إلى أنّ ما يظنّه البعض مترادفاً يمدّ المعنى ذاته – يحوي فروقاً دقيقة في البين لا يبصرها غير الضليع في اللغة ومعانيها، على نحو ما ذُكر في كلمات مثل: (قام/ ووقف)، أو (جلس/ وقعد) أو (نام/ ورقد)، أو (جاء/ وأتى/ وأقبل)، (أنبأ/ وأخبر).

وإنّما نقصد من الرديف: الكلمات المقاربة.



نماذج لكلمات تُستعمل كمترادفات

النزول والهبوط:

« الهبوط: نزول يعقبه إقامة، ومن ثمّ قيل: (هبطنا مكان كذا)، أي نزلناه، ومنه قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً ﴾[1]، ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً ﴾[2]، ومعناه: انزلوا الأرض للإقامة فيها، ولا يُقال: (هبط الأرض) إلا إذا استقر فيها، ويُقال: (نزل) وإن لم يستقر »[3].

الإنزال والتنزيل:

« قال بعض المفسّرين: الإنزال: دفعي، والتنزيل: للتدريج. قلتُ: ويدلكَ عليه قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[4]، حيث خصّ القرآن بالتنزيل؛ لنزوله منجماً، والكتابين بالإنزال؛ لنزولهما دفعة واحدة. وأما قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾[5]، فالمراد هناك مطلقاً من غير اعتبار التنجيم، وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[6]، فإنّ المراد إنزاله إلى سماء الدنيا، ثمّ تنزيله منجماً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاث وعشرين كما وردت به الروايات »[7].

(١) ٢٤ – سورة البقرة/ ٦١.
(٢) سورة البقرة/ ٣٨.
(٣) أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة/ ٢٩٣.
(٤) سورة آل عمران/ ٣.
(٥) سورة الكهف/ ١.
(٦) سورة القدر/ ١.
(٧) نور الدين بن نعمة الله الجزائري، فروق اللغات، تحقيق الدكتور: محمد رضوان الداية/ ٥٧– ٥٨.

٣- الكلمة المفتاح:

قـد نلحظ أنّ الكلمة التي يرتكز عليها العنـوان أو المحور المراد بحثه عندنا غيـر موجـودة في ألفاظ القرآن، فكيف نسـتخرج آيـات تصبّ في الخنـدق المراد دراسته؟

ببساطة نقول: إنّ هناك كلمات مفتاحية لهذا القفل، كلمات تستدعي المصطلح السـابق القديـم المتعامل به زمـن النصّ القرآنـي، وهو يوازي فـي دلالته مصطلحنا المعاصـر المتـداول عندنا اليوم، والبحث عن تلك الكلمات نسـميه بمنهج (الكلمة المفتاح).

فالكلمة المفتاح هي: المصطلح القرآني الموازي لمصطلحاتنا المعاصرة اليوم.

وإذا عثرنـا علـى الكلمة المفتـاح أمكننا بحـث عنواننا الجديد ضمـن ذاك العنوان القديم، ولن يكون الفرق حينها إلا حصول تغيّر في المصطلح تمّ عبر الزمن.

فإذا عقدنا العزم على دراسـة بعض المحاور التي تنـدرج تحت كلمة (المجتمع)، فـإنّ أول عائـق يقـف أمامنـا أنّنا لـن نجد هـذه الكلمة فـي القـرآن، فماذا نصنـع في هذه المشكلة؟!

نلجـأ إلـى منهج (الكلمـة المفتاح)، حيث نسـتطيع أن نُعمل العقـل جيّداً لإخراج بعـض الكلمـات المفتاحية لكلمة (مجتمع) شـريطة أن نجدها في القـرآن طبعاً، وإلا فما الفائدة من ذلك؟!

فلـو فكرنـا مرة أخرى فسـنجد أنّ هناك الكثير مـن الكلمات تفتح لنـا عنوان كلمة (المجتمـع) الحديثـة، مثل: (المدينـة، القرية، الأمة، القـوم، الذين من قبـل) وهكذا...، وهذه الكلمات موجودة في القرآن الكريم، ومنها سـنلج لدراسـة موضوع (المجتمع في القرآن الكريم).

وإذا كانـت كلمـة (مجتمـع) عربيـة، ومشـتقة من مـادة (جمـع)، ويمكـن أن نعثر علـى مشـتقات كثيرة منها في القواميـس العربية مثل: جمع، وجامـع، وتجمّع، وجماعة، ومجموعـة، وجميع، و....، فقد نعتزم دراسـة موضوع بعنـوان (الديمقراطية) من خلال القرآن الكريم، وهنا سـنقف عند مشكلة أصعب مفادها: أنّ هذه الكلمة ليست مما ينتمي إلى حقل اللغة العربية أصلاً، ومن ثمّ فهي - كمفردة - ليسـت موجودة في القرآن حتماً، فهل أُوصد باب البحث في وجهنا؟!

سنقول - بضرس قاطع -: لا..، فما زالت أمامنا إمكانية أن نبحث عن كلمات مفتاحية، يمكن أن نجدها تحت العناوين العربية الموافقة أو المقاربة لهذا المصطلح، ومنها: (الشورى)، وهو مصطلح قرآني يعيننا على الدراسة.

مع أنّنا لا نريد أن نقول: إنّ لفظي (الديمقراطية) و(الشورى) لهما ذات المعنى المطابق، ولا نريد أن نقول - كذلك -: إنّ الشورى الإسلامية لها تفاصيل الديمقراطية كنظام، ولكنّنا نريد - فقط - أن نقول: إنّ الوصول لمدخل قرآني يسهِّل علينا عملية البحث، وإلا.. فيمكن بعد الوصول إلى المصطلح أن نعقد محوراً تحت عنوان (الفرق بين الشورى الإسلامية ونظام الديمقراطية).

الديمقراطية الغربية والاستشارية الإسلامية



هناك فروق بين الديمقراطية الغربية/ والاستشارية الإسلامية، منها:

أ- السيادة:

السيادة في النظام الديمقراطي للشعب، بمعنى أنّ الشعب هو سيّد نفسه، وليس هناك قوة أعلى من سلطة الشعب. بينما في نظام الشورى السيادة للقانون (القرآن الكريم والسنة، أي الأحكام)، فحتى الحاكم لابدّ أن يخضع للقانون الإلهي..، بل وحتى الأنبياء والأئمة عليهم التقيّد بهذه القوانين.

ب- سنّ القوانين:

الذي يسنّ القوانين في النظام الديمقراطي هو الشعب، بينما في الإسلام لا حقّ لأحد في سنّ القوانين، فالأحكام هي من الله، والله كشف عنها في كتابه أو جعلها مخفية لحكمة، وطلب من العلماء الكشف عنها واستنباطها.

ج- الأكثرية:

يأخذ النظام الديمقراطي بالأكثرية على أنّه الحقّ، بينما يأخذ الإسلام بهذا المبدأ (الأكثرية) من باب الترجيح فقط، فرأي الأكثرية لا يمثّل الحقّ في النظام الإسلامي، فقد يكون الحقّ مع الأقلية[1].

(١) السيّد محمد مهدي الشيرازي، الشورى في الإسلام/ ٨٧.

الفرق بين (الكلمة المفتاح) و(الكلمات المساعدة):

في (الكلمة المفتاح) نحن أمام مصطلح حديث معاصر يتداوله زمننا، ونريد التعرّف عليه في القرآن الكريم، سواء أنتمى هذا المصطلح الحديث إلى اللغة العربية كـ(المجتمع) و(المدنية)، أم إلى غير الثقافة العربية كـ(الديمقراطية) و(الديكتاتورية)، فنزيح كثبان رمال القرون الممتدة بين زماننا وزمان النصّ لنعثر على المصطلح الموازي له المستعمل في ذاك الزمان، أي محاولة العثور على المصطلح القرآني الموازي للمصطلح المعاصر.

بينما في (الكلمات الرديفة) يكون المصطلح القديم نفسه توجد إزاءه كلمات أخرى قديمة، وقد استعمل القرآن الكريم مجموع تلك الكلمات في بسط الموضوع.

٤- الكلمات المقابلة (الضدّ):

وقد نحتاج – للتعرّف على موضوع ما.. – أن نقف عند الكلمات المقابلة إليه؛ لنتعرّف على الشيء بصورة أجلى عبر معرفتنا لضده، ومن ثمّ نستجلي صورة الضد في ضده.

وبعبارة أخرى: فإنّ الأخذ بالعنوان الأساس يعرّفنا على الشيء ذاته، والأخذ بالعنوان الضدّ يعرّفنا على المقابل للعنوان الأساس، كما يعرّفنا على العنوان الأساس نفسه عبر إدراك الحالة التي يخلو فيها أو التي يوجد مخالفه والآثار المترتبة على ذلك.

ومن باب تقريب الفكرة فقط نقول: إنّنا نستطيع أن ندرك أثر الشمس عبر طريقين: أولهما: دراسة آثارها التي تتركها عند ظهورها، كالضياء والحرارة، وثانيهما: دراسة آثارها عندما تغيب، فيحلّ الظلام والبرودة التي هي نواتج مقابلة تُعرف منها نتائجها المباشرة.

ولعلّ هذا النحو من إمكان إدراك الشيء عبر هاتين الطريقتين المتقابلتين هو ما دفع العرب من لدن الماضي القديم أن يقولوا في طَرَف (وبمثلها تتميّز الأشياء)، و(حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد)، وفي الطرف المقابل يقولون: (وبضدها تتميّز الأشياءُ)، (والضدّ يظهر حسنَهُ الضدُّ).

وقد حفل القرآن الكريم في دراسته الأشياء والصفات والنماذج وغيرها.. بالوقوف على الأضداد، فيعطي صورة للشيء، وأخرى لمقابله، وهذه الصورة للمقابل تعمل في استجلائه وتوضيحه كما تعمل في استجلاء الأصل، ومن ذلك:

- **الأرض/ السماء:**

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

- **الرجل/ المرأة:**

﴿وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾(٢).

- **الدنيا/ الآخرة:**

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٣).

- **الإيمان/ الكفر:**

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾(٤).

ولا يعني هذا أنّ التضاد مقصور على الكلمات الواضحة، فقد نصل إلى مستوى من العمق يحتاج إلى شيء من المعرفة حتى نعلم بالتضاد، مثل:

- **الخلق/ الأمر:**

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ

---

(١) سورة البقرة/ ٢٢.
(٢) سورة البقرة/ ٢٨٢.
(٣) سورة البقرة/ ٨٦.
(٤) سورة البقرة/ ١٠٨.

وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

فـ(الخلق) مرادفة لـ(عالم التكوين)، بينما (الأمر) مترادفة لـ(عالم التشريع).

- عالم الغيب/ عالم الشهادة:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[٢].

فـ(عالم الشهادة) يُطلق على العالم الحسّي المشهود بإحدى أدوات الحسّ، و(عالم الغيب) يُطلق على العالم غير المحسوس المشهود، مما هو غير خاضع للحسّ، أو لا تحتويه دائرة أدوات الحسّ الحاضرة عند الإنسان.

٥- التطبيقات القرآنية (المصاديق):

عندما نريد الإلمام بموضوع ما.. في القرآن يمكننا أن نستفيد من التطبيقات التي عرضها الذكر الحكيم لذلك الموضوع، أو النماذج التجسيدية التي ذكرها تمثيلاً له، وهذا يدخل في نطاق معرفة الشيء عبر المثال والنموذج، كما يضع أمامنا تطبيقات عملية، فلا يغدو البحث مجرّد طرح نظري.

فحينما نريد دراسة (المجتمع في القرآن الكريم) تعيننا معرفة نماذجه القرآنية مثل: قوم نوح، قوم إبراهيم، قوم لوط، قوم موسى، قوم يونس، قوم هود، قوم صالح، قوم شعيب و....

وقد ترد تحت لفظ (أصحاب)، كأصحاب الأيكة، وأصحاب مدين، وأصحاب الرسّ.

وقد ترد ضمن مسمّيات مباشرة لمجتمعات درسها القرآن الكريم كـ(بني إسرائيل، وسبأ، والفراعنة، عاد، ثمود، قريش)، بل حتى ضمن تطبيقات وأحداث جرت في تلك المجتمعات يمكن عبرها أن نتعرّف عليه كأن ندرس بني إسرائيل من خلال قصص البقرة وعبادة العجل ورفض دخول الأرض المقدّسة وغير ذلك، والذي يوصلنا – مما يوصلنا إليه – إلى أنّه مجتمع شكّاك معاند للأنبياء.

(١) سورة الأعراف/ ٥٤.

(٢) سورة الرعد/ ٩.

ومن الآيات التي حوت هذه المداخل الثلاثة معاً قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾(١)، فقوله (قَوْمُ نُوحٍ) تشير إلى نموذج مجتمعي، وقوله (أَصْحَابُ الرَّسِّ) مصدّرة بكلمة (أصحاب)، وقوله (ثَمُوْدُ) يستحضر مسمّى مباشر لمجتمع.

وبمثل هذه الطريقة (معرفة التطبيقات والمصاديق) نستطيع أن نتعرّف على كثير من المصاديق التي عرضها القرآن الكريم، ومنها:

- الحاكم العادل:

من مصاديقه (داوود وسليمان): ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٢).

- الحاكم الظالم:

من مصاديقه (النمرود وفرعون): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(٤).

- العالِم المخلص:

من مصاديقه (العبد الصالح: الخضر): ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(٥).

---

(١) سورة ق/ ١٢.
(٢) سورة الأنبياء/ ٧٨- ٧٩.
(٣) سورة البقرة/ ٢٥٨.
(٤) سورة البقرة/ ٤٩.
(٥) سورة الكهف/ ٦٥.

- العالِم المنحرف:

من مصاديقه (بلعم بن باعوراء): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(١).

وهذا لا يعني أنّ النماذج والمصاديق القرآنية تقتصر على المألوف الشائع المنتشر كما في الأمثلة السابقة، بل.. نستطيع تحريك فهمنا لمعرفة مصاديق ونماذج لما جدّ من أفكار وتطبيقات في حياتنا، وله نظير قرآني مماثل، ومن ذلك:

- حقوق الإنسان:

من مصاديق حقوق الإنسان حفظ القيمة المعنوية والأخلاقية للإنسان، وعدم إنكار ما لديه من فضائل ومنجزات: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٢).

- الذكاء الاجتماعي:

من مصاديقه فهمُ ابنة النبي شعيب عليه السلام لقوة موسى عليه السلام وأمانته مما رأته منه من أفعال منها السقي لهم، وذكرُ موسى لحرية أخذه لأيّ الأجلين في مدة الأجرة: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(٣).

- سياسة التمييز العنصري:

من مصاديقها سياسة التفريق الفرعونية بين أقباط مصر الذي احتلوا دور الأسياد، وبني إسرائيل الذين مورس بحقهم الاستعباد والإذلال والقتل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف/ ١٧٥.

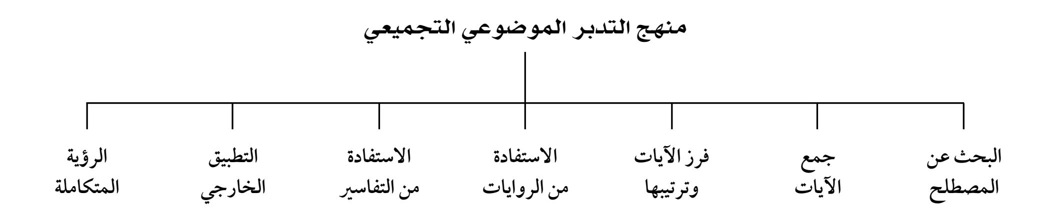
(٢) سورة الشعراء/ ١٨٣.

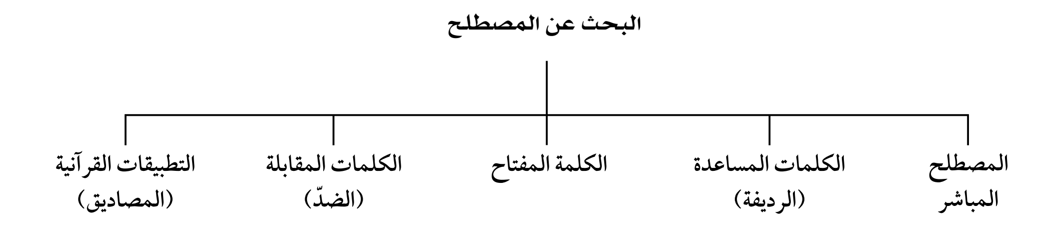
(٣) سورة القصص/ ٢٦- ٢٨.

(٤) سورة القصص/ ٤.

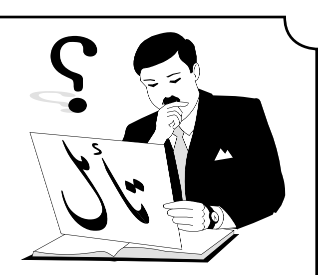
- سياسة الإقصاء للمختلف:

من مصاديقها تهديد الكفار للأنبياء ومن آمن بهم باتباع الفكر السائد في المجتمع، ومشـايعة المجتمـع، وإلا تـمّ إخراجهم كرهـاً وإبعادهم: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾[١]، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾[٢].





(١) سورة النمل/ ٥٦.
(٢) سورة إبراهيم/ ١٣.



ت١: أضعُ علامـة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- عندما لا نجد المصطلح المباشر لبحثنا موجوداً في القرآن الكريم، فقد تعذرت عملية التدبر الموضوعي. ( )

ب - ليس في القرآن كلمات (ضدّ)؛ لأنّ القرآن لا يحمل الكلمات ذات الظلال السلبية. ( )

ج - لكلّ كلمة (مفتاح) كلمة (رديفة) بالضرورة. ( )

د - إذا كانت اللغة العربية لا تحمل لفظين مترادفين، فلا داعي للبحث عن الكلمات المرادفة في القرآن؛ لاختلاف المعنى بينها. ( )

هـ - المصطلح القرآني الموازي لمصطلحاتنا المعاصرة اليوم، نسمّيه: المصطلح المساعد (الرديف). ( )

ت٢: ما هي الكلمة المفتاح لكلّ من:

أ - الكنيسة. ب- الطابور الخامس (الجواسيس).

ج- الإرهاب الفكري. د - السياسة البراجماتية (النفعية).

ت٣: انبثقت في ذهني فكرة معالجة موضوع مشكلات الأسرة وسبيل علاجها قرآنياً، فما هي - أولاً - الكلمة (أو الكلمات) المفتاح المقابلة للفظة الأسرة؟، وما هي - ثانياً - التطبيقات التي ذكرها القرآن للأسرة (أريد نموذجين).

ت٤: ما هي التطبيقات والمصاديق القرآنية التي تتناسب والعناوين التالية:

أ - حبّ الذات. ب- التطهير العرقي. ج- الترشيد الاقتصادي.

ج- العفاف. د - الثورة. هـ- البَطر.

الخطوة الثانية: جمع الآيات

التدبر الموضوعي التجميعي يُعنى بدراسة أبعاد الموضوع - المراد دراسته - في جميع الآيات القرآنية التي تناولته من جهة أو أخرى، وباعتبار أنّ القرآن الكريم كلٌّ لا يتجزأ ويمثل وحدة عضوية وموضوعية متكاملة فإنّ القرآن الكريم قد يتناول الموضوع بصورة عامة في آية من الآيات، بينما يتناوله في آية أخرى بصورة تفصيلية وتوضيحية أكثر، أو يتعرض لجانب منه في موضع، ويأتي على جانب آخر منه في موضع ثان.

لذلك، وجب قبل البدء في التدبر الموضوعي التجميعي جمع الآيات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع للحصول على نظرة شاملة وواضحة.

وبدلاً من البدء من نقطة الصفر بقيام الباحث بجمع الآيات مباشرة من القرآن الكريم يمكن الاستعانة بالمعاجم التي قامت بالجمع، وهي على أنواع:

أولاً: معاجم الألفاظ:

وهي المعاجم التي تجمع الآيات التي حول (كلمة) معيّنة مع بعضها، أو تهتمّ بمادة الكلمة (الجذر الأصلي لها)، ثمّ الهيئات المشتقة منها، ففيما يتعلق بمادة (ح ف ظ)، تضع جذرها (حفظ)، ثمّ (استحفظوا/ نحفظ/ يحفظن/ يحفظون/ يحفظونه/ احفظوا/ حافظوا/ ....).

ومن أمثلة معاجم الألفاظ:

١- نجوم الفرقان في أطراف القرآن، للمستشرق الألماني فلو جل [صدر في ١٨٤٢م].

٢- المعجم المفهرس للقرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي [صدر في

١٩٤٥م].

٣- الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، للشيخ محمد هويدي.

٤- معجم كلمات القرآن العظيم، لمحمد عدنان سالم، ومحمد وهبي سليمان.

وقد وقف البعض بقوة ضد القيام بعمل يرتب الآيات القرآنية ترتيباً لفظياً، بدلاً من ترتيبها السائد في المصحف، وأملت عليهم فكرة (قداسة النصّ الديني) أنّ ذلك مساس بقدسية القرآن، وقارب بعضهم ذلك بالتحريف، أو التمرد الذي يخلّ بقدسية التدوين التوقيفي الذي لا تجوز مخالفته!!

وكانت واحدة من نتائج هذه الأفكار المحافظة أن جعلت التدوين الموضوعي للآيات ينشأ في أحضان الغرب والمستشرقين تحديداً، وجعلت ولوجه إلى الحظيرة الإسلامية والعربية يتأخر لأكثر من قرن من الزمان عما هو لدى الغرب، فضلاً عن حرمان المسلمين أن يكونوا المبدعين لهذا النوع من الجمع، وقد مرّ بنا قبل قليل أنّ كتاب (نجوم الفرقان في أطراف القرآن)، للمستشرق الألماني (فلو جل) قد صدر عام ١٨٤٢م، ويبدو أنّه التجربة الأولى الرائدة في هذا الحقل، بينما جاءت التجربة المسلمة الأولى في كتاب (المعجم المفهرس للقرآن الكريم)، لمحمد فؤاد عبد الباقي الذي صدر في ١٩٤٥م، ويفصل بينهما مئة وثلاث سنوات!!

ثانياً: معاجم الموضوعات:

وهي الآيات التي تعنى بجمع الآيات المتفقة في الموضوع (المعنى) وإن اختلفت الألفاظ المعبّرة عنه، فإذا أرادت أن تجمع الآيات عن (الجهاد) تجمعها من مفردات هذه المادة، ومن المفردات الأخرى التي قد تتعلق بالموضوع، مثل: القتال، الحرب، الغزو، و....

ومن أبرز معاجم الموضوعات:

١- تفصيل آيات القرآن الحكيم، للمستشرق الفرنسي (جول لابوم)، تعريب: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، لصبحي عبد الرؤوف عمر.

٣- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، لحسّان عبد المنان.

٤- الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم، لمحمد مصطفى محمد.

٥- المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم، إعداد: محمد بسّام الزّين. إشراف: محمد عدنان سالم.
٦- المعجم المفهرس لمواضيع القرآن الكريم، لمحمد نايف معروف.
٧- المعجم المفصّل لمواضيع القرآن المنزل، لمحمد خليل عيناني.
٨- الجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم، لمحمد فارس بركات.
٩- الترتيب والبيان عن تفصيل آيّ القرآن، لمحمد زكي صالح.
١٠- تبويب آيّ القرآن الكريم من الناحية الموضوعية، لأحمد إبراهيم مهنا.

ثالثاً: معاجم الأعلام:

ونعني بها: المعاجم التي تتتبّع الأعلام الواردة في القرآن الكريم، كالأعلام الشخصية (آدم، نوح، هود، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، ....)، (قابيل، هامان، قارون، السامري، ....)، أو الأعلام الجمعية (الروم، اليهود، النصارى، المسلمون،....)، أو أعلام البلاد (مصر، الأرض المقدسة، بكة)، أو أسماء المعارك (بدر، الأحزاب، حنين).

وقد كتب عبد الصبور مرزوق (معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم)، وهو مما يندرج ضمن (معاجم الموضوعات)، ولو فصل (معجم الأعلام) لوحده لكان نواة لنوع جديد من المعاجم يدمجه الأكثرون تصنيفاً وتطبيقاً ضمن معاجم الموضوعات.

وكتب الدكتور شوقي أبو خليل (أطلس القرآن: أماكن، أقوام، أعلام)، وهو معجم مزوّد بالخرائط الجغرافية الموضّحة.

كما صدر عن مركز الثقافة والعلوم القرآنية في (قم/ إيران) كتاب (أعلام القرآن)، وعني بتتبّع أسماء الأشخاص والأماكن التي ذُكرت في القرآن الكريم بشكل مباشر أو غير مباشر، وذكر قصص الأعلام القرآنية.

رابعاً: المعاجم الإليكترونية:

كما يمكن الاستفادة من البرامج الكمبيوترية كبرنامج (قالون)، و(النور)، وغيرهما..

وعند البدء في جمع الآيات سنجمع الآيات الصريحة والواضحة التي تتضمن المصطلح المراد بحثه، كما نجمع الآيات التي تحتوي على بعض القرائن التي تدل على

ذلك وتستحضره، والأولى تستدعيه بشكل مباشر، والثانية تستدعيه بشكل غير مباشر، ومن هنا لابدّ من معرفة هذه القرائن حتى يتسنى لنا البحث بطريقة سليمة ونافعة.

فلو أردنا دراسة (ثمود) في القرآن الكريم، ستفيدنا هذه الكلمة في عملية البحث، كما يفيدنا أن نعرف من القرائن المعيْنة: أنّهم أنفسهم (قوم صالح)، وأنّهم الذين جرت عندهم حادثة (الناقة) وعقرها، ومن ثمّ فمن الآيات التي سنجمعها:

- ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ**﴾[1].

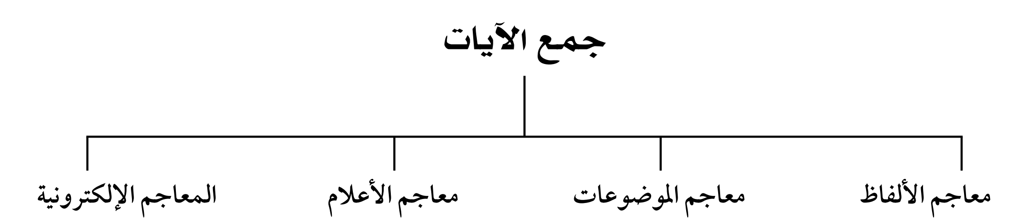
- ﴿**وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ**﴾[2].

- ﴿**قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ**﴾[3].

- ﴿**فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ**﴾[4].

- ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[5].

وهذه الآية الأخيرة جمعت كثيراً من (متغيّرات البحث): فقد ذكرت اسمهم (ثَمُودَ)، وأنّ نبيّهم الذي أُرسل إليهم صالح (أَخَاهُمْ صَالِحًا)، وأنّهم قومه (يَا قَوْمِ) – وهي مخففة من (يا قومي) –، وأنّهم الذين جرت معهم فتنة الناقة (هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً).



(١) سورة الشعراء/ ١٤١.
(٢) سورة هود/ ٨٩.
(٣) سورة الشعراء/ ١٥٥.
(٤) سورة القمر/ ٢٩.
(٥) سورة الأعراف/ ٧٣.

ت١: أضعُ علامــة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ - أول مـن ألـف كتابـاً معروفـاً لدينـا في فهرسـة القرآن الكريم كان مستشرقاً ألمانياً. ( )

ب- أسـهمت فكرة (قداسة النصّ الديني) في تأخر ظهور المعاجم القرآنية. ( )

ج - تمتاز كتب الفهرسـة عن الفهرسـة الكمبيوترية: أنّها تضع الألفاظ ذات الجذور الواحدة في مكان واحد يسهل العثور عليها. ( )

د - لا تفيدنا معرفة القرائن في عملية جمع الآيات. ( )

ت٢: مــا الفرق بيــن أن نجمع آيات تدور حول العنصريــة وبين آيات أخرى تتحدث عن الربوبية من حيث:

أ- عدد الآيات المستخرجة.

ب - صعوبة البحث.

ج - الجِدة والحداثة.



الخطوة الثالثة: فرز الآيات وترتيبها

نزلت آيات الذكر الحكيم على مسافة زمنية طولها ثلاث وعشرون سنة هي عمر الرسالة المحمدية المباركة، وترتيبها بهذا الاعتبار - أي حسب النزول - نسمّيه (الترتيب التاريخي)، أو (الترتيب الزمني)، ويفيدنا كثيراً في معرفة تدرّج الرسالة والأحكام والوقائع التاريخية وغير ذلك.

بيد أنّ النبي الأكرم محمداً ﷺ - وبأمر من الله تعالى - رتّبها في المصحف الشريف ترتيباً آخر، فكان إذا نزل عليه شيء من القرآن يدعو بعض مَن يكتب عنده، ويقول لهم: «(ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)، وينزل عليه الآيات، فيقول: (ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)، وينزل عليه الآية، فيقول: (ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)»[1].

ويقول عثمان بن أبي العاص: «كنتُ عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم - جالساً إذ شخص ببصره ثمّ صوّبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض قال: ثمّ شخص ببصره فقال: أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[2]»[3].

وقد اكتملت كثير من السور القرآنية، ورُتبت آياتها في زمن مبكر من عمر الرسالة الشريفة، يقول عبد الله بن مسعود: «قرأتُ على النبي ﷺ سبعين سورة من القرآن

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٩٢، (مسند عثمان بن عفان)، ح ٤٠١.
(٢) سورة النحل/ ٩٠.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٥٤، (حديث عثمان بن أبي العاص)، ح ١٧٤٥٩.

أخذتها من فيه، وزيد ذو ذؤابتين يلعب مع الغلمان»[١].

و(زيـد) المذكـور في هذه الرواية هو (زيد بن ثابت) - أحـد كتّاب الوحي -، وإذا علمنـا أنّ زيـداً ولـد في ١١ ق هـ/ ٦١١م، كان ذاك قرينة على أنّ السـور السـبعين التي أخذها ابن مسـعود هي من السـور المكية الـ٨٦؛ لأنّ سـور القرآن ١١٤ سورة، منها ٨٦ مكية، و٢٨ مدنية، وأنّ هذه السور السبعين التي عناها اكتملت وزيد بن ثابت لا زال صبياً (يلعب مع الغلمان) قبل أن يجيد الكتابة، ويصبح من كتّاب الوحي.

ويقـول الرسـول ﷺ: «أعطيـتُ الطـوال مكان التـوراة، وأعطيـتُ المئين مكان الإنجيل، وأعطيتُ المثاني مكان الزبور، وفضّلتُ بالمفصّل: سبع وستين سورة»[٢].

وهذا الحديث يقسّم سور القرآن إلى أربعة أقسام هي: الطوال، والمثاني، والمئون، والمفصّل، وهذا يعني اكتمالها وقته في سور، كما يظهر في ختامه عدّ المفصّل بـ (٦٧)، وتسميتها بـ (السورة).

وقـد دخل عمر بن الخطـاب ليلة على النبي ﷺ وهو محموم أو موقوذ (شـديد المرض مشرف)، فقال عمر: «يا رسول الله، ما أشدّ وعكك أو حمّاك!!، فقال ﷺ: ما منعني ذلك أن قرأتُ ثلاثين سورة، فيهنّ السبع الطوّل»[٣].

وقصة الحديث تجري في المدينة المنورة، حيث نزلت أكثر السـور السبع الطوال، وهي: (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والأنفال مع التوبة)، وقيل: السابعة: هي يونس[٤]، وجميع هذه السور مدنية ما عدا (الأنعام، والأعراف، ويونس).

وواضح فيه أنّ الرسول ﷺ قرأ ثلاثين سورة، بمعنى اكتمالها، وترتيب آياتها في سياج سورة، ومنها تلك السور السبع الطويلة.

وهذا الترتيب الذي أمر به النبي الأكرم ﷺ، والموجود في المصحف الشـريف بين المسلمين اليوم، هو ما نسمّيه بـ (الترتيب التدويني) أو (الترتيب التوقيفي).

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٧٣، الباب ٧، ح ٤٨.
(٢) نفسه ٨٩/ ٢٧، الباب ١، ح ٣١.
(٣) نفسه ٨٩/ ١٩٨، الباب ٢٣، ح ٩.
(٤) نفسه ٨٩/ ٢٧- ٢٨، الباب ١، ح ٣١، الحاشية (٤)، وواضح في هذا الرأي عدّ الأنفال والتوبة بمثابة سورة واحدة، وكانوا يسمّونهما (القرينتين)؛ لعدم الفصل بينهما بالبسملة، [بحار الأنوار ٨٩/ ٢٧- ٢٨، الباب ١، ح ٣١، الحاشية (٤)].

وحين برز التدبر والتفسير الموضوعي احتاج إلى شكل جديد من الترتيب يأخذ في حسبانه (منهجة الموضوع ومحاوره ونقاطه)، وهو ما نسمّيه بـ (الترتيب الموضوعي) أو (الترتيب البحثي).

وإلى هنا، نحن أمام ثلاثة أنواع من ترتيب الآيات القرآنية:

١- الترتيب التاريخي (الزمني).
٢- الترتيب التدويني (التوقيفي).
٣- الترتيب الموضوعي (البحثي).

وقد اهتمّت بعض علوم القرآن والدراسات الفقهية بالترتيب التاريخي؛ لمعرفة الناسخ والمنسوخ وغيره؛ لأثر هذا الترتيب في معرفة حركة الرسالة، وتطور الحكم الفقهي، واستنباط الأحكام.

بينما اهتمّ التدبر والتفسير الموضعي/ التحليلي بالترتيب التدويني؛ لاعتماده على تسلسل الآيات في المصحف الشريف عند قيامه بعملية التفسير الموضعي المنصبّة على (الموضع)، سواء أكان سورة أو مجموعة من الآيات.

وحين نُعمل التدبر أو التفسير الموضوعي قد يقتضي الموضوع ومنهجته الأخذ بالترتيب التاريخي أو التدويني، وقد يقتضي الأخذ بالترتيب الموضوعي؛ فيعيد الباحث ترتيب الآيات بما يخدم الرؤية المنهجية للموضوع، ومن ثمّ فالتدبر الموضوعي التجميعي (تركيبي) في مقابل التدبر الموضعي الذي هو عمل تحليلي (تفكيكي)، وفي مقابل الموضوعي الكشفي الذي هو - كذلك - عمل (تحليلي).

فبعد الانتهاء من جمع الآيات، يقوم التدبر الموضوعي التجميعي بفرز الآيات وتصنيفها بحيث تتضح معالم الموضوع بشكل أكبر.

أي أنّنا نعني بـ (فرز الآيات): تصنيف الآيات المندرجة ضمن موضوع واحد إلى أسباب ونتائج، مقوّمات ومعوّقات، أنواع وأشكال، أدوات وأساليب، أفكار وتطبيقات، وغيرها الكثير..

إنّ القرآن الكريم رتّب آياته ترتيب هداية؛ فتمازج في الآية الواحدة العقدي بالأخلاقي بالتشريعي، وفُصّلت أسباب في مواقع شتى، كما فُصلت نتائج وأنواع و.....، وإذا أردنا القيام بتدبر موضوعي لموضوع قرآني نحتاج إلى إعادة فرز تلك الآيات على حسب العناوين الأصلية والفرعية والنقاط التي تخدم البحث أو الموضوع.

فمثـلاً حيـن نريد القيام ببحث حول موضوع (الظلـم) - وبعد خطوة جمع الآيات في هذا المجال - تأتي خطوة فصل الآيات بشكل منهجي منظم؛ لنضع التي تتحدث عن (معنى الظلم) مع بعضها، ونفصِلها عن آيات أخرى تتحدث عن (أسـباب الظلم)، وثالثة عـن (أشـكال الظلم وأنواعه)، ورابعة عن (مظاهر الظلم)، وخامسـة عـن (كيفية مواجهة الظلم)، وهكذا.. حتى يتمّ فرز جميع الآيات عن بعضها البعض.

وسـوف تقتضـي الدراسـة المنهجية للموضـوع تقديم الآيـات التـي تتحدّث عن (معنـى الظلم) علـى أختها التي تتحدّث عن (كيفية مواجهتـه)، حتى لو كانت متأخرة في تاريخ النزول، أو متأخرة في مكانها التدويني في المصحف الشريف.

حلّ التعارض الظاهري:

وبعـد الانتهـاء من فرز الآيات قد نتصوّر أنّ بعضهـا متعارضة ومتناقضة ومتضادة؛ مـن هنا نـدرك أنّ هنالك حاجة لترتيب الآيات في مجموعـات والجمع بينها؛ وذاك لرفع توهم التعارض.

فالمقصود من (ترتيب الآيات): تنسيقها في مجموعات، والجمع والتوفيق بينها.

سـنجد أنّ في القـرآن آيات ظاهرها التعـارض والتناقض، ولا يمكن أن نسـتخرج الرؤيـة الكليـة المتوازنة من الاقتصار على طـرف منها، لذلك وجـب التعرّف على طرق الجمـع بيـن الآيات، وقد مـرّ بنا سـابقاً أنّ المعصومين عليهم السلام عملوا بطـرق عدة للجمع، وطبّقوها لاستخراج الرؤى والأفكار من القرآن الكريم، وسنتناول أربعاً منها، هي:

أولاً: الجمع الترتيبي.
ثانياً: الجمع التفسيري.
ثالثاً: الجمع الاستنباطي.
رابعاً: الجمع الموضوعي.

أولاً: الجمع الترتيبي:

نعني بـ(الجمع الترتيبي): «فرز مجموعة من الآيات، وترتيبها ترتيباً منطقياً»[1].

---

(١) التدبر في القرآن/ ١١٩.

ذكرنـا فيما مضـى أنّ هنالك بعض الآيات تبدو للوهلة الأولـى أنّها متعارضة بينما هـي في حقيقة الأمر ليسـت كذلـك، لذلك وجب قبل البدء باسـتخراج الأفكار التدبرية ترتيـب هذه الآيـات ترتيباً منطقياً منظماً يعتمد على عنصر الزمن أو عنصر التكامل أو غير ذلك..

والجمـع الترتيبي يهدف من ذلـك الفرز: الوصول إلى العديد مـن الأمور، ومنها: فهـم مرحلية هبـوط الآيات فهماً سـليماً، وحلّ التناقـض الظاهري بين الآيـات، ومعرفة الخصائص الفنية للآيات.

١- فهم مرحلية هبوط الآيات:

الترتيـب المنطقـي الـذي نحتاجه لفهـم مرحلية هبـوط الآيات يسـتدعي أن نأخذ بترتيـب زمني صحيـح لها، به نعرف السـابق واللاحـق، ونبصر التدرّج الزمنـي، ومن ثمّ انتقال الأحكام وفق الجديد الذي يمثّل التشريع الأخير النازل.

ففي الآيات التي تتكلّم عن الجهاد في سبيل الله لن نجد آية مكية تحثّ عليه؛ لأنّ جهـاد الدفـع (الجهاد الدفاعـي) وجهاد الابتداء (الاجتهـاد الابتدائي) معاً لم يُشـرّعا في مكة، وكان المسلمون يتعرّضون للأذى والضرب والشجّ، فيشتكون ذلك للرسول الأكرم ﷺ، فيقول لهم: «اصبروا، فإنّي لم أؤمر بقتال»[1].

ولمـا هاجر إلى المدينة المنورة شُـرع - أولاً - جهاد الدفـع: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[2]، وبعد أن قويت شوكة المسلمين في المدينة سُنّ جهاد الابتداء: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ**﴾[3].

٢- حلّ التناقض الظاهري بين الآيات:

فالنظر للآيات بشـكل غير منظم قد يخلق تناقضـاً وتعارضاً بينها، ولكن عن طريق معرفة وفهم طبيعة الآيات فهماً دقيقاً، وتنسيقها مع بعضها البعض، يتلاشى هذا التعارض

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، م ٤، ج ٧، ص ١٣٨.
(٢) سورة الحج/ ٣٩.
(٣) سورة البقرة/ ١٩١.

وينتهي.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام متحدّثاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها؛ إذ لم يتركوهم همَلاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم: كتابَ ربّكم فيكم: مبيّناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصّه وعامّه، وعِبَره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسّراً مجمله، ومبيّناً غوامضه»[١].

فهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام يوضّح أنّ في القرآن أنواعاً من الآيات التي تحتاج إلى جمعها مع بعضها لمعرفة المعنى الكلي، ومنها:

أ- الناسخ والمنسوخ.
ب - العام والخاصّ.
ج - المرسل والمحدود (المطلق والمقيّد).
د - المحكم والمتشابه.
هـ - المجمل والمفسّر (المجمل والمفصّل).
و - الغامض والمبيّن.

وعلى هذا فللجمع الترتيبي أشكال ومواقع، سنتناول الخمسة الأولى منها هنا، مغيّرين في ترتيبها بعض الشيء لدواعٍ موضوعية، وسنتناول السادس منها - أي (الغامض والمبيّن) - في فقرة (الجمع التفسيري).

أ - المحكم والمتشابه:

المحكم - لغة - المتقن[٢]، وفي العرف يُطلق على «ما له معنى لا يحتمل غيره، وعلى ما اتضحت دلالته، وعلى ما كان محفوظاً من النسخ أو التخصيص، أو منهما جميعاً، وعلى ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً»[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: «المحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى»[٤].

(١) نهج البلاغة/ ٤٤، الخطبة ١.
(٢) لسان العرب ٣/ ٢٧٠، مادة: (حكم).
(٣) بحار الأنوار ٦٦/ ٩١، كتاب الكفر والإيمان، الباب ٣٠، ذيل الرواية: ٣٠.
(٤) المفردات في غريب القرآن ١/ ١٦٩، مادة: (حكم).

قال تعالى واصفاً كتابه الكريم: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[١].

والقرآن يستعمل كلمة (متشابه) بمعنى متماثل، يشبه بعضه بعضاً، ويثني بعضه على بعض مثاني، ويعطف بعضه على بعض: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٢].

وقد استعمل القرآن كلمة (متشابه) في المأكولات المتماثلة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٣].

كما تأتي كلمة (متشابه) في القرآن بمعنى «ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره: إما من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى. فقال الفقهاء: المتشابه: ما لا ينبىء ظاهره عن مراده»[٤]، ومن ثمّ يحتاج لكي يُعرف معناه إلى رده إلى الله والراسخين في العلم.

ومن باب تبسيط العبارة: فالمعنى الأول مأخوذ من (التشابه)، والمعنى الثاني مأخوذ من (الاشتباه).

قال الإمام الصادق عليه السلام: «المتشابه ما يشبه بعضه بعضاً»[٥]، وقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن المحكم والمتشابه فقال: «المحكم: ما يُعمل به، والمتشابه: ما اشتبه على جاهله»[٦].

يقول الله – عز وجلّ –: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[٧].

---

(١) سورة هود/ ١.
(٢) سورة الزمر/ ٢٣.
(٣) سورة الأنعام/ ١٤١.
(٤) المفردات في غريب القرآن ١/ ٣٣٥، مادة: (شبه).
(٥) بحار الأنوار ٦٦/ ٩٣، كتاب الكفر والإيمان، الباب ٣٠، ذيل الرواية: ٣٠.
(٦) نفسه ٦٦/ ٩٣، كتاب الكفر والإيمان، الباب ٣٠، ذيل الرواية: ٣٠.
(٧) سورة آل عمران/ ٧.

فآيات القرآن الكريم على قسمين أو نوعين: فإما أن تكون آيات (محكمة) بمعنى أنّها واضحة الدلالة والمعنى، أو تكون آيات (متشابهة) أي مختلف في معناها.

ففي الحديث عن صفات الله تعالى، من أمثلة (المحكم) قوله سبحانه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾(١)، ومن أمثلة (المتشابه): الآيات الموحية بوجود أعضاء لله - سبحانه وتعالى -، وقد ذكرنا اختلاف الآراء حولها في كلامنا عن (التفسير العقدي الكلامي).

وسوف نضرب هنا مثالاً آخر هو: الآيات التي تتحدّث عن وجود معاصي للأنبياء:

فقد قال الله عن نبيّه آدم: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾(٢).

وقال عن نبيّه نوح عليه السلام: ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾(٣).

وقال عن نبيّه يوسف عليه السلام: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾(٤).

وقال عن نبيّه يونس عليه السلام: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾(٥).

وقال عن نبيّه موسى عليه السلام: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾(٦).

وقال عن النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾(٧)، ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ**

(١) سورة الشورى/ ١١.
(٢) سورة طه/ ١٢١.
(٣) سورة هود/ ٤٦.
(٤) سورة يوسف/ ٢٤.
(٥) سورة الأنبياء/ ٨٧.
(٦) سورة القصص/ ١٥.
(٧) سورة الفتح/ ١-٢.

لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[١].

ومن طرف آخر يقول:

- ﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[٢].

فهذه الآية تتضمن اصطفاء فردياً (آدم/ نوح)، واصطفاء مجموعياً (آل إبراهيم/ آل عمران)، ومن آل إبراهيم المصطفَين بالنبوة: يوسف، وموسى وعيسى ومحمد، ومن آل عمران المصطفَين: السيّدة مريم، ومن المصطفين منهم بالنبوة: عيسى[٣].

وعلى رأس أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً يقف النبي محمد ﷺ، وفيه وفيهم قال - سبحانه وتعالى -: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[٤].

ولا نريد أن نناقش هذه الأمثلة بالتفصيل، ولكن.. نريد أن نقول: إنّها مثّلت مسارين مختلفين في وجهات نظر المفسِّرين:

فهناك مَن جوّز على الأنبياء قبل بعثتهم فعل الذنوب والمعاصي!!، أو تبنّى أنّ للأنبياء - حتى بعد بعثتهم - بعض المعاصي، كهذه المذكورة بمعناها الظاهر المباشر، وأنّ بعضها ناتج لحظات ضعف إنساني مرّوا به بوصفهم بشراً!!

وهناك مَن نفى الذنوب والمعاصي عن الأنبياء قبل بعثتهم وبعدها، وذهب إلى أنّ هذه العبارات ولفظ المعصية في بعضها تُحمل على (المعنى اللغوي لا العقدي)، أو أنّها (في نظر المجتمع أو بعض فئاته - كمناوئي الأنبياء - معاصي، وسمّاها القرآن بتسميتهم لها)، أو أنّها من (باب ترك الأولى)، أو أنّها من باب (حسنات الأبرار سيئات المقرّبين)، أو أنّها في (مقام القرب من الله تعدّ معصية) لا أنّها معصية حقيقة، أو أنّها (في طريق

---

(١) سورة التوبة/ ٤٣.

(٢) سورة آل عمران/ ٣٣.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢/ ٣٤٩.

يرد اسم النبي (يونس بن متى) في كثير من التفاسير وكتب الحديث وقصص الأنبياء هكذا دون مواصلة سلسلة الآباء بعد أبيه (متى)، فلا يُعلم أهو من آل النبي إبراهيم أم لا؟، بيد أنّ ابن عساكر ذكر اسمه فأوصله إلى العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، [ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري ١٠/ ٥٩]؛ وعليه يكون يونس من ذرية النبي إبراهيم الخليل المصطفين بالنبوة.

(٤) سورة الأحزاب/ ٣٣.

الكمالات اللامتناهية تبدو ذنوباً)، أو أنّها (استشعار نفسي في حضرة الربّ العظيم).

ولا يختصّ المحكم والمتشابه بالآيات العقدية، فمن الآيات التي التبس فيها البعض: عدد أيام الخلق الرّباني للسماء والأرض:

فقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾(١).

وهذه الآية تصرّح بأنّ العدد هو ستة أيام.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾(٢).

وحاصل جمع الأعداد في هذه الآيات هو: ٢ + ٤ + ٢ = ٨.

لكنّ هذا الاشتباه جاء من عدّ خلق الأرض في يومين منفصلاً عن جعل الرواسي فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام، والحقيقة أنّ الآية الثانية هذه إعادة للعدد السابق واختزان له، فخلق الأرض والرواسي والأقوات كاملاً كان في أربعة أيام، أما خلق الأرض – وحده – دون جعل الرواسي والأقوات فكان في يومين، أي أنّ خلقها كان في يومين، وجعل الرواسي والأقوات كان في يومين آخرين، فتلك أربعة أيام، وخلق السماوات كان في يومين فتلك ستة كما صرّحت الآية في المقطع الأول.

ولابدّ هنا أن نشير إلى الملاحظات التالية:

الأولى: التشابه.. أمر نسبي:

فكون شيء من (المحكم) أو من (المتشابه) مسألة نسبية، تتأثر بمستوى اطلاع الإنسان، ومقدار حصيلته اللغوية والعلمية، ومدى الرؤى المعيارية التي يعتنقها سواء

---

(١) سورة الأعراف/ ٥٤.

(٢) سورة فصّلت/ ٩- ١٢.

أكان في المجال العقدي أم غيره.

ومِن ثمّ فالشيء الذي يكون عند شخص (متشابهاً) تلفّه الحلكة الدامسة، قد يرتكن عند آخر في غرفة البديهيات أو المسلّمات أو الضروريات، ومِن ثمّ فهو - عنده - أوضح من الشمس في رابعة النهار؛ ولذلك قال الإمام الصادق عليه السلام في الرواية المتقدّمة: «المتشابه: ما اشتبه على جاهله»، أي أنّ كونه متشابهاً مقصور على الجاهل به، وهو عند العالم به ليس بمشتبه، فالتشابه أمر نسبي تتعدد مواقف الناس تجاهه، وتتمايز، وتختلف.

الثانية: الوظيفة الشرعية:

الوظيفة الشرعية في (المحكم) هي العمل به، وفي المتشابه رده إلى الله والراسخين في العلم: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْم**﴾، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين به، وأما المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به»[(١)].

والعمل بالمتشابه دون فهمه يلقي الإنسان في الحيرة، ويرميه في متاهات الضلال.

لكنّ المنافقين وذوي الشك والهوى يعكفون على المتشابه؛ لما يتيح لهم من فرص لخلق الفتن العقدية والفكرية والعملية، ولما يتيح لهم من إمكانيات لتأويل الآيات وفق مشتهياتهم ومراداتهم: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ**﴾.

الثالثة: الآية الحاضنة والأبناء المحضونون:

والقرآن حين يعبّر عن الآيات المحكمة بأنّها (أمّ الكتاب): ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾، يستحضر في أذهاننا تصويراً فنياً نبصر فيه أنّ الآيات المتشابهة هي (أبناء وأولاد) لتلك الأم، وكما أنّه لرعاية الأبناء ينبغي إعادتهم للأم، فلفهم المتشابه لابدّ من إعادته إلى المحكم؛ لتكون دلالة المحكم هي الموجّه لمعنى المتشابه، وليفسَّر المتشابه في ضوء هيمنة المحكم عليه.

ومن ثمّ احتجنا في تفسير المتشابه إلى العودة إلى المحكم، ففي آيات الصفات

(١) بحار الأنوار ٦٦/ ٩٣، كتاب الكفر والإيمان، الباب ٣٠، ذيل الرواية: ٣٠.

الإلهيـة الخبريـة عدنا إلى قوله تعالـى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ وَهُوَ السَّـمِيعُ البَصِيرُ﴾، وفي معاصـي الأنبيـاء رجعنا إلـى قوله تعالـى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَـى آدَمَ وَنُوحًـا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْـرَانَ عَلَـى الْعَالَمِيـنَ﴾، وفي تحديد عـدد أيام الخلـق الرّباني رجعنا إلـى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

ب- الناسخ والمنسوخ:

النسخ اصطلاحاً: «رفع ما هو ثابت في الشريعة من الأحكام ونحوها»[(١)].

أو «هو رفع أمر ثابت في الشـريعة المقدسـة بارتفاع أمده وزمانه، سـواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفية أم الوضعية، وسواء أكان من المناصب الإلهية أم من غيرها من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى بما أنّه شارع»[(٢)].

أو «هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر»[(٣)].

ويُسمى الدليل الرافع (ناسخاً)، والمرفوع (منسوخاً).

وواضـح فـي التعريفات السـابقة مـدى الحرص والتأكيـد على أنّ النسـخ (رفع)، وليس (تعليقاً).

بمعنى أنّ المنسـوخ كان تشـريعاً ثابتاً، لكنّه من حين نسـخه يكون قد انتهى وأُلغي وأُبطل كحكم تشـريعي، ولم تعد له السـراية والفعلية في التكليف، وليس (معلّقاً) بمعنى إمكانية عوده لعالم التكليف مرة أخرى، كما لو حصلت ظروف مشابهة للظرف الذي جاء الحكم المنسوخ في زمنه وإطاره، وهذا الرفع يعني أنّ الحكم المنسوخ قد أُلغي من حين مجيء الناسـخ إلى آخر الزمان، وأنّ الدليل السـابق الذي أنتج الحكم المنسـوخ رُفع أثره التشـريعي، والسـاقط لا يعود لدنيا التكليف مرة أخرى إلا بدليل جديد له هو فعلية الأثر، ولا يكفـي فيه مجرّد وحدة الظرف أو مماثلته، فالأمر يحتاج إلى إنشـاء جديد، ولا يكفي فيه الإنشاء السابق.

أمـا حول كيف نعرف أنّ هذا هو الناسـخ، وذاك هو المنسـوخ؟، فعبر زمن النزول (ترتيب النزول)، فالذي نزل (قبل) هو المنسوخ، والذي نزل (بعد) هو الناسخ.

---

(١) الشيخ محمد رضا المظفر، أصول الفقه ٢/ ٤٨.

(٢) السيّد أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن/ ٢٧٧- ٢٧٨.

(٣) الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي، مصطلحات علوم القرآن/ ٣٠١.

أي أنّ المعيار ليس التدوين في المصحف (الترتيب التدويني)، ليكون المتقدم تدويناً فيه هو المنسوخ، والمتأخر تدويناً هو الناسخ.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً، وإنّما يُؤخذ من أمر رسول الله – صلى الله عليه وآله – بآخره»(١).

وهكذا يأتي في آيةٍ حكمٌ تشريعيّ، ثمّ تأتي آية أخرى رافعة لذلك الحكم عينه؛ بما يفيد أنّ الحكم الأول جاء لزمن محدود وظرف محدّد وحكمة مرادة ومصلحة مبتغاة، ثمّ لما زال ذلك جاء الحكم النهائي الذي هو الحكم التشريعي الفعلي.

مواضع النسخ:

قد يأتي النسخ في موضع واحد (آيات متجاورة)، فيسهل إدراكه ومعرفته، كقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢).

فمن خلال هذه الآية الكريمة يتضح جلياً وجوب الصدقة لمن يريد أن يناجي الرسول صلى الله عليه وآله، ولكن حينما نقرأ الآيات التي تتبع هذه الآية مباشرة – من السورة نفسها – نجد قوله تعالى: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾(٣)، نستنتج جواز مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله دون دفع صدقة.

وعند البحث والتمعن في هاتين الآيتين نستنتج أنّ الآية الثانية جاءت ناسخةً للآية الأولى فأصبح الحكم الأول – وهو وجوب دفع الصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله – منسوخاً. وبهذه الطريقة يكون الجمع سليماً، ولا يوجد أيّ تعارض بين هاتين الآيتين لوجود النسخ في الآية الثانية.

يقول أبو بصير: سألتُ الإمامَ الصادقَ عليه السلام عن قول الله – عزّ وجلّ –: ﴿**إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾، فقال عليه السلام: «قدّم علي بن أبي طالب بين يدي

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٢٧٤، الباب ٣٣، ح ٣.
(٢) سورة المجادلة/ ١٢.
(٣) سورة المجادلة/ ١٣.

نجواه صدقة، ثمّ نسختها: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾»[١].

وقد يأتي النسخ في موضعين، فيحتاج إلى علم ومعرفة وأناة، فعندما نبحث في القرآن الكريم عن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها سنجد آيتين مختلفتين في تحديد مقدار العدة:

- تقول واحدة منهما: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢].

- وتقول الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

وهاتان الآيتان معاً حوتهما سورة البقرة، وهما بحسب التدوين في المصحف كما رتبناهما، فالمتقدّمة منهما في المصحف تشير إلى أنّ عدة المتوفى عنها زوجها هي: أربعة أشهر وعشرة أيام، والمتأخرة تقدِّر العدة بأنّها حول كامل (سنة)، ولو أخذنا بالترتيب التدويني معياراً كاشفاً؛ لكان ذلك يعني أنّ العدة كانت ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، ثمّ وسّعت لتكون سنة، بينما إذا أخذنا بالترتيب الزمني التاريخي للنزول مقياساً، فإنّ ذاك سيعني أنّ العدة كانت سنة، ثمّ ضُيِّقت وقلِّصت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام.

وبالطبع - وكما قدّمنا - فإنّنا في النسخ نأخذ بالمتأخر زمناً، فهو الدالّ على الحكم الفعلي الأخير، وما قبله أصبح حكماً مرفوعاً ملغى.

يقول أبو بصير: سألتُ أبا جعفر الباقر عليه السلام عن قوله: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، فقال عليه السلام: «منسوخة، نسختها: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾»[٤].

وقد يأتي النسخ في موارد عديدة، كلٌّ منها ينسخ ما قبله، كما الحال مع الآيات الواردة في الخمر، والتي رتبتها إحدى الروايات وفق الترتيب التصاعدي التالي:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٩/ ٤٣٨- ٤٣٩، ح ١٠٥٧٨.
(٢) سورة البقرة/ ٢٣٤.
(٣) سورة البقرة/ ٢٤٠.
(٤) البرهان في تفسير القرآن ٢/ ٢١٣، ح ١٢٦٦.

- الأولى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

- الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

- الثالثة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٣].

- الرابعة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤]،[٥].

وهـذه الآية الأخيرة (الرابعة) لا ذكر للخمر فيها، فكيف تعدّها الرواية قمة التدرج في آيات نسخ الخمر؟!، سيتضح هذا في فقرة (الجمع الاستنباطي) عندما نعرض لرواية الإمام الكاظم عليه السلام والخليفة المهدي العباسي.

وقد رتّب الزمخشري في (ربيع الأبرار) آيات الخمر هكذا:

- الأولى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٦].

- الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[٧].

- الثالثة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

---

(١) سورة البقرة/ ٢١٩.
(٢) سورة المائدة/ ٩٠.
(٣) سورة المائدة/ ٩١.
(٤) سورة الأعراف/ ٣٣.
(٥) البرهان في تفسير القرآن ٢/ ١٦٩، ح ١١١٦.
(٦) سورة البقرة/ ٢١٩.
(٧) سورة النساء/ ٤٣.

وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[١]، [٢].

ولا يخفى أنّ النسخ ـ وهو أمر يقع في التشريع لا التكوين ـ لا يدلّ على جهل المشرِّع بالحكم أو الواقع أو المصلحة، ومن ثمّ اضطراره لتغيير حكمه، فالله تعالى ـ وهو العليم الحكيم ـ جلّ أن يعروه شيء من هذا النقص والجهل، وإنّما يعود النسخ لغاية يبتغيها المشرِّع بإظهار الحكم الأول بوصفه عاماً أو مطلقاً في الزمان لحكمة وغاية يرتجيها من ذلك، فإذا تحققت بيّن أنّ الحكم زمني وقد انتهى ونُسخ، ورفع العمل به.

حكمة النسخ:

ومن الحِكَم في النسخ القرآني:

الأولى: التدرّج:

فيقوم الدين بتوزيع حكمه الشرعي على مراحل زمنية متوالية متدرّجة؛ تستهدف إيصال الحكم إلى المكلفين عبر خطوات؛ لتحقيق التأثير الاجتماعي للحكم في حياة المسلمين، وامتصاص الصعوبة المتحققة في إصدار الحكم النهائي من الوهلة الأولى التي قد ترافق إمكانية تركه وعدم العمل به من قِبَل المكلفين.

وهذا ما يمثله التحريم المرحلي للخمر، فكلّما تمكّن مستوى من نفوس المسلمين وأفعالهم، ترقّى الحكم إلى مستوى أعلى وصولاً للتحريم التام: فبدءاً من تحريك العقول عبر التفكر في مضارّه الأكثر من منافعه، إلى تحريمه أوقات الصلاة لتضييق فجوة الزمان المحتمل فيه الشرب، إلى التحريم المطلق له.

الثانية: مواكبة واقع المسلمين:

فالله – سبحانه وتعالى – لم يشأ أن ينزل كتابه للمسلمين منذ البدء كاملا وكأنّه نظرية عامةً، ثمّ يعملون هم بأحكامه وفق الزمن، ولم يشأ أن يخبرهم أنّ هذا الحكم زمني، وفيما بعد سيتغيّر، وإنّما شاء الله أن يقدّم أحكامه متزامنة مع الحدث الخارجي المناسب؛ ليضمن مصلحة الرسالة ومصلحة المسلمين، وأن يأتي كلّ حكم منها بوصفه

---

(١) سورة المائدة/ ٩١.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ٣/ ١٠٤– ١٠٥، ح ٢٣٨٨. والمصدر ٣/ ٤٧٣، ح ٣٢٨٤.

مطلقاً لا زمنياً؛ حتى يخلق الاحترام والطاعة والانقياد والانضباط لأحكامه في قلب المسلم وسلوكه، ثمّ يغيّرها هو - أي الله -، فيُظهر أنّ الحكم الأول الذي ظُنّ أنّه حكم مطلق لا زمني كان حكماً زمنياً مقيّداً، وهكذا تواكب أحكام الشريعة التطور في حياة المسلمين وواقعهم الخارجي، وتخلق لها الاحترام والانقياد في قلوبهم وأفعالهم.

وهنا تندرج أوامر القتال والجهاد التي سبق أنّ تعرّضنا لها في (الجمع الترتيبي: فهم مرحلية هبوط الآيات)، من عدم سنّ القتال في مكة، إلى الإذن بالجهاد الدفاعي في المدينة، إلى سنّ الجهاد الابتدائي في المدينة يوم قويت شوكة المسلمين.

الثالثة: الامتحان:

ففي بعض صور النسخ هناك تقديم لامتحان فعلي للمسلمين؛ لمعرفة مستوى الرسوخ القلبي للإسلام في قلوب الأتباع، ومن ثمّ وبعد أن يؤدي الحكم الأول غرضه كاشفاً عن النتيجة في الامتحان؛ يزول الحكم.

ومن هذا تحريم مناجاة الرسول ﷺ إلا بعد تقديم صدقة؛ لغرض بيان أثر ذلك في قلوبهم بقياس فارق المنزلة الذي تحتله الأموال أو النبي فيها، وإبعاد اللجاجة غير الهادفة في أسئلتهم الكثيرة، الأمر الذي خرج فيه علي بن أبي طالب عليه السلام طوداً ظافراً حين قدّم - وحده، دون سواه - الصدقة؛ ليحظى بعرض أسئلته الهادفة على النبي الأكرم ﷺ، وبنتيجة الامتحان تلك زال الحكم، ونُسخ.

وقد ورد عن علي عليه السلام أنّه قال: «بي خفّف الله عن هذه الأمة؛ لأنّ الله امتحن الصحابة بهذه الآية، فتقاعسوا عن مناجاة الرسول - صلى الله عليه وآله -، وكان قد احتجب في منزله من مناجاة كلّ أحد إلا من تصدّق بصدقة، وكان معي دينار، فتصدقتُ به، فكنتُ أنا سبب التوبة من الله على المسلمين حين عملتُ بالآية، ولو لم يعمل بها أحد لنزل العذاب؛ لامتناع الكلّ من العمل بها»[(١)].

ج - العامّ والخاصّ:

العامّ هو: «اللفظ الشامل بمفهومه لجميع ما يصلح انطباق عنوانه عليه في ثبوت الحكم»[(٢)].

(١) نفسه ٩/ ٤٤١، ح ١٠٥٨٣.
(٢) أصول الفقه ١/ ١٢٤.

والخـاصّ هـو: «الحكـم الذي لا يشـمل إلا بعض أفـراد موضوعـه أو المتعلق أو المكلف، أو أنّه اللفظ الدالّ على ذلك»(١).

وقد كثر تخصيص العمومات في لسان الشرع حتى قيل: (ما مِن عام إلا وقد خُصّ).

وكما الأمر في النسـخ، كذلك الحال في الآيات العامة والآيات الخاصة، فقد تأتي الآيـة عامـة ومن ثمّ يأتي التخصيص لها في آية أخرى مجاورة، أو يأتي التخصيص في آية أو آيات متباعدة، ولذلك كان للتخصيص نوعان: متصل ومنفصل.

الأول: المخصِّص المتصل:

وهـو الذي لم يُفصـل فيه العام عن المخصِّص لـه بفاصل، مثل: ﴿وَالَّذِيـنَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُـهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَـهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

فـ﴿الَّذِيـنَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُـمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُـهَدَاء﴾، حكمهم الجلد وعدم قبول شـهادتهم - كما أشـارت الآية الكريمة الأولى -، وهذا عـام، لكنّه خُصِّص بـ ﴿إِلا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فهؤلاء تُقبل شهادتهم فيما بعد.

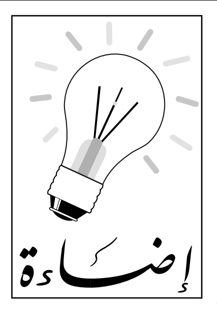
الثاني: المخصِّص المنفصل:

وهو ما كان فيه العام في موضع والمخصِّص في موضع آخر.

فقولـه تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِـهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ﴾(٣)، حدَّد للمطلقة عدة تعتدّهـا هي ثلاثة أشـهر، وهو حكم عـام خصَّصته آيات أخرى، فقولـه تعالى: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَـالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(٤)، يجعل عدة المطلقة الحامل هي أن تضع حملها وقـد يزيد ذلك على ثلاثة أشـهر، فـ(حكم الحامل) مخصِّص للحكـم العام للمطلقات، ولـو وضعـت حملها قبـل ثلاثة أشـهر أكملت عدتها إلى ثلاثة أشـهر، أي تأخـذ بـ(أبعد الأجلين): من زمن الولادة، أو الأشهر الثلاثة.

(١) أصول الفقه ١/ ١٢٤.
(٢) سورة النور/ ٤- ٥.
(٣) سورة البقرة/ ٢٢٨.
(٤) سورة الطلاق/ ٤.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾(١)، مخصِّص آخر لآية عدة الطلاق، فهو يسنّ حكماً للمطلقة التي لم يُدخل بها أصلاً، وهو عدم وجود عدة عليها بتاتاً.



صيغ العموم

الصِّيغ الدالة على العموم كثيرة، منها:

١- (كلّ): كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٢).

٢- (جميع): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾(٣).

٣- (أيّ): ﴿.... آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾(٤).

٤- المعرّف بـ (أل): ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾(٥)، أي كلّ إنسان.

٥- النكرة في سياق النفي والنهي: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(٦). ﴿لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾(٧).

٦- (الذي والتي وفروعهما): ﴿وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾(٨)، أي كلّ امرأة يئست من المحيض فتلك عدتها.

٧- أسماء الشرط (مَن، ما، مهما،...): ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(٩)، أي كلّ إنسان يعمل الخير أو الشرّ يلقَ نتائجه.

---

(١) سورة الأحزاب/ ٤٩.
(٢) سورة العنكبوت/ ٥٧.
(٣) سورة النساء/ ٧١.
(٤) سورة النساء/ ١١.
(٥) سورة العلق/ ٦.
(٦) سورة البقرة/ ١٩٧.
(٧) سورة الإسراء/ ٢٢.
(٨) سورة الطلاق/ ٤.
(٩) سورة الأنعام/ ١٦٠.

د- المطلق والمقيّد:

عرّفوا المطلق بأنّه: «ما دلّ على معنى شائع في جنسه»[١]، ويقابله المقيّد، أي ما دلّ على معنى غير شائع في جنسه.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٢].

عندما نجري دراسة أولية على هذه الآية الثانية هنا نستنتج أنّه لا توجد شفاعة مطلقاً في يوم القيامة، ولكن حين ندرس آيات أخرى مثل:

- ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[٣].
- ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾[٤].

نستنتج أنّ ثمة شفاعة، ولكن بإذن الله – عزّ وجلّ –، ويقوم بها المرْضيون عنده.

فعندما نجمع بين هذه الآيات قد يطرأ بينهما تضاد أوليّ لكن لا يلبث أن يزول حين نعلم أنّ الآية الأولى من آيات الشفاعة جاءت مطلقة، والآيتان الأخريان مقيِّدتان للأولى، وبهذه المعرفة يتضح جلياً التوافق بين الآيات.

هـ- المجمل والمفصّل:

للمجمل معنيان مستعملان:

الأول: الموجز المقابل للمفصّل:

فـ(المجمل) هو: الموجز المختصر[٥]، و(المفصّل) هو: المسهب الموسّع.

---

(١) أصول الفقه ١/ ١٥٠.
(٢) سورة البقرة/ ١٢٢- ١٢٣.
(٣) سورة البقرة/ ٢٥٥.
(٤) سورة النجم/ ٢٦.
(٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٥/ ٣٤٠.

الثاني: الغامض المقابل للمبيّن:

فـ(المجمل) هو: «ما لم تتضح دلالته»[١]، أو «ما جُهِل فيه مراد المتكلم ومقصوده إذا كان لفظاً، وما جُهل فيه مراد الفاعل ومقصوده إذا كان فعلاً»[٢]، و(المبيّن) هو: ما اتضح فيه المراد والمقصود.

ومن ثمّ فهو مرادف لموضوع (الغامض والمبيّن)، وقد يُسمّى بـ (المجمل والمفسّر).

وسنتحدث - هنا - عن المعنى الأول، أي الموجز المقابل للمفصّل، وسنرجىء الآخر إلى (الجمع التفسيري).

من أشكال الإجمال والتفصيل:

- قد تأتي كلمة مجملة يعقبها التفصيل كقوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ**﴾[٣].

فكلمة (أهلكناها) مختصرة تبيّن عاقبتهم، لكنّ عبارة ﴿**فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ**﴾، تفصّل ذلك الهلاك.

- وقد تأتي جملة مجملة تذكر الشيء ذكراً مختزلاً سريعاً، ثمّ تأتي عبارة أو عبارات في آية أو آيات أخرى؛ لتفصِّل ما أجملته الآية الأولى.

فقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[٤]، يحتوي على جملة ﴿**حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ**﴾، وهي إحالة على آية أخرى فصّلت ما أجملته هذه الآية، وقالت: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾[٥]، وتحتوي الآيتان على كلمة مفتاح واحدة تصلح للربط بين الآيتين، وفكّ المستغلق من الإجمال، وهي قوله

---

(١) أصول الفقه ١/ ١٧٠.
(٢) نفسه ١/ ١٧٠.
(٣) نفسه ١/ ١٧٠.
(٤) سورة الأعراف/ ٤.
(٥) سورة الأنعام/ ١٤٦.

تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا**﴾، التي جاءت بالنصّ ذاته في الآيتين.

وحين يتكلّم الله تعالى عن الجنة يقول: ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(١).

ولكن.. ماذا تحمل هذه الصحاف؟، وما هي نماذج تلك الأشياء التي تشتهيها الأنفس وتلتذ بها الأعين؟. هذا ما فصّلت بعضه آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ**﴾(٢).

ويقول جلّ ذكره: ﴿**عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا**﴾(٣).

٣- معرفة الخصائص الفنية للآيات:

وكما أفادنا الجمع الترتيبي (فهم مرحلية هبوط الآيات)، و(حلّ التناقض الظاهري بين الآيات)، وهما فائدتان معنويتان تتعلقان بالمحتوى والمضمون؛ يفيدنا أموراً فنية صياغية تتعلّق بالشكل والأسلوب:

فطريقة صياغة الآيات المكية تختلف عن طريقة صياغة الآيات المدنية:

فالسور المكية قصيرة الآيات، موجزة العبارة، حارّة اللهجة، تثير العواطف والعقول، فيها جدل وتكرار وتخويف، وفيها كثرة تأكيد للمعنى بالقسم. بينما المدنية طويلة الآيات، هادئة اللهجة، عذبة الألفاظ، فيها وضوح يناسب التعليم، ودقة تناسب التشريع، وفيها مخاطبة لأهل الكتاب، والكشف عن سلوك المنافقين(٤).

والآيات المكية ركزت على العقيدة، ولم تحتوِ على تشريعات وأحكام، بينما تتسم السور المدنية بعرض التشريعات والأحكام.

(١) سورة الزخرف/ ٧١.
(٢) سورة محمد/ ١٥.
(٣) سورة الواقعة/ ١٥- ٢٦.
(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن/ ٦٣- ٦٤.

وبهـذا يمكـن أن نكتشـف أنّ هذه السـورة مكيـة أو مدنيـة بملاحظة توفـر أيٍّ من الخصائص فيها.

ثانياً: الجمع التفسيري:

تتطرّق بعض الروايات ـ ومنها ما سبق نقله عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في بداية حديثنا عن (حلّ التناقض الظاهري بين الآيات) – إلى وجود (الغامض والمبيّن) في آيات الذكر الحكيم.

و(الغامض) هو: ما خفي المراد منه على قارئه أو سامعه، بسبب صعوبة يجدها في فهمه لمعنى اللفظ أو التركيب أو الأسلوب، ويقابله (البيِّن)، وهو ما وضُح المعنى المراد منه؛ لوضوح لفظه وتركيبه وأسلوبه.

و(المبيِّـن) هـو: لفـظ أو نـصّ آخـر يوضّح المـراد من الخفـي، ويكشـف دلالته، و(المبيَّن) هو ما كان خفياً فجاء ما يوضِّحه، أي أنّه الغامض الذي تمّ توضيحه.

وقناعتنـا أنّ القـرآن الكريـم – من حيث أصله – ليس فيـه لفظ غامض، ولا تركيب غامـض، ولا أسـلوب غامض، فقد جـاء مخاطباً لعرب أقحـاح يفهمون معنـاه: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾(١)، ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾(٢)، ولذلك كان تبياناً وتوضيحاً، ولا يكون كذلك ما كان هو بنفسه مبهماً غامضاً: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾(٣).

وسـبب الغموض الذي يشـهده البعض في القرآن هو البُعد عـن العربية، بما أحال بعض كلماته وتراكيبه وأسـاليبه – عند كثيرين – إلى معجمية قاموسـية، تحتاج إلى العود إلى كتب اللغة والتفسير لاستيضاح المراد منها.

وبسبب هذا البُعد اللغوي عن العربية أمسينا اليوم نشهد في القرآن الكريم شيئاً من الغوامض.

والجمع التفسيري هو: «كشف المدلول الحقيقي للآية القرآنية من خلال آية أخرى

(١) سورة الشعراء/ ١٩٣– ١٩٥.
(٢) سورة القمر/ ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.
(٣) سورة النحل/ ٨٩.

تتعرّض إلى الموضوع ذاته»[١].

أي التوفيق بين آيات شريفة وأخرى لمعرفة الغامض منها من خلال المبيِّن والموضِّح، سواءً أكان ذاك الغامض لفظاً أم تركيباً أم أسلوباً.

فهناك آية مفسَّرة، وأخرى (أو أخر) مفسِّرة، ويتمّ الجمع بين هذه الآيات؛ لاكتشاف ومعرفة مدلول الغامض ومعناه.

وهذا النوع من الجمع يحصل فيه استعمال المفاتيح الداخلية في القرآن نفسه في عملية التفسير، فهو من باب (تفسير القرآن بالقرآن)، و(أنّ القرآن يفسِّر بعضه بعضاً)، و(يشهد بعضه لبعض).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كتاب الله تبصرون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه لبعض»[٢].

مواضع الجمع التفسيري:

١- تفسير اللفظ:

فقد يلفّ كلمة قرآنية شيء من الغموض عند بعض قرّائها، فيقفون عند حرف أو اسم أو فعل يخفى عليهم معناه.

أ- الحرف:

فمن الحروف التي خفي معناها: تلك المقطعة في فواتح بعض السور مثل: **﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾**[٣]، **﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾**[٤]، **﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾**[٥]، **﴿كهيعص﴾**[٦]، **﴿حم * عسق﴾**[٧]، مما لا يستطيع الأكثرون أن يقطعوا بدلالته، ومن ثمّ

(١) التدبر في القرآن/ ١١٦.
(٢) بحار الأنوار ٨٩/ ٢٢، الباب ١، ح ٢٣.
(٣) سورة القلم/ ١.
(٤) سورة ص/ ١.
(٥) سورة ق/ ١.
(٦) سورة مريم/ ١.
(٧) سورة الشورى/ ١- ٢.

اختلفوا في تفسيرها إلى آراء عديدة، وربّما لا نعلم نصّاً قرآنياً قطعيّ الدلالة يبيّن معناها، ومن بين تفسيراتها أنّها إشارة إلى أنّ القرآن مركب من حروف المعجم العربي وحروف الهجاء العربي، ومع ذلك كان معجزاً لم يستطع العرب المجيء بمثله، ولذلك عقّبت بعض الآيات على حروف مقطعة بالإشارة إلى القرآن؛ لتقول: من هذه الحروف تألف القرآن المعجِز، ومن ذلك:

- ﴿ألم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١).

- ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

- ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

- ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

- ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾(٥).

- ﴿المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

ب ـ الاسم:

فلو قرأنا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾(٧)؛ فقد يخفى علينا معنى كلمة (الودق) – وهي اسم –، وهناك آيات أخرى تمثّل المبيِّن لمعناها – وأنّه المطر –، ومنها

(١) سورة البقرة/ ١– ٢.
(٢) سورة فصّلت/ ١– ٣.
(٣) سورة الحجر/ ١.
(٤) سورة الرعد/ ١.
(٥) سورة الشعراء/ ١– ٢.
(٦) سورة الأعراف/ ١– ٢.
(٧) سورة النور/ ٤٣.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وقد توجد آيات قرآنية يُعرف - ولو بنحو عام - المعنى اللغوي لمادتها اللفظية، لكن.. يخفى المدلول القرآني الاصطلاحي لها، أو المدلول القرآني الأوسع من النظرة اللغوية والعرفية لها، فنحتاج في هذا كلّه إلى سبر آيات أخرى في القرآن الكريم لإبراز المعنى أو توسيعه، ومن أهم ما يخدمنا في هذا الجمعُ التفسيري بين الآيات.

فمثلاً في قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾(٢)، كلمتا (الصراط) و(المستقيم) معناهما اللغوي معروف فـ(الصراط) هو: السبيل الواضح(٣)، و(المستقيم) هو: المعتدل المستوي(٤).

فـ(الصراط المستقيم) هو: الخط القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو أقصر الخطوط الموصلة بين نقطتين، وأقصر في ذلك من الخط المنحني والخط المتعرّج.

ولكن ما المقصود بـ(الصراط المستقيم) في هذه الآية؟، أي ما هي مصاديقه التطبيقية التي يريدها القرآن؟

ولمعرفة هذا المعنى نجمع هذه الآية مع آيات أخرى؛ لتتضح الصورة أكثر:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٥)، و﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(٦)، فهاتان الآيتان تشيران إلى أنّ الطريق المستقيم هو طريق الله (صراطي)، وهو نفسه طريق الذين أنعم الله عليهم.

ونصل هنا إلى عرض سؤال آخر على الآية هو: ما المقصود بـ﴿الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾؟

---

(١) سورة الأعراف/ ٥٧.
(٢) سورة الفاتحة/ ٦.
(٣) القاموس المحيط ٢/ ٥٣٧، مادة: (سرط).
(٤) نفسه ٤/ ٢٣٨، مادة: (قوم). والدكتور إبراهيم أنيس.. وآخرون، المعجم الوسيط ٢/ ٧٦٨، مادة: (قوم).
(٥) سورة الأنعام/ ١٥٣.
(٦) سورة الفاتحة/ ٧.

وللإجابـة عليه تفسـيرياً جمع الإمام العسـكري عليه السلام بين هذه الآيـة وآية أخرى، فقال: «أي قولوا: اهدنا صراط الذين أنعمتَ عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قـال اللـه - عزّ وجلّ -: ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُـولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَـمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(١)» (٢).

من خلال الجمع بين هذه الآيات أصبح المعنى جلياً وواضحاً، فالصراط المستقيم هو صراط الله، صراط النبيين والصديقين والشـهداء والصالحين ومَن تبعهم، وهو طريق ثالث يباين طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

وبهذه الطريقة يمكن أن نسأل أيضاً:

- من المقصود بـ (المغضوب عليهم)؟
- من المقصود بـ (الضالين)؟

بإمكاننا أن نعود إلى القرآن الكريم لنبحث عن الآيات التي ذكرت اشـتقاقات مادة (غضب) وهيئاتها المختلفة، ثمّ نسأل تلك الآيات: (مَن هم المغضوب عليهم؟)، ونتتبّع الجواب من خلال الموارد التي ذكرتها الآيات.

ولمعرفة (الضاليـن) يمكننا أن نجمع الآيات التي تعرّفنا بهم..، فهناك آيات عدّت أصنافاً من الناس مثالاً للضالين.

ج - الفعل:

ولـو قرأنـا قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَـى إِذِ اسْتَسْـقَاهُ قَوْمُـهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَـرَ فَانبَجَسَـتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْـرَةَ عَيْنًا قَـدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْـرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَـا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُـونَ﴾(٣)؛ فقد نقف عند كلمة (انبجسـت) - وهي فعل -، وقـد أوضحت معناها آية أخرى، فقالت:

﴿وَإِذِ اسْتَسْـقَى مُوسَـى لِقَوْمِـهِ فَقُلْنَـا اضْـرِب بِّعَصَـاكَ الْحَجَـرَ فَانفَجَرَتْ مِنْـهُ اثْنَتَا عَشْـرَةَ عَيْنـاً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْـرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْـرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّـهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ

(١) سورة النساء/ ٦٩.
(٢) البرهان في تفسير القرآن ١/ ٢٤٨، ح ٢٩٣.
(٣) سورة الأعراف/ ١٦٠.

مُفْسِدِينَ﴾[١].

ومن (باب تفسير القرآن بالقرآن)؛ فإنّ معنى (انبجست) هو (انفجرت).

٢ـ تفسير التركيب:

وهنا لا يكون الغموض والخفاء في كلمة، وإنّما في التعبير الجملي.

يقول تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾[٢].

تحتوي بداية هذه الآية على تركيب غمض عند البعض، فخفي عليه فهمه، واستغله آخرون لمأرب عقدي، وهو قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ**﴾، فهل تشير الآية إلى أنّ هناك إلهاً للسماء، وإلهاً آخر للأرض، وتوافق الزرادشتية والمانوية والمزدكية - ونختصرهم باسم (الثنوية) - وقولهم بثنائية الإله؟!

إنّ هذا ينافي عقيدة التوحيد التي يلهج بها القرآن الكريم من أوله إلى آخره، فماذا يعني هذا التركيب؟!

لقد كان أبو شاكر الديصاني من الثنوية الذين يقولون بأنّ للكون إلهين: إله النور، وإله الظلمة، فذهب لهشام بن الحكم، وقال له: «إنّ في القرآن آية هي قولنا. قلتُ له: ما هي؟، فقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ**﴾، فلم أدرِ بمَ أجيبه، فحججتُ فخبّرتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام، فقال: هذا كلام زنديق خبيث، إذا رجعتَ إليه فقل له: ما اسمك في الكوفة؟، فإنّه يقول: فلان، فقل له: ما اسمك بالبصرة؟، فإنّه يقول: فلان، فقل: كذلك الله ربّنا، في السماء إله، وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي القفار إله، وفي كلّ مكان إله. قال: فقدمتُ فأتيتُ أبا شاكر فأخبرتُه، فقال: هذه نُقلت مِن الحجاز»[٣].

والأسلوب التركيبي لهذه الآية تكرّر مثله في القرآن الكريم موحّداً الإله في السماوات والأرض، ومنه: ﴿**وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ**﴾[٤]، ولو جمعنا بالجمع التفسيري بين الآيتين لكان واضحاً أنّها تقصد أنّه إله واحد في السماوات والأرض، وأنّ المقصود أنّه - سبحانه وتعالى - هو الإله في

(١) سورة البقرة/ ٦٠.
(٢) سورة الزخرف/ ٨٤.
(٣) أصول الكافي ١/ ١٧٨- ١٧٩، الباب ٤١، ح ١٠.
(٤) سورة الأنعام/ ٣.

السماوات، وهو ذاته الإله في الأرض، وفي غيرهما..

ومن الآيات الأخرى التي تؤكد هذه الحقيقة:

- ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾(٢).

- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٣).

- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٤).

- ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٥).

٣ـ تفسير الأسلوب:

لا يقف الغموض والخفاء عند حدود المفردات أو التراكيب، بل.. قد يصل إلى الأسلوب، فتكون طريقة التعبير خفية غامضة لدى المتلقي، فلا يعرف - مثلاً - هل هذا أسلوب إثبات، أم استفهام، أم سخرية؟، وإذا كان استفهاماً، فهل هو استفهام تقريري، أم استفهام إنكاري؟، وهل هذا الأسلوب ماض لفظاً ومعنى، أم هو مستقبل عُبِّر عنه بأسلوب الماضي، فهو ماض لفظاً لا معنى؟

يقول الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٦).

فهل كان النبي ﷺ في شك مما أُنزل عليه؟!، وهل كان من الذين يكذّبون بآيات الله؟!

(١) سورة الجاثية/ ٣٦.

(٢) سورة الصافات/ ٥.

(٣) سورة مريم/ ٦٥.

(٤) سورة آل عمران/ ٦٢.

(٥) سورة آل عمران/ ٨٣.

(٦) سورة يونس/ ٩٤- ٩٥.

إن كان الجواب: نعم..، فتلك داهية!!، وإن كان الجواب: لا..، فما بال هذا العتاب القرآني الشديد؟!

إنّ قناعتنا كمسلمين أنّ النبي ﷺ منزّه عن كلّ ذلك، فما اعتراه شك فيما نزل عليه، وما عرف طعم التكذيب بآيات الله، وهناك آيات قرآنية أخرى تفسّر هذه الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(١).

فهذه الآيات توضّح أنّ المقصود من ذاك العتاب هو الناس، وهو كلام موجّه لهم، لكنّ أسلوبه المباشر يخاطب الرسول الأكرم ﷺ، وقد أوضح الإمام الصادق عليه السلام هذا النهج القرآني في قاعدة عامة خطها حين قال: «نزل القرآن بـ(إياكِ أعني، واسمعي يا جارة)» (٢).

وقال عليه السلام عن مثل هذه الآيات: «معناه ما عاتب الله – عزّ وجل – به نبيه ﷺ، فهو يعني به ما قد مضى في القرآن مثل قوله: ﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً**﴾(٣)، عنى بذلك غيره»(٤).

وإذا فهمنا هذا الأسلوب والنهج القرآني، وأنّ آيات الكتاب تجري على (إياكِ أعني، واسمعي يا جارة)؛ أمكننا ذلك أن نقرأ مساراً قرآنياً عاماً كثُر استعماله في كتاب الله؛ ليثبت أنّ التشريع الإلهي عام للجميع، ويخاطب الجميع – ومنهم الرسول ﷺ –، وإن كان الواقع العملي للرسول فوق أن يصدر منه ذلك الفعل والعمل، وأنّه خطاب له، لكنّ المقصود به من يصدر منه ذلك.

ومن الآيات التي سارت على هذا الأسلوب:

– ﴿**وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ**

(١) سورة يونس/ ١٠٤.
(٢) أصول الكافي ٢/ ٥٩٤، الباب ٤٦٩، ح ١٤.
و(إياكِ أعني، واسمعي يا جارة) مثل عربي قديم، أول من قاله سهل بن مالك الفزاري، يُضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره (أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال ١/ ٤٩، المثل ١٨٧).
(٣) سورة الإسراء/ ٧٤.
(٤) أصول الكافي ٢/ ٥٩٤، الباب ٤٦٩، ح ١٤.

الْمُشْـرِكِينَ * وَلا تَـدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

- ﴿ذَلِـكَ مِمَّـا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَـعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[٢].

- ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣].

- ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ اتَّـقِ اللَّـهَ وَلا تُطِـعِ الْكَافِرِيـنَ وَالْمُنَافِقِيـنَ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلِيمًـا حَكِيمًا﴾[٤].

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾[٥].

ثالثاً: الجمع الاستنباطي:

«والجمع الاسـتنباطي يعني: الجمع بين آيتين من القرآن الكريم أو أكثر؛ لاستنباط حكم تشريعي معيّن، أو فكرة معيّنة»[٦].

وفيـه يتـمّ الجمع بين آيتين أو أكثر من القرآن الكريم للخلوص إلى حكم تشـريعي يصعب علينا اسـتنباطه بواسـطة دراسة آية واحدة فقط، وقد يتطلب الأمر أحياناً الاستعانة بالروايات لتدعيم البحث.

ونذكـر هنـا نموذجين على هذا النوع، أحدهما قام بـه الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، والثاني قام به حفيده الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كان هناك أحد الصحابة - واسمه الهيثم - يشترك في الحروب والفتوحات، فأرسله

(١) سورة القصص/ ٨٦- ٨٨.
(٢) سورة الإسراء/ ٣٩.
(٣) سورة الزمر/ ٦٥.
(٤) سورة الأحزاب/ ١.
(٥) سورة الطلاق/ ١.
(٦) التدبر في القرآن/ ١٢١.

عمر بن الخطاب في أيام خلافته في جيش، فغاب ستة أشهر، ثمّ قدم المدينة ومكث بها ستة أشهر، فولدت زوجته؛ فأنكر أن يكون الولد منه، واتهم المرأة بالزنا، وذهب بها إلى عمر، وقال: يا أمير المؤمنين، كنتُ في البعث الذي وجهتَني فيه، وتعلم أنّي قدمتُ منذ ستة أشهر وكنتُ مع أهلي، وقد جاءت بغلام وهو ذا، وتزعم أنّه منّي.

فقال لها عمر: ما تقولين، أيّتُها المرأة؟

فقالت: والله، ما غشيني رجلٌ غيره، وما فجرتُ، وإنّه ابنه.

فقال لها عمر: أحقٌّ ما يقول زوجُكِ؟

قالت: صدق، يا أمير المؤمنين.

فأمر بها عمر أن تُرجم، وحفر لها حفيرة، ثمّ أدخلها فيها، فبلغ ذلك علياً عليه السلام، فجاء مسرعاً حتى أدركها، وأخذ بيدها؛ فسلّها من الحفيرة، ثمّ قال لعمر: «أربع على نفسك[١]، إنّها صدقَتْ، إنّ الله – عزّ وجلّ – يقول في كتابه: ﴿**وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا**﴾[٢]، وقال في الرّضاع: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾[٣]، فالحمل والرّضاع: ثلاثون شهراً، وهذا الحسين وُلد لستة أشهر»[٤].

أي: أنّ مدة الحمل والرضاع (الفصال): ثلاثون شهراً، كما تشير الآية الأولى.

ومدة الرضاع: حولان كاملان (أربعة وعشرون شهراً)، كما تشير الآية الثانية.

فإذا أسقطنا (مدة الرضاع) من مدة (الحمل والرضاع)، بقيت ستة شهور هي أقلّ مدة للحمل.

* الحمل + الرضاع = ٣٠ شهراً.
* والرضاع = ٢٤ شهر.
* الحمل والرضاع – الرضاع = أقل مدة للحمل.

أي: ٣٠– ٢٤ = ٦ أشهر.

* فأقلّ مدة للحمل هي: ٦.

(١) أي: تمكّث وانتظر.
(٢) سورة الأحقاف/ ١٥.
(٣) سورة البقرة/ ٢٣٣.
(٤) البرهان في تفسير القرآن ٩/ ٥٦، ح ٩٧٧٥.

وفي خاتمة هذه الحكاية قال عمر كلمته المشهورة: «لولا عليّ لهلك عمر»[(١)].

وهكذا استطاع الإمام عليه السلام أن يربط بين هاتين الآيتين الموجودتين في سورتين متباعدتين (البقرة/ الأحقاف)، والتي قد لا يبدو عند النظرة الأولى وجود أيّ ترابط بينهما، واستطاع أن يبيّن للناس منهما حكماً عظيماً من أحكام الإسلام، وأن ينقذ امرأة بريئة من الرجم، وأن يقيم لهم مثالاً عملياً موازياً جلياً يحترمونه هو الحسين عليه السلام الذي «وُلد لستة أشهر».

ومثل هذا ما قام به الإمام الكاظم عليه السلام حين سأله المهدي العباسي عن الخمر: هل هي محرّمة في كتاب الله؟، فإنّ الناس يعرفون النهي، ولا يعرفون التحريم، فقال له الإمام عليه السلام: بل هي محرّمة.

فقال المهدي: في أيّ موضع هي محرّمة في كتاب الله، يا أبا الحسن؟، فقال عليه السلام: قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾[(٢)]، وقد قال في موضع آخر: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾[(٣)]، «فأما (الإثم) في كتاب الله فهو الخمر، و(الميسر) فهو النرد، وإثمهما كبير كما قال»[(٤)].

فالإمام عليه السلام جمع بين الآيتين فوصل للحكم، فالآية الأولى عدّت (الإثم) واحداً من المحرّمات، والآية الثانية اعتبرت الخمر إثماً.

أي أنّ الجمع بين الآيتين يشكّل قياساً منطقياً هكذا:

الإثم محرّم بشهادة الآية الأولى (مقدّمة أولى).

والخمر إثم بشهادة الآية الثانية (مقدّمة ثانية).

فالخمر محرّم (نتيجة).

وإزاء هذا الاستنتاج البديع من الإمام الكاظم عليه السلام تملّك المهديَّ العباسيَّ العجَبُ والذهولُ، فراح يهتف: «هذه - والله - فتوى هاشمية»[(٥)].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١/ ٣٦. والبرهان في تفسير القرآن ج ٩/ ٥٦، ذيل الحديث ٩٧٧٥.

(٢) سورة الأعراف/ ٣٣.

(٣) سورة البقرة/ ٢١٩.

(٤) البرهان في تفسير القرآن ٤/ ١٢٥- ١٢٦، ح ٣٨٧٢.

(٥) نفسه ٤/ ١٢٦، ح ٣٨٧٢.

رابعاً: الجمع الموضوعي:

«والجمع الموضوعي يعني: فرز الآيات القرآنية التي تتحدث حول موضوع معيّن، وتصنيفها إلى مجموعات، وترتيب هذه المجموعات حسب تسلسلها المنطقي، ومِن ثمّ استخراج الحكم القرآني النهائي حول ذلك الموضوع»(١).

ويختلف (الجمع الموضوعي) عن (الجمع الاستنباطي) في نقاط كثيرة، منها:

الجمع الاستنباطي يتمّ عادة ضمن آيتين أو ثلاث آيات، فهو جمع محدود، بينما الجمع الموضوعي يتمّ عادة ضمن مجموعة كبيرة من الآيات.

الجمع الاستنباطي تكون نتيجته - غالباً - حكماً شرعياً، بينما تتسع آفاق الجمع الموضوعي لتشمل كثيراً من القضايا: العقدية، والأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والكونية، وغيرها...

الجمع الاستنباطي تقتصر ممارسته على فئة محدودة هي المجتهدون (الراسخون في العلم)؛ باعتبار صعوبة استخراجه وحاجة ذلك إلى أدوات معيّنة، بينما تُفتح أبواب الجمع الموضوعي لمجموعة أكبر لا تقتصر على المجتهدين(٢).

والجمع الموضوعي لآيات القرآن الكريم يعتبر من أهم أنواع الجمع القرآني؛ وذلك لأسباب، منها:

الأول: (المميزات) التي يتمتع بها هذا النوع من الجمع، وهي التي سبقت قبل قليل، وقلنا: إنّها تميّزه على الجمع الاستنباطي.

الثاني: (المعطيات والنتائج) التي يفرزها هذا النوع من الجمع، والتي من أهمها الخروج بـ (رؤية قرآنية متكاملة) حول موضوع معيّن(٣).

الثالث: (الوشائج)، فهو أقرب أنواع الجمع صلة بالتدبر الموضوعي الذي ندرسه.

وقد رأينا في فقرة (مراحل ظهور المنهج الموضوعي في التفسير: أهل البيت عليهم السلام والاستفادة الموضوعية من القرآن) ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام، حينما جمع بين

(١) التدبر في القرآن/ ١٢٥.
(٢) نفسه/ ١٢٥.
(٣) نفسه/ ١٢٥.

آيات، واستخرج منها (أنواع الكفر في القرآن)، كما جمع في روايته تلك بين آيات أخرى واستخرج منها ضمن دراسة قرآنية: (أنواع الضلال)، و(أنواع الوحي)، و(أنواع الفتنة)، و(أنواع القضاء)، و(أقسام النور)، و(أقسام الأمة)، و(وجوه الشرك)، و....

وكذلك رأينا ما قام به الإمام الصادق عليه السلام من جمع بين محتوى آيات شريفة وردت في قصص آدم، وابني آدم، وإبليس؛ ليبيّن لنا الجذور المؤسِّسة للكفر (أصول الكفر ومؤسِّساته).

ولو أخذنا موضوع (فوائد البلاء)؛ لنتعرّف عليها في القرآن الكريم، فسوف نقوم بعملية جمع للآيات المندرجة تحت هذا العنوان، والتي يمكن أن نعيدها إلى فوائد، منها:

أ- خلق الإنسان العصامي:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[1].

ب- الرجوع إلى الله:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2].

ج - ثواب الدنيا والآخرة:

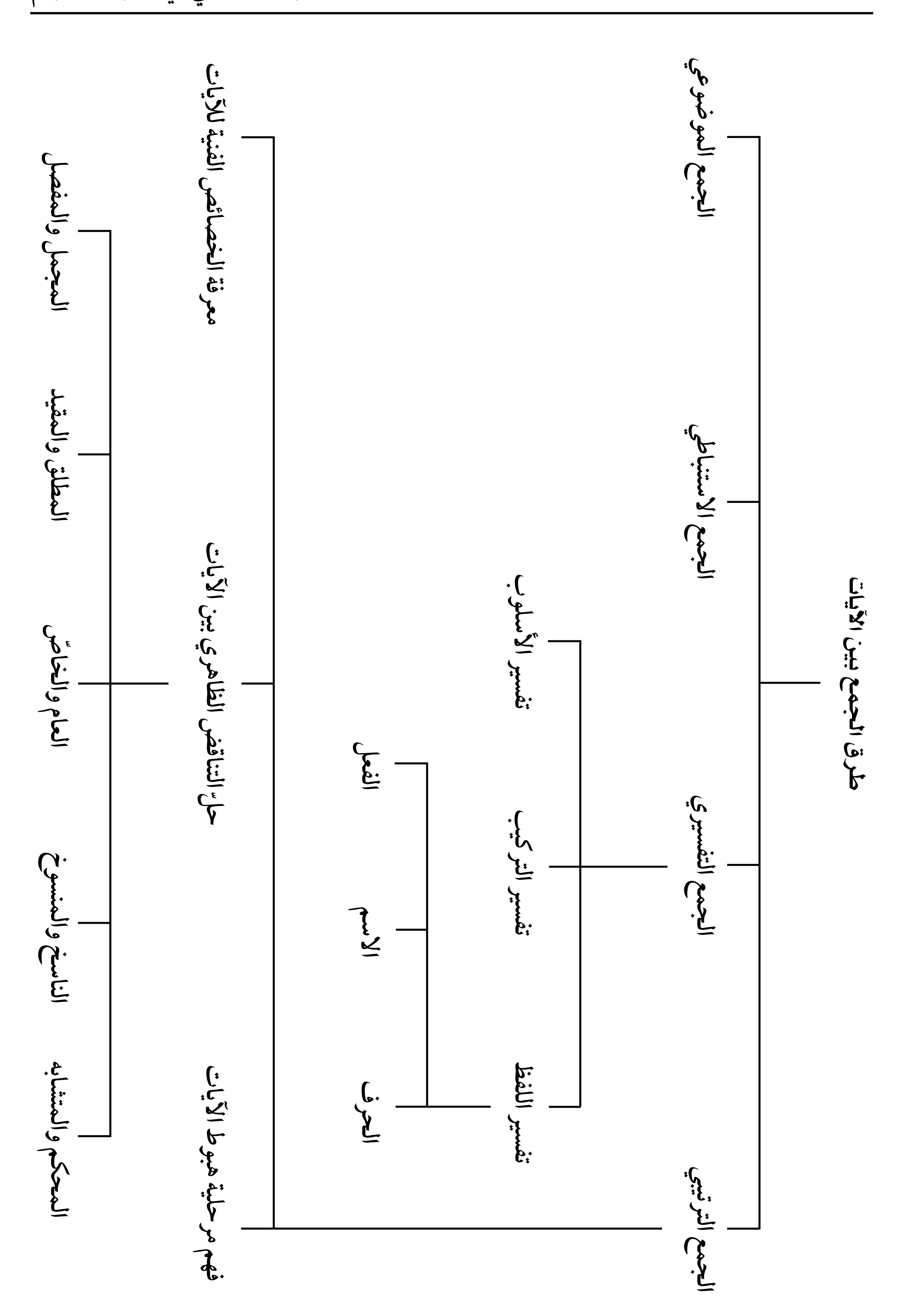
﴿فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

د - التمحيص:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران/ ١٤٦.
(٢) سورة آل عمران/ ١٤٧.
(٣) سورة آل عمران/ ١٤٨.
(٤) سورة محمد/ ٣١.


طرق الجمع بين الآيات
الجمع الموضوعي
الجمع الاستنباطي
الجمع التفسيري
الجمع الترتيبي
تفسير الأسلوب
تفسير التركيب
تفسير اللفظ
الفعل
الاسم
الحرف
معرفة الخصائص الفنية للآيات
حل التناقض الظاهري بين الآيات
فهم مرحلية هبوط الآيات
المجمل والمفصل
المطلق والمقيد
العام والخاص
الناسخ والمنسوخ
المحكم والمتشابه



ت١: أضعُ علامة (✓) أمـــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- المصحـف الشـريف آياتـه مرتبة بشـكل دقيـق، فالآية الأولى سبقت الثانية نزولاً، وهكذا.. ( )

ب – الجمع الاستنباطي لا يسـتطيع ممارسته إلا الفقهاء، فلا داعي لمعرفته إلا من باب الاطلاع المعرفي لا العملي. ( )

ج – الجمـع الموضوعي أسـهل من الجمع الاسـتنباطي في ناحيـة، وأصعب منه في ناحية. ( )

ت٢: أجمعُ جمعاً ترتيبياً بين الآيتين التاليتين:

- **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾**(١).
- **﴿فَإِذَا انسَـلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾**(٢).

ت٣: كيف نجمع بين الآيات التالية:

- **﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾**(٣).
- **﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّـمَاء إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾**(٤).
- **﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّـهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾**(٥).

ومن أيِّ أنواع الجمع الترتيبي هذا الجمع؟

---

(١) سورة البقرة/ ٢٠٨.
(٢) سورة التوبة/ ٥.
(٣) سورة المعارج/ ٤.
(٤) سورة السجدة/ ٥.
(٥) سورة الحج/ ٤٧.

ت٤: أقومُ باستقصاء قرآني يكشـــف لي هوية كلّ من: المغضوب عليهم، والضالين.

ت٥: مـــا الفـــرق بين فرز الآيات وبيـــن ترتيبها؟، وهل يســـبق أحدهما الآخر بالضرورة؟

الخطوة الرابعة: الاستفادة من الروايات

حينما نقول بضرورة (الاستفادة من الروايات) في التدبر الموضوعي، فإنّ ذلك يضعنا على المحكّ أمام مجموعة كثيرة وحسّاسة من الأسئلة، منها:

- ما هي الصلة بين القرآن والمعصومين عليهم السلام حتى نذهب إلى أنّ التدبر أو التفسير الموضوعي - بل وعموم الاستفادة من القرآن الكريم - تحتاج إلى الاستلهام من معينهم الزلال؟

- وما موقفنا تجاه الروايات أساساً، هل نقول بصدقها جميعاً، ونحن نقرأ في بعضها ما يخالف الكتاب، وما يتناقض مع بعضه البعض؟

- وما هي اتجاهات المفسّرين في التعاطي مع السنة في تفاسيرهم؟

- وما فائدة السنة في التدبر الموضوعي؟

الصلة بين القرآن والمعصومين عليهم السلام:

الإسلام هو الشريعة السماوية الخاتمة التي قدّر الله لها أن تعمر بعطائها الزمان إلى قيام الساعة، ولذلك وفّر الله فيها إمكانيات الخلود والاستمرار، وإمكانيات الاستيعاب لمستقبل البشرية وحاجاتها، وتكفّل الله لها بحفظ كتابها الخالد - القرآن الكريم - من أيدي التحريف: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1]، كما وفّر في هذا الكتاب ما تحتاجه البشرية: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾[2]، ثمّ دعم الله كتابه بسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، فجاءت مؤكّدة وموضّحة ومفصّلة للكتاب العزيز، وأمر عباده بالأخذ بها،

(١) سورة الحجر/ ٩.

(٢) سورة الأنعام/ ٣٨.

والاستنان بها: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢].

ثمّ أبقى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عترته الهادية في الناس وأمرهم بالأخذ عنهم، والسير خلف نورهم الوقاد: «إنّي مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، انظروا كيف تخلفوني فيهما، أيّها الناس، لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم»[٣].

ولم يكن أمره صلى الله عليه وآله وسلم للأمة بلزوم عترته وأهل بيته أمراً عاطفياً منشؤه القرابة والنسب، وإنّما كان عائداً لمستوى الكفاءة الذي تحمله دون غيرها، والذي يؤهلها لقيادة الركب ومسيرة الرسالة، فقد حرص صلى الله عليه وآله وسلم غاية الحرص على أن يعلّم (علياً) تفسير القرآن وغيره من العلوم والمعارف؛ ليضمن امتدادها من بعده في مستقبل الأمة والبشرية.

يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «فما نزلتْ على رسول الله – صلى الله عليه وآله – آية من القرآن إلا أقرأنيها، وأملاها عليّ، فكتبتُها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله أن يعطيني فهماً وحفظاً، فما نسيتُ آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ وأثبتُّه»[٤].

وكان علي عليه السلام يملك علم الكتاب بمستوى جعله يقول: «لو شئتُ لأوقرتُ سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»[٥].

وفي رواية أخرى لما حكى أمير المؤمنين عليه السلام أنّ شرح عهد موسى عليه السلام كان في أربعين جملاً، قال علي عليه السلام: «لو أذن الله ورسوله لي لا تسرع بي شرح معاني أَلِفِ الفاتحة حتى يبلغ مثل ذلك»، يعني: أربعين وقراً أو جملاً[٦].

(١) سورة الحشر/ ٧.
(٢) سورة الأحزاب/ ٢١.
(٣) وسائل الشيعة ١٨/ ١٣٩، الباب ١٣، ح ٣٤.
(٤) نفسه ١٨/ ١٥٣، الباب ١٤، ح ١.
(٥) بحار الأنوار ٨٩/ ١٠٣، الباب ٨، ح ٨٢.
(٦) نفسه ٨٩/ ١٠٤، الباب ٨، ح ٨٣، وقد وردت عبارة (لا تسرع بي شرح) هكذا، ونقل السيّد هاشم البحراني الرواية بعبارة (لأشرع في شرح)، انظر: غاية المرام وحجة الخصام، تحقيق: السيّد علي عاشور ٥/ ٢٠٥.

ومـن ضمن ما يشـير له هذا النصّ الغنـي الدلالات: تفوّق الخصوبـة القرآنية على خصوبة التوراة، فإذا كان شرح التوراة كاملة يقع في حِمْل أربعين جملاً، فإنّ (ألف فاتحة الكتاب) لا يحتويه ذلك، فضلاً عن أن يحتوي سورة الفاتحة أو القرآن كلّه!!

وإذا كان هذا على نحو الفرض (لو شـئتُ)، فقد تحوّل بعضه إلى مسـتوى التحقق حيـن مضى عليه السلام يشـرح كلمة (الحمد) - وحدها - من سـورة الفاتحـة طول ليلة كاملة (مـن بعد صلاة العشـاء إلـى أن انفلق عمود الفجر!!)، فقد لقي علـي عليه السلام يوماً عبد الله بـن العباس فقال له: «يا أبا عباس، إذا صليتَ العشـاء الأخيـرة فالحقني إلى الجبّان، قال: فصليتُ ولحقته وكانت ليلة مقمرة:

- قال: فقال لي: ما تفسـير (الألف) من الحمد، والحمد جميعاً؟، قال: فما علمتُ حرفاً منها أجيبه، قال: فتكلّم في تفسيرها ساعة تامة.

- قـال: ثـمّ قال لي: فما تفسـير (الـلام) من الحمد؟، قـال: فقلـتُ: لا أعلم، قال: فتكلّم في تفسيرها ساعة تامة.

- ثـمّ قال: فما تفسـير (الحـاء) من الحمد؟، قال: فقلتُ: لا أعلـم، قال: فتكلّم في تفسيرها ساعة تامة.

- ثمّ قال لي: فما تفسير (الميم) من الحمد؟، قال: فقلتُ: لا أعلم، قال: فتكلّم في تفسيرها ساعة تامة.

- ثمّ قال: فما تفسـير (الدال) من الحمد؟، قال: قلتُ: لا أدري، فتكلّم فيها إلى أن بـرق عمود الفجـر، قال: فقال لي: قم يـا أبا عباس إلى منزلك، وتأهـب لفرضك. فقمتُ وقـد وعيـتُ كلّ ما قـال، قال: ثمّ تفكـرتُ فإذا علمي بالقـرآن في علم علـيّ كالقرارة في المثعنجر»[1].

ثـمّ علّم علـيّ عليه السلام علمه بالكتـاب لعترته المعصومين عليهم السلام، وقـد صدح الإمام الصـادق عليه السلام بذلـك فقال: «إنّ الله علّم نبيه صلى الله عليه وآله التنزيل والتأويل، فعلّمه رسـول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام. ثمّ قال [الصادق] عليه السلام: وعلّمنا والله»[2].

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ١٠٥- ١٠٦، ومعنى (القرارة): الغدير الصغير، ومعنى (المثعنجر): السيل الكثير، ووسط البحر، وهو أكثر موضع في البحر ماء، لسان العرب ٢/ ٩٩، مادة: (ثعجر)، أي أنّه يشبّه علمه في قبال علم أمير المؤمنين عليه السلام بالماء القليل في قبال السيل الكبير أو البحر الطامي.

(٢) وسائل الشيعة ١٨/ ١٣٥، الباب ١٣، ح ١٩.

وراح أهـل البيـت عليهم السلام يؤكدون الشـمولية والاسـتيعاب في القـرآن الكريم لكلّ شيء، فهذا علي عليه السلام يقول عن القرآن: «ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»(١)، «وإنّ القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكشف الظلماتُ إلا به»(٢).

وقـد أكّد الأئمة مـن ولده عليهم السلام المضمون عينه، فقال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، وبيّنه لرسوله، وجعل لكلّ شـيء حدّاً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه»(٣)، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله – تبارك وتعالـى – أنـزل في القرآن تبيان كلّ شـيء حتى – والله – ما ترك شـيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن إلا وقد أنزله الله فيه»(٤)، «فليس شـيء إلا في الكتـاب تبيانه»(٥)، «ما من أمر يختلف فيه اثنـان إلا وله أصل في كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»(٦).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام يقول: «ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة»(٧).

وكمـا شـهد رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديـث الثقلين لأهـل بيته بملازمتهـم للكتاب وملازمـة الكتـاب لهم، فقـد حافظ أهل البيت عليهم السلام على الكتاب – اسـتيعاباً واسـتلهاماً وعملاً – أشد من محافظتهم على أرواحهم، إلى الحدّ الذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله طهّرنا وعصمنا، وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه، وجعلنا مع القرآن، والقرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا»(٨).

وإلـى جانب اليقين العالي عند أهل البيت عليهم السلام بسـعة القرآن الكريم لكلّ شـيء، كانـت عندهم الثقـة الكاملة بقدرتهم على اسـتخراج ذلك، وكانوا يطلبـون من الناس إذا تحدّثوا لهم عن شيء – أيّ شيء!! – أن يسألوهم: أين هو من كتاب الله؟!

---

(١) نهج البلاغة/ ٢٢٣، الخطبة ١٥٨.
(٢) نفسه/ ٦١، الخطبة ١٨.
(٣) بحار الأنوار ٨٩/ ٨٤، الباب ٨، ح ١٦.
(٤) الكافي ١/ ١١٣، الباب ٢٠، ح١.
(٥) بحار الأنوار ٨٩/ ٩٤، الباب ٨، ح ٤٤.
(٦) نفسه ٨٩/ ١٠٠، الباب ٨، ح ٧١.
(٧) الكافي ١/ ١١٤، الباب ٢٠، ح ٤.
(٨) وسائل الشيعة ١٨/ ١٣٢، الباب ١٣، ح ٤.

يقول علي عليه السلام: «ما من شيء تطلبونه إلا وهو في القرآن، فمن أراد ذلك فليسألني عنه»[١].

وينقل أبو الجارود أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال: «إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثمّ قال في بعض حديثه: إنّ النبي - صلى الله عليه وآله - نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال. فقيل له: يا ابن رسول الله، أين هذا من كتاب الله - عزّ وجلّ -؟، قال: قوله: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢]، وقال: ﴿**وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾[٣]، وقال: ﴿**لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[٤]»[٥].

وإزاء إيمان المعصومين الواثق بعظمة القرآن وشموليته لكلّ شيء وخصوبته الباهرة.. القادرة على منح درر الرؤى والأفكار والمواقف، نشهد الحثّ الكبير منهم عليهم السلام على لزوم التمسّك بالقرآن والاستلهام منه حتى في أحلك الظروف والفتن، على نحو ما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع وماحل مصدّق، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومَن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب تفصيل، وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم، وعلى نجومه نجوم، لا تُحصى عجائبه، ولا تُبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنازل الحكمة، ودليل على المعروف لمن عرفه»[٦].

ويقول صلى الله عليه وآله: «إذا أردتم عيش السعداء، وموت الشهداء، والنجاة يوم الحسرة، والظلّ يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن، فإنّه كلام الرحمن، وحرز من الشيطان، ورجحان في الميزان»[٧].

---

(١) نفسه ١٨/ ١٣٥، الباب ١٣، ح ٢٠.
(٢) سورة النساء/ ١١٤.
(٣) سورة النساء/ ٥.
(٤) سورة المائدة/ ١٠١.
(٥) بحار الأنوار ٨٩/ ٨٢، الباب ٨، ح ١٢.
(٦) نفسه ٨٩/ ١٧، الباب ١، ح ١٦.
(٧) نفسه ٨٩/ ١٩، الباب ١، ح ١٨.

موقفنا تجاه الروايات:

ولعلّ أول ما يواجهنا - ونحن نبحث فكرة الاستفادة من الأحاديث والروايات في التدبر الموضوعي - أن نتساءل: أليس في الأحاديث والروايات الصحيح والسقيم؟، أليس فيها الثابت والمكذوب والمحتمل؟، وبحسب تقسيم علم الرجال: أليس فيها الصحيح والموثق والحسن والضعيف؟!

إذاً.. فنحن أمام سؤال منطقي منهجي هو: ما هو موقفنا من الأحاديث والروايات، قبل أن نسعى لأخذ روايات وإدراجها في بحثنا، فتكون روايات سقيمة تجفّف منابع الآيات، وتوقف سفينة البحث في متاهات الظلام؟!

ونستطيع أن نوجز موقفنا تجاه الروايات في الآتي:

١- روايات مقبولة:

وهي تلك الروايات الموثوقة السند والمتن، ذات الدلالات الصحيحة الواضحة، التي لا خدش فيها ولا عيب. فإنّنا نقف منها موقف التلميذ الذي يجلس أمام أستاذه الكبير مقتبساً من ألقه وعباب علمه.

وقد تكفلت الروايات وجهود العلماء في ميدان علم الحديث والدراية وعلم الرجال ببيان شروط قبول الرواية والأخذ بها، كموافقتها لكتاب الله، وسلامة متنها من الاضطراب والتهافت، وعدم وجود الكذّابين والمدلّسين بين رواتها.

٢- روايات مرفوضة:

وهي تلك الروايات ذات السند الضعيف، أو المتن الركيك، أو الدلالات الخاطئة، كروايات (الغرانيق) التي سعى الطبري - بما أوتي من قوة - لجمعها وتتبّعها، وكيف أنّه «لما رأى رسولُ الله ﷺ تولّيَ قومه عنه، وشقّ عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من عند الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه، وكان يسرّه - مع حبّه وحرصه عليهم - أن يلين له بعض ما غلُظ عليه من أمرهم، حين حدّث بذلك نفسه وتمنى وأحبّه، فأنزل الله: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾(١)، فلما انتهى إلى

(١) سورة النجم/ ١- ٢.

قول الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[١]، ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدّث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه: (تلك الغرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهنّ تُرتضى). فلما سمعتْ قريش ذلك فرحوا وسرّهم، وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم....، فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون لسجود نبيّهم، تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره، وسجد مَنْ في المسجد مِن المشركين مِن قريش وغيرهم لما سمعوا مِن ذكر آلهتهم»[٢].

وينقل الطبري في نهاية هذه الرواية: «فأنزل الله – تبارك وتعالى – عليه – وكان به رحيماً – يعزّيه ويخفّض عليه الأمر، ويخبره أنّه لم يكن قبله رسول ولا نبي تمنى كما تمنى ولا أحبّ كما أحبّ إلا والشيطان قد ألقى في أمنيّته كما ألقى على لسانه – صلى الله عليه وسلّم –، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته، أي فأنت كبعض الأنبياء والرسل، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٣]»[٤].

وقد دوّن الطبري (ما نفثه!!) الشيطان على لسان رسول الله ﷺ بأشكال مختلفة، فمرة هي (تلك الغرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهنّ تُرتضى) – كما مرّ قبل قليل، وثانية: (تلك الغرانقة العُلى، وإنّ شفاعتهن لتُرجى)[٥]، وثالثة: (تلك الغرانيق العُلى، وشفاعتهن تُرجى، مثلهن لا يُنسى)[٦]، ورابعة: (وهي الغرانيق العلى، وشفاعتهن تُرتجى)[٧]، وخامسة: (تلك الغرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهنّ لتُرتجى)[٨]، وسادسة: (إنّ تلك الغرانيق العُلى، منها الشفاعة تُرتجى)[٩]، وغيرها...

ودوّن الطبري في ذلك الصفحات الطوال من تفسيره[١٠]، ولم يكتفِ بذلك بل

(١) سورة النجم/ ١٩– ٢٠.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: محمود شاكر ١٧/ ٢٢٠.
(٣) سورة الحج/ ٥٢.
(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري) ١٧/ ٢٢٠– ٢٢١.
(٥) نفسه ١٧/ ٢١٩.
(٦) نفسه ١٧/ ٢٢١.
(٧) نفسه ١٧/ ٢٢١.
(٨) نفسه ١٧/ ٢٢١.
(٩) نفسه ١٧/ ٢٢٢.
(١٠) نفسه ١٧/ ٢١٩– ٢٢٥.

فصّلها - كذلك - في تاريخه[١]، وفي الاثنين لم يجهد نفسه في مناقشة تلك الروايات التي وردت عنده ورود المسلّمات، والتي فتح بها الباب مشرعة على القدْح في رسول الله ﷺ، وأمانة تلقي الوحي وتبليغه لديه التي فتحت - بعد قرون طوال - المجال الأخصب لسلمان رشدي ليؤلف كتابه (آيات شيطانية).

إنّ هذه الروايات تناقض مقام العصمة للأنبياء - ومنهم نبيّنا الأكرم محمد ﷺ -، وتقف مقابلاً لقوله تعالى: **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾**[٢].

ومن الطريف أنّ بداية سورة النجم التي ادعى هؤلاء أنّ الشيطان ألقى فيها آياته تلك على لسان الرسول ﷺ، قد ورد فيها ومن أول مقطع ما يشهد للنبي الكريم ﷺ بعصمته: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾**[٣]!!

ومن أهم المعايير التي ذكرها المعصومون عليهم السلام لتمييز الكلام - ومن ثمّ قبوله أو رفضه -: عرضه على القرآن الكريم، فإن وافقه أُخذ به، وإلا.. ضُرب به عرض الحائط.

يقول رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط»[٤].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: إنّ على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[٥].

وينقل لنا عليه السلام أنّه «خطب النبيُّ ﷺ بمنى فقال: أيّها الناس، ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»[٦].

ويقول عليه السلام: «كلّ شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»[٧].

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٢/ ٧٥- ٧٨.
(٢) سورة الحاقة/ ٤٤- ٤٧.
(٣) سورة النجم/ ١- ٤.
(٤) تفسير الصافي ١/ ٣٦ (المقدمة الخامسة).
(٥) أصول الكافي ١/ ١٢٣، الباب ٢٢، ح ١.
(٦) نفسه ١/ ١٢٣، الباب ٢٢، ح ٥.
(٧) نفسه ١/ ١٢٣، الباب ٢٢، ح ٣.

٣- روايات متوقف فيها:

قد تكون الرواية سليمة - ضمن الموازين الشرعية والعقلية - فنقبلها، وقد تكون سقيمة - سنداً أو متناً أو كليهما - فنرفضها، وقد تكون صحيحة لكنّها ضمن تصوّراتنا المحدودة صعبة المحتوى، تتحدّث عن شيء فوق مقدار التصوّر الزمني المعايش لها، ويلجأ البعض حينها إلى التوقف - لا الرفض - مفضّلين اتهام فهمنا للنصّ على إسقاطه، قائلين: إنَّنا لا نفهم حقيقة مراد النصّ هنا، ولعلَّ الأيام القادمة تفسِّره؛ حذراً من ردِّ حديث المعصومين عليهم السلام.

«فبالنسبة للروايات التي تفهمها عقولنا نأخذها، والتي لا تفهمها لا ننسفها ونقول: إنَّها ضعيفة، بل.. نتوقف ونقول لأنفسنا بتواضع: إنَّنا لا نفهم، فلعلّ غيرنا أو الذين يأتون بعدي [بعدنا] يفهمونها، ألسنا في صغرنا كنّا لا نفهم أموراً كثيرة ولما كبرنا عرفناها؟!»[1].

لقد ترك كثير من العلماء تدوين رواية الخبر الذي يبشِّر بأنَّه سيأتي على الناس زمان يمشون فيه في صناديق هادئة من غير أن تتزلزل أبدانهم، متسائلين: كيف يمكن لصندوق أن يحمل الإنسان من مكان إلى مكان؟، وجازمين بأنَّ ذاك لا يتفق مع العقل تارة[2]، ومفسّرين (الصندوق) بأنَّه (حِبُّ الجنّ)، وأنَّ ذاك نوع من السحر تارة ثانية.

لكنَّ الزمن أثبت لنا أنَّ ذلك ينطبق الآن على السيارة أو الطائرة، وأنَّ ذلك الرفض لم يكن منطلقاً إلا من قَصْر النصّ على المعيش في الواقع الاجتماعي، وعدم إعطائه مدلولاً مستقبلياً ممكناً.

وبعبارة أخرى: إنَّهم حكَّموا (المحال عادة) في تفسير النصّ، ورأوا تعارضه معه، وإن كان في الحقيقة ليس (محالاً عقلاً)، وليس ممتنعاً على العلم، ولو في المستقبل الآتي[3].

---

(١) السيّد محمد تقي المدرسي، (الحديث)، الاستفتاءات (نشرة فقهية تصدر عن مكتب السيّد المدرسي في السيّدة زينب)، العدد ٦، السنة الأولى، ربيع الثاني، ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢.

(٢) نفسه/ ٢.

(٣) ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟/ ٢٤١- ٢٤٢.

٤- روايات لا تهمّ:

ونعني بها تلك الروايات التي تصدر من أناس لا نقطع بعصمتهم كأقوال (ابن عباس) أو (ابن كثير)، ولم ينسبوها لرسول الله ﷺ أو أحد المعصومين عليهم السلام، فهذه الروايات غير مؤكدة السند، ولا ندري أهي أحاديث سمعوها ونقلوها، أم هي اجتهادات منهم؟

ومن ثمّ فهي آراء محترمة بوصفها اجتهاداً من قبل بعض أهل العلم، وتصلح أن تُنقل من باب التأييد لا من باب التأسيس والتأصيل الذي يُبنى عليه؛ لأنّا لا نسلِّم بكونها روايات عن الرسول أو أحد من آله حتى يثبت ذلك.

لقد كان عُمْرُ (عبد الله بن عبّاس) يوم توفي النبي ﷺ عشر سنين، وكان قد قرأ المحكم (أي المفصّل)[1]، أو أربعة عشر سنة بناء على القول بولادته في العام الثالث قبل الهجرة. وآراؤه التي تُذكر في التفسير: ما كان منها رواية عن الرسول ﷺ أو الأمير عليه السلام عالجناه بطريقة علم الرجال والدراية، وقبلناه إن كان مقبولاً وفق هذين العلمين، كروايات غيره تماماً.

لكنّ الكلام ليس في هذا، وإنّما هو في الآراء التي يذكرها في التفسير معبِّرة عن عقليته العلمية واجتهاداته المعرفية، وهذه هي التي نقول عنها: إنّها لا تهمنا كثيراً؛ لأنّنا لا نعتقد فيه العصمة حتى نأخذ بأقواله تلك، وأسمى ما تصل له آراؤه أنّها وجهة نظر من شخص مطلع لُقب بـ(حبر الأمة)، لكنّها قد تصيب وقد تخطئ، ويمكن الاستفادة منها من باب التأييد والاستئناس، لا من باب الاستدلال وإشادة صرح البناء التفسيري على أسسها.

اتجاهات المفسّرين في التعاطي مع السنة:

وبعد الإجابة على الأسئلة السابقة ننطلق إلى سؤال آخر، يقترب أكثر من عمق البحث، وهو: ما هي اتجاهات المفسّرين في التعاطي مع السنة في تفاسيرهم؟

ونجيب بأنّ تلك الاتجاهات تنقسم إلى أشكال، هي:

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٩٣، الباب ٨، ذيل الرواية ٢٤.

أولاً: التفاسير الروائية:

يعتمد بعض المفسّرين اعتماداً أساسياً على الروايات، وأقوال الصحابة والتابعين، وقد يضيف لذلك توضيح الألفاظ بما ورد من الشعر العربي. وتُسمّى بالتفسير بالمأثور (أي المروي من السنة المطهرة)، أو (التفسير الأثري)، أو (التفسير النقلي)، أو (التفسير الروائي). وعادة ما لا نجد رأياً للمفسِّر في تلك التفاسير، وإنّما يقصر جهده على جمع المادة المأثورة وحكاياتها.

وقد سبق أن ذكرنا مجموعة من كتب التفسير بالمأثور لدى السنة والشيعة، كـ (جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري، و(الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور)، لجلال الدين السيوطي - من السنة -. و(تفسير القمي)، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، و(البرهان)، للسيّد هاشم البحراني - من الشيعة -.

ثانياً: التفاسير العقلية:

المفسّرون في هذه التفاسير العقلية ينتهجون تطليق السنة أو ندرة الاعتماد عليها، ويعتمدون اعتماداً كلّياً على العقل، حيث يرون أنّ التفسير إنّما هو مفاهيم لا مصاديق، وأنّ السنة تغرق في المصاديق، فلا داعي لتناولها في كتب التفسير، ثم أنّهم يحتجون بأنّ القصص القرآنية تغلغلت فيها الكثير من الإسرائيليات التي استقرّت فيها جرّاء الأخذ عن كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، وتميم الداري، ووهب بن منبِّه، وعبد الملك بن جريج، وغيرهم..

وقد وجدنا كيف غرق بعض المفسّرين - كالطبري والثعلبي - حتى النخاع في عالم الخيال والخرافة والأسطرة، حينما طرق الآية الكريمة: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ**﴾[1]، فراح يعرض الكلام العجائبي عن أحجامهم، وأحجام حيواناتهم وفواكههم. وكذلك فعل في الآية: ﴿**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ**﴾[2]، فمضى في استعادة الأساطير المنسوجة عن (إرم)، وممّ بُنيت؟، وكيف بُنيت؟، وفي كم سنة بُنيت؟، وتفاصيل أبوابها المزركشة بالذهب والفضة والياقوت، وأبراجها الشامخة، وتربتها المرصوفة بالدرّ والجوهر والزعفران، وأشجارها اليانعة الثمار، وأنهارها الرقراقة..

---

(١) سورة المائدة/ ٢١.

(٢) سورة الفجر/ ٧- ٨.

وحيـن نقـف عند تلـك المبرّرات التـي ذُكرت لتطليق السـنة وعدم الاسـتفادة من كنوزهـا الهائلـة في عمليتي التدبر والتفسـير نرى أنّها لا تملك القوة الكافية والاسـتدلال المقنـع؛ لأنّ هنـاك من بيـن الروايات ما جاء لتأسـيس وتوجيه مفاهيـم، وليس على نحو المصاديـق التطبيقيـة الإجرائيـة للآيات، ومن ذلـك ما جاء عن الإمـام الصادق عليه السلام أنّه قـال فـي قول الله - عزّ وجلّ -: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّـهِ مَغْلُولَةٌ﴾[1]: «لم يعنوا أنّه هكذا، ولكنّهـم قالـوا: قد فرغ مـن الأمر، فلا يزيـد ولا ينقص، فقال الله - جـلّ جلاله - تكذيباً لقولهـم: ﴿غُلَّـتْ أَيْدِيهِـمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُـواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُـوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَـاء﴾[2]، ألم تسمع الله - عزّ وجلّ - يقول: ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[3]»[4].

وأمـا بالنسـبة لوجود ضعيف السـند والإسـرائيليات بيـن الروايات فهـو الآخر لا يكفي مبرِّراً لتطليق السـنة وعدم اعتمادها في البحث القرآني؛ لأنّ ذلك يُحَلّ بالاسـتفادة من الروايات السـليمة (سـنداً ومتناً)، وضرورة إعمال المفسِّـر لعلم الرجال والدراية في الروايات قبل اعتمادها بدلاً من رفضها جملة وتفصيلاً.

وهناك من يعدّ تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) المعروف باسم (التفسير الكبير) من هذا الاتجاه؛ لغلبة التفسير بالرأي ذي الطابع الفلسفي عليه.

ونشـير هنـا إلـى أنّ البعض يصنّف (تفسـير الميـزان) على أنّـه من طراز التفاسـير العقليـة؛ لأنّه لا يعتمد الروايات في تفسـير الآيّ القرآنـي، وإنّما يأتي بها في بحث خاصّ تحت عنوان (بحث روائي) بعد الانتهاء من تفسـير الآيات، فهي بحث مسـتقل جاء على نحو التأييد والتوسّـع لا التأسـيس للفهم القرآني، ولأنّ الحلة الدقية المتوشـحة بالفلسفة وبحوثها قد أثرت على التفسير - شكلاً ومضموناً - بحيث وجهته مسار التفاسير العقلية؛ لأنّ الفلسفة واحد من أبرز العلوم العقلية.

غير أنّ هذا الإدعاء يحتاج إلى كثير من التأمل، ويكفي في رده قول السيّد الطباطبائي عـن منهجه الذي سيسير عليه في تفسـيره: «أن نفسِّـر القـرآن بالقرآن، ونسـتوضح معنى الآيـة من نظيرتهـا بالتدبر المندوب إليه فـي نفس القرآن، ونشـخّص المصاديق ونتعرّفها

(١) سورة المائدة/ ٦٤.

(٢) سورة المائدة/ ٦٤.

(٣) سورة الرعد/ ٣٩.

(٤) الشيخ محمد مهدي الآصفي، مقدّمة (البرهان في تفسير القرآن) ١/ ٣١، ح ٧.

بالخـواصّ التي تعطيها الآيات»[١]، أي أنّه يريد الاعتماد على مفاتيح داخلية لفهم النصّ؛ تأسيساً علـى قاعدة أنّ (القرآن يفسّـر بعضه بعضاً)، و(يشـهد بعضه لبعـض)، فضلاً عن أنّ عقـده للبحـوث الروائية التي لا تكاد تخلو منهـا مجموعة من الآيات يأتي – في بعض صوره وإن كان تالياً للتفسـير – على نحو الموجّهات للتفسير، وتقوية بعض الآراء على بعض، وإتيان الروايات ضمن بحث مستقل لا يدلّل على انفكاكها عن التفسير وأنّها على نحو التأييد، فهل نقول عن بحوثه التي تحمل عنوان (بحث فلسفي، بحث اجتماعي) أنّها خارجة عن التفسـير أتي بها على نحو التأييد فقط؛ لأنّها جاءت تحت عنوان مستقل؟، لم لا نقول أنّ وجودها تحت عنوان مستقل هو نمط من المنهجية في التفسير لا أكثر، منهجية تعتمد أولاً: على توضيح الدلالات اللفظية المفهومية العامة للآيات، وثانياً: التوسّـع في البحوث التفصيلية (الروائية، والفلسفية، والاجتماعية) وغيرها..

وإن كنّا لا ننفي أنّ تفسـير الميزان متأثر شـيئاً ما.. بالبحوث الفلسفية التي تعود إلى أنّ عقلية المسـتلهم/ المفسِّر قد ألفت البحث الفلسفي – صياغة ومحتوى –، مع أنّه قال فـي مقدّمـة كتابه: «قـد اجتنبنا فيها عـن أن نركن إلى حجـة نظرية فلسـفية، أو إلى فرضية علمية، أو إلى مكاشـفة عرفانية»[٢]، لكنّ ذاك وحده لا يكفي في عدّ التفسـير من التفاسير العقلية – بالمعنى المقصود[٣] –؛ لأنّه زاوج بين العقلية والروائية.

ثالثاً: المزاوجة بين الروائية والعقلية:

وهذه الطريقة أفضل الطرق، حيث يتمّ الاعتماد على نورانية الروايات لتكشـف لنا خفايـا الآيات، ولتقدح الشـرارة في العقل ليكتمل الجنـاح الآخر، حيث نصل إلى المراد الذي ننشـده، ولعلّ أبرز تفسير يُصنّف على هذا الاتجاه هو: (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

فائدة السنة في التدبر الموضوعي:

تنبثـق الحاجة إلى السـنة المعصومة مـن كونها ثاني طرق الاسـتلهام، وتوضيح ما خفـي علـى الأذهـان، وأنّها تفتـح لنا كنوزاً ما كنّا لنسـتطيع اكتشـافها إلا مـن خلال تلك

(١) الميزان في تفسير القرآن ١/ ١١.
(٢) نفسه ١/ ١٢.
(٣) أي: التفاسير التي لا تعتمد على السنة المباركة.

المرويات الثمينة التي تصبّ في خدمة المنهجية القرآنية.

ومـن الصعوبـة بمـكان أن نلخص كلّ فوائد السـنة في التدبر الموضوعـي، إلا أنّنا نحاول أن نقتنص بعضها:

١- الإثراء المعرفي:

فالروايـات تمدّنـا بتفاصيـل هائلة للآيـات، وتوضيـح معانيها، وذكر أشـخاصها، وأحداثها، وملابساتها، والأقوال الواردة فيها، والاستلهام منها.

وبمراجعة كتب التفسـير بالمأثور - وقد سـبق أن ذكرنا أسماء بعضها - نستطيع أن ندرك الزخم العظيم الذي قاله الرسول الأكرم ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام في شأن الآيات، وبه نقوم بإثراء البحث في آيات الكتاب العزيز.

بيـد أنّـا في هذه الفائدة ينبغي أن نكون على حذر ووعي، فلا نأخذ أيّة رواية لمجرّد نسـبتها لأحـد المعصوميـن عليهم السلام، أو وجودها في كتاب أحاديث أو تفسـير لعالم جليل، فكثيرة هي تلك الإسـرائيليات التي تسـرّبت إليها، لاسيما عند الحديث عن قصص الأمم الماضية، وكثيرة هي تلك الروايات الضعيفة والمختلقة التي تسللت إليها.

إنّ الأخـذ بهـذه الروايات غير المعتبرة من شـأنه تسـطيح البحث وتسـخيفه وملئه بالخرافـات والأسـاطير، ومـن ثـمّ إبعاده عـن الفائدة وحشـوه بالضـرر، بدلاً مـن إثرائه المعرفي، ونحن لا نبتغي حشد الروايات أنى كانت باسم الإثراء، وإنّما نهدف التطلع إلى الروايات المعتبرة التي تغني البحث وتفيده.

٢- استجلاء المفهوم:

يُقصـد مـن (المفهوم) فـي علم المنطق: «نفـس المعنى بما هـو، أي نفس الصورة الذهنية المنتزعة من حقائق الأشياء»(١).

ونحن - هنا - في حقل الدراسة القرآنية نستعمله بهذا المعنى.

فهـو: الرؤيـة أو الفكـرة أو النظرة التي نسـتفيدها من الروايات لبيـان معنى الآيات ومدلولها.

---

(١) الشيخ محمد رضا المظفر، المنطق/ ٦٣.

فهناك بعض الروايات حينما تتحدّث عن الآيات توضِّح مفاهيمها، أو تذكر مفاهيم (إعلائية) أسمى من المتداول في المعنى اللغوي أو المعروف لدى المفسّرين أو الناس.

وبمراجعتنا للروايات نستطيع أن نقتبس من ألق تلك المفاهيم، فنؤكد ما عندنا من مفاهيم، أو نعرف ما لم نكن قد عرفناه، أو نفهم ما لم نكن قد فهمناه، أو نستفيد فهماً أعلى وأسمى مما كان لدينا.

يقول عدي بن حاتم الطائي: «لما نزلت: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾[1]، عمدتُ إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض، فجعلتُهما تحت وسادتي، فجعلتُ أنظر في الليل، فلا يستبين لي، فغدوتُ على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فذكرتُ له ذلك، فقال: إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار»[2].

وعن الحصين بن أبي الحصين قال: «كتبتُ إلى أبي جعفر [الباقر] – عليه السلام –: جُعلتُ فداك، اختلف مواليك في صلاة الفجر: فمنهم مَن يصلي إذا طلع الفجر الأول المستطيل في السماء، ومنهم مَن يصلي إذا اعترض في أسفل الأرض واستبان...، فكتب بخطه – عليه السلام –: الفجر – رحمك الله – الخيط الأبيض، وليس هو الأبيض صعداء، ....، فالخيط الأبيض هو الفجر الذي يُحرَّم به الأكل والشرب في الصيام، وكذلك هو الذي يوجب الصلاة»[3].

وحديث عدي بن حاتم يوضّح كيف التبس مفهوم (الخيط الأسود، والخيط الأبيض) عند بعض الصحابة، فحملوه على المعنى الحقيقي للخيط الأسود والخيط الأبيض المصنوع من الكتان وغيره، ولم يفهموا أنّ ذلك مجاز وكناية، لكنّ الرسول الأكرم ﷺ بيّن له مفهوم ذلك والمقصود الفعلي منه (إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار).

ورواية الحصين توضّح أنّهم يعرفون أنّ المقصود من الخيط الأسود هو الليل، والمقصود من (الخيط الأبيض) هو الفجر، لكنّ الاشتباه عندهم في المفهوم أعمق وأدقّ، فمفهوم (الخيط الأبيض) يلتبس عندهم بين الفجر الكاذب (عمود النور المستطيل في الأفق نحو الأعلى) والفجر الصادق (إذا اعترض عمود النور في الأسفل واستبان)، فبيّن

(١) سورة البقرة/ ١٨٧.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٣٦، (كتاب الصوم)، باب قول الله تعالى: ﴿**وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ**﴾.

(٣) البرهان في تفسير القرآن/ ٩١، ح ٦.

لـه الإمام عليه السلام أنّ المقصـود بالفجر هو الفجر الصادق الذي يدخـل باعتراض النور في الأسـفل، كمـا بيّن لـه الإمام عليه السلام أنّ الأحـكام المتعلقة بدخول الفجـر - كحرمة الأكل والشـرب في شـهر رمضـان، ووجوب صـلاة الصبح -، إنّمـا تعني هذا الفجـر الصادق، فالمناط في الجميع واحد.

وهكـذا أوضحـت لنا الأحاديـث والروايات مفهـوم ﴿الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِـنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ الوارد في الآية.

٣- معرفة المصداق:

يُقصد من (المصداق) في علم المنطق: «ما ينطبق عليه المفهوم، أو حقيقة الشـيء الذي تُنزع منه الصورة الذهنية (المفهوم)»(١).

فهـو والمفهـوم وجهـان لعملـة واحدة تسـعى لتحريك المعنـى وتفعيلـه، وإيجاد التطبيقات التي يتجسّـد فيها المفهوم، أو هو الحقيقة الذهنية التي تُشـتق وتُسـتخلص من الأفراد والتطبيقات.

والفـرق بين شـقيّ الفكرة هنا يعود لتقـدم المصداق أو تأخره عـن المفهوم: فتارة يكون عندنا مفهوم ومعنى سـابق، ثمّ نبحث لـه عن مصاديق خارجية، وهنا تقدّم المفهوم علـى المصاديـق وجوداً، وتارة نجـد مصاديق عدة في الخارج، ثمّ نسـتخرج منها مفهوماً ومعنـى، فيتقـدم المصداق وجـوداً على المفهوم وعلـى الرؤية الذهنيـة المنتزعة من ذاك المصداق.

فلكلّ مفهوم مصداق أو مصاديق ينطبق عليها، وقد أودع الله الذهن البشـري قدرة أن يعيـد النماذج إلـى مفهومها، فيقوم بعملية (تعرّف وتطبيق)، ويكون إيجاد التطبيق تالياً على وجود المفهوم الذهني، كما أودعه قدرة القيام بفعل انتزاعي للحقائق من المصاديق الخارجية (فهم وتركيب)، فيكون المعنى تالياً لوجود التطبيقات الخارجية الحسـية، فهو فـي الفعل الأول أمام حقيقـة ومفهوم ومعنى عنده يقوم بتطبيقه على نماذج وتجسـيدات خارجيـة، وهو فـي الفعل الثاني أمام نماذج وتجسـيدات خارجية يسـتخلص منها حقيقة ومفهوماً ومعنى ذهنياً.

وقـد عُرفـت العمليـة الثانيـة فـي المنطـق الشـكلي الأرسـطي القديم بــ(العملية

(١) المنطق/ ٦٣.

الانتزاعية)، و(النظرية الانتزاعية)، و(عملية التقشير)، ورأى أرسطو أنّها طريق المعرفة عند الإنسان[١].

ونقصد من (المصداق) في حقل الدراسة القرآنية: المثال التطبيقي الذي يتجسّد فيه المفهوم القرآني أو النموذج القرآني.

أي أنّ المصداق عبارة عن أحد تطبيقات وتجسيدات المفهوم، أو أحد تطبيقات وتجسيدات النموذج القرآني، سواء أكان ذاك النموذج شخصاً أم فئة أم مجتمعاً أم حدثاً أم شيئاً أم غير ذلك..

فلكلّ مفهوم قرآني ولكلّ نموذج قرآني أمثلة جديدة ينطبق عليها ما انطبق سابقاً على ذلك المفهوم أو النموذج.

وسوف نرى أنّ بعض الروايات يذكر (للمفهوم القرآني) مصداقاً أو أكثر ينطبق عليه، ثمّ تأتي روايات أخرى لتضيف مصاديق أخرى للمفهوم ذاته، كما سنجد روايات تذكر مصداقاً (للنموذج القرآني)، ثمّ تأتي روايات أخرى لتضيف مصاديق مختلفة ومتنوّعة وجديدة ينطبق عليها النموذج؛ مما يدلل على أنّ المعصومين عليهم السلام تعاملوا مع المفاهيم والنماذج القرآنية تعاملاً حركياً فاعلاً ومفتوحاً على أفق واسع ومتجدد.

«وهذا المطلب يفتح طريق فهم الكثير من الأخبار التي تطبّق الآيات على فئة أو شخص؛ فيتوهم الاختصاص، وليس كذلك، بل.. هو ذكر المصداق أو المصاديق»[٢].

فتعدّد المصاديق وتنوعها ليس نحواً من التعارض وتشوش الرؤية، بل هو نحو من التكامل يجري على مبدأ (إثبات الشيء لا يعني نفي ما عداه)، و(تخصيص المورد لا يخصص الوارد)؛ إذ الآيات ليست مقصورة المصداق على شخص واحد، ولا تختصّ بمصداق واحد، وكلّ من عمل بما فيها فهو مصداق لما ومَن تتحدّث عنه، وذاك ما أوضحه الإمام الباقر عليه السلام لحمران بن أعين الذي سأله عن ظهر القرآن وبطنه، فقال عليه السلام: «ظهره الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم، يجري فيهم ما يجري في أولئك»[٣].

---

(١) راجع: السيّد محمد باقر الصدر، فلسفتنا/ ٦٨ـ ٦٩، والسيّد محمد تقي المدرسي، الفكر الإسلامي مواجهة حضارية/ ٧٩ـ ٨٣.
(٢) الإمام الخميني، بلسم الروح/ ٢٧.
(٣) بحار الأنوار ٨٩/ ٨٣، الباب ٨، ح ١٤.

فهـذه الروايـة تذكر نوعين مـن (المصـداق) للمفاهيم والنمـاذج القرآنية، أولهما: المصـداق التاريخي، وهـو الذي نزلت فيه الآيـة أو عنته بالأصالة والمباشـرة، وثانيهما: المصـداق الخارجـي، وهـم الذين يعملـون بأعمال المصـداق التاريخي ويشـابهونه في الفعل، وتعنيه الآية بالعرض ومفهوم الموافقة.

وإذا كان المصـداق التاريخـي محـدوداً متناهياً، فـإنّ المصـداق الخارجي تطبيق متجدّد لا متناهي، ينطبق على كلّ مشابه، مهما تغيّرت الأسماء والأزمان والأماكن.

الأول: مصداق المفهوم والنموذج الإيجابيين:

ولو وقفنا – مثلاً – عند المصداق الذي يحمله مفهوم (الصراط المستقيم) في قوله تعالى: ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾(١)، فقد نجد روايات منها:

أ- قال المفضّل بن عمرو: سألتُ الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن (الصراط)، فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله – عزّ وجلّ – وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط فـي الآخرة، فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، مَن عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسـر جهنم في الآخرة، ومَن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، فتردى في نار جهنم»(٢).

ب – وقـال الإمام الصادق عليه السلام: «﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾: صراط الأنبياء، وهم الذين أنعم الله عليهم»(٣).

ج – وعن بريدة صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في: «﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ قال: صراط محمد وآله عليهم السلام»(٤).

وقـال الإمام علي بن الحسـين عليه السلام: «ليس بين الله وبيـن حجته حجاب، ولا لله دون حجته سـتر، نحن أبواب الله، ونحن الصراط المسـتقيم، ونحن عَيبة(٥) علمه، ونحن

(١) سورة الفاتحة/ ٦.
(٢) البرهان في تفسير القرآن ١/ ٢٤٦، ح ٢٨٧، وبحار الأنوار ٢٤/ ١١، الباب ٢٤، ح ٣.
(٣) نفسه ١/ ٢٤٩، ح ٢٩٥، وبحار الأنوار ٨٢/ ٢١، الباب ٢٣، ح ١٠.
(٤) رشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب ٣/ ٧٣، والبرهان في تفسير القرآن ١/ ٢٥١، ح ٣٠٥، وبحار الأنوار ٢٤/ ١٦– ١٧، الباب ٢٤، ح ٢٤.
(٥) العَيْبَة: مستودع الثياب، أو مستودع أفضل الثياب، وعبارة (عَيبة علمه): استعارة، المقصود منها: نحن مستودع علم الله.

تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده، ونحن موضع سرّه»[١].

د- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «الصراط المستقيم أمير المؤمنين علي عليه السلام»[٢].

هـ- وقال الإمام علي عليه السلام: «وأما قوله: «﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾، فذلك الطريق الواضح، مَن عمل في الدنيا صالحاً؛ فإنّه يسلك على الصراط إلى الجنة»[٣].

وقال الإمام العسكري عليه السلام: «الصراط المستقيم صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأما الطريق المستقيم في الدنيا فهو ما قَصَر عن الغلوّ، وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل. وأما الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنة، الذي هو مستقيم لا يعدلون عن الجنة إلى النار، ولا إلى غير النار سوى الجنة»[٤].

وعن المقصود من (الصراط المستقيم) في قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[٥]، قال الإمام الصادق عليه السلام: هم «سلمان، والمقداد، وعمار، وأصحابه»[٦].

ومن هذه الروايات نستخلص أنّ (الصراط المستقيم) هو طريق له مصاديق مرتبة، هي:

أ - طريق معرفة الله.
ب- صراط الأنبياء عليهم السلام.
ج - صراط محمد وآله عليهم السلام.
د - الإمام المفترض الطاعة (كلّ إمام في حينه).
هـ- صراط علي أمير المؤمنين عليه السلام - بوصفه نموذجاً للآل الكرام والإمام المفترض الطاعة -.
و - صراط المؤمنين الصالحين.

وهذه المصاديق تسلسلية تنازلية (طولية)، وليست في مستوى واحد (عرضية)،

(١) البرهان في تفسير القرآن ١/ ٢٤٧، ح ٢٩١.
(٢) نفسه ١/ ٢٤٦، ح ٢٨٨.
(٣) بحار الأنوار ١٠/ ٦١، الباب ٣، ح ٤.
(٤) البرهان في تفسير القرآن ١/ ٢٤٦- ٢٤٧، ح ٢٨٩.
(٥) سورة الملك/ ٢٢.
(٦) مناقب آل أبي طالب ٣/ ٧٣، وبحار الأنوار ٢٤/ ١٦، الباب ٢٤، ح ٢٢.

كمـا أنّها على نحو (العموم المجموعي لا البدلي)، فلا يكفي الأخذ ببعضها دون الآخر، وترك أحدها ترك للجميع، وهي مصاديق لمفهوم قرآني هو (الصراط المستقيم).

وهذا يعني - أيضاً - أنّ المصاديق ما دامت تنطبق على كلّ إمام في حينه، وعلى طريق المؤمنين الصالحين، فستكون تطبيقاتها مفتوحة مع الزمن، تنطبق على كلّ ما ومَن تتوفر فيه هذه الصفات، ووفق ذلك نستطيع أن نقول: إنّ الصراط المستقيم هو صراط الإمام الصادق (من الأئمة)، وهو صراط أبي ذر الغفاري (من صحابة الرسول والأمير)، وهو صراط محمد ابن مسلم، وأبان بن تغلب، وزرارة بن أعين، وأبي بصير الأسدي، وجميل بن درّاج، وحماد ابن عيسى، ويونس بن عبد الرحمن، ومحمد بن أبي عمير.. (من صحابة الأئمة).

وكما مثّلت مصاديق الصراط المستقيم التي أبرزتها الروايات أمثلة تطبيقية لفكرة ومفهوم قرآني، فسنجد روايات ذكرت أمثلة تطبيقية جديدة لنماذج قرآنية مثّلها في الأصل أشخاص وأشياء ذكرها القرآن الكريم.

ولعلّ من أحفل الروايات حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «معاشر الناس، إنّ علياً صدِّيق هذه الأمة، وفاروقها، ومحدَّثها، إنّه هارونها، ويوشعها، وآصفها، وشمعونها، إنّه باب حطتها، وسفينة نجاتها، إنّه طالوتها، وذو قرنيها»[1].

وواضح أنّ هذا الحديث الشريف تحريك مكثّف واعٍ للآيات القرآنية التي ذكرت نماذج مشرقة، حملها في الأمم السابقة أشخاص، مثل: النّبي هارون، ويوشع بن نون، وآصف بن برخيا، وشمعون، وطالوت، وذو القرنين، أو حملتها أشياء، مثل: باب حطة، وسفينة نوح. وحملها في زمن الرسول ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام بما تجمّع فيه من خصال عظيمة، وما اكتنزته روحه من شمائل باذخة، بحيث غدا مثالاً تتجسّم فيه جميع تلك الكمالات التي حظي بها أولئك الأشخاص والأشياء المشرقون.

وكأنّ هذه النماذج نجوم لألاءة ظهر بعض منها في سماء أمة، وظهر بعض آخر منها في سماء أمة أخرى، واجتمعت جميعاً في سماء أمة رسول الله ﷺ، بفارق واحد هو: أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام اكتنز جميع تلك النجوم في فضائه الأرحب**!!**

وما عرضناه من مصاديق للصراط المستقيم تشكل أمثلة إيجابية لمفهوم قرآني إيجابي، وما حفل به حديث الرسول الأكرم ﷺ من مصاديق تشكل أمثلة إيجابية لنماذج قرآنية إيجابية.

---

(١) بحار الأنوار ٣٨/ ٩٣، الباب ٦١، ح ٧.

الثاني: مصداق المفهوم والنموذج السلبيين:

وعلى الطرف المقابل لو وقفنا عند المصداق الذي يحمله (مفهوم الطاغوت) في مثل قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(١)، فسنجد روايات كثيرة، منها:

أ – قال الإمام الصادق عليه السلام هو: «كلّ ما عُبد من دون الله من صنم أو صادٍّ عن سبيل الله»(٢).

ب- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّه الشيطان»(٣).

ج – وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لما أن تولوا كلّ إمام جائر ليس من الله؛ خرجوا بولايتهم إياه من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب لهم النار»(٤).

د ـ وقال الإمام الرضا عليه السلام: «هم الذين غصبوا آل محمد حقهم»(٥)، و«هم الظالمون آل محمد، والذين اتبعوا من غضبهم»(٦).

ومن هذه الروايات نستخلص أنّ (الطاغوت) مفهوم يشمل كلّ تعدٍّ وتجاوز للحدود، ولمصاديقه مراتب كثيرة، منها:

أ- كلّ ما عُبد من دون الله من صنم أو صادٍّ عن سبيل الله.

وهذه ضابطة كلية عامة جاء تصديرها بلفظ (كلّ)؛ ليعمّ كلّ شيء يكون مصداقاً لما يُعبد من دون الله، وجاء حرف الجرّ (مِن) فيها بيانياً؛ ليذكر أمثلة لذلك كالأصنام والصادين عن سبيل الله. و(الأصنام) تنتمي إلى دائرة عالم الطبيعة وعالم الأشياء الذي يمكن أن نعمّمه ليشمل كلّ ما دخل ضمن هذا النطاق، ومنه الأشجار والكواكب والنجوم، و(الصادون عن سبيل الله) تنتمي إلى دائرة عالم الخلق العاقل الذي من شأنه أن يقوم بعمل الصدّ والمنع، كالجنّ والبشر.

(١) سورة البقرة/ ٢٥٧.
(٢) المولى محسن فيض الكاشاني، التفسير الأصفى ١/ ١٢٢.
(٣) مجمع البيان، م ١، ج ٢، ص ٦٣١.
(٤) مستدرك الوسائل ١٨/ ١٧٤- ١٧٥، ح ٢٢٤٢٥، وبحار الأنوار ٨/ ٣٦٩، الباب ٢٧، التذييل على الحديث ٤١.
(٥) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي ١/ ١١١.
(٦) نفسه ١/ ١١٣.

ب – الشيطان، بوصفه أحد الصادين عن سبيل الله، من عالم الجنّ.

ج – أئمة الضلال من الحكام الظلمة الجائرين في سائر الأزمان والأمم، بوصفهم تمثلات للصادين عن سبيل الله، من عالم البشر.

د– أعداء آل محمد، وتشمل مغتصبي حقّ آل محمد عليهم السلام وأتباعَ أولئك المغتصبين، وهم أشخاص وفئات من عالم البشر، ينتسبون لأمة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهم مصداق عاش ويعيش في هذه الأمة، ويشكل مستوى أكثر تحديداً وتخصيصاً.

وما فعلته الروايات من تعميم في دائرة المفاهيم وتنويع وتكثير في دائرة مصاديق المفاهيم هو ما دفع العلامة المجلسي ليقول عن معنى (الطاغوت): «ويُستفاد من الأخبار أنّه يعمّ كلّ ما عُبد من دون الله من صنم، أو إمام ضلال، أو صادّ عن سبيل الله»[١].

وهو ما دفع الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ليقول: «فالطاغوت هو: الشيطان، والصنم، والمعتدي، والحاكم الجبّار، والمتكبّر، وكلّ معبود غير الله، وكلّ طريق لا ينتهي إلى الله. والكلمة تعني المفرد، وتعني الجمع.

أما المقصود بـ (الطاغوت)، فالكلام كثير بين المفسّرين. قال بعض: إنّه الصنم، وقال بعض: إنّه الشيطان، أو الكهنة، أو السحرة. ولكنّ الظاهر أنّ المقصود هو كلّ أولئك..، بل قد تكون أشمل من كلّ ذلك وتعني كلّ متعدٍّ للحدود، وكلّ مذهب منحرف ضالّ»[٢].

كما أنّ المصداق التاريخي لـ (السامري) – وهو أحد (النماذج) التي ذكرها القرآن الكريم – نجده في شخص من بني إسرائيل، أضلّ قوم موسى عليه السلام، وفتنهم بعبادة العجل، وقد أخبر الله نبيّه موسى بفعلته النكراء فقال: ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾[٣]، لكنّه – في مصاديقه الخارجية وتطبيقاته – ينطبق على كثيرين غيره، لذلك أطلق الرسول الأكرم وآله الطاهرون وصف (ساميّ هذه الأمة) على آخرين كانوا في أمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان لهم دورهم الفعّال في التضليل وخلق الفتن وتفرقة

(١) بحار الأنوار ٦٤/ ٢٢، الباب ١، التعليق على آيات المدخل للباب، وانظر: المصدر ٦٤/ ١٣١، الباب ٤، التعليق على الحديث ١، والمصدر ٢/ ٢٢٢، كتاب العلم، الباب ٢٩، التعليق على الحديث ١.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢/ ١٨٤.

(٣) سورة طه/ ٨٥.

الأمة، ومنهم: الحسن البصري، وعمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري[١]، وغيرهم..

وقد قال علي عليه السلام في الحسن البصري: «أمَا إنّ لكلّ قوم سامريّاً، وهذا سامريّ هذه الأمة، أما إنّه لا يقول: لا مساس، ولكن يقول: لا قتال»[٢].

وفي بداية كلمة الأمير عليه السلام هذه ورد «أمَا إنّ لكلّ قوم سامريّاً»، بما يحكيه من تعميم وسعة وتجدّد مع الأقوام والمجتمعات، ووفرة المصاديق والتطبيقات، وأنّ ذلك ليس مقصوراً على قوم موسى عليه السلام.

وهكذا لم يقف محتوى لفظ (السامريّ) عند حدود الدلالة على شخص تاريخي، بل أصبح اسمه وصفاً لكلّ (داهية فتّان فرّق الأمة)!!

وتطبيقات (السامريّ) تمثل مصاديق للنموذج القرآني، وقد شكلت أمثلة سلبية لنموذج سلبي.

وعلى منوال (سامريّ هذه الأمة)، سنجد روايات تحدثت عن (عجل هذه الأمة)، و(فرعون هذه الأمة)، و(هامان هذه الأمة)، و(قارون هذه الأمة) [٣].

وهكذا حرّكت الرواياتُ الشريفة المفاهيمَ والنماذجَ القرآنية: الإيجابية والسلبية، وأعطت لها مصاديق جديدة، فراحت تنضح بالحيوية والفاعلية.

وبهذا نفهم أنّ كلّ رواية إنّما ذكرت أحد المصاديق أو بعضها، وبمجموعها نعرف المصاديق المذكورة في الروايات، وهذا - بدوره - لا يمنع أن تستجد مصاديق أخرى في كلّ زمان ومكان، وأن نوجِد - نحن - مصاديق معاصرة تنطبق عليها دلالة تلك الآيات.

وهناك الكثير من الروايات التي تركز على أنّ مصاديق الآيات لا متناهية، منها:

أنّ فضيل بن يسار قال: سألتُ أبا جعفر الباقر عليه السلام عن هذه الرواية «ما مِن القرآن

---

(١) للتفصيل راجع: سليم بن قيس الهلالي، (كتاب سليم بن قيس الهلالي)، تحقيق: محمد باقر الأنصاري الزنجاني/ ٣٣٨، والشيخ محمد بن بابويه القمي (الصدوق)، الخصال/ ٥٧٥ (باب السبعين)، والشيخ أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج ١/ ١٧٢، وبحار الأنوار ٤٢/ ١٤٢، الباب ١٢٣، ح ٢، والسيّد أبو القاسم الخوئي، معجم رجال الحديث ١١/ ٣٠٦.

(٢) الاحتجاج ١/ ١٧٢.

(٣) راجع: تفسير القمي ١/ ١٣٦، والخصال/ ٤٥٨ (باب الاثني عشر)، والشيخ محمد مهدي النراقي، جامع السعادات ٢/ ٤٧ (فصل: ذم المال)، وعلاء الدين المتقي الهندي، كنز العمال ٣/ ٢٢٣، ح ٦٢٥٩.

آيـة إلا ولهـا ظهر وبطن، فقال: ظهره تنزيلـه، وبطنه تأويله، منه ما مضى، ومنه ما لم يكن، يجـري كما يجري الشـمس والقمر كلّما جاء تأويل شـيء منه، يكون علـى الأموات كما يكـون علـى الأحياء، قال الله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[1]، نحن نعلمه»[2].

أي أنّ الآيـة لا تقصـر معناهـا على مدلولها التاريخي السـابق (المدلـول الظاهر)، وإنّمـا يمتدّ معناها إلى مشـابهاته المعاصرة التي تتمثّل فـي كلّ من يعمل بعمله (المدلول الباطن)، كلّ ما في المسألة أنّ المدلول الظاهر هو المدلول المباشر، وأنّ المدلول الباطن هـو المدلول غير المباشـر، وإلا.. فكلاهمـا مدلول للآية ومطلوب لديها. وعلى حسـب تعبيـر المناطقـة: المدلول المباشـر هو المـراد أولاً وبالذات، والمدلول غير المباشـر هو المراد ثانياً وبالعرض.

وهـذا يجعل القـرآن حياً لا يموت بموت من نزلت فيه الآيـة، ولا حتى بفناء القوم الذين عنتهم الآية، بل.. ينطبق على كلّ من سـار مسـارهم واحتذى حذوهم، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثمّ مات أولئك القوم ماتت لما بقي من القرآن شـيء، ولكنّ القرآن يجري أوّله على آخره ما دامت السـماوات والأرض، ولكلّ قوم آية يتلونها، هم منها من خير أو شر»[3].

وعلـى هـذا، فإذا كان في زمن موسـى عليه السلام: موسـى وهـارون وفرعـون وهامان وقارون، فإنّ في كلّ عصر (موسى) يمثِّل حامل الرسالة والقيم، و(هارون) يمثل العضيد والمساعد لحامل الرسالة والقيم، و(فرعون) يمثِّل الممسِك بقمة الهرم السياسي والذي يسـوس البـلاد والعبـاد بالظلم والقهـر والغلبة، و(هامـان) يمثِّل عضيد الظالم السياسـي الذي يعينه على تنفيذ مآربه وطموحاته، وبتعبير ثان: إنّه المجسّد للملأ والوجهاء والنخبة المحيطـة بالظالـم المعينة له فـي الظلم والابتزاز، و(قارون) يجسِّـد الرأسـمالي المترف الذي يجمع المال من كلّ جهة، ويستعمله في الفساد.

فما دام المنهج مشـتركاً بين من نزل فيه النصّ ومن سـار على فعله، فهما سواء، إلا أنّ فرعون موسـى عليه السلام هو المقصود المباشـر (الظاهر) في النصّ، وفرعون العصر هو المقصود الضمني (الباطن) في النصّ.

---

(١) سورة آل عمران/ ٧.
(٢) بحار الأنوار ٨٩/ ٩٧- ٩٨، الباب ٨، ح ٦٤.
(٣) البرهان في تفسير القرآن ١/ ١٥٩، ح ١٦٤.

صحيح أنّ القرآن الكريم نزل منجماً (مفرّقاً) حسب الأحداث والمواقف التاريخية والاجتماعية التي استغرقت ثلاثاً وعشرين سنة هي عمر الرسالة المحمدية المباركة، وتلك الأحداث نستطيع معرفتها عبر تتبّع وقراءة (سبب النزول)، إلا أنّ مفاهيم الآيات وتطبيقاتها لا تنحصر في تلك المواقف، بل تتعداها لكلّ العصور والأزمنة؛ لأنّ (تخصيص المورد لا يخصص الوارد)، و(العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

وهذا أحد أسباب عدم اقتصار القرآن الكريم على تخصيص حكم الآية فيمن نزلت فيه، واستعمال أدوات التعميم فيها؛ ليقول: إنّ الحكم ليس مقصوراً عليه، وإنّما كان أحد مصاديق الموضوع التي ينطبق عليها الحكم الكلي الشامل لجميع من يقع في تجربة مشابهة، فالمورد في آية غضّ البصر: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**...﴾[1]، نزلت في حادثة رأى فيها شاب فتاة في الطريق، فلم يغضّ بصره، فسلبت لبّه، وصار يمشي خلفها مشدوه البال، ولم ينتبه إلا وقد ارتطم وجهه بقطعة زجاج أو عظم بارزة من جدار في زقاق ضيّق، ونزف الدم على ملابسه، فأقسم أن يخبر الرسول الأكرم ﷺ بما جرى له[2]، إلا أنّ هذا السبب (المورد) لا يخصِّص الآية (الوارد)، إذ تقول الآية: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾.

و(أل) في كلمة (المؤمنين) – هنا – استغراقية تفيد التعميم والشمول، وفضلاً عن ذلك، فقد جاءت الكلمة نفسها جمع مذكر سالم شاملاً (للمؤمنين)، ولم تقل: قل لذاك الرجل يغضّ بصره!!، وأتبعتها آية أخرى للمؤمنات أيضاً: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾[3].

٤- فهم الظرف:

قد توضّح لنا الروايات الظرف الذي تعيشه الأمة في زمن الحدث الذي نقله القرآن، سواء أكان ذلك الظرف في الأمم الأخرى السابقة للبعثة المباركة، أم كان معاصراً لزمن نزول القرآن في أمة الرسول ﷺ؛ وذاك حتى نتمكن من إدراك حجم الموقف والمؤثرات فيه، والملابسات المحيطة به.

فقد نقرأ في كتاب الله أنّ فرعون كان يقتّل الأولاد الذكور من بني إسرائيل، وأنّ

(١) سورة النور/ ٣٠.
(٢) البرهان في تفسير القرآن ٧/ ٦٩، ح ٧٥٩١.
(٣) سورة النور/ ٣١.

أمَّ موسى - خوفاً عليه - وضعته في التابوت، ورمت به في اليم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[١].

ولكن.. لماذا كان فرعون يفعل ذلك؟، ولماذا فعلت أمُّ موسى ذلك؟

إنّ الروايات توضِّح الظرف الذي جرت فيه تلك الأحداث، بحيث تضعها في سياقها التاريخي، فتقول مثلاً:

- «أنّ يوسف بن يعقوب - صلوات الله عليهما - حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب - وهم ثمانون رجلاً -، فقال: إنّ هؤلاء القِبط سيظهرون عليكم، ويسومونكم سوء العذاب، وإنّما ينجيكم الله من أيديهم برجل من وُلد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران، غلام طوال.. جعد.. آدم، فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمّي ابنه عمران، ويسمّي عمران ابنه موسى»[٢].

- وأنّ «فرعون بلغه عن بني إسرائيل أنّهم يقولون أنّه يولد فينا رجل يُقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده، فقال فرعون عند ذلك: لأقتلنّ ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون»[٣].

- وأنّ فرعون «قال له كهنته وسحَرَته: إنّ هلاك دينكَ وقومكَ على يدي هذا الغلام الذي يولد العام في بني إسرائيل»[٤].

فإذاً.. كان بنو إسرائيل يعلمون ببشارة موت فرعون ونهاية عذابهم، وقد أعلمهم بها النبي يوسف الصّديق عليه السلام، وكانوا يتداولون ذلك عبر الأزمنة، فبلغ فرعون كلامهم فيه، كما أخبره كهنته وسحرته بما يوافق ذلك؛ ولكي يهرب من ذلك قرَّر أن يقوم هو بالعملية الإجهاضية أو الضربة الاستباقية - في نظره -، ويقتل البطل المنتظر لقيادة التغيير من لدن طراوة عوده (الطفل في ولادته)؛ ليئد مشروع التغيير المرتقب!!

وبعبارة أخرى، فإنّ هذه الأحداث ظروف خارجية للقصة أنشأت عند فرعون مغزى داخلي للقتل (فلسفة)، هي الرغبة في التخلص من ذاك الخطر قبل أن يصل إلى مرحلة

(١) سورة القصص/ ٧.
(٢) البرهان في تفسير القرآن ٧/ ٣١١، ح ٨٠٨٥.
(٣) تفسير القمي ٢/ ١٣٦.
(٤) البرهان في تفسير القرآن ٧/ ٣١١، ح ٨٠٨٥.

التمكن والفعل، وهذا يعني أنّ تلك الأحداث الخارجية في القصة (ظرف)، بينما المغزى الداخلي في القصة (فلسفة)، فالوقائع والتنبؤآت التي نُقلت لفرعون هي (ظرف القصة)، والتخلص من المغيّر المرتقب عبر قتل الأطفال (فلسفة القصة)، فبعض القصص لها حدث وظرف خارجي، وفلسفة ومغزى داخلي.

وإذا كان هذا مثالاً لتوضيح الروايات لظرف الآية الذي كان في الأمم السابقة، فقد نقرأ في بعضها التوضيح للظرف المزامن لنزول الوحي، المعاصر للرسالة، فيما اصطُلح عليه بـ(سبب النزول)، فتبيّن لنا الحدث أو السؤال الذي نزلت في جوّه الآية أو الآيات أو السورة.

من ذلك: أنّ رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير (قافلة تجارة) قد قدمت من الشام، فخرج الناس من المسجد، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً، حتى لم يبقَ مع الرسول إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾[١]،[٢].

ونحن - هنا - ندرك ظرف الآية من خلال معرفة محيطها التاريخي المصاحب لزمن الحدث القديم (في الأمم السابقة)، أو المعاصر لنزول الوحي، ونكتشف الرؤى المناسبة لكلّ ظرف، ومن ثمّ نضع رؤانا للظرف المستجد الموافق للظرف التاريخي القديم؛ لنستخلص عبرة قيمية تنفع في الزمن الحاضر، ولا تتأطر بالزمن الماضي الذي جرت فيه.

٥- إدراك فلسفة القصة:

مما ذكرناه في النقطة السابقة نفهم أنّ هناك فرقاً بين (فهم الظرف) و(إدراك فلسفة القصة):

فـ(الظرف) هو المحيط الخارجي الذي يقع فيه الحدث ويحتوي الحدث، سواءً أكان ظرفاً زمانياً أم مكانياً، أما (فلسفة القصة) فهي الدافع الداخلي المحرِّك للقصة، وحكمتها الداخلية التي تنطوي عليها، والمغزى الذي تريده، فالظرف إطار خارجي، والفلسفة حكمة داخلية.

(١) سورة الجمعة/ ١١.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ٩/ ٥١٥، ح ١٠٧٣٩، وعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أسباب النزول/ ٢٣٩.

فتعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

يمكن أن نقرأ روايتين هامتين:

الأولى: عن الإمام الصادق عليه السلام تؤكّد على محورية كلمة (كيف) الواردة في الآية الشريفة، وأنّ النبي إبراهيم عليه السلام إنّما «سأل عن الكيفية، والكيفيةُ من فِعل الله – عزّ وجلّ –، متى لم يعلمها العالم لم يلحقه عيب، ولا عرض في توحيده نقص»[٢].

والثانية: عن الإمام الرضا عليه السلام: «أنّ الله – تبارك وتعالى – كان أوحى إلى إبراهيم – عليه السلام – أنّي متخذ من عبادي خليلاً إن سألني إحياء الموتى أجبته، فوقع في نفس إبراهيم – عليه السلام – أنّه ذلك الخليل، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ على الخلة، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾»[٣].

فهاتان الروايتان توضّحان (فلسفة) سؤال النبي إبراهيم عليه السلام:

والرواية الأولى منهما توضّح أنّها لكي يتعرّف على كيفية (طريقة) إحياء الله للموتى، فهو لا يسأل عن قدرة الله على ذلك، وإنّما يسأل عن (الطريقة) التي يتمّ بها الفعل، وهذا لا يستلزم شكاً ولا ضعف إيمان لديه، فسؤاله ليس عن أصل إمكان إحياء الموتى، فذاك لا يليق بنبي، ولو كان لجاء السؤال بـ(هل): (أرني هل تحيي الموتى؟) وليس بـ(كيف).

والرواية الثانية تبيّن أنّ فلسفة القصة هي لكي يتيقن إبراهيم ويطمئن قلبه أنّه ذاك الخليل المقصود، وذاك عبر تقدّمه بطلب تحقيق السبيل الذي ذكره الله له لمعرفة ذلك، وتذكر (ظرفاً) خارجياً للقصة هو ما أوحى الله به له عن ذلك الخليل من إجابة دعوته في إحياء الموتى، فهذا الظرف الخارجي – في هذه الرواية – هو الذي خلق في إبراهيم الرغبة في التقدم بذاك السؤال ليعرف أهو المقصود أم غيره، وهذه الرغبة الداخلية في

(١) سورة البقرة/ ٢٦٠.
(٢) البرهان في تفسير القرآن ٢/ ٢٨١، ح ١٤٤٤.
(٣) نفسه ٢/ ٢٨١، ح ١٤٤٥.

إبراهيم هي فلسفة القصة.

فظرف القصة هو ما أخبره به الله عن خليل لو سأل الله إحياء الموتى لفعل، وفلسفتها الداخلية رغبة النبي إبراهيم عليه السلام في التأكد هل هو المقصود بذلك الخليل أم غيره، عبر طلب الفعل الكاشف عن ذلك.

وحتى نتعمّق الفرق بين الظرف الخارجي والفلسفة الداخلية لهذه القصة ننقل هذه الرواية التي يذكرها الإمام الصادق عليه السلام عن الآية السابقة، ويذكر أنّ النبي إبراهيم عليه السلام «التفت فرأى جيفة على ساحل، بعضها في الماء، وبعضها في البرّ، تجيء سباع البحر فتأكل منها، فيشدّ بعضها على بعض، ويأكل بعضها بعضاً، فعند ذلك تعجب مما رأى، وقال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾، قال: كيف تُخرِجُ ما تناسخ، هذه أمم أكل بعضها بعضاً، ﴿**قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾»(١).

فهذه الحادثة - شأنها شأن ذاك الوحي الإلهي عن إجابة دعوى الخليل الذي سيُتخذ، فهي (ظرف) خارجي آخر للقصة، وتمثل حدثاً موضوعياً حصل ووقعت القصة في إطاره، وهي بدورها خلقت (فلسفة) داخلية لدى إبراهيم: أن يعرف كيف يعيد الله الأجساد وقد أكل بعضها بعضاً، ونمى بعضها على بعض، فتداخلت!!، فيما يُعرف بـ (شبهة الآكل والمأكول).

٦- وضع المتدبر على الجادة:

بعض الكلمات القرآنية قد لا ندرك مرادها، ولا نعرف المقصود منها، فنقع في حيرة: أيّ الطريقين - أو الطرق - أصوب؟، وبعض تلك الطرق قد تنتهي بنا إلى متاهات أو طرق مسدودة، لكن.. قد نعثر على رواية تكشف اللثام عن ذلك، وتأخذ بيد المتدبّر إلى ترجيح أحد تلك الآراء، وإخراجه من الزوبعة.

لقد حكى القرآن الكريم عن حوار تمّ بين النبي إبراهيم عليه السلام وأبيه الذي يعبد الأصنام، فقال: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾(٢).

وفي مكان آخر حكى لنا عدم جواز استغفار الأنبياء والمؤمنين للمشركين، وأنّ

---

(١) نفسه ٢/ ٢٨٣، ح ١٤٥٠.

(٢) سورة الأنعام/ ٧٤.

إبراهيم الخليل قد استغفر لأبيه المشرك!!: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

كان هذا في (أور) بالعراق، والنبي الخليل عليه السلام فتيّ السنّ، ثمّ مضى قطار الزمن، ورحل الخليل إلى أرض كنعان (فلسطين)، ووهبه الله – وهو شيخ كبير – ولديه إسماعيل وإسحاق: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء﴾[2]، ثمّ رحل الأب وابنه إسماعيل إلى جزيرة العرب حيث مكة المكرّمة، وطفقا يعمران الكعبة الشريفة ويتضرّعان لله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ .... * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[3].

فأعاد إبراهيم عليه السلام الدعاء بالمغفرة لوالديه!!

وقد وقف بعض المفسّرين أمام هذه الآيات، فقال: يجوز أن يكون والد النبي كافراً، كما الحال مع والد إبراهيم عليه السلام[4]، وتطرّقوا لاستغفاره لأبيه، ونهي الله عن ذلك، وأهملوا تبرير إعادة استغفاره لأبيه في أخريات حياته، فما دام قد نهاه الله عن ذلك في (أور)، وحكى عنه أنّه تبرأ من أبيه المشرك، ووصفه بأنّه ﴿لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، فلماذا أعاد إبراهيم في مكة ما نهاه الله عنه في (أور) بعد كلّ هذا الزمن الطويل؟!، ولِم لمْ ينفّذ التشريع الإلهي وهو نبي من أولي العزم؟!

ولعلّ واحداً مما يخرجنا من هذه المتاهة والنفق المسدود قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات»[5].

فمعنى هذه الرواية أنّ والد إبراهيم كان موحداً؛ لأنّه من آباء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعود نسبه الشريف إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وأما آزر – المشرك – فلم يكن أباه، وإنّما هو عمه – كما يرى أكثر الشيعة – أو جدّه لأمه[6]، ومما يؤيد ذلك أنّه «لم يرد

(١) سورة التوبة/ ١١٣– ١١٤.
(٢) سورة إبراهيم/ ٣٩.
(٣) سورة إبراهيم/ ٣٥، ٤١.
(٤) انظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٤/ ٣٢٢، نسبه لبعض علماء السنة.
(٥) تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتح الغيب)، م ٧، ج ١٣، ص ٤١.
(٦) بحار الأنوار ٨٩/ ١٤٥، الباب ١٥، من كلام للقطب الراوندي. والأمثل في تفسير كتاب الله

في كتب التاريخ أنّ أبا إبراهيم هو (آزر)، بل يقول التاريخ: إنّ اسم أبيه هو (تارخ)، وهذا ما ورد - أيضاً في العهدين القديم والجديد»[١].

فقد ذكر الطبري نسب النبي إبراهيم عليه السلام، فقال: «هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور ....» [٢]، وذكر ابن الأثير نسبه فقال: «إبراهيم بن تارخ بن ناخور....» [٣].

وذكره العهد القديم (التوراة)، فقال: «وهذا هو سجل مواليد (تارخ): ولَد تارخُ أبراه [إبراهيم] وناحور وهاران»[٤]، وفي معرض ذكر العهد الجديد (الإنجيل) لنسب السيّد المسيح عليه السلام ذكر نسب النبي إبراهيم عليه السلام، فقال: «إبراهيم بن تارح بن ناحور»[٥].

وقد ذكر علي بن المقرّب العيوني ذلك في شعره فقال:

ومَنْ يلقَ فخرَ الدينِ يلقَ ابنَ تارحٍ جلالاً وإنسانية وتحنّفا[٦]

ويعلّق فخر الدين الرازي على الرواية السابقة الواردة في شأن آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «وذلك يوجب أن يُقال أنّ أحداً من أجداده ما كان من المشركين. إذا ثبت هذا فنقول: ثبت بما ذكرنا أنّ والد إبراهيم عليه السلام ما كان مشركاً، وثبت أنّ آزر كان مشركاً، فوجب القطع بأنّ والد إبراهيم كان إنساناً آخر غير آزر»[٧].

ويبقى علينا أن نبرّر كيف سمّاه القرآن الكريم بـ (أبيه)؟

لكنّ حَلّ ذلك يسير لاسيما حين نقرأ قوله تعالى: **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**[٨].

المنزل ٤/ ٣٢٢.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٤/ ٣٢٢.
(٢) تاريخ الطبري ١/ ١٦٢.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١/ ٨٤.
(٤) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١١، الآية ٢٧.
(٥) الإنجيل، إنجيل لوقا، الأصحاح الثالث، الآية ٣٤.
(٦) علي بن المقرّب العيوني، ديوان علي بن المقرّب العيوني، تحقيق: عبد الخالق الجنبي وآخرين ١/ ٥٣٢.
(٧) تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، م ٧، ج ١٣، ص ٤١.
(٨) سورة البقرة/ ١٣٣.

فالنبي يعقوب هو ابن لإسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وبهذا يكون النبي إسماعيل عمّاً له، وقد سمّته الآية أباً له ﴿**آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾.

وقد نقل ابن كثير في معرض تفسيره لهذه الآية أنّ ابن النحاس قال: «والعرب تسمّي العمّ أباً»[1].

وفي رواية تلخص الموضوع كاملاً ينقل الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنّ العمّ قد سمّاه الله - عزّ وجلّ - أباً في قوله تعالى: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾، وكان إسماعيل عمّ يعقوب، فسمّاه الله في كتابه أباً. وقد قال النبي - صلى الله عليه وآله - العمّ والد»[2].

ولذلك فحينما عاد الخليل إبراهيم عليه السلام في أخريات حياته ليدعو لوالديه، فإنّما يدعو لوالده المؤمن (تارخ/ تارح) لا لعمّه المشرك (آزر) الذي نُهي عن الدعوة له.

ونرى أنّ الرواية المركزية هنا - الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله في طهارة آبائه من دنس الجاهلية - وضعتنا على جادة تبرئة آباء الأنبياء من دنس الشرك، وشكلت لنا اتجاهاً في قراءة الآيات الكريمة.

وإذا كان الإخراج من الحيرة والتيه شكلاً من أشكال (وضع المتدبر على الجادة)؛ لأنّها أنقذته من سبل وطرق أخرى، فإنّ هناك شكلاً آخر هو أنّها قد تفتح له باباً حيث لا باب أصلاً، بمعنى كون الأمر مستحكم الإغلاق (كهف مغلق/ طريق مسدود)، وهذه درجة أعلى من السابقة التي أوجدت طريقاً يباين الطرق الموجودة.

سُئل الإمام الصادق عليه السلام مرة عن الخضخضة (الاستمناء)، فقال: «إثم عظيم قد نهى الله تعالى عنه في كتابه، وفاعله كناكح نفسه، ولو علمتُ بمن يفعله ما أكلتُ معه، فقال السائل: فبيِّن لي يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله من كتاب الله نهيه. فقال عليه السلام: قول الله ﴿**فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾[3]، وهو مما وراء ذلك»[4].

لعلّنا لا نعثر على آية بلفظ الخضخضة أو (الاستمناء)، وربّما لو أجاب الإمام على

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٦٢.
(٢) البرهان في تفسير القرآن ٨/ ٢٤٧، ح ٩٠١٧.
(٣) سورة المؤمنون/ ٧، وسورة المعارج/ ٣١.
(٤) بحار الأنوار ١٠١/ ٣٠، الباب ٣٢، ح ١.

ذلـك ولـم يذكر (قد نهى اللـه تعالى عنه في كتابـه) لما طلب الرجل أن يبيّـن له ذلك من كتـاب الله، وهنا تأتي إشـراقة النور لتطرد حلكة الليـل المطبق، وتبرز ذلك من كتاب الله العظيم.

فالآيتـان السـابقتان للآيـة التي استشـهد بهـا الإمام عليه السلام تقـولان: ﴿**وَالَّذِيـنَ هُمْ لِفُرُوجِهِـمْ حَافِظُـونَ * إِلا عَلَـى أَزْوَاجِهِـمْ أوْ مَا مَلَكَـتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُومِينَ**﴾[1]، وأولاهما وصفٌ عامٌّ لهم بعفة الفرج، والثانية ذكرت تخصيصاً واسـتثناء محللاً مشروعاً للممارسـة الجنسـية، فحدّدت طريقين لا غير، همـا: الزوجة ﴿**أَزْوَاجِهِـمْ**﴾، والأمَة ﴿**مَا مَلَكَـتْ أَيْمَانُهُـمْ**﴾، وكلّ مـا عداهمـا ينـدرج في قولـه تعالـى: ﴿**فَمَـنِ ابْتَغَـى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾، فهو وراء ذينك الطريقين المشـروعين، وهو تعدٍ محرّم، ومن هذا الخضخضة.

٧- فتح آفاق جديدة للمتدبر:

وهنـا نقـف عند مفاهيم معروفة عندنا للآيات، وهي مقبولة لا تمثّل متاهة، لكن قد نجد رواية تفتح لنا أبواباً جديدة توسِّـع من دائـرة النظرة للموضوع، وتعطيه أبعاداً جديدة لم تكن في حسباننا من قبل. فحينما نقول (آفاق جديدة) نريد القول: إنّ هناك آفاقاً سابقة، لكنّ هذه الرواية تشرع الباب أمام مروج رائعة جديدة.

فقولـه تعالـى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِـبِينَ**﴾[2]، نفهم منه أنّ هناك موازين عادلة لله فـي القيامـة تُوزن بهـا أعمال العباد، وقد يكـون ذلك على نحو (تجسّـم الأعمال)، فتبدو الأعمـال المعنوية في صورة مادية قابلة للوزن، ومهما تكن صغيرة يمكن لتلك الموازين قياسـها: ﴿**يَـا بُنَيَّ إِنَّهَـا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَـرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـمَاوَاتِ أَوْ فِـي الأَرْضِ يَـأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[3]، ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[4].

وقـد سُـئل الإمـام الصـادق عليه السلام عـن هـذه (الموازيـن) فقـال: «هـم الأنبيـاء

(١) سورة المؤمنون/ ٥- ٦، وسورة المعارج/ ٢٩- ٣٠.
(٢) سورة الأنبياء/ ٤٧.
(٣) سورة لقمان/ ١٦.
(٤) سورة الزلزلة/ ٧- ٨.

والأوصياء»[١]، وفي رواية ثانية: «نحن الموازين القسط»[٢].

ومعنى هذا أنّ الرواية تتحدث عن موازين (معنوية) يمثلها الأنبياء والأوصياء الذين جعلهم الله شهوداً على أممهم، وهذا يطوّر من نظرتنا للموازين لنقول على الأقل: بإمكان وجود موازين معنوية.

ونصل - في تطوير رؤيتنا - إلى أنّ الموازين قد تكون (مادية) على نحو تجسّم أعمال العباد وفقاً لقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ**﴾[٣]. وقد تكون (معنوية)، ويدخل في الثانية الشهداء على البشر: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا**﴾[٤].

ولفظة (شهيد) - هنا - لا يُقصد بها: من يُقتل في سبيل الله، وإنّما يُقصد بها من يمارس دور القيمومة على الأمة والشهادة من قبل الله على العباد.

٨- قيادة الواقع الموضوعي والمستقبل:

تحدث البعض عن علاقة المتناهي (النصّ) باللامتناهي (وقائع الحياة ومستجداتها)، وعدم قدرة المتناهي على حكم اللامتناهي وضبطه، وأنّ «الوقائع المتجدِّدة لا توفي بها النصوص»[٥]، مما كان عاملًا مؤسِّساً في نظره لضرورة الاستمداد من عناصر خارج النصّ الديني للإجابة على تلك المستجدات، ومقوّماً لنشوء مشكلة العلاقة بين النصّ والواقع، القديم والجديد، التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة، الثابت والمتغيّر.

إنّ العلاقة بين النصّ والواقع تفيدنا أنّ للزمن وأحداثه ثلاثة مستويات، هي:

أ- الواقع الموضوعي التاريخي (الماضي):

ويمثل الأحداث التي كانت وقائع معاصرة لزمن النصّ أو ما قبله، والتي أضحت - بفعل عامل تصرّم الزمن - ماضياً تاريخياً بالنسبة لنا.

(١) تفسير الصافي ٣/ ٣٤١.
(٢) نفسه ٣/ ٣٤١.
(٣) سورة آل عمران/ ٣٠.
(٤) سورة النساء/ ٤١.
(٥) ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون/ ٤٧٧.

ب- الواقع الموضوعي المعاصر (الحاضر):

ويمثل الأحداث التي تقع وتحصل وتستجد في زماننا، والشقّ الاجتماعي من هذه الأحداث المعاصرة نسمّيه (الواقع الاجتماعي).

وقد رحل الأنبياء والأوصياء إلى الرفيق الأعلى وغاب المهدي عليه السلام، فلا إجابة مزامنة لهذا الواقع المستجد.

وهذا المستويان من الزمن (الماضي/ الحاضر) يدخلان ضمن نطاق الواقع الموضوعي الخارجي الفعلي بشعبتيه (التاريخي/ المعاصر)، الذي تحقق، أو يتحقق الآن على ساحة المجريات والأحداث.

ج- المستقبل:

ويمثل الأحداث والوقائع التي هي الآن في رهن الغيب والعلم الإلهي، لكنّها ستقع يوماً في المستقبل إن كتب الله لعجلة الزمن أن تسير وتستمر.

فهل مثلت النّصوص الدينية نظرية تجريدية عامة لا صلة لها بالأرض والمجريات، أم اقتصرت علاقتها على المتحقق الحاصل في زمانها وما قبله، أم امتدت يدها لتجيب على واقعنا المعاصر، أم كان لها عين ثاقبة، فاتسعت حدقة الرؤية عندها للمستقبل كذلك، وشرعت - من لدن زمانها القديم - أن تفتح كوة ترينا منها بعض ملامح المستقبل التي ستحصل يوماً، وتهبنا رؤية استشرافية استقبالية؟!

وبعبارة مختصرة: هل تعاطى النصّ مع الزمن بمستوياته الثلاثة؛ ليتفاعل مع الواقع والمستقبل؟!

وهنا تدخلت السنة المباركة لتبيّن لنا أنّ القرآن - وهو نموذج للنصّ الديني - ليس خاصاً بزمن، وقد رأينا شيئاً من ذلك في فقرة (معرفة المصداق)، وأنّ كثيراً من النصوص القرآنية مصوغة على شكل ضوابط عامة، وقواعد مرنة تفتح المجال لتقبّل الجديد وتوجيهه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ في القرآن ما مضى، وما يحدث، وما هو كائن»[1].

---

(١) وسائل الشيعة ١٨/ ١٤٥، الباب ١٣، ح ٤٨.

وهذه الرواية الخلابة تذكر أنّ القرآن يتفاعل مع الزمن بمستوياته الثلاثة: ما مضى (الماضي)، وما يحدث (الحاضر)، وما هو كائن (المستقبل)!!

أ- الواقع الموضوعي التاريخي:

أجاب المعصومون عليهم السلام على مستجدات حياتهم، وفعلوا ذلك في شتى المستويات: الفقهية والفكرية والعملية وغيرها..

- المستوى الفقهي:

فعلى الصعيد الفقهي جدّت في زمانهم مسائل تحتاج إلى حكم تشريعي، لم يره المكلفون آنئذ - كحكم تفصيلي مباشر - مذكوراً في القرآن الكريم، فكانوا يستنطقون الأئمة عليهم السلام للجواب عليه، فلا يكتفي المعصومون - في بعض الصور - بالإجابة المباشرة، بل يوضّحون لهم ذلك من القرآن الكريم.

فقد سأل عبدُ الأعلى مولى آل سام الإمامَ الصادقَ عليه السلام: «عثرتُ فانقطع ظفري، فجعلت على إصبعي مرارة، فكيف أصنع بالوضوء؟، قال عليه السلام: يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله - عزّ وجلّ -، قال الله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[1]، امسح عليه»[2].

إنّ الجواب المباشر - هنا - يكمن في قوله: (امسح عليه)، لكنّ الإمام خلق له ضابطة موجِّهة لهذا الحكم وكلّ ما كان على شاكلته، فقال له: «يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله - عزّ وجلّ -، قال الله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾»، ومن هذا النصّ وغيره في القرآن والسنة استخرج الفقهاء قاعدة عامة هي (نفي العسر والحرج)، وأنّ ما يصل إلى حدّ جلب العسر أو الحرج للمكلفين؛ يسقط امتثاله في الشريعة السمحة.

فالإمام هنا لم يكتفِ بالإجابة المباشرة على السؤال، بل جعل من الآية الشريفة ضابطة عامة تفيد نفي العسر والحرج في الشريعة، عبر إرجاع هذه القاعدة للقرآن الكريم (يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله)، فلم يفُت الإمام أنّ هذا ليس حكماً خاصاً، بل هو

(١) سورة الحج/ ٧٨.
(٢) وسائل الشيعة ١/ ٣٢٧، الباب ٣٩، ح ٥.

حكم عام (غير زمني) للمتحقق وغيره (هذا وأشباهه)، فيشمل جميع الفروع المماثلة (الأشباه والنظائر)؛ لأنّ (حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لايجوز واحد).

فالإمام - هنا - سعى إلى تطبيق الآيات على مستجدات المصاديق التي حصلت في زمنه، واستعمال المفاهيم القرآنية كقواعد وضوابط عامة للحكم الشرعي.

- المستوى الفكري:

وعلى الصعيد الفكري والعقدي استجدت أفكار لدى المسلمين، ودخلت أفكار أخرى مع دخول بعض أصحاب الديانات الأخرى إلى الوطن الإسلامي، والتواصل بينهم وبين المسلمين، ومثّل وجهَهُ الأبرزَ تلك المناظرات التي تمت بين رعايا تلك الأديان (كالمجوس، واليهود، والمسيحيين، والصابئة) وبين المعصومين عليهم السلام، ولاسيما مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحفيده الإمام الرضا عليه السلام، كما ظهرت له صورة جلية في العصر العباسي تكمن فيما عُرف باسم (الزنادقة) الذين كانوا يجدون في أئمة أهل البيت عليهم السلام الصدر الأرحب للمحاورة العلمية، ودخلوا مع الإمام الصادق عليه السلام في محاورات كثيرة:

يقول حفص بن غياث: شهدتُ المسجد الحرام وعبد الكريم بن أبي العوجاء يسأل أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾(١)، ما ذنب الغير؟، فقال عليه السلام: «ويحك هي هي، وهي غيرها، قال: فمثّل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا!، قال عليه السلام: نعم.. أرأيتَ لو أنّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثمّ ردها في ملبنها، فهي هي، وهي غيرها»(٢).

فابن أبي العوجاء ظنّ أنّها جلود جديدة ستُخلق في الآخرة وتُعذب، فما ذنبها وهي لم تقترف معصية؟!، لكنّ الإمام يخبره أنّ ذلك (الغير) ليس إلا (إعادة) لخلق الجلود العاصية نفسها لتذوق العذاب، كما أنّ اللبنة (الطوب) حينما تنكسر، وتؤخذ إلى المختصّ يعيد بناءها، لقد أعاد بناء شكلها فحسب ورممه، أما المادة التركيبية التي منها تلك اللبنة فهي نفسها الماضية، وهكذا فهي هي (مادة ومحتوى)، وهي غيرها (شكلاً وإعادة).

---

(١) سورة النساء/ ٥٦.

(٢) الاحتجاج ٢/ ٣٥٤.

- المستوى العملي:

وكما استجدت مشكلات في الصعيدين: الفقهي والفكري، ظهرت مشكلات في صعيد الفعل والعمل والسلوك، فقد دخلت للحيّ الإسلامي ممارسات خاطئة تغلغل بعضها حتى لدى من يُصنّف ضمن راية المسلمين، وكانت تحتاج إلى إجابة عليها، فكان المعصومون عليهم السلام يقدّمون الحلّ مدعوماً بوجهة النظر القرآنية والدليل النصّي القرآني.

ينقل الإمام الصادق عليه السلام أنّه سمع عن رجل تصفه الناس وتعظمه، فاقتفى أثره من حيث لا يراه، فرآه قد سرق من خباز رغيفين، ومن بائع رمان رمانتين، ثمّ ذهب لمريض وأعطاه الرغيفين والرمانتين، ومضى للصحراء، فسألهَ الإمامُ عليه السلام عن ذلك فأجاب أنّ ذلك من: «قول الله - عزّ وجلّ - ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾[١]، وإنّي لما سرقتُ الرغيفين كانت سيئتين، ولما سرقتُ الرمانتين كانت سيئتين، فهذه أربع سيئات، فلما تصدقتُ بكلّ واحد منها كانت أربعين حسنة، أنقِصْ من أربعين حسنة أربع سيئات، بقي ست وثلاثون!!

قلتُ: ثكلتك أمك!، أنتَ الجاهل بكتاب الله!، أما سمعتَ قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢]، إنّك لما سرقتَ رغيفين كانت سيئتين، ولما سرقتَ الرمانتين كانت سيئتين، ولما دفعتَها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنتَ إنّما أضفتَ أربع سيئات إلى أربع سيئات، ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات. فجعل يلاحيني، فانصرفتُ وتركتُه»[٣].

ب - الواقع الموضوعي المعاصر:

وكما أجابت الروايات من خلال القرآن الكريم على مستجدات الواقع المعاصر للمعصومين عليهم السلام، والذي أضحى بالنسبة لنا من (الواقع التاريخي)، أجابت على الواقع الموضوعي المعاصر لنا.

ففي التعليق على قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤]، يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال الناس يسألون عن كلّ شيء حتى يقولوا:

(١) سورة الأنعام/ ١٦٠.
(٢) سورة المائدة/ ٢٧.
(٣) الاحتجاج ٢/ ٣٦٩.
(٤) سورة الحديد/ ٣.

هـذا الله كان قبل كلّ شـيء، فماذا كان قبل الله؟!، فـإن قالوا لكم ذلك فقولوا: هو الأول قبل كلّ شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كلّ شيء، وهو الباطن دون كلّ شيء، وهو بكلّ شيء عليم»(١).

ويقـول الإمام الحسـن بن علـي عليه السلام: «الحمد للـه الذي لم يكن لـه أول معلوم، ولا آخـر متناه، ولا قبل مدرَك، ولا بَعْد محدود، ولا أمد بحتى، ولا شـخص فيتجزأ، ولا اختـلاف صفـة فيتناهى، فلا تـدركُ العقولُ وأوهامُها ولا الفِكـرُ وخطراتُهـا ولا الألبابُ وأذهانُها.. صفتَه؛ فتقول: متى؟، ولا بدأ ممَّ، ولا ظاهر على مَ، ولا باطن فيمَ»(٢).

وتصلـح هاتـان الروايتان للإجابة على أولئك الذين يسـألون: أين الله، ومتى وجد الله؟!، وما كيفية تقدم الله على العالـم: هل هي أسبقية ذاتية أم زمانية؟، والذين يقولون: لقد هبط الإنسان على القمر، وهبطت مركباته على المريخ، واستكشفت كواكب أخرى، وامتـدت أعيـن مناظيره وتلسـكوباته لتصيّد العديد مـن المجرات (فضلاً عـن الكواكب والنجوم) فلم ترَ الله!!

لأنّ اللـه كان قبـل خلق الحادثـات وتواليها، فكان قبل الزمان الـذي هو - في نظر الفلاسـفة - توالي الحادثات، ولأنّه سـيأتي حينٌ وتزول الحادثـات وتفنى الخلائق، ولا يعـود هناك توالي لهـا، فينعدم الزمان تبعاً لانعدامها، فالله قبـل الزمان وبعده، وهو خالق الزمان الذي لا يخضع لمخلوقه.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «لم يزل الله - عزّ وجلّ ربّنا - والعلم ذاته ولا معلوم، والسـمع ذاته ولا مسـموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصَر، والقدرة على المقدور»(٣).

وهـذه الرواية - علـى قصرها - تجيب على معضلات شـتى، منها: (علاقة الذات بالصفات)، و(التغيّر في الذات المقدسة)، و(مشكلة العالِم والمعلوم):

- فصفات الله عين ذاته، وليست زائدة عليها، ولذلك قال الصادق عليه السلام: «لم يزل الله - عزّ وجلّ ربّنا - والعلم ذاته».

(١) كنز العمال ١/ ٢٤٨، ح ١٢٥٢، وقريب منه في: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٦٠- ٣٦١ (مسند أبي هريرة)، ح ١٠٥٧٤.
(٢) بحار الأنوار ٤/ ٢٨٩، كتاب التوحيد، ح ٢٠.
(٣) أصول الكافي ١/ ١٥٩، كتاب التوحيد، الباب ٣٤، ح ١.

- ومن ثمّ فحصول الأشياء وتحققها في الواقع الخارجي لا يغيّر شيئاً في الذات الإلهية والعلم الإلهي، فهو علم قديم، ويحتوي على تفاصيل سيروتها من زمان وجودها، إلى التغيّرات التي ستطرأ عليها، إلى زمان فنائها، ولذلك جاء الفعل (لم يزل) ليثبت صفة الاستقرار والثبات في الذات المقدّسة.

- وعلم الله (العالِم) قديم، ولكنّ الأشياء (المعلوم) حادث، لذلك كان الله ولا أشياء معه، أي كان (العالِم) ولا (معلوم) معه، ثمّ حين خلقها تطابقت صورتها مع علمه القديم (فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم).

ج - استشراف المستقبل:

وهكذا نجد أنّ في الروايات ما يجيب على زمانها، وما يجيب على واقعنا المعاصر، بل وفيها إجابات أكبر من ذلك، تمثل خطوة اسشرافية للمستقبل والمستكِن في رحم الغيب!!، ونكتفي في هذا المجال بنقل آية واحدة، ومدى المعطى العلمي الذي تقدحه الروايات فيها.

يقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ**﴾(١)، فماذا يعني ﴿**وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ**﴾؟!

(البثّ): هو النشر(٢)، و(الدابة): «اسم لما دبّ من الحيوان: مميّزة وغير مميّزة»(٣)، «وتُطلق الدابة على الذكر والأنثى وكلّ ماش على الأرض، حتى الطير؛ لأنّه يدبّ برجليه في بعض حالاته»(٤). أي هي كلّ ما يتحرّك على الأرض.

ونحن نفهم وجود أحياء في الكرة الأرضية، نشرها الله ووزعها في الأماكن، لكنّ المشكلة أنّ الآية لم تقل (وما بثّ في الأرض من دابة)، والتثنية (فيهما) تعود إلى الأرض والسماء معاً، فهل في السماء مخلوقات؟!

لقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المقصود من (السماء) مطلق العلو، بما يشمل

---

(١) سورة الشورى/ ٢٩.
(٢) لسان العرب ١/ ٣١٢، مادة: (بثث).
(٣) نفسه ٤/ ٢٧٨، مادة: (دبب).
(٤) مجمع البحرين ٢/ ٥٤، مادة: (دبب)، وأحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير/ ٧٢، مادة: (دبب).

مـا فيـه الهواء فوقنا، والذي نـرى فيه الطيور، ومن ثـمّ قالوا: نعم السـماء فيها دواب منها الطيـور، وذهـب آخرون إلى أنّ في السـحاب - وهو في السـماء - دواباً وقـد تقع أحياناً كالضفادع ونحوها!!، وذهب قسم ثالث إلى أنّ المقصود من (الدوابّ) التي في السماء: الملائكـة، وذهب قسـم رابع إلـى أنّ كلمـة (فيهما) تجري علـى نحو التغليـب اللغوي، والمقصود (بثّ في إحداهما، وهي الأرض)، وعدّوا من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَـا اللُّؤْلُـؤُ وَالْمَرْجَـانُ**﴾[١]، بينمـا - في نظرهم - يخـرج اللؤلؤ والمرجـان من المياه المالحة فحسب[٢].

تلـك إجابات قديمة وُضعت بين يدي النصّ، والعلـم الحديث إلى الآن لم يبرهن على وجود أحياء في هذا الكون الفسـيح ومجرّاته الكثيرة، ولكنّ أهل البيت عَلَيْهِمْ السَّلَامُ يرون أنّ السـماء - بمعناها الحديث، بما يشـمل المجرّات والمجاميع الشمسية الأخرى - فيها أحياء!!، وقد ذكروا ذلك في تعليقهم على بعض آيات الذكر الحكيم.

يقول الرسـول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لله أرض بيضاء مسـيرة الشـمس فيها ثلاثون يوماً، هـي مثـل الدنيا ثلاثون مرة، مشـحونة خلقاً لا يعلمـون أنّ الله خلـق آدم ولا إبليس، ولا يعلمون من أنّ الله يُعصى في الأرض»[٣].

ويقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ من وراء عين شمسـكم هذه أربعين شمسـاً فيها خلـق كثيـر، وإنّ من وراء قمركم أربعين قمـراً فيها خلق كثير لا يدرون أنّ الله خلق آدم أم لم يخلقه»[٤].

وينقـل عبيـد الله بـن عبد الله الدهقـان أنّ الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ قـال: «إن لله خلف هـذه النطاق زبرجدة خضراء منها اخضرت السـماء، قلتُ: وما النطاق؟، قال: الحجاب، ولله - عزّ وجلّ - وراء ذلك سبعون ألف عالم أكثر من عدد الجنّ والإنس»[٥].

---

(١) سورة الرحمن/ ٢٢.

(٢) أبو جعفر ابن النحاس، معاني القرآن الكريم ٦/ ٣١٤، ومحمد بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي ١٦/ ٢٩، وأبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، تفسير السمرقندي ٣/ ١٩٦، وعبد الرحمن بن محمد الثعالبي، تفسير الثعالبي ٤/ ١١١.

(٣) الشيخ علي النمازي الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، تحقيق: الشيخ حسن علي النمازي ١/ ١١٢.

(٤) بحار الأنوار ٣٠/ ١٩٦، الباب ٢٠، ح ٦٠.

(٥) نفسه ٥٥/ ٩١، الباب ٨، ح ١٠.

غاية ما في الأمر أنّنا لا نقول: إنّ كلّ كوكب أو مجموعة كوكبية أو مجرة فيها أحياء، وأنّنا ندري أين هم؟، هل هم في مكان آخر من مجرّتنا مجرّة درب التبانة ذات المئة ألف سنة ضوئية طولاً؟، أم هم في مجرة المرأة المسلسة (الأندروميدا)؟ أم غيرهما؟، وهل هم في مجرّات العالم المنظور المرصود حتى الآن أم هم في عالم بعيد قد يُكتشف يوماً، وقد يظلّ رهن الغيب في علمنا البشري المحدود حتى ختام الدهر؟!

ونحن حين نقول: إنّ الروايات تقود الواقع المعاصر وتحلّ مشاكله ينبغي أن ندرأ عن أنفسنا تهمة (الماضوية) والعجز عن ابتكار حلّ معاصر، ومن ثمّ اللجوء إلى الماضي بدل الحاضر، والتراث بدل الواقع، والنكوص بدل الإقدام، والاقتراض بدل الفعل؛ لأنّنا ندعو لتفعيل الروايات مع الواقع، والقراءة الحيّة الفاعلة لها، تلك القراءة التي تتحرّك مع الواقع ولا تغيّبه، ولأنّنا نعتبر الروايات أفضل قادح للعقل يشعل جذوته فيجعله يرتع في عالم الخصب ويأتي بالمعجزات، وذاك مبني على قناعتنا بكون الروايات ذات عطاء هتّان حين يجد له تربة مناسبة فإنّه يخصبها فتشرق بالمروج الفيحاء والأنهار الرقراقة.

٩- استلهام التصنيف الموضوعي:

هناك روايات حوت تقسيمات لموضوعات قرآنية، وقدّمت لنا نماذج عذبة من التفسير الموضوعي، وبالرجوع لها نجد فيها دراسة لتلك الموضوعات مع الآيات التي استُخرجت منها، وهي لبنة أساسية في رفد التدبر الموضوعي بالمشروعية والأفكار معاً.

وقد سبق في فقرة (مراحل ظهور المنهج الموضوعي في التفسير) أن أشرنا إلى واحدة من أهمّ الروايات التي جمعت الكثير من الموضوعات القرآنية والدراسات العميقة المؤصلة قرآنياً، تحدّث فيها أمير المؤمنين عليه السلام - قرآنياً - عن موضوعات ممنهجة استخرجها من آيات الكتاب العزيز[١]، ونقلنا من هذه الرواية الوفيرة الجنى (أقسام الكفر).

ولنستمع لروعة ما قاله الإمام علي عليه السلام فيها عن أقسام القصص في القرآن الكريم:

«وأما ما في كتاب الله تعالى من القصص عن الأمم فإنّه ينقسم على ثلاثة أقسام:

(١) نفسه ٩٠/ ١- ٩٧، الباب ١٢٨.

فمنـه مـا مضى، ومنه ما كان فـي عصره، ومنه ما أخبر الله تعالى به أنّـه يكون بعده»[١]. ثمّ يسوق عليه السلام لكلّ قسم العديد من الأمثلة القرآنية.

وفـي حـوار ممتع ابتدر الإمام الصـادق عليه السلام حماداً فقال له: «مـا يقول الناس في هذه الآية: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا**﴾[٢]، قلتُ: يقولون: إنّها في القيامة، قال عليه السلام: ليـس كمـا يقولـون، إنّ ذلك في الرجعة، أيحشـر الله فـي القيامة من كلّ أمـة فوجاً ويدع الباقين؟!، وإنّما آية يوم القيامة قوله: ﴿**وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾[٣]»[٤].

فمـن كلام الإمـام عليه السلام نسـتطيع اسـتخراج تصنيـف موضوعـي لأنواع الحشـر، فالحشر نوعان:

الأول: جزئي لبعض الناس، وهو الرجعة في الدنيا.

والثاني: كلّي لجميع الناس، وهو المحشر في القيامة.

ولعلّ هذه النقطة (اسـتلهام التصنيف الموضوعي) مـن الروايات هي أوثق النقاط السـابقة علاقة بالتدبـر الموضوعي، وأقربها منه، فهي تضع بيـن أيدينا موضوعات ناجزة جاهزة، بينما النقاط السـابقة لا تختصّ بالتدبر الموضوعي، بل تشـمله كما تشـمل التدبر الموضعي أيضاً.

أين نجد الروايات للموضوعات؟

عندمـا نريـد الوصـول إلى روايـات تخـدم الموضوع الـذي نريد بحثه فـي القرآن الكريـم، فسـوف تعترضنا عقبة المـكان الذي نعثر فيـه على تلك الروايات، وحتى نيسّـر علينا عملية الوصول لها نحتاج القيام بأمور، أهمها:

١- فكّ المصطلح:

فكمـا يحتـاج البحـث القرآني إلـى فكّ المصطلـح والتعـرّف عليـه وترجمته عبر (المصطلـح المباشـر، والمصطلـح المسـاعد، والكلمـة المفتـاح، والكلمـات الضـدّ،

(١) نفسه ٩٠/ ٧٦، الباب ١٢٨.
(٢) سورة النمل/ ٨٣.
(٣) سورة الكهف/ ٤٧.
(٤) البرهان في تفسير القرآن ٧/ ٢٩٤، ح ٨٠٤٤.

والمصاديـق التطبيقيـة)، وغيـر ذلك..، نحتـاج للوصول إلـى الروايات أن نعـرف ما هو المسمّى الذي نجدها تحته، ويشكّل المدخل للوصول إليها.

فلو أردنا العثور على روايات عن الصداقة والأصدقاء، فسـوف نجدها في كثير من الكتب القديمة تحت باب (العِشرة).

٢- نوعية الكتاب:

وعندمـا نذهب للكتب للوصول إلى تلـك الروايات، فمن الأفضل أن نعرف كيفية تصنيف تلك الكتب، حتى نبحث فيها وفقاً للمنهجية التي تسـير عليها، فهناك كتب تسـير على نهج وطريقة تسهّل علينا الوصول، ومنها:

أ- التفاسير الروائية:

وهذا النوع من التفاسير نستطيع أن نجد الروايات فيه تبعاً للآيات التي يبحثها؛ لأنّه فـي عرضه للآيـة يذكر الروايات المتعلّقـة بها، والواردة فيها، ومـن الكتب المصنّفة على هذا الاتجاه ما سـبق أن ذكرناه في (التفسـير بالمأثور)، ومن أوسـعها: (تفسـير الطبري)، لمحمد بن جرير الطبري، و(الدرّ المنثور)، لجلال الدين السـيوطي، (وتفسـير البرهان)، للسيّد هاشم البحراني.

ب - التفاسير ذات الملاحق:

وهذا النوع من التفاسير بعد بحثه لآية أو مجموعة من الآيات يعقد مباحث حولها، منهـا (المبحث الروائـي)، ويذكر فيه الأحاديـث والروايات المتعلّقة بتلـك الآيات، كما يصنع تفسـير (الميزان)، للسـيّد محمد حسـين الطباطبائي، وتفسـير (مواهب الرحمن)، للسيّد عبد الأعلى السبزواري.

ج - الكتب والموسوعات الموضوعية:

هنـاك كتـب تنهج تقسـيم الروايات موضوعيـاً، ويمكن أن نجد الروايـات فيها في الموضوعـات المتعلقـة بها، وقـد خصّصت كثير من كتـب الحديث أبوابـاً للحديث عن القـرآن أو تفسـيره، كمـا في البخاري، ومسـلم، والكافي، ووسـائل الشـيعة، ومسـتدرك

الوسائل، كما خصّص العلامة المجلسي مجلدين من موسوعته (بحار الأنوار) لذلك، هما المجلد التاسع والثمانون والتسعون، وخصّص (ميزان الحكمة) للشيخ محمدي الري شهري باباً كاملاً لذلك.

د - الكتب المستقلة:

ونستطيع الرجوع إلى كتب مؤلفة في الموضوع الذي نعتزم البحث فيه، والعادة الجارية - ما دام كاتبه ممن يستفيد من الروايات - أنّه سيذكر بعضها في كتابه.

ومن أمثلة ذلك: (مفاهيم القرآن)، للشيخ جعفر السبحاني، و(آداب من القرآن)، للسيّد عبد الحسين دستغيب، و(تأملات في آيات الدعاء في القرآن الكريم)، للأستاذ حسين عبد الله دهنيم.

والأنواع الثلاثة الأولى مما سبق (أ، ب، ج) أسهل من الرابع (د)، وهي معاً أسهل من كتب أخرى تنحو في ترتيبها وفق ما يلي:

أ- ترتيب الروايات حسب أسماء المعصومين عليهم السلام:

وهي تبدأ بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ أحاديث العترة الطاهرة، مرتبين حسب التسلسل الزمني لهم، كما في (تحف العقول عن آل الرسول)، للشيخ الحسن بن شعبة الحرّاني.

ب- ترتيب الروايات حسب الحروف الهجائية:

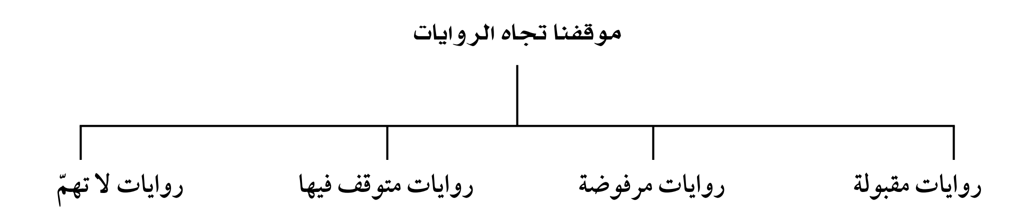
وهي تقسّم الروايات حسب الحرف الأول من الرواية، بدءاً من الهمزة، وختاماً بالياء، كما الأمر مع كتاب (غرر الحكم ودرر الكلم)، لعبد الواحد الآمدي التميمي.

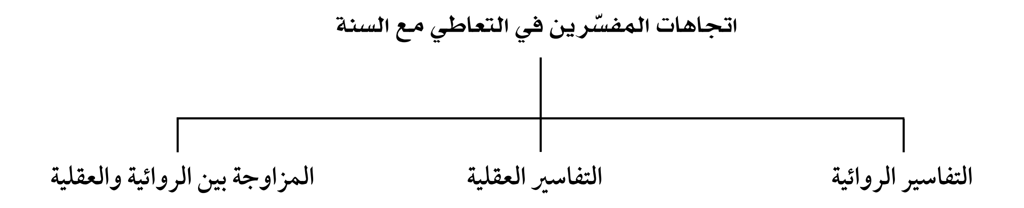
ج- ترتيب الروايات حسب العدد:

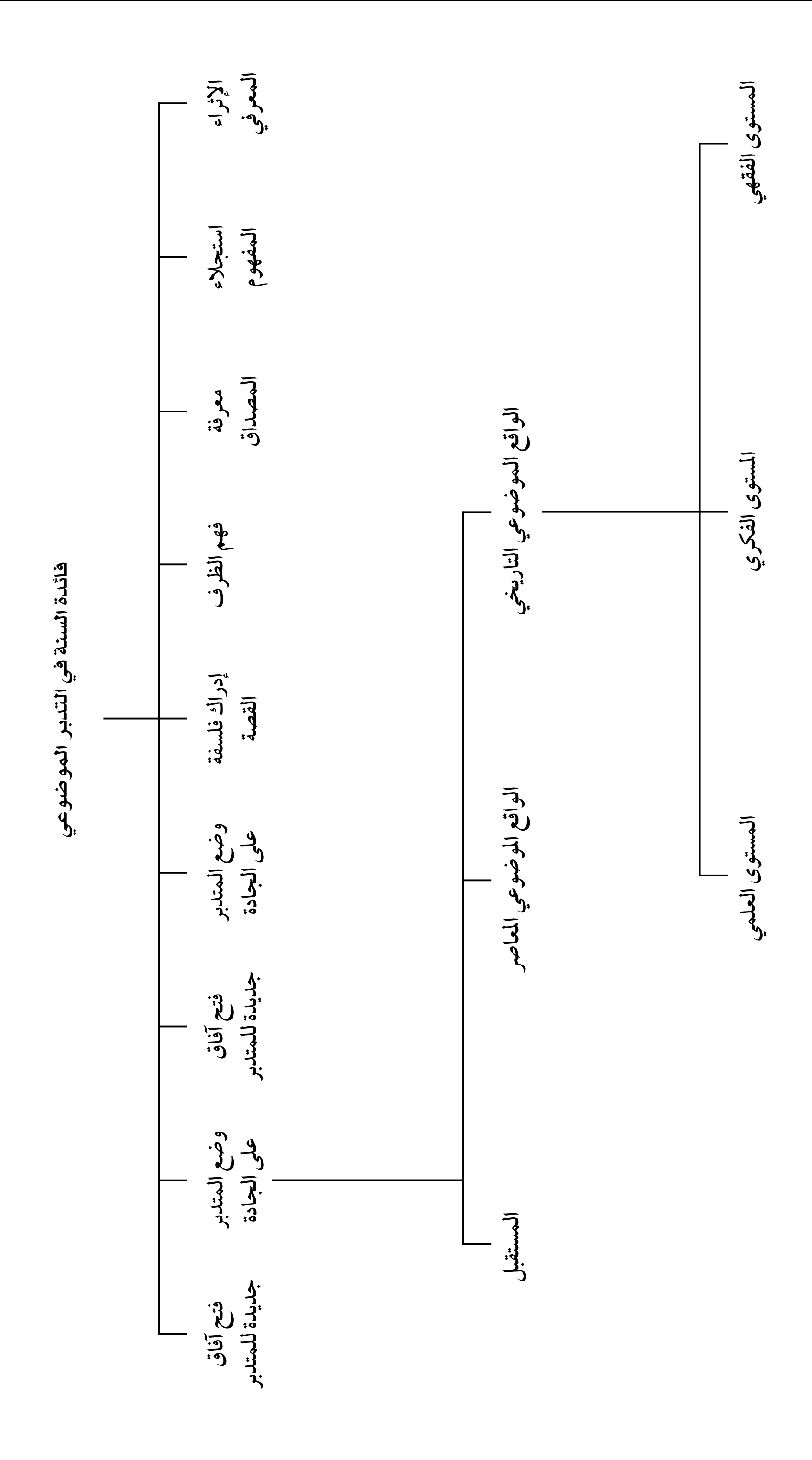
وهي تقسّم الروايات حسب عدد الصفات التي تحويها، فما يذكر صفة أو خاصية واحدة يأتي أولاً، ثمّ ما يذكر اثنتين، فثلاث، فأربع، وهكذا تصاعدياً..، كما في (الخصال)، للشيخ الصدوق.

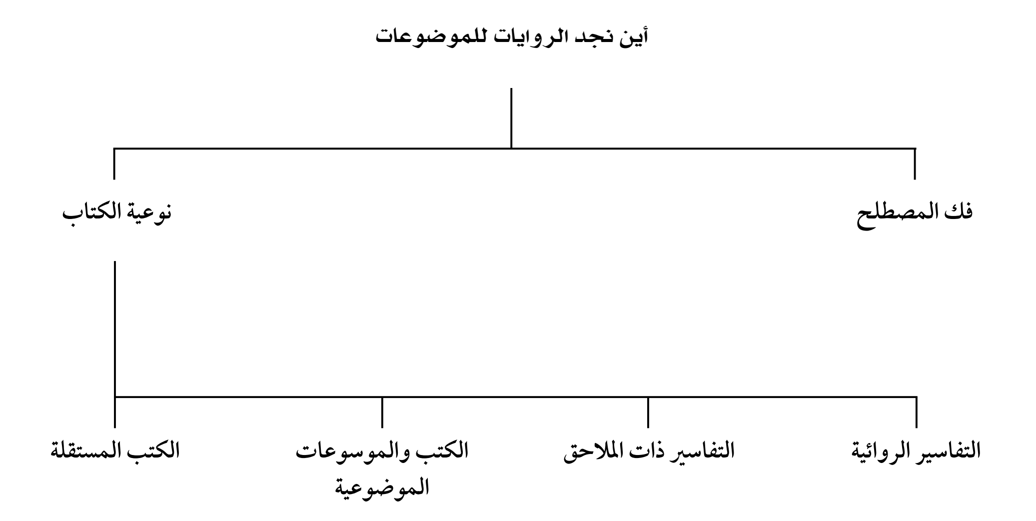
فحينما نعتزم القيام ببحث حول (الإيمان) أو (الكفر) أو (النفاق)، سنجد الروايات المتعلقة به في (التفاسير الروائية) موزّعة حسب بحثها للآيات التي تدور حول هذه الموضوعات. وسنراها - غالباً - في (التفاسير ذات الملاحق) في معرض تفسيرها لأول آية تتعلّق بالموضوع. وسنشاهدها في (الكتب والموسوعات الموضوعية) تحت عناوين وفصول مدرجة باسمها، وسنلقاها في (الكتب المستقلة) التي أُلفت في موضوع منها، وسبق كاتب آخر لتدوينها والعثور عليها، واستفاد منها في بحثه.

هذا في عناوين مباشرة، وعندما يكون العنوان غير مباشر كـ (استراتيجيات المعركة)، فقد نفكّكه إلى مصطلحات أخرى (مساعدة) مثل: الحرب، الغزو، الجهاد، القتال، أو (مضادة) مثل: السلم، الصلح، الموادعة، لنعرف الطرف المقابل، والاختلاف بينه وبين الحرب، أو (مصاديق) لحروب وردت في القرآن الكريم، مثل: بدر، أحد، الأحزاب، حنين. ثمّ نعود إلى أنواع الكتب السابقة لنعثر على روايات متعلّقة بهذه المصطلحات التي سهّلت لنا عملية الولوج للموضوع، والعثور على رواياته.






فائدة السنة في التدبر الموضوعي
الإثراء المعرفي
استجلاء المفهوم
معرفة المصداق
فهم الظرف
إدراك فلسفة القصة
وضع المتدبر على الجادة
فتح آفاق جديدة للمتدبر
وضع المتدبر على الجادة
فتح آفاق جديدة للمتدبر
الواقع الموضوعي التاريخي
الواقع الموضوعي المعاصر
المستقبل
المستوى الفقهي
المستوى الفكري
المستوى العلمي


أين نجد الروايات للموضوعات
فك المصطلح
نوعية الكتاب
التفاسير الروائية
التفاسير ذات الملاحق
الكتب والموسوعات الموضوعية
الكتب المستقلة



ت١: أضعُ علامــة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- أهل البيت هم القرآن الناطق، وكما أنّ القرآن له محكم ومتشابه فكذلك أقوالهم. ( )

ب – الروايـة المخالفـة لصريح القـرآن نضرب بها عرض الحائط ولو كانت صحيحة السند. ( )

ج – لا يوجد فرق بين فهم ظرف القصة/ وفهم فلسفتها. ( )

د – (استجلاء المفهوم) هي الفائدة الوحيدة التي تقدّمها الروايات للتدبر الموضوعي دون الموضعي. ( )

هـ – قاعـدة (القرآن يفسّـر بعضه بعضاً)، أو (يشـهد بعضه لبعض) تـدلّ على أنّ في القرآن مفاتيح داخلية تساعد على فهم نصوصه. ( )

ت٢: خطوة الاســتفادة من الروايات والتميز بيــن المقبول منها والمرفوض والمتوقَف فيه، ألا تدلل على أنّ عملية التدبر خاصة بالعلماء وحسب، لا سائر الناس وعمومهم؟!

ت٣: قــال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَــى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّـهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُــولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[١]. ما هو الظرف الذي نزلت فيه هذه الآية على لسان المنافقين؟، وما هي الفلسفة من القصة؟، أدعمُ الإجابة باستدلال روائي لما أذكره.

ت ٤: أشرحُ هذه العبارة: «المصاديق القرآنية في (مفهوم الصراط المستقيم) وردت على نحو العموم المجموعي لا البدلي».

ت٥: عن أبي الجارود قال: سمعتُ أبا جعفر الباقر C يقول: «نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في عدونا، وربع في فرائض وأحكام، وربع ســنن وأمثال، ولنا كرائم القرآن»[٢]. هل يعتبــر هذا الحديث مما يحمل تصنيفاً موضوعياً روائياً؟، أوضِّح ذلك.

---

(١) سورة المنافقون/ ٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٨٩/ ١١٤، الباب ١٢، ح ١.



الخطوة الخامسة: الاستفادة من التفاسير

لماذا الرجوع إلى التفاسير؟

الغرض من الاستفادة من كلمات المفسّرين ليس نقلها وتبنّيها وإلغاء العقل عن العمل، وإنّما غرضنا الاستفادة منها حتى نبدأ من حيث انتهوا، لا من حيث ابتدؤوا، فننفق الوقت فيما قد جاؤوا بخير منه، ولتطوير نظرتنا للبحث، فبدلاً من البدء من الصفر يمكن الاستفادة مما توصّلت له هذه التفاسير والبحوث الموضوعية، أو رفده وتطويره، أو نقده وتقويمه.

طرق عرض الأفكار في التفاسير:

عندما نلقي نظرة على طريقة عرض المفسّرين والكتّاب للأفكار التي يستلهمونها من القرآن نجدها تعود إلى أحد الأشكال التالية:

١- الملاحظات التفسيرية المتناثرة:

وهذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في تناول وعرض الأفكار المستخرجة من القرآن الكريم، حيث ترد موزعة حسب ما تشير إليه الآيات القرآنية، وهي ما يُستعمل في التفاسير الموضعية التجزيئية التي قد تعرض كمّاً جيّداً من الأفكار المتناثرة هنا وهناك دون أن تلمّها بجامع مشترك أو تخلق علاقات جديدة بينها تصنع منها بناءً متكاملاً يسيّجه إدراك كلي أو عنوان موحِّد.

فهي – على سبيل المثال – تتناول في موضع أنّ هناك من أنكر المعاد لتمزق

الأجـزاء وتفرقهـا وضياعها بالموت، وفـي موضع آخر أنّ هناك من أنكره لتلاشـي البدن وتحولـه إلـى تراب رميم، وفـي موضع ثالث أنّ هناك مـن أنكره لأنّ ثمة فـي الحياة آكلاً ومأكولاً ودورة حياة، فكيف يعيد الله من أكل وأُكل في مسرح مديد طوله الحياة الممتدة لآلاف القـرون؟!، لكنّهـا لا تنشـيء سـؤالاً يقـول (ما هي أسـباب أنكار المعـاد؟)، ذاك السـؤال الذي من شـأنه أن يلمّ تلك الأنواع والأسباب ضمن إطار موضوعي واحد تكون تلك الأقسام فروعاً له.

وعندما نريد الاسـتفادة موضوعياً من هذا النوع من التفاسـير فأفضل طريقة تسهّل لنا الأمر هي: أن نتتبع الآيات الواردة في الموضوع، وننظر إلى ما قالته في ذلك.

وغنـي عـن القـول: إنّ هذا الشـكل التفسـيري الذي تغـدو ملاحظاتـه متناثرة غير منتظمة في إطار ناظم ليس من التفسـير الموضوعي التوحيدي، بل هو موضعي تجزيئي، ويحتـاج - حتى يكـون موضوعياً - إلى إعادة بناء وتركيب تؤلف بين أفكاره المتناثرة في إطار جامع موحّد.

٢- البحوث الموضوعية المصدّر بها بداية كلّ باب:

هناك كتب تُصدِّر بداية أبوابها وفروع مسائلها بآية أو آيات ذات صلة بالبحث، فتجمع الآيات المتصلة بالموضوع، وتجري دراسـة موضوعية لهـا، كما الحال مع (بحار الأنوار)، للعلامة المجلسي، فهو يصدِّر كلّ باب منه بالآيات المرتبطة به قبل عرض الروايات[(١)].

٣- البحوث التفسيرية الموضوعية:

وهي - بدورها - على أنواع منها:

أ - المندرج ضمن التفسير الموضعي:

فهناك تفاسـير - بعد الانتهاء من التفسـير اللفظي المفهومي للآيات - تعقد ملحق بحوث للآيات، تعرض فيها الموضوع - غالباً - ضمن أول آية تعرّضت له، فهي «أبحاث موضوعية جاءت خلال التفسير العام»[(٢)].

---

(١) التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب ٢/ ١٠٤١.
(٢) نفسه ٢/ ١٠٤١.

وهذه التفاسير القرآنية موضعية إلا أنّ بعض المفسّرين يتوسع عند طرق البحوث والمفردات لأول مرة، فينتج بحوثاً موضوعية شاملة، فعندما تمرّ لفظة (الله) لأول مرة يعقد بحوثاً مفصّلة عنها، وهكذا يفعل عند كلمات أخرى مثل: الملائكة، النبوة، الأخلاق، الإيمان، الغيب، المعجزة، الرحمة، الحمد، البرّ، و....

ومن التجارب الأولى للتفاسير التي سلكت هذا المنهج: تفسير (المنار) للشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، و(تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمود شلتوت.

ولعلّ أول تفسير نضج فيه هذا الأسلوب هو تفسير (الميزان) للسيّد محمد حسين الطباطبائي، الذي يطرق في الآيات بحوثاً تحت المسمّيات الآتية: (البحث القرآني، البحث الروائي، البحث العقلي، البحث الفلسفي، البحث الكلامي (العقائدي)، البحث التاريخي، البحث الاجتماعي، البحث الحقوقي، البحث العلمي).

وبعد (الميزان) جاء من المفسّرين مَن توسّع أكثر في أنواع البحوث، كما في (مواهب الرحمن في تفسير القرآن) للسيّد عبد الأعلى السبزواري الذي تصل بحوثه في الآيات إلى اثني عشر مجالاً، هي: (البحث القرآني، البحث الروائي، البحث العرفاني، البحث الفلسفي، البحث الكلامي، البحث التاريخي، البحث الاجتماعي، البحث الأخلاقي، البحث الفقهي، البحث الدلالي، البحث الأدبي، البحث العلمي).

ومن الأمثلة في هذا الصدد: أنّ تفسير (الميزان) بعد بيان معنى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾[1]. يتطرّق إلى موضوع مفصّل عن (أدب الأنبياء مع الله والناس)[2].

وكذلك الحال في تفسير (مواهب الرحمن) للسيّد السبزواري، فبعد شرح قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[3]، يعرض بحوثاً مفصّلة في (التحدي والإعجاز القرآني)، فيتناول الإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي، والإعجاز البلاغي[4].

---

(١) سورة المائدة/ ١١٦.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ٦ / ٢٥٦- ٣٣٨.
(٣) سورة البقرة/ ٢٣.
(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن ١/ ١١٠- ١٢٥.

ب- تفاسير لها دليل للموضوعات:

هناك تفاسير لها دليل لفهرسة الموضوعات والبحوث الموجودة فيها، فيُخصَّص المجلد الأخير لذلك، تحت اسم (دليل التفسير) يوضّح محاور المواضيع وأماكن وجودها في ذلك التفسير، وحتى لو كانت البحوث موزّعة حسب أماكنها من الآيات، يجمعها تحت العنوان الموحِّد في الدليل.

وقد لا يقوم بذلك المفسّر نفسه، فتفسير (الميزان) للسيّد الطباطبائي الذي أعدّ له (دليل التفسير) هو: (إلياس كلانتري)، والذي ترجم الدليل إلى العربية (عباس ترجمان). ونجد في هذا الدليل عناوين الموضوعات مرتبة حسب الحروف الهجائية، والإشارة إلى رقم المجلد والصفحة اللذين تناولا الموضوع، كما يتمّ تشقيق العنوان الواحد إلى محاور فرعية، فموضوع (الشفاعة) لدى الطباطبائي اندرج تحته ثمانية وثلاثون بحثاً.

وإذا تناول السيّد الطباطبائي موضوع (الضلال) مفرّقاً في مجلداته، كلّ مرة يعرض لشيء من فروعه: معنى الضلال، بداية الضلال، الأعمال المضلة، هل الضلال من الله؟....، فقد جُمع تحت حرف (الضاد) كلّ الكلمات المبدوءة به، ومنها (الضلال) وتحت عنوان (الضلال) أُدرجت كلّ تلك البحوث المتعلّقة به، وإشارة إلى مكان وجودها في التفسير (المجلد والصفحة).

ج- تفاسير على شكل موضوعات:

هناك بعض التفاسير تُبوَّب على شكل موضوعات، نجد فيها: الأسباب، والنتائج، والمعوّقات، وما شابه ذلك جاهزة، فهي تعرض الآيات بطريقة موضوعية منهجية، كما الحال مع تفسير (الأمثل) للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، فحينما نقرأ في تفسير (سورة الكهف)، نجده يوزّع قصة أصحاب الكهف على عناوين: أصحاب الكهف، قصتهم، مكانهم، نومهم، يقظتهم، الفوائد التربوية لقصتهم، السبات، بحوث علمية عن السبات الشتوي للحيوانات[1].

٤- البحوث والكتب الموضوعية المستقلة:

أي أنّه بحث قائم بذاته غير مندرج ضمن تفسير ترتيبي أو في بداية باب من بحث إسلامي أو كتاب، ونستطيع – ذهنياً – أن نجد له ثلاثة أشكال محتملة:

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٩/ ١٨١ – ٢٢٧.

أولاً: الكتب التي تناولت موضوعاً واحداً:

هنـاك العديد من البحوث التي تناولت موضوعاً واحداً، وبحثته قرآنياً، جاء بعضها على شكل كتاب، وجاء بعض آخر منها على شكل دراسة في كتاب أو مجلة.

فمن الكتب التي تناولت موضوعاً:

أ - (المعاد في القرآن)، للأستاذ مظاهري.
ب- (في رحاب القرآن: الإصر والأغلال)، للشيخ محمد مهدي الآصفي.
ج - (الحوار في القرآن)، للسيّد محمد حسين فضل الله.
د - (التربية في القرآن الكريم)، لمحمد شديد.
هـ- (سنن التاريخ في القرآن)، للسيّد محمد باقر الصدر.

ومن البحوث التي جاءت ضمن بعض الكتب:

أ - (الشورى في القرآن)، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي[١].
ب- (الفرح في ضوء القرآن الكريم)، للدكتور زيد عمر العيص[٢].
ج - (الرحلة في طلب العلم)، للدكتور مصطفى مسلم[٣].
د- (من طرق المعرفة في القرآن)، للأستاذ غالب حسن[٤].
هـ- (حقوق الطفل من خلال القرآن الكريم)، للدكتور أحمد عثمان رحماني[٥].

ومن البحوث القرآنية التي جاءت ضمن مجلة:

أ - (مجالات الصبر في القرآن الكريم)، للدكتور الشيخ يوسف القرضاوي[٦].
ب- (الفاكهة في القرآن الكريم، وأهميتها للإنسان)، للدكتور محمد غسّان سلوم[٧].
ج - (رؤية قرآنية في مسار الحضارات)، للسيّد محمود الموسوي[٨].

---

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق/ ٢٠١- ٢٧٠.
(٢) التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ٢٤٣- ٣١٠.
(٣) مباحث في التفسير الموضوعي/ ٢٥٣- ٢٩٨.
(٤) غالب حسن، نظرية العلم في القرآن/ ١٣- ٨١.
(٥) مناهج التفسير الموضوعي، وعلاقتها بالتفسير الشفاهي/ ٥٧- ٧٠.
(٦) مجلة (المعارج)، المجلد الأول، العددان ١١- ١٢، ربيع الثاني - جمادى الأولى ١٤١٢هـ، تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٩١م، ص ١٦٤- ١٧٨.
(٧) مجلة (القافلة)، المجلد ١١، العدد ١١، ذو القعدة ١٤٢٠هـ، ص ٤- ٨.
(٨) مجلة (البصائر)، العدد ٢٩، السنة الرابعة عشرة، خريف ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٦٤- ٧٣.

د - (التضليل الإعلامي: أساليبه وآلياته.. السخرية مثالاً)، للشيخ زكريا داوود[١].
هـ- (القرآن والاجتهاد والعقلانية المؤمنة)، للدكتور محمد عمارة[٢].

ثانياً: الكتب المستوعبة لبعض مواضيع القرآن:

وجاء هذا النوع من الدراسات القرآنية على شكل موسوعات تناولت العديد من الموضوعات القرآنية، ومنه:

١- (التفسير الموضوعي للقرآن)، للشيخ جوادي آملي.
٢- (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)، لسميح عاطف الزّين.
٣- (عقائد الإسلام من القرآن)، للسيّد مرتضى العسكري.
٤- (موسوعة أخلاق القرآن)، للدكتور أحمد الشرباصي.
٥- (معارف القرآن)، للشيخ مصباح اليزدي.
٦- (مفاهيم القرآن)، للشيخ جعفر السبحاني.
٧- (نفحات القرآن)، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

ثالثاً: الكتب الشاملة لجميع مواضيع القرآن:

ونقصد بها: الكتب التي تتناول كلّ موضوعات القرآن الكريم.

والواقع: أنّ هذا النوع من التفاسير، وبهذا المعنى الشامل لم يقم به أحد إلى الآن؛ لصعوبة المهمة، وكثافة الموضوعات التي تحتاج إلى تناول، وسعة الموضوعات القرآنية، وحاجتها إلى الجهد والوقت الكبيرين، الأمر الذي لا يستوعبه جهد فردي، بل يحتاج إلى عمل مؤسسي ضخم.

آلية الاستفادة من التفاسير:

لا نستطيع حصر آلية الاستفادة من التفاسير بكيفية معينة؛ إذ إنّها تختلف باختلاف التفسير المتناول، إلا أنّنا نحاول عرض بعض طرق الاستفادة منها:

---

(١) مجلة (القرآن نور)، السنة الثانية ١٤٢٥هـ، العدد الثاني، ص ٦٣- ٧٦.
(٢) مجلة (العربي)، العدد ٤٤٦، السنة التاسعة والثلاثون، شعبان ١٤١٦هـ/ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٦م، ٥٦ـ٥٩.

١- جمع نثار الموضوع:

وهـذه الطريقـة تتناسـب مع مـا عبّرنـا عنـه بـ(الملاحظـات التفسـيرية المتناثرة)، ..الأسـلوب الشـائع في طريقة تنـاول الأفكار ضمن التفسـير الموضعـي الترتيبي، حيث تحتـاج تلك الأفكار المتناثرة إلى إعادة تجميع وتركيب حتى تندرج ضمن سـلك واحد، لتشكّل في النهاية عقداً متكاملاً يمثل بحثاً موضوعياً.

ومعنـى هـذا أنّنـا نحتـاج إلـى القيام بعمـل جديـد لجمـع وترتيب محـاور ونقاط الموضوع الموزّعة حسب آيات ومواضع كثيرة.

فقـد نقرأ في أحد التفاسـير في معـرض حديثه عن (العدل) في قولـه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾[1]: أنّ هذا العدل المطلوب هو العدل الخارجي (الجارحي/ العملي/ الفعلي)، في الممارسة والتصرّف والنفقة.

ثمّ نقرأ في ذاك التفسير نفسه في معرض حديثه عن (العدل) في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْـتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَـاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُـواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًـا﴾[2]: أنّ هذا العدل الذي لا يمكن تحقيقه هو العدل الداخلي (الجانحي/ النفسي/ القلبي)، في الحبّ.

وبتجسير المسافة بين الموضعين نصل إلى أنّ (العدل بين النساء على نوعين):

أ- العدل الخارجي (العملي):

وهو الذي يُشترط – فيمن يتزوّج أكثر من واحدة – أن يحقِّقه، فالإنسان يستطيع أن يحكم أفعاله الخارجية (الجارحية) بميزان مضبوط، ويستطيع أن يوزّعها بشكل متعادل.

ب- العدل الداخلي (النفسي):

وهـو الـذي لا يمكـن للإنسـان أن يحقّقـه بالتسـاوي؛ لأنّ القلب مفطـور على أن يميل لمن يأسـره أكثر من غيره، ولا يمكـن إجبار القلب على أن يحبّ أحداً، أو أنّ يحبّ

(١) سورة النساء/ ٣.

(٢) سورة النساء/ ١٢٩.

شخصين بمستوى واحد، فالأفعال القلبية (الجانحية) لا يمكن الجبر عليها.

٢- الاستفادة من الموضوعات:

ويتناسب هذا مع الأشكال الثلاثة الأخرى السابقة: (البحوث التفسيرية الموضوعية)، (البحوث الموضوعية المصدَّر بها بداية كلّ باب)، (البحوث والكتب الموضوعية المستقلة)، حيث تتمّ الاستفادة من منجز موضوعي متحقق بدلاً من البدء من نقطة الصفر.

فلو قرأنا في تفسير (الميزان) - مثلاً - في معرض كلامه عن الأخوّة وأقسامها قوله: «وهي في الإسلام أخوة نسَبية لها آثار في النكاح والإرث، وأخوة رضاعية لها آثار في النكاح دون الإرث، وأخوة دينية لها آثار اجتماعية ولا أثر لها في النكاح والإرث»[١].

فإنّنا نستطيع أن نؤصل منه موضوعاً عنوانه (أنواع الأخوّة في القرآن الكريم)، وهي:

أ- الأخوة النسَبية: ﴿**وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ**﴾[٢].

ب- الأخوة الرضاعية: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .... وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ**﴾[٣].

ج- الأخوة الدينية: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[٤].

ونستطيع أن نضيف قسماً رابعاً هو:

الأخوة الاجتماعية: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ**﴾[٥].

ونستطيع - ضمن تقسيم آخر - أن ندرج (الرضاعية، والدينية، والاجتماعية) ضمن عنوان (الأخوة السببية)؛ لنقابل بها (الأخوة النسَبية)، وبذلك يمكن أن نعيد ترتيب

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٨/ ٣١٦.
(٢) سورة النساء/ ١٢.
(٣) سورة النساء/ ٢٣.
(٤) سورة الحجرات/ ١٠.
(٥) سورة الشعراء/ ١٠٥- ١٠٦.

الموضوع بطريقة أخرى ليكون هكذا:

* أنواع الأخوّة في القرآن الكريم:

١- الأخوّة النسَبية.

٢- الأخوّة السببية:

أ- الأخوّة الرضاعية.

ب - الأخوّة الدينية.

ج - الأخوّة الاجتماعية.

وإذا كانت الأخوة النسبية والأخوة السببية القائمة على الرضاع أو الدين واضحتي التواشج، فإنّ الأخوة الاجتماعية تدلل على أنّ الله - سبحانه وتعالى - سنّ لأنبيائه ورسله تشريعات وأخلاقيات تحترم الإنسان والآخر المختلف - بوصفه إنساناً - ، حتى لو لم يتفق معهم في الدين، ومن ثمّ عبّر عن أنبيائه بأنّهم أخوة لمجتمعاتهم، ودأبت آيات القرآن الكريم على حكاية ذلك:

- ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ**﴾[1].

- ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[2].

- ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ**﴾[3].

- ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[4].

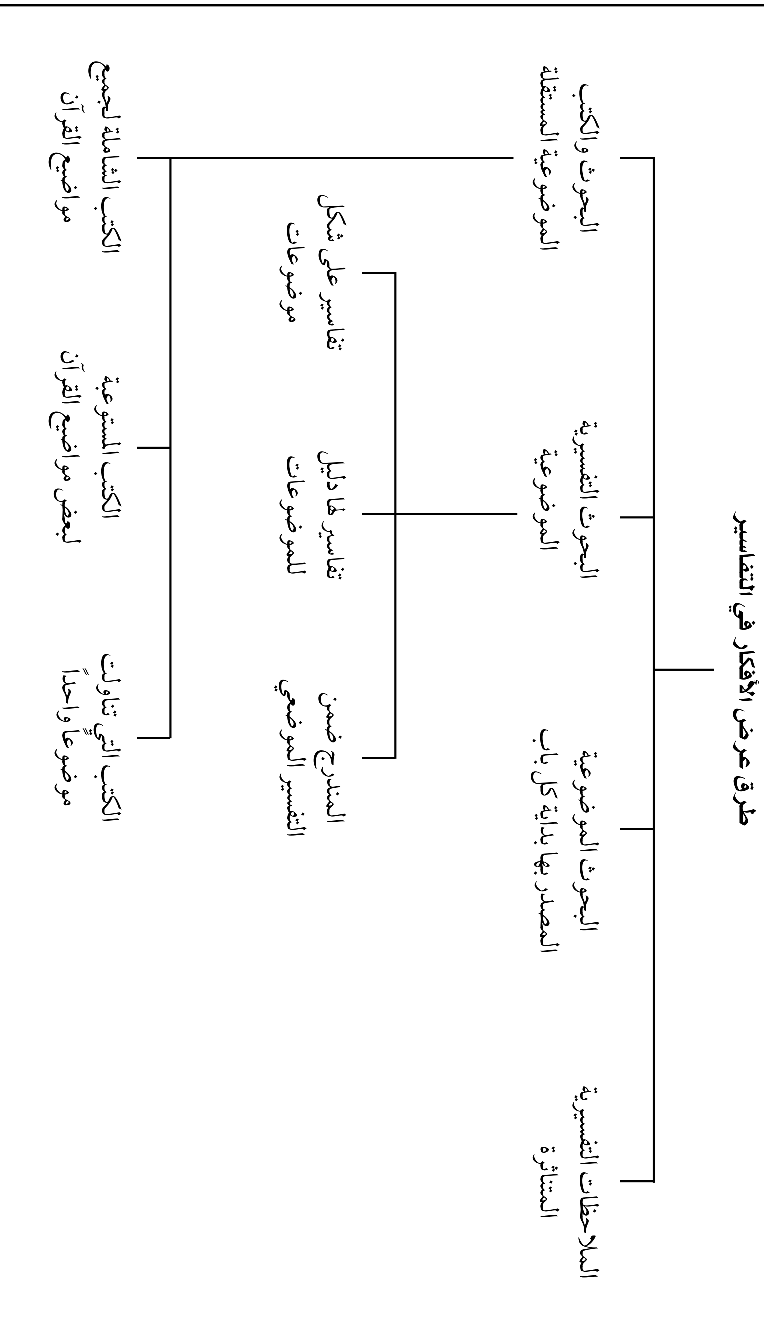
---

(١) سورة الشعراء/ ١٢٤.

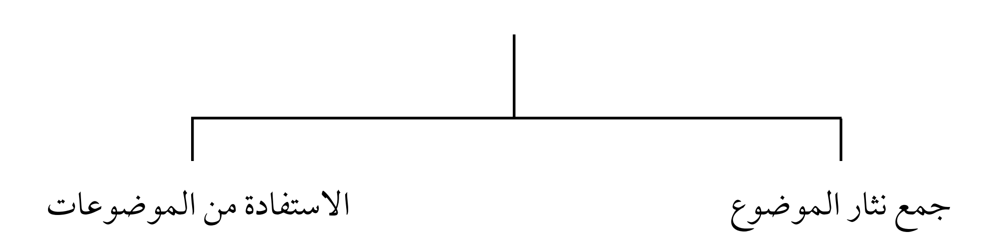
(٢) سورة الشعراء/ ١٤١- ١٤٢.

(٣) سورة الشعراء/ ١٦٠- ١٦١.

(٤) سورة الأعراف/ ٨٥.


طرق عرض الأفكار في التفاسير
البحوث والكتب الموضوعية المستقلة
البحوث التفسيرية الموضوعية
البحوث الموضوعية المصدر بها بداية كل باب
الملاحظات التفسيرية المتناثرة
تفاسير على شكل موضوعات
تفاسير لها دليل للموضوعات
المندرج ضمن التفسير الموضوعي
الكتب الشاملة لجميع مواضيع القرآن
الكتب المستوعبة لبعض مواضيع القرآن
الكتب التي تناولت موضوعاً واحداً

آلية الاستفادة من التفاسير





ت١: أضعُ علامة (✓) أمـــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- كلّ تفسير يعرض أفكاره على شكل ملاحظات تفسيرية متناثرة فهو تفسير موضعي. (   )

ب - الكتـب التي تصدّر أبوابهـا بآيات ذات صلة بالبحث إنّما تقوم (بجمع موضوعي) وليس (تدبراً موضوعياً). (   )

ت٢: أذكرُ ثلاثة أسماء لكلّ مما يلي:

أ- تفاسـير تجزيئية أعتقد أنّها تستحقّ المطالعة والاسـتفادة منها، مبيّناً أسباب اختيار كلّ منها.

ب - كتب تناولت موضوعاً واحداً في القرآن من غير ما ذُكر سابقاً.

ت٣: الاستفادة من التفاسير هل تعني سرقة جهود الآخرين؟!

ت٤: هل من الممكن إيجاد كتاب شـــامل لجميـــع مواضيع القرآن أم أنّها فكرة أكثر من مثالية؟!

ت٥: قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّـهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّـهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، أحاولُ الاستفادة من التفاسير التي بحوزتي لأتوصل إلى أهم أسباب تخلف المسلمين.

(١) سورة الأنفال/ ٤٦.

الخطوة السادسة: التطبيق الخارجي

المقصود بـ (التطبيق الخارجي):

لعلّنا نتساءل – قبل الشروع في بحث أهمية التطبيق الخارجي وأشكاله وأنواعه – عن المقصود بالتطبيق الخارجي: ماذا نعني به؟

ونبادر لنوضِّح أنّنا نقصد به: (إيجاد المضمون والمصداق الموافق للآية في الواقع الراهن).

ويرتكز هذا التعريف على أمور ثلاثة:

أ- (المضمون):

ونقصد بـ(المضمون): (المحتوى أو المعاني أو الأفكار أو الرؤى) المعاصرة في هذا الزمن والتي تطرّق لها القرآن بتعابير شتى قد تختلف بعض الشيء عمّا نتداوله اليوم، فأفكار من طراز: التأهيل الأسري، التوافق الاجتماعي، الاستلاب، الإرهاب، وغيرها.. قد لا نجدها في كتاب الله المعظم مباشرة، بل نعثر عليها عبر التطبيق للآيات الكريمة، فحين نستخرج مضموناً (فكرة قرآنية) نحن نقوم هنا بتدوير هذه الفكرة وإعادة إنتاجها بشكل عصري حديث، نبحث في مضامينها ومحتواها عن المضامين الحالية المختبئة تحتها بلباس جديد ومسمّى مختلف.

ب- (المصداق):

وقد تقدّم أنّنا نريد بـ(المصداق): «المثال التطبيقي الذي يتجسّد فيه المفهوم القرآني أو النموذج القرآني».

فهـو معرفـة التطبيـق الفعلي الذي يتجسّـد فيه المفهـوم أو النموذج، وينقسـم إلى مصداق تاريخي، ومصداق خارجي.

ونحن - هنا - في التطبيق الخارجي نستهدف البحث عن النماذج والصور الواقعية التي تجسّد تلك المضامين، لا المصاديق التاريخية التي مثلته في الماضي، فنحن حين نقرأ آيات الله ستواجهنا الكثير من النماذج المستلة من عالم البشر أو الحيوان أو الجماد.

فسـنعثر علـى نماذج بشـرية فرديـة مثـل: آدم وهابيل وقابيـل، وإبراهيـم ونمرود، وموسـى وهـارون ومؤمـن آل فرعون، وفرعـون وهامان وقـارون، وطالـوت وجالوت، وداوود وسـليمان، وامـرأة نـوح وامرأة لوط، وآسـية ومريـم، وأبي لهب وامرأتـه، وبقية الأمثلة الفردية.

كما سنعثر على أمثلة بشرية جمعية: كقوم نوح، والسحرة، وأخوة يوسف، والروم، وأصحاب الأخدود، وقوم يونس الذين آمنوا، والقرية الآمنة المطمئنة التي كفرت.

وسـنعثر على نماذج لصالحين، كذي القرنين، والعبـد الصالح (الخضر)، وزوجة فرعـون، ومريم، وقـوم يونس بعد إيمانهم، كما سـنعثر على نمـاذج لطالحين، كفرعون، وقارون، وزوجة نوح، وقوم لوط.

وسنعثر على نماذج لكائنات حية، كغراب قابيل، وناقة صالح، وبقرة بني إسرائيل، والقمّـل والضفـادع في قصة موسـى، وهدهد سـليمان، وكلب أصحـاب الكهف، وفيل أبرهة، والطير الأبابيل، أو على صورة هذه الكائنات كعجل السامري.

وسنعثر على جمادات تطرّق لها القرآن، كسفينة نوح، وطور سيناء، وعصا موسى، وتابوت بني إسرائيل، ونخلة مريم، والغار الذي أظلّ النبي محمداً ﷺ.

ونحن إزاء ما نجده من هذه الشـخصيات الفردية أو الجمعية: الصالحة والطالحة، ونمـاذج الكائنات والجمادات، نريـد أن نعرف المصداق والنموذج الحالي الذي يوازيها ويطابقها، فنحاول أن نكتشفه ونسلط الضوء عليه، حتى لا يبقى القرآن مجرّد كتاب تراثي تاريخي دَوَّنَ بعض القصص الغابرة، وسجّل الأشخاص والأحداث السابقة، وإنّما ليصبح بمثابة الشمس التي تطلع كلّ يوم على جديد.

ومعنـى هـذا أنّ البحث عن (المضمون) مسـألة تعـود للحقل النظـري والمعرفي والعلمـي المرتبـط بالمفاهيم والأفـكار، بينما تعـود عملية البحث عـن (المصداق) إلى التطبيق العملي المرتبط بالأفعال والأشياء.

وبإمعان النظر في كلٍّ من المضامين والمصاديق الجديدة نكون قد تمكنّا من ترجمة الآيات على أرض الواقع، فلا يصبح القرآن غريباً، بل نلقى آثاره في كلّ مجتمع، وفي أيّ فكرة تُعتنَق، وفي كلّ راية تُرفع، ونشهد أنّ شخوص القرآن وأحداثه ونماذجه موجودة الآن في الخارج: تتحرّك وتعمل كما كانت تتحرّك وتعمل في الماضي.

وهذا الشكل من تفعيل المضمون القرآني والمصاديق القرآنية لينطبق على الواقع الخارجي هو نوع من تفعيل التأويل القرآني، لا بمعنى صرف الظاهر إلى معاني باطنية، وإنّما بمعنى الرجوع والأوْل والمشارفة والصيرورة، والمضي مع النصّ القرآني إلى ما يصل إليه وما يبلغه، وهو سير يعتمد في شكله الأبرز على التعرّف على الصورة الجديدة المماثلة لما ذُكر في القرآن، عبر اكتشاف المضامين الجديدة للمفاهيم التي ذكرها القرآن، والممارسة الحديثة للفعل القديم الذي ذكره القرآن، ويدخل في دائرة القول السابق للإمام الباقر عليه السلام عن القرآن الكريم: «ظهره الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم، يجري فيهم ما يجري في أولئك»[1].

ج- (الواقع الراهن):

فهناك مضمون أو مصداق تاريخي كان مزامناً لنزول القرآن، أو مزامناً للحدث الذي نقله القرآن عن السابقين والأمم السالفة، وهناك مضمون أو مصداق معاصر استجد بعد زمان الوحي، لكنّه يماثل ما ذكره القرآن.

ونحن نبحث - هنا - عن المضمون والمصداق المعاصر، وهذا بدوره لا ينفي - بالضرورة - المضمون أو المصداق القديم التاريخي، وإنّما يعطي مثالاً آخر بموازاته، وعندها لا يُقصر مدلول الآية على القديم التاريخي، وإنّما يمتدّ إلى الموجود في الواقع الراهن، كما يمتدّ ليشمل الآتي في المستقبل ويندرج ضمن مضمون الآية أو مصداقها.

وعلى هذا، فـ(أيوب) يشمل كلّ صابر لم يحن رأسه لصوارم الدهر ونكباته، و(لقمان) يشمل كلّ من نضّجته الحكمة وحنّكته التَجارب، و(قابيل) يشمل القتلة الموجودين في زماننا وكلّ زمان، و(فرعون) يشمل كلّ حاكم سياسي مستبد، و(مجتمع لوط) يلفّ كلّ الشاذين جنسياً (اللوطيين)، و(هدهد سليمان) ينطبق على كلّ أداة صادقة في نقل الخبر، و(العجل) يمثل كلّ أداة تُستغل للابتزاز وتفريق الأمة، وهكذا...

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٨٣، الباب ٨، ح ١٤.

كيف نؤسس لصحة التطبيق الخارجي؟

ولعلّنا فيما مضى قد نستثير البعض حينما لا نقصر المضمون أو المصداق القرآني على دلالته التي ورد فيها، ونستفزّه بمدّ الدلالات إلى أشخاص لم يكونوا في زمن نزول القرآن حتى نقول: إنّه يقصدهم!!

ما هي الأهمية التي تكمن وراء إصرارنا على إنشاء مقارنة موضوعية للمفاهيم والنماذج القرآنية التي نقرؤها بما نتمثله في زماننا ونعاصره؟، ولماذا نعرّض أنفسنا لخطورة التطبيق الخاطئ، وربّما إطلاق حكم جزاف على أحد الأشخاص، أو أن نقحم فكرة في الخارج مع فكرة قرآنية نتصور أنّها مثيلتها ومستنسخة منها؟، فهل هناك داع لهذا العناء وهذه المخاطرة؟، ألا يكفينا أن ندرك مَن هو (نمرود) وما هي حججه الواهية؟، وهل مِن حاجة لنكتشف من هو (إبراهيم) اليوم؟، وأية أفكارٍ حديثة نستطيع أن نستلهمها من قصة (طالوت)؟، ومن الذين ينطبق عليهم (حواريو عيسى)؟، وما الذي يمثل لنا (سفينة نوح) التي تقودنا نحو شاطئ الأمن والسلام؟، وأين (هبل واللات والعزى ومناة) اليوم؟

كلّ تلك التساؤلات يمكن إعادتها لسؤال واحد هو: كيف نثبت أنّ عملنا بفكرة التطبيق الخارجي صحيح ضمن ميزان الشرع؟، أي كيف نؤصل ذاك ضمن الرؤية الدينية؟

ولكي نؤسس لتلك المنهجية في التعامل مع الآيات الشريفة ومضامينها ومصاديقها نعرض لبعض الدعائم التي بنينا عليها فكرة (التطبيق الخارجي):

١- عدم محدودية القرآن:

من أهمّ سمات القرآن الكريم صلاحيته لكلّ زمان ومكان وناس، فقد جاء قريناً للرسول الخاتم للأنبياء، ومن ثمّ جعل الله في القرآن الطراوة التي تناسب كلّ زمان وتتفاعل معه، وتهيمن عليه وتحرّكه، ولم يجعله خاصاً بمكان دون مكان، أو ناس دون ناس، أو فئة دون أخرى، ولم يأتِ لإرشاد جيل دون آخر، وإنّما جاء للبشرية جمعاء: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾(١).

فالقرآن لا يهلك بهلاك من نزلت فيه آياته، وإنّما «يجري كما يجري الشمس

(١) سورة الفرقان/ ١.

والقمر»[١]، و«يكون على الأموات كما يكون على الأحياء»[٢] - كما تقول الأحاديث -، وقد مثَّل أميرُ المؤمنين عليه السلام القرآنَ الكريمَ «نوراً لا تُطفأ مصابيحُه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يُظلِم ضوؤه، وفرقاناً لا يُخمد برهانه....، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره....، وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا يُنضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون»[٣].

وقد سأل رجلٌ الإمامَ الصادقَ عليه السلام فقال: «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدّرس إلا غضاضة؟!، فقال: لأنّ الله - تبارك وتعالى - لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة»[٤].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام عن القرآن: «وإنّما الاسم الواحد منه في وجوه لا تُحصى»[٥].

وجملة (في وجوه لا تُحصى) تحمل من التعبير والإيحاء عن سعة الأفق القرآني ما يجعلها منفتحة بأوسع مدى على اللامحدود واللامتناهي، فالأمر لا يعود إلى مئة وجه ولا إلى ألف أو مليون، وإنّما إلى (وجوه لا تُحصى)، ولا تُعد!!

وقد سأل عمرُ بن يزيد الإمامَ الصادقَ عليه السلام عن المقصود بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ**﴾[٦]، فأجابه الإمام عليه السلام: «نزلت في رحم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تكون في قرابتكَ، ثمّ قال: فلا تكونن ممن يقول للشيء: إنّه في شيء واحد»[٧].

والإمام عليه السلام في هذه الرواية عمل بطريقتين على بيان خصوبة المعاني القرآنية وعدم تناهيها، أولهما: ببيان أكثر من معنى تنطبق عليه الآية (رحم آل محمد، قرابتك)، وثانيهما: بإعطاء السائل قاعدة أنّ المعاني القرآنية لا تختصّ بشيء واحد وتفسير واحد وإجراء واحد، وإنّما يتسع أفقها ليشمل كلّ معنى وكلّ مصداق يدخلان ضمن نطاق المفهوم والنموذج.

فجملة ﴿**مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ**﴾ تنطبق على رحم آل محمد؛ لأنّه أمر به أن يوصل

---

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٩٧- ٩٨، الباب ٨، ح ٦٤.
(٢) نفسه ٨٩/ ٩٧- ٩٨، الباب ٨، ح ٦٤.
(٣) نهج البلاغة/ ٣١٥- ٣١٦، الخطبة ١٩٨.
(٤) بحار الأنوار ٨٩/ ١٥، الباب ١، ح ٨.
(٥) نفسه ٨٩/ ٥٥، الباب ٧، ح ٢٣.
(٦) سورة الرعد/ ٢١.
(٧) أصول الكافي ٢/ ١٦٤، كتاب (الإيمان والكفر)، الباب ٢٥٤، ح ٢٨.

في قوله تعالى: ﴿**قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾(١).

كما تنطبق على قرابة الإنسان؛ لأنّه أمر بهم في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾(٢).

ولذلك كان المعصومون عليهم السلام يطبّقون آيات القرآن على الأحداث المزامنة لهم، المشابهة لما في الآيات، ولم يقصروا الآيات على دلالتها التاريخية:

فعندما توجّه الرسول صلى الله عليه وآله لمعركة حنين، رأى المسلمون شجرة شاهقة يعلّق عليها الجاهليون أسلحتهم، ويذبحون عندها، فأعجبهم المنظر، ولما مرّوا بسدرة خضراء عظيمة، تنادوا من بين جنبات الطريق: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط!!، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الله أكبر، قلتم – والذي نفس محمد بيده – كما قال قوم موسى لموسى ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾(٣)، إنّها السنن، لتركبُنّ سنن من كان قبلكم»(٤).

ويتجلى في هذا النصّ كيف أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يقصر قول بني إسرائيل: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾ على قوم موسى عليه السلام، بل.. طبّقه على طلب من كان معه من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط.

وعندما خاض أمير المؤمنين عليه السلام معركة الجمل، وازدحمت الصفوف، واصطكت الأسنة؛ كان عليه السلام يشرف على ساحة المعركة، فرأى أصحاب الجمل يستبسلون في الدفاع عن جملهم، فنادى بأعلى صوته: «ويلكم، اعقروا الجمل فإنّه شيطان»(٥).

فهجم الإمام عليه السلام وأصحابه حتى وصلوا إلى الجمل فعقروه، ففرّ مَنْ بقي من أصحاب الجمل من المعركة، فأمر عليه السلام بحرق الجمل وذرّ رماده في الهواء لئلا يفتتن به البسطاء، ثمّ قال عليه السلام: «لعنه الله من دابة، فما أشبهه بعجل بني إسرائيل»(٦)، ثمّ مدّ عليه السلام

(١) سورة الشورى/ ٢٣.
(٢) سورة الأنفال/ ٧٥.
(٣) سورة الأعراف/ ١٣٨.
(٤) ابن هشام، سيرة النبي صلى الله عليه وآله، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ٤/ ٧٠- ٧١.
(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١/ ٢٠٨.
(٦) نفسه ١/ ٢١٧.

بصره نحو الرماد الذي تناثر في الهواء وتلا قوله تعالى: ﴿... **وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**﴾[١].

وعندما خرج المغيرة بن سعيد على دعائم الاعتدال، وغالى في الإمام الباقر عليه السلام، وعدّه إلهاً، وادعى أنّه نبي مرسل من قِبَله، وادعى القدرة على إحياء الموتى، وأعلن تعطيل الشرائع والتكاليف، واستحلال المحارم، وراح يختلق الأحاديث على لسان الإمام، ويدسّ الأحاديث في كتب أصحاب الإمام؛ تبرّأ عليه السلام منه، ولعنه، وطلب من شيعته التبري منه ولعنه[٢]، وقال لسليمان اللبّان: «أتدري ما مثل المغيرة بن سعيد؟، قلتُ: لا..، قال: مثله مثل بلعم الذي أوتي الاسم الأعظم الذي قال الله تعالى: ﴿**آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾[٣]»[٤].

فالإمام الباقر عليه السلام لم يقصر هذا النصّ القرآني على بلعم بن باعوراء الذي كان جليل القدر، يعرف الاسم الأعظم، ثمّ ساقه الانحراف إلى سبله الوعرة، ووقف نداً لنبي الله موسى عليه السلام، بل.. طبّقه على المغيرة بن سعيد.

وهكذا كان الأئمة عليهم السلام، فكلّما جاء أمر مماثل لما في الكتاب العزيز طبّقوه عليه، وقد حكى الإمام الصادق عليه السلام ذلك كقاعدة عامة عندهم عليهم السلام فقال: «إنّ للقرآن تأويلاً، فمنه ما قد جاء، ومنه ما لم يجئ، فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمة عرفه إمام ذلك الزمان»[٥].

إنّ كلّ ذلك العطاء الذي لا ينضب يشعرنا أنّ من الظلم أن نشرنق القرآن على مرحلة زمنية دون أخرى أو أفراد معينين دون آخرين، أو أحداث ومجريات محدودة.

٢- تحريك الظاهر والباطن (التأويل):

المستفاد من الروايات الشريفة أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، وتنزيلاً وتأويلاً، ولا شك بأنّه من غير الصحيح اعتمادنا على الظهر والاكتفاء بذلك، نائين عن الغوص لأعماق

---

(١) سورة طه/ ٩٧.

(٢) القاضي النعمان المغربي، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي ١/ ٤٩، ومعجم رجال الحديث ١٨/ ٢٧٥- ٢٧٩.

(٣) سورة الأعراف/ ١٧٥.

(٤) البرهان في تفسير القرآن ٤/ ٢٣٢، ح ٤٠٨٥.

(٥) بحار الأنوار ٨٩/ ٩٧، الباب ٨، ح ٦٢.

البطن وسبر أغواره، فقد جاء في الحديث: «ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن»[١].

وهذا الباطن والتأويل مفتوح الآفاق، متعدّد القراءات، واسع الدلالات، وقد قال عن هذا أمير المؤمنين عليه السلام: «تأويل كلّ حرف من القرآن على وجوه»[٢].

والقرآن في قصصه – مثلاً – يقصد الأشخاص المشار لهم في الحادثة سوى أنّه في الحقيقة لا يقصر النظر عليهم؛ إذ يمثلون ظاهر المعنى، ويمتدّ البطن فيه ليشمل كلّ إنسان يحذو حذو أولئك، ويفعل فعلهم.

فحين الحديث عن أصحاب الجنة الذين عزموا أن يصرموا جنتهم دون أن يجودوا على الفقراء الذين أنحلهم الجوع وأنهكهم الظمأ، وعندما يخبرنا عن سوء عاقبة جنتهم تلك يقول القرآن الكريم: ﴿**فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**﴾[٣]، إنّ القرآن هنا لا يريدنا أن نركز أبصارنا على تلك الفئة الضاربة بجذورها في عمق التاريخ بمقدار ما يريد تحفيز بصائرنا نحو قاعدة تقول: إنّ من لا يصرم للفقراء يصرم الخرابُ أشجاره، وكلّ من يسلك مسلك هؤلاء فإنّ مصيره الخيبة والحرمان، وعضّ أصابع الندم.

وبهذا يتجلى لنا قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[٤]. فهذه القصص هي تبيان لكلّ شيء يأتي لاحقاً، وهي مصباح هداية ورحمة تحرق العتمة، وتضيء الدرب للمؤمنين.

وبتحريكنا للباطن نعرف الفرق بين (القرآن الصامت) المخطوط على الألواح و(القرآن الناطق) الذي أشار له علي عليه السلام عند صفين متمثلاً فيه عليه السلام؛ إذ إنّه عليه السلام كان يبصر في تلك الواقعة من هي الفئة الباغية في عصره، والتي أشار لها القرآن بقوله: ﴿**فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾[٥]. وبذلك تقلّد عليّ عليه السلام لقبه المميّز بأنّه القرآن الناطق الذي يحوّل صمت سطور القرآن إلى أنشودة للوقائع المستجدة، ويجيد بإتقان كيف يستلهم من كتاب الله دون إفراط أو تفريط.

(١) نفسه ٨٩/ ٩٧– ٩٨، الباب ٨، ح ٦٤.
(٢) نفسه ٨٩/ ٩٥، الباب ٨، ح ٤٩.
(٣) سورة القلم/ ١٩– ٢٠.
(٤) سورة يوسف/ ١١١.
(٥) سورة الحجرات/ ٩.

«إنّ لآيات القرآن أهلاً تنطبق عليهم في كلّ عصر، فآية المتقين لها تطبيق حيّ، كما لآية الفاسقين، فلابدّ أن يبحث الفرد عن هؤلاء كلّما تدبّر القرآن، وهنا يتحوّل الكتاب المبين إلى منهاج عمل، ليس هذا فحسب، بل ويهدي الإنسان إلى حقائق كثيرة؛ لأنّه يساعد الفرد على فهم الأحداث المعروفة، ويكون مثله آنئذ مثل المرشد في متحف للآثار: كيف [أنّه] لا تفيد رؤية المتحف بدونه، كما لا يغني إرشاده دون رؤية الآثار»[1].

٣- القرآن للتربية لا لمجرّد التعليم:

فالقرآن كتاب تربية وهداية قبل أن يكون كتاب علم ومعرفة ونظريات، واهتمامه بالتربية مقدّم على اهتمامه بالحشد المعرفي، ومن ثمّ لم يكن كتاباً نظرياً بمقدار ما يستهدف القلب والجانب العملي السلوكي.

ولا يعني ذلك أنّ القرآن لا يهتمّ بالعلم، وإنّما يعني أنّه لا يقف عند حدوده النظرية، بل.. يسعى أن يحتضن الإنسان علمه، ويختزنه سلوكاً وتطبيقاً، ليضحي (ثقافة)، لا مجرّد (معرفة).

من هنا يصف الله كتابه بقوله: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[2]، فذلك العلم ينعكس على خطوات تسير في الواقع، وتُترجِم الأفكارَ إلى سلوكيات خلاقة يجني الإنسان عبرها الهدى والرحمة؛ ليتمكن من تجسيد الإيمان في نفسه وفي نفوس الآخرين، ولا يتأتى ذلك إلا عبر تقريب شخوص القرآن ونماذجه لمعترك الحياة الحالية واستلهام الموقف الذي ينبغي علينا أن نتخذه، ونعضّ عليه بالنواجذ.

ومن أهم السبل التي يستعملها القرآن للتربية تقديم النموذج التطبيقي، وذلك بأشكال، منها:

أ- التربية عبر القدوة والمثال:

وهو ما نسمّيه أيضاً (أسلوب المحاكاة والتقليد) و(القدوة والمثال)، فيذكر القرآن النماذج الإيجابية من أنبياء وصالحين؛ لتكون شخصيتهم وحياتهم وقصصهم شعلة وضّاءة في طريق الاقتداء بهم والسير على نهجهم:

- ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء**

---

(١) من هدى القرآن ١/ ٦٦.

(٢) سورة الأعراف/ ٥٢.

مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[١].

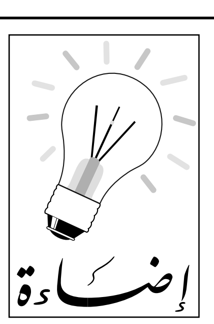
- ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[٢].

- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٣].

- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٤].

وهـذا يعنـي أنّنا لو عرفنـا أدقّ تفاصيل قصة يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ مـن الرؤيا، مـروراً بالبئر والسجن، وحتى جلوسه على العرش..، فماذا سينعكس علينا إن قرأنا القصة على أنّها مجرّد حادثـة تاريخية؟، وهل ما يأمله القرآن فقط أن نعلـم بحقيقة ما جـرى؟، أم أنّه ينطلـق بنا من خلال هـذا العلم إلى العمل؟، فنربي أنفسـنا، ونطمح أن نصبح (يوسفيين) في تحمّلنا وأدبنا وسـائر تحرّكاتنا، وهذا لا يتـمّ إلا عبر تقمّص الشـخصيات الخيّـرة، ومحاولتنـا الاقتـراب منها، وتسـلّق صروح علوّها والانطلاق معها نحو ملكوت الإيمان بالله.

(١) سورة الممتحنة/ ٤.
(٢) سورة الأنعام/ ٩٠.
(٣) سورة الممتحنة/ ٦.
(٤) سورة الأحزاب/ ٢١.



يقول السـيّد محمد تقي المدرسي: «أكبـر فائدة يغتنمهـا المتدبّـر فـي كتـاب الله هـي تزكيـة نفسـه وبناء شـخصيته....، من المؤكـد أنّنا بحاجة إلى تربيـة، ولكن.. مَن الـذي يربينا؟. القرآن أفضل وسـيلة لتربية نفوسـنا؛ لذلك وجب أن يعرض كلّ شخص نفسه على القرآن؛ ليعرف انحرافاته.

والعقبة التي تعترض طريق التربية الذاتية قد تكون عـدم اقتناع الفرد بأنّه المعني بالتوجيه، بل يزعم كلّ شـخص أنّ غيـره فقط المقصود، أما هو فيجعل نفسـه مقدّساً عن شمول التعاليم له؛ من هنـا لابـدّ أن يتجاوز الفرد هـذه العقبة بالإيحاء الذاتي بأنّه معني مباشـرة بهذه التعاليـم، وأنّ كلّ قصة تجد مثالها في نفسه إذا عمل ما عمله بطل القصة، وأنّ كلّ مثل يجد تطبيقه في ذاته إذا جسّـد مغزاه، وأنّ كلّ ثواب سوف يناله هو إن عمل الخير، وأنّ كلّ عقوبة سـتحيط به إن اقترف خطيئته. وهكذا يجعل نفسـه تـدور عليه آيـات الكتـاب؛ ليتمكّن من تربية ذاته وتزكيتها»[١].

(١) من هدى القرآن ١/ ٦٨- ٦٩.

ب- التربية عبر عرض الخطأ والعاقبة:

وهـو أسـلوب ينـدرج ضمن (التربية عبـر بيان العاقبـة)، يعرض فيه القـرآن الخطأ والمـآل الذي انتهى إليـه أو ينتهي إليه، لا يطلب القرآن فيه مـن الناس أن يقعوا في الخطأ حتـى يدركـوه، ويبتعـدوا، ولا (التعلّم عبـر المحاولة والخطـأ)، وإنّما يعـرض لهم أمثلة تطبيقيـة لآخرين وقعوا في تلـك الأخطاء، والنتائج الوخيمة لأخطائهم؛ ومن ثمّ ينبغي أن يترك الإنسان ذلك؛ لأنّه جُرِّب فيما سبق، وبان ـ تشريعاً أو واقعاً ـ أنّه خطأ، و«العاقل مَن اتعظ بغيره»[1]، و «مَن جرّب المجرّب حلّت به الندامة»[2].

ومن ثمّ فهو مثل كلام الطبيب الذي ينقل لسـامعه قصصاً عن شـخص تجرّع السمّ فمات، وآخر وقع في علاقات جنسية غير لائقة وغير أمينة فأصيب بالإيدز، وثالث أسرف في تناول السكريات بشره حتى بُترت ساقه!!

وهذا الأسـلوب التربوي البديع يختصر للإنسـان المسـافة والزمن، فالإنسان ليس لديه من الوقت ما يكفي ليعيد تجريب كلّ الأخطاء حتى يدرك أنّها خطأ، كما لا وقت لديه أن يعيـد النظـر في كلّ حقائق الوجود ومعارفه اليقينية، فيعيد قياس ارتفاع قمة إيفرسـت، ومساحة المحيط الأطلسي، وعدد كتب مكتبة الكونغرس!!

وهذا الأسلوب التربوي هو ما سوّغ للقرآن الكريم أن يعرض النماذج السلبية السيئة والمخطئـة: الفردية والجمعية، لا ليرسـم الطريق لتقليدها ومحاكاتهـا بالفعل الخاطيء، وإنّما لتجنب ذاك ما دام معروفاً، ومآله واضح.

لقد حكى القرآن قصة ابني آدم مثالاً لدور الحسد والعنف الاجتماعي وعاقبته:

﴿وَاتْـلُ عَلَيْهِـمْ نَبَـأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَـقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًـا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَـمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَـرِ قَـالَ لأَقْتُلَنَّـكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَـطتَ إِلَيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِـطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّـهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِـرِينَ * فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَـوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا

---

(١) عبد الواحد الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم ١/ ٦٣، ح ١٣٣٠.

(٢) حافظ الشيرازي، أغاني شيراز (ديوان حافظ الشيرازي)، ترجمة: الدكتور إبراهيم الشواربي/ ٥٠٥.

وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(١).

كما حكى القرآن قصة قوم صالح مثالاً لتدثر الملأ برداء الاستكبار والغطرسة، ودورهم في توجيه دفة المجتمع نحو الهاوية، وصمم المجتمع عن نداءات المصلحين، والخوض في الكفر، وتحدي الله وآياته، وامتطاء مركب العصيان والإفساد، وتجاهل عواقب الأمم، والعاقبة الاجتماعية لذلك:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾(٢).

وإلى جانب ذلك نقل قصص أفراد آخرين - كإبليس، ونمرود، وفرعون، وهامان، وقارون، -، ونقل قصص جماعات - كأصحاب الجنة التي صرمها البخل، وأصحاب البقرة التي نفّسها وأغلاها الشكّ واللجاجة -، وقصص مجتمعات - كأقوام نوح وإبراهيم ولوط وهود -.

وهذا المبدأ التربوي أثره التطبيقي يكمن في الدعوة إلى الابتعاد عن تلك الأفعال المشينة المعلومة العواقب، المجرّبة سلفاً في مختبر التاريخ.

ج- التربية عبر عرض الخطأ والعقاب:

وهو أسلوب تربوي لا يتمّ فيه عرض العاقبة والمنتهى الذي حصل من قبل ووقع فيه آخرون، وإنّما يتمّ بيان العقوبة المشرّعة للفعل.

ولعلّ واحدة من الفوارق بين الأسلوبين: أنّ التربية عبر العاقبة تعرض شيئاً مضى،

---

(١) سورة المائدة/ ٢٧- ٣١.

(٢) سورة الأعراف/ ٧٣- ٧٩.

والتربية عبر العقاب تعرض شيئاً سيأتي، فالأول يتكلم عن الماضي، والثاني يتكلم عن المستقبل.

ومن ثمّ فالتربية عبر عرض الخطأ والعقاب حلّ وقائي قانوني يخبر الإنسان بأنّه إن خالف وفعل جرماً معيّناً فسيكون حلّه الجزائي أن يُنزل به عقاب محدّد؛ ليضع الأمر في حسبانه على نحو التلويح بالعصا قبل أن تقرع الظهر!!، وعلى نحو (من أنذر فقد أعذر)، والفرار من (قبح العقاب بلا بيان واصِل).

وهـذا مـا جعل القرآن الكريم يذكـر للعباد العقوبات الجزائيـة الدنيوية والأخروية للأفعال الخاطئة والذنوب؛ حتى يكونوا على بصيرة من الأمر.

ومن العقوبات الجزائية الدنيوية الحدود:

- ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

- ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

ومن العقوبات الجزائية الأخروية النار:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٤).

والأثـر التطبيقـي لهذا الأسـلوب التربوي هو وضع الإنسـان أمام مسـؤولية فعله، وأمام قانون تشريعي مصوغ ومنجز، ووضعه سلفاً أمام ما سيلحقه من جزاء قانوني إن هو أخلّ بمسـؤوليته تلك، ومن ثمّ فهو وثيقة وعقد ذو طرفين: طرفه الأول الدين والمجتمع

(١) سورة المائدة/ ٣٣.
(٢) سورة المائدة/ ٣٨.
(٣) سورة النـور/ ٢.
(٤) سورة المائدة/ ٣٦- ٣٧.

القابل بتلك التشريعات، وطرفه الآخر الإنسان الذي يُطلب منه ضبط سلوكه والتحكم الإيجابي فيه، وإلا.. نُفِّذ عليه الجزاء.

وحين يحلّ عليه الجزاء لن تكون أمامه مندوحة، ولا سبيل للتحلل والتهرّب؛ لأنّه قَبِل قلباً وتشريعاً الحكم والقانون، فانتماؤه الديني والاجتماعي وعلمه المسبق بتلك المواد القانونية بمثابة توقيع على إمضاء ذاك القانون وسريانه عليه.

٤- سنن الحياة حلّ للواقع:

إذا كنّا في النقطة السابقة قد أشرنا إلى أنّ القرآن مرشد تربوي يهذب نفس الإنسان، ويطرد عنه أشباح الوهم، ويدفعه نحو دوحة الإيمان واليقين بالله، ويملأ مسيرته بالعمل الصالح، فإنّا هنا نشير إلى المجتمع وكيفية معرفة قوانينه، فكما فطر الله الطبيعة على قوانين وسنن نصطلح على تسميتها بـ (السنن الطبيعية) أو (السنن الكونية) كالجاذبية والطفو، فطر الله المجتمعات وسيرها وحركتها على قوانين نسمّيها بـ (السنن التاريخية) أو (السنن الاجتماعية).

والسنن - في جانبيها الطبيعي والاجتماعي - قوانين إلهية مطردة تسري في المجتمعات: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[1]، ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[2]، ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾[3].

ويعود هذان الجانبان من السنة الإلهية إلى نوع واحد هو (القوانين التكوينية) المقابلة لـ (القوانين التشريعية) كالصلاة والصوم والحج والزكاة، وهما معاً يحكيان عن علل وحِكَم فيهما ولو لم نعرف ذلك أو نكتشفه.

إنّ القرآن في آياته يعرض لنا سنن الحياة بين دفتيه، وهي سنن تتكرّر مع المجتمعات بما يقنعنا بأنّ الفعل الاجتماعي - لاسيما في بعده الجمعي وأسبابه ومظاهره ونتائجه - ليس صدفة ولا شذوذاً أو استثناء، بمقدار ما يمثّل سيرورة متكرّرة مع اختلاف الأماكن والأزمان والأشخاص، على نحو ما نردده في عبارة (التاريخ يعيد نفسه).

---

(١) سورة الفتح/ ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب/ ٦٢.

(٣) سورة فاطر/ ٤٣.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما نتساءل: ما هي عناصر قوة المجتمعات؟، وما عوامل هدمها؟، وما مواقفها تجاه الدين والرسالة؟. أو حين نود معالجة موضوع الطغيان: كيف يبدأ؟، ومن أين؟، وما أشكاله؟، وما نتائجه؟، وما صفات الطاغية؟، وكيف نتمكن من مواجهته؟، ومن سينتصر في الأخير؟

الإجابة على تلك التساؤلات سنجدها بين سطور القرآن تشرق علينا كسنا ضوء النهار، فللحياة قوانين برمج الله الكون عليها، ودُوِّنت تلك الأنظمة الحياتية بدقة في كتاب الله؛ لذا من الخطأ أن نحكر فهمنا لآياته على الماضي والتاريخ الغابر، فإنّنا بذلك لن نحظى بمعرفة الحاضر اليوم، ولا المستقبل الذي ينتظرنا؛ نتيجة لذلك ينبغي علينا حين تعصف بنا مشكلة اجتماعية ونريد نعت دواء لها، أن نعود لكتاب الله نستشفيه فيلهمنا قرص الشفاء، ونستنطقه فيهمي علينا بالجواب الصواب.

سوف نعثر - مثلاً - على آية تقول: **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾**[١]، فالله - سبحانه - في هذه الآية لا يعِد رسله - فحسب - بالنصر المؤزر، بل **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** - أيضاً -، وذاك ليس وعداً أخروياً فقط، بل وفي الدنيا كذلك **﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾**، وبتطبيقنا إياها على أرض الواقع ندرك أنّ الفئة الإيمانية التي تجاهد في سبيل الله ضد الظلم والعدوان هي من سترجح كفتها في الأخير، وهي من سيرفع لواء النصر عاجلاً أم آجلاً ما دامت تؤمن بالله وتضحّي في سبيله لا في سبيل المصالح الشخصية والأهواء والشهوات والقيادات الضالة: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[٢].

إنّنا حين نتعامل مع القرآن والواقع كلاً على حدة لن نجد حلاً لما يعترضنا من قضايا مؤرِّقة، ولكن.. حين نستنبط من السنن القرآنية حلاً، سنعثر بذلك على طرق العلاج المضمونة النتائج إن طُبِّقت بشكلها الدقيق، وبشرطها وشروطها.

فنحن نحرّك المضامين والمصاديق القرآنية بما يتفاعل مع الحاضر، وبما يعطينا نظرة استشرافية تطلعية للمستقبل؛ لأنّ ذاك نمط من أنماط السنن الاجتماعية وشكل من أشكال الحركة الاجتماعية، وصورة للمشهد الذي يتكرّر تمثيله على مسرح التاريخ.

---

(١) سورة غافر/ ٥١.

(٢) سورة الأنبياء/ ١٠٥.

أشكال التطبيق الخارجي:

بعد أن عرفنا مدى صحة ما نقوم به من مصاهرة الأفكار والشخصيات القرآنية بالأفكار والشخوص الحالية، نريد أن نوضِّح أشكال التطبيق التي ارتسمت على أرض الواقع عبر الزمن، لنرى أيّ التطبيقات نقصد؟، وأيّها نتبنى؟، وعن أيّها نعزف ونصدّ؟

نستطيع تصنيف أشكال التطبيق الخارجي إلى شكلين: تعسّفي، وعقلاني.

١- الشكل التعسّفي:

وذلك ينتج حين يتحوّل المتدبر إلى أستاذ متغطرس، ويصبح القرآن مجرّد تلميذ لأفكاره ومعتقداته، ومن ثمّ يفرض المتدبر آراءه وتطبيقاته على القرآن الكريم!!

إنّ هذا الصنف من المتدبرين ينطلق من مسلَّمات ومفاهيم معيّنة في ذهنه يحاول بشتى الطرق أن يجد لها مستنداً قرآنياً حتى لو كان القرآن يرفضها!!

وفي هذا الشكل التعسّفي: يسهل علينا أن نرى فرعون العصر قد تحوّل إلى موسى، بينما يصبح هارونُ زمانه ملبّساً رداء هامان!!؛ لأنّ أصحاب التطبيق التعسّفي يُلبسون الحقّ ثياب الباطل، والباطل ثياب الحقّ، ويصبغون الشخصيات التي يُعجبون بها بألوان زاهية فاتنة برّاقة، والتي يبغضونها بألوان سوداء حالكة منفِّرة!!

ولهذه الخطورة نجد الأحاديث تذمّ المفسّرين بالرأي الذين يفسّرون القرآن بغير علم، والذين يفسّرون القرآن بالهوى، فهم يسوِّقون الضلال على الناس بلباس الدين والقرآن، ويصدّونهم عن الهدى بجدران استُلت مادتها من القرآن!!

لذا فمن الأهمية بمكان أن نتحوّل جميعاً إلى تلاميذ متواضعين في مدرسة القرآن، نستنطق آياته ونسترشده؛ ليوضّح لنا ما صفات الظالم المعتدي؟، وما صفات حامل القضية الإنسانية، والمستميت في دفاعه عنها لا عن ذاته؟

وهنا نودّ طرح سؤال هامّ كيلا نسقط في مطبّ التعسّف الذي فيه وقعوا، وهو: ما هي الأسباب والعوامل التي تدفع البعض لإجراء تطبيق تعسّفي لمضامين ومصاديق القرآن الكريم؟

عندما نحاول الإجابة على هذا السؤال سنجد أنّ هناك بعض العوامل حين يغفل الإنسان عنها أثناء تطبيقه فستجرّه إلى إقحام أفكاره الضيّقة في مضمار الأفكار

القرآنيـة المترامية الأطراف، وهذا مـا يقودنا إلى ذكر بعض العوامل التي تجرّ إلى التطبيق التعسّفي.

أسباب التطبيق التعسّفي:

أ- الهوى والشهوات:

فهناك من تدفعه نفســه الملتاثة بالهوى والشــهوات إلى ليّ عنق النصّ؛ ليصبّ في رافدهم المتأثر بمســبقاتهم الفكرية[١]، أو رغباتهم العملية، أو طموحاتهم التي يحملونها بين جوانحهم.

فهاهــو أحدهم يقـف عند قوله تعالـى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْنَ مِـنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْـنَ فُرُوجَهُـنَّ وَلا يُبْدِيـنَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَـرَ مِنْهَا**﴾[٢]؛ ليقول: إنّ ﴿**مَـا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ متغيّر زمني: كان في عصر نزول القرآن يقتصر على الوجه والكفين، وهو اليوم يشــمل ما اعتادت النســوة إظهاره ويشمل الساقين واليدين والشعر وجزءاً من الصدر، وذاك جميعه يجوز النظر إليه**!!**

ولعـلّ هـذا الكاتـب لو واصل الآيـة الشـريفة لرأى مـا يخالف وجهة نظـره تلك، حيث يحثّ القرآن على أن تسـدل النسـوة الخمار على جيوبهن، ويتحلين بضروب العفة الأخـرى حتى في المشـي وعدم الضرب على الأرض ليعلـم ما يخفين من زينة أو ذهب،

---

(١) تؤكد مدرسة (التلقي) المعروفة باسم (استجابة القارئ) أو (موت المؤلف وميلاد القارئ) أنّ لا أحد يدخل النصّ وهو خالي الذهن، وأنّ المتلقي خالي الذهن لا وجود له، وأنّ المتلقي بثقافته وما يخلقه من علاقات جديدة في النصّ - هو الذي يعيد تشكيله وإنتاجه وتفسيره، ومن ثمّ تنقل موضع الثقل الإبداعي الجديد من الملقي (المبدع)، والنصّ (الرسالة)، إلى المتلقي (القارئ).

ونحن حين نتحدث عن المسبقات الفكرية لا نتطلب وجود قارئ خالي الوفاض، وإنّما نقصد أن لا يفرض المتلقي أفكاره المسبقة على القرآن، وأن يكون ذا أريحية تؤهله أن يتقبّل الفكرة القرآنية ولو خالفت قناعاته وأفكاره المسبقة، كما نشير إلى أنّنا نعتبر كلمة (موت المؤلف) مجازية، تعني إمكانية عدم تدخله في تشكيل وتفسير النصّ الذي قدّمه حين وصوله إلى المتلقي، وأنّ ذاك التشكيل دور المتلقي، لا بمعنى الموت الحقيقي الذي يولجنا لمشكلة عقدية عند الكلام عن النصّ الإلهي، ومشكلة واقعية حين نتكلم عن نصّ لمؤلف حيّ.

(٢) سورة النور/ ٣١.

يقول تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

لكنّه لم يفعل ذاك، بل.. تلاعب بمفهوم الثابت والمتغيّر من جهة، وقطع جزءاً من النصّ عن باقي السياق من جهة ثانية، فغدت قراءة كيفية تجزيئية، وغدا القرآن يجيز النظر إلى صدر المرأة وساقيها!!

ب- الجو المحيط:

في كثير من الأحيان تدفع الظروف المحيطة التي يعيشها الفرد إلى قلب المفاهيم والمصاديق القرآنية وصيرورتها نحو تطبيقات تعسّفية بعيدة الدلالة والفهم، فشخص ما.. يعيش في أجواء ثورة سياسية وانتفاضة تغييرية ذات حماسة عارمة لا نتعجب إن فسّر: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[٢]، بأنّ المقصود هو: إذا خرج المتظاهرون لساحة الميدان - بهدير ودويّ - مطالبين بحقوقهم، وأنّ معنى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[٣]، أنّهم أخرجوا معهم اللوائح والشعارات واللافتات التي هي (أَثْقَالَهَا)!!، وحينئذ سيتساءل الصحفيون عن تلك المظاهرة وعن أسباب خروجها وأهدافها وذاك هو المقصود بـ ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾[٤]، وهنا تقوم الطليعة الثورية القائدة للمظاهرة بالإجابة على تساؤلات الصحفيين والمتسائلين ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[٥]، وسوف تخبرهم بأنّ القائد الثوري الملهِم ﴿أَوْحَى لَهَا﴾[٦]!!

وأيضاً لا نتعجب حين نرى شخصاً آخر في مثل تلك الظروف الثورية، وبالذات المنطلقة من مبادئ إسلامية، لا نتعجب إن رأيناه يؤوّل قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ

(١) سورة النور/ ٣١.
(٢) سورة الزلزلة/ ١.
(٣) سورة الزلزلة/ ٢.
(٤) سورة الزلزلة/ ٣.
(٥) سورة الزلزلة/ ٤.
(٦) سورة الزلزلة/ ٥.

كُوِّرَتْ﴾[1]، بأنّ المقصود هو: إذا لفّ ذلك المرجع الديني المهتم بالشأن السياسي عمامتَه!!، وأنّ المراد بـ: ﴿**وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾[2]، أي إذا اضطرب الأمريكان والأعداء وتساقطوا!!

وهكذا دواليك!!، حيث يدفع الظرف الخارجي (السياسي هنا) إلى تطبيقات تعسّفية يستهجنها من لا يعيش في تلك الظروف، بل حتى من يعيش وسطها سيرفضها إن تخلى عنها بعد حين، وانفلت من ربقة ذلك الجو المحيط الصاخب.

ج - البحث عن مستند:

في بعض الأحيان تقدح في ذهن الإنسان فكرة ما..، أو يؤمن بنظرية ما..، يتحمس لها، وتُعجبه تفاصيلها، ولكي يجعل الآخرين مسلِّمين لها - لاسيما الذين يستمدون من الأفق الديني في تشكيل منظوماتهم الفكرية والمعرفية - يسعى إلى البحث عن إطار شرعي يحتضنها، فينطلق لآيات القرآن بحثاً عن عضيد، وتفتيشاً عن مستند.

- فإذا آمن بالنظرية السديمية والأصل الغازي لتشكّل الكون قال: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[3].

- وإذا آمن بنظرية (لابلاس) في انفصال الأرض عن الشمس، أو نظرية (ستيفن هوكينغ) في (الانفجار الكبير) أو (الخبطة العشواء) قال: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾[4].

- وإذا اقتنع أنّ الأرض مسطحة مستوية قال: ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الأبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * .... * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾[5].

وكثيراً ما نلحظ مثل هذا الربط التعسّفي يحدث في الكتب والمناظرات العقدية والمعرفية؛ إذ الكلّ يبحث عن شرعية وعن سبيل للغلبة، و(كلٌّ يجر النار إلى قرصه)، و(يحلب في إنائه)، (وكلّ يدعي وصلاً بليلى)!!

(١) سورة التكوير/ ١.
(٢) سورة التكوير/ ٢.
(٣) سورة فصّلت/ ١١.
(٤) سورة الأنبياء/ ٣٠.
(٥) سورة الغاشية/ ١٧، ٢٠.

د – عصرنة القرآن قهراً:

أمام الفكرة الإسلامية القائلة بأنّ القرآن صالح لكلّ زمان ومكان، وأنّه مثل الشمس تشرق كلّ يوم على جديد، يتحمس البعض لإيجاد معنى ملائم لما توصّل له العلم الحديث في شتى جوانبه المعرفية، وإثبات السبق القرآني لذلك؛ مما يفرز في بعض الأوقات أخطاء كبيرة ومعاني ممجوجة يرفضها الذوق السليم الذي يشعر أنّها مفروضة على النصّ فرضاً قسرياً.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * .... * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[١]. نجد الشيخ طنطاوي جوهري: «يذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، ويذكر من بينها (علم تحضير الأرواح) الذي ظهر أخيراً، والمناسبة التي يستطرد منها إلى هذا البحث هي إحياء الله لقتيل بني إسرائيل لمّا ضُرب بشيء من لحم البقرة التي أُمروا بذبحها.

فيقول: (وأما علم تحضير الأرواح فإنَّه من هذه الآية استخراجه، إنَّ هذه الآيات تُتلى والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً ثمّ بسائر أوروبا ثانياً)، ثمّ ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم، واستغرق ذلك منه خمس صفحات، ثمّ قال:

(ولما كانت السورة التي نحن بصددها، قد جاء فيها حياة العزير بعد موته وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثمّ أحياهم الله، وعلمَ الله أنّنا عاجزون عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة فكأنّه يقول:

إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة من أواخرها، فلا تيأسوا من ذلك، فإنِّي قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٢]، ولكن.. ليكن محضِّر الأرواح ذا قلبٍ نقيّ خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لعلوِّ نفوسهم

(١) سورة البقرة/ ٦٧– ٧٣.
(٢) سورة النحل/ ٤٣.

أريتُهـم بالمعاينة ليطمئنوا. وأنا أمرتُ نبيكم أن يقتدي بهم فقلـتُ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١)، فاقتـدوا بهم في طهـارة القلوب وزوال الرجس من النفوس، فإنَّ هذه إنّما تُعرَف بالتجربة والعمل، لا بالقياس العقلي ولا بالنظر والحدس الفكري)(٢)»(٣).

وفي تعليق على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٤). يقول عبد الرزاق نوفـل: «وهذه الحقيقة العلمية التي يتيه بها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ١٤٠٠ سنة في صراحة ووضوح؛ إذ تقرّر الآية ١٨٩ من سـورة الأعراف أنّ كلّ ما خلق الله إنّما خلقه من نفس واحدة وجعل منها زوجها....، أليسـت هذه هي البرتونات والإلكترونات، .. الكهارب الواحدة موجبة وسالبة، أي النفس الواحدة.. الزوجية الجنس بين موجب وسالب؟!»(٥).

ويبـدو أنّ نوفـل لو تأمل باقي الآية ووقـف عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لما ذهب لما ذهب إليه، فأين ثمة التغشـي - وهو كنايـة عـن الجمـاع -؟، وأين الحمـل والإثقال به؟، وأيـن الولد الصالح الـذي يعدان أن يشكرا الله إن رزقهما إياه؟!

وهناك العديد من النماذج الأخرى التعسّـفية المنطلقة من كون القرآن يصلح لكلّ زمان ومكان، مستدلة بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(٦)!!

ونحن إزاء قناعتنا بأنّ القرآن يجري كما يجري الليل والنهار، وأنّه لابدّ من التعرّف علـى التطبيقـات المسـتجدة مع الزمن الـذي تنطبق عليه نـرى أنّ المشـكلة لا تكمن في محاولة اكتشاف التطبيق، وإنّما المشكلة في التعسّف في القراءة، وعدم الركون إلى دليل وبرهـان مقنع في ذلـك ينجي من الركون للتخرّصات أو القناعـات الذاتية التي لا يؤيدها الدليل.

---

(١) سورة الأنعام/ ٩٠.
(٢) أحمد عمر أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان/ ١٨١ - ١٨٣.
(٣) ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟/ ١١٦.
(٤) سورة الأعراف/ ١٨٩.
(٥) عبد الرزاق نوفل، القرآن والعلم الحديث/ ١٥٦.
(٦) سورة الأنعام/ ٣٨.

٢- الشكل العقلاني:

على الطرف النقيض من التطبيق التعسّفي يوجد التطبيق العقلاني الذي حاول التخلص من الأهواء والشهوات أولاً، ثمّ بعد ذلك حطم القيود الفكرية التي تغلله بها الأجواء المحيطة، ولم يدفعه بحثه عن المستند إلى إقحام الآيات بابتذال غير مسوغ، ولم يجرِ نحو إثبات شمولية القرآن بإسفاف.

وهذا النوع من التطبيق يحاول استدرار ما يمليه القرآن عليه، ويبذل جهده ليفهم ما يريده القرآن بدقة، فهو تلميذ مطيع لأستاذه العظيم.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّه ليس بالضرورة أن يصيب أصحابُ التطبيق العقلاني كبد الحقيقة في فهم القرآن؛ إذ «إنّ للقرآن بطناً وللبطن بطن، وله ظهر وللظهر ظهر»[١]، ولكنّه فهم لم يقسر الآيات على التفسير بالرأي، وسعى للاستفادة من العقل والعلم في التطبيق، ويبقى ذلك فهماً بشرياً قابلاً للخطأ.

وهناك عوامل تؤثر في مفاهيم المفسِّر وتطبيقاته، منها موهبته وثقافته ومحيطه و....؛ لذا فربّما يختلف المفسّرون الواعون في تأويل آيات الله، إلا أنّنا نلحظ أنّهم لا يخدشون الذائقة العلمية في مجمل بحوثهم، ونحن لا نريد أن نقول بأنّنا سنوافق دوماً على تلك التطبيقات التي يأتي بها هذا الشكل العقلاني، فقد تكون تطبيقاتهم زمنية تناسب زمانها لكنّها لا تلغي التطبيقات الممكنة التي تخبِّئها الآية في مستودع الغيب وتنطبق على الأزمنة القادمة، وإنّما نريد أن نقول: إنّها تطبيقات جاءت غير متعسّفة ولم تسعَ للقسر والفرض على القرآن، بل.. جاءت متوافقة مع قناعات المفسِّر أو المتدبر وتصوراته.

وبعبارة مختصرة: إنّنا نرى أنّ منهجها صحيح، وإن أمكن أن يشوب الخطأ نتائجها أو طريقة تصويرها للفكرة.

فمثلاً في قوله تعالى: **﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾**[٢].

تكلّم البعض حول التقاء المياه النهرية العذبة بالبحرية المالحة، وأنّه يوجد في بداية اختلاطهما فاصلٌ تبقى فيه المياه لمسافة معينة حلوة عذبة هو البرزخ الفاصل دون التحوّل

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٩١، الباب ٨، ح ٣٧.
(٢) سورة الرحمن/ ١٩- ٢٢.

المفاجئ للملوحة، وأنّ اللؤلؤ والمرجان لا يوجد إلا في المياه المالحة واستعمال التثنية هنا ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ تغليب لغوي للمالح، والتسمية به كما نقول للأب والأم (أبوان)، وللشمس والقمر (قمران)، مغلّبين لفظ الأب على الأم، والقمر على الشمس، والمقصود (يخرج من أحدهما وهو المالح).

وهي تطبيقات لم تسعَ أن تفرض على النصّ تطبيقات ينفر عن قبولها، وإن كانت محدودة ولم تلمّ بالتطبيقات الكبيرة المختزنة في أحشاء الآيات الشريفة: فقد توصّل العلم الحديث إلى وجود فواصل (برزخ) طولية بين المياه، وأخرى عرضية - تكون نسبة اختلاط المياه فيها غير متمازجة إلى حدّ التلاشي، فضلاً عن اكتشاف عيون عذبة داخل بطن البحار لا يختلط ماؤها بمياه البحر المحيطة بها، وفضلاً عن اكتشافهم (اللؤلؤ والمرجان) حتى في المياه العذبة، مما يجعل التثنية في الآية جارية على معناها الدلالي الحقيقي لا للتغليب اللغوي المتكئ على المجاز.

كيف نستطيع القيام بعملية التطبيق الخارجي؟

حتى نستطيع القيام بعملية التطبيق الخارجي للآيات، ونسعى ألا تكون تطبيقاتنا تعسّفية، نحتاج المرور بمجموعة من الخطوات، منها:

١- معرفة الواقع الموضوعي:

عندما نرجع للمنجز (المتحقّق) الذي حصل أو يحصل في الواقع الخارجي، ونمعن النظر فيه سوف نرى فيه أنواعاً وأقساماً وأسباباً ومظاهر ونتائج.

وهنا نحن نقوم بعملية قراءة للواقع الموضوعي الذي سنعود - فيما بعد - للقرآن الكريم ليعطينا رأيه فيه: قراءة لتلك الأسباب والنتائج والمظاهر وغيرها..

وهذا الواقع الموضوعي على نوعين:

أ - الواقع التاريخي (الماضي):

أي ما حصل في الماضي (ما كان)، كأن نتعرّف على الأفراد أو الأمم أو الشعوب التي تحدّث عنها التاريخ، على نحو ما نرى - مثلاً - مع النبي إبراهيم، أو مملكة سبأ، أو بني إسرائيل.

وسـنجد في ذلك المؤمنَ والكافر، والقوي والضعيف، والظالم والعادل، والقاتل والمقتول، والجشِع والقانع، والصعود والهبوط، والولادة والاقتدار والزوال، و....

ب- الواقع الاجتماعي (المعاصر):

أي مـا يمثل الآن فـي الخارج (ما هو كائـن)، كالذي يجري أمامنـا في مجتمعاتنا ودولنا والعالم من حولنا.

وسـوف نرى في كثير مما حولنا ما رأيناه في الماضي؛ تأسيسـاً على قاعدة «لتتبعُنّ سـنن من قبلكم شـبراً بشـبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سـلكوا جحر ضبّ لسـلكتموه»[١]، الواصفة لما سيكون عليه حال المسلمين، وسندرك أنّ في الفعل البشري كثيراً من التشابه نتيجـة عـوده لطبيعة البشـر ومـا يعتريها من حـالات وصفات وتحولات، ومـا يعتمل في نفوس الناس من صلاح أو ضلال، ومن تقديم القيم والاعتدال، أو التطرف والإسفاف في اللهاث خلف الإرب والمصالح والشهوات، ومن التفتح العقلي وقبول الحقّ والتغيير، أو التحجّر العقلي وتقليد الآباء والماضين ورفض كلّ جديد، ومن البطولة والإباء والتحدي، أو الخنوع والذلّ والاستسلام، ومن النجاح أو الفشل، وغير ذلك..

٢- إنتاج المحتمل الذهني:

وإلـى جانب (معرفة الواقع الموضوعي) نسـعى لإنتاج المحتمـلات الذهنية التي يرفدنا بها التفكير الرياضي والتفكير الاجتماعي.

أما التفكير الرياضي أو التحليلي، فإنّه يُنتج المحتملات الذهنية الممكنة على طريقة شـقين متناقضين يدوران بين الإثبات والنفي (السـبر والتقسـيم)؛ ليقول لنا مثلاً: الإنسان إما كبير أو غيره، والكبير إما متزوّج أو غيره، والمتزوج إما عادل أو غيره. والأخطاء إما أن تنشـأ من الإنسان نفسـه أو من غيره (كأعدائه)، وإما أن تكون قاتلة أو غير قاتلة، منظمة أو غير منظمة، مفاجئة أو غير مفاجئة (معلومة)[٢].

وكمـا يرفدنـا بالمحتمـلات في حياة الفـرد يرفدنـا بالمحتملات في حيـاة الجمع والجماعة والمجتمع والدول؛ ليخبرنا أنّ المجتمعات إما مهتدية أو غير مهتدية (ضالة)،

---

(١) صحيح البخاري، م ٢، ج ٤، ص ٢٠٦، باب (ما ذُكِر عن بني إسرائيل).
(٢) القرآن حكمة الحياة/ ٧٢- ٧٣.

إما عادلة أو غير عادلة (ظالمة)، إما قوية أو غير قوية (ضعيفة).

أي أنّ التفكير الرياضي يعرض لنا (ما يمكن أن يكون)، ويستفيد من نظام (الاحتمال) المستفاد من حقل الرياضيات لوضع أكبر مقدار ممكن من التصورات والفرضيات الممكنة.

وفائدة هذا النوع من التفكير: «أنّه لا يدع واقعة من الواقعات تشرد من فكر الإنسان، كما ويتيح التمييز بين الأنواع المختلفة»[١].

وأما التفكير الاجتماعي أو التركيبي، «فإنّه يقسِّم الأشياء حسب ما تقتضيه الواقعيات الخارجية، وفائدة هذا التفكير أنّه يتحدّث عن ما هو موجود، ولا يتحدّث عن أمور فرضية»[٢].

فهو يقرأ الواقعيات كما هي عليه في الواقع الخارجي دون الإصرار على مبدأ (السبر والتقسيم) النظري المجرّد وثنائياته المعهودة التي تبتغي الحصر العقلي والاختصار أكثر مما تبتغي التتبع الدقيق.

إنّه ينظر إلى المجتمعات القائمة أمامه في الخارج، ويُعمل فيها تفكيره؛ ليتعرّف عليها، فيرى ما فيها من تقسيمات، فمنها الصناعي وشبه الصناعي وغير الصناعي، والمتقدّم وشبه المتقدم والنامي (المتخلف!!)، والآمن والقلِق، والحافل بالإنجاز والذي يعيش على منجزات غيره، والهاوي للمغامرة في سبيل العلم والبليد الساكن، والمنتج للمعرفة والمستهلك لها، والمتداول للسلطة سلمياً والمتداول لها على أنهار الدماء وجماجم الأبرياء، ومن يقدِّر العفة والعرض ومن يسنّ الابتذال ويشرعن الإباحية.

٣- مراجعة النصّ القرآني:

وعندما نستخلص ما خرجنا منه في النقطتين السابقتين سنجد أنّنا وقفنا عند أنواع الوصف الثلاثة:

أ - ما وقع (ما كان).
ب- ما يقع (ما يكون).
ج - ما يمكن أن يقع (ما يمكن أن يكون).

(١) نفسه/ ٧٣.
(٢) نفسه/ ٧٢.

وبعبارة أدقّ: وقفنا عند نوعي الوصف (ما كان، ما يكون)، وعند نوع من التوصيف المحتمل في المستقبل (ما يمكن أن يكون).

وإزاء هذا الكمّ المعرفي والاستشرافي يمكن أن نسبر الأغوار في القرآن الكريم، ونراجع نصوصه الفيّاضة؛ لنستلهم منها العبر والهدى والمعارف تجاه ما بين أيدينا من ركام.

سيعرض لنا القرآن الكريم رأيه تجاه ما رأيناه ومَن رأيناه، في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات، واصفاً ومحلّلاً، ناقداً وموجهاً.

٤- إيجاد التطبيق الخارجي:

وبعد أن نتعرّف على الرؤى القرآنية إزاء ما كان وما يكون وما يُحتمل أن يكون، نطبِّق ذلك على ما نراه في الواقع الخارجي من أفراد ومجتمعات، ونوجِد الموازي المعاصر للنموذج القرآني والرؤية القرآنية.

سنرى أنّ النماذج القرآنية - البشرية والحيوانية والجمادية - موجودة في الخارج في زماننا الحاضر وفي كلّ زمان، وتتجسّد في هذا وذاك.

فسنرى أنّ أفراداً مثل: (إبراهيم) و(النمرود)، و(هابيل) و(قابيل) موجودون في زماننا، يعملون ويتحرّكون.

كما سنرى أنّ مجتمعات مثل: بني إسرائيل، مجتمع شعيب، أصحاب الأيكة، قوم لوط، موجودة في الواقع الخارجي سواء كانت بمستوى مماثل أو مقارب أو مضخم، على نحو الاستقلال للقيمة الأخلاقية التي عرفوا بها أو على نحو تداخل القيم وأخذهم بتلك القيم المدمرة مع قيم أخرى.

كما سنرى أنّ أشياء مثل: (العجل) الذي عبده بنو إسرائيل من دون الله، و(سد مأرب) الذي اعتصمت به حضارة سبأ، و(الأموال والكنوز) التي اعتزّ بها قارون، وغير ذلك.. هي الأخرى لا زالت موجودة في الخارج تعمل وتتحرّك!!

الحركات الثلاث:

وإذا أردنا الاستفادة من المنطق ومصطلحاته وتقسيماته فما مضى يعني أنّنا حتى نصل إلى التطبيق وحكمه، نحتاج إلى القيام بثلاث حركات:

١ـ الحركة الذاهبة:

وهـي حركة تقرأ الواقع الخارجي، وتتعرّف علـى ما فيه، ثمّ تذهب بما تختزنه إلى القرآن الكريم ليعطي رأيه.

٢ـ الحركة الدائرة:

وهـي حركـة تجول في القـرآن ذاته، وتبحث فيه عن مثيل ومشـابه لمـا وجدته في الواقع الخارجي.

٣ـ الحركة الراجعة:

وهي حركة تعود من القرآن للواقع الخارجي؛ لتحكم عليه، بعد أن عرفت المماثل والشبيه، وما يناسبه.

وقـد تبدأ (الحركـة الذاهبة) منطلقة من القرآن وما فيه من مفاهيم ونماذج، وتنطلق نحو الواقع الخارجي لتفتش فيه عما ينطبق عليه ذلك (الحركة الدائرة)، وبعد أن تجد ذلك في الواقع الخارجي، تقفل راجعة إلى القرآن ليعطي حكمه ورأيه (الحركة الراجعة).

أنواع التطبيقات الخارجية:

بإمكاننا إجراء عدة تطبيقات خارجية مستوحاة من القرآن الكريم، تتشعب بتشعب أنواع المعرفة العلمية، ولئلا نقع في مطبّ التكرار سنحاول أن نذكر تطبيقات جديدة غير تلك التي سبقت في (مناهج تفسير القرآن الكريم):

١- التطبيق التربوي:

يحـاول هـذا التطبيـق أن يسـتخرج المبـادئ التربويـة المناسـبة للفـرد والجماعة والمجتمع، ولاسيما نقطة التقاطع في حياة الشخص والآخرين، وذلك إما بضرب نماذج بشرية سابقة تجذِّر الحسّ التربوي لدى الفرد، أو بعرض رؤى وبصائر يستقي منها الإنسان ما يود منه القرآن أن يكون عليه.

قـال تعالـى فـي معـرض حكايته عـن النبـي يوسـف عليه السلام، وإلحاح إخوتـه على

أبيهم ليأذن لهم باصطحابه معهم، عارضين إشباعهم كلّ أشكال الحاجة لديه، إذ قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. فهنا نستطيع إنشاء قاعدة تربوية عامة نستوحيها من أحداث هذه القصة؛ لندرس (حاجات الطفل).

وهذا تطبيق خارجي في الأفكار لا في الأشخاص، فحينما ندرس الطفولة المهدورة في عالمنا اليوم، ونريد أن نعرف ما هو العمل إزاءها؟، وأيّ حاجات تلك التي تتطلبها هذه المرحلة؟، سندرك - من الآية - أهمية أمور أربعة:

أ- الغذاء:

وتحمله كلمة: ﴿يَرْتَعْ﴾ المشيرة لغوياً وتفسيرياً إلى الأكل والشرب من جهة، والسعي والانبساط والتنزه والراحة النفسية من جهة ثانية[2].

فالأكل والشرب من الخضرة المتواجدة هناك لاسيما في الرّيف الخصب في فلسطين حاجة مادية تتوقف عليها صحة الطفل ونموّه الجسمي.

ب- الراحة النفسية:

وقد أشرنا في الفقرة السابقة إلى أنّ كلمة (يرتع) تختزن في داخلها معنيين هما: (الأكل، والانبساط).

فالطفل يحتاج إلى التنزه بما يحقق له الراحة النفسية والانبساط النفسي، حتى يغالب حالة الغبن النفسي والكدر الداخلي الذي قد يسبّبه تواصل مكثه في المنزل.

ج- اللعب:

وتختزنه كلمة: ﴿وَيَلْعَبْ﴾، فهناك نزعة فطرية وحاجة نفسية بالغة لدى الطفل للقفز والمرح واللعب الذي يسهم في تعرّفه على الأشياء، وإمضاء شيء من الوقت، والإسهام في تحقيق الراحة النفسية.

---

(١) سورة يوسف/ ١٢.

(٢) لسان العرب ٥/ ١٣١، مادة: (رتع)، والميزان في تفسير القرآن ١١/ ٩٧، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٧/ ١٣٢، ١٣٥.

د- الأمن:

وتذكره عبارة: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾؛ إذ إنّ الطفل لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمام المخاطر الخارجية المحدقة به، فيحتاج إلى توفير المناخ والملاذ الآمن له.

وهكذا نلحظ أهمية التطبيق التربوي الذي يكشف لنا أسراراً تربوية قبل نظريات العلم الحديث.

٢- التطبيق الاجتماعي:

في هذا النوع من التطبيق يسعى المتدبر إلى تتبّع العوامل الاجتماعية، والقواعد التي تحرّك المجتمع وتؤثر فيه، والسنن الناظمة لحركة المجتمعات. فما هي حوافز التوافق الاجتماعي بين الناس؟، وما أسباب النزاع بينهم؟، كيف يُحَلّ السِلم الاجتماعي؟، وكيف تخيّم الحرب ويسود الاحتراب؟، وما عناصر نهضة المجتمعات؟، وما عوامل سقوطها؟. وكلّها مسائل غاية في الأهمية، نستطيع عبر التطبيق الاجتماعي الخلوص لبعض نتائجها.

يقول الله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾(١).

نحن اليوم حين ندرس المجتمعات البشرية، ونلحظ ما يعتريها من مشاكل وهموم، ونتساءل: ما هي عوامل الاستقرار الاجتماعي؟، كيف نستطيع أن نحوّل الحياة إلى عيشة رغيدة، عيشة لا تعكرها النزاعات والمشاحنات؟

قد تجيبنا هذه الآية الشريفة التي تعرض لنا مجموعة من تلك الأسس، فقد أتت على خمسة أركان أساسية للمجتمع هي:

أ- المكان: فلابدّ من وجود أرض يعيش عليها المجتمع، ويشيد بها منازله ومصانعه ومؤسساته، وذلك في قوله: ﴿**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً**﴾.

ب- الأمن: فما فائدة بلدة يسودها العدوان والإرهاب والخوف والاضطراب؟، إنّ فقدان المجتمع للأمن الداخلي يزرع فيه قطّاع الطرق واللصوص والجرائم، وفقدانه

(١) سورة النحل/ ١١٢.

للأمن السياسي يقذف في داخله القلق، وفقدانه للأمن الخارجي يعرّضه لاعتداء الآخرين والسلب والنهب والذلة التي تجلبها الحرب والغزو وسيطرة العدوّ؛ لذا يصف الله القرية بقوله: ﴿آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾.

ج – **الرغد الاقتصادي**: بلدة آمنة من دون مادة واقتصاد لا يستقيم شأنها، بل تعيش الجوع والسغب، الأمر الذي سيحفّز فيها الرغبة على الرحيل من ذلك المكان؛ لهذا قال تعالى مواصلاً: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، وفضلاً عن إشارة الآية إلى كون الرغد الاقتصادي أحد عوامل استقرار المجتمع تشير إلى لزوم التبادل الاقتصادي وتنمية علاقاته مع الآخرين.

د – **القيم**: الأمر الذي يشجع على الأمن والرغد هو القيم، ولا فائدة من بنيان وأمان واقتصاد دون أخلاق فاضلة تحكم الناس فيه، فتحوطهم بالمودة والرحمة والتآخي، بل حين لا تسود هذه القيم يحلّ الجوع (انعدام الاقتصاد)، ويحلّ الخوف (انعدام الأمن)، كما يشير قوله سبحانه: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

هـ – **الفعل الإنساني**: فاستقرار المجتمع يحتاج إلى عمل وفعل وأخذ بالأسباب، وليس مجرّد ركون إلى غيب أو أمان تدغدغ القلب، والفعل البشري هو جالب الخير والشرّ للمجتمع، النفع والضر؛ لذلك ذيّل الله الآية بقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾، فانقلاب صورة ذاك المجتمع جاءت بسبب سوء فعله، الذي يستحضر في أحشائه أنّ استقرارهم – هو الآخر – كان من أسبابه فعلهم الرشيد السابق.

وقد ذكرت سورة (قريش) اثنين من هذه الأسس مكنا أن تنشأ مدينة مستقرة في (مكة) في زمن كان جلّ العرب من البدو الرحّل، وهما: الرغد الاقتصادي، والأمن، فقالت: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[1]، بالإضافة إلى أساس ثالث هو المكان الذي تشير إليه تلميحاً قوله: ﴿هَذَا الْبَيْتِ﴾ الذي يعني البيت الحرام والكعبة الذي حظوا بشرف مجاورته، ونعموا بمسير العرب إليه، ومن ثمّ تنشيط حركة التبادل التجاري وغيره مع الوافدين.

وليكتمل التوازن في المعادلة، ويُوفَّر العنصر الأهم في الاستقرار الاجتماعي – وهو القيم – أمرهم الله بتحقيقها فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾، فعبادة الله هي المركز الذي تترشح

(١) سورة قريش/ ٣- ٤.

منه دائرة القيم، وبهذا يكون الأساسَ الرابع الذي تذكره الآيات الكريمة.

ويمكن أن نلتمس الأساس الخامس في قوله تعالى في صدر السورة: **﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ﴾**(١)، الذي يستحضر فعلهم ودورهم البشري في ذلك الإيلاف، ورحلتي التجارة التي كانوا يقومون بهما إلى الشام واليمن.

ومثل هذا قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾**(٢)، فقد استخرج السيّد الشهيد الصدر منها عناصر المجتمع في القرآن الكريم (أو عناصر الاستخلاف في الأرض) وهي:

أ- الإنسان (المستخلَف) أو (الخليفة): **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**.

ب - الأرض أو الطبيعة (المستخلَف عليه): **﴿فِي الأَرْضِ﴾**.

ج - العلاقة التي تربط الإنسان بالأرض وبالطبيعة وبأخيه الإنسان (الاستخلاف) أو (العلاقة المعنوية): **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**.

د - الله (المستخلِف): **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ....﴾**، ففي النظرة الدينية تُستلهم عناصر الاستخلاف من الله(٣).

فهذه بعض التطبيقات التي يعرض لنا القرآن الحكيم من خلالها شيئاً من القوانين الاجتماعية في أسس الاستقرار والاستخلاف.

٣- التطبيق الاقتصادي:

يرى البعض أنّ الاقتصاد - في وقتنا الحاضر - عصب الحياة، وأنّه الذي يركّع الدول، وأنّه قائد السياسة.

وقد كان لهذا العصب أن فرز الدول بين غنية تنعم بالرفاه، وفقيرة تحنّ إلى قصعة من الخبز، وترك فرائصها ترتعش أمام مارد الجوع العتيد الذي يحتوش قارات بأسرها

---

(١) سورة قريش/ ١- ٢.

(٢) سورة البقرة/ ٣٠.

(٣) المدرسة القرآنية/ ١٢٥- ١٢٨.

بمخالبه الفتاكة، ويجتاح دولها ليخلّفها قاعاً صفصفاً، تعيش على الاستجداء، وترزح تحت نير الفقر والتخلف، إنّه الفقر الذي يقول عنه رسول الله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً»(١)، «الفقر أشدّ من القتل»(٢)، والذي يصفه أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: «الفقر الموت الأكبر»(٣).

وأمام الأزمات المادية التي تعصف بالمجتمعات البشرية، من الجدير بنا أن نتساءل بصدق: ما هو السبيل إلى حلّ هذه المشكلات؟، ثمّ نبحث في كلّ ما من شأنه أن يوفر الرفاه والنعيم، ونعمل به.

وفي القرآن الكريم - الدستور الخالد - آيات تحدّثت عن الفقر والغنى والمشكلة الاقتصادية، ينبغي أن ندرسها لا كآيات مقدّسة ننال بقراءتها الثواب، ولا كمفاهيم نظرية لا صلة لها بالواقع المعيش، بل كطرح عملي رشيد؛ فنبتعد عن أسباب التردي الاقتصادي، ونأخذ بسبل الرفعة.

يقول الله تعالى: ﴿**اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾(٤).

من منطلق هذه الآيات يرى السيّد الشهيد الصدر أنّ سبب المشكلة الاقتصادية ليست قلة الموارد الطبيعية - كما تعتقد الرأسمالية -، وليست التناقض بين شكل الإنتاج وعلاقات التوزيع - كما تعتقد الماركسية -، وإنّما المشكلة هي - قبل كلّ شيء - مشكلة الإنسان نفسه، فـ «الله تعالى قد حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح كلّ مصالحه ومنافعه، ووفر له الموارد الكافية لإمداده بحياته وحاجاته المادية..، ولكنّ الإنسان هو الذي ضيّع على نفسه هذه الفرصة التي منحها الله له؛ بظلمه وكفرانه ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾. فظلم الإنسان في حياته العملية، وكفرانه بالنعمة الإلهية، هما السببان الأساسيان للمشكلة الاقتصادية في حياة الإنسان، ويتجسّد ظلم الإنسان على

(١) بحار الأنوار ٦٩/ ٣٠، الباب ٩٤، ذيل الحديث ٢٦.
(٢) نفسه ٦٩/ ٤٧، الباب ٩٤، ح ٥٨.
(٣) نفسه ٦٩/ ٤٥، الباب ٩٤، ح ٥٤.
(٤) سورة إبراهيم/ ٣٢- ٣٤.

الصعيد الاقتصادي في: سوء التوزيع، ويتجسّد كفرانه للنعمة في: إهماله لاستثمار الطبيعة وموقفه السلبي منها. فحين يُمحى الظلم من العلاقات الاجتماعية للتوزيع، وتُجنَّد طاقات الإنسان للاستفادة من الطبيعة واستثمارها؛ تزول المشكلة الحقيقية على الصعيد الاقتصادي»[١].

ولنقف قليلاً عند هذين السببين:

أ- سوء التوزيع:

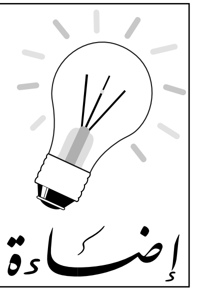
وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ**﴾، فعدم العدل في توزيع الثروات والموارد الاقتصادية هو أحد أهم الأسباب الجائرة التي تفرز الضياع والحرمان.

فقلة من الناس أغنياء تستبد بالثروة، وتسرق خيرات الناس، لتتقلب في بحبوحة العيش، بينما يطحن الجوع الآخرين، ويفتت عظامهم.

وهذا العمل نفسه هو ما قام به الاستعمار حين قسّم الوطن الإسلامي الكبير ومزّقه إلى دويلات غير متجانسة، بعضها يرقد على ثروات هائلة وسكانه قليلون (وفرة في الموارد، وقلة في السكان)، والآخر يطحنه الفقر ويغصّ بتضخم سكاني (قلة في الموارد، ووفرة في السكان)، كما قام بخلق الطبقية في المجتمعات التي استعمرها، فبنى فيها قلة (إقطاعية) إلى جانبها بحر من الفقراء، فضلاً عن أنّه سرق ثروات هذه الشعوب ورحل بها إلى بلاده، وهي في بلاده تحت تصرّف قلة بطِرة!!، ومن هذا نشأ تقسيم العالم إلى (دول متقدّمة، ودول شبه متقدّمة، ودول نامية).

إنّه الظلم وسوء التوزيع الذي ذكرته الآية الكريمة، وذكره علي عليه السلام في قوله: «إنّ الله – سبحانه – فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتِّع به غني، والله – تعالى – سائلهم عن ذلك»[٢].

(١) السيّد محمد باقر الصدر، اقتصادنا/ ٢٢٣.
(٢) نهج البلاغة/ ٥٣٣، قصار الحكم، الحكمة ٣٢٨.



الترف عند العباسيين

في زمن الدولة العباسية، حيث كان يكفي الأسرة المتوسطة خمسة وعشرون درهماً شهرياً، أيّ أقلّ من درهم لليوم(١)، وحيث كان من يملك ٧٠٠ دينار يُعدّ صاحب ثروة كبيرة(٢)، وحيث بلغ دخل العراق عام ٢٤٠هـ ٧٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي سنة ٢٨٠هـ وصل دخل جزء منه إلى ٢,٥٢٠,٠٠٠ دينار، ووصل عام ٣٠٦هـ إلى ١٤,٨٢٩,٨٤٠ ديناراً(٣).

في هذا الزمن يمكن أن نقرأ المشاهد التالية:

- تركة المنصور العباسي بلغت ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار، و ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم(٤).
- طرب الأمين يوماً لغناء إسحاق الموصلي فأعطاه ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم(٥).
- فرّق المأمون في ساعة واحدة في أحد الأيام ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم(٦).
- عام ٢٠٢هـ تزوّج المأمون بـ(بوران) بنت وزيره (الحسن بن سهل)، فكان مهرها ١,٠٠٠ ياقوتة، وأوقد شموع العنبر في كلّ واحدة ١٠٠ مَنّ، وبسط لها حُصُراً منسوجة بالذهب مكلّلة بالدرّ والياقوت، وأعدّ من الحطب لليلة الوليمة نقل ١٤٠ بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات في كلّ يوم، وفني الحطب لليلتين، وأمر بنقل خواصّ الناس من بغداد عبر دجلة إلى قصور المُلك فأحضرت ٣٠,٠٠٠ سفينة لذلك. ووزع والد (بوران) على الحاشية رقاعاً بأسماء كثير من الضِيَع وبدراً في كلّ واحدة ١٠,٠٠٠ دينار، وحين جلس المأمون لبوران نثرت عليها جدّتها ١,٠٠٠ درة(٧).
- كان المأمون ينفق على طعامه يومياً ٦,٠٠٠ دينار، وضمّت مائدته ذات يوم ٣٠٠ لون من الطعام(٨).

---

(١) الدكتور شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني/ ٦٢.
(٢) نفسه/ ٦٢.
(٣) نفسه/ ٥٣.
(٤) لدكتور شوقي ضيف، العصر العباسي الأول/ ٤٥.
(٥) نفسه/ ٤٦.
(٦) نفسه/ ٤٧.
(٧) مقدّمة ابن خلدون/ ١٧٣، والعصر العباسي الأول/ ٤٨- ٤٩.
(٨) نفسه/ ٥٣.

- أمر المأمون يوماً لكلٍّ مِن: ابنه العباس، وأخيه المعتصم، وعبد الله بن طاهر بـ ٥٠٠,٠٠٠ دينار[١].
- كان المعتضد والمقتدر يصرفان ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً على دارهما، وكان الراضي يصرف ٣,٠٠٠ دينار يومياً على دار الخلافة[٢].
- قصر (الثريا) كلّف المعتضد ٤٠٠,٠٠٠ دينار[٣].
- بدّد المقتدر العباسي ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار[٤].
- بعض قصور العباسيين تضم ٤٠٠ حمّام[٥].
- كان عند المكتفي ٢٠,٠٠٠ حارس، و١٠,٠٠٠ خادم، وعند المقتدر ١١,٠٠٠ خادم، و٥,٠٠٠ حارس للنوبة، و٨٠٠ فرّاش[٦].
- زوّج المكتفي ابنه أبا أحمد من بنت عبيد الله بن القاسم بصداق قدره ١٠٠,٠٠٠ دينار، وأنفق على عزيمة الزواج أكثر من ٢٠,٠٠٠ دينار[٧].
- بنى المتوكل له ٢٠ قصراً، أنفق عليها ٢٧٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وكلّفه بناء قصر واحد منها اسمه (البرج) ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار[٨].
- أنفق المتوكل على حفل ختان ولده المعتز ٨٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم[٩].
- وكان المستكفي الذي لم تدم مدة خلافته إلا سنة وأربعة أشهر يملك ٤,٠٠٠,٠٠٠ ثوب[١٠].
- تركة علي بن أحمد الراسبي (أحد وزراء العباسيين) كانت ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار، ومن الذهب والفضة ١٠٠,٠٠٠ دينار، و١,٠٠٠ ثوب خزّ، و١,٠٠٠ فرس، و١,٠٠٠ بعير، و١,٠٠٠ بغل، وكان لديه ٨٠ مصنعاً لتفصيل ثيابه[١١].

---

(١) العصر العباسي الأول/ ٤٧.
(٢) العصر العباسي الثاني/ ٥٤.
(٣) نفسه/ ٥٦.
(٤) نفسه/ ٥٤.
(٥) نفسه/ ٥٦.
(٦) نفسه/ ٥٤.
(٧) نفسه/ ٥٧.
(٨) نفسه/ ٥٥.
(٩) نفسه/ ٦٨.
(١٠) السيّد محمد مهدي الشيرازي، لماذا يحاربون القرآن؟/ ٤٥.
(١١) العصر العباسي الثاني/ ٥٨.

ب- إهمال استثمار الطبيعة:

وهـو السـبب الرديف لمشـكلة الظلم، ويشـير إليه قولـه تعالى: ﴿كَفَّـارٌ﴾، فحين لا يعلـم المجتمـع بالمخزون المتوفـر لديه من المواد الخـام، والغاز الطبيعـي، والنفط، والأرض الخصبـة، وغيرهـا من المـوارد المتواجدة فـي البلاد..، عندما يجهل الإنسـان بقيمة ما يملك، أو يترك استثماره، ويتعدى عليه بالتدمير؛ سيبقى يراوح مكانه ليجرّ خطى الجوع والفقر دون التغلب عليها.

ونحـن بعـد أن نقـوم بالتطبيـق الخارجـي الاقتصـادي المنطلق من مبـادئ القرآن سنستطيع تشخيص المعضلة، ووضع البرامج العملية التي عبرها نتمكن من إزالة - أو لا أقل تخفيف - الضائقة الاقتصادية التي تعشعش في أوساط الشعوب.

٤- التطبيق السياسي:

يحسـب البعض أنّ الإسـلام لا سياسـة فيه، وأنّـه مجرّد نظام روحـي؛ إما لأنّه جاء مـن أجـل هداية النـاس روحياً إلى اللـه والتركيز علـى الثوابت في حياة الإنسـان كالدين والأخـلاق، أمـا المتغيّـرات - ومنهـا الأمـور السياسـية - فقد تركها لإسـهامات البشـر المتغيّرة. وإما لأنّ السياسة وساخة وقذارة لا تقوم إلا على الخُداع والنفعية والتخلي عن القيم والمبادئ، ولا ينبغي للدين الحنيف أن يلطخ يديه بأوساخها!!

وهاتـان الفكرتـان تنبنيان علـى أحد موقفين من السياسـة: فإما أنّ هناك سياسـات عادلـة وصالحة، لكـنّ طبيعة الدين روحية دينية لا صلة لها بالأمور الدنيوية - كالسياسـة -؛ لذلك أوكلها للناس، وهذه وجهة نظر الاتجاه الأول من الاتجاهين السابقين. وإما أنّ السياسـة لا تكون إلا (نجاسة)؛ لذلك ترفّع الدين عن تدنيس ثوبه بها!!، وهي وجهة نظر الاتجاه الثاني.

يقول الشيخ محمد عبده:

«أعوذ بالله من السياسـة، ومن لفظ السياسـة، ومن معنى السياسة، ومن كلّ حرف يُلفـظ من كلمة السياسـة، ومن كلّ خيال يخطر ببالي من السياسـة، ومـن كلّ أرض تُذكر فيها السياسـة، ومن كلّ شـخص يتكلّم أو يتعلّم أو يجنّ أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس!!»[1].

(١) الشيخ محمد عبده، الإسلام والنصرانية/ ١٠٠- ١٠١.

ووجهة النظر هذه – في شكليها – تخالف البصائر والرؤى القرآنية والحديثية التي تعدّ ذلك من شؤون الأنبياء والمعصومين عليهم السلام، وتتحدّث عن شؤون الدولة الإسلامية، وتحارب الطاغوت الخارجي موازاة لمحاربتها للجبت الداخلي، وتحمِّل الإنسان دوره تجاه ما حوله من عدل وظلم وإصلاح، فضلاً عن إقامة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم للدولة، وتحقيقها على أرض الواقع والفعل، وأنّ شؤون الإنسان لا فرق فيها بين القلبي الروحي والسياسي والاجتماعي، وأنّ الإسلام لا يقبل أن يترك شؤون العباد والبلاد تحت تصرّف ريح عاصف هوجاء..

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلّما هلك نبي خلفه نبي»[(١)]، ويقول الإمام الهادي عليه السلام في (الزيارة الجامعة): «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة....، وساسة العباد، وأركان البلاد»[(٢)].

إنّ جهل سراة الأمة بالسياسة وابتعادهم عن دائرة الفعل والحِراك الاجتماعي يسلم البلاد للفوضى أو يمهِّد الطريق ليقفز إلى سدة الحكم نفعيون وصوليون لا مانع عندهم أن يدوسوا القيم بأرجلهم ويسحقوها إن خالفت مبتغاهم ومصالحهم، ويؤدي في كثير من الأحيان أن تنحني الأمة لمن ينهب خيراتها ويسرق مدخراتها، وتسير خلفه ليوردها المتاهات، ويقحمها الهلكات، وتقتنع كثير من قطاعاتها أنّ السياسة لا يناسبها المتقون، فالناس لا يخضعون إلا للقوي القادر على فرض النظام ولو بالقوة والخداع (إنّما العاجز مَن لا يستبد)[(٣)].

* ومَنْ لا يذذْ عنْ حوضِهِ بسلاحِهِ يُهدَّمْ، ومَنْ لا يظلم الناسَ يُظلمِ[(٤)]
* الظلمُ مِنْ شيمِ النفوسِ، فإنْ تجدْ ذا عفةٍ، فلعلةٍ لا يظلمُ[(٥)]

وفي واقعنا المعاصر الذي (تشابه فيه البقر!!) لا يستطيع البعض أن يميّز من هو الحاكم العادل؟، وما صفاته؟، ومن هو الطاغية؟، وما صفاته؟، إنّه يظنّ أنّ الحاكم ما دام يصلي ويصوم فهو مظهَر العدالة والإيمان، وإذا أجرى بعض الإصلاحات (الفُتاتية) ظنّه

---

(١) صحيح البخاري، م ٢، ج ٤، ص ٢٠٦، باب (ما ذُكر عن بني إسرائيل).
(٢) السيّد محمد مهدي الشيرازي، الدعاء والزيارة/ ٨٦٥.
(٣) عمر بن أبي ربيعة، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد/ ٣١٣، وهذا عجز بيت صدره (واستبدتْ مرة واحدة).
(٤) الخطيب يحيى بن علي التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق: عبد السلام الحوفي/ ١٥١، من قصيدة زهير بن أبي سلمى المزني.
(٥) أبو الطيّب المتنبي، ديوان المتنبي، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي ٢/ ٣٨٣.

قد بلغ قمة هرم العدل والفضل، وتسنّم سدة العظمة والمجد، حتى لو كان يغدر ويفجُر، ويعربد في لياليه الحمراء، وحتى لو أرهقه الترف والبذخ في حين يترنح أهل بلاده من لكمات المرض وعضّ الجوع وسياط الفقر، ولا يتحرّج معها من خلع أسنى الألقاب عليه، فهو (أمير المؤمنين) أو (ولي الأمر)، وفعله هو (الدهاء) و(السياسة)!!

إنّنا – هنا – أمام أزمة حقيقية تكمن في اختلاط المفاهيم وخطأ التطبيقات، وعدم معرفتنا لمعايير الحاكم العادل ومواصفات الدولة العادلة والسياسة الرشيدة وحقوق الراعي والرعية، وجهلنا بسمات العادل والطاغوت، ومن ثمَّ عيشُنا في الغبش والمتاهة؛ لذا علينا أن نؤوب للقرآن ونستخرج منه التطبيقات السياسية الصحيحة، وصفات الحاكم العادل الصالح المتمثّل – تاريخياً – في ذي القرنين وداوود وسليمان والرسول الأكرم ﷺ، وكذلك صفات الظالم الغاشم المتمثل – تاريخياً – في فرعون ونمرود وغيرهما، ثمّ نطبّقه على عالمنا اليوم؛ لنكتشف التطبيق الموازي لذلك في حاضرنا الاجتماعي، أي لنتعرّف على النموذج المعاصر لنا.

إنّ (نمرود) أو (فرعون) ليسا شخصين يجسّدان حالة حصلت ولا تتكرّر في التاريخ، وإنّما يعبّران عن ظاهرة تمدّ ظلالها السوداء الحالكة لتشمل أشخاصاً في أزمنة أخرى ودول أخرى..، فإذا بهؤلاء الأشخاص المشابهون يمثّلون فرعون زمانه ونمرود زمانه، وهذا هو الحُكم الذي يلفّ بخرقته السوداء معاوية ويزيد بن معاوية والحجاج، وأبا العباس السفاح، وهارون (الرشيد!!)، والمتوكّل، كما يلف جنكيز خان، وهولاكو، ولينين واستالين وهتلر وصدام!!. إنّه الخيط الموحِّد لرتل يمتدّ من أول ظالم للبشرية إلى آخر متفيء لعرش الظلم، منذ بدء الخليقة إلى أن تقوم الساعة، فكلّ من كوى ظهورها بميسمه فهو فرعون وإن تغيّر زمانه أو مكانه، مظهره أو دينه.

يقول تعالى: ﴿**فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾[١]، وقال تعالى ناقلًا حديث فرعون لقومه: ﴿**فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾[٢]!

عندما نجري منهجية التدبر الموضوعي مرتكزين على هاتين الآيتين، وداعمين لهما من آيات أخرى؛ يمكن أن نستخرج رؤية نتلمّس فيها شيئاً من (صفات الطاغية)، لنتمكن من تمييزه اليوم، وهي:

(١) سورة يونس/ ٨٣.
(٢) سورة النازعات/ ٢٤.

أ - الظلم الاجتماعي:

فالطاغية - حتى يستقيم حكمه له - يسنّ سياسة (فرّق.. تسد) بين فئات المجتمع، ويستعبد شعبه، ويوغل في القتل وسفك الدماء وانتهاك الأعراض، ويغيّب المناوئين له في غيابات السجون، ويصبّ عليهم فنون العذاب المرير، وينتزع حياتهم بمشانقه وسيوفه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١]، ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٢].

وإذا كان ذاك قبل شروع موسى في رسالته، فقد سنّ فرعون سياسة التعذيب والسجن والقتل في مجتمع بني إسرائيل بعد إيمانهم بموسى، وراح هو والملأ المحيطون به ينكلون بهم: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[٣]، ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾[٤]، ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾[٥].

ب- التعالي والتكبر:

وهو ديدن الجبابرة، إنّهم يرون أنفسهم أرفع شأناً من الآخرين، فالناس مجرّد حشرات حقيرة أمام ذواتهم المقدسة، فهم السادة الذين يملكون الأرض، ومَن على الأرض، وما على الأرض، وهذا ما وصف الله به فرعون بقوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[٦]، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾.

وهذا التعالي والتكبر واحد مما يسوّغ لهم الظلم الاجتماعي، فهم لا يرون شيئاً يُعبأ

---

(١) سورة القصص/ ٤.
(٢) سورة الشعراء/ ٢٢.
(٣) سورة يونس/ ٨٣.
(٤) سورة طه/ ٧١.
(٥) سورة الفجر/ ١٠.
(٦) سورة الزخرف/ ٥١.

به اسـمه الناس أو المجتمع متى ما كانت مصلحتهم في سـحقه وإذلاله، إنّهم مسـتعدون حتى يبقى كرسـيهم أن يمارسـوا (سياسـة الأرض المحروقة)، ويهلكوا الحرث والنسل، ويختزلون كلّ الشيء حتى الدولة في ذواتهم، ليصيح أحدهم قائلاً: (أنا الدولة)[١]!!

بـل.. وقـد ترتقي صفـة التعالـي والتكبر عنـد الطاغيـة ليتعالى حتى علـى القانون والديـن والقيم فيرى نفسـه فوق ذلك كلّـه: فيتعالى على الله وقيمـه: **﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾**[٢]، ويكذب بآيات الله: **﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾**[٣]، **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾**[٤]، وينكر يوم الحساب: **﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾**[٥].

ثـمّ تتضخـم الأنا عنده حتى لا يعود فوق القانون والقيم فحسـب، بـل.. ينازع الله رداء الربوبية والألوهية: **﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * .... * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾**[٦]، **﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾**[٧].

ج- الإسراف:

مـن يقتنـي ما لا يملك لن يهتـم بما ينفق، ولن يعير بالاً في أيّ شـيء يصرف ذلك المال، فهو لا يشـعر بمقدار الجهد الذي بذلته الأيدي العاملة في اسـتخراجه، فالإسراف لـم تكن ميزة فرعون وحسـب، وإنّمـا هي ميزة الطاغوت على مـدار العصور، فنلحظ في هـذا الزمن – على سـبيل المثـال – كم يترف كثير من السياسـيين المتنفذيـن في بحبوحة من العيش الرغيد حيث القصور الفارهة والبسـاتين الباذخة، يُجلب إليهم أصفى الشراب وأفضل الغذاء وأغلى اللباس.

---

(١) كلمة تُنسب إلى لويس الرابع عشر أحد ملوك فرنسا، الذي عاش بين (١٦٣٨– ١٧١٥م)، انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٧/ ٣٣٤.

(٢) سورة الدخان/ ١٩.

(٣) سورة القمر/ ٤٢.

(٤) سورة النمل/ ١٤.

(٥) سورة غافر/ ٢٧.

(٦) سورة النازعات/ ١٧، ٢٤.

(٧) سورة الشعراء/ ٢٩.

إنّ مجرّد زيارة يقوم بها حاكم أو وزير لإحدى مناطق بلاده قد تستنزف سيولاً من الأموال المهدرة على (مكيَجة الشوارع) والعزائم الخرافية والاحتفالات الحماسية الصاخبة والهدايا السَّنية، في حين يرزح أكثر سكان تلك المنطقة تحت وطأة الجوع والفقر والحرمان، فضلاً عما يقوم به البعض من هدر الملايين على رحلات الصيد والقنص واللهو العابث ومحافل الغناء والرقص والمجون. إنّها سمات الطاغوت، إنّه يهدر خيرات البلاد والعباد، ﴿**وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾.

د- التضليل الإعلامي:

وحتى لا يتّبع الناس الحقّ وينفضوا عن الطاغية الظالم يسخِّر آلته الضخمة وأجهزته للتعبئة الإعلامية التي تصبّ في خانة (الزعيم الأوحد) ومواهبه الخارقة وإنجازاته الباهرة - من جهة -، والوقوف ضد المصلحين، ومقاومة الفكر المناوئ وتسخيف طروحاته، من جهة ثانية.

فهاهو فرعون قد رأى من موسى الآية الكبرى، ﴿**فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾[1].

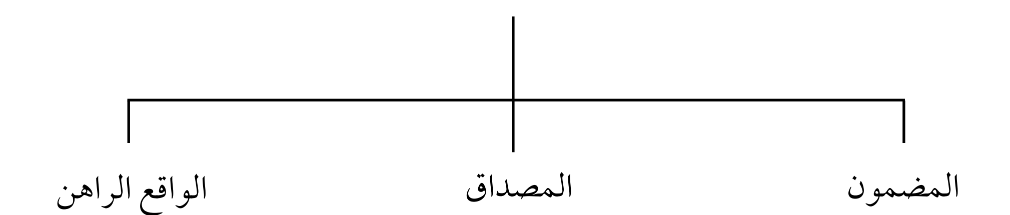
ففرعون لم يكتفِ بتكذيبه، بل.. جمع الناس؛ ليعلن لهم ذلك، وفي حومة غروره المستبد قال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾!!، وهذا يوضّح كيف يبلغ جنون العظمة عند بعض الطغاة حداً يصل فيه إلى أن يواجه عقيدة التوحيد.

ومن ألوان تلك الدعاية الإعلامية: ادعاء آلة الطاغوت بأنّها وحدها طريق الحقّ: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إلا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾[2]، ووصف المصلحين بمبدلِيّ الدين والمفسدين والسحرة: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ**﴾[3]، وتعميم سياسة الترهيب: ﴿**قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى**﴾[4].

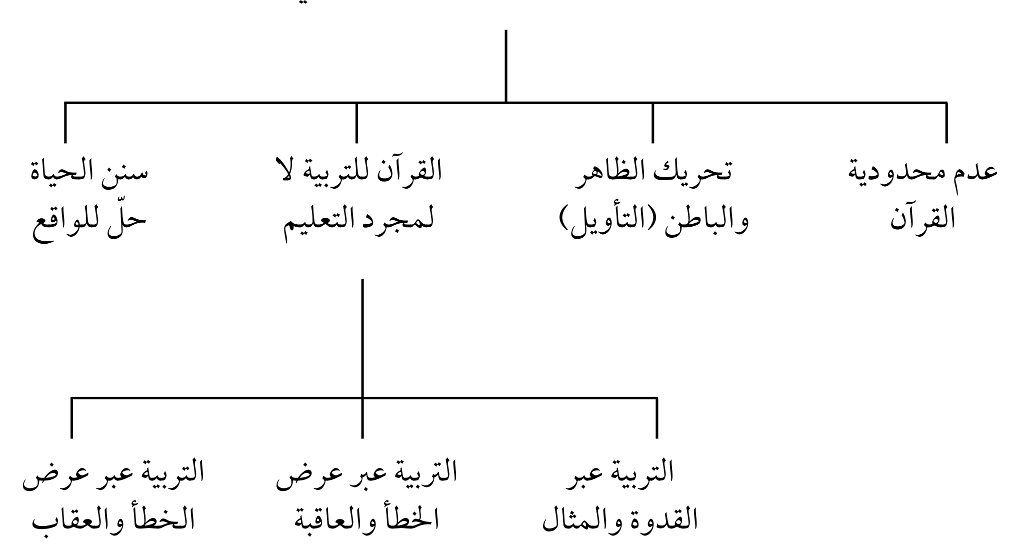
---

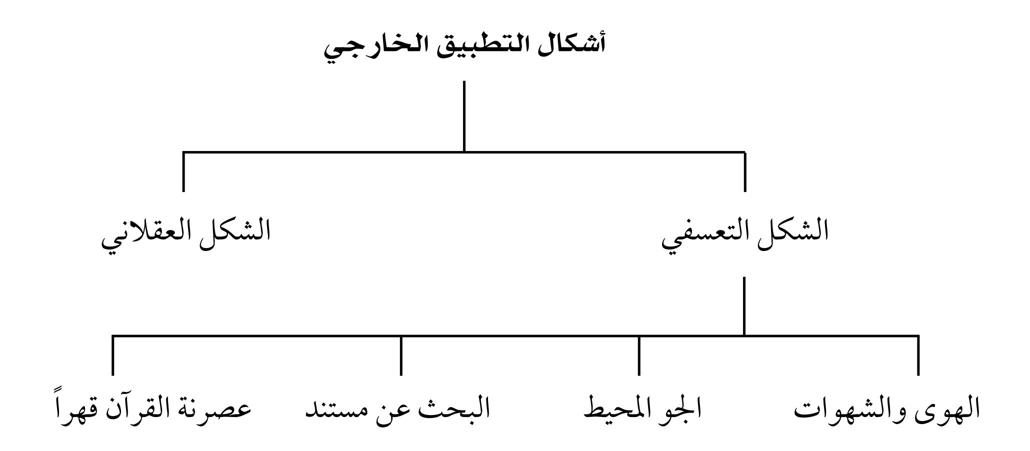
(١) سورة النازعات/ ٢١- ٢٤.
(٢) سورة غافر/ ٢٩.
(٣) سورة غافر/ ٢٦.
(٤) سورة طه/ ٧١.

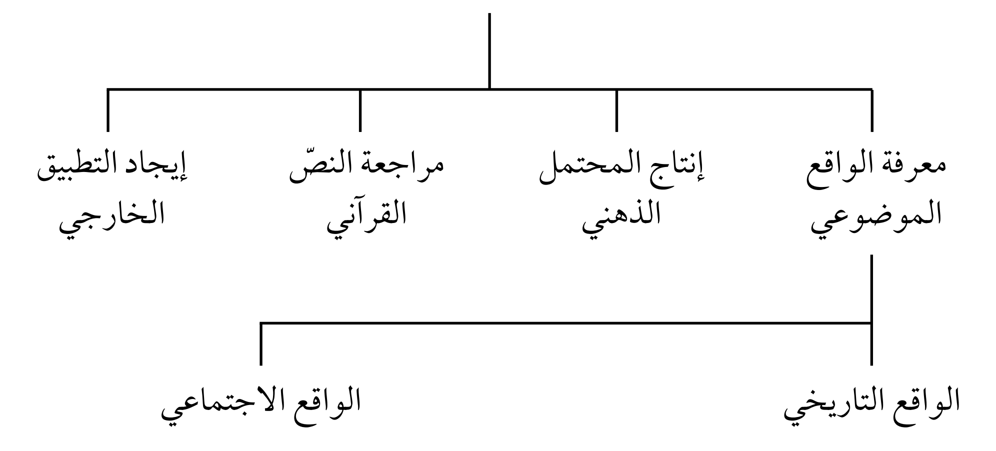
المقصود بـ(التطبيق الخارجي)

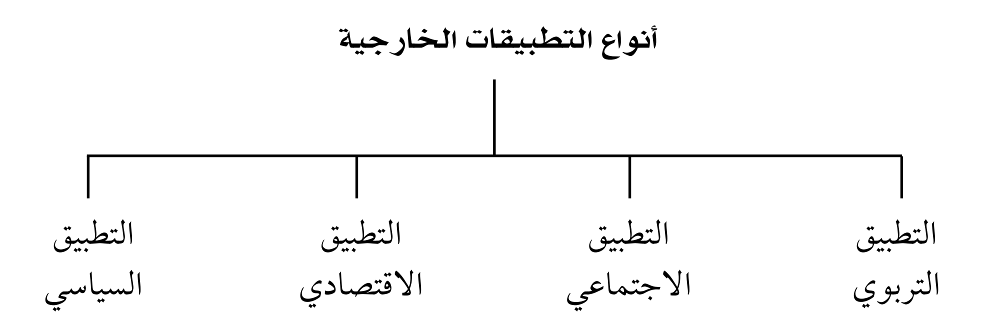


كيف نؤسس لصحة التطبيق الخارجي؟




أشكال التطبيق الخارجي
الشكل العقلاني
الشكل التعسفي
عصرنة القرآن قهراً
البحث عن مستند
الجو المحيط
الهوى والشهوات


كيف نستطيع القيام بعملية التطبيق الخارجي؟
إيجاد التطبيق الخارجي
مراجعة النصّ القرآني
إنتاج المحتمل الذهني
معرفة الواقع الموضوعي
الواقع الاجتماعي
الواقع التاريخي


أنواع التطبيقات الخارجية
التطبيق السياسي
التطبيق الاقتصادي
التطبيق الاجتماعي
التطبيق التربوي



ت١: أضعُ علامة (✓) أمـــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- تقتصر المصاديق القرآنية على النماذج البشرية.( )

ب – القـرآن كتـاب تربية وهداية قبـل أن يكون كتاب علم ونظريات. ( )

ج – لا فرق بين أسلوب (التربية عبر العاقبة) وأسلوب (التربية عبر العقاب). ( )

د – كما أنّ للقرآن تطبيقات خارجية، فكذلك للسنة الشريفة وللتاريخ. ( )

هـ – التطبيق القرآني (المصداق) يقتصر على من نزلت فيه الآية فقط. ( )

و– الخـوارج حين رددوا ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾[1]، كانوا يمارسـون التطبيق التعسّـفي ضد الإمام علي عليه السلام: مضموناً ومصداقاً، لا واحداً منهما. ( )

ز – أحد التطبيقات الحالية لقوله تعالى: ﴿**لا شَـرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ**﴾[2]، أي (لا اشـتراكية ولا رأسمالية). ( )

ت٢: عندما نقول عن شخص - قاصدين تشبيهه بالأنبياء - بأنّه إبراهيم زمانه، أو موســى زمانه، أو تســمية مجتمع معيّن بأنّهم قوم يونس..، ألا نرى في ذلك مبالغة فجّة؟!

أليس وصف أحد الأشخاص في عالمنا اليوم باسم (نمرود)، وآخر بـ (قارون)، ووصــف قوم بأنّهم (يأجوج) أو (مأجوج) أو (قوم شــعيب) نوعاً من تحميل القرآن ما لا يحتمل؟

ت٣: كيف نرد على من يقول بأنّ ستر شعر الرأس للمرأة غير واجب؛ لأنّه متغيّر زمني، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[3].

ت٤: أذكرُ نموذجين للشــكل التعسّــفي قد طُبّقا على الآيتين التاليتين كلاً على حدة:

---

(١) سورة الأنعام/ ٥٧.

(٢) سورة النور/ ٣٥.

(٣) سورة النور/ ٣١.

أ- على نحو المضمون لقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[١].

ب - على نحو المصداق لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٢].

ت٥: قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[٣].. ماذا نتوقع أن يقول الذين يحاولون عصرنة القرآن قهراً هنا؟

ت٦: كيف يؤوِّل من يعيش وسط ضائقة مادية ومجاعة اقتصادية مدقعة قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[٤]، مع ذكر معنى مغاير لما يقوله؟

ت٧: ماذا يرى فقهاء البلاط وأتباع الأهواء والأموال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٥].

ت٨: قال عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٦]. أُجري على الآية السابقة التطبيق التربوي تارة، والتطبيق الاجتماعي تارة أخرى.

ت٩: من خلال المنهج القرآني، من هو فرعون العصر في نظري؟، هل هو فرد أم جماعة؟، وهل ثمة (ملأ) يؤازرونه؟، أستخرجُ آيات ترشدني إلى صفات الطاغوت، وأربطُ ما يحدث في الخارج الموضوعي مع ما ذُكر في الآيات من صفات ومؤشرات.

---

(١) سورة الزمر/ ٣.
(٢) سورة نوح/ ٢٧.
(٣) سورة الطارق/ ١.
(٤) سورة عبس/ ٢٤.
(٥) سورة النساء/ ٥٩.
(٦) سورة الحجرات/ ١٣.



الخطوة السابعة: استنباط الرؤية المتكاملة

ماذا نعني بـ (استنباط الرؤية المتكاملة)؟

نقصد بها هنا: أن نستخرج الأفكار القرآنية الناضجة بكامل أبعادها المترامية الأطراف، أيّ محاولة الإلمام الشامل بالموضوع بصورةٍ تكاملية، ونستطيع أن نطلق عليها اسم (الصورة العامة للموضوع في القرآن المجيد) أو (النظرية التفصيلية) أو (التصور الواضح).

وذاك يتمّ عبر تناول الموضوع والإلمام به، ودراسة المحاور المراد بحثها، وما يتفرّع منها من نقاط وأفكار، كلّ ذلك من خلال القرآن الكريم.

كيف نصل إلى الرؤية المتكاملة؟

نصل إلى تلك الرؤية من خلال تطبيق عدة نقاط، هي على التوالي:

أولاً: السؤال المنهجي المحدّد (الإطار العام).

ثانياً: التساؤلات الفرعية (المحاور الخاصة).

ثالثاً: التشقيق المنهجي (التفريع والتقسيم).

رابعاً: الاستفادة من نُظُم التفكير.

خامساً: التتبّع والاستقصاء.

سادساً: الترتيب المنطقي.

سابعاً: المشروع الكتابي.

أولاً: السؤال المنهجي المحدّد (الإطار العام):

ويتناول العنوانَ الرئيسي العام للموضوع، دون تكثيف الضوء فيه على محاور فرعية محددة بذاتها، وهنا تُجمع كلّ النقاط التي تتماسّ مع هذا المحور العريض، ونسمّيه بـ(الإطار العام) و(المحور العام) و(العنوان الأساس).

لابدّ من توجيه السؤال المنهجي المحدّد الذي نعتزم الشروع في دراسة قرآنية عنه، وبذا يتمّ انتخاب محور عام محدّد لدراسته، قد يكون ذلك المحور بأسلوب الاستفهام، أو الإثبات الذي يتضمن في طياته سؤالاً محدّداً.

فحين نريد دراسة (أنواع الفتنة) – مثلاً – قد نصوغ هذا المحور على شكل سؤال مؤداه (ما أنواع الفتنة؟)، وقد نصوغه على شكل جملة إثباتية تختزن في أحشائها سؤالاً ضمنياً، فمحور (أنواع الفتنة)، يحمل في طياته سؤالاً مؤداه: (ما أنواع الفتنة؟).

ثانياً: التساؤلات الفرعية (المحاور الخاصة):

وهو يتناول جوانبَ الموضوع، حيث يتمّ تسليط الضوء على محاور فرعية منبثقة من الإطار العام.

فبعد اختيار (الإطار العام) للدراسة القرآنية عبر طرح السؤال المنهجي المحدّد، يجب أن نطرح على المحور الذي وصلنا إليه عدة تساؤلات فرعية تنبثق من ذلك المحور العام. وهذا ما يُسمى بـ(تشقيق المحور) – الذي سندرس طرقه في الفقرة التالية –، وكلّما كان ذلك التشقيق دقيقاً وقوياً، أمكننا الوصول إلى دراسة أكثر قوة وتماسكاً وفائدة.

ولو اخترنا عنوان (الحرية في القرآن) – كإطار عام لبحثنا – يمكن أن نشتق له عدة محاور فرعية ندرسها، منها على سبيل المثال:

- معنى الحرية.
- أنواع الحرية.
- نتائج الحرية.
- معوّقات الحرية.
- دور المألوف الاجتماعي في تقييد الحرية.

والمحور الخاصّ – بدوره – نستطيع أن نشتقّ منه محاور أخصّ؛ لتمنحنا عمقاً

ودقة في بحث الموضوع، فمحور (أنواع الحرية) قد نضع تحته:

- الحرية الشخصية.
- الحرية الدينية.
- الحرية الاجتماعية.
- الحرية السياسية.
- الحرية الاقتصادية.

وتحت (الحرية الشخصية) قد ندرس:

- مبرّرات الحرية الشخصية.
- ضوابط الحرية الشخصية.
- تصادم الحريات الشخصية.
- حرية الرأي والتعبير - نموذجاً -.

ثالثاً: التشقيق المنهجي (التفريع والتقسيم):

والمـراد منه: اللجوء إلى طريقة تقسـيم تنسـجم مـع المحور المـدروس، وترفده بالتقسيمات المنطقية الموضوعية، وقد نتساءل: كيف نأتي بالتقسيمات للمحور؟

هناك عدة طرق للتقسيم منها:

١- التشقيق المبعثر:

فهناك من يأخذ عنواناً أو محوراً ويقسّـمه إلى نقاط لا تنتظم ضمن رؤية موحِّدة أو سـؤال موحِّد، بل هي نقاط متناثرة لا يجمع بينها جامع مشـترك، فهي أشـبه بحبات مشتتة أنهكها عدم انتظامها في سلك يشكّل منها عقداً.

كأن يدرس أحدهم محور (الملائكة في القرآن)، فتأتي نقاطه مشوّشة على النحو التالي:

- الملك الموكل بالوحي.
- جبريل الأمين وإسرافيل.
- وظيفة الملائكة.
- إبليس هل هو من الملائكة أم الجنّ؟
- أنواع الملائكة.
- معنى (الملك).

ونرى أنّ هذه النقاط لا تقوم على نظام منطقي معيّن، وتسكنها البعثرة من ناحيتي: الشكل والمضمون، فلا الترتيب الواردة عليه صحيح، ولا الفرز بين نقاطها متماسك، ولا مبرِّر الاختيار فيها واضح. وعلى الأقلّ كان الأفضل أن تُرتب بالطريقة التالية:

- معنى (الملك).
- أنواع الملائكة.
- وظيفة الملائكة.
- جبريل الأمين وإسرافيل.
- الملك الموكل بالوحي.
- إبليس هل هو من الملائكة أم الجنّ؟

٢- التشقيق الثنائي:

وهنا ينقسم المحور إلى قسمة ثنائية تعتمد على الإثبات والسلب (ينقسم الشيء إلى كذا ولا كذا)، ويكون ناتجها قسمين لا ثالث لهما، كأن نقول:

- الشيء إما جامد أو لا جامد.
- الشيء إما طائر أو لا طائر.
- الشيء إما متحرّك أو لا متحرّك.
- الشيء إما مرئي أو لا مرئي.

و....

وحين نعود إلى القرآن الكريم نستطيع أن نعثر على كثير من موارد القسمة الثنائية، منها:

أ- الناس تجاه العلم قسمان: الذين يعلمون والذين لا يعلمون: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[١].

ب - والأشياء في المؤاخذة عليها قسمان: ما يؤاخذ عليه، وما لا يؤاخذ عليه: ﴿**لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ**﴾[٢].

وإذا كانت الآيتان السابقتان قد حوى كلٌّ منهما القسمين معاً (الإثبات والسلب)،

(١) سورة الزمر/ ٩.
(٢) سورة المائدة/ ٨٩.

فالأكثر وروداً في القرآن الكريم ذكرُ كلّ قسم في آية مستقلة، قد تكون بعيدة عن الأخرى، ومن ثمّ نتصيّد القسمين من موضعين، فكثيراً ما يذكر القرآن في آية إثباتاً، ويذكر السلب في آية أخرى:

أ - فالناس تجاه الإيمان قسمان: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ**﴾(١)، والذين ﴿**لَا يُؤْمِنُونَ**﴾(٢).

ب- ومنهم الذين ﴿**يَعْقِلُونَ**﴾(٣)، والذين ﴿**لَا يَعْقِلُونَ**﴾(٤).

ج - ومنهم الذين ﴿**يَفْقَهُونَ**﴾(٥)، والذين ﴿**لَا يَفْقَهُونَ**﴾(٦).

وهناك آيات تحدّثت عن بعض التقسيمات الثنائية القائمة على حصر إثباتي (أمرين إثباتيين) وإن كانت لا تدخل ضمن القسمة الثنائية المتداولة في علم المنطق القائمة على الإثبات والسلب (السبر والتقسيم)، ومنها:

أ- الناس إما أعمى أو بصير:

﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**﴾(٧).

ب - مصير الناس يوم القيامة لا يعدو أحد اثنين: إما الجنة وإما النار:

﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾(٨).

ج - آيات الله في الكون على نوعين: آفاقية وأنفسية:

﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾(٩).

د - هناك لوحان للعلم الإلهي: لوح المحو والإثبات (اللوح المخروم)، وأم

(١) سورة البقرة/ ٣.
(٢) سورة البقرة/ ٦.
(٣) سورة البقرة/ ١٦٤.
(٤) سورة البقرة/ ١٧١.
(٥) سورة الأنعام/ ٩٨.
(٦) سورة التوبة/ ٨٧.
(٧) سورة فاطر/ ١٩.
(٨) سورة آل عمران/ ١٨٥.
(٩) سورة فصّلت/ ٥٣.

الكتاب (اللوح المحتوم):

﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(١).

هـ - هناك كتابان أمر الله بالتفكير فيهما: كتاب التكوين (العالم المنظور)، وكتاب التدوين (العالم المسطور):

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٢).

فـ(الذي خلق): إشارة لعالم التكوين، و(القلم): إشارة لعالم التدوين.

و - البلاء نوعان: بلاء بالنعم، وبلاء بالنقم:

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٣).

﴿فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾(٤).

٣- التشقيق الثلاثي:

وهنا ينقسم المحور الأساس إلى ثلاثة فروع، لا رابع لها، هي - دوماً - طرف الإفراط، وطرف التفريط، وطرف الوسطية والاعتدال، وبعبارة ثانية فهي: الضدان والوسط.

فلو تساءلنا: ما هي طرق تعامل الإنسان مع إنفاق المال؟، فستكون الإجابة: هناك ثلاث طرق:

أ- الإسراف (إفراط).
ب - التقتير (تفريط).
ج - الكرم (الوسطية).

وهذه الأقسام الثلاثة مستلة من قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾**(٥).

---

(١) سورة الرعد/ ٣٩.
(٢) سورة العلق/ ١- ٥.
(٣) سورة الأنبياء/ ٣٥.
(٤) سورة الفجر/ ١٥- ١٦.
(٥) سورة الفرقان/ ٦٧.

٤- التشقيق المنهجي الحرّ:

وهنا يسير التقسيم وفق ضابط منطقي، فيتخلص من (التشقيق المبعثر)، ويتتبّع التقسيم عدد الأقسام ويستوفيها، بحيث يحصر كلّ (الأقسام) الواقعة تحت دائرة العنوان (المقْسَم) بغضّ النظر عن عددها، فلا يهمنا أن تنتهي الأقسام عند اثنين يعودان إلى الإثبات والسلب (التشقيق الثنائي)، أو عند ثلاثة ترجع إلى ذكر الضدين والوسط (التشقيق الثلاثي)، بل قد تنتهي عند ذلك، أو عند ما هو أكثر منه: أربعة أو خمسة أو غير ذلك.

فلو سألنا - قبل المجيء بمثال قرآني -: ما هي عصور الأدب العربي؟

فسنجيب: إنّها - حسب التقسيم المتداول - ستة، هي:

أ- العصر الجاهلي.

ب - عصر صدر الإسلام.

ج - العصر الأموي.

د- العصر العباسي.

هـ - عصر الدول المتتابعة.

و - العصر الحديث.

فلم نقسمها قسمة مبعثرة مثل: (العصر الحديث، العصر الجاهلي، العصر العباسي، عصر الدول المتتابعة، العصر الأموي، عصر صدر الإسلام)!!، ولم يهمنا هنا أن نقسمها قسمة ثنائية لنقول - مثلاً -: إنّها (الجاهلي وغير الجاهلي)، ولا أن نقسمها إلى قسمة ثلاثية لنقول - مثلاً -: إنّها (العصور المتقدّمة، والعصور المتوسطة، والعصور المتأخرة)!!

ولو تساءلنا: ما الأدلة القرآنية على عصمة النبي يوسف عليه السلام عن فعل الذنب الذي قد يوهم به ظاهر قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءِ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾[1]، فقد نقف عند أدلة كثيرة، منها:

(١) سورة يوسف/ ٢٤.

أ- شهادة الله:

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

ب - شهادة يوسف:

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[٢].

ج - شهادة امرأة العزيز:

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[٣]، ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[٤].

د - شهادة الشاهد من أهلها:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾[٥].

هـ - شهادة العزيز:

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[٦].

و - شهادة الملك:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾[٧].

---

(١) سورة يوسف/ ٢٤.
(٢) سورة يوسف/ ٢٦.
(٣) سورة يوسف/ ٣٢.
(٤) سورة يوسف/ ٥١- ٥٢.
(٥) سورة يوسف/ ٢٦.
(٦) سورة يوسف/ ٢٨.
(٧) سورة يوسف/ ٥١.

ز – شهادة النسوة:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾[١]، ﴿.... قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾[٢].

ح – شهادة الشيطان:

وإذا شهد الله أنّ يوسف من عباده (المخلَصين) – بفتح اللام، أي أنّها اسم مفعول –، فقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣]، فقد شهد إبليس أنّه لا يستطيع إغواء (المخلَصين): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٤].

والخلاصة أنّ جميع من كان حاضراً القصة أو سمع ملابساتها شهد ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنزاهة والطهارة من الخطيئة والفحشاء، أما قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾، فقد همّ أن يبعدها عنه، أو يهرب منها، و«أن يُذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته»[٥]، أي إطلاق الكلمة على معناها وعلى معنى آخر مغاير جاء في سياقها شائع في العربية، ويُسمى في البلاغة بـ (المشاكلة)، وقد استخدمه القرآن الكريم في العديد من آياته، فقال:

– ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٦].

– ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٧].

– ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٨].

– ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي

---

(١) سورة يوسف/ ٣٠.
(٢) سورة يوسف/ ٥١.
(٣) سورة يوسف/ ٢٤.
(٤) سورة ص/ ٨٢- ٨٣.
(٥) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة/ ٣٧٥.
(٦) سورة الأنفال/ ٣٠.
(٧) سورة النساء/ ١٤٢.
(٨) سورة التوبة/ ٦٧.

نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(١).

- ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

والمقصود: يمكرون ويرد الله مكرهم، ويخادعون الله ويرد الله خداعهم، ونسوا الله فأهملهم، وتعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك، ومن اعتدى عليكم فردوا عليه، والمكر حيلة اللئام، والله ليس ماكراً ولا خدّاعاً، ولا ينسى، وليست له نفس، ولا يطلب من المؤمنين أن يعتدوا، ورد العدوان ليس عدواناً، بل.. هو حقّ مشروع، لكنّها أمور سُمّيت بأسماء مجاوراتها؛ لوقوعها في سياقها، فهي تسمية للشيء باسم مجاوره.

وقد تكلّمنا - هنا - عن أربع طرق من القسمة أو التشقيق هي (المبعثرة، الثنائية، الثلاثية، المنهجية الحرّة)، ونحن لا نعدّ الأولى منها تقسيماً منهجياً؛ لأنّها تأتي بالأقسام بأيّ شكل اتفق دون مراعاة ضابط منطقي، وإنّما ذكرناها لاستيفاء أنواع القسمة كاملة -، ولكي نفلت من الوقوع فيها عند ممارسة التشقيق.

رابعاً: الاستفادة من نُظُم التفكير:

ونقصد بهذه الفكرة: أن نستفيد من نظم التفكير العلمية - ولاسيما في حقل الدراسات الإنسانية - في البحوث القرآنية.

فإذا أردنا أن نستخرج المحصلة الإجمالية أو الإدراك الكلي أو التصور السليم (لرؤية قرآنية) يجب أن نأخذ في الحسبان معايير إضافية أخرى؛ إذ إنّ (جزء الصورة لا يعكس الصورة كاملة)، وحتى نتمكن من معرفة النظرية الشاملة بجلاء أكثر، ننطلق عبر مرحلتين هما: التنظير الحسّي، وعملية التأويل.

١- التنظير الحسّي:

نستطيع إدراك ذلك التنظير الحسّي عبر التعرّف على مدى التشابه أو التقارب بين الأشياء أو الأفكار أو عبر الإغلاق والإكمال للأفكار والأقسام، والتي يمكن الرجوع إلى تفاصيلها في كتب علم النفس، أو الكتب التي تتناول عملية التفكير والربط بين الأشياء

(١) سورة المائدة/ ١١٦.
(٢) سورة البقرة/ ١٩٤.

عند الإنسان[١].

وسنتناول - فيما يأتي - بعض صور الاستفادة من هذه النظم في عملية التدبر الموضوعي:

أ- التشابه:

حيث نركز النظر على النقاط المتشابهة، فنزولُ آيات تتحدّث عن (بلعم بن باعوراء) - وهو عالم في بني إسرائيل - وتقول فيه: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٢]، يمكن تعديتها إلى أيّ شخص آخر يشبهه في صفته - (عالم منحرف) ضلّ عن طريق الهداية -، وهذا يسوِّغ لنا أن نقول: إنّ شريح القاضي، ويحيى بن أكثم، ومحمد علي العزاقري الشلمغاني، كلّ واحد منهم هو بلعم في زمانه!!

وهذا يفيدنا فيما درسناه في التدبر الموضوعي في عملية التطبيق أو إيجاد المصداق الخارجي.

ب- التقارب:

توليد نقاط متقاربة من تلك الفكرة.

فلو قرأنا آية تشير إلى قصة (عابد) أصبح فاسقاً كـ(برصيص) الذي قال الله فيه: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[٣]، فإنّ الآية جاءت في (عابد منحرف)، ولكنّ ذلك لا يمتنع حصوله مع (عالم)، فنستطيع أن نوجه الضوء إلى أيّ عالم سار على ذات المنحى لقرب الصورة بين (العابد) و(العالم).

و(التقارب) عملية أعمق من (التشابه)، ففي التشابه تكون العلاقة بين الأمرين هي

---

(١) للتفصيل راجع: عزت أحمد راجح، أصول علم النفس/ ١٦٢- ١٧٥.
(٢) سورة الأعراف/ ١٧٥- ١٧٦.
(٣) سورة الحشر/ ١٦.

التطابـق – مثـلاً – بين (عالِـم وعالِم) أو (عابـد وعابد)، بينما في التقـارب تكون العلاقة وجود شيء من الاختلاف، وشيء من التشابه.

وهـذه العملية – كذلك – تفيدنا في القيـام بعملية التطبيق الخارجي، والعثور على مصداق لذلك النموذج، وإن كان مصداقاً مقارباً لا مطابقاً.

ج- الإغلاق:

ونقصـد بعامـل (الإغلاق) هنـا: أن نعثر علـى القفل الـذي يغلق تلـك الدائرة، أو الحلقـة التي تكمل تلك السلسـلة، أو الفكـرة التي تكمل رصيد الأفكار، حتى نسـد ثغرة الحلقة المفقودة أو الناقصة.

فإذا قلنا عن شـيء: هذا (أخلاقيّ)، أمكن أن نعرف أنّ هناك شـيئاً بخلافه وأنّه (لا أخلاقي)، وإذا قلنا بأنّ في الأشياء (الحسن) أو (الصالح)، فإكمال الفكرة يقتضي بأنّ في الأشياء مقابل ذلك وهو (السيء) أو (الطالح).

وتفيدنا نظرية الإغلاق هذه – أكثر ما تفيدنا – في التعرّف على السمات الأخلاقية، فالأخلاق فيها فضائل ورذائل، والفضائل هي: الأوساط بين الضدين، و«الفضائل بمنزلة الأوسـاط، والرذائـل بمثابـة الأطـراف»(١)، فالفضيلة تمثّـل منطقة الاعتـدال بين طرفي: الإفراط والتفريط، أي أنّ كلّ فضيلة تقف على جانبيها رذيلتان، فـ(الشجاعة) هي الوسط بين التهور والجبن، و(العفة) هي الوسط بين الشره والخمود، و(العدالة) هي الوسط بين الظلم والانظلام(٢).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ لكلّ شـيء حداً، فإن جاوزه كان سـرفاً، وإن قصر عنه كان عجزاً»(٣).

وهـذا يعنـي أنّنا حين نشـاهد نقطة تتحـدث عن (الإفـراط) في شـيء، ونقطة أخرى تتحـدث عن (التفريط) فيه، تكون نظرية الغلق باكتشـاف نقطة (الاعتـدال)، والتعرّف عليها سيكون بمثابة إكمال الناقص بصورة بديهية، وبها يتمّ وضع اللبنة المفقودة في صرح البناء.

(١) جامع السعادات ١/ ٥٩.
وانظر العرض المفصّل لنظرية الأوساط بين الضدين في: الشيخ محمد أمين زين الدين، الأخلاق عند الإمام الصادق/ ٣٦- ٤٣.
(٢) جامع السعادات ١/ ٦٥.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢/ ١٨٨، الباب ٢، ح ٧.

ولو وجدنا نقطة تتحدّث عن (التفريط)، وأخرى عن (الاعتدال)، فسيتمّ الغلق عبر اكتشاف (الإفراط). وإذا وجدنا نقطة تتحدّث عن (الإفراط)، وأخرى عن (الاعتدال)، فسيتمّ الإغلاق عبر اكتشاف (التفريط).

والخلاصة: أنّنا حين نعلم لشيء وجوهاً، ونعثر على بعضها، فإنّنا سنسعى للبحث عن الوجوه الأخرى التي يضعها العقل أمامنا عبر معرفته بالمحتملات الذهنية والخارجية.

فحين يحدّثنا القرآن عن العقيدة أنّ مِن بين الناس مؤمنين، فلابدّ أن نغلق ذاك ذهنياً ونقول: وأنّ مِن بينهم كافرين، ونبحث عن الطرفين معاً في القرآن، وقد نجد ذلك في مثل قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(١)، ﴿**وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾(٢).

والقرآن الكريم قد يذكر - أحياناً - طرفي النقيض في فكرة، ويحرِّك البداهة العقلية عند البعض، أو يفعِّل الذهن عند آخرين لإدراك القسم الثالث في العملية.

فإذا أشار قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾(٣)، إلى الصورتين الخاطئتين تجاه الإنفاق (البخل، والإسراف)، وعلمنا أنّهما تمثلان الطرفين المتضادين، فسنعلم أنّ هناك صورة ثالثة تمثّل (الوسطية والاعتدال)، وبها يتمّ التنقيط الثلاثي المعتمد على القسمة الثلاثية القائمة على تقسيم الشيء إلى الضدين والوسط.

وقد تأتي آيات أخرى تذكر الأقسام الثلاثة كاملة، كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾(٤)، وهي برهان على أنّ الآية السابقة التي اقتصرت على ذكر قسمين فقط طوت قسماً ثالثاً في البين.

وإذا عملنا على قضية (الإيمان والكفر بين الإظهار والإخفاء)، وعلمنا أنّ القرآن تكلم عن الكافرين المظهِرين للكفر، والمؤمنين المظهِرين للإيمان، والكفار المظهِرين للإيمان، فإنّ التقسيم المنطقي الحرّ يرى أنّ هذه القسمة المعتمدة على متغيرين في متغيرين لابدّ أن تنتهي إلى أربعة أقسام، فهناك قسم آخر هو: المؤمن المظهِر للكفر، وبعد أن تمّت عملية الإغلاق هذه، هل يمكن أن نعثر على كلّ ذلك في القرآن الكريم؟!

(١) سورة التغابن/ ٢.
(٢) سورة يونس/ ٤٠.
(٣) سورة الإسراء/ ٢٩.
(٤) سورة الفرقان/ ٦٧.

لنتأمل المواقف الأربعة الآتية وآياتها:

الأول: الكافر الذي يظهر الكفر (الكافر):

﴿إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لأنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(١).

الثاني: المؤمن الذي يظهر الإيمان (المؤمن):

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾(٢).

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٣).

الثالث: الكافر الذي يظهر الإيمان (المنافق):

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾(٤).

الرابع: المؤمن الذي يظهر الكفر (من يعمل التقية):

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(٥).

---

(١) سورة فصّلت/ ١٤.
(٢) سورة طه/ ٧٠- ٧١.
(٣) سورة المائدة/ ١١١.
(٤) سورة البقرة/ ١٤.
(٥) سورة غافر/ ٢٨.

﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

وتفيدنا طريقة الإغلاق هذه كثيراً في تشقيق المحاور العامة والخاصة، والقيام بطرح المحتملات الذهنية للأفكار، والتطبيقات المتقابلة والمتكاملة، ثمّ البحث عنها في القرآن الكريم، وعدم التوقف عند قسم منها.

وهذه العوامل مستفادة من آراء مدرسة (الجشطلت أو المجال أو الصيغ)، وتندرج ضمن (قوانين التنظيم الحسّي) لديها، وقد ذكرت قوانين أخرى منها: (عامل الاتصال، وعامل الشمول، وعامل التماثل)(٢).

وهكذا نجد أنّه يمكننا الاستفادة من نُظُم ومنجزات الفكر البشري في التوصل إلى الرؤية البحثية القرآنية.

٢- عملية التأويل:

وهي ذلك الإدراك الداخلي الذي يستند إلى دلالة خارجية يطمئن القلب إلى حدوثها. وبعبارة أخرى: هي ما تَـؤُوْلُ (تنتهي/ تصل) إليه الدلالات الخارجية من معان عميقة، أو هي الدلالة العميقة للشيء الظاهر، أو المضي خلف المعنى إلى الأعماق والأغوار.

فمعنى (التأويل) - الذي نقصده هنا -: مأخوذ من (الأوْل والمشارفة والصيرورة والرجوع)، أي ما ينتهي إليه الكلام وغيره من دلالات عميقة غير سطحية، ولا نقصد به: صرف الكلام عن ظاهره إلى معان لا تنسجم مع روح الدين تُفرض على النصّ باسم التأويل أو الكشف أو الإلهام أو الفيوضاتً أو الإشراقات، على نحو ما نشهده عند بعض الصوفية.

إنّ للأشياء والنصوص مستويين من الدلالة، هما - حسب التسمية الأدبية -:

- المستوى الظاهر.. الجليّ.. الواضح.. الحاضر.. البنية السطحية.
- المستوى الباطن.. المضمر.. المستتر.. الخفيّ..الغائب..البنية العميقة.

---

(١) سورة النحل/ ١٠٦.

(٢) انظر: أصول علم النفس/ ١٦٤، وننبّه إلى أنّ القوانين لم تُذكر بهذا التفصيل، ولا باعتماد الآيّ القرآني محطاً لدراستها، ولكنّنا استفدنا من أصل تلك القوانين - كنظم للإدراك -، وسبرنا البحث بطريقتها في القرآن الكريم؛ لنبين إمكان الاستفادة من منجزات الفكر الإنساني.

ينطبق هذا على العلامات والإشارات:

أ- فعندما نسمع صوت طرق بالباب، يشكّل هذا دلالة ظاهرة، تُشير - في معانيها العميقة - إلى أنّ في الخارج شخصاً؛ لأنّ ذلك الصوت المنتظم لا يمكن أن يصدر صدفة، ولا عن هواء أو حيوان، فانتظامه يؤكّد مدخلية (العقل) فيمن أحدث القرع بهذه الطريقة، كما يشير لنا إلى أنّ ذلك الشخص يريدُ شيئاً ما..؛ لأنّه - بقرينة سيرة العقلاء - لو لم يرد شيئاً لما طرق الباب؛ لأنّ أعمال العقلاء (هادفة) ذات غاية، واحتمال أن يكون ذلك من أطفال يمرحون بالخارج ضعيف لا يُركن إليه.

ب- وعندما نسمع صوت حادث سيارة - مثلاً - ترتسم في أذهاننا دلالة ظاهرة لذلك، (سيارة اصطدمت بشيء)، لكنّ لذلك دلالة أعمق - يخدمها نوع الصوت وقوته ومكانه و.... -؛ ليتيح لنا إمكانية قراءة دلالة أعمق للصوت، وبها يمكن أن نعرف هل أصابت الصدمة حائطاً أم سيارة أم بشراً؟، وهل تؤدي - ضمن المتوقع - إلى خدوشات، أم تكسّرات وجراحات، أم قتل؟، أم لا تؤدي لشيء؟

وكما ينطبق هذان المستويان من الدلالة - الظاهر والعميق - على الأشياء المستلة من الواقع الحياتي الذي أمسى لكثرة ما ألفناه بدهياً ينتقل إليه الذهن دون إدراك توسط علاقة - ينطبق كذلك على النصّ، فالنصّ - كالقصيدة الشعرية، مثلاً - له قراءة سطحية، وأخرى عميقة، يقرؤه شخص فيفهم منه دلالات، ويقرؤه (الدكتور) في الجامعة فتنفتح أمامه آفاق أوسع.

والآيات القرآنية نصوص يشملها وجود المستويات لفهمها، يقرؤها بسيط الثقافة فيفهم شيئاً، ويقرؤها آخر فيفهم ما هو أعمق، ومن يقف عندها وقفات تأملية أطول؛ تغدق عليه من معينها أكثر مما تعطيه لمن يقرؤها على عجَل ودون تركيز.

والشخص الواحد قد يعايش أكثر من مستوى للفهم في حياته: فحينما يكون صغيراً عمراً أو علماً سيفهم الآيات بمستوى، وحينما يكبر في ذلك سيكون فهمه أشدّ، وسيبصر أفكاراً لم يكن يدركها من قبل تلوح أمامه الآن واضحة جلية حتى في الآيات التي يحفظها كما يحفظ اسمه، وحينما يقرأ الآية للمرة الأولى يفهم شيئاً، وعندما يعاود أخرى وأخرى ستنفتح أمامه أبواب وأبواب.

فكلّما قمنا بعملية التأويل، وأخذنا المعنى ومضينا لما بعده وما هو أعمق، سنكتشف نقاطاً واقعية في تلك الآيات الكريمة لم ندركها لدى القراءة الأولى، وهذه حال من يسبر الأغوار، فمن يمشي بقرب الساحل قد يعثر على صدفات بهية المنظر، لكنّ

اللؤلؤ والجوهر يجتنيه من يغوص الأعماق.

وقبـل أن نلـج إلى الأمثلة نضع في حسـباننا أنّه كما يؤدي اختلاف مسـتوى الناس في الصفاء النفسـي والإدراك الذهني والمقام العلمي والسعي العملي، إلى اختلافهم في مقدار الاستفادة من الأشياء والنصوص أو تفسيرها أو نقدها، فكذلك هم مستويات تجاه القرآن، فللقرآن مسـتويات دلاليـة وطبقات معرفية، قد يبصر البعض مسـتوى منها، بينما يحتاج لبلوغ مسـتوى آخر إلى صفاء نفسي أشدّ، وتوقد ذهني أكبر، وعمق معرفي أوسع، وهمة أعظم، بما يرخي عليه توفيقاً إلهياً أكبر.

وفـي طبقـات المعنى القرآني يقول الإمام الحسـين عليه السلام: «كتاب الله - عزّ وجلّ - علـى أربعة أشـياء: علـى العبارة، والإشـارة، واللطائـف، والحقائق. فالعبـارة للعوام، والإشارة للخواصّ، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»(١).

وتثير هذه الرواية لدينا سؤالاً ملحاً هو: ماذا نقصد من طبقات المعنى القرآني؟

- هل نقصد أنّ القرآن فيه آيات سـهلة يفهمها المتلقي العام، وآيات أخرى يفهمها الخواصّ، وثالثة يفهمها الأولياء، ورابعة يفهمها الأنبياء؟

- أم نقصد أنّ الآية الواحدة نفسها قد تتضمن مستويات: ظاهرة، وعميقة، وأعمق، وهكـذا..، وأنّ المتلقي العام قد يقف عند مسـتوى منها، لكـنّ المتلقي الخاصّ ينفذ إلى العميق، والأولياء يغوصون إلى الأعمق، والأنبياء يصلون إلى أعماق الأعماق؟

نحن نميل إلى الثاني.

ولكـي تتضـح فكرة طبقـات المعنى (ظاهرة - عميقة) سـنضرب لذلـك مثالاً من سورة الإخلاص.

الواحدية والأحدية في سورة الإخلاص:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾(٢).

ونحن - باختيارنا لهذه السـورة - نريد أن نقول: إنّنا تعمّدنا اختيارها؛ لأنّها سـورة

(١) بحار الأنوار ٨٩/ ٢٠، الباب ١، ح ١٨.
(٢) سورة الإخلاص/ ١- ٤.

قصيرة، ونحفظها جميعاً، ويكرّرها جلّنا في أغلب صلواته، فهي قرينة سورة الفاتحة في حياتنا، ومع ذلك فهل نفهم معانيها الظاهرة فضلاً عن العميقة؟!

لنشر إلى واحدة من معانيها فقط، هي: الواحدية والأحدية:

لنبدأ من مسلّمة نقرّ بها هي: أنّ جميع المسلمين يؤمنون بوحدانية الله تعالى، وهي إحدى البديهيات الدينية عندهم، ولنقل: إنّ هذا يمثّل دلالة ظاهرة لديهم.

لكنّ هذه السورة التي يقرؤونها وردت فيها عبارتا: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾، و﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾، فهل هو تكرار للمعنى نفسه؟!

قد يُقال ذلك، ولكنّ الأوفق أنّ الآية الأولى تتكلّم عن (الأحدية)، بمعنى أنّ الله ليس مركباً، بينما الآية الأخرى تتحدّث عن (الواحدية) وأنّه تعالى فرد لا شريك له ولا شبيه، وهكذا أضحى عندنا أمران مختلفان في المفهوم هما: الأحدية والواحدية.

وهذا مستوى من الدلالة نستطيع أن نغور لأعمق منه:

فقد وصف الله سبحانه نفسه بأنّه ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾؛ فجاءت ثلاث صفات تثبت له (الوحدانية): فالله ﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾ فيورِّث صفاته الألوهية لأحد بعده، ويكون هناك ولد له يشاركه في الأمور، و﴿**لَمْ يُولَدْ**﴾ من أحد فيكون هناك إله آخر قبله ورث هو الصفات عنه، ولم يكن له قرين (كفؤ) مزامن له يمتلك صفات الألوهية ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾، وهكذا انعدم اللاحق والسابق والمقارن، فهو فرد وتر ليس قبله ولا بعده ولا معه إله غيره، وتصلح هذه الآية - على اختزالها - رداً على ثلاثة اتجاهات:

أولها: اليهود الذين زعموا أنّ (عزيراً) ابن الله.

وثانيها: النصارى الذين عدّوا المسيح ابن الله.

وقد جمعت آية في كتاب الله هذين القسمين فقالت: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[1]، ولمحت إلى القسم الثالث حين عدّت عمل اليهود والنصارى مشابهاً لقول الذين كفروا من قبل ﴿**يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ**﴾.

وثالثها: مشركو العرب الذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء**

(١) سورة التوبة/ ٣٠.

الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١)، **﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾**(٢).

وقد نصل إلى مستوى أعمق من ذلك، لنتساءل: ما معنى (وحدانية الله)؟

لقد وصف الله تعالى نفسه في هذه السورة وفي غيرها بالوحدانية:

- فهل الله واحد بمعنى أنّ له ثانياً وثالثاً، كما نقول عند عدّ الأشياء: واحد.. اثنان.. ثلاثة....، وهو ما يُسمّى بـ (الوحدة العددية)؟

- أم أنّ الله واحد بمعنى أنّه لا يوجد له شريك ومثيل؟، أي أنّه (يمكن) أن يكون هناك آخر بصفاته لكنّ ذاك لم (يقع)، وبعبارة ثانية: أنّه في عالم الإمكان والفرض يمكن أن يكون لله آخر، لكن في عالم الوجود والتحقق لم يقع ذلك، وهو ما نسمّيه بـ (الوحدة الخارجية)؟

ومن هذا القبيل: الشمس، فقد كان يمكن أن تكون في مجموعتنا شمس أخرى، لكنّ ذاك لم يحصل، والعرب لم تسمِّ بـ (الشمس) إلا هذه، أما غيرها فسمّته (نجماً)، وهكذا لم يكن هناك في الخارج واللغة إلا مصداق واحد لـ (الشمس).

- أم أنّ الله واحد بمعنى أنّه لا يمكن - أصلاً - أن يكون له ثان، لا أنّه يمكن لكنّه لم يقع، فنحن ننفي الأمر منذ مرحلة الإمكان فضلاً عن مرحلة الوقوع، لا أنّنا ننفيها في مرحلة الوقوع فقط، وهو ما نسمّيه بـ(الوحدة الحقة الحقيقية)؟

ولعلّ البعض يقول - هنا -: إنّ هذا التساؤل مقحم على البحث القرآني، ولا داعي له ونحن نتحدّث عن التدبر في القرآن الكريم، واستمداد أفكار التوحيد من الكتاب العزيز!!

ولكي نجيب على ذلك نقول: إنّ كلّ الآيات التي ذكرت لفظ (الواحد) - بصورة (المعرفة) - كصفة لله تعالى، جاءت معها صفة (القهّار)، وقد تكرّر ذلك في ست آيات في القرآن الكريم، منها: **﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**(٣)، أي أنّ وحدة الله وحدة غالبة قاهرة، ومن هذا نؤمن بأنّ وحدانيةَ الله ليست (وحدة عددية) لمحدود ينتهي ويأتي بعده ثان وثالث، وليست (وحدة خارجية) لشيء

(١) سورة الأنعام/ ١٠٠.
(٢) سورة الإسراء/ ٤٠.
(٣) سورة يوسف/ ٣٩.

ليس في الخارج سواه، لكنّ الذهن والإمكان يفرضان غيره ويفرضان له ثانياً وثالثاً و...، وإنّما هي (وحدة حقة حقيقية)، لا يمكن معها وجود إلـه آخر فضلاً عن وقوعه، ولذلك نقول: إنّ شريك الباري محال، ممتنع الوجود، لا أنّه ممكن ولكنّه لم يوجد[١].

ثمّ نصل إلى التساؤل حول معنى (الأحدية) ومجالاتها، وهي أعمق من (الوحدانية):

فالآية قالت بأنّ الله (أحد): ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾.. ولم تذكر فيم تلك الأحدية؟، أي أنّه تعالى أحد في كلّ شيء:

- فهو ليس مركباً من أجزاء وجودية (وجه، يد، ساق،....) وهو ما يُسمّى بـ (التركيب الخارجي).

- وليس مركباً من (جنس وفصل)، ولا من (ماهية ووجود)، وهذا ما يُسمّى بـ (التركيب العقلي).

- بل ولا مركباً حتى في قدرة الوهم والخيال، فالذهن لا يستطيع كنه الله تعالى والتعرّف على ذاته، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من أفكر في ذات الله تزندق»[٢]، «فلم يطلع العقول على تحديد صفته»[٣]، ويقول الإمام السجاد عليه السلام: «وانحسرت العقول عن كنه معرفته»[٤]، أي أنّ الله ليس مركباً - كذلك - بـ (التركيب التخيّلي) - إن صحّ التعبير، وسيأتي في الرواية القادمة ذكره، وتسميته بـ (الوهم) -.

لقد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه الوجوه الثلاثة للأحدية فقال: «.... وقول القائل: (إنّه - عزّ وجلّ - أحديّ المعنى)، يعني به: أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا - عزّ وجلّ -»[٥].

والآن.. لنسأل أنفسنا سؤالاً جديداً: هذا المستوى من الفهم الذي نظنّه من التأثر بالفلسفة ومبانيها هل نتصوّر أنّ أحداً في القرن الهجري الأول يدركه؟!

---

(١) للتفصيل راجع: الميزان في تفسير القرآن ٦/ ٩٥.
(٢) الكافي ٨/ ٢٣ (خطبة الوسيلة).
(٣) نهج البلاغة/ ٨٨، الخطبة ٤٩.
(٤) الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية الكاملة، تقديم: السيّد الشهيد محمد باقر الصدر/ ٢٧٩.
(٥) الخصال/ ٢، باب الواحد، ح ١.

سوف نرى أنّ هذا الفهم المستعصي على بعضنا حتى الآن - ونحن في القرن الواحد والعشرين - ذكره علي عليه السلام لأعرابي سأله في وسط حومة معركة الجمل وجلبة خيلها وصليل سيوفها، وسط تطاير الأيدي والرؤوس!!، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إنّ الله واحد؟، فحمل الناس على الأعرابي وقالوا له: أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟!، فقال علي عليه السلام: «دعوه، فإنّ الذي يريده الأعرابي هو ما نريده من القوم»[1].

ثمّ أجابه عليه السلام وهو بين زحمة الصفوف والسيوف: «يا أعرابي، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام:

فوجهان منها لا يجوزان على الله - عزّ وجلّ -، ووجهان يثبتان فيه:

فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: (واحد) يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز؛ لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: (إنّه ثالث ثلاثة). وقول القائل: (هو واحد من الناس)، يريد به: النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز؛ لأنّه تشبيه، وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه: فقول القائل: (هو واحد ليس له في الأشياء شبه)، كذلك ربّنا. وقول القائل: (إنّه - عزّ وجلّ - أحديّ المعنى)، يعني به: أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا - عزّ وجلّ -»[2].

فقد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام المعاني الأربعة السابقة كاملة:

١- الوحدة العددية: «(واحد) يقصد به باب الأعداد».

٢- الوحدة الخارجية: «(هو واحد من الناس)، يريد به: النوع من الجنس».

وهذان الوجهان هما «اللذان لا يجوزان عليه» - جلّ وعلا -.

٣- الوحدة الحقة الحقيقية: «هو واحد ليس له في الأشياء شبه».

٤- الأحدية: «(إنّه - عزّ وجلّ - أحديّ المعنى)، يعني به: أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم».

والأخيران هما «الوجهان اللذان يثبتان فيه» - سبحانه وتعالى -.

(١) نفسه/ ٢، باب الواحد، ح ١.

(٢) نفسه/ ٢، باب الواحد، ح ١.

وبدمج معطيات النصّين - القرآني والروائي - نخرج بالخريطة التالية حول موضوع (وحدة الله):

- وحدة الله لها معنيان:

١- الواحدية:

وللواحدية معانٍ هي:

أ- الوحدة العددية.

ب- الوحدة الخارجية.

وهذان المعنيان لا يصحّان في الإطلاق على الله.

ج - الوحدة الحقة الحقيقية (وهو المعنى الصحيح للوحدانية).

ومما يثبت الوحدانية أمور، هي أنّ الله:

أ- لم يورِّث الألوهية لأحد، فلا إله تالي له: ﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾.

ب- لم يرث الألوهية من أحد، فلا إله سابق له: ﴿**وَلَمْ يُولَدْ**﴾.

ج - لم يكن معه مقارن في الألوهية، فلا إله مزامن له: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾.

فانعدم الإله السابق واللاحق والمزامن (لا إله إلا الله)!!

٢- الأحدية:

و(الأحدية: نفي التركيب)، وتنفي ثلاثة أنواع من التركيب، هي:

أ- التركيب الخارجي.

ب - التركيب العقلي.

ج - التركيب التخيّلي.

خامساً: التتبع والاستقصاء:

فاستنباط الرؤية المتكاملة لموضوع ما.. في القرآن الكريم عبر التدبر الموضوعي

التجميعي تقتضي عدم كفاية الاطلاع على بعض الآيات فقط في ذلك المجال، بل.. وعدم كفاية الاطلاع العابر السريع، فروحية البحث العلمي تحفّز فينا الإخلاص للبحث، والتتبّع والدراسة المتأنية، والسعي للإتيان بالجديد، لا تقديم شيء على أيّ نحو اتفق وكأنّه مجرّد إسقاط تكليف وأداء واجب.

إنّ طبخ الأفكار على نار هادئة يجعلها ناضجة.. عميقة.. متكاملة، وطبخها على نار عجِلة يجعلها مبتسرة.. ضعيفة.. مجهضة!!

ويعيننا على التتبّع والاستقصاء أمور، منها: التعرّف على التراث البشري والمنجز البشري والتجارب المعرفية في الأمر الذي نريد بحثه في القرآن، وتمرين الذهن على إنتاج المحتملات: الرياضية والاجتماعية، ومعرفة أماكن وجود تلك المحتملات في القرآن، وطريقة تحصيلها فيه، فكلّما وصلنا إلى فكرة أو نقطة سألنا أنفسنا: وهل هناك غيرها؟، وأين نجدها؟، وكيف؟

صحيح.. أنّ العملية بذلك قد تكون متعبة، لكنّ الأمر يسهل مع التمرّس والتعوّد، هذا أولاً، وثانياً فإنّ من يريد الإتيان بالعميق عليه أن يُعِدّ له عدته كما الحال في الزراعة: فهناك من يزرع (الموسميات) فلا ينتهي الموسم إلا وقد قطف جهده، وهناك من يزرع الزيتون ويصبر عليه، وقيمة المبيع بين الاثنين متفاوتة جداً، ولكلٍّ ما زرع.

وعلينا - لتسهيل عملية التتبع والاستقصاء - أن نستفيد من التقانات الحديثة التي توفر علينا الوقت والجهد؛ لنصبّه في البحث، فقد تكون العملية متعبة إذا حاولنا - مثلاً - جمع الآيات عبر تصفّح أوراق القرآن الكريم ورقة إثر أخرى، وأتعب إذا أردنا استقطار الآيات من أذهاننا، بينما يمكننا أن نستفيد من الكتب الأخرى التي تتطرّق إلى ذات المحور الأساس أو أحد المحاور الفرعية وتعرض آياته، كما الحال مع (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، أو (المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم)، أو (آيات القرآن تفصيل وبيان)، أو الاستفادة من البرامج الكمبيوترية في ذلك.

ولنضرب لفكرة (التتبّع والاستقصاء) مثالاً مبسّطاً:

لو تساءلنا: هل لفظ (الإسلام) خاصّ في الإطلاق على الدين الخاتم مع النبي الأكرم محمد ﷺ، أم أُطلق على الديانات السماوية التي سبقته - أيضاً -؟

إنّ سؤالاً كهذا - إذا أردنا إجابة قرآنية عليه - يحتاج إلى عملية استقراء وتتبع واستقصاء للآيات التي ورد فيها هذا اللفظ، ولو حاولنا جمع الآيات التي تحدثت عن

ذلك، فقد نقف على مثل الآيات الآتية التي سنرتبها - زمنياً - مع تصديرها بقائلها أو من حصلت معه:

- لخص الله جميع أديانه في قول واحد فأطلق عليها اسم (الإسلام): ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

- وقال النبي نوح عليه السلام: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

- وقال النبيان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3].

- وقال النبي لوط عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4].

- وقال النبي يعقوب عليه السلام: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[5].

- وقال أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[6].

- وقال النبي يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[7].

---

(١) سورة آل عمران/ ١٩.
(٢) سورة يونس/ ٧٢.
(٣) سورة البقرة/ ١٢٨.
(٤) سورة الذاريات/ ٣١- ٣٦.
(٥) سورة البقرة/ ١٣٢.
(٦) سورة البقرة/ ١٣٣.
(٧) سورة يوسف/ ١٠١.

- وقال النبي موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(١).

- وقال السحرة بعد إيمانهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(٢).

- وقال فرعون: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

- وقال النبي سليمان عليه السلام: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٤).

- وقالت بلقيس: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٥).

- وقال حواريو عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٦).

- وأمر الله نبيّه محمد فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٧)، وأوضح الله للمسلمين أنّ اسم (الإسلام) تاريخي قديم مدخر من نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿.... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٨).

ولعلنا من هذه الآيات نصل إلى النتائج التالية:

---

(١) سورة يونس/ ٨٤.
(٢) سورة الأعراف/ ١٢٦.
(٣) سورة يونس/ ٩٠.
(٤) سورة النمل/ ٣١.
(٥) سورة النمل/ ٤٤.
(٦) سورة المائدة/ ١١١.
(٧) سورة الأنعام/ ١٦٢- ١٦٣.
(٨) سورة الحج/ ٧٨.

١ - (الإسـلام) اسـم أطلقـه اللـه، ويريد بـه جميـع الأديـان: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنـدَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾.
٢ - (الإسـلام) مصطلـح أُطلق على ديانات أنبياء آخريـن قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقـد اسـتعمله منهم: نـوح/ إبراهيم/ إسـماعيل/ يعقوب/ يوسـف/ لوط/ سليمان/ موسى.
٣- اسـتعمله الأنبياء الخمسة أولو العزم جميعاً، فجاء على لسان: نوح/ إبراهيم/ موسى/ عيسى/ محمد.
٤ - اسـتعمله أشـخاص خارج دائـرة الأنبياء لإطلاقـه على الأديان التـي بُعث بها الرسـل فـي زمانهم، ومـن ذلك: أبنـاء يعقوب (لـو قلنا بـأنّ المتكلّـم الجمع وليسوا كلّهم أنبياء، بل بعضهم كذلك)، بلقيس، السحرة بعد إيمانهم، حواريو المسيح، بل.. واستعمله فرعون كذلك.
٥ - الذي أدخره ليختصّ به الدين الخاتم (دين الإسلام) هو النبي إبراهيم عليه السلام.

فـ(الإسـلام) لفظ أُطلق على جميع الأديان السـماوية، وجميع رسـالات الأنبياء، غير أنا نشير - ختاماً - إلى نوعية هذا الإطلاق: هل هو إطلاق وصفي، أم اصطلاحي؟

أي، هـل جـاء ذلك الإطلاق وصفاً لجميع الأديان ولكلّ منها اسـم خاصّ يشـكل (عَلَماً) له يخصّه كـ(الحنفية، اليهودية، المسيحية)، أم هو (عَلَم) لجميع الرسالات، وما الأسماء الأخرى إلا فرعية توضيحية؟

أ- الإطلاق الوصفي:

يرى البعض أنّ إطلاق (الإسلام) على مجموع الأديان السماوية هو وصف ونعت لها - لا علَم عليها -، والمراد به: التسليم لله، ويستدلّ هؤلاء بقول علي عليه السلام: «لأنسبنّ الإسـلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»[1].

يقول السيّد الطباطبائي في تعليقه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: «إنّ الدين عند الله - سبحانه - واحد لا اختلاف فيه، لم يأمر عباده إلا بـه، ولـم يبيّن لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائـه إلا إياه، ولـم ينصب الآيات الدالة

(١) نهج البلاغة/ ٤٩١، قصار الحكم، الحكمة ١٢٥.

إلا له، وهو الإسلام الذي هو التسليم للحقّ، الذي هو حقّ الاعتقاد وحقّ العمل، وبعبارة أخرى: هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية في المعارف والأحكام»(١).

ويقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تعليقه على هذه الآية: «(الإسلام) يعني التسليم، وهو - هنا - التسليم لله، فإنّ معنى ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾: أنّ الدين الحقيقي عند الله هو التسليم لأوامره وللحقيقة. في الواقع لم تكن روح الدين في كلّ الأزمنة سوى الخضوع والتسليم للحقيقة، إنّما أُطلق اسم (الإسلام) على الدين الذي جاء به الرسول الأكرم ﷺ؛ لأنّه أرفع الأديان»(٢).

ب- الإطلاق الاصطلاحي:

ويرى أصحاب هذا الرأي أنّ (الإسلام) اسم عَلَم لجميع الأديان السماوية وإن اشتُهر إطلاقه على الدين الخاتم الذي جاء به النبي الأكرم محمد ﷺ، يقول الدكتور محمد رشاد سالم: «ومع أنّ الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، فقد تعارف الناس على أنّ كلمة (الإسلام) يُقصد بها اليوم الدين الذي أُنزل على محمد ﷺ.

وعلى ذلك فالإسلام دين عام؛ لأنّه دين البشرية كلّها في كلّ زمان ومكان، بل.. هو دين الثقلين: الإنس والجنّ، والإسلام بصورته الأخيرة الكاملة التامة هو الدين الذي أُنزل على محمد ﷺ، وهو خاتم الرسل، ورسالته خاتم الرسالات، فلا يقبل الله من الناس ديناً سواه»(٣).

سادساً: الترتيب المنطقي:

بعد إعداد البحث والدراسة القرآنية، علينا أن نرتب المحاور والنقاط والأفكار فيها ترتيباً منطقياً، فنحن نعيب على بعض الدراسات أنّها عشوائية في تسلسلها وهيكليّتها، قد تُقدِّم المظاهر قبل تحديد الظاهرة والتعريف بها، وتسرد النتائج قبل الأسباب، وتأتي بالنتائج متناثرة دون ترقيم ومنهجة!!

لذا يجب أن نتنبّه إلى ضرورة وجود (منهج) متبع في ترتيب النقاط وتوزيعها، فتُرتب المحاور ضمن سلّم تصاعدي أو تنازلي للأفكار، أو ضمن التقارب أو التضاد أو التوالي والتتابع أو التكامل، أو الزمن، أو العلل والمعلولات أو غير ذلك..

(١) الميزان في تفسير القرآن ٣/ ١٢٠.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢/ ٣١٤.
(٣) الدكتور محمد رشاد سالم، المدخل إلى الثقافة الإسلامية/ ٢٠٤.

فلو أردنا دراسة (الآخر في القرآن الكريم) لا يصحّ أن نرتب المحاور على النحو الآتي:

- كيف نتعامل مع الآخر؟
- ما هي أنواع الآخر؟
- ماذا نعني بـ(الآخر)؟

إذ لا يمكن أن نتعامل مع الآخر ونحن لا نعرف ما المقصود من هذه الكلمة؟، ثمّ إنّ تعاملنا معه يختلف حسب أنواعه، فكيف ندرس كيفية التعامل قبل أن نعرف الأنواع؟، والمنطقي أن يكون ترتيب تلك النقاط كالآتي:

- ماذا نعني بـ(الآخر)؟
- ما هي أنواع الآخر؟
- كيف نتعامل مع الآخر؟

وهذا الترتيب المنطقي نظير ترتيب المراحل العمرية للإنسان وفق التسلسل التصاعدي التالي: (الطفولة - المراهقة - الشباب - الكهولة والشيخوخة).

فهذا الترتيب يعتمد على معيار زمني تتوالى المراحل وفقه، ولو رُتبت بطريقة غير منطقية مثل: (الكهولة والشيخوخة - المراهقة - الطفولة - الشباب)، لأحدث ذلك تشوشاً ذهنياً، ودراسة المراحل على هذا النحو تُفقد الدارس إمكانية التعرّف على المفارقات والتطورات وخصائص النمو الحاصلة في مسيرة الإنسان والتي يعنى بتوضيحها (علم نفس النمو)!!

سابعاً: المشروع الكتابي:

وبعد أن نقوم بما سبق من نقاط سوف نصل إلى لحظة تنفيذ المشروع الكتابي التي تمرّ بثلاث مراحل تصاعدية، هي:

١- وضع المخطط الذهني:

فيتمّ تنضيج الموضوع ذهنياً، وإجالة الذهن في النقاط التي ستُبحث.

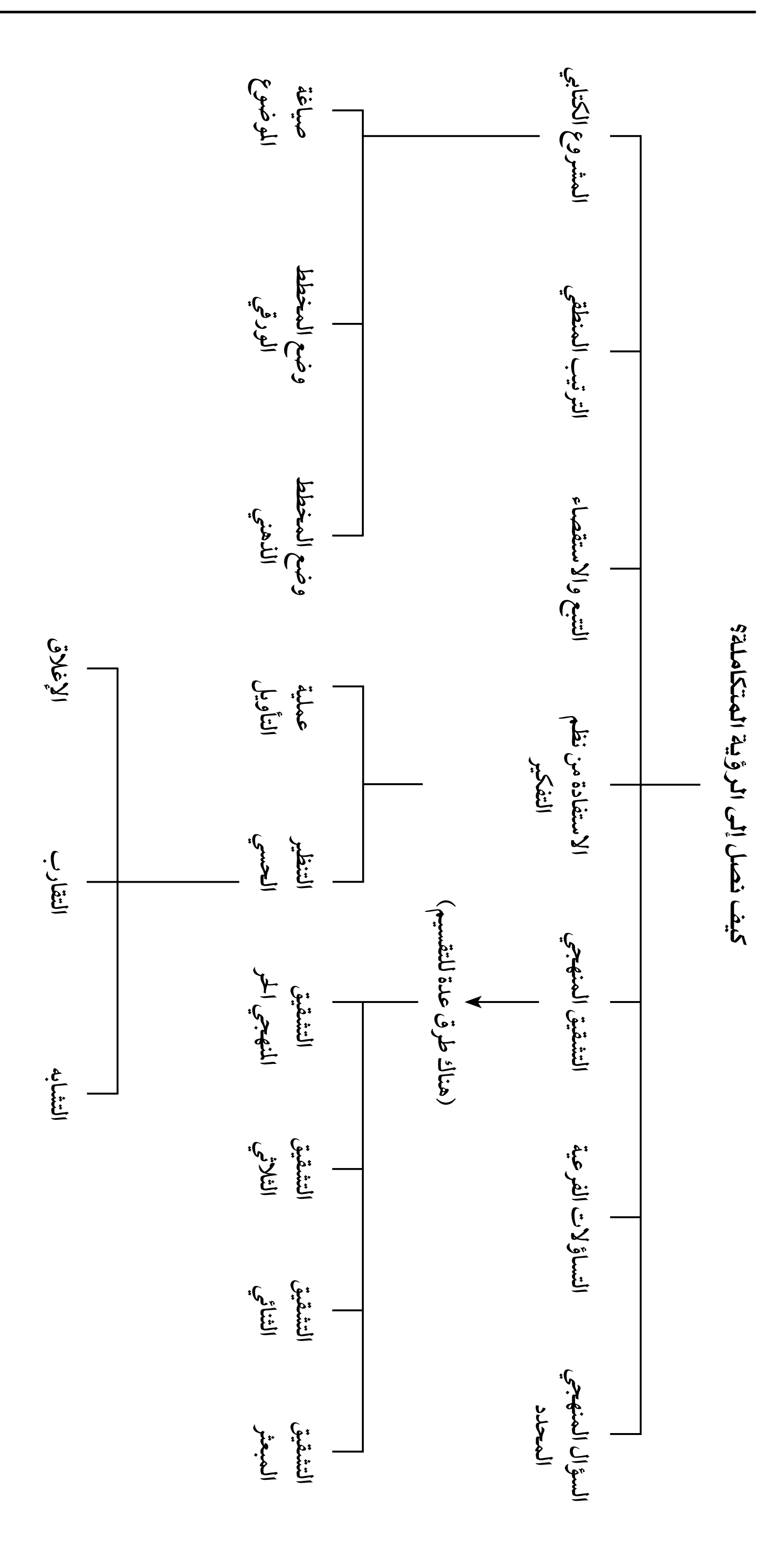
٢- وضع المخطط الورقي:

وهنا يتمّ إنزال المخطط الذهني إلى الورق، ووضع الصورة الأولية للموضوع، وكتابتها - كمسودة - قابلة للتعديل بالحذف أو الإضافة أو التغيير.

٣- صياغة الموضوع:

وبعد الوصول إلى مرحلة التشـبّع الذهني والورقـي للموضوع، ووضوح خطوطه بشـكل عام، تبدأ عملية الكتابة والصياغة الفعلية والتفصيلية للصورة التي سـيتمّ إخراجه بها.

وسـوف نرى أنّـه غالباً ما تتمّ تغييـرات في كلّ مرحلة عن السـابقة لها، وهو أمر لا يـكاد يفلـت منه حتى الكاتب المتمرّس، وهذا ليس دليلاً علـى نقص في الخبرة والدربة، بل هو دليل على تكامل التجربة وتعمّقها ونموها.


كيف نصل إلى الرؤية المتكاملة؟
السؤال المنهجي المحدد
التساؤلات الفرعية
التشقيق المنهجي
(هناك طرق عدة للتقسيم)
التشقيق المنهجي الحر
التشقيق الثلاثي
التشقيق الثنائي
التشقيق المعشر
الاستفادة من نظم التفكير
التنظير الحسي
التشابه
التقارب
الإغلاق
عملية التأويل
التتبع والاستقصاء
الترتيب المنطقي
المشروع الكتابي
وضع المخطط الذهني
وضع المخطط الورقي
صياغة الموضوع

ت١: أقومُ بالتشقيق بأقسامه الأربعة (المبعثر، الثنائي، الثلاثي، الحرّ) على المحور التالي: (أصناف الناس تجاه المبادرة قرآنياً)، مستفيداً من مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[2].

ت٢: أستخرجُ نوع التشقيق المستخدم في هذه الآيات:

أ - ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3].

ب- ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾[4].

ج - ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[5].

د - ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[6].

هـ - ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[7].

و - ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[8].

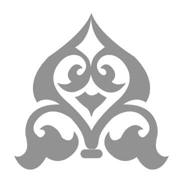
---

(١) سورة آل عمران/ ٧٥.
(٢) سورة المائدة/ ٢٤.
(٣) سورة الكهف/ ٤٦.
(٤) سورة يونس/ ١٢.
(٥) سورة الذاريات/ ٥٦.
(٦) سورة الحج/ ٢٧.
(٧) سورة الأنفال/ ٤١.
(٨) سورة التوبة/ ٦٠.

ت٣: مــا المقصود بنظرية الإغلاق؟، وهل هــي نظرية لا تعمل إلا ضمن التقسيم الثلاثي فقط؟

ت٤: وفقاً لعملية التأويــل، يورد (بحار الأنوار) في الجزء ٨٩، الباب الثامن، الصفحــة ٧٩، الحديث الثاني.. حديثاً عــن الإمام علي عليه السلام يبيّن فيه المقصــود بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1]، فمن هو المنذر ومن هو الهادي؟

(١) سورة الرعد/ ٧.



الفصل الرابع



منهج التدبر الموضوعي الكشفي



- الاستفادة من ممهدات النصّ.
- تحديد هدف السورة.
- اكتشاف محور السورة.
- تقسيم السورة إلى مقاطع.
- اكتشاف الوحدة العضوية.
- دراسة السورة كموضوع.



منهج التدبر الموضوعي الكشفي

سبق أن قلنا: إنّ التدبر الموضوعي الكشفي يستهدف إشادة موضوع من سورة قرآنية، بما يحتاجه من معرفة (الوحدة الموضوعية) بين الآيات فيها، وقد يسعى لدراسة موضوع واحد من موضوعات تناولتها سورة معيّنة، أو دراسة موضوع تناولته آية جامعة أو مجموعة من الآيات، ومن ثمّ فهو ليس منهجاً تجميعياً يسعى لجمع الآيات على طول المسرح القرآني، وإنّما يأخذ مقطعاً جاهزاً ومجموعاً في مكان واحد يمثل سورة أو بعض سورة، وهذا يستدعي الوقوف أمام المنهج الذي قد يمكننا به التعامل مع هذا النوع من التدبر.

ولعلّنا هنا - في منهج التدبر الموضوعي الكشفي - نحتاج إلى خطوات هامة هي:

١ - الاستفادة من ممهدات النصّ.

٢ - تحديد هدف السورة.

٣- اكتشاف محور السورة.

٤ - تقسيم السورة إلى مقاطع.

٥ - اكتشاف الوحدة العضوية.

٦ - دراسة السورة كموضوع.



الخطوة الأولى: الاستفادة من ممهدات النصّ (عتبات النصّ)

فهناك أمور تشكل مقدّمات للنصّ، هي بمثابه (عتبات للنصّ)، كما تشكل عتبات المنزل مقدمة إليه، تفيد النصّ في توضيح معناه، وتشكل موجّهات إليه، وتنفع في سبر أغواره، والعيش في ظرفه ومحيطه.

ونشدّد على أنّها تمثل ممهدات وعتبات للنصّ، لا محدّدات لمعنى النصّ ومساره، وليست شيئاً مطلوباً لذاته، وإنّما ليفيد في تسليط الضوء على النصّ، واستكشافه.

ومن هذه الممهدات: اسم السورة، والأحاديث الواردة في فضلها وخصائصها، وعلاقتها بسور أخرى، وسبب نزولها، وزمن النزول.

١- اسم السورة:

هل هناك علاقة بين اسم السورة والمعاني التي تحملها آياتها؟

للإجابة على هذا السؤال قد ينبثق رأيان متضادان:

الأول: نفي العلاقة:

ربّما يعتقد البعض أنّ اسم السور إنّما هو أمر لقبي فائدته تمييز السورة عن غيرها، فسورة اسمها (البقرة)، وأخرى (آل عمران)، وثالثة (النساء)، وهكذا، وإلا.. فإنّ كثيراً منها يحمل موضوعات أخرى تشترك بين بعض السور، وربّما يكون مقدار الآيات التي تتحدث عن موضوعات أخرى فيها أكثر من مقدار الآيات التي تتحدث عن الموضوع الذي اشتُق منه العنوان، فسورة البقرة – مثلاً – تقع في ٢٨٦ آية، والآيات التي تناولت فيها قصة البقرة إنّما هي سبع آيات فحسب، شكلت المسافة ما بين الآيات ٦٧– ٧٣ فقط!!

و(سورة الجمعة) المكوّنة من ١١ آية جاء عنوانها من آخر آيتين فيها، وإلا.. فأولها يتحدث عن تسبيح الله، وأثر البعثة النبوية الشريفة، وفضل اللاحقين بركب الإيمان، ثمّ ينسرب البحث – في أكثر آياتها – عن بني إسرائيل، فما هي محورية (الجمعة) ليكون عنواناً للسورة؟!

ولعلّ من أوضح هذا ما حمل اسماً معيّناً لشخص أو جماعة أو شيء أو حادثة، فالسورة لا تختصّ بالحديث عنه، ولم يمثل القسط الأكبر من آياتها، بل.. قد يرد الاسم في غيرها أكثر من وروده فيها:

فهناك سور حملت أسماء أعلام شخصية مثل: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، مريم، طه، يس، نوح، أو أعلام جمعية مثل: آل عمران، الروم، قريش.

وهناك سور حملت اسم شيء من عالم الحيوان أو النبات أو الطبيعة والكون، مثل: البقرة، والأنعام، والنحل، والنمل، والعنكبوت، والفيل. والتين، والكهف. والطور والنجم والقمر والحديد.

وهناك سور حملت اسم حادثة حصلت، مثل: الإسراء، والمجادلة، والتحريم، وعبس.

وهناك أسماء حملت اسم حادثة ستقع في المستقبل، مثل: الدخان، الزلزلة، الواقعة، القيامة.

وعلى سبيل المثال – فقط – فقد ورد اسم النبي إبراهيم في سورة البقرة ١٥ مرة، بينما لم يرد في سورة إبراهيم إلا مرة واحدة!!

الثاني: إثبات العلاقة:

ويذهب هذا الرأي إلى أنّه «ليس من شك في أنّ بعض الأسماء التي تُسمى بها سور القرآن تعبِّر عن موضوعها فعلاً، فقد سُمّيت البقرة (فسطاط القرآن)؛ لما جُمع فيها من الأحكام التي لم تُذكر في غيرها، والجاثية سُمِّيت سورة (الشريعة). وسورة الإخلاص سُمِّيت (الأساس)؛ لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الدين»[1].

وهذا الرأي يستفيد من أسماء سور القرآن حتى تلك التي لم تُعنون بها السور في المصحف الشريف، كتسمية سورة البقرة بـ(فسطاط القرآن)، أو (سنام القرآن)، وسورة

(١) التفسير الموضوعي: نظرية وتطبيقاً/ ١٠٩.

الرحمن بـ (عروس القرآن)، وسورة يس بـ (قلب القرآن)، وسورة الجاثية بـ (الشريعة)، وسورة الإخلاص بـ (الأساس).

ويرى البعض أنّ «أسماء السور القرآنية تخضع للتركيز على قصة معيّنة، أو اسم معيّن، أو موضوع خاصّ بارز في السورة مما يُراد توجيه الأنظار إليه، فنجد أمامنا سورة آل عمران، وسورة النساء، والكهف، والإسراء، وغيرها.. من السور التي كانت تشتمل على ما رمز إليه عناوينها، وكانت تسمية سورة البقرة رمزاً للقصة المذكورة في حوار موسى عليه السلام مع قومه عندما قال لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾[1]»[2].

والزُّمَر - في اللغة العربية -: الجماعات[3]، وقد سُمِّيت سورة في القرآن الكريم بهذا الاسم، ومن الآيات التي وردت فيها:

- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4].

- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[5].

وهكذا فاسم السورة يوضّح المعنى الذي أشارت إليه الآيتان القرآنيتان، وأنّ الناس في يوم القيامة تسوقهم الملائكة في أفواج متتابعة إلى النار، أو إلى الجنة.

وأنّ اسم السورة يمثل الصلب الذي تدور حوله آيات السورة، ولو مثلت آياته من الناحية الكمية المقدار الأقل، فالحساب ليس كمياً وإنّما هو كيفيّ محوريّ.

٢- فضائل السورة:

والأحاديث الواردة في فضل السورة ومكانتها قد تكشف عن شيء أصيل ينفعنا في سبر الموضوع في تلك السورة واستجلاء ملامحه.

(١) سورة البقرة/ ٦٧.
(٢) السيّد محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن ١/ ١٧.
(٣) لسان العرب ٦/ ٨٠، مادة: (زمر).
(٤) سورة الزمر/ ٧١.
(٥) سورة الزمر/ ٧٣.

ولنضرب – مثلاً – لذلك من (سـورة النصر)، فقد روي عن النبي ﷺ: أنّه قال: «مَن قرأ هذه السورة أُعطي من الأجر كمن شهد مع النبي – صلى الله عليه وآله – يوم فتح مكة، ومَن قرأها في صلاة وصلى بها بعد الحمد قُبلت صلاته منه أحسن قبول»[(١)].

وروي عـن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن قرأ ﴿**إِذَا جَـاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾[(٢)] فـي نافلـة أو فريضة نصره الله على جميع أعدائه، وجـاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق، قد أخرجه الله من جوف قبره فيه أمان من حرّ جهنم ومن النار، فلا يمرّ على شيء يوم القيامة إلا بشّـره وأخبره بكلّ خير حتى يدخل الجنة، ويُفتح له في الدنيا من أسـباب الخير ما لم يتمنّ ولـم يخطر على قلبه»[(٣)].

وهـذه الأحاديـث في فضل السـورة تتفاعل مـع مجموعة من الحقائـق التي حفّت النصّ القرآني، أو انتصبت فيه، ومن ذلك:

– أنّ جملة «مَن قرأ هذه السـورة أُعطي مِن الأجر كمن شـهد مع النبي – صلى الله عليه وآله – يوم فتح مكة» تشـير – بدلالة خفية ضمنية – إلى ظرف حصول هذه السـورة، وأنّها عند فتح مكة المكرّمة، ومن ثمّ كان فضل من قرأها كمن شـهد مع النبي ﷺ يوم فتح مكة، لا فتح الطائف أو غيرها..، وهو اختيار موحي ودقيق.

– أنّ جملة «مَن قرأ ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ في نافلة أو فريضة نصره الله على جميـع أعدائه، وجـاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق» تشـير إلى النصـر الظافر الذي تحقق بفتح مكة، ويعمّم دائرة الانتصار إلى الدنيا حيث النصر على الأعداء، وإلى الآخرة حيث يربح في ساحة المحشر، وينعم بالجنة، وقد شهد له كتابه الناطق.

– أنّ جملـة «مَـن قرأهـا في صلاة وصلى بهـا بعد الحمد قُبلت صلاته منه أحسـن قبول» تستحضر عنصر الاستغفار الذي ركزت عليه السورة.

٣- خصائص السورة:

فقد ورد في الروايات عن خصائص بعض الآيات والسـور ما قد يكشف شيئاً هاماً فيها، ويعيننا على دراسة الموضوع فيها، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ١٠/ ٤٤٧، ح ١١٩٦٥.
(٢) سورة النصر/ ١.
(٣) البرهان في تفسير القرآن ١٠/ ٤٤٧، ح ١١٩٦٤.

- (آية الكرسي) أعظم آية في القرآن[١]:

وربّما يكشف هذا عما فيها من معان جليلة وعظيمة، لاسيما فيما يتعلق بالله – سبحانه وتعالى – وصفاته الذاتية والفعلية التي تنظمها صفتا ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٢]، والصفات المنتفية السلبية التي تنزه عنها ومنها أنّه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ﴾[٣].

- (سورة الرحمن) عروس القرآن[٤]:

وقد يكشف هذا عن الجمال الأسلوبي الفتّان في السورة، والوقع الموسيقي النغمي العذب لآياتها، لاسيما مع جرس الفاصلة القرآنية الذي سيطر على الأغلبية الساحقة فيه حرف النون المسبوق بألف المدّ.

- (سورة الإخلاص) ثلث القرآن[٥]:

وقد يكشف هذا أهمية (التوحيد) و(الإخلاص) لله، ومكانتهما في الدين، فالتوحيد لدى الإسلام هو أهمّ أصل عقدي تتمحور حوله جميع التشريعات والأفعال، ومن ثمّ ينبغي إخلاص العبادة والفعل لله تعالى، وعدم شوبها بأيّة شائبة من شوائب الشرك والغير، بحيث يمثّل هذا الأصل العقدي وما يتفرّع منه ثلث القرآن، ويجتمع سواه – وهو كثير عدداً وقِيَماً – في الثلثين الآخرين.

- (سورة الكافرون) ربع القرآن[٦]:

ولعلّه يشير إلى أهمية عنصر (البراءة) في الدين.

---

(١) تفسير الصافي ١/ ٢٨٣.
(٢) سورة البقرة/ ٢٥٥.
(٣) سورة البقرة/ ٢٥٥.
(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، م ٥، ج ٩، ص ٢٩٦.
(٥) البرهان في تفسير القرآن ١٠/ ٤٦٤، ح ١٢٠٠٧.
(٦) نفسه ١٠/ ٤٤٣، ح ١١٩٥٥.

٤- سبب النزول:

المقصود من (سبب النزول): «ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه، كحادثة أو سؤال»[(١)].

فمن الأشياء التي تعيننا على تأمل (سورة المجادلة) والعيش في أجوائها إلى جانب عنوانها الموحي بحصول المحاورة والمراجعة في الكلام بين طرفين: سبب النزول الكامن في حادثة جرت لامرأة ظاهَرَها زوجُها، فجادلت رسول الله ﷺ في شأن الحكم المتعلق بها، وقد جاء هذا السبب موضحاً شيئاً من عتبات النصّ المفيدة في سبر معاني السورة:

فقد كانت (خولة بنت ثعلبة) أو (خويلة بنت ثعلبة) أو (خولة بنت خويلد) – على اختلاف الأقوال في اسمها –، زوجة لـ (أوس بن الصامت)، وكانت حسنة الجسم جميلة، فرآها زوجها ساجدة، فأرادها، فأبت، فغضب وقال: «أنتِ عليَّ كظهر أمي» – وكان الظهار من طلاق الجاهلية –، ثمّ ندم وقال: «ما أراكِ إلا وقد حرمتِ عليّ»، فقالت له: «لا تقل ذلك وأتِ رسول الله فاسأله»، فقال: «إنّي أجد أني أستحي منه أن أسأله عن هذا»، فذهبت هي إلى رسول الله وأخبرته، فقال ﷺ: «ما أراكِ إلا حرمتِ عليه، ولم أؤمر في شأنكِ»، فأخذت تجادله في شأنها وتقول: «أشكو إلى الله فاقتي وحاجتي وشدة حالي، اللهمّ فأنزل على لسان نبيّكَ»، فنزل الوحي على رسول الله يقول له[(٢)]:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[(٣)].

وقد حملت هذه الآيات إلى جانب كلمة **﴿تُجَادِلُكَ﴾** كلمات أخرى موحية بالأجواء ذاتها مثل: **﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾**.

وفي أماكن كثيرة من القرآن وُجِّهَتْ أسئلة للنبي الأكرم ﷺ، فكانت سبباً لنزول

(١) مباحث في علوم القرآن/ ٧٨.
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن م ٥، ج ٩، ص٣٧١، وأسباب النزول/ ٢٢٨- ٢٣١.
(٣) سورة المجادلة/ ١ – ٣.

بعض الآيات الشريفة، ومن ذلك:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(١).

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

ولا يخفى أنّ بعض السور القرآنية - ولا سيما الطويلة، كالبقرة وآل عمران والنساء - قد تحتوي على مجموعات من الآيات، لكلّ منها سبب نزول مستقل، والكلام عن سبب نزول تلك السورة ينحلّ بدوره إلى مجموعة من أسباب النزول التفصيلية.

فسبب النزول ينير - في كثير من الأحيان - موضوع السورة أو الآيات؛ لأنّه يذكر الظرف الخارجي الذي جاءت فيه الآيات، وعبره نستطيع عقد المقارنة بين العنصر الداخلي الكامن في النصّ ودلالاته، والعنصر الخارجي الماكث في ذاك الظرف والحدث؛ لنرى أنّ القرآن الكريم كان يتعاطى بوعي ومسؤولية مع الواقع الخارجي - لاسيما الاجتماعي منه -، ولم يكن يتعالى على مشكلات الإنسان والمحيط والمجتمع، وكان يربط نزوله التدريجي بتلك الأحداث الحاصلة في الواقع الخارجي حتى يُحدث اللحمة بين الواقع والعلاج، بدلاً من كون القرآن نظرية عامة لا تتجاوب مع واقع ملموس، وكان ذاك أدعى لتثبيت الآيات وقيمها في النفوس، وبثّ القوة في المسلمين، وكانت تأسو جراحهم وتهدهد أتعابهم؛ لذلك لم يكن القرآن كتاب نظرية عامة نزلت دفعة واحدة، ثمّ جاءت تطبيقاتها متتالية مع الزمن، وإنّما كانت حلولاً واقعية تُزامن المشكلة، واستفهامات الواقع، وتضع لها الحلّ الناجع، والجواب الشافي:

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٣).

- ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف/ ١٨٧.
(٢) سورة البقرة/ ٢٢٠.
(٣) سورة الفرقان/ ٣٢.
(٤) سورة الإسراء/ ١٠٦.

٥- زمن النزول (المكيّ والمدنيّ):

نزلت بعض الآيات أو السور القرآنية في مكة المكرمة، ونزلت أخرى في المدينة المنورة، ولم يكن الأمر مجرّد اختلاف مكاني، بل.. هناك اختلاف بيّن في المضمون والشكل، الموضوعات والأسلوب:

- فالسور المكية تركز على موضوعات العقيدة (الإيمان بالله، الإيمان بالرسالات السماوية، الإيمان بالبعث والمعاد)، والدعوة إلى أمهات الأخلاق، ومن ثمّ فإن كانت السورة مكية، فلن تخلو - غالباً - من أحد هذه الموضوعات.

والسور المدنية غالباً ما تستهدف بناء المجتمع الإسلامي على أسس الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة، وحماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية؛ بكشف مخططات المنافقين والكفار[1]، بالإضافة إلى حديثها عن شؤون الجماعة المسلمة (المؤمنين) وشؤون الدولة الإسلامية.

فكون سورة (الكافرون) مكية يضعنا في صورة المواجهة العقدية التي تمّت بين عقيدة التوحيد/ وعقيدة الشرك القرشية، وحملت عنصر (البراء/ البراءة) من عقيدة الشرك.

وكون (سورة الأنفال) - مثلاً - مدنية، يضعنا أمام صورة ما يحتاجه المجتمع المسلم في المدينة من حاجات تناسب الدولة ورعاياها وتشريعاتها الضابطة، والتي وقع القسم الأكبر منها في هذه السورة حول الحرب، وما يتفرّع عنها من الغنائم والأنفال والأسرى.

- وإلى جانب الفرق بين السور المكية والمدنية في المحتوى والموضوعات، هناك فرق في الأسلوب والشكل، فالآيات المكية قصيرة، ذات جرس حارّ، فيها تقريع وتوبيخ، بخلاف آيات السور المدنية التي تتسم بطابع الهدوء والطول.

وقد تحدثنا عن ذلك في فقرة (الجمع الترتيبي: معرفة الخصائص الفنية للآيات).

وهكذا فزمن النزول يمثّل موجّهاتٍ تفيد في معرفة هدف الآية أو السورة وموضوعها أو الموضوعات التفصيلية التي ستتحدث عنها، فضلاً عن إعطائنا صورة عن المنهج الأسلوبي الذي تسير عليه في شكل العرض، كما أنّ زمن النزول يفيدنا في تحديد المرحلة التاريخية التي واكبتها من حركة الرسالة المحمدية، ومدى التناغم بين الواقع والنصّ.

(١) مباحث في التفسير الموضوعي/ ٤٢.

٦- علاقة السورة بسور أخرى:

ويفيدنـا هـذا في معرفة أثر موضوع سـورة فـي أخرى، فقد تكون السـورة اللاحقة امتـداداً للموضوع الوارد في السـورة السـابقة، وبعبـارة أصحّ تكون السـورتان قد تناولتا موضوعاً واحداً: تناولته كلّ واحدة من طرف (علاقة تكامل).

فهناك سـور قرآنيـة متوالية في الرسـم القرآني يلحظ قارئها تواشـج موضوعها مع موضوع السورة السابقة، ومن أمثلة ذلك:

أ - سورتا الأنفال والتوبة:

فكلتاهما تتكلم عن الحرب وأحكامها.

ب- سورتا الضحى والانشراح:

وكلتاهما تتكلم عن النبي الأكرم محمد ﷺ، وتتناولان ما أغدقه الله على رسوله من نعم في الدنيا، وما سيغدقه عليه في الآخرة، والمطلوب منه إزاء ذلك.

ج- سورتا الفيل وقريش:

وكلتاهما تتحدث عن المجتمع القرشـي، والأولى تتناول حادثة (أصحاب الفيل) التي كادت تسـتأصل شـأفة قريش، وتهدم مصدر عزّهم (الكعبـة)، لكنّ يد الغيب حالت دون ذلـك، والثانيـة تتكلم عـن الألفة الاجتماعية الذي أسـبغها الله عليهـم، فكانت لهم رحلتا الشـتاء والصيف، وتذكر العناصرَ التي من شـأنها بقاء أو إبقاء المجتمع القرشي من المصدر الاقتصادي والمصدر الأمني، إلى ضرورة التوجّه القيمي لله (العبادة).

فسـورة (الفيل) هي قراءة تاريخية للمجتمع القرشـي تبيّن صـورة ماضية لهم امتنّ اللـه عليهم فيهـا بحفظهم، وسـورة (قريش) هي قـراءة معاصرة تبيّن حالهـم وقت نزول القرآن الكريم، ومجموع السورتين قراءة للمجتمع القرشي.

وسـورة الفيـل تمتـنّ عليهم بذكـر السـبب الذي مهّـد لهم القيـام برحلتي الشـتاء والصيف، فلولا أنّ الله حفظهم من عنجهية أبرهة الأشـرم لمحقهم واسـتأصل شـأفتهم، ودمّـر البيت الحرام الذي هو مصدر عزتهم واسـتقرارهم المكاني والاجتماعي؛ وما كان

لهـم أن يقومـوا بتلكما الرحلتين، فـ«هلاك أصحاب الفيل كانت عاقبته تمكين قريش من رحلتيها شتاء وصيفاً»(١).

وقد ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلا (الضحى وألم نشرح)، و(وألم تر كيف ولإيلاف قريش)» (٢).

وروى زيد الشحام: «صلى بنا أبو عبد الله [الصادق] - عليه السلام - الفجر، فقرأ (الضحى) و(ألم نشرح) في ركعة»(٣).

ومن ثمّ عدّ كثير من فقهاء الإمامية سورتي (الفيل وقريش) بمثابة سورة واحدة في الصـلاة اليومية الواجبـة، لا تكفي قراءة إحداهما في الركعة الواحدة منها، وكذلك الحال مع سورتي (الضحى والانشراح).

يقول المحقق الحلي: «روى أصحابنا أنّ (الضحى) و(ألم نشـرح) سـورة واحدة، وكذا (الفيل) و(لإيلاف)، فلا يجوز إفراد إحداهما من صاحبتها في كلّ ركعة»(٤).

ويقول السـيّد أبو القاسم الخوئي: «سـورتا (الفيل والإيلاف) سورة واحدة، وكذا سورتا (الضحى وألم نشرح)، فلا تجزيء واحدة منهما، بل.. لابدّ من الجمع بينهما مرتباً مع البسملة بينهما»(٥).

خطر الإيغال في الممهدات:

ولابـدّ أن نشـير إلى أنّ هذه الممهّدات التي تمثّل عتبـات للنصّ قبل ولوجه والدخول إليـه.. تسـهم في تسـليط الضوء عليه، وتوجيه عملية التدبر أو التفسـير، وبيـان الجو والمناخ

(١) مباحث في علوم القرآن/ ٩٩.
(٢) وسائل الشيعة ٤/ ٧٤٤، الباب ١٠، ح ٥.
(٣) نفسه ٤/ ٧٤٣، الباب ١٠، ح ١.
(٤) المحقق الحلي، شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، تحقيق: السيّد عبد الزهراء الحسيني ١/ ٢٤١، وانظر كذلك: الشيخ محمد حسن النجفي، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ٤/ ١٥.
(٥) السيّد أبو القاسم الخوئي، منهاج الصالحين ١/ ١٦٨، المسألة ٦٠٥، والمسألة عينها عند: السيّد عبد الأعلى السبزواري، منهاج الصالحين ١/ ١٥٠، المسألة ٧١٦، والسيّد محمد الروحاني، منهاج الصالحين ١/ ١٧٧ـ ١٧٨، المسألة ٥٧٨، والسيّد علي السيستاني، منهاج الصالحين ١/ ٢٠٧، المسألة ٦٠٥.

الذي تجري فيه الآيات والسور، ولكن.. عندما يتمّ الإكثار منها والمبالغة فيها، والإسهاب في المساحة المعطاة لها، أو الطريقة التي توظف بها؛ فقد يوقعنا ذلك في مخاطر جمّة، منها:

أ- غلبة البحث الخارج نصّي (الخانصي):

وحينئذ ينصبّ الدرس عليها بدلاً من انصبابه على النصّ القرآني، وبهذا ستكون الأفكار المتوصَّل إليها خارج نصّية، قد لا تمتّ إلى النصّ القرآني بصلة.

وربّما تمثّل تلك الكثافة في الممهّدات نوعاً من الحشو الذي لا يحتاجه البحث بهذه الوفرة، لكنّه سيدفع بمنكبه الدراسة النصّية والتأمل النصّي، ويحلّ محلها.

ب- نفاذ الروايات الضعيفة والإسرائيلية:

فكثافة الممهّدات قد تشوّه الحقائق في البحث، ومن ثمّ يقوده ذاك إلى أنفاق مظلمة بعيدة عن الروح القرآني؛ لسلامة النصّ القرآني من التحريف بكلّ أنواعه (الزيادة، النقص، التغيير)، بخلاف ممهّدات النصّ فقد جرى في بعضها الاختلاف، وامتدت لبعضها يد الوضع والتدليس.

ونحن ندرك - هنا - ضرورة التعامل بحذر شديد مع أحاديث فضائل السور وخواصّها، والأحاديث التي تتكلم عن الأمم الماضية، وضرورة البحث السندي والمتني والدلالي لها، وإجراء مقاييس عِلْمَيّ الرجال والدراية عليها قبل الأخذ بها، وجعلها موجّهاً تفسيرياً أو تدبرياً؛ لأنّها قد تكون - حينئذ - مضللاً بحثياً سلبياً يعمل على البعد عن المدلول القرآني، وذاك أمر لا يشك فيه من سبر عملية الوضع التي قام بها بعض المدلسين ممن استظلّ بلواء الإسلام، وبعض الوضّاعين من أهل الكتاب.

فقد وضع بعض المدلسين من الرواة أحاديث لصالح مللهم وعقائدهم، أو لخدمة مصالح السياسيين، أو لجلب أنظار طلاب الحديث، أو غير ذلك، ومن هؤلاء الوضاعين قاضي (مرو) نوح بن أبي مريم المروزي الذي وضع فضائل ١١٤ سورة قرآنية (جميع سور القرآن)، فـ«قيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة؟، فقال: إنّي رأيتُ الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق، فوضعتُ هذه الأحاديث حسبة»[1].

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٦١٢.

يقـول الشـيخ الأميني فـي (الغدير): «نوح بن أبـي مريم يزيد أبـو عصمة، المتوفى ١٧٣هـ، شيخ كذاب، كان يضع الحديث كما يضع معلّى بن هلال. وضع حديث فضائل القرآن الطويل، قال الحاكم: هو الذي وضع أحاديث فضائل القرآن، وأحاديث فضل سور القرآن مئة وأربعة عشر كلّها كذب»(١).

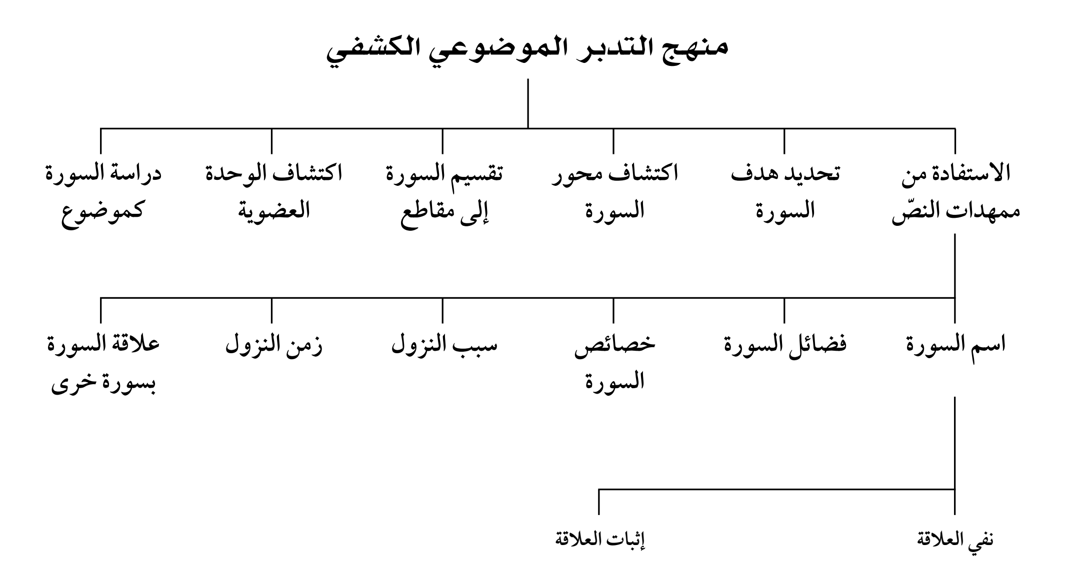
ويواصل الأميني قائلاً: «قد ذكر الحاكم وغيره من شـيوخ المحدّثين: أنّ رجلاً من الزهاد انتدب في وضع أحاديث في فضل القرآن وسوره، فقيل له: لم فعلتَ هذا؟!، فقال: رأيـتُ الناس زهدوا في القـرآن، فأحببتُ أن أرغبهم فيه، فقيل: فإنّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (مَن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) (٢)، فقال: أنا ما كذبتُ عليه، إنّما كذبتُ له»(٣).

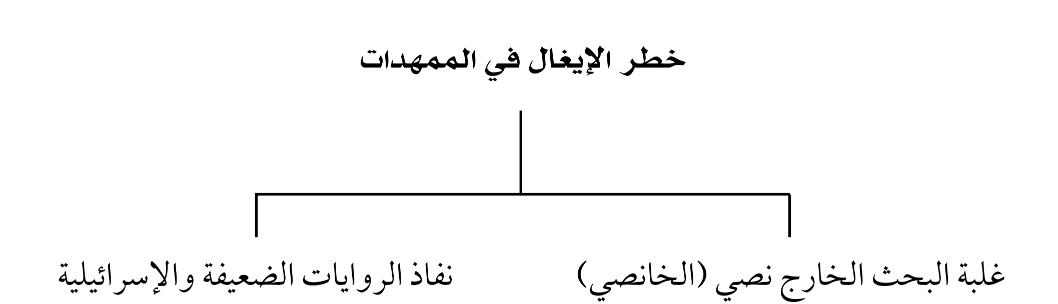
كما أنّ بعض من كان من أهل الكتاب، وأعلن اعتناقه للإسلام، مثل: كعب الأحبار، وتميـم الـداري، أو بعض من تأثر بهم مثل: وهب بن منبّه؛ قاموا بنشـر روايات إسـرائيلية على أنّها مما في الكتب القديمة، لاسيما في حكاية تاريخ الأمم الماضية، ونسب بعضهم ـ لاسيما من دخل منهم الإسلام – شيئاً من ذلك للنبي محمد ﷺ نفسه، وكانوا يرتجون من وراء ذلك الوضع تحقيق الإمتاع الذهني، وصرف النظر عن العمق العملي والرسالي للآيات، وتحويلها إلى سرد أسطوري ينفع في إلهاب المخيال الذهني والصدّ عن ممارسة التأمـل الفكري العميق، ومن هذا ما رأيناه سـابقاً من أسـاطير تحدثت عن غرائب عمران مدينة (إرم ذات العماد)، أو عن القوم الجبارين الذين كانوا في الأرض المقدسة التي أمر النبي موسى عليه السلام قومه بدخولها!!

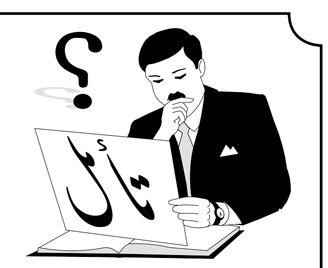
إنّ المرتكـز الأسـاس عندنا فـي عملية التدبـر القرآني هو النـصّ القرآني، وأما غيره فنحن نتعامل معه بمقدار ما يخدم النصّ وينسـجم معه ومع طبيعة القرآن الكريم والصحيـح مـن الحديث، وأما غيره فينبغي أن نحذر من أن يشـقّ لنـا طريقاً يبعدنا عن المراد القرآني.

---

(١) الشيخ عبد الحسين الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب ٥/ ٢٦٩.
(٢) صحيح البخاري، م ٢، ج ٤، ص ١٤٥ باب (ما ذُكر عن بني إسرائيل).
(٣) الغدير في الكتاب والسنة والأدب ٥/ ٢٧٥.


منهج التدبر الموضوعي الكشفي
الاستفادة من ممهدات النصّ
تحديد هدف السورة
اكتشاف محور السورة
تقسيم السورة إلى مقاطع
اكتشاف الوحدة العضوية
دراسة السورة كموضوع
اسم السورة
فضائل السورة
خصائص السورة
سبب النزول
زمن النزول
علاقة السورة بسورة خرى
نفي العلاقة
إثبات العلاقة


خطر الإيغال في الممهدات
غلبة البحث الخارج نصي (الخانصي)
نفاذ الروايات الضعيفة والإسرائيلية



ت١: أضعُ علامة (✓) أمــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- عدم الانسـجام بيـن الممهّدات وبين محتوى السـورة يدلل على عدم صحة تلك الممهّدات واختلالها بالضرورة.(   )

ب - علاقة سورة بأخرى إنّما هو في الإطار التعبدي الفقهي في قراءتها عند الصلاة، وليس ثمة علاقة على مستوى المعاني والأفكار. (   )

ج - هنـاك فـرق بين (الكـذب على النبي) و(الكـذب للنبي)، فالأول حـرام، والثاني جائز. (   )

ت٢: هل يمكننا الاتكاء على اســم الســورة وفضلها وســبب نزولها علماً بأنّ الروايات الواردة في ذلك كثيرة، وقد يتناقض بعضها مع بعض؟!

ت٣: إذا كان لكلّ ســورة في اسمها أثر في مضامينها ومحتواها لا في الشكل والتركيب، فما الذي يفيده القرآن مضمونياً في محتوى آياته وسوره؟

ت٤: لدينا سور نزلت أجزاؤها في أكثر من حدث، وبعضها نزل مرتين، فكيف يمكننا الأخذ بسبب النزول كممهّد؟!

الخطوة الثانية: تحديد هدف السورة

ما المقصود من (الهدف)؟

نقصد من (الهدف): الغرض والغاية والمقصد المراد تحقيقه من خلال القيام بالشيء.

فالمسافر الذي يريد الذهاب إلى اليابان - مثلاً - يمثل ذلك المقصد الهدف من سفره، وحين يسافر شخص لبريطانيا للعلاج، فإنّ العلاج يمثل الهدف من سفرته تلك.

وحين نتساءل: ما هدف القرآن الكريم، فإنّنا نتساءل عن الغرض الذي يرتجي تحقيقه، ويرتجي بلوغه.

هدف القرآن وهدف السورة:

في القرآن الكريم يتناغم هدفان: هدف عام للقرآن بأكمله، جاء القرآن لتحقيقه، وهدف خاصّ لكلّ سورة على انفراد يسهم في تحقيق الهدف العام، وينصبّ على شيء تفصيلي محدد جاءت السورة من أجله:

أ- هدف القرآن:

والهدف العام من القرآن هو (الهداية):

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١].

(١) سورة آل عمران/ ١٣٨.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ب - هدف السورة:

ولتحقيق الهدف القرآني العام السابق (الهداية) قُسِّم القرآن إلى سور تسعى كلّ واحدة لإشادة هدف خاصّ فرعي، وكأنّها روافد تصبّ جميعاً في نهر واحد، أو لبنات كثيرة تسهم في تكوين بناء منزل واحد، ينطبق هذا على السور الطوال والسور القصار.

وإذا كان الهدف العام للقرآن واضحاً، فإنّ الأهداف الخاصّة في السور، ومدى إسهامها وارتباطها بالهدف العام يحتاج إلى نفاذ في الرؤية والتحليل لاكتشافه، وربّما يكون ذلك أشبه برؤية غرفة هنا، وأخرى هناك، ومطبخ هنالك، ويحيط الجميع سور واحد، لكنّ هذه الأشياء ليست وجودات متفرّقة، نحتاج أن ندرك أنّها جميعاً تتقاسم الأدوار والوظائف في تشكيل المنزل المتكامل.

كيف نكتشف الهدف العام للسورة؟

١- معرفة اسم السورة:

فالسورة القرآنية لها اسم عنونت به، ولها أسماء وردت في لسان الأحاديث، وهناك اعتقاد بأنّ هذه الأسماء تسهم بشكل كبير في معرفة السياق الذي تدور حوله السورة، وتمثل العمود الفقري الذي يقوم به كيانها، حتى لو اشتُقّ الاسم من حادثة جزئية من حيث الورود اللفظي في السورة قياساً لغيرها من الآيات، فنحن لا نتحدث عن الكمّ، وإنّما نقول: إنّ هذا الاسم يمثل المحور الذي تدور في فلكه أفكار وقصص السورة.

يقول برهان الدين البقاعي: «إنّ اسم كلّ سورة مترجم عن مقصودها؛ لأنّ اسم كلّ شيء تُظهر المناسبةُ بينه وبين مسمّاه عنوانَه الدالّ إجمالاً على تفصيل ما فيه»[2].

فلو أخذنا اسم (الكهف) العنوان الوارد لإحدى السور القرآنية، والمعبّر عن قصة

---

(١) سورة النحل/ ٦٤.

(٢) برهان الدين إبراهيم البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/ ١٩.

فتية مؤمنين لجؤوا لكهف فراراً من غطرسة ظالم مستبد، فقد ينشأ أمامنا سؤال مؤاده: أنى لهذا لاسم أن يشمل قصصاً أخرى ذكرتها هذه السورة عن صاحب الجنتين، وسجود الملائكة لآدم ورفض إبليس، وقصة النبي موسى والعبد الصالح (الخضر)، وقصة ذي القرنين؟!

لكن.. يمكن أن يكون ما بثته السورة من قيم في مجموع تلك القصص والقضايا التي عرضتها تمثل المباديء التي إذا اعتنقها الإنسان كانت حصناً وملاذاً وملجأ من الفتن والضلال، أي أنّه آوى إلى (كهف) يقيه من شرورها.

ويرسّخ هذا المفهوم حديث الرسول الأكرم ﷺ: «مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال»[1]، «مَن قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم تضره فتنة الدجال»[2]، «....، ووقي فتنة الدجال»[3]، فكأنّه هو الآخر آوى إلى (كهف) أو ملاذ يقيه فتنة الدجال[4].

٢- معرفة مرحلة السورة:

فالمرحلة التي نزلت فيها السورة (مكة، المدينة) تساعد كثيراً في معرفة هدف السورة ومحورها والموضوعات التي تطرّقت إليها، وقد قدّمنا في (الاستفادة من ممهّدات النصّ: زمن النزول): أنّ السور المكية هدفها الأساس العقيدة، وأنّ السور المدنية هدفها التشريع وشؤون الجماعة والدولة المسلمة.

٣- دراسة موضوعات السورة:

ولعلّ أهم وسيلة لاكتشاف هدف السورة هو التعرّف على الموضوعات التي طرقتها السورة وتناولتها؛ لأنّه طريق مباشر داخلي ينشأ من بنية النصّ نفسه.

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، م ١، ج ٢، ص ١٩٩ (باب فضل سورة الكهف).

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، م ٣، ج ٦، ص ٦٩٠.

(٣) نفسه، م ٣، ج ٦، ص ٦٩٠.

(٤) وهذا التحليل لاسم السورة مأخوذ من كتاب: مباحث في التفسير الموضوعي/ ٤٢، الحاشية (١) يلخصها عن كتاب (العواصم في الفتن)، للشيخ عبد الحميد طهماز (د ص).

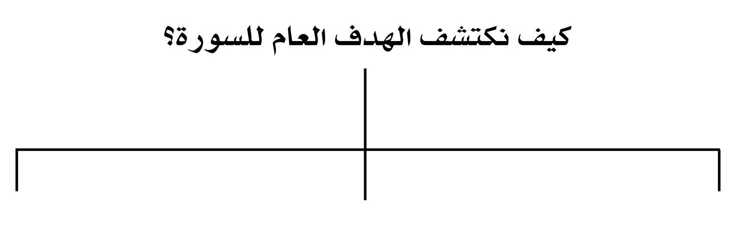
الهدف العام بين المحتوى والصياغة:

وحين نتحدث عن وجود (هدف) للسورة تعبِّر عنه، فإنّنا لا نقصد ضرورة أن تكون صياغته اللفظية الشكلية عند جميع المتدبرين والمفسّرين واحدة؛ إذ (لا مشاحة في الألفاظ)، ولا ينبغي أن تُصبّ المشكلة على نزاع لفظي شكلي.

فالاختلاف اللفظي التصويري أمر يختلف فيه المتأملون من الناس؛ تبعاً لاختلاف قدرتهم اللغوية ومخزونهم اللفظي، ولكنّه ليس كافياً للقول: هنا تناقض المفسّرون في تحديد الهدف!!

فلو قال دارس للقرآن عن سورة: هدفها هو الهداية، وقال آخر: هدفها البصيرة، وقال ثالث: هدفها التربية، وقال رابع: هدفها الرؤية؛ أمكن القول - إجمالاً -: إنّهم متفقون على هدف السورة.

نقول ذلك - لا لأجل أن نخلق مشكلة (من لا شيء) أو (لا من شيء) -، وإنّما لنؤكد أنّ الاتفاق على المحتوى لهدف السورة كافٍ، ولو تعددت أشكال تصويره، ولنلفت إلى أنّ بعض الدارسين الذين تناولوا بعض تقديرات المفسّرين التي ذكروها لأهداف السور؛ قد ساروهم شيء من التجني حين وجدوا الألفاظ التعبيرية قد اختلفت - ولو من باب الدقة وعدمها -، فأخذوا ذاك الاختلاف ذريعة لنفي الوحدة الموضوعية.





ت١: أضعُ علامة (✓) أمـــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- لا يوجـد هـدف عـام للقرآن وهـدف خاصّ للسـورة، فالمراد القرآني واحد هو هداية البشرية. ( )

ب - اختلاف الصياغة للهدف بين المفسّرين لابدّ أن يدلل على اختلاف جوهري في المحتوى. ( )

ت٢: وضع هدف خاصّ للسورة هل هو بمثابة خناق يضيّق أفق السورة؟



الخطوة الثالثة: اكتشاف محور السورة

ما الفرق بين (الهدف) و(المحور)؟

قبل أن نخوض في هذه النقطة ينتصب أمامنا سؤال مفهومي هامّ يبرّر فرز هذه النقطة عن سابقتها، هو: أليس المحور هو نفسه الهدف؟، وما دام نفسه فقد تمّ تناوله في الخطوة السابقة، ومن ثمّ فلا مبرّر لمجيء خطوة أخرى تحمل الفكرة والوسيلة نفسها لكن بمسمّى آخر!!

والواقع.. أنّ هذا السؤال محوريّ وهامّ، فكثير من المفسّرين والباحثين لا يرى فرقاً بين الهدف والمحور، ويراهما اسمين لمسمّى واحد، وعلى توحيدهما مفهوماً لا داعي لوجود خطوة خاصّة تتناول تحديد محور السورة.

بيد أنّا – ابتغاء للدقة والوضوح – نرى أنّه هناك فرقاً بينهما، يكمن في أنّ (الهدف) هو: الغرض والغاية والمقصد المراد تحقيقه من خلال القيام بالشيء، أما (المحور) فهو العنوان الذي نضعه نحن للسورة، ونرى أنّها تتناوله، فالمحور العام ما هو إلا العنوان الكلي الجامع لمواضيع السورة، والذي تدور حول فلكه مواضيعها.

ومن ثمّ فقد نقول: إنّ هدف هذه السورة هو: إيصال المجتمع المسلم والفرد المسلم إلى العفة، والمحور العام الذي نضعه لها هو: (الوسائل التربوية لصيانة المجتمع المسلم).

ونشير إلى أنّا -كما نسمّيه (المحور) و(العنوان)- نسمّيه: (الإطار) و(الموضوع).

أهمية اكتشاف المحور:

عندما يقوم البعض بقراءة سورة والتدبر فيها يتعامل مع كلّ آية أو آيات على حدة دون أن يسأل نفسه: ما المحور العام الذي تدور حوله هذه السورة، ويشكل العمود الفقري الذي تنتظم حوله جميع أجزائها وموضوعاتها الفرعية، ومن ثمّ قد يصل إلى ملاحظات جزئية متناثرة لا يجمعها خيط واحد، ولا تنتظم حول محور واحد.

يقول سيّد قطب: «يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أنّ لكلّ سورة شخصية مميّزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حيّ مميّز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاصّ، ولها جوّ خاصّ يظلّل موضوعاتها كلّها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معيّنة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجوّ، ولها إيقاع موسيقي خاصّ – إذا تغيّر في ثنايا السياق فإنّما يتغيّر لمناسبة موضوعية خاصّة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة [البقرة]»[1].

ويقول السيّد محمد تقي المدرسي: «ماذا تعني كلمة (السور)؟، إنّها تعني الإطار المحدّد للشيء، و(السورة) تعني واحدة من الإطارات التي تحدّد مجموعة أفكار معيّنة، وتعطينا في المجموع شخصية متفاعلة، وربّما نستطيع أن نعبّر عنها بـ (وحدة فكرية)؛ قياساً على تعبيرنا بوحدة حرارية، وحدة ضوئية، أو أية وحدة كمية أخرى.

وهذا اللفظ [السورة] أفضل من التعبير بـ (الفصل، القسم، البحث الأول، و...، و...)؛ لأنّ لفظ السورة لا يدلّ على فصل القرآن بعضه عن بعض، وتقسيمه أقساماً مختلفة مما قد توحي بأفكار بعيدة عن حقيقة القرآن، بل.. يدلّ على مدى التفاعل بين أفكار مجموعة آيات قرآنية تشكلها السورة الواحدة؛ حتى أنّنا نستطيع أن نحدّدها بإطار، ونعتبرها كوحدة فكرية مستقلة»[2].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢.

(٢) من هدى القرآن ١/ ٩١.

أنواع المحاور في السورة:

السـورة القرآنيـة - سـواء أكانت قصيرة كالكوثـر، أم طويلة كالبقـرة - لها هدف واحـد عـام تصبّ فيـه، مع فـارق أنّ السـورة القصيرة قـد تحتوي على موضـوع واحد فقط، أي لا توجد بها موضوعات فرعية، كما الحال مع سـورة التوحيد التي تدور حول (توحيـد اللـه)، وقد تحتوي علـى موضوعين أو موضوعات فرعيـة قليلة، تعود لمحور عام واحد.

أما السـور الطويلة فقد تحتوي على موضوعات فرعيـة وتفصيلية كثيرة، لكنّها معاً تعود إلى محور أساسي واحد.

ومن الخطأ أن نشـظي السـورة ونمزّقها على موضوعـات لا ينظمها محور واحد، وكأنّنـا نبديهـا عقد لؤلؤ منفرط الحبات، متناثر الدرر!!، بمـا يضيع إمكانية الخلوص إلى نظرية عامة أو تصور واضح يعبِّر عنهما المجموع الكلي للموضوعات.

وينبغي أن نلفت إلى أنّ وجود موضوعات فرعية في السورة لا يخلّ بإطارها العام، كلّ ما في الأمر أنّنا ينبغي أن نعرف ذاك الروح الشفاف المختفي حول هذه الموضوعات الفرعية، والذي تستقي منه هذه الروافد.

ومن ثمّ فنحن أمام نوعين من المحاور في السورة:

١- المحور العام: (السياق العام):

المحـور العـام عبارة عن الصلب العام الذي تنتظم حولـه جميع الآيات والمقاطع في السورة.

ونسمّيه: (السـياق العام)، و(الإطار العام)، و(المحور العام)، و(المحور الكلي)، و(موضوع السورة)، و(الموضوع العام)، و(الموضوع الأصلي).

ومـن هنـا يأتي السـعي الحثيـث لدى بعـض المفسّـرين - كسـيّد قطب، والسـيّد المدرسـي - لاكتشـاف موضوع السـورة ومحورها وإطارها العام، وتسجيله قبل الولوج في تفسير الآيات؛ ليربط الآيات به، ويجعله المحور الناظم لها ولأفكارها.

وسـننقل في الجـدول التالي رؤية هذين العلمين المفسّـرين لمحور بعض السـور

القرآنية، كما جاء في تفسيريهما:

م	السورة	محورها عند سيّد قطب	محورها عند السيّد المدرسي
١	البقرة	موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، وموقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض(١).	إرساء قواعد الشخصية الإيمانية، سواء في مستوى الفرد المؤمن أو الأمة المؤمنة(٢).
٢	الأنعام	العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية، والعلاقة بينهما(٣).	حقيقة الله والإنسان والكون(٤).
٣	الأعراف	عرض العقيدة في مجال التاريخ البشري(٥).	موضوع الإنسان والطرح البشري بين فريقي المهتدين والضالين(٦)

٢- المحور الخاصّ: (السياق الخاصّ):

وهو عبارة عن المحور الذي ينظم كلّ مجموعة آيات في السورة على حدة، فيؤلف منها (مقطعاً)، ويرتبط بالمحور العام.

ولهذا فالسورة لها محور عام واحد، لكنّ المحاور الخاصة قد تتغير من آية إلى أخرى، أو من مجموعة آيات إلى أخرى، لكنّها تبقى - دوماً - متفرّعة من المحور العام، وكأنّنا أمام عنوان كبير لفصل في كتاب، وذاك الفصل يتفرّع إلى عناوين جانبية مشتقة من عنوان الفصل.

ونسمّيه: (السياق الخاصّ)، (الإطار الخاصّ)، (المحور الخاصّ) (المحور الفرعي)، و(موضوع الآيات)، و(الموضوع الفرعي).

المحور العام والمحاور الخاصة في سورة الضحى:

يقول الله - تبارك وتعالى - في سورة الضحى:

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢.
(٢) من هدى القرآن ١/ ٩٢.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٤.
(٤) من هدى القرآن ٤/ ٧.
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٤.
(٦) من هدى القرآن ٣/ ٢٦٥، ٢٦٧.

عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١].

عندما نقرأ هذه السورة نحتاج أن نستكشف محوريها العام والخاصّ، فما هما؟

قد يكون محورها العام هو: التغيّر، أو التغيّر الذي حصل في حياة الرسول ﷺ بانقطاع الوحي.

ولو أخذنا الأول (التغيّر) بوصفه المحور العام للسورة، فسنجد أنّ لهذا المحور العام محورين خاصّين هما: أنواع التغيّر، والدور تجاه التغيّر الاجتماعي.

في المحور الأول (أنواع التغيّر)، ذكرت السورة ثلاثة أنواع من التغيّر:

أ- التغيّر التكويني:

فالآيتان الأوليان ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ليستا مجرّد قسَم، بل هما تتكلمان عن التغيّر في الأمور التكوينية، ومنه: اختلاف الضحى حيث إشراقة النهار والضياء المفعم بالحركة والنشاط وطلب الرزق، عن الليل الساجي الساكن المظلم، حيث الهدوء والسكون يعمّ الأرجاء.

والواقع التكويني ليس باقياً على صورة، فالضحى الوضّاء المزدان بالحركة والحيوية والنشاط، يتلوه ليل مظلم يتمدد فيه السكون والخدر والنوم والراحة، وهذا الليل الساكن لا يبعث الحزن واليأس، فسوف يعقبه عودة للضحى مرة أخرى، وتلك الحيوية وما فيها من جهد وضجيج يقترنان بالنهار ليست محلّ كآبة وقلق دائم؛ لأنّها ستزول بمجيء ليل يحمل الهدوء والراحة للإنسان، وهكذا دواليك..

فالآيتان قَسَمان: أولهما بالنهار والنور، وثانيهما: بالليل والظلمة، وهما يناسبان محتوى السورة المركزي، فـ«النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النبي ﷺ، والليل كانقطاع الوحي المؤقت»[٢].

ب- التغيّر التشريعي:

وذاك التغيّر التكويني الذي نقرؤه في الكون والطبيعة من حولنا هو مقدّمة للنفاذ إلى التغيّر التشريعي، وإبلاغ الرسول الأكرم ﷺ بأنّ حركة الوحي قد يتخللها انقطاع جزئي،

(١) سورة الضحى/ ١- ١١.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢٠/ ٢٥٢.

وذاك الانقطاع ليس دليل كره ومقت من الله المحبّ الرحيم، وليس انقطاعاً دائماً، وإنّما هو كالغياب الحيني للشمس الذي سيعقبه بزوغ الضحى المشرق ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾.

ولا يقتصر التغيّر التشريعي على انقطاع الوحي، بل.. ويشمل تغيّر الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، وتبدل الصورة من عالم تشريع وفعل، إلى عالم رضوان وجزاء، وانتقال الرسول ﷺ من هذه الدنيا الفانية سيكون تغيّراً نحو الأفضل حيث وعده ربّه أن ينال حتى يرضى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾.

ج- التغيّر الاجتماعي:

وهناك نوع ثالث من التغيّر هو التغيّر الاجتماعي؛ إذ تتغيّر الصور التي عليها الناس (فرد/ جماعة)، ولا تستقرّ على حال، وقد حصل هذا التغيّر في المسيرة الشخصية لحياة النبي الأكرم محمد ﷺ: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾.

كما يحصل في حياة الناس، ففيهم اليتيم والفقير: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ**﴾.

والمحور الخاصّ الثاني في التغيّر هو: الدور تجاه التغيّر الاجتماعي، وقالت عنه الآيات الكريمة: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾، والآيتان الأوليان هنا تتحدثان عن دور الرسول ﷺ تجاه التغيّر الاجتماعي في حياة الناس، وقد أمره الله ألا يقهر اليتيم المحتاج للحنان الأبوي الذي افتقده بوفاة والده، وألا ينهر السائل الذي عضته الحياة وألجأته الفاقة إلى الآخرين، وجعلته يسألهم بعض حاجياته.

والآية الثالثة من هذه الآيات (الأخيرة في السورة) حديث عن دور الرسول ﷺ تجاه التغيّر الشخصي الذي حصل في حياته، حيث تغيّر اليتم إلى إيواء، والضلال إلى هدى[1]، والفقر إلى غنى، ويكمن دور النبي ﷺ تجاه هذه التغيّرات الثلاثة التي جرت

(١) كان النبي الأكرم ﷺ قبل بعثته المباركة على الحنفية السمحاء (دين إبراهيم الخليل)، فلم يُدنّس ثوبُه بالجاهلية وضلالها حيث عبادة الأصنام، والخمر والميسر ووأد البنات، وغير ذلك..، والمقصود من (الضلال) في قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى**﴾ ليس نفي الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النبي، بل.. نفي العلم بأسرار النبوة وبأحكام الإسلام، وتعني عدم معرفة الحقائق، أو تعني عدم انتشار الصيت والذكر، ثمّ أنعم الله عليه من المواهب الفردية ما جعله معروفاً في كلّ مكان، أو أنّه كان حائراً في ضلال قومه ثمّ هداه الله للدين الذي أخرجهم من الضلال، انظر: (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢٠/ ٢٥٦- ٢٥٧).

فـي حياته في شـكر تلك النعم الإلهية المرخـاة عليه، والتحدث بفضل اللـه عليه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

العلاقة بين المحاور:

وفي سعينا لاكتشاف محور السورة ينبغي أن نكتشف الآتي:

أ- تناسب الآيات داخل المحور الخاصّ:

فالآيات داخل سياج المحور الواحد ذات علاقة تواشجية متلاحمة، فآيات المحور الأول: كلّ مجموعة منها ذكرت نوعاً من التغيّر، بل.. والآيات داخل النوع الواحد - وهو محطّ الشاهد - متلاحمة، فالتغيّر التكويني نفسه تحدثت عنه الآيتان الأوليان لبيان انتقال الضحى إلى ليل، وهكذا..

ب - تناسب الآيات مع المحور الخاصّ:

والآيـات فـي المحـور الواحـد (الخـاصّ/ التفريعـي) ليسـت ركامـاً متناثـراً من الملاحظـات الجزئية، بل بينهـا خيط ناظم يجعل آيات المقطـع الواحد تدور حول فكرة جامعـة، فمحـور (أنواع التغيّر) ذكر في آيتيه الأوليين (١- ٢) التغيّر التكويني حيث ينتقل الضحى إلى ليل سـاجي، والآيات الثلاث التي أعقبتها (٣- ٥) تحدثت عن نوع آخر من التغيّر هو التشـريعي، والآيات الثلاث التي أعقبتهـا (٦- ٨) ذكرت التغيّر الاجتماعي في حياة الرسول، والتي بعدها (٩- ١٠) ذكرت التغيّر الاجتماعي في حياة الآخرين، وهكذا ننفذ إلى المحور الثاني وآياته، أي ما يتناول (الدور تجاه التغيّر الاجتماعي).

ج- التناسب بين المحاور الخاصّة:

والمحـاور الخاصّـة في السـورة القرآنية بينهـا تكاملية، وفي سـورة الضحى تكلم أحدها عن أنواع التغيّر، والثاني حول الدور المطلوب تجاهه.

د- تناسب المحاور الخاصّة مع المحور العام:

فالمحور العام في السورة القرآنية يتناسب مع المحاور الخاصّة الفرعية التي تنبثق منه، فسـورة الضحى التي تتحدث عن سـنة (التغيّر)، تحدثت عن محورين خاصّين لهذا

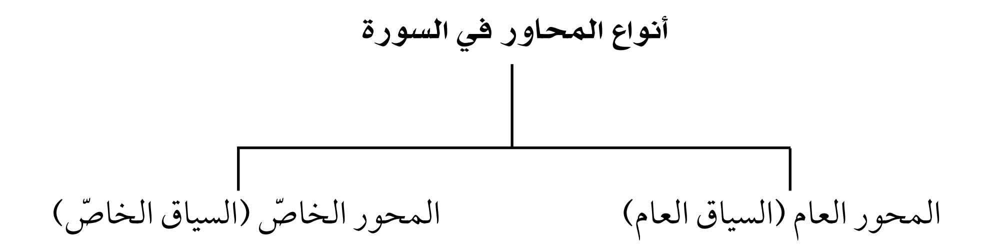
المحور العام هما: أنواع التغيّر، والدور المرتجى تجاه التغيّر.

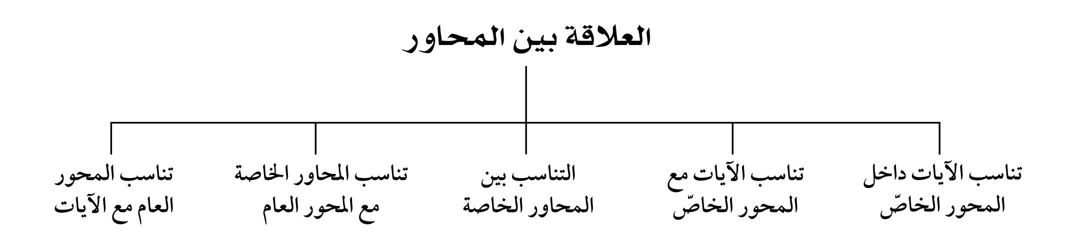
هـ- تناسب المحور العام مع الآيات:

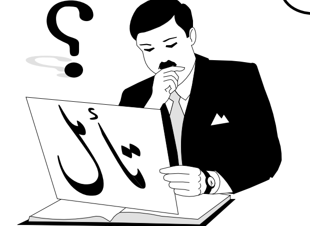
وبهـذا تكون الآيات في السـورة تدور حول المحور العـام، وإنّما تأخذ مكانها في محورها الخاصّ المشتقّ من ذاك المحور العام، كما تأخذ النافذة والباب، والحائط، و... مكانهـا فـي الغرفة، ثمّ تأخذ الغرفة مكانها في المنـزل، حيث تجاورها غرف أخرى وغير ذلك، ومن الجميع تنشأ الهوية العامة المعبّرة عن المنزل المتكامل.

الخلاصة:

اسـتلزم اكتشاف المحور العام تقسيم السـورة إلى محاور خاصّة تتناوله، واستلزم اكتشـاف المحاور الخاصّة: تقسـيم السـورة إلى مقاطع، بغية التفصيل المنطقي للآيات، وتسهيل العملية الدرسية، حيث وُضِع في كلّ مقطع الآيات التي تجتمع في فكرة وجانب واحـد، ثمّ تمّـت عملية الربط بيـن المحاور والآيـات، فرُبطت المقاطع بهدف السـورة، وربطـت المقاطع بالمحور العام، وربطت المقاطع بالمحاور الخاصّة، ورُبطت المحاور الخاصّة ببعضها، ورُبطت آيات المحور الواحد ببعضها.


أنواع المحاور في السورة
المحور العام (السياق العام)
المحور الخاصّ (السياق الخاصّ)


العلاقة بين المحاور
تناسب الآيات داخل المحور الخاصّ
تناسب الآيات مع المحور الخاصّ
التناسب بين المحاور الخاصة
تناسب المحاور الخاصة مع المحور العام
تناسب المحور العام مع الآيات



ت١: أضعُ علامة (✓) أمـــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

ب- لا يمكـن اكتشـاف المحور العام قبـل المحاور الخاصّة، ولا يتحقق هذا الأخير إلا بتقسيم السورة إلى مقاطع.( )

ج – السـور الصغيـرة بإمكاننا اكتشـاف المحـور العام لها مباشرة. ( )

ت٢: ما الفرق بين (الهدف العام) للسورة وبين (المحور العام) لها؟

الخطوة الرابعة: تقسيم السورة إلى مقاطع

معيار التقسيم:

والمعيار الأساس الذي نقسِّم الآيات وفقه إلى مقاطع، هو: المعيار الموضوعي، فكلّ مجموعة آيات ترتبط في موضوع فرعي واحد وفكرة واحدة تمثّل مقطعاً.

وهذا يعني أنّنا لن نلجأ - في تقسيم السورة إلى مقاطع - إلى المعيار العددي الكمي؛ لنقسّم السورة إلى مقاطع تتساوى - بالضرورة - في عدد الآيات، فقد يضمّ مقطعٌ آياتٍ أكثر أو أقلّ من المقطع الآخر ما دام يعتمد على فكرة واحدة.

وكذلك لن نلجأ إلى المعيار الموسيقي النغمي؛ لنقسّم المقاطع وفق جرسها الصوتي، أي وفق الحرف الذي تنتهي به آياتها (الفاصلة القرآنية)؛ لنجعل الآيات المنتهية بحرف واحد مقطعاً، ومع تبدّل الحرف يبدأ المقطع الثاني، وإن استفدنا منه جزئياً في بعض السور في حكاية التناغم بين الموضوع والصوت؛ لنشهد تبدل النغم تبعاً لتبدل الصوت في بعض المواضع، لكنّه ليس ميزاناً مطرداً.

ونحن - هنا - ننفي التلازم (لا تلازم، لا ضرورة)، فحين توزيع الآيات على مقطع قد تتفق عدداً مع آيات المقطع الآخر، وقد لا تتفق، وقد تشترك آيات المقطع في حرف الفاصلة، وقد لا تتفق، إنّ ذلك ليس بمعيار نبتغيه، وإنّما معيارنا موضوعي بغضّ النظر عن المعايير الأخرى.

فائدة التقسيم:

وقد نتساءل: ما فائدة التقسيم إلى مقاطع ما دمنا - على جميع الصور - سندرس آيات السورة كاملة؟

ونجيب بأنّ تقسيمها إلى مقاطع يحقق لنا فوائد كثيرة منها:

١- التماس المنهجية المنطقية:

فإبداع موضوع قرآني محكم يقتضي مراعاة الأسس والضوابط المنهجية المنطقية المعِيْنة على ذلك، وبدلاً من السرد المطرد للبحث والموضوع ترجّح الموضوعية تقسيمه إلى مراحل موضوعية.

٢- توزيع النَّفس والجهد:

والتوزيع إلى مقاطع يتيح لنا إمكانية توزيع الجهد على مقطع مقطع فيها، بدلاً من الدراسة الشمولية؛ مما يتيح إمكانية توزيع القوة وأخذ النفس لشحذ الهمة من جديد، أو التوقف عند مقطع والاستئناف من جديد عند المقطع اللاحق، وكأنّها (وقفات) استراحة وتجميع للجهد.

٣- تسهيل العملية الدرسية:

والعملية الدرسية التي تفرغ كلّ ما لديها شحنة واحدة قد تجني على الموضوع محطّ الدرس، بينما تقسيمه إلى مقاطع وفصول ومحطات ولوحات، يسهّل عملية الدرس، فندرس مقطعاً يتحدث عن صورة معركة حصلت أو ستحصل - مثلاً -، ثمّ ننتقل منها إلى محطة درسية أخرى.

٤- تعميق البحث:

والغرض من كلّ ما سبق الخروج بأفكار أكثر عمقاً، والتغلب على سطحية الأفكار المستنتجة، فالتقسيم إلى مقاطع يمكّننا من تكثيف الضوء والدراسة على مقطع بعينه، ومحاولة استخراج أكبر قدر من الحقائق والهدايات التي يحفل بها، ثمّ الانتقال إلى الذي يليه.

٥- اكتشاف الروابط بين المقاطع:

وتقسيم السورة إلى مقاطع يفيدنا في معرفة الرابط الداخلي بين الآيات في المقطع، ثمّ الرابط بين هذا المقطع والمقاطع السابقة له، والتالية عليه، ومعرفة الربط بين مجموع أفكار ومحاور المقاطع مع المحور الأساس الناظم لجميع أفكار السورة.

وهكـذا نعرف أنّ المقطع الأول يتكلم عن فكرة محددة، والمقطع الثاني عن فكرة أخرى، وهكذا..، والأول - مثلاً - يمثّل السبب، والثاني النتيجة الدنيوية، والثالث النتيجة الأخروية، ومجموع أفكار المقاطع تعبّر عن فكرة نكتشفها من خلف جميع ذلك.

سورة العاديات:

تقول سـورة (العاديـات): ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًـا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًـا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًـا * فَأَثَـرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَـطْنَ بِـهِ جَمْعًا * إِنَّ الإنسَـانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّـهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَـهِيدٌ * وَإِنَّـهُ لِحُـبِّ الْخَيْرِ لَشَـدِيدٌ * أَفَلا يَعْلَـمُ إِذَا بُعْثِرَ مَـا فِي الْقُبُـورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾(١).

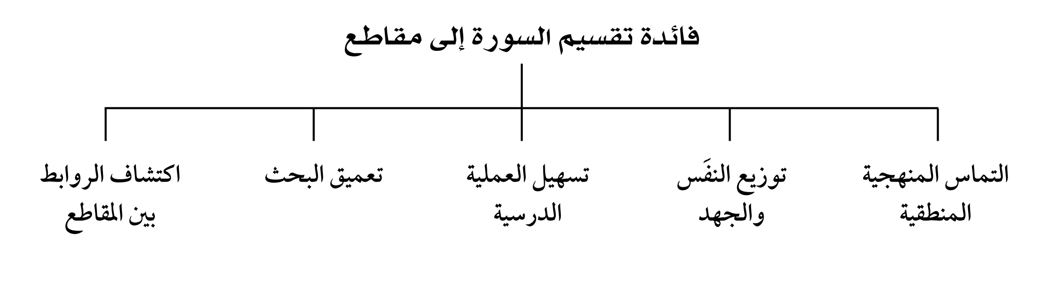
وعند قراءتنا لها قد ندرك أنّها تتألف من ثلاثة مقاطع يمكن تقسيمها إليها، هي:

١ - ﴿وَالْعَادِيَـاتِ ضَبْحًـا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيـرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

٢ - ﴿إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

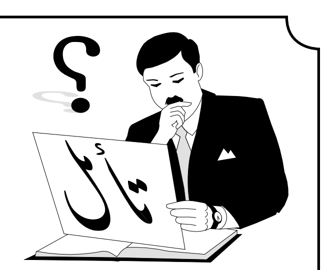
٣- ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

وسندرك أنّ المقطع الأول (القسَم) يتحدث عن فكرة واحدة هي: صورة المعركة، بينما يتحدث المقطع الثاني (المقسم عليه) عن فكرة هي: حقيقة نفس الإنسان، والمقطع الثالـث يتحـدث عن فكـرة واحدة هي: تقويـم النفس البشـرية «علاج الكنـود والجحود والإثرة والشـحّ؛ لتحطيم قيد النفس، وإطلاقها منه، مع عرض مشـهد البعث والحشر في صورة تنسي الخير (حبّ المال)، وتوقظ من غفلة البطر»(٢).



(١) سورة العاديات/ ١- ١١.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٥٨، وتقسيم السورة إلى المقاطع الثلاثة التي عرضناها مأخوذ منه.



ت١: أضعُ علامة (✓) أمـــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- هنـاك تـلازم ضـروري بيـن الجـرس الصوتـي وتنـوع المحاور القرآنية. (   )

ب – تقسـيم السـورة إلـى مقاطـع يفيـد في معرفـة الرابط الداخلي بين الآيات. (   )

ت٢: لم يقم النبي ﷺ ولا الصحابة بتقسيم السورة إلى مقاطع، ومن يقوم بذلك الآن إنّما هو مبتدع ومتخرّص. ما مدى صحة هذه المقولة؟

الخطوة الخامسة: اكتشاف الوحدة العضوية

ماذا نعني بـ (الوحدة العضوية)؟

هناك نوعان للوحدة المنشودة في النصّ هما: الوحدة العضوية، والوحدة الموضوعية.

والوحدة الموضوعية تعني: أن يدور النصّ حول موضوع واحد فحسب، بينما الوحدة العضوية تعني: أن تترابط أجزاء النصّ وتتماسك وتتلاحم، كما تتلاحم سبيكة الذهب، ولا تشهد التفكك وتقطع الأوصال والأجزاء.

والوحدة الموضوعية في النصّ تقوم على أساس توفر جامع مشترك (إطار عام) فيه، تتوزع أجزاء النصّ وتفاصيله وتفريعاته عليه، بحيث تشكل منه موضوعاً واحداً، أما الوحدة العضوية في النصّ فتقوم على أساس وجود اتصال وترابط وتلاحم بين أجزائه (مناسبة)، سواء أشكّلت أجزاؤه موضوعاً واحداً، أم شكّلت موضوعات عدة.

ومعنى ما مضى أنّ هاتين الوحدتين تختلفان من حيث المعنى، وتختلفان من حيث المقوّم الذي تتكئ عليه كلّ واحدة منهما.

وحينما نتساءل عن نصّ ما.. هل هو مترابط الأفكار أم لا؟، فإنّ سؤالنا هذا يتصل معرفياً بفكرة (الوحدة العضوية)، أما حين نتساءل: هل يدور حول موضوع واحد أم تتنوّع فيه الموضوعات؟، فإنّ سؤالنا هذا يعود لفكرة (الوحدة الموضوعية).

آيات القرآن: هل هي متلاحمة أم مفككة؟!

ومما يتعلق بالوحدة العضوية في القرآن الكريم أن نشأ سؤال قديم جديد يتساءل

عـن مدى ترابط الأجزاء في الآية، وترابط الآيات في السـورة، وترابط السـور مع بعضها (ارتباط السـورة بما قبلها، ومـا بعدها)، وترابط القرآن الكريم عمومـاً، الأمر الذي جعل القرآن يضع الآيات والسور بين دفتيه بهذا الترتيب؛ وأدى هذا التساؤل إلى ظهور ما عُرف - قديماً - باسم (علم المناسبة)، أو (علم المناسبات)، أو (معرفة المناسبات بين الآيات والسـور)، أو (التناسب بين الآيات والسور)، وما عُرف في النقد الحديث باسم (الوحدة العضوية).

وفي شـطر من هذا الموضوع الواسـع جاء التسـاؤل التالي: هل الآيات في السورة الواحدة متناسـبة مترابطة متصلة متواشـجة متلاحمة، أم أنّها مستقلة مفككة غير مترابطة، يتكلم بعضها عن معنى، ويتكلم بعضها الآخر عن معنى ثان لا صلة له بالأول؟!

وقد نشأت لهذا السؤال إجابتان:

١- آيات القرآن مفككة:

هنـاك مـن يرى أنّ الآيات في السـورة القرآنية (مفككة): لا اتصـال بينها، قد تنتقل فجـأة من موضوع إلى آخر دون وجـود علاقة وارتباط بين الموضوعين، وهي - بذلك - تخلو من الوحدة العضوية، مستدلين بمجموعة من الأدلة، منها:

أ- القرآن نزل منجماً حسب الأحداث:

آيات السـور القرآنية نزلت في مناسـبات شـتى، وتتكلم عن موضوعات شـتى، ثمّ جـاء الأمر الإلهي أن توضع في سـورة واحـدة، ومن ثمّ فهي تشـهد الانتقال من موضوع لآخر دون أن يكون هناك رابط بين الموضوعين.

يقول الشـيخ عزّ الدين عبد السـلام: «المناسبة علم حسن، ولكن يُشترط في حسن ارتبـاط الـكلام أن يقع في أمر متحـد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسـباب مختلفة لم يُشـترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر، ....، ومَن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يُصان عنه حَسَنُ الحديث فضلاً عن أحسنه، فإنّ القرآن نزل في نيّف وعشرين سـنة في أحكام مختلفة، ولأسباب مختلفة؛ وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض؛ إذ لا يحسـن أن يرتبـط تصـرّف الإله في خلقـه وأحكامه بعضها ببعض، مـع اختلاف العلل والأسباب، كتصرّف الملوك والحكام والمفتين، وتصرّف الإنسان في نفسه بأمور متوافقة ومتخالفـة ومتضـادة. وليس لأحـد أن يطلب ربط بعـض تلك التصرّفات مـع بعض، مع

اختلافها في نفسها، واختلاف أوقاتها»[١].

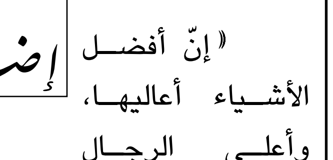
وهكذا فالآيات نزلت في أزمنة شتى، حول مواضيع مختلفة، ثمّ جمع بينها في السورة الواحدة الجمعُ التوقيفي الذي دوّنت به الآيات في السور، وأنّ الله شاء جعل كتابه هكذا لا حسب موضوعات أو جوامع عضوية، ولهذا «لا يُطلب للآية الكريمة مناسبة؛ لأنّها على حسب الوقائع المتفرّقة»[٢]، وأنّ هذه الطريقة في العرض كانت مألوفة عند العرب القدامى: فقصائدهم التي عُرفت بالمعلقات مفككة لا علاقة فيها بين الوقوف على الأطلال، والغزل، ووصف رحلة الصيد، ثمّ الغرض الأصلي كالمدح، وأشهر خطبهم في المحافل والأسواق - كخطبة أكثم بن صيفي أمام كسرى - كانت مفككة.

ب - الواقع الفعلي للقرآن:

وبعيداً عن النزول التدريجي للقرآن حسب الأحداث المختلفة، ندرك نحن مباشرة حين قراءة سور القرآن الكريم عدم وجود روابط بين مقاطعها وكثير من آياتها، وأنّ بعضها يتحدث حول موضوع، ثمّ تليه مباشرة آيات أخرى تتحدث عن موضوع آخر لا علاقة له بالأول أبداً، والسبب أنّ القرآن جاء حاملاً لغرض أساس هو الهداية للبشر، ولم يكن كتاباً معرفياً يعنى بالمنهجة

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٧١- ٧٢.
(٢) نفسه ١/ ٧٢.

خطبة أكثم بن صيفي بين يدي كسرى



«إنّ أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظنّ ورطة، وسوء الظنّ عصمة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء. شرّ البلاد بلاد لا أمير لها، شرّ الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا محالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يُراء بالنصيحة، أحقّ الجنود بالنصر من حسُنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلّغك المحلّ، حسبك مِن شرّ سماعه. الصمت حُكم وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. مَن شدّد نفّر، ومَن تراخى تألّف»[١].

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خُطب العرب في العصور العربية الزاهرة ١/ ٥٦، الخطبة ٣٢.

والأقسام والتلاحم الموضوعي.

ولنضرب لهذا مثلاً من القرآن الكريم، يقول تبارك وتعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

فالآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ تتكلم عن الدعاء، وهي واردة في وسط مجموعة آيات تتكلم عن الصيام وأحكامه، فهناك آيات قبلها وبعدها عن الصوم، وهي عن الدعاء، فهل ثمة ربط بينها وبين ما قبلها وبعدها حتى نقول بالوحدة العضوية؟!، وإذا كان القرآن يريد أن يسير على الوحدة العضوية فلم لم يجعل آيات الصوم خلف بعضها، ثمّ تأتي آية الدعاء، أو يقدّم آية الدعاء ثمّ آيات الصوم؟!، المهم أن تتجاور آيات الصوم للارتباط العضوي بينها، لا أن تأتي آية الدعاء في أحشاء آيات الصوم!!

٢- آيات القرآن مترابطة:

هناك من يرى أنّ آيات السورة بينها (وحدة عضوية)، بمعنى أنّها متلاحمة الأجزاء مترابطة العرى، وهؤلاء قسمان:

الأول: يرى أنّ السورة قد تنتقل من موضوع لآخر لوجود علقة ومناسبة بينهما، لكنّها لا تدور حول موضوع واحد بالضرورة، بل.. قد تتناول موضوعات شتى لا يجمع بينها إطار موحّد، ولا يُشترط وجود وحدة موضوعية فيها، بل.. يعتقد هؤلاء أنّ بعض السور القرآنية تحدثت فعلاً عن موضوعات شتى لا تنتظم ضمن إطار عنواني واحد، فلم

---

(١) سورة البقرة/ ١٨٥– ١٨٧.

تعد القضية عندهم مقتصرة على مستوى (الإمكان) فحسب، بل.. وصلت إلى مستوى (الوقوع) والحصول والتحقق!!

أي أنّ هؤلاء يقولون بالوحدة العضوية في السور، ولا يقولون بالوحدة الموضوعية.

الثاني: يرى أنّ السورة قد تنتقل من موضوع فرعي لآخر؛ للعلاقة بينهما، لكنّ كلّ تلك الموضوعات الفرعية تنتظم تحت عنوان واحد هو (الإطار العام).

فهؤلاء يقولون بأنّ السورة تجمع الوحدتين: العضوية والموضوعية معاً.

وقد سبق أن ناقشنا وجود الوحدة الموضوعية في السورة تحت عنوان (أقسام التدبر الموضوعي)، وبقي أن نبحث هنا عن الوحدة العضوية.

ونشير إلى أنّ هذين القسمين معاً يتفقان على وجود الوحدة العضوية، وقد عرضوا للاستدلال عليها نوعين من الأدلة هما: الأدلة النقضية التي يناقشون فيها آراء مخالفيهم، والأدلة البنائية التي تؤسس لفكرتهم ومبناهم في الوحدة العضوية.

الأول: الأدلة النقضية (الحَليّة):

أـ الخلط بين الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية:

الكلام السابق للشيخ عزّ الدين عبد السلام يشهد شيئاً من الخلط بين الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية، فالوحدة العضوية تعني تلاحم الأجزاء ولو تكلمت عن موضوعات شتى، بينما الوحدة الموضوعية تعني أن يدور النصّ حول موضوع واحد فحسب، وحتى لو قلنا بعدم الوحدة الموضوعية فإنّ ذلك لا يخلّ بالوحدة العضوية متى ما كانت الموضوعات تحكي التلاحم بينها والترابط.

ب - قياس الإلهي على البشري:

المثال التنظيري الذي يقيس الآيات القرآنية بالمعلقات غير دقيق؛ فهناك من نقاد الأدب من يذهب إلى أنّ أجزاء القصيدة الواحدة في المعلقات متلاحمة متصلة وإن توزعت على موضوعات عديدة، لكنّ انتقال الشاعر من جزء إلى آخر كان يتمّ تبعاً لوحدة الشعور النفسي والرابط الشعوري (الوحدة النفسية)، ومن نقاد الأدب من يرى أنّه كانت

هناك روابط بين الأجزاء لكنّها ضاعت، ومنهم من يرى أنّ المعلقة الواحدة كانت قصائد عديدة في موضوعات، لكنّ الرواة حين وجدوها ضمن وزن واحد وقافية واحدة ضمّوها في قصيدة واحدة!!

على أنّ قياس الإلهي بالبشري قياس مع الفارق، فحتى لو كانت تلك القصائد مفككة، فهل يرضى الله لكلامه ذلك؟!، وما فائدة وضع الآيات تحديداً في هذه السور إذا لم يكن هناك سبب حقيقي في تلك السورة يشدها إليه؟!، ولماذا وضعت بهذا التجاور المكاني الذي تشهده الآيات في المصحف دون سواه؟!

الثاني: الأدلة البنائية (التقويمية):

أ- النصوص الدينية والترابط العضوي:

من النصوص التي تشير إلى إدراك المعصومين عليهم السلام للوحدة العضوية في القرآن الكريم قول الإمام الباقر عليه السلام: «ليس شيء أبعد مِن عقول الرجال من تفسير القرآن، إنّ الآية يكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل متصرّف على وجوه»[(١)].

فهذه الرواية ترى أنّ الآية القرآنية - فضلاً عن السورة - قد تتناول موضوعات يظهر للقارئ أنّ أولها في شيء، وآخرها في شيء، فتغدو كلاماً مفككاً، لكنّ الرواية تؤكد أنّ كلّ ذلك (كلام متصل)، يشهد اللحمة الداخلية والترابط العضوي، كما تؤكد أنّ جوانب الاتصال تلك تعود إلى علاقات وتفسيرات كثيرة تشهدها بنية الآية (متصرّف على وجوه)، مما يدلل على خصوبة وسعة الوجوه والآفاق في الآية، ويوحي بأنّ واحداً من أسباب ذاك الاعتقاد بالتفكك في الآية هو حملها على وجه واحد وتفسير واحد، تبدو فيه أجزاء الآية غير مترابطة.

كما أنّ بداية هذه الرواية يؤكد على أنّ كثيراً من الناس لا يدركون ذلك الاتصال، ولا تبلغه عقولهم، ولذلك يضحي التفسير القرآني الفعلي المتواشج العرى بعيداً عن إدراكهم فضلاً عن منجزهم، وذاك يشير إلى أنّ التفسير الحقيقي الذي يرتجيه الإمام عليه السلام هو ما تظهر فيه تلك العلاقات والروابط، ويبزغ فيه وجه الاتصال بين أجزاء الآية، لا التفسير الطفري الذي يعتمد على الانتقال الفجائي بين الموضوعات.

---

(١) وسائل الشيعة ١٨/ ١٤٢، الباب ١٣، ح ٤١.

ب- الغرض من الترتيب التوقيفي:

ففـي القرآن الكريم سـور طـوال نزلت على مسـاحة زمنية واسـعة ومتباعدة، وفي أحداث ومناسـبات مختلفة، وجمعُ آياتها في سورة واحدة تمّ لاحقاً ومتأخراً على نزولها التدريجـي المنجّـم، فعله الرسـول الأكرم ﷺ بأمر مـن الوحي؛ وفقـاً لاتصال الآيات وترابطها.

وقد سبق في فقرة (فرز الآيات وترتيبها) أن نقلنا قول الرسول الأكرم ﷺ: «أتاني جبريـل - عليه السـلام - فأمرنـي أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السـورة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[(١)]»[(٢)].

وحين نسـأل أنفسـنا: مـا دامت الآيات قد نزلت في مناسـبات شـتى، فلمـاذا يأمر الرسول ﷺ بوضعها في سورة معيّنة دون سواها؟، ولماذا وُضعت آيات مكية في سور مدنية، وآيات مدنية في سور مكية؟

هل هو فعل عبثي، أم عادي، أم وراءه سبب وحكمة؟

أليس ذاك لوجود سبب في تلك السورة استدعى وضع الآيات فيها دون سواها؟

ومن هنا نقل الشـيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشـي المتوفى في ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م عـن أسـتاذه[(٣)] قولـه: «وفصلُ الخطاب: أنّهـا نزلت على حسـب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيباً»[(٤)].

ج- جهود العلماء في اكتشاف الروابط:

نقـل الزركشـي أنّ الشـيخ أبـا بكر النيسـابوري (عبد اللـه بن محمد بـن زياد) (ت ٣٢٤هــ/ ٩٣٦م)، كان إذا جلـس على كرسـي الدرس وقُـرأت عليه الآية يتسـاءل: «لِمَ

(١) سورة النحل/ ٩٠.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٥٤، (حديث عثمان بن أبي العاص)، ح ١٧٤٥٩.

(٣) وقد ذكر جلال الدين السيوطي أنّ اسم هذا الأستاذ هو (الشيخ ولي الدين الملوي)، الاتقان في علوم القرآن ٢/ ١٠٨.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١/ ٧٢.

جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟، وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»[١].

ونقل الزركشي أنّ القاضي أبا بكر بن العربي (محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي المالكي) (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) قال: «ارتباط آيّ القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة: متسقة المعاني، منتظمة المباني؛ علم عظيم، لم يتعرّض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثمّ فتح الله - عزّ وجلّ - لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة؛ ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه»[٢].

ويقول الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م): «ختم الله سورة بني إسرائيل [الإسراء] بالتحميد والتوحيد وذِكْرِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن، وافتتح سورة الكهف أيضاً بالتحميد والتوحيد وذكرِ القرآن والنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -؛ ليصل أول هذه بآخر تلك اتصال الجنس بالجنس»[٣].

ويقول فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م) في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[٤]: «اعلم أنّ الأمانة عبارة عمّا إذا وجب لغيرك عليك حقّ فأديتَ ذلك الحقّ إليه، فهذا هو الأمانة. والحكم بالحقّ عبارة عمّا إذا وجب الإنسان على غيره حقّ، فأمرتَ مَن وجب عليه ذلك الحقّ بأن يدفعه إلى مَن له ذلك الحقّ. ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار، ثمّ ينشغل بغيره؛ لا جرم أنّه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولاً، ثمّ بعده ذكر الأمر بالحكم بالحقّ، فما أحسن هذا الترتيب؛ لأنّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[٥].

كما نقل الزركشي عن أحد أساتذته[٦] قوله: «قد وهم مَن قال: (لا يُطلب للآية الكريمة مناسبة)؛ لأنّها على حسب الوقائع المتفرقة). وفصلُ الخطاب: أنّها على حسب

(١) نفسه ١/ ٧١.
(٢) نفسه ١/ ٧٠- ٧١.
(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، م ٣، ج ٦، ص ٦٩١.
(٤) سورة النساء/ ٥٨.
(٥) تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، م ٥، ج ١٠، ص ١٤٥.
(٦) تقدّم أنّه (الشيخ ولي الدين الملوي).

الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلّها وآياته بالتوقيف....، والذي ينبغي في كلّ آية: أن يُبحث أول كلّ شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثمّ المستقلة: ما وجه مناسبتها لما قبلها؟. ففي ذلك علم جمّ، وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[١].

ثـمّ قال الزركشي: «وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور، فما ظنّكَ بالآيات وتعلُّق بعضها ببعض؟، بل عند التأمل يظهر أنّ القرآن كلّه كالكلمة الواحدة»[٢]، وقال: «اعلم أنّ المناسبة علم شريف: تحرز به العقول، ويُعرف به قدر القائل...، ولهذا قيل: (المناسبة أمر معقول، إذا عُرض على العقول، تلقته بالقبول)، ....، ومرجعُها - والله أعلم - إلى معنى رابط بينهما، ....، وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»[٣].

وما سبق يوضّح أنّ موضوع الوحدة العضوية قديم ذكرته بعض الروايات، وتناوله العلماء منذ القدم باسم (علم المناسبة)، واستُعملت فيه كلمات مثل: (الارتباط، الروابط، الترتيبات، الاتصال، التعلّق، البناء المحكم، تلاؤم الأجزاء)، وأنّ هناك علماء قدماء قالوا بالوحدة العضوية، ومنهم: الشيخ أبو بكر النيسابوري، والقاضي أبو بكر بن العربي، والشيخ الفضل الطبرسي، وفخر الدين الرازي، والشيخ ولي الدين الملوي، والشيخ بدر الدين الزركشي.

وقد ألفت في هذا العلم كتب كثيرة، منها:

١ - (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي.

٢ - (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، للشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي.

٣- (تناسق الدرر في تناسب السور)، لجلال الدين السيوطي.

٤ - (علم المناسبات في السور والآيات)، للدكتور محمد عمر بازمول.

٥ - (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، للشيخ عبد الله محمد الصدِّيق الغُماري.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٧٢.

(٢) نفسه ١/ ٧٥.

(٣) نفسه ١/ ٧٠- ٧١.

والمـراد بـ(المناسـبة): «وجه الارتباط بين الجملـة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة»[١].

فائدة اكتشاف الروابط بين الآيات:

١- تنزيه القرآن عن التفكك:

القـول بتفـكك أوصـال الآيّ القرآني أوقفـت البعض من لدن القديم أمام مشـكلة حصـول ذاك المسـتهجن حتى في الكلام البشـري فـي القرآن الكريم، ومـن ثمّ كان ذلك أحد أسـباب ظهور (علم المناسبة) الذي سـعى أن يتعرّف على الروابط ووجوه الاتصال بين الآيات أو السور، ومواجهة القول بالتفكك.

وقد أُعيد إنتاج تلك المشـكلة مرة ثانية على يدي بعض المستشـرقين الذين قالوا: إنّ سور القرآن ذات تأليف بدائي، لا يربط بين أجزائها رابط!!؛ ومن ثمّ جعلوا ذاك سبيلاً للطعـن فـي القرآن[٢]، وإنكاراً لصدوره من الله؛ لأنّ هكـذا كتاب بدائي التأليف لا يصدر من الله!!

فالقـول بتفكك أوصال الآيات يعني أنّ المتكلم - وهو هنا الله سـبحانه - يرسـل رسـالة باسم (سورة)، يحيطها سياج واحد، وتتجاور آياتها مكانياً، لكن.. لا رابط معنوي بينها، بل.. كلّ جزء منها مستقل لا صلة له بالآخر.

وبمعرفتنـا للروابط بين الآيات، سـيظهر لنا أنّ كلام الله متواصـل متضامّ منزّه عن القول بالتفكك.

٢ـ إدراك التلاحم والانسجام بين الآيات:

عندما نكتشـف الروابط بين الآيات سـنصل إلى أنّها متلاحمة منسـجمة، وليسـت مفككـة، ومـن ثمّ فكلّ آيـة لها صلة بما قبلها ومـا بعدها من الآيات، وهذا المسـتوى من الإدراك لا يتحقق بالقول بالتفكك.

وإدراك هـذا التلاحـم والانسـجام يوصلنـا إلـى عمق الإعجـاز القرآنـي، وحينئذ

(١) مباحث في علوم القرآن/ ٩٧.

(٢) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير/ ٢٢٥.

«يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب، وذلك أنّه يكشف أنّ للإعجاز طريقين: أحدهما: نظم كلّ جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب»[١].

٣ـ فهم المعنى الحقيقي للآية:

واكتشاف الروابط يجعلنا نفهم الآيات ضمن فهم منهجي منطقي ذي علائق، فنفهم – مثلاً – أنّ آية ما.. قامت بذكر السبب، والتي بعدها ذكرت سبباً آخر في سعي علمي لرصد أسباب المشكلة أو الظاهرة، أو أنّ آية ذكرت السبب والثانية ذكرت النتيجة.

وهذه الطريقة قد توصلنا إلى المعنى الحقيقي أكثر من طريقة حمل الآيات على التناثر الفكري غير المتجانس، الذي يوصل لتراكم معرفي غير ممهنج، بل.. قد يكون مشوشاً في بعض المواقع.

٤ـ اكتشاف مفاهيم هامة:

التدبر في الآيات والتأمل العميق فيها قد يوصلنا إلى أفكار جليلة وجميلة، بيد أنّ التأمل في العلاقة الكامنة بين الآيات، والربط بينها، وسبب تواليها بهذا الشكل والنظام سيوقفنا عند مفاهيم أخرى نتجت من فهم المناسبات والترابط.

وقد مرّ بنا قبل قليل قول الفخر الرازي بـ «أنّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط».

مستويات العلاقات الداخلية في السورة:

أولاً: الروابط بين أجزاء الآية:

إنّ كثيراً من الآيات التي قيل عنها: إنّها مفككة الأجزاء، حين نتأملها نجد الترابط والتلاحم فيها، وسنعرض لذلك بعض الأمثلة:

١ – يقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/ ١١.

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

قال مناصرو التفكك: السؤال الموجّه للرسول ﷺ كان الأهلة ذاتها: ما حقيقتها؟، وما سرّ التغيّر التدريجي الذي يحصل فيها في كلّ شهر؟، فلِمَ تبدو صغيرة ثمّ يتكامل نورها، ثـمّ يتضاءل ويتناقص؟، وهي أسـئلة فلكية دقيقة، بينما جاء الجـواب عن فائدة الأهلة، وهو أمر لم يسألوا عنه أصلاً؟!، ثمّ ما علاقة أحكام الأهلة بموضوع إتيان البيوت من أبوابها؟!

ويقـول مناصرو الوحـدة العضوية: إنّ هذا الجواب تنبيه لهم إلى أنّ الأولى بهم أن يسـألوا عن فائـدة الأهلة وأحكامها لا عن ذاتهـا والتغيّرات الحاصلة فيهـا مما لم يكونوا يسـتوعبون الجواب عنه آنذاك؛ لأنّ السؤال عن فائدتها هو المهم لأمور الدين والتشريع، فالـكلام متصل، ويأخذ بأسـلوب معروف في البلاغة العربية يُسـمّى (أسـلوب الحكيم) و(الأسلوب الحكيم)(٢).

وأمـا إتيـان البيوت من أبوابها، فهو «من قبيل التمثيل لما هم عليه، ومن تعكيسـهم في سؤالهم، وأنّ مثلهم كمثل من يترك باباً ويدخل من ظهر البيت، ....، أي باشِروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها، ولا تعكسوا»(٣).

٢- ويقـول الله تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾**(٤).

قـال مناصـرو التفـكك: بداية الآية تتحـدث عن الذيـن يخافون عـدم القدرة على الإقسـاط فـي اليتامى، ونهايتها يتحـدث عن الزواج بما طاب من النسـاء، فما العلاقة بين تلك البداية وهذه النهاية؟!، أليس هذان موضوعين مختلفين انتقلت الآية بينهما؟!

ويقول مناصرو الوحدة العضوية: «يرتفع ما قد يتوهم من المنافاة بين تلك البداية/ وهـذه النهايـة [بأن ندرك عـمّ تتحدث الآيـة]: فالبدايـة والنهاية كلتاهما تتعلقان بمسـألة الـزواج، غايـة ما في الباب أنّ الآية تقـول: إذا لم يمكنكم الزواج باليتيمات ومعاشـرتهنّ

(١) سورة البقرة/ ١٨٩.
(٢) أسلوب الحكيم هو: «تلقي المخاطب بغير ما يترقبه: إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد؛ تنبيهاً على أنّه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى»، جواهر البلاغة/ ٣٨٨.
(٣) البرهان في علوم القرآن ١/ ٧٦- ٧٧.
(٤) سورة النساء/ ٣.

على أساس من العدل والقسط، فالأفضل أن تتركوا الزواج بهنّ، وتتزوجوا بغيرهنّ من النساء تجنباً من ظلم اليتيمات والإجحاف بحقوقهنّ والجور عليهنّ»[١].

٣- ويقول الله تعالى: ﴿**وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٢].

قال مناصرو التفكك: الآية تتكلم عن ثلاثة موضوعات لا ترابط بينها: فهي تطلب من المؤمنين أن ينفقوا في سبيل الله، وأن لا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، وأن يحسنوا إلى الآخرين، فما العلاقة بين الإنفاق، وعدم التهلكه، والإحسان؟!

بينما يرى مناصرو الوحدة: أنّ الآية تتكلم عن موضوع واحد مترابط هو الإنفاق في سبيل الله: فطلبت من المؤمنين الإنفاق، لكنّ هذا الإنفاق يتحلى بصفتين: فهو إنفاق مع اعتدال، لا يلقي النفس في التهلكة والخطر، وفيه إحسان لمن يقدّم له، فيعطيه فوق ما يحتاج بشيء لا يُوصل إلى هدر المال بفساد الذات والنفس (التهلكة).

٤- ويقول الله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[٣].

يعتقد مناصرو التفكك: أنّ صفات الله الواردة في نهاية الآيات ليست إلا مجرّد قفل وخاتمة لها، فالصفتان ﴿**اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ يمكن إبدالهما بأيّ صفتين أخريين لله تعالى.

بينما يعتقد مناصرو الوحدة: أنّ الصفات ليست مجرّد قفل للآية، وإنّما هي موجِّهات لموضوعها، ومبيِّنات للغاية الموجودة فيها، وصفتا ﴿**اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ هما تعليل واستدلال لما ورد فيها من موضوع: فالله لا تدركه الأبصار؛ لأنّه (لطيف) غير مدرَك بالحواس، وهو يدرك الأبصار؛ لأنّه (خبير) يدرك كلّ شيء، أي أنّهما صفتان مناسبتان للموقف.

٥- ومثل هذا قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٤].

يعتقد مناصرو التفكك: أنّ الآية تتحدث عن السرقة وحكمها، ولكن لا فرق بين ﴿**وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، أو (والله غفور رحيم)، أو (والله عفوّ رؤوف)، أو (والله عليم قدير)!!

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٣/ ٨٣.

(٢) سورة البقرة/ ١٩٥.

(٣) سورة الأنعام/ ١٠٣.

(٤) سورة المائدة/ ٣٨.

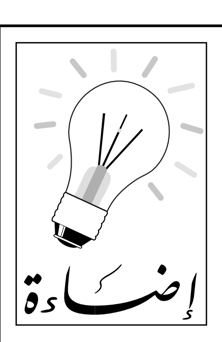
بينما يذهب مناصرو الوحدة إلى أنّ صفتي (العزة والحكمة) أُختيرتا بعناية لتناسبا موضوع الآية، وأنّ ورود تلكما الصفتين لله دون غيرهما جاء لتقول الآية: إنّ الله قطع أيدي السرّاق بعزة ولحكمة، فهاتان الصفتان هما الأجلى تعبيراً عن المراد في الآية، ولو كانت الآية - مثلاً - تريد بيان التسامح الإلهي مع السرّاق لقالت (والله غفور رحيم)، ولو أرادت بيان مدى الغضب الإلهي لقالت: (والله شديد العقاب).

وبعبارة علم البلاغة: إنّ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يناسب الموقف.

ثانياً: الروابط بين الآيات:

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

(١) سورة البقرة/ ٢٥٨- ٢٦٠.



الأصمعي والأعرابي

يقول الأصمعي عن قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: «قرأتُ هذه الآية وإلى جنبي أعرابي، فقلتُ: (والله غفور رحيم) - سهواً -، فقال الأعرابي: كلام مَن هذا؟!، قلتُ: كلام الله. قال: أعد، فأعدتُ: (والله غفور رحيم)، فقال: ليس هذا كلام الله!!، فتنبّهتُ فقلتُ: ﴿وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: أصبتَ، هذا كلام الله. فقلتُ له: أتقرأ القرآن؟، قال: لا. قلتُ: فمن أين علمتَ أني أخطأتُ؟، فقال: يا هذا، عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع»[1].

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ٢/ ٣٨٢.

قد نتعجب حين نقرأ هذه الآيات، وتساورنا الدهشة، فنتساءل: لماذا حشد القرآن ثلاث قصص وراء بعضها؟، وما الصلة والرابط بينها حتى جاءت متتابعة؟، ولماذا فصل الله بين قصتي النبي إبراهيم عليه السلام بقصة الذي مرّ على القرية الخاوية (عزير)؟!

لكن.. حين نعلم أنّ للعلم مراتب ثلاث هي: علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين؛ سنعلم أنّ هذه الآيات الشريفة ليست قصصاً متراصفة متوالية، وإنّما تمثل وحدة عضوية واحدة هي: التمثيل لمراتب اليقين الثلاث.

وإذا علمنا أنّ الترتيب التصاعدي لمراتب اليقين هو (علم اليقين – عين اليقين – حقّ اليقين)، علمنا لماذا رتب الله القصص الثلاث الواردة فيها بهذا الترتيب، ولماذا فصل بين قصتي النبي إبراهيم عليه السلام، ووضع وسطهما قصة الذي مرّ على القرية الخاوية!!

فقد جاء هذا الترتيب الدقيق للقصص بهذه الطريقة المحكمة؛ للحفاظ على التدرج والتوالي نحو الأعلى في حكاية مراتب اليقين، فقصتا النبي إبراهيم عليه السلام تمثلان شاهداً للمستوى الأول والثالث من مستويات اليقين، بينما قصة الذي مرّ على القرية تمثل المستوى الثاني لليقين، فجاءت كلّ في مكانها؛ محافظة على الهندسة الموضوعية الفنية لدرجات الموضوع والتسلسل الهرمي للأفكار، ولم تتبع السرد التاريخي الذي يقتضي توالي قصتي إبراهيم متجاورتين بوصفهما تتفقان في وحدة الشخصية التي تقود أحداثهما.

وبعبارة أخرى: فإنّ القرآن في ترتيب القصص الثلاث السابقة أعطى الأهمية للهندسة الموضوعية (الترتيب التصاعدي لمراتب اليقين)، لا للسرد التاريخي المعتمد على ترتيبها وفق التعاقب الزمني، ولو استدعى ذلك الفصلَ بين قصتين لشخصية واحدة.

ثالثاً: الروابط في السورة:

١ـ بين البداية والنهاية:

فقد بدأت سورة (القصص) بقصة النبي موسى عليه السلام، والجور الذي يلقاه بنو إسرائيل من الفراعنة، وإلقائه في اليم، وعودته لأمه، وخروجه من مصر بعد انتشار خبر قتل موسى للقبطي، وذهاب موسى للمدائن، ثمّ عودته لوطنه (مصر)، وتلقيه الوحي، وغرق فرعون وملئه.

وقد استغرقت هذه الحوادث الآيات (١ـ ٤٣)، وختام السورة تسلية للنبي محمد ﷺ، تتحدث عن كفار قريش، وخروج النبي من وطنه (مكة)، وتعده بالرجوع إليها، كما تتحدث عن تلقي الرسول للوحي، ونلحظ أنّ تفاصيل القصة عند النبي موسى مقاربة لها عند النبي محمد، ومن ثمّ فما جاء في بداية السورة هو ما يحدث للنبي محمد، ومن ذلك زفّ البشرى له بعودته لوطنه.

ومما ورد في بداية السورة:

- ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[١].

- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[٢].

- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

- ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٤].

- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة القصص/ ١ – ٧.
(٢) سورة القصص/ ١٥.
(٣) سورة القصص/ ٢١.
(٤) سورة القصص/ ٢٩ – ٣٠.
(٥) سورة القصص/ ٣٢.

وجاء في نهاية السورة:

﴿إِنَّ الَّـذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَـادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُـوَ فِـي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

٢- بين المقاطع في السورة:

إنّ الآيات القرآنية في السـورة قد تبدو متباعدة، لكن حين نفكر فيها سـنراها معاني مترابطة ومتكاملة، بينها علاقات متينة، فقد تذكر آيات السـبب، وأخرى النتيجة، أو تذكر آيـات فكـرة، وأخرى ضدها، أو فرعاً منها، أو ما يتكامل معها، أو خلفياتها، أو تذكر آيات نموذجاً، وأخرى تذكر نموذجاً آخر مماثل أو مخالف، فهي عملية نامية متطورة.

فلو تأملنا (سورة التحريم)، سنبصرها تتشكل من مقاطع بدءاً من قصة التحريم في أول السـورة، وقصة زوجتي نوح ولوط، وزوجة فرعون، ومريم بنت عمران، و....، وقد يعنّ لأذهاننا سؤال مفاده: ما العلاقة والرابطة بين هذه المقاطع؟!

لكن حين ندرسـها بشـيء من العمق قد نصل إلى أنّها معاني متكاملة دعت السورة إلى تنضيدها في عقد واحدة، ومن العلاقات الموضوعية في السورة:

أ- المرأة بين التجربة النبوية/ والتجربة التاريخية:

فالآيـات في بداية السـورة تذكر تجربة معاصرة للنبـي ﷺ قامت بها امرأتان من زوجاته: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[٢].

وقد سأل عبدُ الله بنُ عباس عمرَ بنَ الخطاب: «يا أمير المؤمنين، مَن اللتان تظاهرتا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم – من أزواجه؟، فقال: تلك حفصة وعائشة»[٣].

---

(١) سورة القصص/ ٨٥- ٨٨.

(٢) سورة التحريم/ ٤.

(٣) صحيح البخاري، م ٢، ج ٦، ص ١٩٥، (كتاب التفسير: سورة التحريم)، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٧٨، (مسند عمر بن الخطاب)، ح ٣٤١.

ويقودنـا هذا المثال النسـوي المعاصر للوجود المبارك للنبـي ﷺ - يقودنا إلى تجـارب نسـوية تاريخية، في بعضها جسّـدت المـرأة المثـال المظلم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(١).

بيـد أنا نظلم المرأة حين نختـزل تجاربها في المثال المظلم البئيس، فعلى الصفحة المقابلة هناك أمثلة جسّـدت فيها المرأة المثال المشـرق: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(٢).

وواضـح مـن لـدن عنوان السـورة، ثمّ من الآيـة الأولى فيهـا، ومن أكثـر آياتها في الداخـل، ثمّ من الآيـات الأخيرة في السـورة؛ هيمنة موضوع المـرأة ونماذجها الصالحة والمنحرفة على موضوعات السورة.

فالعنوان هو التحريم المشير إلى حادثة تاريخية تناولتها كتب التفسير، وكتب أسباب النـزول، وكتـب الحديث، قامت بها اثنتان من نسـاء النبي ﷺ هما (عائشـة وحفصة)، والآيـات الخمـس الأولى في السـورة تتناول هـذا الموضوع، وأدب الرسـول ﷺ في مراعاة زوجاته وترك ما يكرهنه، ثمّ تختتم السورة بأربع تجارب نسائية تاريخية: تجربتان منها مظلمتان: (امرأة نوح، وامرأة لوط)، وتجربتان منها مشرقتان: (امرأة فرعون، والسيّدة مريم).

ومن العجيب في هذه السورة اعتمادها على الثنائية العددية، فهي تتحدث عن ست نسـاء: كلّ اثنتين اشـتركتا في أمر واحد: فاللتان تظاهرتا على الرسول ﷺ في المشكلة الأولـى اثنتـان، واللتان حملتا صورة المثـال المظلم اثنتان، واللتـان حملتا صورة المثال المشرق اثنتان.

ب- ضغوطات المحيط الأسري والإرادة الشخصية:

وربما نتساءل: ما العلاقة - إذاً - بين المحيط الأسري والإرادة الشخصية، أليست هذه التجارب قد خضعت لمحيط صالح يظلّه أنبياء؟، وما العلاقة بين ضغوطات المحيط

(١) سورة التحريم/ ١٠.

(٢) سورة التحريم/ ١١- ١٢.

والإرادة الشخصية؟

توضّح الآيات الكريمة أنّ ضغوطات المحيط الأسري ليست أقوى من إرادة الإنسان: ففي المحيط الأسري الصالح قد تنشأ امرأة منحرفة، كزوجتي نوح ولوط، وفي المحيط الأسري المنحرف قد تنشأ امرأة صالحة كزوجة فرعون، وفي ظلّ عدم توفر المحيط الأسري الزوجي أصلاً قد تنشأ المرأة صالحة كمريم.

ج- المشكلات الزوجية:

والمحيط الأسري قد تخلق فيه بعض الزوجات مشكلات لأزواجهنّ، كما فعلت زوجتا النبي الأكرم محمد ﷺ من مظاهرة عليه، وما قامت به إحداهنّ من إفشاء لأسراره، وما فعلته زوجتا النبيَين نوح ولوط عليهما السلام من قبل، وقد يخلق فيه الزوج مشكلات لزوجته، كتلك التي خلقها فرعون لزوجته، وجعلتها تتضرّع إلى الله أن ينجّيها منها: ﴿**إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾.

د- عدم ضرورة وحدة مصير الزوجين:

وما سبق يوصلنا إلى سؤال أشدّ حرجاً هو: هل هناك علاقة تلازمية بين مصير الزوجين، فتكون زوجة الصالح صالحة، وزوجة الطالح طالحة؟

ويجيب القرآن بنفي العلاقة التلازمية، فقد تنشأ امرأة سيئة في محيط صالح، فلا تستفيد من الإمكانات المتوفرة فيه، كما هي الحال مع زوجتي نوح ولوط اللتين لم تستفيدا من النبوة وقربها منهما، وقد تنشأ امرأة صالحة في محيط سيء فتغالب ضغوطات المحيط وتنتصر عليها، كما هي الحال مع زوجة فرعون التي ادعى زوجها الربوبية، ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾[1]، لكنّها كانت مؤمنة موحدة لله.

وإذا كانت النماذج الثلاثة السابقة (امرأة نوح، امرأة لوط، امرأة فرعون) تمثل المرأة الزوجة، فهناك نموذج للمرأة العذراء التي حفظت شرفها، وأشادت حياتها على الإيمان بالله ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، وهي السيّدة الطاهرة مريم عليها السلام.

(١) سورة النازعات/ ٢٤.

هـ- ميزان الثواب والعقاب:

تبيّن الآيات أنّ ميزان الثواب والعقاب يتمّ وفق فعل المكلف، لا وفق الانتماء الاجتماعي والأسري الذي ينمو فيه: فزوجتا النبيَين: نوح ولوط مصيرهما إلى النار، ولو كانتا زوجتي نبيَين: ﴿**فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾، وعلى الطرف المقابل، تسمو زوجة على زوجها الطاغية المدعي للربوبية، وتكون من سكان جنة النعيم: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾، وذاك لأنّ شرع الله يقتضي ﴿**أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى**﴾[١].

ولا ندعي أنّنا بهذه النقاط قد اكتشفنا جميع الروابط الموضوعية في (سورة التحريم)، والتي من شأنها أن تسلكها في عنوان واحد، وإنّما نريد القول بلزوم اعتصار الذهن والجهد في اكتشاف تلك الروابط المنطقية، وتفسير السورة في ضوء موضوع منهجي متكامل، بدلاً من تفسيرها ضمن تراكم عددي لملاحظات لا تتصل ببعضها.

رابعاً: الروابط بين السور:

تبدو كلّ سورة قرآنية مستقلة عن الأخرى، فهي وجود قائم بنفسه مستقل عن السورة السابقة واللاحقة، فالسورة عنوان مأخوذ من السور والإحاطة، ومن ثمّ فهي بناء مغلق مسيّج يحيط بالآيات التي داخلها، ويحتويها، كما يحيط السور بالبستان، فيسيّجه؛ ليفصله عن بساتين أخرى محيطة لا صلة له بها.

لكنّ التأمل في السور القرآنية يوقفنا أمام روابط عميقة بين السور استدعت تواليها بهذا الترتيب الذي حفل به المصحف الشريف:

١- فقد تنتهي سورة بمعنى تبدأ به السورة التي تليها:

فقد انتهت سورة آل عمران بالأمر بالتقوى فقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٢]، وابتدأت السورة التي

---

(١) سورة النجم/ ٣٨- ٤١.

(٢) سورة آل عمران/ ٢٠٠.

تليها مباشـرة في المصحف الشـريف – وهي سورة النساء – بالأمر بالتقوى، فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(١).

وانتهت سـورة الطـور بالحديث عن النجوم، فقالـت: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾(٢)، وابتدأت السـورة التي تليها – وهي سـورة النجـم – بالحديث عن النجوم، فقالت: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾(٣).

وانتهت سـورة (الواقعة) بالأمر بالتسبيح، فقالت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(٤)، وابتدأت السورة التالية لها – وهي سورة الحديد – بموضوع التسبيح، فقالت: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٥).

٢– وقد تتحدث سورتان عن موضوع واحد: فتكمل إحداهما الأخرى:

وقد سبق أن ذكرنا أنّ سورتي (الأنفال والتوبة) تتحدثان عن موضوع واحد هو الحرب والقتال، وأنّ سـورتي (الضحى والشـرح) تتحدثان عـن موضوع واحد وهو النبي ﷺ، وأنّ سـورتي (الفيل وقريش) تتحدثان عـن موضوع واحد وهو مجتمع قريش.

ونضيـف – هنـا – أنّ هـذه الصلـة الموضوعية اقتضـت مجيء كلّ سـورتين ذات موضوع واحد مما ذُكر متواليتين في التدوين في المصحف: فسـورة الأنفال تليها مباشرة سـورة التوبة، وسورة الضحى تليها مباشرة سورة الشرح، وسورة الفيل التي تمثل السبب جاءت متقدمة، وتليها مباشرة سورة قريش التي تمثّل النتيجة.

وقـد ذكرنـا المزيد مـن الأمثلة في (الاسـتفادة من ممهدات النصّ: علاقة السـورة بسور أخرى).

---

(١) سورة النساء/ ١.
(٢) سورة الطور/ ٤٩.
(٣) سورة النجم/ ١.
(٤) سورة الواقعة/ ٩٦.
(٥) سورة الحديد/ ١.

العلاقة الطولية والعرضية:

ومعنى ما مضى أنّنا نشهد نوعين من العلاقة في السورة:

أحدهما: العلاقة الطولية، حيث تكون العلاقة الجامعة ممثلة لشيء أعلى، وأشياء تحته تتفرع منه، وهنا يندرج: تناسب المحور العام مع المحاور الخاصّة، وتناسب المحور الخاصّ مع الآيات، وتناسب المحور العام مع الآيات.

وثانيهما: العلاقة العرضية، حيث تكون العلاقة الجامعة ممثلة لشيء/ وآخر في رتبته وصفه، وهنا يندرج: التناسب بين المحاور الخاصة فيما بينها، وتناسب الآيات فيما بينها داخل المحور الخاصّ.

كيف نكتشف الوحدة العضوية في السورة؟

وإذا كانت السورة القرآنية ذات وحدة عضوية، فكيف يتسنى لنا أن نكتشف تلك الوحدة؟

ذاك يتمّ عبر التعرّف على أنواع العلاقات بين الآيات، ثمّ نقرأ ذلك في الآيات لنلتمس نوع العلاقة والترابط بينها، ونستطيع أن نرد العلاقات بين الآيات إلى أنواع، أهمها:

أولاً: العلاقات المعنوية (الدلالية).

ثانياً: العلاقات اللغوية (الشكلية):

١- الاستفادة من نظام (العائلة اللغوية).

٢- الاستفادة من نظام (الربط النحوي).

ثالثاً: الأدوات الصوتية (الموسيقية).

أولاً: العلاقات المعنوية (الدلالية):

ونقصد بالأدوات الدلالية: العلم باتصال حلقات المعنى، أي أن نعرف أنّ معنى من المعاني يتألف من أقسام أو درجات أو أفكار، أو نعلم بالعلاقات القائمة فيه، ككون شيء منه سبباً لآخر، أو نتيجة له، أو مماثلاً له، أو ضداً إليه، أو غير ذلك.

يقـول الدكتور محمـد عمر بازمول: «لابدّ مـن دعامة تؤذن باتصـال الكلام، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط، وهذا مزج معنوي»(١).

ومن هذه العلاقات المعنوية:

١- علاقة التشابه:

فـي هذه العلاقة يتمّ ذكر شـيء، ثمّ ذكـر نظير له، بحيث يكـون عنصر المنطلق من فكرة لأخرى، أو من قصة لأخرى هو التماثل بينهما.

فقد ذكر القرآن الكريم في سورة مريم قصة النبي زكريا عليه السلام: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْـمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَـمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِـرًا وَقَـدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَـالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَـيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَـوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَـبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِـيًّا * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(٢).

وبعـد هـذه القصة مباشـرة جـاء القـرآن الكريم بقصـة النبي عيسـى عليه السلام، فقال: ﴿وَاذْكُـرْ فِـي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَـرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُـولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْـنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْـرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَـا لَيْتَنِـي مِـتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْـيًا مَّنسِـيًّا * فَنَادَاهَا مِـن تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَـدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَـرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(٣).

والمبـرّر للانتقـال من قصة زكريـا لقصة مريم هو كونهما تتحدثـان عن أمر واحد، فـكلا القصتيـن قصة ولادة إعجازيـة، وكلاهما قصـة ولادة نبي (يحيى/ عيسـى)، وكلا

(١) الدكتور محمد عمر بازمول، علم المناسبات في السور والآيات/ ٤٥.
(٢) سورة مريم/ ٧ـ ١٥.
(٣) سورة مريم/ ١٦ـ ٢٦.

النبيين تسنّم النبوة صبياً.

ولأنّ المجال العام لسورة مريم حافل بقصص للأنبياء جاءت تلك القصة مبدوءة بكلمة ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ**﴾:

- ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾(١).
- ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾(٢).
- ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**﴾(٣).
- ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**﴾(٤).
- ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾(٥).

فهو خطاب متوالي على النبي غرضه تذكيره بمجموعة من قصص الأنبياء قبله، تأتي في سياق متتابع.

٢- علاقة التكامل:

والتكامل يعني أنّ الفكرة لا زالت مستمرة، لكنّ هناك شيئاً يتبع الفكرة الأولى، ويكملها، وبه تتمّ وتكتمل.

يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء**﴾(٦).

وتبدو نهاية الآية الأولى حاملة لأوصاف تأتي لمجرّد الإغلاق والقفل وإيقاف تدفق شلال الآية، وأنّ الآية الثانية جاءت لمجرّد بيان مدى سعة علم الله تعالى!!

لكنّ حين نفكر بعمق في هاتين الآيتين سنجد أنّهما تتحدثان عن أنّ هناك ثلاثة حواجز تقف دون إنزال العقوبة بالمتمردين هي: الضعف، والشفقة المفرطة، والجهل،

---

(١) سورة مريم/ ١٦.
(٢) سورة مريم/ ٤١.
(٣) سورة مريم/ ٥١.
(٤) سورة مريم/ ٥٤.
(٥) سورة مريم/ ٥٦.
(٦) سورة آل عمران/ ٤- ٥.

وأنّ الله - سبحانه - جلّ عن أن تحيطه هذه الأمورن فهو:

أ- عزيز: قوي، لا يعتريه ضعف ولا وهن، ولا يعجزه شيء.

ب- ذو انتقام: فليس لديه شفقة مفرطة، وسوف ينتقم من الكفرة الذين هم ليسوا محطاً للرحمة الرحيمية في الآخرة، تلك الرحمة التي تختصّ بالمؤمنين.

ج - عليم: ذو اطلاع تام، وإحاطة شاملة، لا يعتريه جهل، ولا يفلت شيء من علمه[١].

وقد تكلمت الآية الأولى عن الصفتين الأوليين، وتكلمت الثانية عن الصفة الثالثة، فهو ترابط عميق يحكي تكاملية الفكرة وتتابعها، وليس مجرّد وصف عابر.

٣- علاقة التفريع:

والتفريع هو أن ينتقل من موضوع إلى آخر يتفرع منه، أو من معنى إلى معنى بينهما علاقة، ومنه ما أسماه البعض - تبعاً للمسمّى البلاغي - بـ (حسن التخلص)، حيث ينتقل القرآن من موضوع إلى آخر بينهما علاقة وترابط[٢].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[٣].

فبداية هذه الآيات امتداد لرحلة ذي القرنين، ويظهر هنا طلب قوم منه أن يبني لهم سداً يقيهم من يأجوج ومأجوج وفسادهم، وكيف أنّه بنى لهم ذلك السدّ المنيع الذي لم

(١) التدبر في القرآن/ ٨٥- ٨٦.
(٢) التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ١٣٤.
(٣) سورة الكهف/ ٩٣- ١٠١.

يستطع قوم يأجوج ومأجوج نقبه، لكنّ آية ﴿**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ تمثل بداية تفريع الموضوع: من بنائه التاريخي القديم وعدم قدرتهم على نقبه إلى صورة مستقبلية سوف يستطيعون فيها ذلك، ولأنّ هذا الفعل (النقب للسدّ) هو من علامات الساعة؛ نفذت الآيات إلى تصوير ذاك المستقبل الآتي المتعلق بالساعة وما يحدث فيها في آخر الزمان، فيصل القرآن الأول بالآخر، والبداية بالهدم، والعجز عن النقب بالفعل له، وكون ذلك من أشراط الساعة، وانتقل الموضوع من الصورة التاريخية لفعل ذي القرنين إلى المرتقب الآتي الذي ينتظر البشر وهو قيام الساعة، وتركت الآيات قصة ذي القرنين، ومضت حول هذا الموضوع الهام الذي تفرّع من ذاك السدّ الذي بُني في أول الآيات.

فالقرآن لما ذكر قول ذي القرنين في السدّ بعد دكه - الذي هو من أشراط الساعة - تخلص منه إلى النفخ في الصور، وذكر الحشر، ووصف مآل الكفار والمؤمنين[١].

وهذا ليس استطراداً وانتقالاً من موضوع إلى موضوع دون ترابط، وإنّما هو موضوع واحد ذو فروع: يظهر فرعه الأول في بناء السدّ، وفرعه الثاني في هدمه، وفرعه الثالث في كون ذاك الهدم علامة لقيام الساعة، ومن ثمّ عرض القرآن لمشهد ذاك الآتي، كما عرض لمنظر ذاك القديم.

وبعبارة أخرى: فمن الصورة الماضية المتحققة تتفرّع صورة استشرافية مستقبلية، ويطلعنا القرآن على الاثنتين معاً في رحلة غيبية تختصر الزمان وتطويه، فإذا هي آيات متجاورة.

٤- علاقة التضاد:

وبخلاف علاقة التشابه تأتي علاقة مقابلة لها هي: التضاد، التي تذكر شيئاً، ثمّ تثني بعده بضده، في نقل للفكرة ومقابلها، أو القصة ومقابلها:

وبعد عرض سورة مريم لنماذج الأنبياء الذين ذكرناهم في فقرة (التشابه) تأتي آية تقول: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾[٢].

(١) علم المناسبات في السور والآيات/ ٥٠، والتفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل/ ١٣٥.
(٢) سورة مريم/ ٥٨- ٥٩.

وواضح أنّ الكلام يشهد تماسكاً وثيقاً لعرى الوحدة العضوية والترابط، فالآية الأولى هنا هي امتداد لنقل الصور الإيجابية للأنبياء، لكنّ ذاك لم يستثمره من جاء بعدهم، فهناك صورة ضد تمت بعدهم تحكيها الآية الثانية ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾.

وبهذا فالآية الثانية ليست استطراداً جاء بعد ذكر مجموعة من الصور المشرقة للأنبياء، وإنّما هو تتمة للفكرة نفسها بعرض مقابلها، فهناك من بلغ القمة كالأنبياء، وهناك من انتكس في الحمأة الوبيئة والمستنقع الآسن، ولئلا يتصور البعض أنّه بمستوى إشراقة تلك النماذج النبوية كانت هناك - أيضاً - نماذج مشرقة لمن جاء بعدهم حيث تلقف تجربتهم وبنى عليها فكان هو الآخر مشرقاً وضّاء.

٥- العلاقة العليّة (السببية):

وهنا تكون العلاقة علاقة سبب بمسبّب، علة بمعلول، يتقدم فيها السبب على النتيجة، ونسمّيها (سببية)؛ لأنّ المتقدم فيها هو السبب.

يقول الله تعالى:

﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ * لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ**﴾[1].

تبدو هذه الآيات الثلاث للوهلة الأولى غير متماسكة: فالأولى تتحدث عن أنّ أمور الملك وتصريفها وتبديلها بيده، في حين تتكلم الثانية عن إدخال الليل في النهار، وعمليتي الإحياء والرزق، ثمّ تأتي الآية الثالثة لتطلب من المؤمنين ألا يتخذوا الكافرين أولياء، وتنذر من مغبّة ذلك، فهل في هذا علاقة وارتباط ووحدة عضوية؟!

بيد أنّ الفهم القاصر الجزئي السابق هو الذي أنتج فكرة التفكك، بينما يمكن أن نقرأ الآيات السابقة بوصفها تتحدث عن نوعين من السلطة والتصرّف لدى الله، هما:

---

(١) سورة آل عمران/ ٢٦- ٢٨.

أ- السلطة التشريعية:

فهو الحاكم في شؤون الناس والمجتمع، وهو الذي يهب الحكم، وينزعه، وبيده أن يهب العزة لمن يشاء، وينزعها ممن يشاء، وكلّ التصرّفات الأخرى في عالم التشريع بيده: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

ب- السلطة التكوينية:

ولا تقتصر سلطته تعالى على أمور التشريع، بل.. تمتدّ إلى أمور التكوين، فالتصرّف بهذا الكون كاملاً بيده: ﴿**تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

وما دامت أمور التشريع والتكوين بيده وحده فلماذا اللجوء لغيره، ولماذا اتخاذ الأولياء من دونه، إنّ أولئك ليست بيدهم قدرة على تغيير شيئ من نظم التشريع ولا من نظم التكوين، وإنّ إيمان المؤمن بسلطة الله التشريعية والتكوينية سبب نتيجته المنطقية ألا يتخذ ولياً من دونه، وهكذا تأتي الآية الثالثة نتيجة منطقية للآيتين قبلها: ﴿**لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ**﴾.

ولا يخفى أنّ العلاقة بين الآيتين الأوليين هنا هي علاقة التكامل؛ إذ هناك نوعان لسلطة الله تعالى، تكلمت الآية الأولى عن السلطة التشريعية، والثانية عن السلطة التكوينية.

٦- العلاقة المعلولية (المسببية):

وهنا تكون العلاقة علاقة مسبّب بسبب، معلول بعلة، تتقدم فيها النتيجة على السبب، ونسمّيها (مسببية)؛ لأنّ المتقدم فيها هو المسبّب.

يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران/ ٣٣- ٣٤.

والآية الأولى هنا تتحدث عن نوعين من الاصطفاء:

أ – اصطفاء فردي: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾.

ب– اصطفاء مجموعي: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾.

ولعلنا نسأل: ما سبب ذاك الاصطفاء؟، وهل هو اختيار سابق دون مؤهلات؟!، فتجيب بداية الآية الثانية عن سبب الاصطفاء المجموعي وهو التقارب في الصفات والكمالات ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾، ويجيب آخرها عن سبب الاصطفاء عموماً (فردياً كان أم جمعياً) بأنّه ليس كيفياً، وإنّما هو ناتج علم إلهي ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فالله سميع بأقوالهم، عليم بأعمالهم المبرزة لتلك الأهلية والاصطفاء، وبما تكنّه قلوبهم.

فهو يعلم بأهليتهم لذلك الاصطفاء، ويختارهم بناء على ما فيهم من مؤهلات وكفاءات توفرت فيهم، واختياره ليس كيفياً ولا فوضوياً ولا عشوائياً[1].

ثانياً: العلاقات اللغوية (الشكلية):

١– الاستفادة من نظام (العائلة اللغوية):

إذا كانت الملاحظات السابقة التي نسعى بها للتوصل لمنهج التدبر الموضوعي الكشفي، واكتشاف الترابط بين آيات السورة؛ قد غلب عليها الطابع المضموني الموضوعي، فإنّ هذه الملاحظة تندرج ضمن الجانب الشكلي الفني.

فنحن – هنا – نسعى لدراسة (سورة) دراسة موضوعية، أو دراسة (موضوع في سورة)، أو موضوع في آية أو آيات تبيّنه (مقالة تفسيرية)، وأن نستكشف الوحدة العضوية عبر الصيغ الشكلية الفنية الواردة في السورة أو الآيات، والتي تدلل – لاحقاً – على وجود وحدة موضوعية بينها.

فالألفاظ التي تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة، وشجرة لغوية واحدة، وحقل دلالي واحد، تتقارب معانيها وتتعانق للتعبير عن موضوع واحد، وتدلل على ترابط عضوي في القضية التي تتناولها، ويمكن عبر تصيّدها من النصّ معرفة أنّه يدور حول موضوع واحد متصل، فلو وجدنا نصّاً تغلب فيه كلمات (القيام/ قائم/ قام/ يقوم/ قم) فربّما يكون موضوعه (القيام)؛ لأنّ هذا الكلمات المنتمية إلى عائلة لغوية واحدة تقرّبه من

(١) التدبر في القرآن/ ٨٤.

كونه موضوعاً واحداً متواشج العرى، وكذلك الحال لو كثرت على لسان النصّ كلمات مثل: (القيام/ النهوض/ الوقوف)، فهذه الكلمات تنتمي إلى شجرة واحدة وحقل دلالي واحد، وإن كانت مأخوذة من مواد لغوية مختلفة، إلا أنّها تحمل معاني متقاربة تنفع في سبر موضوع واحد، ومعرفة مدى الاتصال بين أجزاء الكلام.

ويمكن هنا أن ندرس الأشكال الأسلوبية التالية:

أ- الاشتقاق.

ب - الترادف.

ج - التكرار.

د - التضاد.

هـ - التقارب[1].

وسنقوم - هنا - بعرض مختصر لهذه الأشكال الأسلوبية في سورة (التحريم)؛ لنقف على شيء من دلائل التماسك والترابط بين الآيات:

أ - الاشتقاق:

أي ورود كلمات (هيئات) مشتقة من مادة واحدة، تقرّبنا من كون الموضوع في الآية أو الآيات واحداً، وتجعل الكلام متلاحماً مترابطاً يصبّ في غاية واحدة:

فقد وردت في سورة التحريم كلمات (نبّأ)، و(أنبأ) في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[2].

والاشتقاق - شأنه شأن باقي الأشكال الأسلوبية القادمة - يفيدنا في اكتشاف الوحدة العضوية والموضوعية معاً: العضوية؛ لأنّه يفيد أنّ الكلام مترابط متصل، والموضوعية؛ لأنّه يدلل فوق ذاك الترابط على أنّه يدور حول موضوع واحد لم يتغيّر.

ب- الترادف:

وهو ورود كلمات متقاربة في المعنى ندرجها - تسامحاً - في باب (الترادف)،

(١) مناهج التفسير الموضوعي، وعلاقتها بالتفسير الشفاهي/ ١٣١.

(٢) سورة التحريم/ ٣.

وهي تدلّ على أنّ الكلام لا زال متواصلاً مترابطاً، وأنّه لم يخرج إلى موضوع آخر، فالموضوع هو هو، لا زال مستمراً، لكن عُبِّر عنه بكلمة أخرى مقاربة.

وقد وردت في الآيات الكريمة كلمات (الزوجة)، (امرأة نوح)، (امرأة لوط): ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾(١)، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾، ﴿امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾(٢)، ﴿امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾(٣)، وكلمة (امرأة فلان) في سياق اتصالها بمذكر تحمل مفاد (زوجة).

ج- التكرار:

وإذا كان الترادف استمراراً للفكرة والموضوع بألفاظ أخرى قريبة، فإنّ التكرار استمرار للموضوع بالألفاظ ذاتها.

وقد دأبت الآيات الشريفة في سورة التحريم على تكرار كلمات (أزواج)، (امرأة)، وأسلوب (ضرب الله مثلاً)، ولكلّ منها غرض في استمرار الحديث عن الموضوع ذاته، واتصال وشائجه، فكلمة (أزواج) أُعيدت؛ ليكون الكلام واضحاً أنّ الحديث ما زال عنهن أنفسن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٥)، ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾(٦).

وتكررت كلمة (امرأة) ثلاث مرات: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٧).

---

(١) سورة التحريم/ ١.
(٢) سورة التحريم/ ١١.
(٣) سورة التحريم/ ١٠.
(٤) سورة التحريم/ ١.
(٥) سورة التحريم/ ٣.
(٦) سورة التحريم/ ٥.
(٧) سورة التحريم/ ١٠- ١١.

كمـا تكرر أسـلوب (ضرب الله مثلاً) مرتين، مقترناً بأمثلة نسـوية؛ ليرسـخ اتصال وتواصل الحلقات في موضوع واحد متماسـك، وليفيد أنّ الموضوع لا زال مسـتمراً في الحديث عنهن، وأنّ الصور التي ستُعرض ليست حصرية متناهية، وإنّما هي مجرّد (مثال) توضيحي للفكرة، وهناك أمثلة أخرى في السـياق نفسـه: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ**﴾، ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ**﴾.

كمـا تكررت في السـورة كلمات مثـل: (النبـي)، (نجّني)، (الذين آمنـوا)، (الذين كفروا).

د- التضاد:

والتضاد بين الكلمات يقع بأحد شكلين:

- إما (تضاد السلب)، بأن يرد الأصل، ثمّ ترد كلمة الضدّ منفية فتثبت الأصل، كأن نقول: (قائم)، (غير قائم/ غير قاعد/ غير جالس/ غير نائم)، وهي تحكي تواصل الكلام واستمرار الموضوع، فالكلمات المنفية هي الصورة الأخرى المقابلة للمعنى المثبت.

- وإما (تضاد الإيجاب)، بأن ترد الكلمة مثبتة ويرد ضدها مثبتاً، كأن نقول: (قائم/ جالـس/ قاعـد)، وهي - آنئـذ - تحكي الموضوع مـن طرفيه: من طرف وجـود الصفة، وطـرف وجود ضدهـا، فهو يعكس صـورة الفكرة والصـورة المضادة للفكـرة؛ مما يفيد اتصال الموضوع واستمراره، ويخدم القول بالوحدتين العضوية والموضوعية.

وقد حفلت سورة التحريم بكثير من الكلمات المتضادة، ومنها:

- تحرّم/ ما أحل الله/ تحلة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.

- أسـر/ أظهر: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾.

كما حملت هذه الآية الكريمة كلمتي (عرّف/ أعرض).

- ثيبـات/ أبكار: ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾.

- الذين آمنوا/ الذين كفروا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ....﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ....﴾.

هـ- التقارب (الكلمات القريبة):

ورود الألفاظ ذات المعاني القريبة تفيد في استمرار الموضوع في أفكار قريبة من المركز، قد تكون تفصيلاً أو تفريعاً، أو تطويراً، أي أنّها أفكار متصلة متقاربة.

ومن المعاني القريبة التي حملتها آيات سورة التحريم:

- صغت/ تظاهرا: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[4]، وكلاهما يثبت صدور الخطأ من المتحدَّث عنهما، سواء بفكرة عامة تثبت الميل عن الجادة (صغت)، أو ببيان الفعل المباشر الذي قامتا به (تظاهرا).

- الطلاق/ يبدله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، والطلاق والإبدال - لو حصل - يثبت انصرام العلاقة الزوجية السابقة، لكنّ الأول يقف عند حدّ إثبات ذاك الانصرام، بينما الثاني يثبت تصرّم السابق، ووجود بديل لاحق.

- جاهد/ اغلظ عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ

(١) سورة التحريم/ ٦.
(٢) سورة التحريم/ ٨.
(٣) سورة التحريم/ ٧.
(٤) سورة التحريم/ ٤.

﴿وَمَأْوَاهُـمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]، وكلاهمـا يثبت بذل الجهد ضد الأعداء، لكنّ الأول في القيام بفعل الجهاد، والثاني في تشـديد مسـتوى الجهاد أو مسـتوى الضغط الممارَس عليهم.

٢- الاستفادة من نظام (الربط النحوي):

ففي النحو العربي هناك مجموعة من الأمور تعمل على الربط بين الجمل، وتواشج العلاقات بينها، ويمكن عبرها أن نستفيد أنّ الكلام لا زال متصلاً مترابطاً تتماسك أجزاؤه في وحدة عضوية واحدة، ومن ذلك:

أ- عود الضمير:

الضميـر عبـارة عن إعادة للاسـم الصريح نفسـه بصورة مسـتكنة مضمرة تبتغي الإيجـاز والاختصـار، بدلاً من تكراره الذي قد لا يألفه السـمع، والـذي يطيل الكلام، فهـو حين يعود على شـيء يربـط الكلام اللاحق به، ويدلل على أنّ الكلام المسـتمر لا زال متعلقاً به.

ب- العطف:

العطف يفيد تواصل الجمل وعودها على بعضها، وتشابك العلاقات بينها، فحرف العطـف يربط بيـن المتعاطفين، ويزيد على ذلـك معنى يحققه كإفادة (الواو) للتسـاوي، وإفـادة (الفـاء) للتعاقـب، وإفـادة (ثمّ) للتراخـي، وإفـادة (أو) للتخيير، أو غيـر ذلك من الأدوات ومعانيها.

ج- الاسم الموصول والصلة:

الاسـم الموصـول قد يكون رابطاً للـكلام الذي قبله بما بعـده، وجملة الصلة التي تتبعـه قد تحتوي على ضمير رابط يعود عليه؛ فتتماسـك الأجـزاء وتتألف في كلام واحد متصل، ينظم الكلام السابق بالاسم الموصول بجملة الصلة بعده.

---

(١) سورة التحريم/ ٩.

د- أسماء الإشارة:

أسـماء الإشـارة قد تأتي لتشـير إلى السـابق أو اللاحق في الكلام سـواء أكان أمراً معنوياً أم حسياً، ومن ثمّ فهي تربط الكلام ببعضه.

الروابط النحوية في سورة البلد:

حين نقرأ سورة (البلد) تغمرنا الآيات التالية:

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾[1].

وهنا نشهد الروابط النحوية السابقة تعمل بكفاءة عالية في تحقيق الوحدة العضوية في الكلام، والعمل على الربط المحكم بين أجزائه:

أ- فالضمائر تتواشـج لتعيد الكلام وتربط بين أجزائه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾.

فالضمير في (يحسب/ عليه/ يقول/ أهلكتُ/ يحسب/ يره/ له/ هديناه/ اقتحم).. يعود على (الإنسان) الذي جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، وقد تنوعت الضمائر هنا بين ضمائر ظاهرة بارزة، كما في (عليه/ أهلكتُ/ يره/ له/ هديناه)، وأخرى مستترة، كما في (يحسب/ يقول/ اقتحم).

ب- وجاء العطف؛ ليخلق التواصل والتلاحم بين الآيات، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

---

(١) سورة البلد/ ١- ٢٠.

حمل العديد من أدوات العطف: فهناك (الواو) الدالة على الاشتراك والتساوي ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وهناك الفاء الدالة على النتيجة والجزاء ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، وهناك (أو) الدالة على التخيير ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، وهناك (ثمّ) الدالة على الترتيب مع التراخي ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

وكما جاء العطف بين الآيات خالقاً التواشج بينها، جاء في الآية الواحدة خالقاً الترابط بين أجزائها الداخلية، كما في ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، حيث عمل حرف (الواو) على الربط بين الجمل المتعاطفة.

ج- كما جاء اسم الإشارة (أولئك)؛ ليوجد الربط والتواصل بين آيتين توسطهما: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

فأصحاب الميمنة هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، بقرينة الإشارة لهم بـ (أولئك).

د- وجاء الاسم الموصول (الذين)؛ ليربط الجملتين ببعضهما، ويعرض النموذج المقابل لما في الآية قبله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾.

وجملة ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ هي صلة الموصول، وحملت في أحشائها ضميرين عائدين على الاسم الموصول، هما: (واو/ الجماعة) في (كفروا)، والضمير المنفصل (هم).

ثالثاً: الأدوات الصوتية (الموسيقية):

التقاء الجمل في الحرف الأخير بينها يوجد نغمة موسيقية عذبة (موسيقى الفواصل)، يسمّيها البلاغيون: السجع؛ تشبيهاً له بصوت الحمام الذي يشبه بعضه بعضاً في نظرهم، ويسمّونه في القرآن الكريم: (الفاصلة/ الفواصل)؛ تأدباً مع القرآن وتعظيماً له، واحتراساً من تشبيهه بصوت الحمام أو بسجع الكهّان الذين كانوا ينظمونه متفقاً في الحرف الأخير[1].

---

(١) سعد الدين التفتازاني، مختصر المعاني/ ٢٩٥.

ويُسمّى في النقد الحديث: الموسيقى الصوتية،أو الجرس الصوتي أو الموسيقي، أو وحدة النغم، أو الإيقاع النغمي، أو التناغم الصوتي.

وهو مما يعمل على خلق التواصل والتعاضد بين أجزاء الكلام؛ لأنّه يُنهي الجمل بالحرف نفسه، فيخلق إيقاعاً موسيقياً يُعلم به تواصل الجمل.

فجرس الفواصل، أو الإيقاع النغمي للفاصلة، أو الإيقاع الموسيقي للفاصلة، أو التناغم الصوتي..؛ تعبيرات عن شيء واحد هو ما يحدثه الحرف الأخير الذي تلتقي فيه الآيات من نغم موسيقي يوحّد بينها في الإيقاع الصوتي الصادر عنه.

وقد تأتي الفاصلة القرآنية في بعض السور متوالية مستمرة ممتدة لمساحة السورة كاملة؛ مما يحدث فيها نغماً واحداً مطرداً، كما في سورة (الناس) حيث يقول الباري تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾[1].

فجميع آياتها التقت في حرف السين المسبوق بحرف مدّ (هو الألف هنا).

وقد تأتي الفاصلة القرآنية متراوحة متنقلة متحوّلة، تتوحد فيها آيات في حرف، وآيات أخرى في حرف آخر، فيجمع بين كلّ مجموعة نغم موحّد، وإيقاع موسيقي متناغم، كما في قوله تعالى في سورة (الفلق): ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾[2].

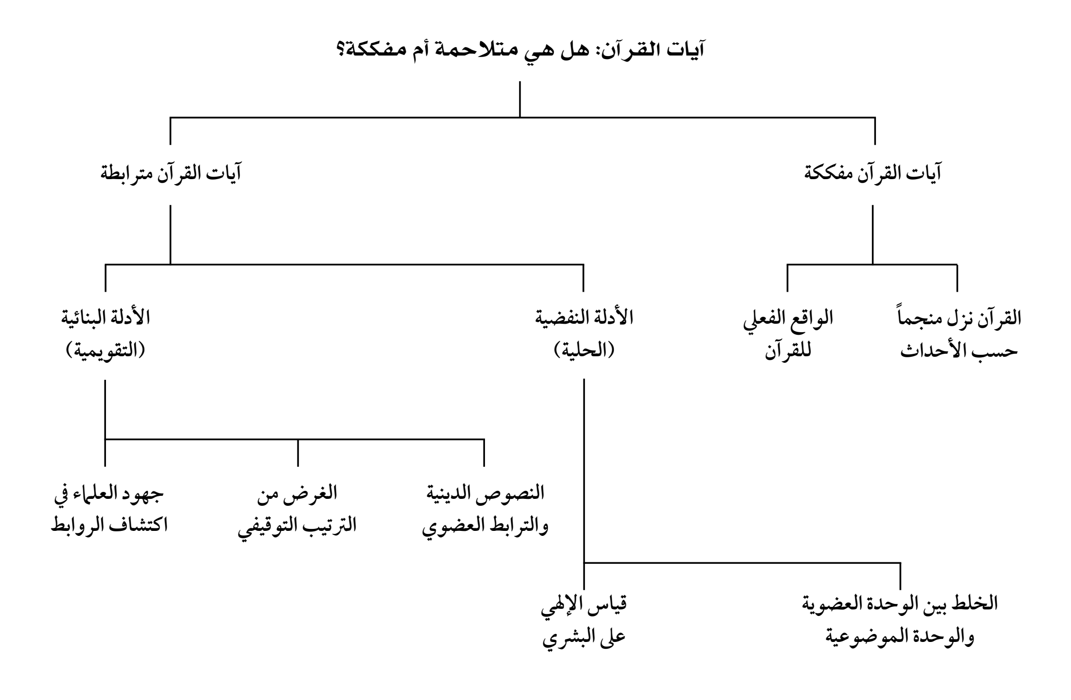
فالآيتان الأوليان التقتا في حرف (القاف)، والآيتان الأخيرتان التقتا في حرف الدال، وجاء قوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**﴾؛ ليثبت لنا أنّ القرآن الكريم يقدّم وحدة المعنى على وحدة الإيقاع الصوتي، وأنّ الهدف المعنوي عنده مقدّم على الهدف الفني الجمالي، وأنّه لا يستهدف الفاصلة لنفسها، وإنّما لخدمة المعنى، فإذا كان المعنى من دونها أتمّ تركها.

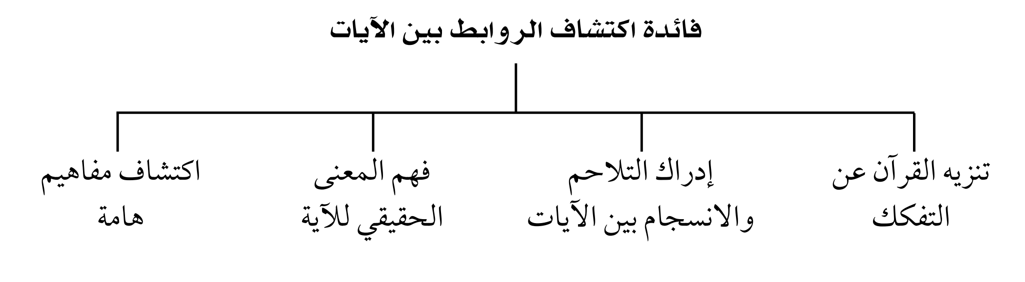
ودور الفاصلة أنّها تخلق في السمع – عبر ما تتركه من وحدة النغم – تجانساً صوتياً يخدم الوحدة العضوية وتواصل الآيات، فوحدة النغمة توحي بأنّها آيات متتابعة متوالية متصلة.

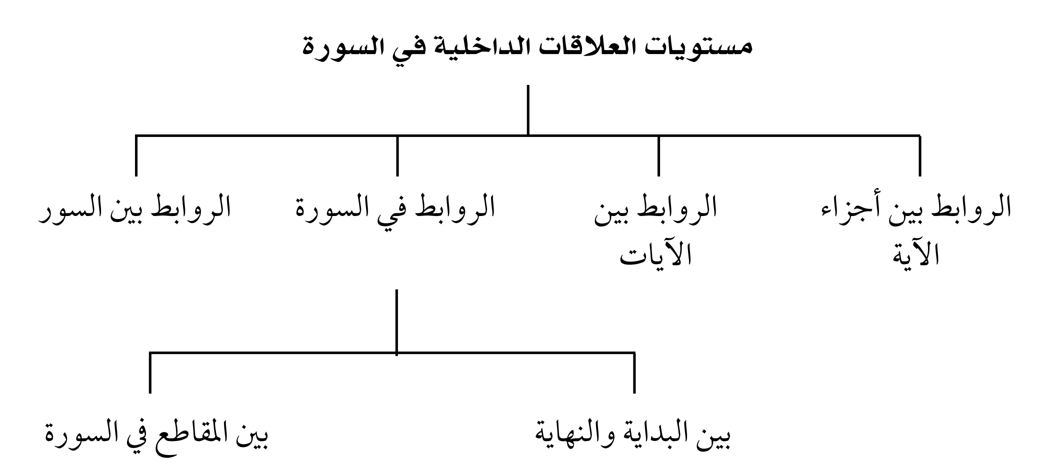
---

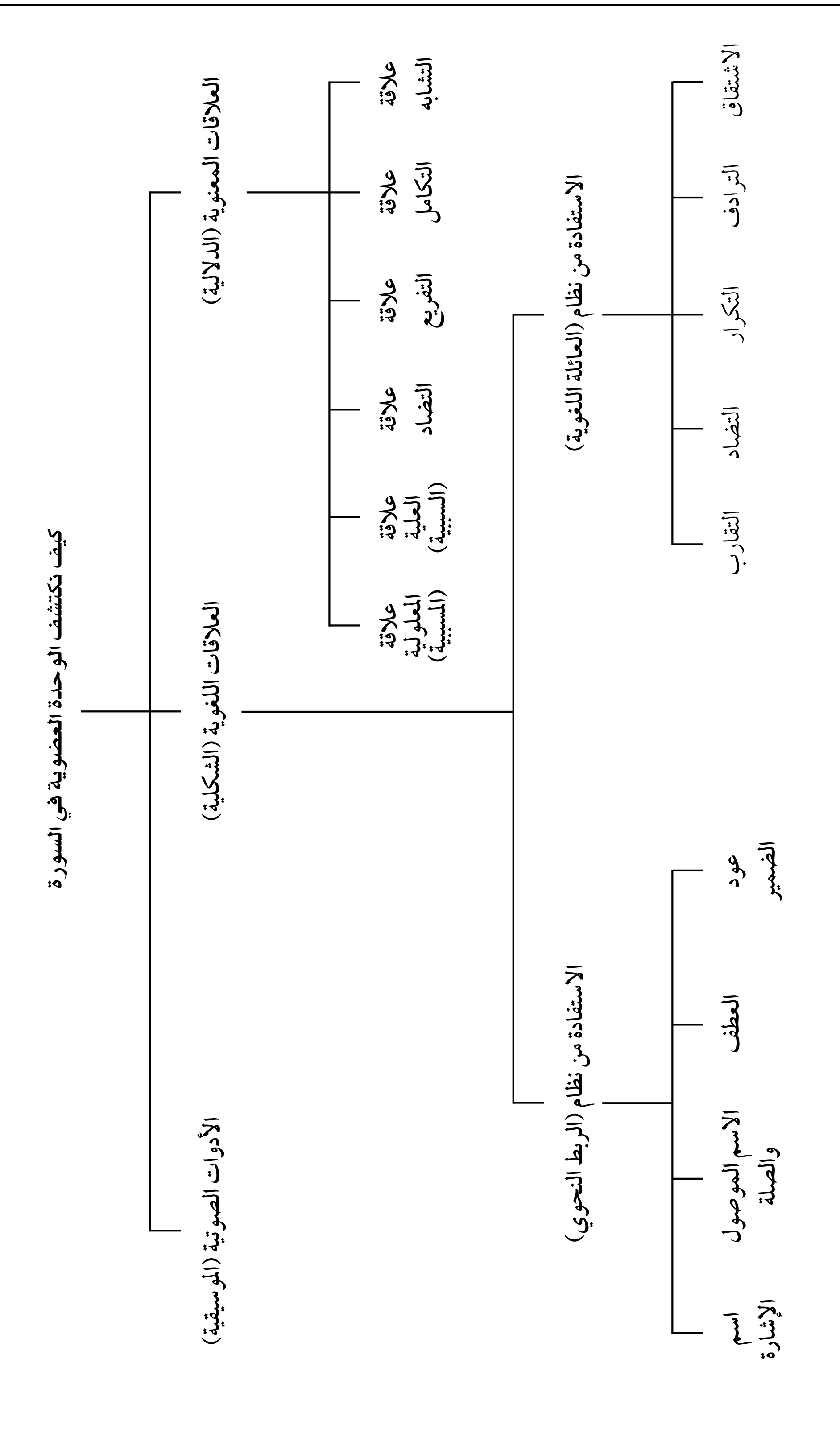
(١) سورة الناس/ ١– ٦.

(٢) سورة الفلق/ ١– ٥.


آيات القرآن: هل هي متلاحمة أم مفككة؟
آيات القرآن مفككة
آيات القرآن مترابطة
القرآن نزل منجماً حسب الأحداث
الواقع الفعلي للقرآن
الأدلة النفضية (الحلية)
الأدلة البنائية (التقويمية)
النصوص الدينية والترابط العضوي
الغرض من الترتيب التوقيفي
جهود العلماء في اكتشاف الروابط
الخلط بين الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية
قياس الإلهي على البشري


فائدة اكتشاف الروابط بين الآيات
تنزيه القرآن عن التفكك
إدراك التلاحم والانسجام بين الآيات
فهم المعنى الحقيقي للآية
اكتشاف مفاهيم هامة


مستويات العلاقات الداخلية في السورة
الروابط بين أجزاء الآية
الروابط بين الآيات
الروابط في السورة
الروابط بين السور
بين البداية والنهاية
بين المقاطع في السورة


كيف نكتشف الوحدة العضوية في السورة
العلاقات المعنوية (الدلالية)
العلاقات اللغوية (الشكلية)
الأدوات الصوتية (الموسيقية)
علاقة التشابه
علاقة التكامل
علاقة التفريع
علاقة التضاد
علاقة العلية (السببية)
علاقة المعلولية (المسببية)
الاستفادة من نظام (العائلة اللغوية)
الاستفادة من نظام (الربط النحوي)
الاشتقاق
الترادف
التكرار
التضاد
التقارب
عود الضمير
العطف
الاسم الموصول والصلة
اسم الإشارة



ت١: أضعُ علامة (✓) أمــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- لا يوجـد فرق بيـن الوحدتين العضويـة والموضوعية، فكلاهما منصبّ على المعنى. (   )

ب - الأخذ بـالأدوات الصوتية لإثبـات الوحدة العضوية يدلـل علـى ضرورة انتهاء تقطيع السـورة عنـد بداية كلّ فاصلـة جديدة أو جرس صوتي جديد. (   )

ت٢: أذكرُ مثالاً قرآنياً للعلاقات التالية:

أ- علاقة التشابه. ب - علاقة التضاد.

ج - العلاقة العِليّة. د - علاقة المعلولية.

ت٣: ما طرق اكتشاف الوحدة العضوية؟

ت٤: ما هو الفرق بين المعاني القريبة والمعاني المترادفة؟

ت٥: (آيات القرآن متلاحمة عضوياً)، أناقشُ هذه العبارة.

ت٦: أيّهما أقوى حجة: نفي الوحدة العضوية أم إثباتها؟

ت٧: بعد قراءة سورة الغاشية نبيّن ما يلي:

أ- المحور العام للسورة.

ب - المحاور الخاصة.

ج - إثبات الوحدة العضوية بين المقاطع.

الخطوة السادسة: دراسة السورة كموضوع

القـول بالوحدة الموضوعية في نـصّ أو كلام يمثل خطوة متقدّمة على القول بالوحدة العضوية؛ لأنّ الأخيرة تثبت اتصال الكلام وترابطه، لكنّها لا تثبت - بالضرورة - كونه حول موضوع واحد، فقد يتحدث شخص حول موضوع، ثمّ ينتقل إلى موضوع آخر يرتبط بالأول، ثمّ إلى ثالث يرتبط بالثاني، وهكذا..، وكلامه هذا ذو وحدة عضوية، لكنّه لا تتوفر فيه الوحدة الموضوعية التي تشترط أن يدور الكلام حول موضوع واحد لا غير.

ونحن في دراسـتنا للسـورة القرآنية نسعى أن لا ندرسـها بوصفها وحدات منفصلة تتكيء على الاستطراد والانتقال الفجائي للمواضيع، وكأنّها (كشكول ومنوعات)، وإنّما ننظر إليها وندرسها بوصفها وحدة واحدة تتناول موضوعاً واحداً.

وهذا قد يتطلب منا إعمال العقل في اكتشاف العنصر الرابط الذي يشكل المحور للسور، حتى ندرك أنّ الموضوعات الجزئية التفصيلية للسورة تدور جميعها حول ذاك المحور الواحد، وتشكل موضوعاً واحداً، وأنّها تتوزع الدور في تناول جنبات وأطراف لموضوع واحد.

وبعبارة ثانية: يتطلب منا اكتشاف الوحدة الموضوعية.

كيف نكتشف الوحدة الموضوعية؟

ولكي نكتشـف الوحدة الموضوعية في السـورة أو بين الآيـات أو في الآية نحتاج إلى القيام بعملين متكاملين متواليين، هما: التحليل والتركيب.

١- مستوى التحليل:

فـي مسـتوى (التحليل) نجزئ السـورة إلـى مقاطـع، والمقاطع إلى آيـات، وربّما

نحتاج إلى تجزئة الآيات إلى علاقات أصغر (كالجُمل والمفردات)، وندرس ذلك كلّه بعمق وتفصيل، لاستكشاف الموضوع التفصيلي الذي ينطوي عليه كلّ منها، وعلاقة تلك المواضيع التفصيلية ببعضها.

٢- مستوى التركيب:

في مستوى (التركيب) نعيد تركيب تلك الأجزاء التفصيلية ضمن (علاقات جامعة) و(أسس ناظمة) تشكل الموضوع؛ ثمّ نعيد تقسيم السورة أو الآيات إلى أقسام ومقاطع حسب الموضوعات الفرعية حسب أداء كلّ منها لقسم من الموضوع العام، ومنها جميعاً ندرك الخيط الموحّد الواقف خلفها جميعاً والذي يمثل موضوع السورة أو المحور العام فيها، أو السياق العام الذي تدور حوله، أو العنوان الكلي لها.

ثلاثة أشكال من دراسة السورة:

قال الله تعالى في بداية سورة البقرة:

١- **﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[١].

٢- **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾**[٢].

٣- **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ * اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾**[٣].

---

(١) سورة البقرة/ ١- ٥.

(٢) سورة البقرة/ ٦- ٧.

(٣) سورة البقرة/ ٨- ١٨.

لنفترض أنّنا اعتزمنا القيام بدراسة تدبرية في هذه الآيات المتوالية من بداية سورة البقرة، فنحن أمام ثلاثة أشكال من الدراسة:

أ- الدراسة اللفظية للمفردات والتراكيب:

وهنا نصبّ اهتمامنا على مفردات آية بعد أخرى؛ لإيجاد معنى مرادف أو مقارب لكلّ مفردة اعتراها الخفاء، أو علاها الغموض، فنقف عند كلمة (ألم)، و(غشاوة)، و(السفهاء)، كما نقف عند أساليب مثل: (المشاكلة) في ﴿**يُخَادِعُونَ اللّـهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم**﴾، أو (التعبير بالجملة الاسمية والجملة الفعلية) في ﴿**وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ**﴾.

وهذه الطريقة الدرسية تقف عند حدود التوضيح اللغوي لمعنى الألفاظ والتراكيب الواردة في الآيات: كلّ على انفراد.

ب- الدراسة للأجزاء والمحتوى فيها:

وهنا ندرس مقطعاً بعد آخر: فيلفتنا أنّ المقطع الأول يتحدث عن صفات المؤمنين، وأنّه ذكر لهم صفات خمس، ثمّ انتقل القرآن الكريم في المقطع الثاني ليتحدث عن صفات الكفار، ثمّ انتقل القرآن الكريم للحديث عن صفات المنافقين.

وهذه الطريقة في الدراسة أرقى من السابقة، وتستلهم من التدبر الموضعي، وتسلط الضوء على معاني هامة في محتوى الآيات، ولا تقف عند حدود التوضيح اللفظي، لكنّها لا تربط بين المقاطع، ويرد فيها حرف (ثمّ) ليدلل على وجود خروج موضوعي وانتقال فكري، ولا يتردد بعض الآخذين بهذه الطريقة من استعمال كلمة (استطرد، يستطرد) للتعبير عن القرآن الكريم بأنّه قال كذا، ثمّ استطرد فقال**!!**

ولعلّنا - هنا - لا نخفي تحرّجنا الشديد من استعمال كلمة (استطرد) واشتقاقاتها ومقارباتها في وصف الأسلوب القرآني، لاسيما مع المدلول البلاغي السلبي لهذه المفردة، والذي يرى أنّ «الاستطراد هو: أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر، ثمّ يرجع إلى إتمام الكلام الأول»[1].

---

(١) جواهر البلاغة/ ٣٦٥.

ج- الدراسة للموضوع:

وهنـا ندرس النصّ بوصفه كلاً واحداً متجانسـاً يدور حـول موضوع واحد، لنقول - مثلاً -: إنّ الآيات السـابقة تدور حول محور (مواقف الناس في المجتمع المسلم)، أو (مواقف الناس تجاه الرسالة)، وأنّهم يتوزعون على ثلاثة مواقف:

الأول: المؤمنون:

وقـد تكلمـت عنهم الآيـات الخمس الأولـى (١- ٥) من سـورة البقـرة، وذكرت صفاتهم.

الثاني: الكافرون:

وقد تكلمت عنهم الآيتان (٦- ٧) من السورة، وفصّلت صفاتهم.

الثالث: المنافقون:

ولخطورتهـم فـي المجتمع المسـلم تناولتهم اثنتا عشـرة آية ما بيـن (٨- ٢٠) من السـورة، والتي نقلنـا بعضاً منها فيما سـبق، وتناولت صفاتهم، فكانت المسـاحة القرآنية المعطاة لدراستهم أكثر من المساحة المعطاة لدراسة المؤمنين (خمس آيات)، أو لدراسة الكافرين (آيتان)، بل.. أكثر من المسـاحة المعطاة لدرسـة المؤمنين والكافرين معاً (سبع آيات).

ونحتـاج هنا للولوج بالتفصيل في صفات أصحاب هذه المواقف الثلاثة، سـاعين للربط بين المحور الخاصّ للموضوع - كالمؤمنين -، والمحور العام للموضوع (مواقف الناس في المجتمع المسلم).

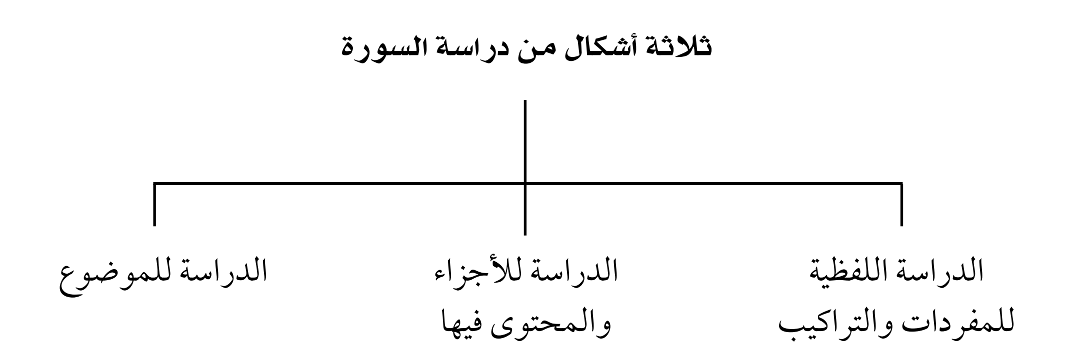
وهذا النوع من الدارسـة (الثالث) هو ما نعبّر عنه بدراسة السورة كموضوع، فنحن بالطريقة هذه نسعى للتعرّف على الروح الكلّي الجامع بين الآيات، ونتعرّف عليها ضمن ذاك السياق والمدلول، وليس ضمن سياق يكتفي بمعرفة بعض مداليل الألفاظ دون أن يلج لمعرفـه الهدايات والبصائر التي جاءت الآية مـن أجلها، ولا ضمن مداليل فكرية مجتزأة عن السياق العام لا توضّح الصورة الكلية، وتكتفي بعرض مداليل جزئية متناثرة.

كيف نكتشف الوحدة الموضوعية؟

مستوى التحليل

مستوى التركيب

ثلاثة أشكال من دراسة السورة





ت١: أضعُ علامة (✓) أمـــام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

أ- القول بالوحـدة العضوية في النصّ يمثل خطوة متقدّمة على القول بالوحدة الموضوعية. ( )

ب – الدراسة الموضوعية للسورة تتطلب اكتشاف العنصر الرابط بين موضوعاتها. ( )

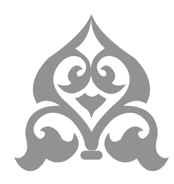
ج – الاستطراد: واحد من أهمّ الفنون البلاغية في القرآن الكريم. ( )

ت٢: هـــل يؤثر الخلاف فـــي وجود الوحدة الموضوعية في الســـورة أو عدم وجودها على طريقة دراسة السورة، أبيّن ذلك؟

ت٣: قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّـهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّـهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1].

أدرسُ (سورة النصر) دراسة موضوعية.

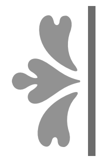
(١) سورة النصر/ ١- ٣.



الفصل الخامس



تطبيق على مجالات التدبر الموضوعي



- المجال الأول: الموضوع
- المجال الثاني: المفردة
- المجال الثالث: الأداة
- المجال الرابع: الأسلوب
- المجال الخامس: السورة
- المجال السادس: الموضوع في سورة
- المجال السابع: المقالة التفسيرية



المجال الأول: الموضوع

المجتمعات والحضارات
قراءة قرآنية لعوامل الزوال والاندثار

مفاتيح البحث

عندما نريد القيام بدراسة (المجتمع) أو (الحضارة) في القرآن الكريم فأول عقبة سوف تواجهنا في الأمر هي عدم العثور على هذين المصطلحين الحديثين معرفياً في آيات القرآن.

ومن ثمّ فمن المنطقي أولاً أن نتعرّف على (الكلمة المفتاح) أو المصطلح القرآني لهذه المفردة؛ لنستطيع بعده أن نلج إلى الدراسة.

ولعلنا - تأسيساً على ما مضى - نقف عند عدّة مفاتيح تجسّر لنا دراسة المجتمع والحضارة في القرآن الكريم، وهي:

١- الأمة:

فالقرآن يستعمل هذا المصطلح للدلالة على ما نسمّيه ضمن اصطلاحنا المعاصر (المجتمع): ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾[١].

(١) سورة فاطر/ ٢٤.

٢- القوم:

وقد أطلـق القرآن الكريم هذا اللفظ على المجتمعات، كمجتمعات الأنبياء (نوح، إبراهيم، لوط، صالح، هود، ....): ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَـوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾(١)، كما أطلقه القرآن على الفئة الاجتماعية المتّسـمة بجامع مشترك يجمع بينها (= الجماعة) ولو كانت تعيش ضمن مجتمعات أكبر أو ضمن مجتمعات الأنبياء، فكثرت في القرآن تعبيرات مثل: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢)، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٣)، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤)، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(٥)، ﴿الْقَـوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٦)، ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٧)، ﴿الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾(٨)، ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾(٩).

٣- القرية:

فـ(القريـة) فـي القـرآن الكريم لا يُقصـد منها المعنـى الدلالي الـذي تعطيه ضمن اسـتعمالنا المعاصر لها اليوم، والمقابل لـ (المدينة)، سـواءً أعتمد ذلك على معيار كمي سكاني لعدد معيّن من السكان، أم كيفي إداري للمنطقة التي لا تستقل بنفسها، وإنما تتبع - في شؤونها الإدارية - دائرة أكبر منها.

وإنّما يُقصد بها المجتمع، فقد أطلق القرآن الكريم لفظ (قرية) على المجتمع الذي يزيد على مئة ألف إنسان، فقال عن قوم يونس: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَـفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(١٠)،

(١) سورة الحج/ ٤٢- ٤٣.
(٢) سورة الأنعام/ ٩٩.
(٣) سورة البقرة/ ١١٨.
(٤) سورة البقرة/ ١٦٤.
(٥) سورة الأنعام/ ٩٨.
(٦) سورة البقرة/ ٢٥٠.
(٧) سورة الأنعام/ ٦٨.
(٨) سورة الأنعام/ ١٤٧.
(٩) سورة النساء/ ٩٠.
(١٠) سورة يونس/ ٩٨.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(١)، وهذا العدد لا يُسمى (قرية) ضمن استعمالاتنا الحاضرة، وإنّما هو مدينة، أي أنّه مجتمع كبير.

كما أطلقه القرآن الكريم على المجتمعات ذات الاستقلال الإداري - أو شبه الاستقلال -، كما الأمر مع المجتمع المكي الذي يُعدّ أحدى المدنيات العربية القليلة بحساب الزمن آنذاك: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾(٢)، وسمّى مكة (أم القرى): ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٣).

٤- القرن:

والقرن - في اللغة العربية - يُطلق على معان عدة منها: «الأمة تأتي بعد الأمة...، مأخوذ من الاقتران، فكأنّه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم»(٤)، فهو مصطلح مرادف لـ (الأمة/ المجتمع)، و(الجيل)، وقد قال - تبارك وتعالى - في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾(٥).

٥- (الذين من قبل):

ويأتي هذا التعبير في سياق الكلام عن أفراد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(٦)، كما يأتي في سياق الحديث عن مجتمعات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٧)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي

(١) سورة الصافات/ ١٤٧- ١٤٨.
(٢) سورة محمد/ ١٣.
(٣) سورة الأنعام/ ٩٢.
(٤) لسان العرب ١١/ ١٣٧، مادة: (قرن).
(٥) سورة الأنعام/ ٦.
(٦) سورة يوسف/ ١٠٩.
(٧) سورة البقرة/ ٢١.

الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾(١).

٦- أسماء المجتمعات والحضارات:

فعندما نعرف أسماء مجتمعات أو حضارات كـ(سبأ، عاد، ثمود، الفراعنة، بني إسرائيل، أصحاب الرس، أصحاب مدين، أصحاب الأيكة، قريش، و....) نستطيع بها تتبّع صور مجتمعات، وتطبيقات اجتماعية، وهو عبارة عن مصاديق لمجتمعات، وهذا باب يشرع أمامنا سيلاً من الآيات، من قبيل:

- **﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾**(٢).

- **﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**(٣).

- **﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾**(٤).

- **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾**(٥).

- **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾**(٦).

- **﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾**(٧).

- **﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ﴾**(٨).

---

(١) سورة الروم/ ٤٢.
(٢) سورة سبأ/ ١٥- ١٦.
(٣) سورة التوبة/ ٧٠.
(٤) سورة الدخان/ ١٧.
(٥) سورة البقرة/ ٤٠.
(٦) سورة ق/ ١٢.
(٧) سورة ق/ ١٤.
(٨) سورة قريش/ ١- ٢.

ولا نريد - هنا - أن نقول بأنّ المقصد القرآني من هذه المصطلحات - دوماً - هو المجتمع أو الحضارة، فقد تُستعمل في غير ذلك، ولكن نريد أن نقول: إنّها (مفاتيح) يمكن بها في كثير من الآيات أن نفتح (أقفال) المدلول الذي قد يستعصي علينا بفعل بُعد الزمن، وبُعدنا عن العربية، وتغيّر المصطلحات، وغياب بعض أسباب النزول، وما كان يحفّ المورد ويوضّحه.

كما ينبغي ألا نغفل قرائن أخرى - مقالية ومقامية - داخل النصّ وخارجه تفيدنا في فهم سياق الآية وتحديد المعنى.

موت المجتمع

عندما يتحدث القرآن الكريم عن الموت لا يقصره على موت الفرد الواحد من أفراد البشر، أو المجموعة منها، بل يتناول أنواعاً عديدة من الموت:

١- موت الفرد:

ونعني به انفصال الروح عن البدن، وصيرورة الجسم المادي جثة لا حراك فيها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[(١)]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[(٢)].

٢- موت المجتمع:

ونعني به الموت المادي أو المعنوي الذي يصيب أمة بكاملها، وهذا ما يجعل القرآن يتحدث عن أجل جمعي للأمة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[(٣)]، ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾[(٤)]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الأنبياء/ ٣٥.
(٢) سورة النساء/ ٧٨.
(٣) سورة الأعراف/ ٣٤.
(٤) سورة الحجر/ ٤- ٥.
(٥) سورة الأعراف/ ١٨٥.

وفي هذا يقول السيّد الشهيد الصدر: «إنّ الأجل أضيف إلى الأمة، إلى الوجود المجموعي للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات أو هذا الفرد بالذات، إذن.. هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكلّ إنسان بوصفه الفردي، هناك أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعاً يُنشيء ما بين أفراده العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادىء المسندة بمجموعة من القوى والقابليات، هذا المجتمع الذي يعبّر عنه القرآن الكريم بالأمة، هذا له أجل، له موت، له حياة، له حركة. كما أنّ الفرد يتحرّك فيكون حياً ثمّ يموت، كذلك الأمة تكون حية ثمّ تموت، وكما أنّ موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس كذلك الأمم - أيضاً - لها آجالها المضبوطة»[1].

فهو أجل أمة.. أجل مجموعي عام، وليس أجل شخص، ولا أجل أشخاص فيها، وهذا النوع من الموت هو الذي سنتناوله في هذه الدراسة.

٣- فناء العالم:

كما يتحدث القرآن عن فناء كامل لكلّ العالم وأشيائه، تناولته الآيات مرة على نحو عمومي: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾[2]، ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ**﴾[3]، ومرة ثانية على نحو تفصيلي لفناء السماء والبحار والنجوم وكلّ شيء: ﴿**إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ**﴾[4]، ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**﴾[5].

أنواع الموت الاجتماعي

يرى القرآن الكريم أنّ وجود المجتمع وسيادته في فترة ما.. لا يعني بقاءه مدى الدهر، فقد مرّ على مسرح التاريخ كثير من المجتمعات الصالحة والطالحة، وكان بعضها قوياً جباراً أركع الأمم الأخرى له، لكنّها جميعاً لم تحافظ على قوتها، فعملت فيها قوى

---

(١) المدرسة القرآنية/ ٥٦- ٥٧.
(٢) سورة الرحمن/ ٢٦ - ٢٧.
(٣) سورة القصص/ ٨٨.
(٤) سورة الانفطار/ ١- ٣.
(٥) سورة المعارج/ ٨- ٩.

الزوال، ومن ثمّ فاندثار الأمم وسقوطها سُنة تاريخية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[1].

غير أنّ موت المجتمع والموت الاجتماعي يتخذ في القرآن الكريم إحدى صورتين، قد يمرّ المجتمع بهما معاً، أو بالثانية منهما فحسب، وهما:

١- الموت المادي:

وفي هذه الصورة للموت يجتثّ الله شأفة المجتمع، فلا يعود له وجود مادي حسّي على وجه الأرض، فيهلك الله البشر المنتمين إلى دائرة ذاك المجتمع، أو يدمر المكان الذي يحلّون فيه، وهي الصورة التي حلّت بمجتمعات نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب.

يقول الله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[2]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[3].

٢- الموت المعنوي:

وفي هذه الصورة من الموت يبقى الوجود المادي للمجتمع بأشيائه وبشره، غير أنّه يحلّ بهم الضعف الاجتماعي والمسكنة، وتزول قوتهم ككيان وجماعة، أو يخضعون لقوة غيرهم، فيكون ذلك موتاً معنوياً، وإن كانوا أحياء مادياً، وهو الذي تعرّضت له حضارة سبأ التي تفرّقت في البلاد، حتى قيل: «ذهبوا أيدي سبأ»[4]، و«تفرّقوا أيدي سبأ»[5]، كما تعرّضت له الأمة الإسلامية في دولها المتعاقبة؛ فكان أهلها كثيرين، لكنّهم شتات وخواء، سكنهم الضعف، ومزّقهم التفرّق والشتات.

وقد ذكر الله تعالى نوعيّ الموت الاجتماعي - المادي والمعنوي - في كتابه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ

(١) سورة الإسراء/ ٥٨.
(٢) سورة الحج/ ٤٥.
(٣) سورة محمد/ ١٣.
(٤) مجمع الأمثال ١/ ٣٥١.
(٥) نفسه ١/ ٣٥١.

يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾(١).

فإذا كان العذاب الذي يحتوشهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم يصبّ عليهم موتاً مادياً، فإنّ إلباسهم شيعاً (التفكك الاجتماعي)، وإذاقة بعضهم بأس بعض (الاحتراب الداخلي)؛ يغمسهم في موت معنوي لا يكونون فيه وجوداً هلامياً لا يحلّ ولا يربط فحسب، بل.. يضحون مجتمعاً ممزّقاً يضحك فيه التقاتل الداخلي على ذقونهم، ويعبّ من أوشال دمائهم حتى الثمالة.

وكما تعرّض بنو إسرائيل في مصر للموت المعنوي، فكانوا أذلاء يفعل بهم الأقباط الفراعنة ما يريدون: **﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾**(٢)، فقد حذّر الله تعالى المسلمين من موت معنوي يجنونه إن هم خالفوا الله ورسوله وتنازعوا: **﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**(٣).

وقد نقل لنا ثوبان – مولى رسول الله ﷺ – حواراً جرى بين رسول الله ﷺ وصحابته، قال فيه الرسول الأكرم: «يوشك أن تداعى بكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟!. قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن!!. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟، قال: حبّ الدنيا، وكراهية الموت»(٤).

السنن الاجتماعية

يقرأ البعض القصص القرآني – ومنه ما يتحدث عن أحوال المجتمعات – لأجل التسلية، ومن ثمّ فهو – في نظرهم – كلام عن التاريخي، بينما تدعونا آيات القرآن الكريم للانطلاق من ذلك إلى ما وراءه من التعرّف على قدرة الله، والإلمام بالسنن الاجتماعية والتاريخية التي تحكم مسيرة الأمم والحضارات، وأخذ العبرة من ذلك

---

(١) سورة الأنعام/ ٦٥.
(٢) سورة البقرة/ ٤٩.
(٣) سورة الأنفال/ ٤٦.
(٤) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، م ٢، ج ٤، ص ١١١، الباب ١٣، ح ٤٢٩٧، وانظر مثله في: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٧٥، (حديث ثوبان)، ح ٢١٨٩١، وكنز العمال ٣/ ٢٣٥، ح ٦٣١.

بفهـم عناصر القوة وتوطينها فـي بنية المجتمع، وعناصر الضعـف وطردها، ومن ثمّ فهو ليس بحثاً ماضوياً تراثياً، وهذا ما يدفع القرآن لمطالبة الإنسـان بإعمال العقل لدى قراءته للمجتمعات السـابقة: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذِّبيـنَ**﴾[١]، ﴿**أَفَلَـمْ يَسِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُـمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[٢].

وحين يبيّن لنا القرآن شـيئاً من تلك المجتمعات، لا يكتفي بسـردها كقصة تاريخية سـكونية (إستاتيكية)، بل.. يذكر فيها أسباب النهوض؛ حتى تتحوّل إلى نموذج يمكن أن يُحتذى في الفاعلية، أو يذكر فيها عوامل السقوط ليمكن تجنّبها وتلافيها، ومن ثمّ يتحوّل ذلك إلى معطى عملي غير زمني وإن كان مثاله الذي جرى زمنياً، كذاك الذي مرّ قبل قليل في الآيات السـابقة، وكقوله تعالـى: ﴿**وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَـوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَـرُواْ رَبَّهُـمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُـودٍ**﴾[٣]، ﴿**كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُـودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ**﴾[٤].

وفـي هـذا يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عليكم بالقرآن، فما وجدتم آية نجا بها من كان قبلكم فاعملوا بها، وما وجدتموه مما هلك من كان قبلكم فاجتنبوه»[٥].

كما يذكر القرآن في قصص المجتمعات أسـباب النهوض والسـقوط؛ حتى يكون ذلك طريقاً لقراءة المجتمعات والتاريخ وما جرى فيه (الماضي) عبر القيام ببحث اجتماعي تحليلـي، ويكون طريقـاً لقراءة (الحاضر) عبر بحث وصفي مقـارن، ويكون طريقاً للتنبؤ بمسـتقبل المجتمعات (المسـتقبل) عبر بحث استشـرافي؛ وهذا ما يجعل القرآن الكريم يحرص على أن يضفي على تلك الأسباب والعوامل طابع السنة التاريخية العلمية الربانية المطـردة، ويحرص علـى دور الفعل والاختيار الإنسـاني فيها: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُـنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا**﴾[٦].

فهي سنن تاريخية تتصف بـ(العلمية)، وليست تخميناً ظنياً، ولا شكاً أو وهماً، كما

(١) سورة آل عمران/ ١٣٧.
(٢) سورة الحج/ ٤٦.
(٣) سورة هود/ ٦٠.
(٤) سورة هود/ ٦٨.
(٥) بحار الأنوار ٨٩/ ٩٤، باب ٨، ح ٤٣.
(٦) سورة فاطر/ ٤٣.

تتصف بـ (الاطراد)، وليست من قبيل الصدفة والطفرة والشاذ الذي لا يُقاس عليه، كما تتصف بـ (الربانية)، فهي ليست عنصراً آلياً ميكانيكياً خارجاً عن دائرة السيطرة الإلهية، وتتصف بـ (الاختيار)، فهي ليست من العنصر الغيبي الخارج عن دائرة الفهم والفعل الإنساني، وليست جبرية مفروضة عليه[١]؛ إذ الجزاء الإلهي الذي جرى لمجتمعات بشرية ما.. هو نتيجة عوامل كانت ضمن دائرة الفعل قاموا بها، وبها استحقوا الثواب أو العقاب.

وبعبارة قرآنية: حتى تكون تلك المجتمعات التي وُجدت في الماضي (عبرة) يمكن النفاذ منها لاستخلاص ما يناسب الحاضر والمستقبل: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[٢]، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾[٣].

وبهذا يخط القرآن الكريم أمام المجتمعات المعاصرة في كلّ زمان ومكان صور مجتمعات سابقة أخذت بأسباب النهوض فارتقت، أو أخذت بعوامل السقوط فانهارت، في تطبيقات مجتمعية جرت على أرض الواقع حتى لا يكون العرض مجرّد بحث نظري، وحتى يمكن استلهام تلك السنن في الفعل الاجتماعي، لتكون قواعد اجتماعية تمثل معطى حركياً (ديناميكياً) فاعلاً، لئلا توكل الأمور إلى يد الغيب وحدها، وتُقصى كلّ عوامل الشهود في عملية الحِراك الاجتماعي: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[٤]، وفي الوقت نفسه فتلك الأسباب (جعلية) تنسجم مع دائرة المراد الإلهي والتقدير الرباني: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكلّ شيء منها سبباً»[٥].

فهناك جعل تكويني لخدمة البشر، منه ما يغدقه الله على عباده من خيرات في الأرض والطبيعة، فجعل الأرض مذللة للإنسان (التمكين)، والسماء تتضافر معها في جلب الخير للبشر: ﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾[٦].

(١) المدرسة القرآنية/ ٧٥، ٧٧، ٨٣.
(٢) سورة يوسف/ ١١١.
(٣) سورة الحشر/ ٢.
(٤) سورة الرعد/ ١١.
(٥) بحار الأنوار ٢/ ٩٠، باب ١٤، ح ١٥.
(٦) سورة الأنعام/ ٦.

وهناك جعل تشـريعي في صورة أحكام وقوانين للفعل الإنسـاني: توضّحه، وتبيّن آثـاره؛ ليكون الإنسـان علـى بصيرة في طريـق الاختيـار: ﴿وَهُوَ الَّـذِي جَعَلَكُـمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَـعَ بَعْضَكُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَـرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١)، ومن هذه النظم: الوسـطية والاعتدال، وهي إحدى مميزات الأمة الشاهدة ذات الريادة والقيمومة في المسرح الاجتماعي، وإحدى مميزات القائد المحرّك للمسـيرة الاجتماعية؛ تأسيساً على أنّ التطرّف والشـدة في القوانين يعرقل مسيرة التطبيق إن لم يقتلها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـطًا لِّتَكُونُواْ شُـهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

ألوان المجتمعات البشرية

تتخذ المجتمعات البشرية أحد أشكال خمسة:

١- الراكد.
٢- السائر نحو العلو.
٣- العالي.
٤- السائر نحو التسافل.
٥- السافل.

فقـد عرض القـرآن الكريم صورة مجتمعـات خاملة راكدة لا تتحـرّك، كما عرض صورة أخرى لمجتمعات في بداية التفتح والتفتق وقد أخذت بعناصر الفاعلية والازدهار، وصـوّر مجتمعات ثالثة وقـد بلغت مرحلة النضج والقوة، وصوّر رابعة وقد بدأت عوامل النخر والهدم تعمل فيها، وصوّر خامسة وقد أصبحت سافلة.

وفيما يلي سنعرض لهذه الألوان الخمسة وبعض نماذجها القرآنية:

١- الراكد:

ذكر القرآن الكريم مجتمعات راكدة ساكنة (إستاتيكية) لا تكاد تتزحزح عن مكانها،

(١) سورة الأنعام/ ١٦٥.
(٢) سورة البقرة/ ١٤٣.

ولا تـكاد تقـوم بحركة فاعلة نحـو النهوض، ففي رحلة ذي القرنين شـهد ثلاثة مجتمعات: أولهـا يعيش التردي الاجتماعي والقيمي: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**﴾(١)، وثانيها: يحكي مستوى طفولياً بدائيـاً فـي جانب المنجـز العملي (الركود العملـي)، فهو يعيش في بدائيـة الفعل والإنجاز والتقانة، حتى أنّه ليس لديه ما يسـتظلّ به من الشمس: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**﴾(٢)، وثالثها: يحكي مستوى طفولياً في جانب العلم (الركوداً المعرفي)، فهو يعيش في مهد الطفولة المعرفية، بحيث لا يكاد يفقه قولاً!!: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾(٣).

إنّ سـبب الانحطـاط لـدى هـذه المجتمعـات الثلاثة هو عـدم الأخذ بالأسـباب، وذاك جعـل النمـوذج المجتمعـي الأول متدهـوراً ومتردياً فـي حمأة الانحطـاط القيمي والاجتماعي، والنموذجين المجتمعيين الأخيرين راكدين لا يعيشان الحِراك الاجتماعي، والمسـاهمة في الإنتاج العملي والعلمي، وهو الأمر الذي يجعل القرآن الكريم في سياق عرضه لقصة ذي القرنين هذه يؤكد على دور ذي القرنين في اتباع الأسـباب، ويذكر ذلك أربـع مـرات: تنتظم الأولى ضمـن عوامل التمكين التي أتاحت له السـيطرة ﴿**إِنَّـا مَكَّنَّا لَهُ فِـي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَـيْءٍ سَـبَبًا**﴾(٤)، وتأتي الثانية قبـل نقل صورة المجتمع الأول (المتردي اجتماعياً): ﴿**فَأَتْبَعَ سَـبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّـمْسِ وَجَدَهَا....**﴾(٥)، وترد الثالثـة قبل نقل صورة المجتمع الثاني (الراكد عملياً): ﴿**فَأَتْبَعَ سَـبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّـمْسِ وَجَدَهَـا تَطْلُـعُ ...**﴾(٦)، وتقع الرابعة قبـل نقل صورة المجتمـع الثالث (الراكد علمياً): ﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ....**﴾(٧).

وبإمكاننـا أن نعيـد ذلك إلى شـكلين هما: الأخذ بالأسـباب، حيث أتـاح التمكين فـي الأرض لـذي القرنيـن، وعـدم الأخـذ بالأسـباب، حيـث أدى بمجتمع إلـى التردي

---

(١) سورة الكهف/ ٨٦- ٨٧.
(٢) سورة الكهف/ ٩٠.
(٣) سورة الكهف/ ٩٣.
(٤) سورة الكهف/ ٨٤.
(٥) سورة الكهف/ ٨٤- ٨٥.
(٦) سورة الكهف/ ٨٥- ٨٦.
(٧) سورة الكهف/ ٩٢- ٩٣.

الاجتماعي، وبمجتمع آخر إلى الركود العملي، وبمجتمع ثالث إلى الركود العلمي، فهو تقابل بين مجتمع ذي القرنين الناهض، ومجتمعات مقابلة متردية وراكدة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنّ الشاهد الاجتماعي - هنا - هو المجتمعان الراكدان اللذان لقيهما، أما المجتمع الثالث (المتردي)، فهو مما يدخل في المجتمعات (السافلة) المنحطة، ومجتمع ذي القرنين آنذاك كان مثالاً للمجتمع (العالي).

٢- السائر نحو العلو:

كما ذكر القرآن الكريم مجتمعات كانت راكدة أو سافلة لكنّها أخذت بمقوّمات النهوض فمثّلت المجتمعات السائرة نحو العلو.. المجتمعات المتحرّكة الفاعلة (الديناميكية)، ومجتمع النبي يونس عليه السلام يشكل النموذج القرآني الأبرز: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾(١).

٣- العالي:

وقد ذكر القرآن الكريم مجتمعات عالية بحيث وفّرت لنفسها شيئاً من عناصر الرفعة والقوة النسبية التي أتاحت لها شيئاً من البروز على مسرح التاريخ:

- فبعضها ذو استقرار أمني ورفاه اقتصادي: ﴿**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾(٢).

فهذه القرية قبل أن تكفر كانت تعيش الأمن الاطمئنان والرغد الاقتصدي: ﴿**قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ**﴾.

- وبعضها الآخر ذو قوة وسيطرة على الطبيعة من حوله: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾(٣).

---

(١) سورة يونس/ ٩٨.
(٢) سورة النحل/ ١١٢.
(٣) سورة الروم/ ٩.

حتى أنّ قوم (عاد) بنوا البنايات المرتفعة في الطرق (مصانع)، يعبثون بها وبالمارة، كما بنوا الحصون والقصور والحياض والترع، وأشادوا البساتين والزروع، وحظوا بالسطوة والرفاه الاقتصادي: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾[١].

– وبعضها ذو تقدم عمراني، بحيث أشاد بناياته بصورة شهد الله أنّه لم يكن في مستوى العمران البشري السابق مثله: ﴿**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾[٢]، والبعض يرجّح أنّ (إرم) هذه مدينة بنتها قبيلة (عاد) التي رأيناها في الصورة السابقة وقد أشادت المصانع والحصون والزروع، وشقت الحياض والترع.

– وبعضها ذو قدرة على مغالبة صلابة الطبيعة وشدتها، ففي حين كانت الأمم تبني بيوتها من خشب الشجر، أو من الطين والتراب والحجر، كان الناس في (ثمود) يبنون بيوتهم نحتاً في الجبال الصخرية، ويستصلحون الأراضي ويشيدون عليها البساتين اليانعة الثمار، ويفجّرون الصخور الصمّ ماء وعيوناً: ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ**﴾[٣]، ﴿**وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ**﴾[٤].

– وبعضها ذو مكنة وسعة في الأخذ بالعوامل، بحيث وفّر لنفسه كلّ سبل القوة الموجودة في زمانه، ومن هذا مملكة سبأ في أيام بلقيس التي يقول عنها الذكر الحكيم على لسان الهدهد الذي نقل صورتها للنبي سليمان عليه السلام: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾[٥].

وتقف جملة ﴿**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ بدلالتها المفتوحة؛ لتشمل الإمكانات والقدرات الواسعة التي رسّخت تلك المملكة، وتدلل على حيازة كلّ أشكال الاقتدار والتمكين في زمانها، في حين تأتي جملة ﴿**وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾ لذكر شيء من المنجز المتحقق فعلاً لديها.

---

(١) سورة النمل/ ٢٣.
(٢) سورة الفجر/ ٧- ٨.
(٣) سورة الشعراء/ ١٢٨- ١٣٤.
(٤) سورة الفجر/ ٩.
(٥) سورة النمل/ ٢٣.

بيد أنّ هذه المجتمعات حظيت برفعة نسبية وتقدماً في بعد أو جانب، لكنّها لم توفر عنصر الرفعة الأهم - وهو القيم التي يحققها الدين -، فمتعها الله إلى حين، ثمّ دمرها، وكان مآلها الفناء.

٤- السائر نحو التسافل:

وذكر القرآن الكريم مجتمعات كانت عالية، ثمّ سارت نحو التسافل والتردي؛ لأخذها بعوامل النكوص والتدهور والكبوة: كالتسافل العقدي والاقتصادي، ومن هذه المجتمعات: مجتمع سبأ الذي كان عامراً ثمّ انحدر وارتكس: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾[١].

ومن نماذج المجتمعات السائرة نحو التسافل ما عبّر الله - سبحانه وتعالى - عنه فقال: ﴿**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾[٢].

فهذه القرية (المجتمع) كانت تعيش في استقرار مكاني ﴿**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً**﴾، واستقرار اجتماعي وسياسي ﴿**آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً**﴾، وكانت تنعم بالرفاه الاقتصادي والتبادل التجاري ﴿**يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ**﴾، ثمّ دخل الخلل القيمي العقدي ﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ**﴾، والخلل في دائرة الفعل والعمل ﴿**بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾، عاملين سارا بها نحو التسافل ﴿**فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**﴾.

٥- السافل:

كما ذكر القرآن المجيد مجتمعات سافلة وصلت إلى مستوى التردي والانحطاط: كالانحطاط الأخلاقي الذي خيّم بجناحه الحالك على قوم لوط: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾[٣]، وساق القوم إلى الفناء والزوال: ﴿**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ**

(١) سورة سبأ/ ١٥- ١٦.
(٢) سورة النحل/ ١١٢.
(٣) سورة الأعراف/ ٨١.

رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(١).

وهكـذا.. فالقضية مربوطـة بعناصر ولادة، وعناصر بروز، وعناصر موت، وتسـير وفق سنن وأسباب، وقد تطول المدة أو تقصر، ولكنّ السنن تبقى عاملة.

مجتمع بني إسرائيل في أدواره الخمسة:

وحتـى لا يكون ما مضى صـوراً مجتزأة عن مجتمعات، ولقطات لا تسـعى لقراءة مجتمع واحد في حركته ومسـيرته الاجتماعية، عني القرآن بمجتمع بني إسـرائيل - لقربه من المجتمع الإسلامي -، وتتبَّعَه في المراحل الخمس كاملة؛ ليتتبّعه في ركوده، وفي سيره نحو العلو، وفي علوه وارتفاعه، وفي سيره نحو الانحدار، ثمّ في انحداره وسقوطه:

١- المجتمع الراكد:

فقد مثّل مجتمع بني إسرائيل في عهد فرعون مجتمعاً راكداً خانعاً يتلقى الضربات دون فعـل مواجـه أو حراك، حيث مـورس بحقه الإذلال والتسـخير: **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾**(٢).

وقد كان أمام مجتمع بني إسـرائيل فرصة مثلى للسـير للعلو يـوم خلّصهم نبي الله موسى عليه السلام من فرعون وملئه، بيد أنّهم بمكابرتهم لم يستفدوا من ذلك، فكانوا مجتمعاً راكداً خاملاً، فشـكل تخليصهم من المجتمع الفرعوني قفزة نوعية لم تتمّ الاسـتفادة منها والبناء عليها، ومن ثمّ ظلوا في ارتكاستهم.

لقـد كانت واحدة مـن عناصر تحولهم لمجتمع قوي عال تقتضي دخولهم الأرض المقدسة، لكنّ ذاك يكلفهم حرباً هم في جبن ورهبة من خوض غمارها: **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَـا قَوْمًـا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَـإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * .... * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِـرِينَ * قَالُـواْ يَا مُوسَـى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَـدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنـتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**(٣).

---

(١) سورة هود/ ٨٢- ٨٣.

(٢) سورة القصص/ ٤.

(٣) سورة المائدة/ ٢١- ٢٤.

وكان رفضهم لهذا الأمر جرعة همٍّ في قلب موسى عليه السلام جعلته يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(١)، فكان الناتج الاجتماعي لفعلهم ذاك أن ضربهم الله بالتيه والضياع أربعين سنة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(٢).

وهكذا لم يستفد بنو إسرائيل من الوجود المبارك لنبي الله موسى عليه السلام بينهم، فلم يسمحوا له أن يبني على خطوة تخليصهم من فرعون وملئه خطوة تراكمية أخرى تبني لهم مجتمعاً ناهضاً، فصيّروها قفزة في الهواء، ارتدوا على آثارها لعالم الركود والضياع.

٢- المجتمع السائر نحو العلو:

ويصوّر لنا القرآن الكريم مجتمع بني إسرائيل بعد موت النبي موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وقد ملوا التيه والضياع، فأخذت بذرة السير نحو العلو والبناء المجتمعي تظهر لدى بعضهم، فمضوا يكلمون نبياً لهم - لم يذكر القرآن اسمه -؛ ليبعث لهم ملكاً يقاتلون معه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * .... * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٣).

وكان هذا السعي العملي منهم لخوض الحرب والقتال بداية السير نحو العلو وبناء المجتمع العالي والدولة القوية التي حكمها أنبياؤهم.

٣- المجتمع العالي:

ونمت لبني إسرائيل دولة واسعة حكمها نبيّان: بدأت بالنبي داوود عليه السلام:

---

(١) سورة المائدة/ ٢٥.

(٢) سورة المائدة/ ٢٦.

(٣) سورة البقرة/ ٢٤٦، ٢٤٩- ٢٥٠.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١)، ثمّ امتدّت وكبرت في عهد النبي سليمان بن داوود عليه السلام حتى ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(٢).

٤- المجتمع السائر نحو التسافل:

وبعد مجد دولة بني إسرائيل في زمان النبي سليمان انحدروا وتفرّقوا حتى أتاهم السبي البابلي وفتتهم وساقهم أسارى نحو بابل (العراق)، وتوزعوا في الآفاق: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾(٣).

وتشير هذه الآيات الشريفة إلى طورين من السيطرة والإفساد الاجتماعي والطغيان عند بني إسرائيل، وكلاهما سينتهي بمجيء قوم يدمرون عليهم ديارهم. وقد نزل على بني إسرائيل منذ أن استقلوا بالملك نوازل كثيرة فوق اثنتين – على ما يضبطه تاريخهم –، يمكن أن ينطبق ما تضمنته هذه الآيات على اثنتين منها، لكنّ الذي هو كالمسلّم عندهم أنّ هاتين النكايتين هما:

أ- الغزو البابلي بقيادة (نبوخذ نصّر):

وكان من ملوك بابل قبل الميلاد بنو ستة قرون، وكان ذا شوكة وقوة يحمي بني إسرائيل، فعصوه، فسار إليهم بجيوش لا قبل لهم بها، وحاصر بلادهم، وفتحها عنوة، فخرّب البلاد، وهدم المسجد الأقصى، وأحرق التوراة وكتب الأنبياء، وأباد النفوس بالقتل العام، ولم يبقَ منهم إلا عدد قليل من النساء والذراري وضعفاء الرجال، فأسرهم، وسيّرهم معه إلى بابل، وفي فترة الغزو والسبي البابلي هذا بقي بيت المقدس مخرّباً

(١) سورة البقرة/ ٢٥١.
(٢) سورة ص/ ٣٥.
(٣) سورة الإسراء/ ٤– ٧.

سبعين سنة، وكان ذلك في نيّف وخمسين وأربع مئة سنة قبل الميلاد.

وظلّ بنو إسرائيل في بابل لا يحميهم حام طول زمان بخت نصّر وبعده زماناً طويلاً حتى قصد الكسرى (كورش) - أحد ملوك الفرس العظام - بابل، وفتحها، فتلطف على الأسرى من بني إسرائيل، وأذن لهم في الرجوع إلى الأرض المقدسة، وأعانهم على تعمير الهيكل (المسجد الأقصى)، وتجديد الأبنية، وأجاز لـ (عزرا) - أحد كهنتهم - أن يكتب لهم التوراة، وهكذا اجتمع شملهم من جديد، وقويت شوكتهم.

ب- الغزو الروماني بقيادة (إسبيانوس):

وبعد عودة قوة بني إسرائيل وإفسادهم من جديد، هاجمهم (إسبيانوس) قيصر الروم، وسيّر لهم وزيره (طوطوز)، فخرّب بيت المقدس، وأذلّ القوم، وأذهب قوتهم وشوكتهم، وكان ذلك قبل الميلاد بقرن تقريباً، وبقوا على هذه الحالة إلى زمن ظهور الإسلام[1].

ونحن لا نقول بأنّ هذين الطورين من الإفساد، ثمّ التدمير الذي حلّ بهم هما - بالضرورة - ما يقصده القرآن الكريم، وإنّما نشير إلى أنّ الآيات تشير إلى طورين من إفسادهم، ثمّ تدمير شوكتهم على يديّ جنود أشداء، قد ينطبق ذلك على ما مضى مع (نبوخذ نصّر، وإسبيانوس)، وقد ينطبق على غيره، ولا يمتنع أن يكون المقصود من إفسادهم الثاني ما هم عليه اليوم من احتلال لفلسطين وإفساد في العالم، وأنّ يكون تدميرهم وكسر شوكتهم مما هو في المستقبل الآتي الذي سيأتي يومه، فيكون من الوعد المستقبلي.

٥- المجتمع السافل:

وقد رأينا في الفقرة السابقة كيف ساقهم إفسادهم في الأرض وكفرهم وعصيانهم وقتلهم الأنبياء إلى قعر الحضيض، فأضحوا مجتمعاً سافلاً، دمره في أخريات قوتهم

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٣/ ٤٤- ٤٥. وفي بعض المصادر وردت روايات منسوبة للنبي ﷺ أو ابن عباس أو ابن إسحاق صاحب (السيرة النبوية) أو غيرهم، حمل بعضها تحليلات مشابهة لقصتي الغزو البابلي والروماني عليهم، ورد فيها اسم (بخت نصر)، كما وردت أسماء قريبة من (كورش، إسبيانوس، طوطوز)، فذكرت هؤلاء باسم: (كورس)، (أبطيانحوس، أبطنا حوس، إسبايوس)، (طيطوس، قاقس)، انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٢٧- ٢٨.

(إسبيانوس)، واستمر حالهم ذاك حتى زمن نزول القرآن الكريم، فحكى القرآن عن شيء من حالهم حينذاك وقال: ﴿.... وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[١].

الحِراك الاجتماعي: السيرورة والصيرورة الصعود والهبوط:

لعلّ أبرز صفتين اجتماعيتين للحِراك الاجتماعي هما: السيرورة والصيرورة:

١- السيرورة:

فالمجتمع يشهد حالة من الانتقال والحركة، وهو في حالة من السير والمضي، والقرآن الكريم يشير إلى أنّ المجتمعات في حالة (تدافع)، يدفع بعضها بعضاً، ويحرّك بعضها بعضاً: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢]، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

وإلى جانب وجود فكرة (التدافع) في هاتين الآيتين، فإنّهما تعطيان تجربتين فعليتين لذلك: في أولاهما: استطاعت قوى الخير إزالة كابوس الشرّ، فهزم بنو إسرائيل في زمان طالوت عدوهم، وقتلَ داوودُ جالوتَ، وانتقل المُلك إليهم. وفي الثانية استطاعت قوى الشرّ مغالبة قوى الخير، وطردها، فكلاهما تخضعان لعالم الأسباب.

كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران/ ١١٠- ١١٢.
(٢) سورة البقرة/ ٢٥١.
(٣) سورة الحج/ ٤٠.
(٤) سورة آل عمران/ ١٤٠.

فالحِراك الاجتماعي يجعل الدوائر تدور على الأخيار والأشرار معاً: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾، والأيام المسرّة أو المحزنة أو التي تشهد حكم أناس وقوتهم غير مقصورة في أناس معينين، بل.. إنّ سير عجلة الزمان يجعلها تنتقل بين الناس والمجتمعات، فتتبادل المواقع، وتتناوب على عناصر القوة والغلبة، أو الضعف والشتات.

كما يقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾[١]، ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٢]، ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[٣]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾[٤]، الآيات التي توضّح أنّ الفريقين: الصالح والطالح في مسيرةِ عملٍ مستمرة.

فالمجتمع أمام إحدى حركات ثلاث:

أ- الحركة الصاعدة:

وهي حركة نحو الأعلى، مرتبطة بعناصر بقاء تحافظ عليها لتستمر (عوامل بقاء)، أو عناصر قوة تأخذ بها فترتقي (عوامل نهوض)، ﴿آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾[٥].

ب- الحركة الهابطة:

وهي حركة انحدار وسقوط، سببها: الأخذ بعناصر الضعف، يشهد المجتمع معها الانحدار حتى يغيب عن مسرح التاريخ (عوامل هدم وسقوط): ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة هود/ ١٢١.
(٢) سورة الأنعام/ ١٣٥.
(٣) سورة هود/ ٩٣.
(٤) سورة الإسراء/ ٨٤.
(٥) سورة يونس/ ٩٨.
(٦) سورة النحل/ ١١٢.

ج- الحركة الدائرة:

وهـي حركة تراوح مكانها، وتتخبّط في التيه والضلال (متاهة): ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

ومعنـى هـذا أنّ الصورة المتحققـة لمجتمع لا تبقى على حالها مـدى الدهر، بل.. تخضـع لعنصر الحركة (الحِـراك الاجتماعي)، وأنّ حركتها ليسـت (تعاقبية/ تصاعدية) بالضـرورة، بل قد تكـون ارتدادية نكوصية، أو اهتزازية مضطربـة، أو (لولبية)، أو دائرية، وبنـاء علـى نوع الحركة قد يكون المجتمع سـائراً نحو الأعلى، أو الأسـفل، أو في حركة قلقـة، أو حركة تسـير ثمّ لا تلبث أن تعود وتنتكس، فيدور بيـن صعود وهبوط، وقد يمثل مجتمع ما.. في زمن ما.. حركة صاعدة، وفي زمن آخر حركة هابطة أو دائرة.

فهناك أسباب للرقي، وهناك أسباب للبقاء، وهناك أسباب للسقوط.

فالمجتمعـات لكي ترتقـي تحتاج إلى التمسـك بحبل العلو ليشـدها إلى الأعلى، ولكي تبقى تحتاج إلى عمل وحركة، تماماً كرجل (السيرك) الذي ما لم يتحرّك لن يستطيع حفظ توازنه، وإذا لم تدعم قوتها فسـتتحلل شـيئاً فشيئاً، ثمّ تكبو .. وتموت، وإذا سكنت المجتمعات فسـتكون كالجيفة التي تعمل فيها عوامل التفسّـخ والتحلل، وأما إذا أخذت بعوامل السقوط فستكون كمن وهب نفسه للريح لتهوي به في مكان سحيق..

٢- الصيرورة:

فالمجتمع في حالة تحوّل وتغيّر، وانتقال من صورة إلى صورة، ومن مسـتوى إلى مستوى، ولن يبقى على صورة واحدة مدى الدهر.

وقد رأى ابن خلدون أنّ الدول أجيال تقطع أطواراً ثلاثة:

أ – الاستواء (الولادة والنشوء) ـــــــــــــــــــ مرحلة البداوة.

ب– النهوض (القوة والعنفوان) ـــــــــــــــــــ مرحلة التحضر.

ج – الأفول (الموت والتفسخ) ـــــــــــــــــــ مرحلة التدهور(٢).

---

(١) سورة المائدة/ ٢٦.

(٢) عامر الكفيشي، حركة التاريخ في القرآن الكريم/ ٣١٦، والدكتور عبد الإله بلقزيز، العرب والحداثة: دراسة في مقالات الحداثيين/ ٧٥.

وذهب شبنجلر في تقسيم مراحل المجتمع والحضارة إلى نظرة قائمة على تشبيه المجتمع بالإنسان يمكن تفصيل مراحلها لتكون أربعاً، وأنّ المجتمع إذا أكمل دورته كاملة فسوف يمرّ بها جميعاً، وهي:

أ – الولادة والطفولة.

ب– الشباب.

ج – النضج.

د – الشيخوخة(١).

وعلى حسب تصور أرنولد توينبي أنّ الشعوب والأجناس يواجهها (التحدي) البيئي بعوامله: الجغرافية والبشرية، وتحتاج – لكي تبني الحضارة – إلى (استجابة) ورد عليه، وهي في هذا أمام خيارات ثلاثة: إما التقدم والانطلاق، أو التوقف والجمود، أو الفناء والزوال، وكلّما عجزت عن التحدي سرت إليها عناصر التفسّخ والزوال(٢).

وقد حاول بعض الإسلاميين المقاربة بين نظرية توينبي والقرآن الكريم، فردّ عنصر التطوّر الاجتماعي إلى (المنافسة)، مستفيداً من قوله تعالى: ﴿**خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾(٣)، كما سعى آخر للمقاربة بينها وبين نظرية (التدافع)، مستفيداً من آيات التدافع التي ذكرناها في الفقرة السابقة.

وقد ذكر القرآن الكريم تجارب لمجتمعات كثيرة برزت فيها سنة التحوّل والتغيّر (الصيرورة)، فعرض لمجتمعات عملت فيها عناصر الصعود، فتحوّلت نحو الأفضل والأصلح، كمجتمع النبي يونس عليه السلام، ومجتمع بني إسرائيل في بعض أدواره، كما ذكر تجارب لمجتمعات نخرت عظمَها عواملُ التحلل والسقوط، فتحوّلت من صورة مشرقة كانت تعيشها إلى هاوية وقعر سيء يمثّل مجتمعاً منحطاً، كمجتمع سبأ الذين ﴿**أَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾.

ومن ثمّ طلب القرآن من الناس أن يسيروا في الأرض، ويتأملوا مسار المجتمعات وعاقبتها: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾(٤)، ﴿**أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ**

---

(١) حركة التاريخ في القرآن الكريم/ ٣١٦.

(٢) نفسه/ ٣١٦.

(٣) سورة المطففين/ ٢٦.

(٤) سورة آل عمران/ ١٣٧.

كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[١]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[٢].

والآية الأولى هنا تشير إلى الجانب السنني في الحركة الاجتماعية، وأنّ الصعود والهبوط لا يرجع لعوامل غيبية، ولا لصدفة واتفاق، وإنّما إلى قوانين علمية اجتماعية وتاريخية ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، والآية الثانية تشير إلى مرور مجتمعات أقوى من المجتمعات المخاطَبة وأنّهم كانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾، ومع ذلك بادوا، كما تشير الآية الثالثة إلى أنّ هذه السنة التاريخية ليست سنة قديمة منقضية، وإنّما هي دائمة تعمل في الآتين كما عملت في الماضين، ومن ثمّ فإنّ المجتمعات الأخرى التي تلتها عليها أن تترقب مجرى السنة ما دامت تأخذ بعوامل الهدم، فيلوِّح القرآن بالعصا الغليظة في وجوههم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

معاول هدم المجتمع والحضارة

ولأنّ التفسير القرآني للمجتمعات وقيامها وسقوطها تفسير سنني، فهناك أسباب من شأنها أن تديم المجتمع إلى أكبر مدة ممكنة من الزمن، كما أن هناك عوامل من شأنها أن تقتله في طفولته أو شبابه، أو تسقمه في شيخوخته، ثمّ ترسله إلى الموت.

وفيما يلي سنعرض لبعض عوامل الهدم التي كانت – وستبقى – سبيلاً لمحوّ مجتمعات كانت يوماً ما.. راسخة عتيدة في وجه الشمس:

١- مخالفة القيم:

لقد شرع الله – سبحانه – سنناً وقيماً تحكم الوجود في بعديه: التكويني والتشريعي، فخطّ للإنسان طرق تعامله مع الله، ومع أخيه الإنسان، ومع الطبيعة.

وهذا ما خطّته الرسالات السماوية باعتبارها الطريق الوسيط بين الخالق والمخلوق، فكان التعامل الصحيح لمريدي بقاء المجتمع أن يتبعوا تلكم القيم؛ لتنقذهم من واقعهم السيئ، وتنتشلهم إلى ذرى الرفعة والعلياء، ومن تلك القيم:

---

(١) سورة غافر/ ٢١.

(٢) سورة محمد/ ١٠.

أ- القيمة العليا (الإيمان بالله):

بعث الله المحبّ لخلقه بشراً يتولون عملية إخراجهم من الظلمات إلى النور، ورعاية المسيرة البشرية وحركة المجتمع: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[١].

وكانت القيمة العليا بين مجموع القيم هي الإيمان بالله، وهي القيمة الناظمة لكلّ القيم الفرعية الأخرى، ومنها تنبثق جميع القيم الأخرى، ولذلك اتفق جميع الأنبياء في الدعوة لهذه القيمة العليا الناظمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٢]، ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[٤]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٥]، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٦].

لكنّ المجتمعات خالفت القيم فكان ذاك سبباً لزوالها: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاء إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾[٧]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٨].

---

(١) سورة القصص/ ٥٨.
(٢) سورة الأنبياء/ ٢٥.
(٣) سورة الأنبياء/ ٦.
(٤) سورة محمد/ ١٠.
(٥) سورة الحج/ ٣.
(٦) سورة الفرقان/ ٣٧.
(٧) سورة ص/ ١٢- ١٥.
(٨) سورة الطلاق/ ٩- ١١.

ب- القيم الفرعية:

ومن تلك القيمة العليا التي هي (الإيمان بالله) تتفرّع سائر الأمور والقيم في شتى أبعادها العقدية والأخلاقية والتشريعية.

فالأمور المرتبط بصفات الله والنبوة والمعاد وسائر الأحكام العقدية هي فرع الإيمان بالله تعالى.

والقيم الأخلاقية (كالعدل، والتسامح، والإحسان) مع قيمتها الذاتية، يمثّل الإيمانُ بالله المثلَ المطلقَ الذي تنشده، والذي يحدد وجهتها ومعاييرها، والإثابة الأخروية عليها.

والقيم التشريعية تحمل في داخلها مصالح حقيقية في ذات الأشياء تستهدف إيجادها، وطرد مفاسد كامنة فيها، أو تحمل مصالح جعلية قضت الحكمة الربانية توفيرها في تلك الأشياء، وليست مجرّد أحكام تكليفية يقوم بها الإنسان تعبّداً وامتثالاً للأمر الإلهي، لكنّ الدالّ عليها والكاشف لها هو الشرع، وتطبيقها وامتثالها رهن الإيمان بالله وأنّها تشريعات من لدنه.

وحتى على القول بأنّ مصلحة الأحكام تكمن في جلب مصالح ومنافع في ذات الأمر والحكم والتشريع، فإنّها أوامر وأحكام غائية هادفة، ليست لهوية، ولا عبثية، ولا اعتباطية لَغوية.

ونتيجة لعدم إيمان كثير من المجتمعات السابقة فقد خالفت القيم الفرعية، واجترحت الذنوب والمعاصي التي أدت إلى اجتثاثها: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾**[1]، **﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾**[2].

وكما أجملت هذه الآيات سبب هلاك المجتمعات فصّلت آيات أخرى القيم التي تمرّدت عليها المجتمعات، وداستها بأرجلها، والذنوب والمعاصي التي فعلتها:

---

(١) سورة الأنعام/ ٦.

(٢) سورة غافر/ ٢١.

أ- فقوم نوح لتكذيبهم نبيَّهم، وتماديهم في المعاصي: **﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾**(١).

ب- ومجتمع لوط لمخالفتهم قيمة الشرف: **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * ..... * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**(٢).

ج- ومجتمع شعيب لمخالفتهم قيمة العدل الاقتصادي، واعتمادهم على التبادل الاقتصادي الجائر (من تطفيف الكيل وتخسيره): **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * .... * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾**(٣).

وقد تفجّرت معادن الحكمة على لسان رسول الله ﷺ؛ لتبيّن الآثار التكوينية والاجتماعية لنقض القيم، فقال ﷺ: «إذا كثر الزنا كثر موت الفجأة، وإذا طُفِّف المكيال أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركاتها من الزرع والثمار والمعادن، وإذا جاروا في الحكم تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهود سلَّط الله عليهم عدوَّهم، وإذا قطعوا الأرحام جُعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي سلَّط الله عليهم أشرارهم فيدعو عند ذلك خيارُهم فلا يُستجاب لهم»(٤).

وقال ﷺ: «ما ظهر الغلول في قوم قطّ إلا أُلقي في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم قطّ إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قومٌ المكيالَ والميزانَ إلا قُطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحقّ إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قومٌ بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو»(٥).

---

(١) سورة نوح/ ٢٥.
(٢) سورة العنكبوت/ ٢٨- ٢٩، ٣٤- ٣٥.
(٣) سورة الأعراف/ ٨٥، ٩١.
(٤) الشيخ الحسن بن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول/ ٤٢.
(٥) الإمام مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ٢/ ٤٦٠، كتاب الجهاد، الباب ١٣، ح ٢٦، والغلول: الخيانة في الغنيمة.

وقـال ﷺ: «ما من رجل يكون في قوم يعمـل فيهم بالمعاصي، يقدرون على أن يُغيّروا عليه فلا يغيّروا، إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا»[١].

وقـال ﷺ: «إذا غضـب الله – عزّ وجلّ – على أمة ولـم ينزل بها العذاب: غلت أسـعارُها، وقصُـرت أعمارُها، ولـم تربـح تجّارُها، ولـم تُـزكَّ ثمارُها، ولـم تغـزر أنهارُها، وحبس الله عنها أمطارَها، وسلّط الله عليها شرارَها»[٢].

وقد ردّ غوسـتاف لوبون سـبب سـقوط الأمم إلى سـبب أساسـي هو (الانحطاط الأخلاقـي) فقـال: «ونحـن إذا ما بحثنا في الأسـباب التي أدت بالتتابع إلـى انهيار الأمم، وهي التي حفظ التاريخ لنا خبرها كالفرس والرومان وغيرهم، وجدنا أنّ العامل الأساسي في سـقوطها هو: تغيّر مزاجها النفسـي تغيّراً نشـأ عن انحطاط أخلاقها، ولسـتُ أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها»[٣].

كمـا أشـار السـيّد جمـال الديـن الأفغاني إلـى أثر فضائـل الأخلاق فـي الصعود، وأثـر رذائل الأخـلاق في الهبوط، فقال: «هكذا جعل الله بقـاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشـرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سـنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدّل بتبدل الأجيال»[٤].

وفـي سـنة ١٩٦٢م حـذّر (خروتشـوف) – رئيس الاتحاد السـوفيتي سـابقاً – من المستقبل الكالح الذي يتهدد (روسيا)، فقال: «إنّ مستقبل روسيا في خطر، وليس للشباب مستقبل مؤمل؛ إذ أصبحوا انحلاليين إباحيين عبيداً لشهواتهم»[٥].

غيـر أنّ صرختـه تلـك كانت (صيحة فـي واد)، ولم تجد أذناً تصغـي إليها، فتحلل الاتحـاد السـوفيتي الذي كان يومـاً أكبر دولة علـى وجه الأرض، وتهـاوى تحت معاول الهدم، فشهد العالم زواله في سنة ١٩٩١م.

وإذا كانت تلك صورة الشرق واندثاره، فما هي صورة الغرب؟

---

(١) سنن أبي داود، م٢، ج٤، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ص ١٢٢– ١٢٣، ح ٤٣٣٩.
(٢) الخصال/ ٣٦٠، باب السبعة، ح ٤٨. وبحار الأنوار ٧٠/ ٣٥٠، كتاب الإيمان والكفر، الباب ١٣٧، ح ٤٦.
(٣) الدكتور غوستاف لوبون، السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة: عادل زعيتر/ ١٧٢.
(٤) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني/ ٣٣٨– ٣٣٩.
(٥) مجتبى الموسوي اللاري، الإسلام والحضارة الغربية، تعريب: محمد هادي اليوسفي/ ٤٧.

إنّ أرباب التاريخ في الغرب حين يستجلون الصورة الاستشرافية لمستقبل حضارتهم يرون أنّها هي الأخرى تقع تحت رهن عوامل النخر والاندثار، ومن ثمّ قال شبنجلر: إنّ هذه الحضارة الغربية تسير نحو «مصيرها المحتوم، وهو التدهور، والهلاكُ مرتقبٌ في المستقبل المنظور»(١).

ويصوّر سيّد قطب بعض نتائج مادية الغرب اليوم ومآلها الذي ستصل إليه، فيقول: «إنّ العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي.. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم ليكاد يصبغ الحياة كلّها بالنكد والقلق والشقاء، ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تُباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ..، وهي طلائع لا تخطيء على نهاية المطاف»(٢).

إنّ الصورة المجتمعية للغرب القائم اليوم تجد مثالها التاريخي القديم في (قوم شعيب)، ففيها تُعربد المادية الطاغية التي قتلت القيم، والتي تحكي (رأسمالية) جشعة تتلاعب بموازين العرض والطلب كما تلاعب قوم شعيب بالتطفيف والتخسير في الميزان، بما يوحّد هذين النموذجين التاريخيين (القديم والمعاصر) في إطار يشمله قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾(٣)، كلّ ما في الأمر: أنّ أحدهما نموذج تاريخي مندثر، والآخر نموذج معاصر قائم، بل.. وأعظم من ذلك: أنّ ماديتها لم تقف عند حدود الاقتصاد، بل.. كانت نفعية براغماتية أهدرت القيم: الدينية والأخلاقية، فأضافت لثقلها شيئاً من أعباء الأمم الأخرى كالتحلل والشذوذ والظلم والطغيان.

وقد تحدث الرئيس الأمريكي الأسبق (جون كنيدي) في سنة ١٩٦٢م عن المستقبل المؤلم لأمريكا، وأثر الانحلال الأخلاقي في ذلك، فقال: «إنّ لأمريكا مستقبلاً مؤلماً؛ إذ الشباب انحلاليون وغارقون في الشهوات، وغير مستعدّين لأن يقوموا بما يُحوَّل عليهم من تكاليف، فمثلاً، من كلّ سبعة من الشباب يدخلون في الجندية يخرج ستة منهم ضعفاء غير لائقين؛ ذلك أنّ إفراطهم في شهواتهم قد استنفد منهم استعداداتهم النفسية والجسدية»(٤).

---

(١) الدكتور حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في عوامل قيامها وتطورها/ ٣٥٩.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩١.
(٣) سورة المطففين/ ١ – ٣.
(٤) الإسلام والحضارة الغربية/ ٤٧.

فالانحراف في إشباع الغريزة الجنسية جعل فرائص مجتمعات القرن الواحد والعشرين ترتعش رعباً وهلعاً من مرض الإيدز الذي سلبها لذة الوسن وبهجة الحياة، حتى بلغ عدد المصابين به ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٤٠ مصاباً[١].

ولا نستغرب إذا وجدنا أنّ كثيراً من الفلاسفة المعاصرين والمفكّرين والشعراء وغيرهم يسمّون القرن العشرين عصر الاضطرابات النفسية وعصر القلق[٢]، ويعزون تفشي القلق في هذا العصر إلى أسباب منها: عقلنة الحياة الثقافية والسياسية التي طردت المعطيات الأخلاقية[٣]، واستخدام الآلة المرتبط بالتقانة الذي قلل من قيمة الإنسان، والانحراف في مسار العلم الذي جعله يسهم في خلق قلق مزمن وخوف دائم لدى أبناء الجنس البشري، لاسيما مع انحراف بعض أغراضه نحو القنابل الذرية وغيرها، وانتشار الصدود والتأزم الناجم عن العصر، وتفشي أنواع الإحباط، وما ساد في هذا العصر من المنع والحرمان[٤].

لقد كان فلق الذرة أكبر إنجاز بشري في الحقل العلمي، وكان تخيُّل الفائدة الهائلة العائدة منها في دنيا الطبّ والطاقة وغيرها.. حلماً لذيذاً منعشاً، بيد أنّها - وبفعل تحوير مسارها - أضحت أكبر قلق يساور المجتمعات البشرية، ويهدِّدها بالفناء، إنّه الترف الذي يحوِّل مصبّ المياه إلى غير مجاريها ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إلا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾[٥].

ومن ثمّ أمست أسئلة مثل: (هل ستتفكك أمريكا إلى ثقافات؟)، (هل سيقع صدام الحضارات داخل المجتمع الأمريكي نفسه؟)[٦]، (هل سيقع صدام داخلي في المجتمع الأمريكي نتيجة عدم التجانس الاجتماعي والإثني؟)، (هل سيدافع الحزبان المتصارعان فيها - الديمقراطي والجمهوري - عن الليبرالية لو وقع الصدام؟).. مطروحة من قِبَل بعض

(١) يوسف أحمد الحسن، (الإيدز ومعضلة مكافحته)، مجلة (الواحة)، العدد الخمسون، السنة الرابعة عشر، صيف ٢٠٠٨م، ص ١٦٢.
(٢) مصطفى عبد السلام الهيتي، القلق: دراسات عن القلق والأمراض النفسية الشائعة/ ٧، وعبد الستار إبراهيم، القلق قيود من الوهم/ ٢٥.
(٣) محمد سعيد الجنيدي، القلق في الثقافة/ ١٧.
(٤) القلق: دراسات عن القلق والأمراض النفسية الشائعة/ ٩، ١٧.
(٥) سورة القصص/ ٥٨.
(٦) (صِدام الحضارات) مصطلح استخدمه (صامويل هانتنغتون)، وجُعل عنواناً لكتاب له، ومصطلح (الحضارات) يستخدمه فيه بمعنى (الثقافات)، لا بمعنى (الدول).

الأمريكيين والغربيين قبل غيرهم، فألف (بول كنيدي) (صعود وهبوط الإمبراطوريات)، وألـف (توفلر) (الموجـة الثالثة)، وألـف (جيمس كـورت) (الصدام الحقيقي)، وأشـار (صامويل هانتنغتون) لبعض ذلك في كتابه ذائع الصيت (صِدام الحضارات)!!

ومخالفة القيم عنوان عام ترجع إليه جميع الأسباب الأخرى لسقوط المجتمعات؛ لأنّ أيّ واحد من أسـباب سـقوط المجتمعـات ما هو إلا تجاوز ونقـض لقيمة من القيم، لكنّنا نفرد بعض تلك الأسـباب بالدراسـة نظـراً لأهميتها في عملية السـقوط الاجتماعي والحضاري.

٢- الترف المادي:

التـرف هو عبارة عـن نقض لقيمة الاعتدال المالي، وحسـن التصـرّف تجاه المال والنعمة، فكثيراً ما يلازم النعم أمران مختلفان من قِبَل من أُسبغَت عليهم:

أ- الكفران والجحود:

فكثيراً ما يلازم النعم كفرانها وجحودها: ﴿**وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَـا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّـهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾[1].

والكفران لا ينحصر في ترك الشـكر القلبي واللفظي، وإنّما يشمل الكفران العملي بإهمال تلك النعم وعدم اسـتثمارها، وترك العمل الصحيح الذي يناسـبها، كعدم توزيعها على مسـتحقيها، وقد سـبق أن تعرّضنا لشـيء من ذلك فـي فقرة (التطبيـق الاقتصادي)، وتعليق السـيّد الشـهيد الصدر على قوله تعالى: ﴿**وَآتَاكُـم مِّن كُلِّ مَا سَـأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾[2].

وقـد يتعدى كفـرانُ النعم الوقوفَ عند حـدّ الجحود والإنـكار، ويتقدم ليصل إلى مسـتوى استعمال النعم في الشـرّ: ﴿**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ**﴾[3]، ويصـل التعالـي بالتـرف إلى حـدّ دوس القيم وضربهـا بعرض الحائـط: ﴿**الَّذِيـنَ كَفَرُوا**

---

(١) سورة النحل/ ١١٢.
(٢) سورة إبراهيم/ ٣٢- ٣٤.
(٣) سورة هود/ ١١٦.

وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(١)، **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾**(٢).

ب- الطغيان والبطر:

وكثيراً ما يلازم النعم – أيضاً – الطغيان والبطر بالنعمة!!

القرآن الكريم لا يعارض حلول النعمة وسكنها في حياة الناس: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**(٣)، والذي يدعوه للوقوف في وجه الترف هو نتائجه الفاسدة التي يصل إليها في حياة الكثيرين، فـ«الترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسدّ المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا يحارب الإسلام الترف»(٤).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إلا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾(٥).

وهنا يتمّ الاستغلال السيء للنعمة، وجعلها للأبهة والإسراف الداخلي، وطريقاً للطغيان وممارسة الظلم الاجتماعي والقهر السياسي بحقّ الغير، وسلب خيرات المجتمعات الأخرى وإذلالها؛ فتصبح النعمة – بالاستعمال السيء لها – من خير للمجتمع إلى أداة لقصم ظهره: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾**(٦).

وفي قوله تعالى: **﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾**(٧)، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية، وأموال

(١) سورة المؤمنون/ ٣٣.
(٢) سورة سبأ/ ٣٤.
(٣) سورة الأعراف/ ٣٢.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٦٧.
(٥)- سورة القصص/ ٥٨.
(٦) سورة الإسراء/ ١٦.
(٧) سورة سبأ/ ١٩.

ظاهرة، فكفروا بأنعم الله، وغيّروا ما بأنفسهم من عافية؛ فغيّر الله ما بهم من نعمة، و﴿**إِنَّ اللّـهَ لاَ يُغَيِّـرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِـهِمْ**﴾[١]، فأرسـل الله عليهم سـيل العرم، فغرّق قراهـم، وأخـرب ديارهـم، وأذهب أموالهـم، وأبدلهم مـكان جنّاتهم جنتيـن ذواتي أُكل خمط وأثل وشـيء من سـدر قليل، ثمّ قال: ﴿**ذَلِـكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَـرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ**﴾[٢]»[٣].

ويقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾[٤].

وهذه الآيات الشريفة تذكر سببين لتدمير أمم كانت قوية هي (إرم، ثمود، الفراعنة)، وهذان السببان يكمنان في: الطغيان، والإفساد في الأرض.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فاعتبروا بما أصاب الأمم المسـتكبرين من قبلكم من بأس اللـه وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بمثاوي خدودهـم، ومصارع جنوبهم»[٥]، ثمّ يقول عليه السلام: «ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون – عليهما السلام – على فرعـون وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما العصي، فشـرطا له – إن أسـلم – بقاء ملكه، ودوام عـزّه، فقال: (ألا تعجبون من هذين يشـرطان لـي دوام العزّ وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ، فهلا أُلقِيَ عليهما أساورة من ذهب)»[٦].

وإذا كان مثـال (سـبأ وسـيل العـرم) (والفراعنـة) نموذجيـن تاريخييـن حصلا في الماضي، فقد تنبّأ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بدور الترف في سقوط الحضارة الإسلامية فقال: «أظنّكم سمعتم أنّ أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين، فأبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسـوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[٧]، «إنّ الدينار والدرهم أهلكا

(١) سورة الرعد/ ١١.
(٢) سورة سبأ/ ١٧.
(٣) أصول الكافي ٢/ ٢٦٧– ٢٦٨، الباب ٢٩٧، ح ٢٣.
(٤) سورة الفجر/ ٦– ١٤.
(٥) نهج البلاغة/ ٢٩٠، الخطبة ١٩١.
(٦) نفسه/ ٢٩١، الخطبة ١٩١.
(٧) صحيح مسلم ٨/ ٢١٢ (كتاب الزهد والرقائق).

من كان قبلكم، وهما مهلكاكم»[١].

وقد بدأ ما حدّث به النبي ﷺ يحصل في واقع المسلمين الخارجي من لدن زمن الصحابة، ففي أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال: فبنى عثمان له دارة بالمدينة، وشيّدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر، وكان له يومَ قُتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار، ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما.. مئة ألف دينار، وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبنى الزبير بن العوام له دارة بالبصرة، ودوراً بمصر والكوفة والإسكندرية، وبلغ ماله بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف ألف فرس وألف أمة. وبنى طلحة بن عبيد الله دارة بالكوفة، وشيّد دارة بالمدينة، وبناها بالجصّ والآجرّ والساج، وكانت غلته من العراق ألف دينار كلّ يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف مئة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مئة ألف دينار، وبنى سعد بن أبي وقاص دارة بالعقيق، ورفع سُمكها وأوسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات. ومات يعلي بن منبه، وقد خلف خمس مئة ألف دينار، وديوناً على الناس، وعقارات، وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاث مئة ألف دينار[٢].

وقد سار الأمويون على النهج الكسروي حيث الترف والبذخ، حتى أنّه «سُئل بعضُ شيوخ بني أمية ومحصّليها عقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟،[فـ] قال: إنا شُغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيّتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتُحومل على أهل خراجنا؛ فتخلوا عنا....»[٣].

وسارت على مسار الترف المادي نفسه الدولتان: العباسية والأندلسية، مما حدا ببعض الباحثين إلى القول: «وجدنا أنّ البذخ والترف والفساد من الأسباب المهمة في انحلال الدول وسقوط الحضارات، ورأينا كيف أسرف الناس في الترف، وكيف تفننوا في الخلاعة والفساد والمجون؛ مما جعلهم أبعد ما يكونون عن الجهاد، وعن صيانة حضارة عظيمة، فأضاعوا الدولة الإسلامية، وبكوا عليها كالنساء؛ لأنّهم لم يحافظوا عليها كالرجال - كما ورد على لسان أمّ آخر ملك من ملوك الأندلس -، وهذه الحالة تمرّ بها الحضارة

(١) أصول الكافي ٢/ ٣٠٥، الباب ٣١٢، ح ٦.
(٢) علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ٢/ ٣٣٢- ٣٣٣.
(٣) نفسه ٣/ ٢٢٨.

الغربية الآن، فهي حضارة بذخ وترف بأقصى حدّ ممكن، وهي حضارة اقتناص اللذة»[١].

وفي معرض تحليل (أدوارد جيبون) لأسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية يشير إلى الانغماس في الرذيلة والترف وحياة الدعة والكسل والخيانة والغدر والتناحر من أجل السلطة، وما إلى ذلك من الأسباب الأخلاقية الأخرى[٢].

ولنا أن نستجلي صورة من ترف بعض المجتمعات الرأسمالية الحاضرة التي يموت فيها البعض من السمنة والبدانة في الوقت الذي تلقي فيه فائض الإنتاج من القمح في البحر (أمريكا)، وتحرق التفاح (فرنسا)، تحت مسمّى المحافظة على سعر المنتجات، والموازنة بين العرض والطلب، وفوق ذلك تهتمّ برعاية الكلاب والقطط، وتوفير الأكل والعلاج والمسكن المريح لها، في حين ترزح الملايين من شعوبها تحت نير الفقر والجوع، وتسكن العراء، ويفترسها شبح المرض والموت. أو تجعل لها يوماً سنوياً تلعب فيه بالطماطم، حتى تسيل منه الأنهار في الشوارع (أسبانيا)!!

«وبريطانيا غرّتها إمبراطوريتها العظمى ومستعمراتها الواسعة [الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس!!]، فجُوبهت بمقاومة واسعة، فجرّت أذيال الخيبة والاندحار، وأصبحوا يطلقون عليها (المستعمِر العجوز)، ورؤساء أمريكا مغرورون بقوتهم وجبروتهم فاندحروا في فيتنام»[٣].

و(ألمانيا النازية) بلغت مشارف موسكو، واغترّ هتلر بعِرقه الأزرق، وبجنسه الألماني، فقال بنظرية العرق (الجيرمني) الأزرق المتميّز، وبقدراته الخارقة؛ فاندحر وانكسر، وقُسّمت دولته، وانتحر.

وقد أدى التسابق النووي، ودخول النادي النووي، وسياسة (توازن الرعب)، إلى الترف في الإنفاق على التسلّح العسكري، وجعل أكثر الدول الحاضرة تسرف في شراء السلاح على حساب الجوعى والمحتاجين من أبنائها.

٣- الظلم الاجتماعي:

الظلم نوع من مخالفة القيم، فهو هدم لقيمة العدل الذاتي والاجتماعي (العدالة

(١) كريم جبر الحسن، عملية النهوض الحضاري/ ١٩٤.
(٢) حركة التاريخ في القرآن الكريم/ ٢١١.
(٣) عملية النهوض الحضاري/ ١٩٩.

الفرديـة والاجتماعيـة)، بيـد أنّ له كثافة انتشـار وحضور في المجتمعـات، وله تنوع بارز في الأشـكال والمظاهر، ومن ثمّ فهو سـبب عميق من أسـباب هدم الأمم، وذلك كلّه دعا القرآن الكريم إلى تكثيف النظرة القرآنية عليه.

والظلم يتخذ أشكالاً ومظاهر شتى:

أ- فقـد يتخـذ مظهر ظلم الإنسـان لنفسـه: ﴿**وَدَخَـلَ جَنَّتَهُ وَهُـوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِـهِ**﴾[١]، فيقتصر أثره على مردود فردي، لا يتعدى صاحبه إلى المجتمع من حوله.

ب - وقد يتخذ شكل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان: ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَـةً وَلِـيَ نَعْجَةٌ وَاحِـدَةٌ فَقَـالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِـي فِي الْخِطَابِ * قَـالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُـؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ**﴾[٢].

ج - وقد يتخذ هيئة ظلم فئة لأخرى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[٣]، وهنا يتألف المجتمع من كيانات متناحرة يسود بينها الاحتراب، ويضرى أوار نار متقدة.

د - وقد يتخذ صورة ظلم السادة مَنْ تحتهم، صعوداً في درجات السلّم حتى يتسنّم الحاكـم نفسـه الزمام: ﴿**إِنَّ فِرْعَـوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِـيَعًا يَسْـتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْـتَحْيِي نِسَـاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِـدِينَ**﴾[٤]، ﴿**كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِـمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَـا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ**﴾[٥].

وهذه الأشـكال الأربعة للظلم - ولاسـيما الثلاثة الأخيرة - تجتمع مخرجة ناتجاً واحـداً هـو السـير بالمجتمع نحـو الهوة والهاويـة: ﴿**وَمَا كُنَّـا مُهْلِكِـي الْقُـرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُـونَ**﴾[٦]، ﴿**هَـلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ**﴾[٧]، ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَـا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا**

(١) سورة الكهف/ ٣٥.
(٢) سورة ص/ ٢٣- ٢٤.
(٣) سورة الحجرات/ ٩.
(٤) سورة القصص/ ٤.
(٥) سورة الأنفال/ ٥٤.
(٦) سورة القصص/ ٥٩.
(٧) سورة الأنعام/ ٤٧.

ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(١)، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾(٢).

وفي التعليق على قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(٣)، يقول الرسول الأكرم ﷺ: «كلا...، والله.. لتأمرُنّ بالمعروف، ولتنهوُنّ عن المنكر، ولتأخذُنّ على يدي الظالم، ولتأطرُنّه على الحقّ أطراً، ولتقصرُنّه على الحقّ قصراً، أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننّكم كما لعنهم»(٤).

وفي مقام آخر يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد»(٥).

وإذا عمَّ الظلمُ أمةً فسوف يُذيب العلاقات والأواصر الحميمة الداخلية فيها؛ مما يجعلها مجتمعاً متفككاً لا يقوى على الصمود أمام قوى التحدي الداخلي، كما لا يقوى أمام الغزو الخارجي، بل.. قد يقف بعض أبناء الأمة مع الغازي لإزاحة الظلم والظالم حين يقدِّرون أنّ خطره أكبر، أو لا أقلّ قد لا يعينون الظالم الداخلي في مواجهة الخطر الخارجي.

ولا يقتصر الظلم على أثره الأخلاقي الفردي في إسقاط صاحبه، بل.. يمتدّ للجانب الاقتصادي (الفردي والجمعي) فيمحقه، ثمّ يدمّر المجتمع كاملاً، وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الظلم يزلّ القدم، ويسلب النعم، ويهلك الأمم»(٦).

ومن أمثلة الظلم الاجتماعي: سياسة التجويع التي تتخذها بعض الدول تجاه شعوبها، وسياسة الاستنزاف لمقدرات الأمة وخيراتها في المصالح الشخصية، وسياسة الإبادة الجماعية التي تقوم بها بعض الجماعات أو الدول، وسياسة التمييز الطبقي والديني والطائفي والعنصري الذي يحابي فئات اجتماعية على حساب أخرى.

---

(١) سورة يونس/ ١٣.
(٢) سورة الكهف/ ٥٩.
(٣) سورة المائدة/ ٧٨- ٧٩.
(٤) سنن أبي داود، م٢، ج٤، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ص ١٢٢، ح ٤٣٣٦ و٤٣٣٧.
(٥) نهج البلاغة، عهد الإمام لمالك الأشتر، ص ٤٢٩.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم/ ٨٦، الحكمة ١٧٦٢.

فعنـد اسـتيطان الأوروبيين في القـارة الأمريكيـة قتلـوا ٠٠٠,٠٠٠,١٢٠ هندي أحمر[١]، ولما أرادوا إعمار القارة قرروا جلب الزنوج من أفريقية لقوتهم وتحملهم، فبلغ عدد الضحايا من الزنوج في عملية نقلهم إلى أمريكا ٠٠٠,٠٠٠,١٠٠ شخص[٢].

ولما خاض الأوروبيون غمرة الحربين العالميتين: أسفرت الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ـ١٩١٨م] عن قتل (٠٠٠,٠٠٠,٧) شـخص، وأسفرت الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ـ ١٩٤٥م] عن قتل (٠٠٠,٠٠٠,٥٥) شخص[٣].

وكان مـن ثمـار الحرب العالمية الثانيـة أن ألقت الولايات المتحـدة الأمريكية في نهايـة الحـرب قنبلتيـن ذريتين علـى (هيروشـيما) و(ناجازاكـي) – المدينتيـن اليابانيتين –، فأزهقـت الأولـى مـا بيـن ٠٠٠,٢١٠ إلـى ٠٠٠,٢٤٠ شـخص فـي يـوم واحد من سـكان (هيروشـيما)!![٤]، وطحنـت الأخـرى ٤٠٠٠ قتيـل، و٤٠٠٠ جريـح مـن أهـل (ناجازاكي)[٥]!!

وهكذا حظيت اليابان في يومين وفي مدينتين فقط بـ ٠٠٠,٢١٤ إلى ٠٠٠,٢٤٤ قتيل!!، غير الذين قُتلوا قبل في المواجهات، أو بعد من أثر الإشعاع، وغير التشوّه الماكث فيهم إلى الآن.

وإذا كانت تلك لقطة من غرب هذه المعمورة، فقد كانت الصورة في شرقها بائسة حالكة – مثلها – فالاتحاد السـوفيتي جعل بلاده سـجناً كبيراً، وأرهق شـعبه بما سـنّه من قوانيـن ملكية الدولـة (الملكية الجمعية)، وقانون «من كلّ حسـب طاقته، ولكلّ حسـب عمله»[٦]، «من كلّ حسب طاقته، ولكلّ حسب حاجته»[٧].

---

(١) العرب والحداثة: دراسة في مقالات الحداثيين/ ٦٥.

(٢) الشيخ ناجي أحمد زوّاد، (آفاق منهجية في نظرية الإصلاح)، مجلة (البصائر)، العدد ٣١، السنة الخامسة عشرة، ربيع ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٣١.

(٣) الدكتور محمد رشيد الفيل، الهجرة وهجرة الكفاءات العلمية العربية والخبرات الفنية أو النقل المعاكس للتكنولوجيا/ ٣٨، ٦٠.

(٤) نفسه/ ٢٢٣.

(٥) منير البعلبكي، موسوعة المورد العربية ٢/ ٩٢٨.

(٦) اقتصادنا/ ٢١٧.

(٧) نفسه/ ٢١٧، والدكتور علي جريشة، ومحمد الزيبق، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي/ ١٠٩.

وقتل إستالين في خطته الخمسية من شعبه في الاتحاد السوفيتي ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ شخص[١].

ولم تكن صورة العالم الثالث المزدان بالحروب والقتل لأتفه الأسباب أفضل من المعسكرين: الغربي والشرقي، فقد كانت العراق يوماً تمثّل رابع أقوى جيش في العالم، بلغ عدد أفراده عام ١٩٩٠م/ ٩٩٥,٠٠٠ مقاتل[٢]، لكنّ صدّام حسين زَجّ به في أتون حروب متوالية مع إيران والكويت، فبلغ عدد قتلى الحرب العراقية الإيرانية (حرب الخليج الأولى) أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ شخص من الطرفين[٣]، كما قُتل من الجيش العراقي في حرب تحرير الكويت (حرب الخليج الثانية) أكثر من ١٠٠,٠٠٠ جندي[٤]، وأزهق الكثير من أرواح الأبرياء في سجونه، وأجرى أنهار الدماء في (الانتفاضة الشعبانية) في بلاده، وفي عمليات التطهير العرقي ضد الأكراد، والتي عُرفت باسم (الأنفال)، وفي ٢٠٠٣م تلاشى النظام الحاكم هناك في غضون أيام قلائل بما يجسّد مثالاً حيّاً يوضّح أثر الظلم في فناء الدول والسلطات.

٤- الاختلاف والتفرّق:

والاختلاف - هو الآخر - هدم لقيمة، هي هنا قيمة (الوحدة) التي تجعل المجتمع بنية واحدة متماسكة، لهم وجودهم الجمعي الاجتماعي الجامع لهم بوصفهم كياناً واحداً ضمن نظام قيمي واحد، ويملكون الشعور بوصفهم مجتمعاً وبنية واحدة.

فالاختلاف والتفرّق من الأسباب التي تقوّض أركان المجتمعات، وتهدّمها؛ لأنّه يفتّت قوّة المجتمع، ويحيله إلى كيانات متحاربة، ويضيّع جهوده وكفاءاته ضمن الصراع البيني، ومن ثمّ تكون قوته الداخلية ضعيفة، فضلاً عن قدرته على مواجهة العدو الخارجي لو تعرّض لغزو.

وهذا ما يجعل القرآن الكريم يحثّ على وحدة الكلمة والتكاتف الاجتماعي، ويحذّر من التمزّق والاحتراب، ويسطّر الأضرار التي سيتلقاها المجتمع من جرّاء تفرّقه

---

(١) معتصم الغنيمي، (عراق الحرية والتعددية)، مجلة (البصائر)، العدد ٣١، السنة الخامسة عشرة، ربيع ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٦٠.
(٢) الموسوعة العربية العالمية ١٦/ ١٥٩.
(٣) (عراق الحرية والتعددية)/ ١٤٠.
(٤) الموسوعة العربية العالمية ١٦/ ١٧٣.

أمام عيني المجتمع؛ ليشكّل لنفسه الوقاية وصمام الأمان تجاهها: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(١)، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

ويوضّح الرسول الأكرم ﷺ دور الاختلاف في فناء الأمم واندثارها، فيقول: «لا تختلفوا؛ فإنّ مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»(٣).

ويفصّل أمير المؤمنين عليه السلام دور التكاتف الاجتماعي في القوة والغلبة، ودور التشتت والاختلاف في انهيار المجتمع فيقول: «وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، .... فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم؛ حيث وقعت الفُرقة وتشتتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعّبوا مختلفين، وتفرّقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين»(٤).

وتعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ .... وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «العذاب في هذا الوعيد يشمل الدنيا والآخرة، قال الأستاذ الإمام [محمد عبده] ما معناه: أما عذاب الدنيا فهو أنّ المتفرّقين المختلفين الذين اتبعوا أهواءهم، وحكّموا في دينهم آراءهم؛ يكون بأسهم بينهم شديداً، فيشقى بعضهم ببعض، ثمّ يبتلون بالأمم الطامعة في الضعفاء، فتذيقهم الخزي والنكال، وتسلبهم عزة الاستقلال. أما عذاب الآخرة فقد بيّن الله في كتابه أنّه أشدّ من عذاب الدنيا وأبقى»(٥).

وهو يشير إلى بعض أسباب الاختلاف، ومنها: اتباع الأهواء، وتحكيم الآراء في الدين، كما يشير إلى بعض نتائج الاختلاف الداخلية والخارجية: فمن نتائجه الداخلية: التناحر الداخلي، والإشقاء الداخلي، والضعف الاجتماعي، ومن نتائجه الخارجية: طمع

---

(١) سورة الأنفال/ ٤٦.
(٢) سورة آل عمران/ ١٠٥.
(٣) صحيح البخاري، م١، ج ٣، ص ١٥٨، (باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة).
(٤) نهج البلاغة/ ٢٩٦- ٢٩٧، الخطبة ١٩١.
(٥) الشيخ محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤/ ٤٥- ٤٦.

القوى الخارجية في المجتمع، والخزي والنكال، والاستعمار والسيطرة الخارجية.

ويقول السيّد محمد تقي المدرسي: «إنّ دراسة الأمم رؤية واضحة لأوضاعنا، تلك الأمم تفرّقوا: فإذا كلّ طائفة منهم تتشكل حسب قيم أرضية زائفة - قيم الدم واللغة والإقليم والمصالح العاجلة، وكان تمسّكهم بتلك الروابط أشدّ من تمسكهم بالدين -، فلذلك اختلفوا فيما بينهم؛ لأنّ هذه القيم مختلفة ولا تنتج إلا الاختلاف فابتلوا بعذاب عظيم في الدنيا والآخرة»[١].

وفي هذا النصّ ذكر لبعض الاعتبارات التي توجِد الاختلاف والتمزّق الاجتماعي، وهي - حسب تعبير النصّ -: القيم الأرضية الوضعية التي تقوم على الدم واللغة والإقليم والمصالح العاجلة، وتقف في مقابل القيم السماوية التي جلبها الدين.

وحين ننفذ من مجال التنظير الاجتماعي إلى مجال عرض نماذج لمجتمعات تفرّقت واختلفت؛ فكان مآلها الفناء والاندثار، نقف عند العديد من الأمثلة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فاعتبروا بحال وِلد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل - عليهم السلام -....، تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرّقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق، وخضرة الدنيا، إلى منابت الشيح، ومهافي الريح، ونكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين إخوان دبر ووبر، أذلّ الأمم داراً، وأجدبهم قراراً»[٢].

وكما أدى الاختلاف إلى فناء وذلة الأمثلة الاجتماعية التي ذكرها الإمام علي عليه السلام أسهم الاختلاف في فناء الدولة العباسية التي حكمت رقعة كبيرة من العالم لمدة تنوف على الخمسة قرون من الزمن [١٣٢ - ٦٥٦هـ]، [٧٥٠- ١٢٥٨م]، لكنّها تشظت إلى دويلات مستقلة متناحرة تقوم على أنقاض بعضها، ثمّ امتدّ الخلاف إلى داخل البلاط الحاكم نفسه، فأطمعت فيها المغول التتار، الذين أغاروا عليها ودمروها، وأعملوا السيف في أهلها حتى قيل: إنّ بغداد - وحدها - قُتل فيها ١,٨٠٠,٠٠٠ شخص[٣].

وحصل الأمر نفسه في الأندلس التي دام الحكم الإسلامي فيها لأكثر من ثمانية قرون [٩٢- ٨٩٨هـ]، [٧١١- ١٤٩٢م]، ثمّ تفتّت إلى دويلات متناحرة أضعفت قوتها، وجعلتها لقمة سائغة في فم عدوها، حتى تمّ القضاء على الحكم الإسلامي فيها.

(١) من هدى القرآن ١/ ٦٢٩.
(٢) نهج البلاغة/ ٢٩٧، الخطبة ١٩١.
(٣) عملية النهوض الحضاري/ ٣٩.

طريقة إهلاك المجتمعات

ومـا دام القـرآن الكريم يـدرس المجتمعات بعمـق ودقة، فلنا أن نسـأله: كيف يتمّ إهلاك المجتمع؟، كيف تندثر مجتمعات كانت يوماً ما.. قوية عتيدة تنتصب كالأهرام في وجه الزمن؟!

يعرض القرآن الكريم طريقتين لهلاك المجتمع:

١- المفاجئة (البغتة):

هناك مجتمعات يستفحل بها الداء الاجتماعي، وتشتدّ وطأته، وهي في غفلة ورقاد عنه، فيأتيها السـقوط المفاجئ/ الدفعي/ المباغت، فتؤخذ بغتة أخذة جذرية مسـتأصلة: **﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾**[١]، **﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾**[٢].

وقـد كان هذا الأسـلوب شـائعاً في الأمـم الماضية التي يمهلها اللـه؛ فتخوض في عصيانهـا؛ ثمّ يحلّ عليها العـذاب دفعة واحدة، **﴿فَيَذَرُهَا قَاعًـا صَفْصَفًا﴾**[٣]، **﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾**[٤].

وقـد عرض القرآن الكريم العديـد من الأمثلة لمجتمعات جاءهـا نوع من العذاب الماحـق الشـامل، فحصدها، وتلاشـت من نظر وسـمع الزمـان!!، مع اختـلاف في نوع المعصية التي كانت لديها، ونوع ذلك العذاب الذي حلّ بها:

- فمجتمع النبي نوح عليه السلام كان عذابهم بالغرق: **﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[٥].

- ومجتمـع سـبأ دمرهـم اللـه بـأن فجّـر عليهم (سـدّ مـأرب) الـذي كان المموّن

(١) سورة الأنعام/ ٤٧.
(٢) سورة الأنعام/ ٤٤.
(٣) سورة طه/ ١٠٦.
(٤) سورة الأنبياء/ ١٥.
(٥) سورة الأنبياء/ ٧٦- ٧٧.

لحضارتهم، فاجتاحهم سيل العرم، ودمّر جنتيهم: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[١].

– وعاد، قوم النبي هود عليه السلام أرسل الله عليهم الريح الصرصر العاتية التي أتت على دائرة الأشياء والبشر فأهلكتها معاً: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[٢]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[٣].

– وثمود، قوم النبي صالح عليه السلام أنزل الله تعالى عليهم صاعقة اجتثتهم: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[٤].

– وسدوم وعمورة قوم النبي لوط عليه السلام سلط الله عليهم الصيحة، وجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بالحجارة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٥].

– وقوم شعيب أخذتهم الصيحة، فكانت كالسكتة القلبية تركتهم جاثمين في أماكنهم: ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[٦].

٢- التدريجية (الاستدراج):

وعلى الطرف الآخر يعرض القرآن الكريم طريقة أخرى لهلاك المجتمع هي (السقوط التدريجي)، وهنا لا يقع العذاب بغتة ودفعة، بل.. تبقى عوامل السقوط تنخر، ويتحلل المجتمع بشكل تدريجي، وعلى دفعات: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[٧].

---

(١) سورة سبأ/ ١٦.
(٢) سورة الذاريات/ ٤١- ٤٢.
(٣) سورة القمر/ ١٨- ٢٠.
(٤) سورة الذاريات/ ٤٣.
(٥) سورة الحجر/ ٧٣- ٧٤.
(٦) سورة هود/ ٩٤.
(٧) سورة الأعراف/ ١٨٢- ١٨٣.

وإذا كان أسـلوب العذاب المباشـر والأخذ بالمفاجأة والبغتة هو الشائع في الأمم السـابقة، فإنّ أسـلوب الاسـتدراج هو الشـائع في الأمم من لدن مجيء الإسـلام، فيدبّ الوهن والضعف والخدر شيئاً فشيئاً في جسم الأمة والمجتمع، ثمّ تتهاوى، وهو ما حصل لمجتمعات مثل الدولة الأموية والعباسية والأندلسية والعثمانية.

ولعـلّ قولـه تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللّـهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّـهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[1] يوضِّح شيئاً من هذه السياسة الإلهية، فما عاد العذاب ينزل بغتة، ويحصد المجتمـع، ويفنيه عن بكرة أبيه؛ إذ الوجود المقدّس للنبي الأكرم ﷺ حائل دون ذلك، كما أنّ انطلاق نغمة الاسـتغفار من حناجـر المؤمنين ضمانة أخرى وضعها الله للحيلولة دون العذاب المفاجئ، لكنّ ذاك لا يلغي السقوط التدريجي للمجتمع.

وعلـى سـبيل المثـال فالدولة العباسـية عاشـت فترة طويلـة من الزمـن تصطخب داخلهـا الكيانـات والدويـلات المتناحـرة (الحمدانيـة، الإدريسـية، الفاطميـة، الأيوبية، المملوكية، البويهية، السلجوقية، ....)، وكان القصر العباسي نفسه يرقص فيه الاختلاف بين الوزراء، وسـرى الوهن إلى بعض الخلفاء العباسـيين أنفسـهم – كالمستعصم، الذي انهارت الدولة في زمنه سـنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م –، فكانوا ذوي بصائر هشة وعزائم واهية وحكمـة متهالكة، وكان ذاك نذير شـؤم للدولة المسـلمة، وعاملاً مغريـاً لتعرّضها للغزو الخارجي الذي استثمره جنكيز خان وهولاكو لهدمها.

(١) سورة الأنفال/ ٣٣.

المجال الثاني: المصطلح (المفردة)

اليقين.. في القرآن الكريم

يتخذ الدين في قلوب معتنقيه إحدى درجات أربع رتّبها الإمام الرضا عليه السلام تصاعدياً، فقال: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يُقسم بين العباد شيء أقلّ من اليقين»(١).

فأعلى عتبة في سلّم تلكم الدرجات هو (اليقين)؛ ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «خير ما أُلقي في القلب اليقين»(٢)، «اليقين الإيمان كلّه»(٣)، «ألا إنّ الناس لم يؤتَوا في الدنيا شيئاً خيراً من اليقين والعافية، فاسألوهما الله»(٤)، وقال تلميذه الإمام علي عليه السلام: «أفضل الدين اليقين»(٥).

ومن ثمّ عدّه علماء الأخلاق أشرف الفضائل، فقالوا: «اليقين أشرف الفضائل الخُلُقية وأهمّها، وأفضل الكمالات الخُلُقية النفسية وأعظمها»(٦).

وقد تكررت مفردة (اليقين) - بهيئاتها واشتقاقاتها المختلفة - في القرآن الكريم قرابة ٢٨ مرة، وحاول كثيرون رصد معاني هذا المصطلح في القرآن، وحصرها:

(١) أصول الكافي ٢/ ٥٧- ٥٨، باب (فضل الإيمان على الإسلام) ٢١٢، ح ٢.
(٢) بحار الأنوار ٧٤/ ١١٤، باب ٦، ح ٨.
(٣) جامع السعادات ١/ ١١٩.
(٤) كنز العمال ٣/ ٤٣٨، ح ٧٣٣٤.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم ١/ ١٨٠، ح ٤٠.
(٦) جامع السعادات ١/ ١١٩.

فقال الراغب الأصفهاني: «اليقين من صفة العلم صفة فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يُقال: علم يقين، ولا يُقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم»[١]، وعدّ منه قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[٢]، ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٤]، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[٥]، وعلّق الراغب على الآية الأخيرة: «أي ما قتلوه قتلًا تيقّنوه، بل.. إنّما حكموا تخميناً ووهماً»[٦].

وعرّف السيّد الطباطبائي (اليقين) فقال: «هو العلم الذي لا لبس فيه ولا ريب»[٧]، و»هو اشتداد الإدراك الذهني بحيث لا يقبل الزوال والوهن»[٨]، فهو «ضد الجهل المركب والحيرة والشك....، وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت»[٩].

وفي حين حصر الراغب معنى (اليقين) في (العلم)، فصّل الدامغاني المعاني إلى أربعة، هي:

١- العلم:

وعدّ منه قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا

(١) المفردات في غريب القرآن ٢/ ٧١٨.
(٢) سورة الجاثية/ ٣٢.
(٣) سورة الذاريات/ ٢٠.
(٤) سورة البقرة/ ١١٨.
(٥) سورة النساء/ ١٥٧.
(٦) المفردات في غريب القرآن ٢/ ٧١٨.
(٧) الميزان في تفسير القرآن ١٩/ ١٤٠.
(٨) نفسه ٢/ ٢٤٨.
(٩) جامع السعادات ١/ ١١٨.

قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

٢- الصدق:

وعدّ منه: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[١]، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٢]، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٤]، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٥]، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٦]، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٧].

فهي عنده بمعنى: خبر صدق، وهم بالآخرة يصدّقون، ولقوم يصدّقون[٨].

٣- العيان:

وعدّ منه: ﴿كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[٩]، وعلّق على الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث - وهي موضع الشاهد - فقال: «يعني: علم العيان»[١٠].

---

(١) سورة النمل/ ٢٢.
(٢) سورة النمل/ ٣.
(٣) سورة لقمان/ ٤.
(٤) سورة البقرة/ ١١٨.
(٥) سورة المائدة/ ٥٠.
(٦) سورة الجاثية/ ٤.
(٧) سورة الجاثية/ ٣٠.
(٨) الحسين بن محمد الدامغاني، قاموس القرآن، أو: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم/ ٥٠٤.
(٩) سورة التكاثر/ ٥-٧.
(١٠) قاموس القرآن، أو: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم/ ٥٠٤.

٤- المـوت:

وعـدّ الدامغانـي منه: ﴿وَاعْبُـدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَـكَ الْيَقِينُ﴾[١]، و﴿وَكُنَّـا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[٢].

ويقـول الشـيخ ناصـر مـكارم الشـيرازي معلقاً علـى الآية الأولـى في هـذه الفقرة: «المعروف والمشهور بين المفسّرين أنّ المقصود من (اليقين) هنا: الموت، وسُمّي باليقين لحتميته، فربّما يشك الإنسان في كلّ شيء إلا الموت فلا يشك فيه أحد قطّ، أو لأنّ الحُجُب تُزال عن عين الإنسان عند الموت؛ فتتضح الحقائق أمامه ويحصل له اليقين»[٣].

ملاحظات:

وبعد اسـتعراضنا للمعاني التي ذكرها بعض العلماء لليقين نقف عند مجموعة من الملاحظات:

١- المعنى الأصلي والمعاني الفرعية:

بعـض التفصيلات السـابقة لمعنـى (اليقين) لم تفـرّق بين المعنـى الأصلي لكلمة (يقين)، وبين المعاني الفرعية التي تُشتقّ منه، أو المصاديق التي يمكن أن تقع تحت دائرته التطبيقية في الواقع الخارجي.

فـ (الموت) ليس معنـى لليقين – كمعنى مفهومي لهذه المفردة –، بل هو مصداق تطبيقـي للمعنـى، ومـن ثمّ لو عُـرِّف اليقين – هنـا – بمعناه العـام – أي (العلـم) – لكان (المـوت) معنى فرعياً من المعنى الأصلي؛ لأنّ الموت – وهو حقيقة لا يمكن إنكارها – مصداق آخر للعلم الجازم.

٢- المعنى المطابقي والمعنى التلازمي:

وبعض المعاني السـابقة – هي الأخرى – ليسـت لبيان معنى اليقين، بمقدار ما هي

---

(١) سورة الحجر/ ٩٩.

(٢) سورة المدثر/ ٤٦- ٤٧.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٨/ ١٠٨- ١٠٩.

أمر من الأمور الملازمة لليقين، فإنّ اليقين يلازمه ويقترن به التصديق الوجداني الداخلي، ومن ثمّ فـ (الصدق) عبارة عن إحدى ملازمات اليقين.

كما أنّ عمل الإنسان بيقينه واحدة من الملازمات لليقين، وليس تفسيراً لفظياً لمعنى كلمة (اليقين)، وقد ورد ذاك المعنى التلازمي في رواية تبيّن لنا أنّه «جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ الله - تبارك وتعالى - أرسلني إليك بهدية لم يعطِها أحداً قبلك، قال رسول الله: قلتُ: ما هي؟، قال: الصبر، وأحسن منه - إلى أن قال: - قلتُ: فما تفسير اليقين؟، قال: الموقن يعمل لله كأنّه يراه فإن لم يكن يرى الله فإنّ الله يراه، وأن يعلم يقيناً أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهذا كلّه أغصان التوكل ومدرجة الزهد»[1].

٣- اليقين ومراتب اليقين:

واليقين صفة نفسية قابلة للاشتداد والضعف، والزيادة والنقصان، ومن ثمّ ذكر العلامة المجلسي أنّ لليقين ثلاث مراتب، هي:

أ- علم اليقين:

«وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع»[2]، وقد قال الله تعالى عن هذه الدرجة: ﴿**كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾[3].

ب - عين اليقين:

وإذا كان اليقين قد يتحقق بالوصول إلى مستوى (العلم القطعي)، فقد يرتفع إلى درجة أن يرى الإنسانُ ذلكَ العلمَ ماثلاً أمامه عياناً في الواقع الخارجي؛ فترتفع درجة اليقين عنده من (علم اليقين) إلى (عين اليقين)، وقد ذكر الله هذه الدرجة فقال: ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾[4].

ومن رؤية صنع الله وخلقه للكون والإنسان، يصل المتأمل النافذ البصيرة إلى أن

(١) بحار الأنوار ٦٦/ ٣٧٤، الباب ٣٨، ح ١٩.
(٢) جامع السعادات ١/ ١٢٣.
(٣) سورة التكاثر/ ٥- ٦.
(٤) سورة التكاثر/ ٧.

يـرى الصانـع (الله تعالى) بعيـن قلبه رؤية قاطعة، وقد سـأل ذعلـب اليماني علياً عليه السلام: أرأيتَ ربّك؟، فأجاب عليه السلام: «لم أعبد رباً لم أره»(١).

ج - حقّ اليقين:

وقد يرتقي العلم عند الإنسـان؛ فيصل إلى درجة (حـقّ اليقين): ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**﴾(٢)، ﴿**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**﴾(٣).

وهنـا يصـل المؤمن إلى حدّ الاتحاد بالشـيء، وهو مـا جعل أميـر المؤمنين يقول عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً»(٤).

والفرق بين هذه المراتب الثلاث لليقين ينكشـف بمثال: فعلم اليقين بالنار - مثلاً - هـو مشـاهدة المرئيات بتوسـط نورهـا [آثار النار]، وعيـن اليقين بها هـو معاينة جرمها [ذات النـار]، وحـقّ اليقين بها هـو الاحتراق فيها [الاتحـاد بالنار]، وانمحـاء الهوية بها، والصيرورة ناراً صرفاً، وليس وراء هذا غاية، ولا هو قابل للزيادة(٥).

فحيـن يرى الإنسـان ضوء النـار أو دخانها يتشـكل عنده (علم اليقيـن) بها، وحين يراها هي عياناً يرتفع ذلك عنده إلى مرتبة (عين اليقين)، أما حين يدخلها ويلسـعه لهبها، ويحسّ بإحراقها وأثرها، فيصل إلى درجة (حقّ اليقين).

فهـذه الدرجات الثـلاث هي مراتب اليقين، وليسـت اليقين ذاته، ومـن ثمّ فالرؤية العيانية القاطعة الجازمة مصداق من مصاديق العلم، وليسـت العلم نفسه، وهذا ما يجعل ما سبق أن مرّ بنا لدى الدامغاني من عدّ (اليقين) بمعنى (العيان) أمراً متسامحاً فيه.

٤- هل هناك تلازم بين العلم والإيمان؟

الصـورة الطبيعيـة: أنّ العلـم - وقـد وصل إلـى رتبة اليقيـن - يقود إلـى الإيمان؛ لأنّ النفـس تُذعـن للعلم واليقين وتصدّقه، ومن ثمّ عملت الآيـات الكريمة على تحريك المياه الراكدة في الإنسـان، ودفعها إلى مسـتوى العلم ليترشـح منه الاعتقاد الجازم بالله

(١) جامع السعادات ١/ ١٢٤.
(٢) سورة الواقعة/ ٩٥.
(٣) سورة الحاقة/ ٥١.
(٤) بحار الأنوار ٤٠/ ١٥٣، الباب ٩٣، ح ٥٤.
(٥) نفسه ٦٧/ ١٤٢، الباب ٥٢، التعليق على الحديث ٥.

تعالى، والتصديق الداخلي به، وبالعودة إليه يوم الحساب: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(١)، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٢)، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(٣).

أي أنّ العلم يقود إلى الإيمان متى ما فسّرنا الإيمان بمعنى التصديق الداخلي، بيد أنّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل يقود العلم - بالضرورة - إلى الإيمان بمعنى العمل وفق ذلك اليقين الداخلي القطعي أم يمكن أن يصاحب اليقين الداخلي تكذيب خارجي وجحود بالفعل المناسب المترشح من ذلك اليقين؟!

إنّ الآيات الشريفة تفيد أنّ اليقين الداخلي قد يصاحبه تكذيب خارجي، وجحود عملي، فالانقياد الفعلي لليقين لا يكفي فيه مجرّد العلم القطعي الجازم، وإنّما يحتاج - كذلك - إلى التغلب على الأهواء الصارفة والمصالح الضاغطة، وهذا ما جعل بعض الناس في مسيرة الرسل الطاهرة يتيقنون بصدق الرسالة، ولكنّهم يكذبونها ويخالفونها في العمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٤)، وهو نفسه الأمر الذي يجعل الدين يركّز على عدم كفاية حصول العلم حتى يتحقق الإيمان، وإنّما لابدّ أن يرفد ذلك عمل صالح بمؤدى الإيمان، ومن ثمّ اندفعت كثير من الآيات للربط بين الإيمان والعمل:

- ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾(٥).
- ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾(٦).
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ﴾(٧).

---

(١) سورة الرعد/ ٢.
(٢) سورة الجاثية/ ٤.
(٣) سورة الأنعام/ ٧٥.
(٤) سورة النمل/ ١٤.
(٥) سورة الكهف/ ٨٨.
(٦) سورة طه/ ٨٢.
(٧) سورة القصص/ ٨٠.

- ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[3].

٥- خلط المعاني:

وإزاء الخلط بين معاني اليقين، وتطبيقاتها، انطلق البعض من قوله تعالى: **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**؛ ليقول: إنّ (اليقين) - هنا - بمعنى (العلم)، وحرف (حتى) هو حرف للغاية، والمعنى: اعبد ربّك حتى تصل إلى مستوى اليقين، فالعبادة وسيلة لغاية هي اليقين، فإذا بلغت الغاية سقطت عنكَ الوسيلة، وهكذا توصّل إلى سقوط العبادة والتكليف!!:

«الشريعة مثل شمعة تضيء الدرب، ومن دون أن تأخذ شمعة لا يُسلك طريق، ولا يتحقق عمل، فإذا مضيتَ في الطريق فإنَّ مشيكَ هذا يُسمّى بـ (الطريقة)، فإذا وصلتَ إلى مقصدكَ فذلك (حقيقة)، لذلك قالوا: لو ظهرت الحقائق بطلت الشرائع.

- ثم يضيف - :

طلب الدليل بعد الوصول إلى المدلول قبيح، وترك الدليل قبل الوصول إلى المدلول مذموم، .....، حين يبلغ العارف مقام الاستغراق في التوحيد ومرتبة الجمع، ولا تحجبه أحكام الكثرة والتعيّنات عن مشاهدة الوحدة والإطلاق حيث يكون قد وصل إلى اللبّ الذي هو (الحقيقة) والكشف الحقيقي، هنالك يكسر القشر المتكثر وهو الشريعة التي هي أداة ووسيلة الوصول إلى الحقيقة، وينفصل اللبّ عنه، وإذا كان المجذوب صاحب سكر وفناء، فإنَّ التكاليف الشرعية تسقط عنه بصورة مطلقة»[4].

---

(١) سورة البقرة/ ٢٥.
(٢) سورة البقرة/ ٢٧٧.
(٣) سورة آل عمران/ ٥٧.
(٤) للتفصيل: راجع ما حكاه عنهم السيّد محمد تقي المدرسي في (العرفان الإسلامي: بين نظريات البشر وبصائر الوحي/ ٢٧٥).

ولمناقشة هذه الفكرة التي ذهب إليها بعض الصوفية نقول:

أ- إنّ الآية المستشهد بها على أنّ اليقين فيها بمعنى (العلم) بالطريقة التي فهموها، هو أول الكلام، فهي من الآيات المختلف على معنى اليقين فيها، وقد مرّ أن فسّرها الدامغاني والشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمعنى (الموت).

وهناك آيات قرآنية أخرى أطلقت (اليقين) على الموت: ﴿**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ**﴾[١].

وهذا يعني أنّنا لا نستطيع أن نقود لفظ آية مختلف على معناه إلى أحد تلك المعاني، ثمّ نرتب عليه النتائج، وعلى حسب تعبيرهم: «ثبّت العرش، ثمّ انقش»، و»لا نقش بلا عرش».

ب - لا يشك أحد من المسلمين أنّ النبي محمداً ﷺ بلغ الدرجة العليا في الإيمان والعلم (اليقين)، لكنّه مع ذلك كلّه لم يترك العبادة والتكاليف الشرعية، حتى قال الله له: ﴿**طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[٢]، ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ**﴾[٣].

وعلي عليه السلام الذي كان يقول: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»، كان يعبد الله ويصلي له حتى آخر لحظة من حياته الطاهرة حين ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف على رأسه الشريف وهو يصلي في محراب الكوفة[٤]؛ لأنّ «المؤمن يرى يقينه في عمله، والكافر إنكاره في عمله»[٥].

ج - إنّ العبادات أسباب لحصول اليقين وبقائه معاً، ومن دونها يتلاشى اليقين ويزول، فكما يحتاج (اليقين) إلى عوامل موجِدة، يحتاج إلى عوامل مبقية، فالإيمان صفة تأتي.. وتروح، ولا يعني الوصول إليها بقاؤها إلى الأبد: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ**﴾[٦]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ**

---

(١) سورة المدثر/ ٤٦- ٤٧.
(٢) سورة طه/ ١- ٢.
(٣) سورة المزمل/ ٢٠.
(٤) الأدلة مأخوذة من: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٨/ ١٠٩.
(٥) بحار الأنوار ٦٥/ ٢٩١- ٢٩٢، الباب ٢٤، ح ٥١.
(٦) سورة المنافقون/ ٣.

ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾[١].

وهـذا يعني أنّه لا إيمان من دون عبادة وعمل بالتكليف الشـرعي، وأنّ ترك العبادة والتكليف ينقض الإيمان من أساسه فضلاً عن اليقين الذي هو الدرجة العليا منه.

د- وكما أنّ الإيمان وجوداً وبقاء يحتاج إلى العمل، فإنّ الرقيّ في درجاته والارتفاع في سـلّمها، والتدرج في مراتب الكمال.. هو الآخر يحتاج إلى العمل، فدرجات الكمال لامتناهيـة، وكلّمـا بلغ المؤمن إحداها وجـد أخرى فوقها، وهذا مـا يجعل بعض الآيات القرآنيـة تخاطـب المؤمنيـن فتأمرهم بالإيمان: **﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُـولِهِ وَالْكِتَـابِ الَّـذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُـولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِـن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّـهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾**[٢].

وما دامت الآية قد أثبتت لهم صفة الإيمان حين خاطبتهم بـ**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾**، فمـا معنـى أمرهم بالإيمـان إذاً؟!، وهل تأمرهـم بتحصيل حاصـل، و(تحصيل الحاصل محال)؟!

وهـذا مـا يعيدنا إلـى أول البحث: فالآيـة تخاطب الذيـن وصلوا إلى مسـتوى في الدين، ثمّ تطلب منهم أن يحققوا المستوى الذي يليه:

فتخاطب المسـلمين أن يحققوا الإيمان، أو تخاطب المؤمنين أن يحققوا التقوى، أو تخاطـب المتقيـن أن يحققـوا اليقين، ولعلّ هذا ما يشـير إليه قوله تعالـى: **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**[٣].

وإسقاط العبادة والتكليف يحول دون الرقيّ في معارج الكمال، «ومن المعلوم أنّ تجويز ارتفاع التكليف عن الإنسـان الكامل ملازم لتجويز تخلّفه عن الأحكام والقوانين، وهو فيما يرجع إلى المعاملات يوجب فساد المجتمع، والعناية الإلهية تأباه. وفيما يرجع إلـى العبـادات يوجب تخلّـف الملكات عن آثارها فـإنّ الأفعال مقدّمـات مُعِدّة لحصول الملـكات ما لم تحصل، وإذا حصلت عادت تلك الملـكات آثاراً لها تصدر عنها صدوراً لا تخلّف فيه؛ ومن هنا يظهر فسـاد ما ربّما يتوهم أنّ الغرض من التكليف تكميل الإنسان

---

(١) سورة النساء/ ١٣٧.
(٢) سورة النساء/ ١٣٦.
(٣) سورة المائدة/ ٩٣.

وإيصاله غاية وجوده، فإذا كمُل لم يكن لبقاء التكليف معنى»[١].

هـ - ولأنّ لليقين مستويات ودرجات، فكلّ مستوى تترشح منه آثار ذات قدر، وكلّما صعد الإنسان في درجات اليقين ترشحت آثار أعظم، وهذا يعني أنّ الناس - حتى الأنبياء - يحتاجون إلى مواصلة الرقيّ في درجات الكمال ودرجات اليقين، ﴿**هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[٢].

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إنّ عيسى بن مريم كان يمشي على الماء، ولو زاد يقيناً لمشى في الهواء»[٣]، وقال حفيده الإمام الصادق عليه السلام: «اليقين يوصل العبد إلى كلّ حال سنيّ ومقام عجيب، كذلك أخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شأن اليقين حين ذُكر عنده أنّ عيسى بن مريم كان يمشي على الماء، فقال: لو زاد يقينه لمشى في الهواء»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «نوم على يقين خير من صلاة على شك»[٥]، «باليقين تتمّ العبادة»[٦]، «باليقين تدرك الغاية القصوى»[٧].

ويقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «ومن هنا يتضح خطأ ما نُقل عن بعض الصوفية من أنّ الآية أعلاه دليل على ترك العبادة، فقالوا: اعبد ربّك حتى تحصل على درجة اليقين، فإذا حصلتَ عليها فلا حاجة للعبادة بعدها»[٨].

٦- اليقين العقدي والشك العقدي:

ومن أهم الأمور التي طلب الدين من أتباعه أن يحصّلوا اليقين فيها: الأمور الاعتقادية، فهي أمور ليست للتقليد والاتباع، ولا يكفي فيها الشك والظنّ، ولذلك يتفاوت مستوى الناس في مدى ترسّخ قناعاتهم بالأمور العقدية، ويتوزّعون على أقسام

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٢/ ٢٠٠.
(٢) سورة الجاثية/ ٢٠.
(٣) بحار الأنوار ٦٧/ ١٧٩، الباب ٥٢، ح ٤٥.
(٤) نفسه ٦٧/ ١٧٩، الباب ٥٢، ح ٤٥.
(٥) نهج البلاغة/ ٤٨٥، قصار الحكم، الحكمة ٩٧.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم ١/ ٢٩١، ح ٢١.
(٧) نهج البلاغة/ ٢٢١، الخطبة ١٥٧.
(٨) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٨/ ١٠٩.

ودرجات: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾(١).

ومن الأمور الاعتقادية التي طالب الدين أتباعه ببناء صرح اليقين لها في القلب، وعدم تركه رهناً لعواصف الشك والوساوس والظنون والأوهام: عقيدة الإيمان باليوم الآخر: ﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(٢).

٧- زمان بلوغ اليقين:

وإذا كان هناك مَن يستطيع طيّ المراحل، وبلوغ اليقين والتنعّم بآثاره من لدن عالم الدنيا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٣)، فإنّ هناك مَن هو سادر في غياهب الغفلة والتيه، فلا يبلغ اليقين إلا وقد فاته سبيل التدارك، وقد يبلغه وهو في الآخرة، في حضرة الله تعالى، وقد انقضت الحياة الدنيا: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾(٤).

ولحظة الموت عند أكثر الناس هي لحظة الكشف وإزالة الحجب ومواجهة الحقائق التي طالما كذبوها في حياتهم: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٥).

---

(١) سورة المدثر/ ٣١.

(٢) سورة البقرة/ ٤.

(٣) سورة السجدة/ ٢٤.

(٤) سورة السجدة/ ١٢.

(٥) سورة ق/ ١٩- ٢٢.

المجال الثالث: الأداة

(ظنّ) في القرآن الكريم

مـن المفـردات التي تكررت كثيراً في القرآن الكريم (ظنّ)، والتي نريد – فيما يأتي – أن نتناولها بشيء من الاختصار.

معاني (ظنّ) في القرآن

وردت مادة (ظنّ) – بهيئاتها المختلفة – في القرآن الكريم حاملة معاني كثيرة، منها:

١- العلم واليقين:

يقـول الراغب الأصفهاني: من اليقين قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾[1]، ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾[4]،[5].

(١) سورة القيامة/ ٢٨.
(٢) سورة المطففين/ ٤.
(٣) سورة يونس/ ٢٤.
(٤) سورة ص/ ٢٤.
(٥) المفردات في غريب القرآن ٢/ ٤١٢.

وعدّ الدامغاني من العلم – كذلك – قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ﴾[١]، ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢]، [٣].

وعدّ ابن عقيل منها: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٤].

تنزيل الظنّ منزلة العلم:

هناك مواضع تُلحق بالعلم؛ لأنّه تمّ تنزيل (ظنّ) فيها منزلة العلم، والتعامل معها بوصفها حاملة لهذا المعنى، عدّ منها الراغب قوله تعالى عن فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾[٥]، ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[٦]، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٧]، ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾[٨]، وقال الراغب الأصفهاني: «أي اعتقدوا اعتقاداً كانوا منه في حكم المتيقنين»[٩].

وللتفريق بين كون (ظنّ) – في مورد ما.. – للعلم من طرف أو للمعاني الأخرى الآتية من طرف آخر، ذكر البعض ضابطين:

(١) سورة الحاقة/ ٢٠.
(٢) سورة البقرة/ ٢٣٠.
(٣) قاموس القرآن، أو: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم/ ٣١١.
(٤) سورة التوبة/ ١١٨.
(٥) سورة القصص/ ٣٩.
(٦) سورة الحشر/ ٢.
(٧) سورة فصّلت/ ٢٢.
(٨) سورة فصّلت/ ٢٣.
(٩) المفردات في غريب القرآن ٢/ ٤١٣، مادة: (ظنّ).

أ - أنّه حيث وُجد الظنُّ محموداً مثاباً عليه، فهو العلم واليقين، وحيث وُجد مذموماً متوعَّداً عليه، فليس بعلم.

ب- أنّ كلّ ظـنّ يتصـل بـ(أن) الخفيفة، فهو ليس للعلم، وكلّ ظـنّ يتصل بـ (أنّ) المشددة، فالمراد به العلم واليقين كقوله: ﴿**وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ**﴾، [١].

٢- الرجحان (الحسبان):

(الرجحان) هو: «التصديق الراجح وإن لم يبلغ حدّ الجزم والقطع»[٢]، أي هو غلبة طـرف على آخر، فيكون الغالب راجحـاً، وغيره مرجوحاً، ورأى محمد محيي الدين عبد الحميد أنّ «الأصل في (ظنّ) التي تنصب مفعولين أن تكون بمعنى الحسـبان، أي ترجّح أحـد الطرفيـن: النفي والإثبات، والمترجّح هو الطرف المذكـور في الكلام»[٣]، وعدّ ابن هشام هذا المعنى هو الغالب في استعمال (ظنّ) [٤].

وعدّ ابن هشام من (ظنّ) التي بمعنى الحسبان والترجيح قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[٥]، كما عدّ الدامغاني منه: ﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**﴾[٦]، أي حسـب أن لن يرجع، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَسْـتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[٧]،[٨].

٣- الشك:

(الشك): عبارة عن تساوي الطرفين في النسبة، وعدم ترجيح أحدهما على الآخر، وقد عدّ الدامغاني منه: ﴿**وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّـاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا**

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٢١٠.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ٢/ ٢٤٧.
(٣) جمال الدين بن هشام، شرح قطر الندى وبلّ الصدى/ ١٩٣، الحاشية (١).
(٤) جمال الدين بن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٢/ ٤٢.
(٥) سورة البقرة/ ٤٦، وانظر رأي ابن هشام في: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٢/ ٤٣.
(٦) سورة الانشقاق/ ١٤.
(٧) سورة فصّلت/ ٢٢.
(٨) قاموس القرآن، أو: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم/ ٣١٢، مادة: (ظنّ).

السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[١]، وفسّر معناها بـ «ما نشك إلا شكاً»[٢].

٤- الوهم:

(الوهم) هو: الطرف المرجوح غير الغالب، ويقابل الحسبان، الذي يمثّل الطرف الراجح الغالب، فحين يقف الحسبان في طرف، يقف على الطرف المقابل منه الوهم، ومن ثمّ فهما متلازمان في الأمور، وحيثما وُجد طرف في جهة وُجد الطرف الآخر في الجهة المقابلة.

ورجّح الراغب أن يكون منه: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[٣]، فقال: «قيل: الأولى أن يكون من الظنّ الذي هو التوهم»[٤].

٥- التهمة:

تأتي مادة (ظنّ) بمعنى اتهم، وقد عدّ الدامغاني منه قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾[٥]، و﴿**بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا**﴾[٦]، ﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ**﴾[٧]،[٨].

وقد أشار ابن مالك في ألفيته إلى مجيء (ظنّ) بمعنى (اتهم) فقال:

(لعلمِ) عرفانٍ، و(ظنٍّ) تُهَمَةْ تعديةٌ لواحدٍ ملتزَمَةْ[٩]

---

(١) سورة الجاثية/ ٣٢.
(٢) قاموس القرآن، أو: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم/ ٣١٢، مادة: (ظنّ).
(٣) سورة الأنبياء/ ٨٧.
(٤) المفردات في غريب القرآن ٢/ ٤١٣، مادة: (ظنّ).
(٥) سورة الأحزاب/ ١٠.
(٦) سورة الفتح/ ١٢.
(٧) سورة التكوير/ ٢٤.
(٨) قاموس القرآن، أو: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم/ ٣١٢، مادة: (ظنّ).
(٩) محمد بن عبد الله بن مالك، ألفية ابن مالك في النحو والصرف/ ٤٥، وابن عقيل، شرح ابن عقيل ١/ ٤٤٠.

وهو يشير إلى أنّ (عَلِمَ) إذا جاءت بمعنى (عرف)، كقولنا: (علمتُ زيداً)، أي عرفته، أو جاءت (ظنّ) بمعنى (اتهم)، كقولنا (ظننتُ زيداً)، أي اتهمته؛ فإنّ كلّ واحد من هذين الفعلين (عَلِمَ، ظنّ) ينصب مفعولاً واحداً فقط، ولا يتعدى لمفعولين، وقد مثّل ابن عقيل لمجيء (الظنّ) بمعنى (التهمة) بالآية السابقة: ﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ**﴾،[1].

وقد أورد الدامغاني وابن عقيل هذه الآية الشريفة وفيها ﴿**بِظَنِينٍ**﴾ - بالظاء -، وهي قراءة أهل البصرة غير سهل وابن كثير والكسائي[2]. وقراءة حفص بن سليمان عن عاصم بن أبي النجود عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي المروية عن عثمان وعلي، والمدوّنة في المصحف الشريف، وردت فيها كلمة ﴿**ضَنِينٍ**﴾ - بالضاد -، وقد أورد ابن منظور القراءتين كلاً في مادتها، فذكر الآية بالظاء من (ظنّ) بمعنى (اتهم) [3]، كما ذكرها بالضاد من (ضنّ) بمعنى (بخل) [4]، وإذا أخذنا بكونها (ضنين) ـ كما هو في المصحف - فلا شاهد لها في موضوع (ظنّ)؛ لأنّها من جذر لغوي آخر مختلف هو (ضنّ)، وستكون (خارجة تخصّصاً لا تخصيصاً).

٦- الضعف:

تأتي (ظنّ) بمعنى (ضعف)، وفي ذلك يقول الفرّاء: «ويُقال: ﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ**﴾، أي بضعيف، يقول: هو محتمل له، والعرب تقول للرجل الضعيف أو القليل الحيلةً: هو ظَنون، قال: وسمعتُ بعض قُضاعة يقول: ربّما دلّك على الرأي الظَنون؛ يريد الضعيف من الرجال»[5].

وقد سبق أن قلنا: إنّ الآية وفق قراءة حفص الشائعة في تدوين المصحف الشريف جاءت بالضاد ﴿**بضَنِينٍ**﴾، وإنّما يتمّ الشاهد للفرّاء على نطقها بالظاء ﴿**بِظَنِينٍ**﴾، الموافقة لقراءة أهل البصرة غير سهل وابن كثير والكسائي.

---

(١) شرح ابن عقيل ١/ ٤٤٠.
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، م ٥، ج ١٠، ص ٦٧٥.
(٣) لسان العرب ٨/ ٢٧٢، مادة: (ظنّ).
(٤) نفسه ٨/ ٩٤، مادة: (ضنّ).
(٥) يحيى بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار ٣/ ١٣٥.

٧- الكذب:

وأضاف الشيخ فخر الدين الطريحي للمعاني السابقة مجيء (ظنّ) بمعنى (كذب)، وعدّ منه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[١]، وعلّق على ذلك بأنّ «معناه: إن هم إلا يكذبون»[٢].

ملاحظات:

١- المعنى اللغوي والمعنى القرآني:

ذكر الفيروزآبادي في معرض ذكره لمعاني (ظنّ) أنّها تأتي بمعنى: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم، وقد يوضع موضع العلم، كما تُستعمل بمعنى اتهم، وبمعنى ضعف وقلّتْ حيلته[٣].

وذكر ابن منظور من معانيها: الشك، واليقين، والتهمة، والضعف، وما لا يوثق فيه[٤].

فالمعاني التي خُرّجت عليها الآيات السابقة موافقة للمعاني المعجمية الواردة في قواميس اللغة.

٢- الاستعمال القرآني/ والاستعمال الاصطلاحي:

مما سبق رأينا أنّ مادة (ظنّ) تُستعمل في القرآن الكريم بمعاني كثيرة منها: (اليقين، والرجحان، والشك، والوهم، والتهمة، والضعف، والكذب)، لكنّ الاستعمال المعاصر والمتداول في الكتب العلمية اليوم يخصّصها بالرجحان (الحسبان)، وهو حصر مستحدث لا يقتصر المعنى اللغوي والقرآني عليه، ومن ثمّ ينبغي الانتباه إلى عدم حصر هذه المادة عند ورودها في الاستعمال القرآني على معنى الرجحان بعينه إلا إذا توفرت القرائن الدالة

---

(١) سورة البقرة/ ٧٨.
(٢) مجمع البحرين ٦/ ٢٧٩، مادة: (ظنّ).
(٣) القاموس المحيط ٤/ ٣٤٨، مادة: (ظنّ).
(٤) لسان العرب ٨/ ٢٧١- ٢٧٣، مادة: (ظنّ).

عليـه؛ لأنّ الرجحـان أحد المعاني الواردة لها في القرآن، وليـس المعنى الوحيد لها حتى تُحمل دوماً عليه.

فـ(الظنّ) - في الاستعمال القرآني - لا يكون دوماً بمعنى الرجحان، وإنّما يكون أحيانـاً بهـذا المعنى، والتوحيد بين (ظنّ) وبين هذا المعنى هو حمل للاستعمالات على معنـى واحد مـن معانيها، وهو حمـل للمعنى الاصطلاحي اللاحق علـى المعنى اللغوي والقرآني السابق.

٣- الاختلاف في المعاني:

يختلف اللغويون والمفسّرون في تطبيق المعنى على الآية، فقد ترد مادة (ظنّ) في آية، ويحملها بعضهم على معنى، في حين يحملها آخرون على معنى آخر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾، التي حملها ابن هشـام - كما مرّ - على الحسبان (الترجيح). وحملها السـيّد الطباطبائي على اليقين[1].

والآيـة التي قبل هـذه الآية تقـول: ﴿**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾[2]، فهي في سياق الحديث عن الخاشعين، ومن ثمّ جاء التساؤل: هل يصف الله هؤلاء الخاشـعين بأنّهم يظنون - بمعنى الرجحان - بملاقاة الله والرجوع إليه (المعاد)، وهل يصحّ منهم عدم الجزم واليقين في هذا الأمر الاعتقادي الضروري؟!

وقد تضافرت العديد من الإجابات لحلّ هذا الإشكال، بعضها استند إلى رواية عن أميـر المؤمنين علي عليه السلام لهذه الآية، يقول فيها: «يعني: يوقنون أنّهم يُبعثون ويُحشـرون ويُحاسبون ويُجزَون بالثواب، والظنّ هاهنا اليقين»[3].

وبعد أن فسّـر السـيّد الطباطبائي الآيـة باليقين، وجّه القول بالظـنّ - على القول به - بـأنّ معناه أنّ نفوسـهم تدرّجت في الإحسـاس بذلك من شـك إلى رجحـان إلى يقين؛ وأنّهـا بمجـرّد الرجحان ابتعـدت عن المخالفة للـه: «هذا المورد - أعني مـورد الاعتقاد بالآخرة على أنّه مورد اليقين لا يفيد فيه الظنّ والحسبان الذي لا يمنعهم من النقيض، قال

(١) الميزان في تفسير القرآن ١/ ١٥٢.
(٢) سورة البقرة/ ٤٥.
(٣) البرهان في تفسير القرآن ١/ ٣٧٨- ٣٧٩، ح ٤٦٤.

تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[١]، ويمكن أن يكون الوجه فيه: الأخذ بتحقق الخشوع؛ فإنّ العلوم التدريجية الحصول من أسباب تدريجية تتدرّج فيها النفس المدركة من تنبّه وشك، ثمّ ترجّح أحد طرفي النقيض، ثمّ انعدام الاحتمالات المخالفة شيئاً فشيئاً حتى يتمّ الإدراك الجازم وهو العلم، وهذا النوع من العلم إذا تعلّق بأمر هائل موجب لاضطراب النفس وقلقها وخشوعها إنّما تبتدئ الخشوع الذي معه من حين شروع الرجحان قبل حصول الإدراك العلمي وتمامه، ففي وضع الظنّ موضع العلم إشارة إلى أنّ الإنسان لا يتوقف على زيادة مؤونة على العلم إن تنبّه بأنّ له رباً يمكن أن يلاقيه ويرجع إليه....؛ لأنّ الظنّ يكفيهم في الانقلاع عن المخالفة»[٢].

ذاك عن المؤمنين الخاشعين، وإذا ارتقينا في سلّم الإيمان فسنقف عند النبي يونس عليه السلام الذي قالت الآية الكريمة عنه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وسواء أفسّرنا (الظنّ) هنا بالعلم أم الرجحان أم الشك، فهل يليق بنبي أن يصدر منه ظنّ – بهذه المعاني – أنّ الله لا يقدر عليه؟!

هذا ما بعث الراغب الأصفهاني في نصّه السابق للقول: «قيل: الأولى أن يكون من الظنّ الذي هو التوهم»، أي أنّه لجأ إلى أقلّ معاني المستوى المعرفي الذي تفيده؛ فأبعد أن يكون المقصود منها العلم أو الرجحان أو الشك، وأبقى التوهم الذي هو أقل من مستوى الشك. ولكن.. هل يليق أن يتوهم نبي أنّ الله لا يقدر عليه؟!

لقد فسّر الإمام الباقر عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بأنّه «ظنّ أن لن يُعاقب بما صنع»[٣]، أي ما فعل من هجرانه لقومه وتركهم؛ لإمعانهم في المعاصي.

وهذه الرواية لم تتصرّف في معنى (ظنّ)، لكنّها فسّرت عدم القدرة في ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، بمعنى عدم المعاقبة على فعله، وليس بمعنى عدم الاستطاعة والسيطرة.

وقد سأل المأمونُ العباسي الإمامَ الرضا عليه السلام: أخبرني عن قول الله – عزّ وجلّ – عن هذه الآية، فقال الرضا عليه السلام: «إنّما ظنّ بمعنى استيقن أنّ الله لن يضيّق عليه رزقه، ألا تسمع قول الله – عزّ وجلّ –: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾[٤]، أي ضيّق عليه.

---

(١) سورة البقرة/ ٤.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١/ ١٥٢.
(٣) البرهان في تفسير القرآن ٦/ ٤٩٥، ح ٧١٨٧.
(٤) سورة الفجر/ ١٦.

ولو ظنّ أنّ الله لن يقدر عليه لكان قد كفر»(١).

وهذه الرواية فسّرت (الظنّ) باليقين، وفسّرت عدم القدرة بعدم التضييق..

ويقول السيّد الشريف المرتضى: «وأما قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، فمعناه: أن لا نضيّق عليه المسلك، ونشدّد عليه المحنة والتكليف؛ لأنّ ذلك [الظنّ أنّ ربه لا يقدر عليه من جهة القدرة التي يصحّ بها الفعل] مما لا يجوز أن يظنّه النبي، ولا شبهة في أنّ قول القائل: قدرتُ، وقدّرتُ.. معناه التضييق، قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ﴾(٣)، أي يوسّع ويضيّق، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾، أي ضيّق. والتضييق الذي قدّره الله عليه وهو ما لحقه من الحصول في بطن الحوت، وما ناله في ذلك من المشقة الشديدة إلى أن نجّاه الله تعالى منها»(٤).

وبالمعنى المذكور خرّج الآية السيّد الطباطبائي، والشيخ محمد جواد مغنية(٥).

وقد ذكر الفخر الرازي للآية ستة حلول هي:

أ- الحلّ السابق الذي يرى أنّ قوله تعالى: ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بمعنى (لن نضيّق عليه)، واستدلّ بالآيات ذاتها.

ب- أن يكون من باب التمثيل، بمعنى: فكانت حالته ممثّلة بحالة من ظنّ أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه.

ج- أن تُفسّر القدرة بالقضاء، فالمعنى فظنّ أن لن نقضي عليه بشدة.

د- أن تُفسّر بمعنى الفعل، أي فظنّ أن لن نفعل؛ لأنّ بين القدرة والفعل مناسبة، فلا يبعد أحدهما مجازاً عن الآخر.

هـ- أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ، معناه: أفظنّ أن لن نقدر عليه؟!

و- أن يكون ذلك من يونس قبل تلقيه الرسالة، على رأي مَن يرى أنّ الرسل قبل بعثتهم قد تسبق إليهم وسوسة الشيطان!!(٦).

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٦/ ٤٩٤، ح ٧١٨٥.

(٢) سورة الطلاق/ ٧.

(٣) سورة الرعد/ ٢٦.

(٤) السيّد الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء/ ١٤٠.

(٥) انظر: الميزان في تفسير القرآن ١٤/ ٣١٤، والتفسير الكاشف ٥/ ٢٩٦.

(٦) تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتح الغيب)، م ١١، ج ٢٢، ص ٢١٥.

ويقول سيّد قطب: «.... فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه؛ فضاق بهم صدراً، وغادرهم مغاضباً، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم، ظاناً أنّ الله لن يضيّق عليه الأرض، فهي فسيحة، والقرى كثيرة، والأقوام متعددون، وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة، فسيوجّهه الله إلى قوم آخرين..، ذلك معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي أن لن نضيّق عليه»[1].

اشتقاقاتها وهيئاتها

وردت مادة (ظنّ) في القرآن الكريم باشتقاقات وهيئات مختلفة موزّعة على الصيغ الفعلية والاسمية:

أولاً: الصيغ الفعلية:

وقد وردت في القرآن الكريم لمادة (الظنّ) الكثير من الصيغ الفعلية:

١- صيغ الفعل الماضي:

وهنا تدلل (ظنّ) - ضمن معناها اللغوي - على حصول الحدث وتحققه في الماضي.

- ظنَّ:

﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[2].

فالآية تطلب من المؤمنين أن يحملوا الظنّ الحسن عن أنفسهم، وتشكيل رؤية صالحة وفاعلة عن الذات، وترك التشكيك في الذات، أو حمل الاعتقاد غير الحسن عنها؛ لما لذلك الظنّ الحسن من دور عميق في إنشاء الأخلاقيات الحسنة والكمالات وترسيخها؛ تأسيساً على مبدأ تربوي يؤمن بأنّ فكرة الإنسان أو الجماعة أو المجتمع عن نفسه واحد من أهم عناصر النجاح في حياة الفرد والجماعة والمجتمع، ومن أهم العناصر المحرّكة نحو تحقيق الطموح المرتجى.

فالمرء أو الجماعة أو المجتمع الذي يظنّ عن نفسه أنّه غبي وسيء ومنحرف

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٣.

(٢) سورة النور/ ١٢.

وكسول، سيترشح من قناعاته تلك عن ذاته استسلام لتلك القناعات وآثارها، وسماح للفعل المناسب لها بالبروز والتحقق، ومن ثمّ ينعدم عنده التحرّك نحو الخير والطموح له؛ لقناعته أنّه لا يُرتجى منه ذلك، ولا يتحقق منه ذلك!!، فيكون فعله ترسيخاً للواقع السيء، وقتلاً للطموح والتغيير المنتظر، وذاك مخالف تماماً لصورة من يمتلك فكرة حسنة عن نفسه.

وقد جاء الفعل الماضي (ظنّ) في هذه الآية غير متصل بشيء، وفاعله (المؤمنون) الذين طُلب منهم حمل الاعتقاد الحسن عن أنفسهم.

- **ظننتُ:**

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ﴾(١).

فالمؤمن الذي يحكي المشهدُ حسابَه في الآخرة، وتلقيه كتابه بيمينه، لم يكن ذاك الأمر غائباً عن باله من لدن الدنيا، بل.. كان يحمل المعاد والحساب في صميم قلبه وضميره ويرتجيه، وقد ورد في الآية الثانية كلمة (ظننتُ)، واتصل الفعل الماضي (ظنّ) بضمير الرفع المتحرّك: تاء المتكلم؛ للدلالة على أنّ القناعة بذلك اليوم لم تنشأ في الآخرة وإنّما كانت لديه من زمن مضى هو زمن الدنيا.

- **﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾**(٢).

والآية تحكي القوة والمنعة التي كان عليها يهود بني النضير في المدينة، تلك التي دفعتهم إلى الغرور بقوتهم إلى درجة اعتقادهم بعدم إمكان إخراجهم من حصونهم العتيدة، بل.. وسريان ذاك الاعتقاد إلى بعض المؤمنين نتيجة ما يرونه من عناصر قوة ماثلة للعيان، وقد دفع ذلك هؤلاء اليهود إلى خيانة العهد مع النبي ﷺ، ونقض المواثيق التي أبرموها معه، والتآمر مع قريش لقتله والسعي العملي لذلك؛ عبر محاولة اغتيال تستهدف رمي حجر عليه من أعلى سطح بينما كان جالساً بالقرب من أحد حوائطهم (بساتينهم)(٣).

(١) سورة الحاقة/ ١٩- ٢٠.
(٢) سورة الحشر/ ٢.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٨/ ١٥٥- ١٥٦.

وفـي هذه الآيـة الكريمة وردت كلمة (ظننتم)، فاتصل الفعـل الماضي بتاء الفاعل وميـم الجمع؛ لتحكي صدور ذاك الاعتقاد من المؤمنين، ووردت (ظنّوا)، واتصل الفعل الماضي بواو الجماعة؛ لتحكي صدور ذاك الاعتقاد من اليهود.

- ظننّا:

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[١].

والآيـة تحكي تعجّب مؤمني الجنّ من الكذب الـذي يختلقه بعض الإنس والجنّ على الله، وفي كلمة (ظننّا) الواردة في هذه الآية اتصل الفعل الماضي بضمير رفع متحرّك هو: ناء المتكلمين، يعود إلى مؤمني الجنّ.

- ظنّوا:

﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

فمـن صلافـة بني إسـرائيل أنّهم لم يكونـوا يعملون بهدايـات وقوانيـن التوراة إلا تحـت وقـع التخويف والتهديد، حتى رفع الله الجبل فوقهم يخيفهم بالسـقوط عليهم إن لم يعملوا بها، وقد كان ذاك المشهد يخيّم عليهم حالة مستغرقة من الخوف إلى حدّ الظنّ بأنّـه قـد يقع عليهم، وفي قوله تعالى: ﴿ظَنُّواْ﴾ اتصل الفعل الماضي بواو الجماعة، دلالة على صدور ذاك الاعتقاد منهم فعلاً، وأنّهم كانوا يظنون أنّ الجبل سيسقط عليهم، فكانوا في حالة فزع وذعر.

٢- صيغ الفعل المضارع:

وإذا كان الفعل الماضي يفيد التحقق والحصول، فإنّ الفعل المضارع يفيد حصول الأمر حال الكلام أو بعده؛ لدلالته على الحال أو الاستقبال، وقد وردت في القرآن الكريم العديد من صيغ الفعل المضارع:

---

(١) سورة الجنّ/ ٥.
(٢) سورة الأعراف/ ١٧١.

- أظنّ:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾(١).

وتوضّح لنا عبارات ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾: الفهم المنحرف الخاطىء للنعمة، الذي يدفع للغرور، والأنس بالطبيعة إلى حدّ ظنّ دواميّتها وخلودها، ونكران الآخرة، وقياس الآخرة على الدنيا، وأنّ المنعَّم ما دام في هذه الدار يملك الجنان والخيرات، فإنّ مصيره في الآخرة سيكون - لا محالة - أفضل من ذلك!!

ومن ثمّ دأب صاحب هذا الفهم المنحرف على تكرار الفعل المضارع المقرون بـ(ما) النافية (ما أظنّ/ ما أظنّ)؛ ليفيد أنّ ذاك الفهم المتجدّد الحدوث والمتواصل الحركة لن ينتقل لصورة الإثبات ولن تتغيّر فيه القناعات، فهي قناعات راسخة قطعية، تتواصل مع الطبيعة والنعمة، وتنقطع عن ربّ الطبيعة والمنعِم، لتفصل النعمة عن محورها الأساس (الله)، وتربطها بمحور بديل تتعملق فيه الذات، وهو شعور تتضخم فيه الأنا الفردية المغرورة بالذات وممتلكاتها لتنطلق ملء حنجرتها صيغ المتكلم (أظنّ/ أظنّ/ رددتُ/ لأجدنّ)، ومن ثمّ وردت كلمة (أظنّ) مرتين فعلاً مضارعاً مبدوءاً بهمزة المتكلم؛ لتأكيد تجدد القناعات، وإبراز الفردية.

- تظنّ:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾(٢).

وإذا كنّا رأينا في حديث صاحب الجنتين غروراً جعله يكرّر (ما أظنّ)، وهو معتزّ بالدنيا التي سدّت عليه منافذ الرؤية، فإنّ هذه الآية ترينا مشهداً من مشاهد القيامة، وكيف ستقف وجوه العصاة عابسة تترقب عذاباً قاصماً يفصم عرى الظهر، فأعمالها السيئة التي قدّمتها من عالم الدنيا إلى الآخرة تجعلها تظنّ حلول ذاك العذاب الشديد عليها، إنّها ترى التقابل بينها وبين جماعة أخرى ذات وجوه نضرة، تترقب فضل الله وثوابه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٣)؛ فينطلق التعبير بلغة الجسد من الجماعة العاصية ليخيّم

---

(١) سورة الكهف/ ٣٥- ٣٦.
(٢) سورة القيامة/ ٢٤- ٢٥.
(٣) سورة القيامة/ ٢٢- ٢٣.

العبوس والتقطيب والشحوب على وجوهها، مصحوباً بفعل قلبي ذهني يجعل الخواطر السيئة تجوس وتجول في داخلها، فيأتي الفعل المضارع (تظنّ)، مبدوءاً بتاء الغائب، وفاعله (هي)؛ ليعبّر عن تصوراتها وظنونها كجماعة بائسة في مقابل جماعة رابحة.

- تظنون:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١).

يعيش الإنسان مدة في الحياة الدنيا، ثمّ ينطلق إلى عالم البرزخ، ثمّ تأتي الدعوة الإلهية من الله للحشر والمعاد، فيقارن الناس - والحديث في هذه الآية عن الكفار - بين مدة لبثهم في الدنيا وطول الآخرة، أو بين مدة مكثهم في سنيّ البرزخ التي قضوها في القبر أو غيره وبين عالم الآخرة الذي لا ينقضي، فتتضاءل الأوهام والظنون، ويظنون - ولو عمروا القرون الطوال - أنّهم لم يلبثوا إلا قليلاً، إنّ قياس المحدود المتناهي - ولو كان آلاف السنين - باللامحدود اللامتناهي، يحيل المحدود ضئيلاً، فيأتي التصور المنطلق من الكفار في هذه الآية ليكون تصوراً مجموعياً مشتركاً يحكيه الفعل المضارع المبدوء بتاء الخطاب، المتصل بواو الجماعة، وهو فعل من الأفعال الخمسة ﴿تَظُنُّونَ﴾؛ للتعبير عن ذاك التصور المجموعي.

- نظنّ:

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾(٢).

وفي هذه الآية يطلق القرآن الكريم مجال الحرية للكافرين ليعبّروا عن تصوراتهم تجاه الرسول والمؤمنين؛ ليكشفوا دخائلهم النفسية وقناعاتهم، فإذا بالوجهاء وعلية القوم (الملأ) يخاطبون نبيّهم المرسل لهدايتهم - وهو هنا النبي نوح - بلغة حادة، ويقولون له: إنّنا لا نؤمن بك لأمور منها: أنّك بشر مثلنا، لستَ ملاكاً، ولا ذا طبيعة فائقة، وأنّ الذين أسرعوا للإيمان بك هم الحقراء من الشباب المتسرّعين الشغوفين بالظواهر، الذين يهيمون بالأمر لأول نظرة يرونه فيها، ونحن لا نرى لكم مزية وفضلاً علينا، وإنّما نصنّفكم في دائرة الكذابين المدجلين!!

---

(١) سورة الإسراء/ ٥٢.

(٢) سورة هود/ ٢٧.

وفـي ذيل هذه الآية يرد الفعـل المضارع (نظنّ)، مبدوءاً بنـاء التكلم، ليحكي الرؤية المجموعية للكافرين تجاه المؤمنين، وهي رؤية هجومية حادة لا سيما مع الخطاب المباشر مع المقصودين مباشرة، وفي وجوههم، ودون أدنى أدب ومجاملة: ﴿نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾!!

- يظنّ:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾(١).

لقد كان البعض يظنّ أنّ الله لن ينصر رسـوله محمداً في حروبه ضد المشـركين؛ إما شـكاً في الله، وخوفاً على ضياع أحلافهم مع اليهود حينئذ، وإما اسـتبطاء في إنزال الله ذلك النصـر الماحق للمشـركين، وهو فـي كلتا الحالتين دليـل على ضعف إيمـان هؤلاء، وعلى وجـود مسـتوى عال من تفجّـر الغيظ تجاه الله!!؛ ممـا حدا بالآية أن تطلـب منهم أن يمدوا الحبال لأعلى سـقوف بيوتهم أو للسـماء، ويعلقوها في رقابهم كرغبـة نحو الانتحار؛ ليروا هـل هذا الفعل السـاخط يُذهب غيظهم ويمتصّه أم لا؟، وقـد ورد الفعل (يظنّ) هنا، مبدوءاً بياء الغائب المفرد، وفاعله المستتر يعود على الاسم الموصول (مَن) الذي يجوز استخدامه للمفرد والمثنى والجمع؛ ليعبّر عن هؤلاء الساخطين وصورتهم المأزومة الحانقة.

- يظنون:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾(٢).

هؤلاء الدهريون لا يؤمنون بالمعاد، ولا يرون شيئاً بعد هذه الدنيا، وبعد أن نقلت الآية قولهم، عقّبت على ذلك بأنّه تخرص من دون علم، وهو إعمال للأوهام الخاوية (الظنون)، فجاء الفعل (يظنون) في ذيل الآية مبدوءاً بياء الغائب، متصلاً بواو الجماعة؛ لإفادة الجمع، وهو من الأفعال الخمسـة، وهذا الفعل المعبّر عن الجماعة يدلل على أنّ الدهرية كانوا فئة، ولـم يكـن هذا اعتقاد شـخص واحد فقط آنذاك، ثـمّ إنّ القرآن يؤكد لهـم عبر صيغة الحصر المكوّنة من (إن) النافية، و(إلا) الاستثنائية أنّ ما هم عليه ليس إلا تخرّصاً.

ومعنـى هـذا: أن صيغ الأفعـال المضارعة الأربعـة المبدوءة بأحـد أحرف (أنيت)

(١) سورة الحج/ ١٥.
(٢) سورة الجاثية/ ٢٤.

جميعاً قد وردت في مادة (الظنّ) في القرآن الكريم، فجاءت في الآيات السابقة: (أظنّ/ نظنّ/ تظنّ/ يظنّ)، كما وردت بعض صيغ الأفعال الخمسة (تظنون/ يظنون)، ويحكي ذلك صدور تلك الظنون من المتكلم والمخاطب والغائب.

٣- صيغ فعل الأمر:

لم يرد في القرآن الكريم أيّ فعل أمر من مادة (ظنّ)، ربّما لأنّ القرآن بشكل عام يسعى أن يسير الإنسان نحو أعلى مدى معرفي وأن يأخذ بالعلم واليقين، ولا يكتفي بالظنّ، ومن ثمّ لم يطلب القرآن منهم إنشاء الظنّ وتأسيسه عبر فعل الأمر.

ثانياً: الصيغ الاسمية:

فقد وردت في القرآن الكريم الصيغ الاسمية التالية:

- الظنّ:

﴿أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[1].

وذيل هذه الآية ورد فيه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، وقرنت (الظنّ) بالتخرّص؛ مما يعني أنّ الآية تقصد من (الظنّ): الوهم والادعاءات الجوفاء التي لا ترتكن إلى دليل معتبر، كما جاءت الآية حاملة أسلوب القصر المعتمد على النفي والاستثناء (إن وإلا)؛ لتدلّ على أنّ أفكارهم تلك لا يركنون فيها إلا للتخرّصات الجوفاء، وجاءت كلمة (الظنّ) هنا مصدراً معرّفاً بـ (أل).

- ظنّاً:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[2].

وتقع هذه الآية في سياق ذمّ العادة الجارية عند الكفار من الاتكاء في عقائدهم

---

(١) سورة يونس/ ٦٦.

(٢) سورة يونس/ ٣٦.

على الظنون (الأوهام والتخرّصات) التي لا تغني عن الحقّ شيئاً، وفي هذه الآية وردت مادة (الظنّ) في صيغتين اسميتين، هما: (ظناً)، و(الظنّ)، وكلاهما مصدر، بيد أنّ الأولى جاءت نكرة، والثانية معرّفة بـ (أل)، وكأنّ الأولى تضعّف قيمة ذاك الذي يعتمدون عليه، فهو ليس إلا (ظنّاً) مبهماً، بينما تعطي الثاني بتعريفها (الظنّ) قاعدة عامة، فـ (ال) الموجودة فيها للاستغراق الذي يحوي كلّ أنواع الظنون غير المعتبرة، وأنّها جميعاً لا تغني عن الحقّ شيئاً.

- **الظنون:**

﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(1).

تعرّض المؤمنون في معركة الأحزاب (الخندق) إلى امتحان عظيم، فهاهم يرون القبائل (الأحزاب) قد تجمهرت للقضاء على شوكة المسلمين في المدينة، ويرون جحفل الكفر يسدّ الآفاق كثرة وقوة وسلاحاً، فالتهبت في نفوس المسلمين نيران الخوف والقلق، ولعبت في أذهان بعضهم رياح الوساوس، فراحوا يظنون بالله الظنون!!

«ربّما كان بعضهم يفكّر ويظنّ بأنّنا سنُهزم في نهاية المطاف، وينتصر جيش العدو وهو بهذه القوة والعظمة، وأنّ أواخر أيام الإسلام قد حلّت، وأنّ وعود النبي ﷺ بالنصر سوف لا تتحقق مطلقاً!!

من الطبيعي أنّ هذه الأفكار لم تكن عقيدة، بل.. كانت وساوس حدثت في أعماق قلوب البعض»(2).

وكلمة (الظنون) في ختام الآية جمع تكسير للكثرة (فعول)، يدلّ على أنّ كثيراً من تلك الأفكار والوساوس جالت في القلوب، ووقعت كلمة (الظنون) مفعولاً به أول منصوباً على الفتح للفعل (تظنون)، والألف التي في آخر (الظنونا) هي (ألف الإطلاق) التي تتبع الفتحة الواردة في كلمات القافية، وهو أمر متبع في الشعر دون النثر، لكنّ الرسم القرآني لهذه الكلمة دوّنها بهذه الطريقة.

---

(1) سورة الأحزاب/ ١٠.

(2) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٣/ ١٦٧.

- **الظانين:**

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(١).

وكلمة (الظانين) جمع مذكر سالم لاسم الفاعل (ظانّ)، وهي صفة للمنافقين والمشركين الذين تساور أذهانهم الظنون السيئة بالله تعالى، فالمنافقون والمشركون لم ينفذ الإيمان - ومن ورائه التسليم والثقة بالله - إلى قلوبهم، ومن ثمّ فالظنون السيئة تصول في قلوبهم، وتساورهم الظنون تجاه العقائد الدينية كلّها حتى المثل الأعلى الأقدس فيها وهو الله!!

- **ظنين:**

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾.

وعلى هذه القراءة البصرية التي سبق أن عرضناها تكون كلمة (ظنين) صفة مشبهة باسم الفاعل، مشتقة من الثلاثي (ظنّ)، بمعنى (اتهم)، ووزنها (فعيل)؛ بما يجسّد شهادة من الله سبحانه بأمانة نبيّه الكريم محمداً ﷺ في صدق علاقته بالغيب وإخباره عنه، ومن أجلى مصاديق ذاك الغيب صدق حمله للرسالة والنبوة، وصدق تلقيه للوحي وتبليغه له، وخطل تلك الاتهامات التي تَنسب للنبي تقوّله على الوحي - كما مرّ في قصة الغرانيق -، أو التي تَنسب للنبي نسيانه لبعض الآيات، فالآية شاهد إلهي لما نسمّيه (العصمة الرسالية): تلقياً وحفظاً وتبليغاً.

حالات (ظنّ) وعملها

(ظنّ) واحد من أفعال أصطلح عليها النحاة في اللغة العربية بـ (الأفعال القلبية)، أو (أفعال القلوب)؛ «سُمّيت بذلك؛ لأنّ معانيها قائمة بالقلب، متصلة به، وهي المعاني النفسية التي تُعرف اليوم بـ (الأمور النفسية)، ويسمّيها القدماء (الأمور القلبية)؛ لاعتقادهم أنّ مركزها القلب، ومنها الفرح، الحزن، الفهم، الذكاء، اليقين، الإنكار...» (٢).

ولهذه الأفعال - ومنها (ظنّ) - ثلاث حالات:

(١) سورة الفتح/ ٦.

(٢) عباس حسن، النحو الوافي ٢/ ٤، الحاشية (٤).

١- الإعمال:

والمقصود بـ(الإعمال): أن ينصِب الفعلُ القلبي - كـ (ظنّ) - المفعولين لفظاً[١].

وهذه هي الصورة الأساسية للفعل (ظنّ)، وهي كونه فعلاً تاماً من أفعال القلوب، عاملاً: يرفع فاعلاً، وينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، ففي قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾[٢]، وردت جملة ﴿**نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾، وفيها (نظنّ) فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر، وكاف المخاطب: ضمير متصل مبني في محلّ نصب مفعول به أول، و(الميم): حرف للجمع لا محلّ له من الإعراب، و(كاذبين): مفعول به ثاني منصوب على الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنّه جمع مذكر سالم، وأصل الجملة الاسمية ذات المبتدأ والخبر هو (أنتم كاذبون).

وفي مقابل الصورة الأساسية هناك صور فرعية تأتي فيها (ظنّ) بمعنى فعل ناصب لمفعول واحد؛ فتأخذ حكمه في نصب مفعول واحد فحسب، ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه في مجيء (ظنّ) بمعنى (اتهم)، وإشارة ابن مالك إلى نصبها مفعولاً واحداً، كقوله تعالى: ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾، فـ(الظنون) مفعول به منصوب للفعل (تظنون)، وقد اكتفى هذا الفعل بمفعول واحد.

٢- التعليق:

وهو إسقاط عمل الفعل القلبي في اللفظ، وإبقاء عمله في المحلّ؛ وذاك لوجود مانع من العمل في اللفظ، والمانع هو مجيء ما له صدر الكلام بعد هذه الأفعال مثل: إن النافية، لا النافية، ما النافية، لام الابتداء، لام القسم، كم الخبرية، أداة الاستفهام (حرفاً أو اسماً)، لو، لعلّ[٣].

ولأنّ ما له الصدارة لا يعمل ما قبله فيما بعده، أسقطوا عملها لفظاً، وبقي عملها

(١) محمد الأنطاكي، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ٢/ ٤٢.
(٢) سورة هود/ ٢٧.
(٣) شرح قطر الندى وبلّ الصدى/ ١٩٩- ٢٠٠، وأحمد الهاشمي، القواعد الأساسية/ ١٨١- ١٨٢.

محـلاً، فيُعرب ما بعدها إعرابه التفصيلي الذي يقتضيه، ثمّ يكون في محلّ نصب مفعولي (ظنّ).

ومـن ذلك قولـه تعالى: ﴿يَـوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْـتَجِيبُونَ بِحَمْـدِهِ وَتَظُنُّـونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

فــ(إنْ): حـرف نفي مبنـي، و(لبثتـم): (لبث) فعل مـاض مبني، و(التـاء): ضمير متصـل مبنـي في محلّ رفع فاعل، و(الميم): حرف للجمع مبني لا محلّ له من الإعراب، (إلا): أداة استثناء مبنية على السكون، و(قليلاً): نائب عن الظرف منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة والتقدير (وقتاً قليلاً)، وجملة (إنْ لبثتم إلا قليلاً) في محلّ نصب، سـدت مسدّ مفعولي (ظنّ) المعلّق بـ (إنْ).

أي أنّ الفعـل القلبـي (ظنّ) لم يعمل في لفظ جملـة ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ التي أخذ كلّ شـيء فيهـا محلّـه ومكانه من الإعـراب، لكنّ الجملـة كاملة وقعت فـي محلّ نصب مفعولي (ظنّ)، فالنصب لم يقع على اللفظ، وإنّما وقع على المحلّ.

وكذلـك الحـال في قوله تعالى: ﴿وَضَـلَّ عَنْهُم مَّا كَانُـوا يَدْعُونَ مِن قَبْـلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[2]، فـ(ما): نافية مبنية على السكون، و(لهم): جارّ ومجرور، و(الميم): حرف للجمع، وشبه الجملة (لهم) في محلّ رفع خبر مقدّم، و(مِن): حرف جرّ زائد مبني على السكون، و(محيص): اسم مجرور لفظاً بـ (مِن)، مرفوع محلاً على أنّه مبتدأ مؤخر، وجملة (ما لهم من محيص): في محلّ نصب، سـدّت مسدّ مفعولي (ظنّ) المعلّق بالنفي (ما).

٣- الإلغاء:

وهنـاك حالة ثالثة للفعل القلبي هي (الإلغاء)، وهو: جواز إسـقاط عمله في اللفظ والمحـلّ معـاً؛ وذاك لضعف العامل بتوسـطه بيـن المفعولين مثـل: (زيدٌ ظننـتُ عالمٌ)، أو بتأخـره عنهمـا مثل: (زيـدٌ عالمٌ ظننتُ) [3]. ولم يـرد في القرآن أيّ اسـتعمال لـ (ظنّ) ملغاة.

---

(١) سورة الإسراء/ ٥٢.

(٢) سورة فصّلت/ ٤٨.

(٣) شرح قطر الندى وبلّ الصدى/ ١٩٧.

إعراب الهيئات المشتقة من (ظنّ)

وقعت بعض هيئات مادة (ظنّ) اسماً تنوّع إعرابه على الآتي:

١- خبر:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(١).

تذكر الآية نموذجاً من ظنّ الكافرين، إنّهم يظنون أنّ خلق السماوات والأرض عمل عبثي (باطل)، لا هدف ولا غاية منه، ومن ثمّ جاء اسم الإشارة (ذلك)؛ ليعيد اختزاله، تمهيداً للحكم عليه فهو (موضوع القضية)، والحكم الذي صدر عليه (الخبر) هو كلمة ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، في إشارة مختزلة تحمل معاني منها: أنّ ذاك ينطبق عليه ما ينطبق من عادة تشكيل الكافرين لأفكارهم عبر الأوهام والتخرّصات (ظنّ)، وعدم الاتكاء على منهج علمي في تشكيل المعرفة وبنائها، وأنّ ذلك ظنّ لا يصدر من المؤمنين المقتنعين بحكمة الله، وأنّه ليس هناك من شيء خُلق دون سبب وغاية، وإنّما هذا الظنّ يصدر من (الذين كفروا)، وقد جاءت كلمة (ظنُّ) هنا خبراً مرفوعاً لاسم الإشارة (ذلك).

٢- بدل:

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾(٢).

فكلمة (ذلكم): مبتدأ، و(ظنّكم) بدل منه، وخبر المبتدأ هو جملة (أرداكم)(٣)، وبهذا الإعراب تكون الآية قد أفادت أنّ ذلك الظنّ الصادر منهم هو الذي أرداهم وأركسهم؛ لما يحمله من أوهام باطلة حول أقدس مثل في الكون وهو الله سبحانه، الأمر الذي يعني لزوم أن يشيد الإنسان بناء عقيدته – لا سيما عقيدته عن الله تعالى – على أساس العلم واليقين.

ويجوز أن تكون (ظنّكم) خبراً لاسم الإشارة (ذلكم)(٤)، وتكون (أرداكم) حينئذ

(١) سورة ص/ ٢٧.
(٢) سورة فصّلت/ ٢٣.
(٣) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه، مراجعة: لينه الحمصي ١١/ ٢٤٨.
(٤) نفسه ١١/ ٢٤٨.

خبـراً ثانياً للمبتـدأ، والآية بهذا تخاطبهم: أنّ ذلكم الصادر منكـم هو (ظنّكم الذي ظننتم بربكم)، هو وهمكم وتخرصاتكم الباطلة، ويكون هذا من الآية حكماً على ما صدر منهم، أعقبـه حكـم آخر أنّه لم يقف عند مسـتوى الظـنّ النظري الفكري، وإنّمـا كانت له نتيجته العملية عليهم (أرداكم)، في سـعيّ من الآية لتبيان أثر العقيدة في حياة الإنسـان وسـلوكه وعاقبته، وكيف أنّ العقيدة الصالحة ترفع الإنسـان، والعقيدة الطالحة تحطه وترديه، وهو حديث عن أثر الفكري في العملي، وأثر القناعات في السلوك، وأثر المبادئ والمنطلقات في المآلات والعواقب.

٣- اسم (إنّ):

﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(١).

فجملة ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ جاء في صدرها الحرف الناسخ (إنّ)، واسمه كلمة (الظنّ) التي نُصبت به، وكأنّها تحدِّث شاكاً متردداً في قبول الكلام والإذعان إليه، فأكدت له ذلك بحرف التوكيد.

كمـا جـاءت في الآيـة جملـة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ﴾، وهي اسـتثناء مفـرّغ جاء فيه الفعل المتعدي (يتبعون)، ولـم يسـتوفِ مفعولاته، فتسـلط على ما بعد (إلا) – وهو كلمة (الظنّ) – على أنّه مفعول به له، وهي تعطي قاعدة عامة أنّهم (لا يتبعون شـيئاً إلا الظنّ)، ليس لهم في معارفهم تلك أيّ نصيب من العلم ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، وتوضّح لنا مدى هشاشة القاعدة المعرفية التي بنى عليها أولئك أفكارهم.

٤- مفعول به:

﴿وَإِن تُطِـعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَـبِيلِ اللّـهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾(٢).

وإن كان السـياق في أغلب الآيات السـابقة دالاً على صـدور الظنون من الكافرين والمنافقين، فإنّ الأمر لا يقتصر عليهم، فـ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ لا يعتمدون على قواعد علمية في تشـكيل رؤيتهم لله والكون والحياة والإنسـان، ومن ثمّ لو أطاعهم النبي ﷺ

(١) سورة النجم/ ٢٨.

(٢) سورة الأنعام/ ١١٦.

لما أورث ذلك إلا الضلال، وذاك أحد المبررات في اعتماده ﷺ في تشكيل رؤيته على دعائم يقينية يرفدها الوحي الصادق.

فجملة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ استثناء مفرّغ جاء فيه الفعل المضارع المتعدي (يتبعون)، وحُذف المستثنى منه، فهم لا يتبعون (شيئاً) إلا الظنّ، ولأنّ الفعل (يتبعون) لم يستوفِ مفعولاته، أخذ ما بعد إلا - وهو كلمة (الظنّ) - مفعولاً به منصوباً له.

٥- مفعول مطلق:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

تتحدث هذه الآية عما حصل في أعقاب هزيمة المسلمين في معركة أحد، وكيف أنّه كان من بينهم ضعاف يقين ومنافقون تأججت فيهم ظنون الجاهلية القديمة!! **﴿يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾**.

«إنّهم كانوا يظنون بالله ما كانوا يظنّونه به أيام كانوا يعيشون في الجاهلية، وقبل أن تبزغ عليهم شمس الإسلام، فقد كانوا يتصورون أنّ الله سيكذبهم وعده، ويظنّون أنّ وعود النبي غير محققة ولا صادقة، وكان يقول بعضهم للآخر: **﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾**، أي هل يصيبنا النصر ونحن في هذه الحالة من السقوط والهزيمة والمحنة والبلية؟، إنّهم كانوا يستبعدون أن ينزل عليهم نصر من الله بعد ما لقوا، أو كانوا يرون ذلك محالاً»[2].

وقد ردت في هذه العبارة القرآنية كلمة (غيرَ الحقّ)، وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر لتأكيد الظنّ، أي يظنون ظناً غيرَ صحيح، كما وردت كلمة (ظنّ الجاهلية)، وهو مفعول مطلق لبيان النوع، أي يظنون ظناً ظنّ الجاهلية[3].

---

(١) سورة آل عمران/ ١٥٤.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢/ ٥٧١.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢/ ٢٨٣.

وفي آية أخرى يتحرّك نوع آخر من الوساوس في قلوب بعض ضعاف الإيمان أو المنافقين، هو (ظنّ السوء): ﴿**بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا**﴾[1].

لقد دعا رسول الله ﷺ من يستظل تحت ظلال المسلمين - ومنهم الأعراب في البوادي - أن يذهبوا معه في السنة السابعة للهجرة إلى مكة حجّاجاً دون قتال، فوسوست لهم أنفسهم أنّ تلك هي السفرة الأخيرة للرسول ﷺ، وأنّه بذلك سيكون لقمة سائغة في فم كفار قريش، وأنّ الله لن يمدّ لهم يد العون، ولن يخلّصهم من براثنهم: ﴿**بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾، ومن ثمّ تخلّفوا عن الذهاب معه، بيد أنّهم حين رأؤوا الرسول ﷺ ومن معه قد عادوا سالمين ظفروا بصلح الحديبية؛ جاؤوا يتذرّعون بعلل مصطنعة عن التخلّف.

فكلمة (ظنّ السوء) مفعول مطلق لبيان نوع ذلك الظنّ الذي ظنّوه مِن مقتل النبي ﷺ ومَن معه في سفرتهم تلك، وأنّ الله لن يخلّصهم.

٦- صفة:

﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[2].

فكلمة (الظانين) صفة للمفعول به (المنافقين)، منصوبة على الياء؛ لأنّها جمع مذكر سالم، وهي صفة توضّح ما يعتمل في قلوب أولئك من ظنون سيئة تتطاول حتى على أعلى وأصدق مثل ديني هو الله سبحانه، كما بيّناه سابقاً.

وورد في الآية قوله: (ظنّ الجاهلية)، وهو مفعول مطلق عاملُهُ اسم الفاعل (الظانين).

٧- اسم مجرور:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) سورة الفتح/ ١٢.

(٢) سورة الفتح/ ٦.

تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

وإذا كان أغلب ما مضى من ظنون رأيناه يصدر من المشركين والمنافقين، فهذا لا يعني اقتصار ذلك عليهم، فالحياة الاجتماعية قد تولِّد شيئاً من الظنون الأخلاقية والاجتماعية بين الناس، وقد يعتري ذلك بعضَ المؤمنين، ولو على نحو التفسير والتعليل لشيء من تصرّفات الآخرين.

لكنّ الله الذي يريد لعباده المؤمنين حياة أخلاقية صافية من الشوائب يأمرهم باجتناب الكثير من الظنّ؛ لأنّ بعضه أثم؛ لكي يوفروا لأنفسهم الصحة النفسية، ويوفروا للمجتمع ظاهرة الثقة الاجتماعية.

وتلك الأخلاقيات لها الأثر البالغ في النظرة المعيارية القيمية الأخلاقية للناس، والحكم عليهم، والتعامل معهم، فالناس ليسوا كلاً أسود، ونحن لسنا مأمورين أن نُصْدِر عليهم الأحكام الظنّية لبوادر ظهرت لنا قد لا تفيد اليقين.

فنحن في حياة الناس الأخلاقية نحكم في طرف الإيجاب.. بالظاهر الحسن منهم، ونعترف أن لا علم لنا ببواطنهم، وأنّ الله لم يهبنا ذلك، ولا نسعى لتتبّع الدواخل ومطاوي القلوب، فالله لم يكلفنا ذلك، أما في طرف السلب فلا نحكم عليهم بمجرّد ظهور شيء ولو أمكن حمله على محامل كثيرة سيئة وأخرى قليلة حسنة، بل.. ذاك الحكم يحتاج إلى علم ويقين، ولسنا نعتقد أنّ الدنيا هي كلّ شيء، وأنّنا المسلطون فيها على أعمال العباد، فهناك آخرة، وما فات في هذه يتولاه الله بعلمه وحكمته وفضله هناك..

قال علي عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿**مِّنَ الظَّنِّ**﴾ جاء حرف الجرّ (مِن)، ووقعت كلمة (الظنّ) اسماً مجروراً بـ(مِن). كما تحتوي عبارة ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ على كلمة (الظنّ) المجرورة بالإضافة.

٨- مضاف إليه:

﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن**

---

(١) سورة الحجرات/ ١٢.

(٢) أصول الكافي ٢/ ٣٤٦، الباب ٣٣٨، ح ٣.

شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[١].

في بداية هذه الآية يظهر اليهود متبخترين متباهين، متبجّحين بصلافة: **﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾**، يعقبون ذلك بتسميته سخرية **﴿رَسُولَ اللّهِ﴾**، وقد آمنت الرؤية الإنجيلية بصلب السيّد المسيح وقتله، بيد أنّ الرؤية القرآنية تقول: **﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾**.

وختام الآية يحوي جملة مفتوحة عن الاختلاف في المسيح **﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾**، قد تشير إلى اختلاف اليهود أنفسهم في قتله، أو اختلاف المسيحيين في قتله، أو اختلاف المسيحيين في طبيعته ومنزلته: وهل هو الله أو ابن الله؟[٢]، وجميع هذه الصور ينطبق عليه قرآنياً: **﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾**، وربّما كانت نهاية الآية **﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾** تقرّب أنّ الاختلاف متعلق بمقتل المسيح.

وفي قوله تعالى: **﴿اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾** وقعت كلمة **﴿اتِّبَاعَ﴾** مضافاً، وكلمة **﴿الظَّنِّ﴾** مضافاً إليه مجروراً..، فقد اتبعوا الظنّ، وأضحى قناعة تاريخية لدى اليهود، وعقيدة دينية مقدّسة لدى المسيحيين، فقال اليهود والنصارى معاً: إنّ المسيح قتله اليهود!!

يقول الإنجيل عن المسيح: «من أجل ذلك سعى بيلاطس أن يطلقه، ولكنّ اليهود صرخوا: (إن أطلقتَ هذا فلستَ محبّاً للقيصر، فإنّ كلّ مَن يجعل نفسه ملكاً، يعادي القيصر)....، وقال بيلاطس لليهود: (ها هو ملككم)، فصرخوا: (خذهُ.. خذهُ، اصلبه)، فسألهم بيلاطس: (أأصلب ملككم؟)، فأجابه رؤساء الكهنة: (لا ملك لنا إلا القيصر)، فسلّمه بيلاطس إليهم ليُصلب. فأخذوا يسوع، فخرج وهو حامل صليبه إلى المكان المعروف بمكان (الجُمجُمة)، وبالعبرية (جُلجُثة)، وهناك صلبوه، وصلبوا معه رجلين: واحداً من كلّ جانب، ويسوع في الوسط»[٣].

(١) سورة النساء/ ١٥٧.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٣/ ٤٦٣.
(٣) الإنجيل، إنجيل يوحنا، الأصحاح ١٩، الآية ١٢ – ١٨.

أحوال مرفوعها

للمرفوع بـ (ظنّ) حالات عديدة، منها:

١- اسم ظاهر:

فقد يأتي المرفوع بها اسماً ظاهراً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

وجملة ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، تبيّن مدى القناعة البشرية التي تعتري أهل الأرض في آخر أيامها، واقتناعهم بمعرفة قوانين الأرض، والسيطرة على الأرض، وأنّ في أيديهم أزمّة القدرة والفعل، وتلك حال الذين ستقوم القيامة على زمانهم، وفاعل (ظنّ) هو كلمة (أهلها) التي هي اسم ظاهر، وتوحي إضافة كلمة (أهل) إلى هاء الغيبة العائد على الأرض بأنّ هذا التصوّر بالسيطرة والقدرة هو قناعة جميع سكان الأرض آنذاك؛ الذي ترسمه في أذهانهم كثافة الاكتشافات العلمية وفهم القوانين الطبيعية والكونية واستثمارها.

ومن الاسم الظاهر قوله تعالى: ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]، فاسم الإشارة (أولئك) مبني في محلّ رفعٍ فاعلٍ للفعل (ظنّ)، وهو يشير ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٣].

٢- ضمير متصل:

ومرفوع (ظنّ) قد يأتي ضميراً متصلاً دالاً على المفرد، أو المثنى، أو الجمع؛ ليبيّن أنّ تلك العملية الذهنية قد تصدر من واحد أو اثنين أو جماعة:

---

(١) سورة يونس/ ٢٤.

(٢) سورة المطففين/ ٤- ٦.

(٣) سورة المطففين/ ١- ٣.

- فقد ينطلق الظنّ من الشخص الواحد، وقد يتحدث عن قناعاته ويبديها، كقول أحد المؤمنين عن الحساب: ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ**﴾[1]، فهنا وقع ضمير الرفع المتحرّك (تاء المتكلم) فاعلاً لـ(ظنّ).

- وقد ينطلق الظنّ من شخصين يعيشان همّاً واحداً وملابسات ذهنية مشتركة مثل المطلقين العازمين على الرجوع لعصمة الزوجية: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[2]، وفي قوله: ﴿**ظَنَّا**﴾، وقع ألف الاثنين فاعلًا لـ(ظنّ).

- وقد ينطلق من جماعة ترغب في كشفه وإبدائه، كقول مؤمني الجنّ مستغربين: ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾، وقد جاء ضمير الرفع المتحرّك (ناء المتكلمين) فاعلاً لـ (ظنّ).

- وقد ينطلق الظنّ من الجمع الغائب، أو الجمع المخاطب، كما في قول مؤمني الجنّ يقارنون بين عالمي الجنّ والإنس: ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**﴾[3]، ففي كلمة ﴿**ظَنُّوا**﴾، جاءت (واو/ الجماعة) فاعلًا للفعل (ظنّ)، وتعود على بعض الجنّ؛ يحكي فيها مؤمنو الجنّ أنّ من بين أبناء جنسهم من ينكر المعاد ويظنّ ﴿**أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**﴾، كما يحكون بها صُدور هذه الظنون والأوهام من الجمع البشري فيخاطبونه ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ**﴾، فيسجّلون المشابهة الغريبة بين بعض الإنس وبعض الجنّ في إنكار المعاد، وكلمة (ظننتُم) التي يخاطبون فيها البشر، تحكي صدور ذاك الظنّ الغريب من البشر كذلك.

٣- ضمير مستتر:

كما يأتي مرفوع (ظنّ) ضميراً مستتراً، كقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ**﴾[4].

وتحكي الآية كيف أنّ الطغاة يحوّلون الحقائق الثابتة إلى عمل مسرحي مضحك؛

(١) سورة الحاقة/ ٢٠.
(٢) سورة البقرة/ ٢٣٠.
(٣) سورة الجنّ/ ٧.
(٤) سورة غافر/ ٣٦- ٣٧.

بغية خداع النفس والناس، وإبعادهم عنها.

فإزاء حديث النبي موسى عليه السلام عن الله - سبحانه وتعالى - مضى فرعون في تمثيله المسرحي الكوميدي، فالتفت هازئاً إلى هامان يقول له: يا هامان، إنّ إله موسى لا يظهر من هنا في الأرض، فابن لي صرحاً حتى أبلغ السماء وأطلع إلى إله موسى، فلعله مختبيء هناك، وإن كنتُ أظنّ موسى كاذباً مفترياً؛ فربّه غير موجود أصلاً: لا هنا في الأرض، ولا هناك في السماء!!

وقد ورد في هذه الآية الفعل (أظنّ)، وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا يعود إلى (فرعون)، واحتفّت جملة ﴿**وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا**﴾ بالمؤكدات (إنّ، ولام التوكيد)؛ لبيان مدى القناعات الراسخة الماكثة في قلب فرعون، أو لتصوير تلك القناعات لوزيره بهذه الطريقة ولو كان قلبه يعتقد أنّها كاذبة، ليسهم في عملية التضليل الفكري والعقدي لمن حوله، ويضمن مشاركته له في الفكر والمعتقد، ومن خلفهما العمل المتفرّع عنهما.

أحوال معموليها

ومثلما تنوّع مرفوع (ظنّ) تنوَّع معمولاها، فجاءا على تشكيلات عديدة، منها:

١- اسمان ظاهران:

ففي قوله تعالى عن الإنسان: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾(١).

وهذه الآية مقارِبة لقصة صاحب الجنتين، بيد أنّها تختلف عنها في بعض الفروق:

- فهذه الآية تبيّن أنّ التحول الاقتصادي الذي يصيب الإنسان قد يرافقه تحوّل قيمي أخلاقي، فالإنسان الذي ترخي عليه النعمة أفياءها بعد الضراء التي لسعته، قد يشكر الله على ما مَنّ به عليه، وعلى أن أنقذه مما كان فيه، وقد يبطر بالنعمة المجلّلة.

- والموقف الذي تعرضه هذه الآية هو لصاحب الفهم المنحرف لهذا التغيّر، وتتجلى ملامح ذاك الفهم في أخلاقيات منها: روح الاستئثار والفردية ﴿**هَذَا لِي**﴾،

(١) سورة فصّلت/ ٥٠.

والأنس بالنعمة إلى حدّ إنكار الآخرة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وقياس وضع الآخرة على الدنيا، وأنّ المنعَّم في الدنيا سيكون - لا محالة - منعَّماً في الآخرة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾.

وفي جملة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ورد الفعل المضارع (أظنّ)، وتلاه منصوباه اسمين ظاهرين، فـ(الساعة): مفعول به أول لـ(أظنّ)، منصوب، و(قائمة): مفعول به ثاني للفعل (ظنّ)، منصوب.

٢- ضمير واسم:

وقد يقع أحد مفعولي (ظنّ) ضميراً، والآخر اسماً ظاهراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾(١).

فجملة ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾، وقعت فيها (كاف المخاطب): ضميراً متصلاً مبنياً في محلّ نصب مفعول به أول، في حين جاءت كلمة (مسحوراً): مفعولاً به ثانياً منصوباً على الفتح الظاهر، وفُصل بين المفعول به الأول والثاني بجملة النداء (يا موسى).

وهذه الجملة الصادرة من فرعون تحكي شيئاً من غطرسة الحكام الظالمين، ووصفهم لمن يخالفهم بأنّه مسحور أو غير ذلك في جملة تحمل المؤكدات (إنّ، لام التوكيد)، وكأنّها قناعات راسخة يقينية، ويأتي النداء في أحشاء الجملة ليستفيد فرعون به؛ لينتبه موسى أنّ الخطاب موجّه له مباشرة، وليلتفت موسى إلى تكملة الجملة الآتي بعد النداء، فإذا به صاعقة متفجّرة تصفه بأنّه مسحور ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾!!

أي أنّ موقع النداء هنا، ومجيئه فاصلاً بين المفعولين، جاء من المتكلم؛ ليحقق به انتباه السامع، فما يكاد يتحقق من التفات سامعه وإصغائه له؛ حتى يلقي على رأسه صخرة هائلة، أحبّ أن يلقيها والطرف الآخر ملتفت؛ إمعاناً في إذلاله وتحقيره والتشفي منه.

ولأنّ النبي موسى عليه السلام كان يتسلح بجرأة من يحمل في قلبه الإيمان بالله والدعم الرّباني، لم يخَف من ذاك الكلام المزمجر، ورد على الطاغية بمحضره وفي مجلسه

(١) سورة الإسراء/ ١٠١- ١٠٢.

بجملـة مماثلة تماماً فقال: ﴿**وَإِنِّي لأظُنُّكَ يَـا فِرْعَونُ مَثْبُورًا**﴾، فجاء له بمؤكدين (إنّ، لام التوكيـد)، وفصـل بينهما بجملة النداء (يا فرعون)؛ ليكون النداء موجّهاً إليه مباشـرة وفي محضره ومجلسه.

أي أنّ النبي موسى عليه السلام استخدم الطريقة الأسلوبية لجملة فرعون ذاتها، بشكلها فـي المؤكدات والنـداء والفصل، فأتى بالنـداء وفصل به بين المفعوليـن، حتى إذا التفت الطاغي أعاد الكرَّة عليه، وألقى الحجر على رأسـه، وأخبره أنّه هالك مثبور[1]، وفي ذلك نزول الطامة على قلب فرعون الذي لم يكن ليتوقع الرد بهذه الصراحة والصرامة والقوة، ولم يكن ليتوقع هذا الخبر الفاجع بموته وزوال ملكه.

بيد أنّ هنالك فارقين واضحين حملتهما إجابة النبي موسى:

أولهمـا: إلقـاء الحجة على فرعون، فهو ليـس مجرّد اتهام في قبال اتهام، أو سـبّ فـي قبال سـبّ، بل ذكّر موسـى عليه السلام خصمه فرعـون بأنّه يعلم أنّ الآيـات التي رآها هي حقائق من الله، وأنّه يعلم أنّها ليست سحراً ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ**﴾.

وثانيهما: المجيء بكلمة (مثبوراً) بدلاً من (مسحوراً)، فالنبي موسى عليه السلام مع أنّه يواجه تُهماً وسُـباباً مختلقاً، لكنّه لا ينحطّ إلى مستواه الوضيع، ولا يتهم الطرف المعتدي بمـا ليس فيه ولو كان طاغياً، وظلّ محافظاً على وقاره وثبات أعصابه، وصعقه - بدلاً من التهم والسـباب - بحقيقة يخاف منها وهي أنّه مغلوب وهالك، ..الهلاك الذي ترتعد منه فرائـص الطغاة الظالمين؛ لأنّه يقتلعهم من الحكم والبـذخ والملذات إلى عالم يخافونه، بل.. ويخافون حتى تصوّره وذكره.

٣- جرّ بحرف جرّ:

وفـي بعض الجمل قد تنصب (ظنّ) مفعولاً ظاهراً، ويقـع مفعولها الثاني مجروراً بحـرف جـرّ زائد، في محلّ نصب، كما في قوله تعالى: ﴿**قَـالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾[2].

---

(١) (مثبوراً) مأخوذة من (ثبر)، ومعناها: مغلوب خاسر هالك معذّب (لسان العرب ٢/ ٨١- ٨٢، مادة: (ثبر)).

(٢) سورة الأعراف/ ٦٦.

فالملأ هنا يخاطب نبي الله هود عليه السلام، ويلقي في وجهه اتهامين: أنّه يعيش السفاهة وخفة العقل وسوء التصرّف، وأنّه من الكاذبين.

وجملة ﴿وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ تحمل مؤكدين هما (إنّ، ولام التوكيد)، وقد وقعت فيها (كاف المخاطب) في محلّ نصب مفعول به أول للفعل (نظنّ)، وشبه الجملة ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، جارّ ومجرور في محلّ نصب مفعول به ثاني.

وكان بمقدورهم أن يقولوا (إنا لظنّك كاذباً)، فيظهر المفعول الثاني منصوباً مباشرة، لكنّهم عدلوا عن هذه الصيغة إلى الصيغة الأخرى ﴿لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ لكي يصفوا المؤمنين جميعاً بذلك الحكم، وأنّه ليس قاصراً عليه وحده، فأنتَ - يا هود - من جملة الكاذبين، وداخل في زمرة الكاذبين. وبمقدار ما هو اتهام عام، يوضّح أنّ الحرب الدعائية التي يقوم به عليّه القوم ووجهاؤه لا تقتصر على شخص القائد، بل.. تصيب الجميع ما دام يسير على نهج متفق.

٤- مصدر مؤول:

وقد يقع المصدر المؤول في محلّ نصب مفعولي (ظنّ):

- فتأتي (أنّ، واسمها، وخبرها) لتسدّ مسدّ المفعولين.

- أو تأتي (أنْ، والفعل المضارع)؛ لتنوب مناب المفعولين.

وقد اجتمع الاثنان في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(١).

فقوة ومنعة حصون أهل الكتاب في المدينة - والمقصود هنا (بني النضير) - خلقت ظنّين متوازيين، أحدهما لدى المسلمين، والآخر لدى أصحاب الحصون، فوصل الأمر لدى بعض المسلمين إلى قرابة حدّ اليأس من إمكان خروج اليهود من حصونهم المنيعة ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾، ووصلت القناعة لدى اليهود أنّهم باقون ماكثون في تلك الحصون، وأنّها عتيدة تمنع كلّ معادي ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾.

وباقي الآية يخبرنا أنّ مصدريّ الظنّ هذين (المسلمين/ اليهود) أسهموا معاً في

(١) سورة الحشر/ ٢.

خراب تلك الحصون ﴿**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وفي جملة ﴿**مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا**﴾ وقع المصدر المؤول ﴿**أَن يَخْرُجُوا**﴾، المكوّن من (أن) الناصبة للفعل المضارع، و الفعل المضارع (يخرجوا)، وقعا في محلّ نصب مفعولي (ظنّ)، وتقديره (ما ظننتم خروجهم).

وفي جملة ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم**﴾، وقع المصدر المؤول ﴿**أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم**﴾، المكوّن من (أنّ) الحرف المصدري الناسخ، واسمه (هاء الغيبة)، وخبره (مانعتهم) في محلّ نصب مفعولي (ظنّ)، وتقديره (وظنوا مانعتَهم).



المجال الرابع: الأسلوب

الحديث عن غير العاقل بأسلوب العاقل

التصنيف البشري للعاقل وغير العاقل:

ضمن الدائرة الإدراكية للإنسان، وضمن تصنيفاته المعرفية، هناك ثلاثة مخلوقات تندرج ضمن مقولة (العاقل) هي: الملائكة، والإنسان، والجنّ، أما الحيوانات والنباتات والجمادات فهي تندرج ضمن مقولة (غير العاقل).

ولم يكن هذا التقسيم مجرّد فعل معرفي، وإنّما تبعته آثار في اللغة وغيرها.

القاعدة اللغوية للخطاب:

في المستوى اللغوي هناك طريقة تعبيرية خاصة للحديث عن العاقل، وطريقة أخرى متمايزة للحديث عن غير العاقل، فقد تميّزت لغة خطاب العاقل بمميزات لفظية ومعنوية:

أولاً: الصيغ اللفظية:

هناك صيغ لفظية اصطلاحية تُوجّه للعاقل، وأخرى لغير العاقل، ومن مختصّات العاقل:

١- النداء:

النـداء «هو طلب المتكلم إقبـال المخاطب عليه بحرف نائب منـاب (أنادي)»[١]، وتـرى العربيـة ضمن اسـتعمالاتها أنّ ذاك مختصّ بالعقلاء؛ لأنّها التي تفهم وتسـتجيب، ومن ثمّ يمكن أن يوجّه لها الخطاب، فننادي شخصاً ونقول: (يا محمد)، أو (يا علي).

أما الأشـياء غير العاقلة، فإنّ نداءها ليس نداء حقيقياً، وإنّما هو نداء تنزيلي: تمّ فيه تنزيل غير العاقل منزلة العاقل مجازاً؛ لإفادة أغراض مثل: الزجر أو التحسّر والتوجّع، أو التضجّر، وهذا ما يسـوِّغ لنا أن نقول: (يا غزلان تنعّمي)، و(يا ورود تبسّـمي)، (يا قلوب تجمّلي).

٢- الأمر والنهي:

الأمـر: «هو طلب حصول الفعل من المخاطـب»[٢]، ومن ثمّ - فهو الآخر - يُوجّه إلـى عاقـل يفهم ويسـتجيب، ولديـه إمكانيـة فعل الأمـر الموجّه إليـه، فنقول لـه: (افهم دروسك)، و(تحمّل الصعاب)، و(ابتسم للحياة).

أمـا الأشـياء غير العاقلة، فهـي لا تفهم الأمـر الموجّه لها من الإنسـان، ومن ثمّ لا تستجيب، وإذا ما وُجّه الأمر إليها فهو يحمل دلالات بلاغية يقف على هامها التمني، كأن نقول: (غرِّدي يا طيور)، (تحرّكي يا شجرة)، (ابزغ يا قمر).

وكذلـك الحال مع النهي الذي «هو طلب الكفّ عن الشـيء على وجه الاسـتعلاء مـع الإلـزام»[٣]، فهو يُوجّـه لمن يعقل ويفهم ويسـتجيب، فنقول لشـخص: (لا تكذب)، (لا تتضجّـر)، والنهي لغير العاقل يُحمـل على أغراض فرعية خرج إليها يقف على هامها - كذلـك - غـرض التمنـي، كأن نقول: (لا تنعبي يا غربـان)، (لا ترقصي يا غصون)، (لا تغربي يا شمس).

٣- الضمائر:

وإذا كانت ضمائر الإناث في الاستعمال اللغوي غير كاشفة عن كون المقصود بها

(١) جواهر البلاغة/ ١٠٥.
(٢) نفسه/ ٧٧.
(٣) نفسه/ ٨٢- ٨٣.

عاقلاً أم غير عاقل، وورود استعمالها للعاقل وغير العاقل على السواء، كقولنا: (شربَتْ، أكلَتْ)، الذي يمكن أن يوجّه للمرأة، أو غيرها من الإناث المنتمية لدائرة غير العاقل من عالم الحيوان والنبات والجماد، فنقول: (المرأة تكلمتْ)، و(العصفورة طارتْ)، و(الزيتونة أثمرتْ)، و(الجواهر تنضّدت).

فهذه الأمثلة كلّها تحوي تاء التأنيث، وهو حرف لا محلّ له من الإعراب، لكنّه يقترن بضمير مستتر تقديره هي يعود على ما قبله من أسماء جاء بعضها عاقلاً (المرأة تكلمتْ)، وجاء بعضها الآخر غير عاقل (العصفورة/ الزيتونة/ الجواهر).

ومثل: الضمير المستتر للغائبات المقترن بتاء التأنيث تقع نون الإناث التي توجّه – هي الأخرى للإناث من دائرة العاقل وغير العاقل على السواء: **﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**[(١)]، **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾**[(٢)].

ونون الإناث في (مكرهن) وما بعدها من كلمات الآية تعود إلى النسوة اللاتي عاتبن زوجة عزيز مصر حين راودت يوسف عن نفسه، وهنّ عاقلات من دائرة البشر، لكنّ نون الإناث في (يقبضن/ يمسكهنّ) عائد إلى الطير، وهو من عالم الحيوان.

وفي قوله تعالى عن نبيّه داوود عليه السلام: **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾**[(٣)]، يعود ضمير نون الإناث على (الجبال) التي هي من دائرة الوجود الطبيعي الجامد.

واللغة العربية حتى خارج التعبير القرآني تجيز عود نون الإناث إلى غير العاقل، لذلك يقول امرىء القيس:

فأدبرْنَ كالجزعِ المفصَّلِ بينَهُ   بجيدٍ معمٍّ فيْ العشيرةِ مخولِ[(٤)]

والنون في (أدبرن) تعود إلى بقر الوحش، أي تعود إلى شيء من عالم الحيوان، وهو من دائرة غير العاقل.

ويحكي الإمام الصادق عليه السلام بعض أحداث غدير خم، وأنّ الرسول صلى الله عليه وآله «نادى

(١) سورة يوسف/ ٣١.
(٢) سورة الملك/ ١٩.
(٣) سورة ص/ ١٨.
(٤) شرح القصائد العشر، تحقيق: عبد السلام الحوفي/ ٦١.

الناس فاجتمعوا، وأمر بسمرات فقمَّ شوكهن»[١].

والنون في (شوكهن) تعود على (السمرات)، وهو نبات الطلح[٢]، فعادت نون الإناث على شيء من عالم النبات، وهو من دائرة غير العاقل.

ويقول أبو ذؤيب الهذلي:

شربْنَ بماءِ البحرِ، ثمَّ ترفعَتْ   متى لجـجٍ خُضْرٍ لهُنَّ نئيجُ[٣]

وهو – هنا – يتحدث عن (السُّحُب)، وهي من دائرة غير العاقل، وإليها يعود ضمير نون الإناث في (شربن).

لكنّ الصيغ اللفظية الموجّهة للعاقل واضحة؛ إذ لها ضمائر خاصة كـ (واو الجماعة) و(هم): التي وضعت للدلالة على الذكور العقلاء ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾[٤]، ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٥].

وفي الآية الأخيرة وردت (هم) ضميراً منفصلاً ﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾، كما وردت ضميراً متصلاً في كلمة ﴿**رَّبِّهِمْ**﴾.

٤- جمع المذكر السالم:

تميّز اللغة العربية بين جمع المذكر السالم من طرف، وجمعي المؤنث السالم والتكسير من طرف آخر: فجمع المذكر السالم وضع للدلالة على الذكور العقلاء (المؤمنون مخلصون) وإن أُلحقت به بعض الكلمات التي وجدوها تُعرب بإعرابه وليست منه مثل: (سنون، عالمون).

أما جمع المؤنث السالم فيشترك فيه المؤنث بنوعيه: العاقل وغير العاقل (نساء مؤمنات)، (نخيل باسقات)، وأما جمع التكسير فيُستعمل للعاقل (المذكر/ المؤنث)، وغير العاقل معاً: (أحببتُ العظماء)، (هؤلاء نسوة كُمّل العقل)، (هذه مدارس).

---

(١) أصول الكافي ١/ كتاب الحجة، الباب ١٢١، ح ٣.
(٢) لسان العرب ٦/ ٣٦٠، مادة: (سمر).
(٣) أبو ذؤيب الهذلي، ديوان أبي ذؤيب الهذلي، شرح وتقديم: سوهام المصري، مراجعة: ياسين الأيوبي، ص ٤٧.
(٤) سورة الحاقة/ ٢٤.
(٥) سورة البقرة/ ٥.

٥- الذين:

وهو اسم موصول مختصّ بالجمع المذكر العاقل، كقولنا: (جاء الذين رأيتهم).

٦- (مَن):

تستعمل اللغة العربية (مَن) في ضروب شتى، تقابلها (ما):

أ- الموصولة:

ترد (مَن) في العربية اسماً موصولاً يُستعمل - غالباً - للعاقل (خير إخوانك مَن واساك)، وقد يُستخدم لغير العاقل كما في تفصيل المتعدد المشترك بين العاقل وغيره (الحيوانات كثيرة مختلفة: فيها مَن ينطق بفصيح الكلام كالإنسان، ومَن يغرّد بصوت عذب كالبلبل، ومَن يصيح بصوت منكر كالبومة)، وكما إذا وقع من غير العاقل أمر لا يكون إلا من العقلاء، فينزّل منزلة العاقل (التنزيل) كقولنا (أطربني مَن يغني في عشّه بأطيب الأناشيد)، وكما في توجيه الكلام لعاقل وغيره فيغلّب العاقل (التغليب) كقولنا: (جاء مَن خرج للمروج)(١).

فـ (مَن) اسم موصول: للعاقل، أو للتنزيل أو للتغليب.

ويقابله (ما) وهو اسم موصول يُستعمل - غالباً - لغير العاقل (أعجبني ما رسمه علي)، وقد تكون للعاقل إذا اختلط العاقل بغيره، وقُصد بها (تغليب غير العاقل) كقوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾(٢)، وكذلك إذا لوحظ أمران مقترنان هما: ذات العاقل وبعض صفاته معاً نحو (أكرم مَن شئتَ من المجاهدين والأحرار)، أي مَن كانت ذاته موصوفة بالجهاد أو بالحرية، وكذلك إذا أُطلقت على (المبهم أمره) كقولنا عن شيء بعيد لا يُميّز أهو إنسان أم غيره (إنّي لا أتبيّن ما أراه)(٣).

---

(١) النحو الوافي ١/ ٣١٢- ٣١٣، ٣٣٤.
(٢) سورة الجمعة/ ١.
(٣) النحو الوافي ١/ ٣٣٤.

ب - الشرطية:

تأتي (مَن) اسم شرط يُستعمل - في الأغلب - للعاقل (مَن يجتهد ينجح)، يقابله (ما) وهي أداة شرط تُستعمل - في الأغلب - لغير العاقل (ما تزرعه اليوم تحصده غداً)[(١)].

ج - الاستفهامية:

تقع (مَن) اسم استفهام للعاقل (مَن قطف الورود؟)، أو للاستفهام ومنه الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ﴾[(٢)]، بمعنى: لا يغفر الذنوب أحد إلا الله[(٣)]، ويقابله (ما) اسم استفهام يُستعمل - غالباً - لغير العاقل (ما عاصمة العراق؟)، كما يُستفهم بها عن حقيقة العاقل (ماهيته) أو صفة من صفاته (ما أنتَ)، أي ما حقيقتك أو ما صفتك[(٤)].

٧- ميم جمع العقلاء:

ميم الجمع تدلّ على أنّ المعنيّ بها من الذكور العقلاء (كتبهم تنبيء عن أفكارهم)، فهي تميّزهم في مقابل التعبير عن الإناث من البشر والإناث من غير البشر بالهاء ونون الإناث: (أقلامها ملقاة على كتبهن)، (ريشها زاهٍ على ريشهن).

ثانياً: الجوانب المعنوية:

وإذا كنّا فيما مضى قد وقفنا عند بعض الصيغ اللفظية الموضوعة للعاقل، فإنّ هناك جوانب معنوية تدلّ على أنّ صاحبها ومن توفرت فيه عاقل، منها: الفهم والإدراك، والكلام، والحوار، والإرادة.

---

(١) نفسه ٤/ ٤٠٢.

(٢) سورة آل عمران/ ١٣٥.

(٣) الدكتور ميشال عاصي، والدكتور إميل بديع يعقوب، المعجم المفصّل في اللغة والأدب ٢/ ١٢٠٥.

(٤) المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ١/ ٢١٠، والشيخ مصطفى غلاييني، جامع الدروس العربية ١/ ١٣٩- ١٤٠.

- فالعاقل يفهم ويدرك ما يُراد منه، أما الحيوان فسلوكه غريزي، والنبات والجماد لا يفهمان ولا يدركان.

- والعاقل (الملائكة/ الإنسان/ الجنّ) تتكلم وتنطق، بيد أنّ العربية تصنّف الحيوانات أنّها عجماوات، وأما النبات والجماد فلا قابلية لديهما للكلام أصلاً.

- ومن ثمّ فالعاقل بأصنافه الثلاثة السابقة قادر على الدخول في عملية (الحوار) و(المجادلة)، والأخذ والرد، وتجاذب أطراف النقاش، أما الحيوان والنبات والجماد، فتبعاً لعدم وجود الفهم والإدراك لديها، وانعدام صفة الكلام فإنّها غير قابل للحوار.

- والإرادة صفة تقترن بالعقل، واختيار أحد الأطراف الممكنة ضمن الخيارات المتاحة للفعل، يفعلها العقلاء، والحيوان - كما سلف - سلوكه فطري غريزي، والنبات والجماد ليست لديهما إرادة.

ونؤكد - هنا - أنّ كلامنا إنّما هو عن مفاد اللغة، لا مفاد العلم أو الفلسفة أو العرفان، فقد يرى العلم أنّ أصوات الحيوانات - كزغردة العصافير - هي لغة تواصل وتخاطب وأسلوب غزل موجّه للأنثى، وأنّ رقصات النحل هي لغة إعلام وإخبار، وأنّ للنمل لغة كيماوية تخاطبية.

الأساليب اللغوية الأربعة في الحديث:

حين نعود إلى اللغة العربية في التعبير عن العاقل أو غير العاقل، نجد لديها أساليب أربعة في الحديث، هي:

١- الحديث عن العاقل بأسلوب العاقل:

وهنا يكون المتحدَث عنه عاقلاً، وأسلوب التعبير يستعمل ما وضعته العربية للدلالة على العاقل، فهناك تطابق بين الدالّ والمدلول من الناحية المعنوية المضمونية، ومن الناحية الأسلوبية الشكلية حصل تطابق بين المستويين اللغويين: الوضعي والاستعمالي.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا**﴾[1]، يتحدث القرآن الكريم عن جمع عقلاء، وجاء الأسلوب التعبيري متناسباً مع العاقل، ومن ذلك: (هم)، و(واو الجماعة).

(١) سورة النساء/ ٦٤.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ المقصود من المستوى الوضعي: ما وضعته اللغة للتعبير الحقيقي الأصلي، أما المستوى الاستعمالي فهو أعمّ من الحقيقة والمجاز، فالعربية وضعت الضميرين (هم)، و(واو الجماعة) للعاقل، وكذلك فعلت مع (مَن) موصولة كانت أم شرطية أم استفهامية، لكنّها لا تمنع من استعمال ذلك - مجازاً - لغير العاقل لغايات بلاغية.

٢- الحديث عن غير العاقل بأسلوب غير العاقل:

وهنا يكون المتحدَث عنه غير عاقل، وأسلوب التعبير يستعمل ما وضعته العربية ليدلّ على غير العاقل، فهناك ـ أيضاً ـ تطابق مضمونيّ بين الدالّ والمدلول، وشكليّ بين المستويين الوضعي والاستعمالي.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾[1].

فالحديث هنا عن المصاديق التي تنتمي إلى دائرة نوعين مما لا يعقل هما: الجماد (الفُلك/ السفن)، والحيوان (الأنعام/ البهائم)، وجاء التعبير عنها بالاسم الموصول (ما)، الذي وضعته العربية لغير العاقل.

٣- الحديث عن العاقل بأسلوب غير العاقل:

وهنا يكون المتحدَث عنه عاقلاً، لكنّ أسلوب التعبير يتحدث عنه بأسلوب غير العاقل، أي أنّه لم يتمّ التطابق بين الدالّ والمدلول من الناحية المضمونية، فالمدلول عاقل، لكنّ الدالّ مما وُضع لغير العاقل، وهذا يعني حصول انزياح في الأسلوب، وانحراف لغوي في المستوى الاستعمالي عن الوضعي، فلم يتطابق المستويان.

ومن هذا قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * ولا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾**[2].

فالكلام في **﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾** التي وردت مرتين يعود على الله، لكنّ القرآن الكريم لم يقل: (ولا أنتم عابدون مَن أعبد).

(١) سورة الزخرف/ ١٢.
(٢) سورة الكافرون/ ١- ٦.

وقد جاء مثله في سؤال النبي يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾(١)، وفي (دعاء الصباح) يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً الله تعالى: «مَن ذا الذي يعلم ما أنتَ فلا يهابكَ؟»(٢).

فاستعمل النبي يعقوب اسم الاستفهام (ما): ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي**﴾، بدلاً من استعمال اسم الاستفهام (مَن): (مَن تعبدون من بعدي؟)، واستعمل الإمام علي عليه السلام الاسم الموصول (ما): (يعلم ما أنت) بدلاً من الاسم الموصول (مَن): (يعلم مَن أنتَ).

وقد تقدّم أنّ العربية وضعت (مَن) للعاقل، و(ما) لغير العاقل.

٤- الحديث عن غير العاقل بأسلوب العاقل:

وهنا يكون المتحدَث عنه غير عاقل، لكنّ أسلوب التعبير يتحدث عنه بأسلوب العاقل، أي أنّه ـ كذلك - لم يتمّ التطابق بين الدالّ والمدلول من الناحية المضمونية، فالمدلول غير عاقل، لكنّ الدالّ مما وُضع للعاقل، ويعني - كذلك - عدم التطابق الأسلوبي بين المستوى الوضعي والاستعمالي.

وسنخصّص دراستنا هذه لدراسة هذا الأسلوب (الحديث عن غير العاقل بأسلوب العاقل)، ونسعى لدراسته في القرآن الكريم.

ولا يفوتنا أن نوضّح أنّ الأسلوبين اللغويين الأولين من هذه الأساليب الأربعة يدخلان ضمن الاستعمال الحقيقي المباشر، وليس فيهما أي إزاحة لطريقة الاستعمال، فالأسلوب موافق ومطابق للمدلول، أما الأسلوبان الثالث والرابع، فيدخلان - ضمن الرؤية اللغوية - في الأسلوب المجازي غير المباشر، ومن ثمّ ففيهما انزياح لغوي استعمالي.

القرآن الكريم والحديث عن غير العاقل:

بعد التطواف السابق في بعض المداليل اللغوية، نضع مقاربة أولية لطريقة التعبير القرآني عن تلكم الأمور التي اصطلحنا على تسميتها - لغة - بغير العاقل؛ لنرى طبيعة

(١) سورة البقرة/ ١٣٣.

(٢) الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان/ ٦١- ٦٢.

التعبير القرآني عنها، وهل تبنّاها القرآن أم كانت له طريقته الخاصّة التي يدرك بها الأشياء ويصنّفها!!، وسنوزّعها على ثلاث لوحات هي: لوحة ما قبل الدنيا، ولوحة الدنيا، ولوحة الآخرة.

أولاً: لوحة ما قبل الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[1].

هناك فرق بين الأسماء والمسمّيات، فـ(الأسماء) هي الكلمات التي ترمز للأشياء، و(المسمّيات) هي تلك الأشياء، والله سبحانه يتحدث في بداية الآية أنّه ﴿**عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾، وما دام الحديث عن الأسماء، فكان التعبير النسقي أن يستمر الأسلوب بما يقتضيه من ضمائر وأسماء إشارة وغيرها جارياً على أسلوب غير العاقل؛ ليكون الكلام مثلا: (ثمّ عرضها على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هذه، قال: يا آدم أنبئهم بأسمائها، فلما أنبأهم بأسمائها).

بيد أنّ القرآن الكريم جاء في كلّ ذاك بما يناسب العاقل، فاستخدم (ميم الجمع) الخاصّة بالذكور العقلاء (ثمّ عرضهم/ بأسمائهم/ بأسمائهم)، كما استخدم اسم الإشارة (هؤلاء) الخاصّ بالجمع المذكر العاقل!!

وهذا ما حدا ببعض الفقهاء أن يقول: إنّ الآية تتكلم عن (المسمّيات) لا (الأسماء)، فقال السيّد الشريف المرتضى: «فأما قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ**﴾ فلا يليق إلا بالمسمّيات دون الأسماء؛ لأنّ هذه الكنايات لا تليق بالأسماء، وإنّما تليق بالعقلاء من أصحاب الأسماء، أو العقلاء إذا انضمّ إليهم غيرهم مما لا يعقل؛ على سبيل التغليب لما يعقل، كما يُغلّب المذكر على المؤنث إذا اجتمعوا في الكناية»[2].

ونهاية كلام الشريف المرتضى تعرض أحد احتمالين للتعبيرات بأسلوب العاقل:

---

(١) سورة البقرة/ ٣١ـ ٣٣.

(٢) السيّد الشريف المرتضى، رسائل المرتضى، تقديم: السيّد أحمد الحسيني، إعداد: السيّد مهدي الرجائي ٣/ ١١٢.

أـ أن يكون الكلام عن مسـمّيات عاقلـة كانت موجودة آنذاك، وهم الذين عرضهم الله على الملائكة، ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء﴾، ثمّ طلب من آدم أن ينبئهم بأسمائهم، فأنبأهم بأسمائهم. ويشير الشريف إلى هذا الرأي بقوله: «وإنّما تليق بالعقلاء من أصحاب الأسماء».

ب – أن يكـون الكلام عن مسـمّيات عاقلة وأخرى غيـر عاقلة موجودة آنذاك، فـكان الـكلام عن عاقـل وغير عاقل معاً في سـياق واحـد، وهو أحد مـوارد التغليب في البلاغة العربية، ويقضي بجواز اسـتعمال ما يناسـب العاقل مـن ضمائر ونحوها، فخاطـب الله ذاك المجموع المشـترك من عاقل وغيره بما سـبق من كلام، ويشـير له الشـريف بقوله: «أو العقلاء إذا انضمّ إليهم غيرهم مما لا يعقل؛ على سـبيل التغليب لمـا يعقـل».

ثانياً: لوحة الدنيا:

وقد تحدث القرأن الكريم في هذه اللوحة عن أشـياء غير عاقلة من عالم الإنسـان، وعن عالم الحيوان، وعن عالم الطبيعة والجماد، وسـوف نسـتقدم بعض الآيات القرآنية في هذه الحقول الوجودية الثلاثة؛ لنرى طبيعة الأسلوب القرآني في التعاطي معها والتعبير عنها:

١ – عالم الإنسان:

يقـول اللـه تعالـى: ﴿إِن نَّشَـأْ نُنَـزِّلْ عَلَيْهِـم مِّـن السَّـمَاء آيَـةً فَظَلَّـتْ أَعْنَاقُهُـمْ لَهَـا خَاضِعِينَ﴾(١).

وواضـح أنّ الحديـث فـي ﴿فَظَلَّـتْ أَعْنَاقُهُـمْ لَهَـا خَاضِعِينَ﴾ عن بقـاء أعناقهم خاضعـة للآية المنزلة، وأنّ التعبيـر اللغوي التلقائي هو (فظلـت أعناقهم لها خاضعة)، فالأعنـاق ـ وهـي بعـض الإنسـان – ليسـت عاقلة، ومـن ثمّ يُعبّـر عنها بجمع التكسـير (خاضعـة)، أو بجمع المؤنث السـالم (خاضعـات)، لا بجمع المذكر السـالم الخاصّ بالذكـور العقلاء، بيد أنّ الآيـة تحدثت عن تلك الأعناق بأسـلوب الحديث عن العاقل فقالت: ﴿خَاضِعِينَ﴾.

---

(١) سورة الشعراء/ ٤.

٢- عالم الحيوان:

أ- النحل:

النحل - ضمن مستوى الإدراك والتصنيف عند البشر - حشرة غير عاقلة، وهبها الله سلوكاً غريزياً تقوم بمقتضاه بصنع بيوت (خلايا شمعية)، وتعتصر رحيق الزهور؛ فتنتج العسل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

وفي هاتين الآيتين يبرز في الأسلوب القرآني إبلاغ الوحي الإلهي للنحل ولو كان على سبيل الإلهام لا الملاك، كما يبرز في الأسلوب كثافة أفعال الأمر الموجّهة للنحل مباشرة: (اتخذي، كلي، اسلكي).

فهل يعي النحل ما يوحي الله إليه به، وينفّذه في الطبيعة من حولنا؟، وهل يفهم الأمر المحتاج إلى إدراك لمعرفة معناه وتطبيقه؟، لو كانت الإجابة: لا..؛ لكان عبثاً من الله أن يوجّه وحيه وأوامره إلى أشياء لا تفهم ولا تعي، ولكان ذاك لغواً تنزّه الله تعالى عنه، ولكنّها صورة من عالم نحن الذين لا نعيه ولا نعرف حقيقته.

ب- النمل:

النمل، - كالنحل - حشرة غير عاقلة، لكنّ الله - سبحانه - حين يتحدث عنها في قصة نبيّه سليمان عليه السلام يقول: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

فالنملة تعلم خطورة مشي سليمان وجنوده، وإمكان سحق أرجلهم للنمل، وهي إزاء هذا الإدراك لم تقف مكتوفة الأيدي واللسان، بل.. انطلقت غيرتها على بنات جنسها لتحذيرها من ذاك الخطر الماثل، ومن ثمّ تكلمت، وصدعت بخطاب طويل ممتدّ: ﴿قَالَتْ

(١) سورة النحل/ ٦٨- ٦٩.

(٢) سورة النمل/ ١٨- ١٩.

نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

كما أنّ تلك النملة استطاعت أن تميّز أنّ هذا القادم هو (سليمان) وليس شخصاً آخر، وأنّ الذين معه هم (جنوده) وعسكره، وليسوا تجّاراً أو رجالاً عاديين أو متنزّهين!!، فمن أين لها فهم ذلك، أم أنّ القرآن قوّلها ما لم تقل، وصاغ قولها وحديثها صياغة مجازية درامية حركية؟!

وتلك النملة في الأسلوب التعبيري القرآني لم تقل: (يا أيها النمل ادخلن مساكنكن، لا يحطمنّكن سليمان وجنوده)، ولا (يا أيها النمل ادخلي مساكنكِ، لا يحطمنّكِ سليمان وجنوده)، بل.. استعملت لرفيقاتها من النمل (واو الجماعة) و(ميم الجمع) – وكلاهما خاصّ بالذكور العقلاء –، وقالت: **﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾**!!

والدليل على أنّ ما فعلته هو تحذير حقيقي بلغة النمل أنّ النبي سليمان عليه السلام فهم قولها **﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾**، وشكر الله أن علمه ذلك **﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾**، وأنّ القرآن عبّر – من جديد – عن ذلك بـ**﴿مِّن قَوْلِهَا﴾**، ولم يقل: (من فعلها)، أو (من تصرّفها)، أو غير ذلك من البدائل والإمكانات اللغوية المتاحة له، وهو الكتاب العربي المبين.

ج – الهدهد:

استمراراً لقصص النبي سليمان عليه السلام مع جيشه السابق الذي حشره وسار به في وادي النمل، أخذ سليمان يتفقد جنوده ففقد الهدهد:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * ألا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[١].

---

(١) سورة النمل/ ٢٠– ٢٨.

والهدهـد – فـي عرفنـا اللغـوي والطبيعي – طير ينـدرج في دائرتـه الكبرى ضمن الحيوانات غير العاقلة شـأنه شأن سائر الحيوانات الأخرى، بيد أنّ الآيات الكريمة تعطيه مجموعة من الصفات التي لا يقوم بها إلا عاقل فطن:

– فبدءاً من إدراج النبي سليمان له ضمن جمع المذكر السالم مرتين في (الغائبين/ الكاذبين)، ولو كان على نحو التغليب بإدراجه ضمن (غائبين/ كاذبين) من زمرة العقلاء (البشر/ الجنّ).

– ومـروراً بتعامـل النبي سـليمان معه معاملـة المكلّف الذي ينالـه (العقاب) على التقصير: ﴿**مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾.

– ومتابعـة بجرأة الهدهـد وصراحته وعدم تملّقه أمام الحاكم وإن كان قوياً، ليقول له علناً: ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**﴾، بخلاف العادة الشائعة بين بني البشر – لاسيما أرباب القصور ومرتاديها – من التملّق للحاكم، واستصغار النفس وإذلالها أمامه.

– ومواصلـة بقدرتـه العاليـة علـى الفهـم والإدراك، والنقـل والإبـلاغ، والحوار والمحاججـة؛ الـذي أتـاح لـه القدرة علـى نقل ما يجـري في مملكة سـبأ للنبي سـليمان باطمئنـان ويقيـن: ﴿**وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾، وفهمـه أنّ الذي يحكمهـم امرأة، وأنّ قدراتهـا التقنيـة – بمقياس زمانهـا – فائقة ﴿**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾، وأنّها ﴿**وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ**﴾، فهل يدرك طير كلّ هذا؟!

ومن الغرابة بمكان أن يرتجل ذاك الهدهد خطبة عصماء على رأس النبي سليمان، توضّح أنّه طير يُدرك مَن الذي يستحقّ العبادة ومَن الذي لا يستحقّ، وأنّ قوم سبأ يسجدون للشـمس ويعبـدون غير اللـه، وأنّ أعمالهم تلـك نتيجة تزيين الشـيطان وإضلاله لهم عن السـبيل، وأنّ ثمة أشـياء خفية مخبوءة في السـماوات والأرض يخرجها الله، وأنّ أعمال البشـر تتـوزّع بين خفـيّ وظاهر، كما يدرك وحدانيـة الله – تعالى – وربوبيتـه: ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾.

«فـإن قلـتَ: من أين للهدهد التهدّي إلى معرفة الله، ووجوب السـجود له، وإنكار سـجودهم للشـمس، وإضافته إلى الشـيطان وتزيينه؟!. قلتُ: لا يبعد أن يلهمه الله ذلك

كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارفَ اللطيفة التي يكاد العقلاء الرّجاح العقول يهتدون لها»[١].

وإذا تيقظنا إلى دقة التعبيرات القرآنية وأنّه لا يقوّل الأشياء ما لم تقل، سنقف عند غرابة تعبيرية لدى ذلك الطير، فهو حين يعبِّر عن عرش بلقيس فيقول: ﴿**وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾، لا ينسى ما لدى الله، فيقابل ما رآه لديها بما لدى الله – سبحانه – ويقول: ﴿**رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾.

– وختاماً بتحميله مسؤولية الإكمال كما تحمّل مسؤولية الابتداء بالذهاب ونقل الحدث بأمانة وصدق، وتكليفه بحمل الكتاب إليهم: ﴿**اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**﴾، وهل يثق نبي في طير فعلُهُ غريزي لا يدرك كيفية أدائه أن ينطلق من جديد حاملاً رسالة من فلسطين إلى اليمن، ليلقيها عند قوم محددين دون سواهم، وقد فعل ذلك فعلاً؛ فجاءت آيّ الذكر الحكيم لتعرض النتيجة، ووقوع الكتاب بين يدي ملكة سبأ: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾[٢].

وهكذا أسهم حسّ المسؤولية الذي يتقد به هذا الهدهد الضعيف في دخول أمة كاملة في الدين الحقّ واعتناق الملكة نفسها له، مع كونه طيراً خفيفاً تعبث به الريح في قطع هذه المسافات الطوال، ويكظّه الجوع والظمأ والجهد، لاسيما وأنّ الحديث ليس عن نسر أو صقر أو عقاب، أو غير ذلك من الطيور الجوّابة المعتادة على طيّ الآفاق.

وهي رسالة يقدّمها هذا الهدهد لبني الإنسان في لزوم حمل المسؤولية وأدائها بأمانة، ولو كلّف حملها الأتعاب والمشاقّ، لاسيما وأنّ حسّ المسؤولية كلّف الهدهد ما لا يقل عن ثلاث سفرات بين فلسطين واليمن: سفرة الذهاب، وسفرة العودة لسليمان، وسفرة حمل الكتاب إليهم، وربّما سفرة رابعة في الرجوع إلى سليمان بعد إلقاء الكتاب.

وحتى لا نصاب بحالة من الصدمة والذهول حين نقرأ عن جيش سليمان أنّه يضمّ بين جناحيه جنّاً وطيوراً!!، وحين نقرأ قصة النملة العالمة المخلصة وفهمه لحديثها!!، وحين نطالع قصة الهدهد العبقري الفتان ودوره الكبير في حمل وأداء الأمانة!!؛ حتى لا تقع تلك الصدمة مهّدت آية شريفة، فكانت المدخل للولوج إلى تلك القصص، وكانت

(١) تفسير الكشاف، تحقيق: خليل مأمون شيحا/ ٧٨١.
(٢) سورة النمل/ ٢٩– ٣١.

المفتتَح المهيء لما بعده، وأضحت الآية الأولى في قصص سليمان تلك لتخبرنا بمفتاح يفكّ الألغاز الآتية، وقالت: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾(١).

فسليمان النبي عنده (منطق الطير)، وفوق ذلك أعطاه الله ﴿**مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾، فكانت تلك الهبة الإلهية مدخلاً للتعامل فوق البشري مع كائنات من عوالم أخرى، بعضها من عالم طبيعتنا المشهود، لكنّه ينتمي لعالم الحيوان، ومما فيه الطيور (كالهدهد) والحشرات (كالنمل)، وبعضها الآخر من خارج عالم طبيعتنا، حيث عالم الجنّ.

وهذا بدوره يوضّح لنا وجود سبل غير بشرية تسهم في نقل المعلومات للأنبياء وأداء رسالتهم لمن أرادوا، ومنها هذا الطير الذي كشف الله قصته، وإلا.. لظنّنا أنّ وحياً إلهامياً أو عبر الملك هو الذي أوصل خبر أمة سبأ للنبي سليمان، وأنّ ملكاً نقل رسالته إليهم.

د- الدوابّ:

يقول الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(٢).

تقدّم أنّ اللغة العربية ترى أنّ (الدابة): «اسم لما دبّ من الحيوان: مميّزة وغير مميّزة»(٣)، «وتُطلق الدابة على الذكر والأنثى وكلّ ماشٍ على الأرض، حتى الطير؛ لأنّه يدبّ برجليه في بعض حالاته»(٤).

والدابة فيما تمشي عليه أصناف كثيرة، حين جاء الكتاب العزيز لتشقيقها وبيانها وتصنيفها لم يحبِّذ المجيء بضمير (هاء الغيبة)؛ ليعود على الدابة، فيقول: (فمنها ما يمشي على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع)، بل فضّل الحديث عن الجميع بما يناسب العاقل، فجاء ضمير (هم)، والاسم الموصول (مَن)، وهما معاً للعاقل، فقال: ﴿**فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن**

---

(١) سورة النمل/ ١٦.
(٢) سورة النور/ ٤٥.
(٣) لسان العرب ٤/ ٢٧٨، مادة: (دبب).
(٤) مجمع البحرين ٢/ ٥٤، مادة: (دبب)، والمصباح المنير/ ٧٢، مادة: (دبب).

يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾.

والقسـم الأول مـن هذه الكائنات - وهو الذي يمشـي على بطنـه كالزواحف - لا يتسم بالعقل، وكذلك الحال مع القسم الثالث منها، وهو الذي يمشي على أربع كالبهائم، ويبقى القسـم الثاني - وهو ما يمشـي علـى رجلين - فيه العاقل كالإنسـان، وغير العاقل كالطيـور، ولكنّ القرآن عبّر عن الأقسـام الثلاثة معاً بشـكل واحد، وتحـدّث عنها حديثه عن العاقل.

يقول الزركشي: «لما تقدّم لفظ (الدابة)، والمراد بها: عموم مَن يعقل ومَن لا يعقل؛ غلّب مَن يعقل، فقال: ﴿**فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي**...﴾»[١].

٣- عالم الجماد والطبيعة:

أ- السماوات والأرض:

السماوات والأرض - ضمن التصنيف التعبيري في اللغة العربية - من الأشياء غير العاقلة، ويناسـبها الصيغ اللفظية والمعنوية الدالة على ذلك، بيد أنّ بعض الاسـتعمالات القرآنية تعاملهما بطريقة أخرى:

يقول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[٢].

وهنا نشهد أنّ القرآن الكريم يثبت لهما الفهم والتلقي ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ**﴾ - ولو على المسـتوى التكويني الخفيّ -، الأمر الذي يؤهلهمـا لتلقي الأمر الإلهي ﴿**اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا**﴾، كما يجعلهما تدخلان في حوار مع الله ﴿**قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾.

وسـواء أقالتا ذاك بلسـان المقال أم بلسـان الحال، فإنّهما في محضر الباري تعالى تفهمان ما يريد منهما، وتجيبان عليه.

ولعـلّ أبـرز ما يميّز لغة التعبير القرآنـي في هذه الآية هو كلمـة ﴿**طَائِعِينَ**﴾ الواردة فـي ذيلهـا، وهو من جمع المذكر السـالم الذي وضعته العربية للذكـور العقلاء، ولم يقل القرآن: قالتا: (أتينا طائعتين)، ولا (أتينا طائعات).

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٩٤.
(٢) سورة فصّلت/ ١١.

وفي آية أخرى يقول - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾[1].

وهنا تصبح السماوات والأرض صاحبتي فهم يؤهلهما لعرض الأمانة عليهما، وتملكان الإرادة والفعل والرفض (الإباء الطبيعي التكويني): ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، وتخافان ألا تستطيعا حمل ذاك الثقل ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

وفي آية ثالثة يقول الكريم - جلّ جلاله - في قصة النبي نوح عليه السلام: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

فيبرز أسلوب النداء: (يَا أَرْضُ/ يَا سَمَاءُ)، كما يبرز توجّه الأمر لهما، فيُصدر الباري تعالى أمره إلى الأرض أن ﴿ابْلَعِي مَاءكِ﴾، وللسماء أن ﴿أَقْلِعِي﴾.

وقدّمنا أنّ طريقة الاستعمال هذه المحملة بالنداء والأمر والحوار، وما يصاحبها من إقبال وفهم وامتثال، هي الطريقة التي تتخذها العربية - في الاستعمال الحقيقي - للعاقل، وتجيزها في الاستعمال المجازي لغير العاقل، لكنّ الآيات محفوفة بقرائن تصرف المعنى عن دلالة المجاز، فالله يصدر أوامر تشريعية فعلية يريدها أن تقع وتتنجّز، وتمّ امتثالها وتطبيقها من قبل من خوطب بها وصدرت إليه.

ب- الشمس:

الشمس جرم متوهج في السماء يصدر عنه الضوء والحرارة، لكنّه ليس عاقلاً، لكنّ القرآن الكريم يقول عنه: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[3].

ومعنى (تزاور): تميل وتعدل[4]، ومعنى (تقرضهم): تعدل عنهم وتبتعد، وتتركهم

(١) سورة الأحزاب/ ٧٢.

(٢) سورة هود/ ٤٤.

(٣) سورة الكهف/ ١٧.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، م٣، ج ٦، ص ٧٠٣، وانظر المعنى اللغوي لـ(تزاور) في: لسان العرب ٦/ ١١٠، مادة: (زور).

وتتجاوزهم[١]، وهما فعلان مضارعان يدلان على التجدد والحدوث لاسيما مع اقترانهما بفعليـن يتجددان كلّ يوم هما (الشـروق/ والغروب)، واقترانهما بأداة الشـرط (إذا) التي تُستعمل لما يُستقبل من الزمان، ومع استمرار هذا الفعل (تزاور/ تقرض) لمدة ٣٠٩ من السنين: ﴿**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**﴾[٢].

قـال الفـرّاء: «كانـت تطلـع علـى كهفهـم ذات اليميـن ولا تدخـل عليهـم، وذات الشـمال»[٣]، أي وتغرب عن كهفهم ذات الشـمال، ولا تدخل عليهم، فهي في الصورتين تميل عن كهفهم فلا تصيبهم حرارتها اللاسعة الموقظة.

والميـل والعدول عن الكهف يحتاج إلى فهم وإدراك أنّ هذا كهفهم، وأنّ هذه هي الجهة اليمنى المطلوب العدول إليها عند الشـروق، فالعدول مخصوص متعلّق بكهفهم: ﴿**وَتَرَى الشَّـمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ**﴾، ومرة أخرى يحتاج إلى فهم وإدراك أنّ هـذا كهفهـم المطلوب العدول عنه إلى جهة الشـمال عند الغـروب، وأنّ هذه جهة الشـمال: ﴿**وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ**﴾، وذاك يحمل في طياته – إلى جانب الفهـم والإدراك – إرادة وعزمـاً مسـتمرّين ممتدّين في طول الزمـن، يحرصان على توفير الراحة والسكن لهم في الكهف، وعدم تنبيههم بوهج الضوء ولسع الحرارة.

ج- الكواكب:

حكـى النبـي يوسـف الصديـق عليه السلام لأبيه يعقـوب عليه السلام ذات يوم رؤيـا رآها في المنام: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُـفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَـرَ كَوْكَبًا وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[٤].

والكواكب والشـمس والقمر ضمن التصنيف اللغوي مـن الجمادات غير العاقلة، لكنّ الآية القرآنية لم تقل: (رأيتها لي ساجدة)، بل.. استخدمت (ميم الجمع) التي تخصّ الذكـور العقلاء في ﴿**رَأَيْتُهُمْ**﴾، واسـتخدمت جمع المذكر السـالم الخـاصّ – كذلك – بالذكور العقلاء في ﴿**سَاجِدِينَ**﴾.

---

(١) نفسه، م٣، ج ٦، ص ٧٠٣، وانظر المعنى اللغوي لـ (تقرض) في: لسان العرب ١١/ ١١٣، مادة: (قرض).

(٢) سورة الكهف/ ٢٥.

(٣) يحيى بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار ٢/ ١٣٦– ١٣٧.

(٤) سورة يوسف/ ٤.

وذاك إما لأنّ المقصود من هذه الظاهرة (الكواكب/ الشمس/ القمر): إخوته وأمه وأبوه، الأمر الذي فهمه النبي يعقوب عليه السلام في مبتدأ القصة فقال لابنه النبي يوسف عليه السلام: **﴿يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾**[(١)]، وهو نفسه الأمر الذي حصل في خاتمة مطاف القصة، فبعث يوسف عليه السلام إلى إزاحة اللثام عن سرّه الدفين المكتوم: **﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**[(٢)].

وإما لأنّه نزّل تلك الأشياء منزلة العاقل؛ نظراً لما يستتر في داخل أحشائها من تأويل رؤيوي يعرفه ويدركه بوصفه نبياً ويدركه أبوه النبي، خصوصاً إذا عضدنا ذلك بأنّ «رؤيا الأنبياء وحيٌ»[(٣)] - كما قال أمير المؤمنين عليه السلام -، لا مجرّد حلم مرّ في المنام.

والشاهد في الجميع أنّ لغة الخطاب لهذه الأشياء المندرجة في وصف غير العاقل، جاء بصيغة العاقل!!

د- الأجرام السماوية:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٤)].

والآية الثالثة هنا تتحدث عن نظام التوالي والتتابع في الظهور بين الشمس والقمر، وظهور كلّ منهما في حينه، ثمّ تتحدث الآية عن أنّ جميع الأجرام في حركة دائمة، ومع أنّ الكلام عن الأجرام - وهي غير عاقلة - لكنّ القرآن الكريم لم يقل: (وكلّ في فلك يسبح)، أو (وكلّ في فلك تسبح)، أو (وكلّ في فلك سابحة)، وإنّما قال: **﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**، فجاء الفعل المضارع (يسبحون)؛ ليحمل فيه واو الجماعة التي تُستعمل للجمع العاقل.

---

(١) سورة يوسف/ ٥.

(٢) سورة يوسف/ ١٠٠.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ٨/ ٢٤٨، ح ٩٠١٩.

(٤) سورة يس/ ٣٨- ٤٠.

هـ - الأصنام:

الأصنام شيء لا يعقل تحدثت عنه بعض آيات الذكر الحكيم فقالت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(١)، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا﴾(٢).

ويظهر في هاتين الآيتين أنّ القرآن يتحدث عن الأصنام بلغة غير العاقل التي يحكيها الاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، التعبير الوارد في الآيتين معاً، وضمائر الإناث التي لا تختصّ بالعاقل: (هنّ/ كاشفات/ هنّ/ ممسكات).

ويقول - تبارك وتعالى -: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(٣).

وقد حصل انزياح في هذه الآية، فتركت القول: (ما نعبدها إلا لتقرّبنا)، وذكرت ميم الجمع في ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، وواو الجماعة في ﴿إِلا لِيُقَرِّبُونَا﴾، وهي تعبيرات تنطلق من حنجرة الكافرين الذين يزدهون بعبادة تلك الأشياء.

ربّما كان المقصود من هؤلاء المعبودين: الأولياءَ الذين اتخذوهم (أرباباً)، وهم من الملائكة والجنّ وقديسي البشر، ممن يدّعون أنّ الله فوّض إليهم تدبير شؤون العالم، فهم أرباب وآلهة، والله ربّ الأرباب وإله الآلهة المتعالي عن الإدراك، فيتنزّه عن أن يقع عليه توجّه عبادي، وأنّ الأصنام المصنوعة المنصوبة في الهياكل والمعابد ما هي إلا تماثيل لتلك الأرباب(٤).

وعلى هذا التوجيه لا مانع من استخدام أسلوب العاقل لها؛ لأنّهم إنّما قصدوا الملائكة والجنّ وقديسي البشر، وهي عاقلة، والأصنام - في نظرهم - تعبير رمزي وصوري عن تلك الكائنات العاقلة.

---

(١) سورة الزمر/ ٣٨.
(٢) سورة مريم/ ٤٨.
(٣) سورة الزمر/ ٣.
(٤) الميزان في تفسير القرآن ١٧/ ٢٣٣- ٢٣٤.

وفـي آيـة أخرى يقـول الذكر الحكيم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾(١).

فما المقصود بـ (مَن لا يَسْتَجِيبُ)؟:

- هناك من يرى أنّ المقصود بها خصوص الأصنام(٢).

- وهناك من يرى أنّ المقصود بها: الأصنام الحجرية، والأصنام البشرية (سلاطين الجور والمترفين وأشياعهم)، والأموات(٣).

وإذا اعتبرنا أنّ المقصود منها الأصنام وغيرها، فلا مشكلة في الأسلوب اللغوي؛ لأنّ ذلك سيُحلّ عبر (التغليب) الذي يجيز عند مشاركة غير العاقل للعاقل في شيء استعمال ما يناسب العاقل من ضمائر وأسماء موصولة وغير ذلك..

لكن.. إن أريد بها الأصنام وحدها فسوف نقف في الأسلوب القرآني عند التعبير المكثّف عنها بأسلوب العاقل، بدءا من الضمائر: (هـم)، و(واو الجماعة)، ومروراً بـ (ميم الجمع) الخاصّة بجمع العقلاء، وختاماً بـ (جمع المذكر السالم) الخاصّ بالمذكر العاقل: ﴿وَهُمْ﴾، ﴿دُعَائِهِمْ﴾ ﴿غَافِلُونَ﴾، ﴿كَانُوا﴾، ﴿كَافِرِينَ﴾، ولو تحدث عنها بأسلوب غير العاقل لقال: (وهي عن دعائهم غافلة، وإذا حُشر الناس كانت لهم أعداء، وكانت بعبادتهم كافرة).

ويقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤).

وفي هذه الآية اجتمع الأسلوبان معاً: فقد عبّر عنها بأسلوب غير العاقل في ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، فجاءت (ما/ الموصولة) التي تُستعمل لغير العاقل، بيد أنّ قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ جاء حاملاً لواو الجماعة الخاصّة بالذكور العقلاء، ولو تابع الأسلوب الأول لقال: (ماذا خلقت).

(١) سورة الأحقاف/ ٥- ٦.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، م٥، ج ٩، ص ١٢٥.

(٣) من هدى القرآن ١٣/ ١٣١، ولذلك لخّص السيّد الطباطبائي تلك الأقوال وقال: المقصود بها: الأصنام فقط، أو هي وغيرها (الميزان في تفسير القرآن ١٧/ ٣٨١).

(٤) سورة الأحقاف/ ٤.

ويقـول تعالـى: ﴿قُـلْ إِنِّي نُهِيـتُ أَنْ أَعْبُـدَ الَّذِيـنَ تَدْعُونَ مِـن دُونِ اللَّهِ لَمَّـا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْـلِمَ لِـرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، وردت في هذه الآية جملة ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُـدَ الَّذِيـنَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وهي تحمل الاسـم الموصول (الذين)، وهو يعود إلى الأصنام أو الأوثان التي يعبدونها(٢)، مع أنّ هذا الاسـم الموصول مما وُضع للعاقل. ومثـل هـذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٤).

ويظهـر في بداية هذه الآية أنّ الكلام عن غيـر العاقل الذي جيء للتعبير عنه بـ(ما) الموصولـة ﴿وَمَـا تَعْبُدُونَ﴾، ثمّ يأتي الكلام عن هذا المجموع الذي يضمّ بشـراً وأصناماً فيأتـي التعبيـر ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ التي تحوي الضميـر المنفصل (أنتم) الخاصّ بالجمع العاقـل المخاطب، كمـا يأتي جمـع المذكر السـالم (واردون) الخـاصّ بالجمع المذكر العاقل، وتنقل الآية الثانية الحديث عن الأصنام وحدها، فلا تقول: (لو كانت هذه آلهة ما وردتها) بما يناسب غير العاقل، بل قالت: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، فحملت مما يختصّ بالعاقل: اسم الإشارة (هؤلاء)، وواو الجماعة في (وردوها).

أمـا ختام الآيـة ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فيُحتمـل أن يقصد الأصنام وعابديها، ومن ثمّ جاء جمع المذكر السـالم ﴿خَالِدُونَ﴾ تغليباً للعقلاء، ولو كان هذا الختام يتحدث عن خصوص الأصنام فهو يعني أنّه هو الآخر عبّر عنها بأسلوب العاقل.

ولعلّ أوفى وأجلى موضع هو قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْـمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ

---

(١) سورة غافر/ ٦٦.

(٢) انظر: تفسير الرازي (التفسير الكبير ومفاتح الغيب)، م ١٤، ج ٢٧، ص ٨٦، والميزان في تفسير القرآن ١٧/ ٣٤٧، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٥/ ٢٨٥- ٢٨٦.

(٣) سورة الأنعام/ ٥٦.

(٤) سورة الأنبياء/ ٩٨- ٩٩.

لِّي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

فقد نُصّ فيها على أنّ الحديث عن الأصنام ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾، وجاءت التعبيرات من نبي الله إبراهيم عليه السلام لتحمل معها العديد من التعبيرات الموضوعة للعاقل، ومن ذلك: واو الجماعة (يسمعونكم/ ينفعونكم/ يضرون)، وميم الجمع (فإنّهم).

وقد جاءت تكملة هذا الموضع في سورة الأنبياء، فقالت الآيات:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * .... * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ﴾[٢].

وقد تكرّرت في هذا المقطع - أيضاً - للتعبير عن أصنام القوم وتماثيلهم صيغ العاقل، من ميم الجمع (فجعلهم/ كبيرهم/ اسألوهم)، إلى واو الجماعة (كانوا/ ينطقون/ ينطقون)، وانتهاء باسم الإشارة (هؤلاء).

و - نار إبراهيم:

النار - في مألوفنا الذهني واللغوي - شيء غير عاقل، يناسبه الحديث الأسلوبي المستعمل في غير العاقل، ومن ذلك أنّه لا يُنادى، ولا يُؤمر، ولو فُعل ذلك معه فسوف يُحمل على المجاز الذي يُراد به غير غرضه الأصلي كـ(التمني).

بيد أنّ الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٣].

وتميّز الأسلوب - هنا - بنداء النار ﴿يَا نَارُ﴾، وإصدار الأمر المباشر لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، وهذا الأمر يريدها أن تتخلى عن صورتها النوعية الملازمة للحرارة والإحراق لتتحوّل إلى صورة نوعية جديدة تكون فيها ﴿بَرْدًا وَسَلامًا﴾، وذاك ليس تحولاً مطلقاً لها على جميع الناس، بل هو مقصور على إبراهيم وحده، فهو أمر موجّه لنار واحدة (نار إبراهيم)، وموضوعها شخص واحد هو (إبراهيم)، ويستلزم منها تحولاً نوعياً.

ولا مجال لحمل هذا الأسلوب القرآني على المجاز؛ لأنّ الواقع الموضوعي يفيد حصوله الخارجي للنبي إبراهيم، وأنّه أمر حقيقي لا مجازي.

---

(١) سورة الشعراء/ ٦٩- ٧٧.
(٢) سورة الأنبياء/ ٥٨، ٦٣- ٦٥.
(٣) سورة الأنبياء/ ٦٩.

ز – الجدار:

والإرادة من لوازم الكائن العاقل الذي تتعدد أمامه الخيارات، فيُعمل عقله في اختيار أحدها، والإعراض عن الباقي، وهناك أشياء غير قابلة للإرادة وعدمها؛ لأنّ التقابل فيها بين الأمرين هو (تقابل المَلَكة وعدمها)، ومن ثمّ لا تُوصف بأنّها مريدة ولا غير مريدة، كما لا يُوصف الجدار بأنّه مبصر أو أعمى؛ لأنّ هذا الوصف (سالب بانتفاء الموضوع)؛ إذ ليست لديه أدوات الإبصار حتى يُقال أنّه مبصر أو أعمى**!!**

لكنّ القرآن حين يصف الجدار في قصة النبي موسى والخضر عليهما السلام يقول: **﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾**[1].

فهل نحمل كلمة (يريد) المستخدمة للجدار على أنّ المقصود منها (يكاد)، أو (يوشك)، وأنّه مجاز بلاغي تمّ فيه إحلال ما لا يعقل (الجدار) محلّ العاقل (الإنسان)، ومن ثمّ أُطلق عليه ما يناسب العاقل مجازاً.

قد يكون ذلك، وهو يثبت – وإن كان على أسلوب المجاز – وجود هذا الاستعمال الأسلوبي في القرآن الكريم، وإطلاق صفات العاقل على غير العاقل، بيد أنّا نميل – تبعاً لما قُرّر في العرفان – أنّ الأشياء في مقام الحقّ تعالى تعي وتفهم وتملك شيئاً من الإرادة والعلم، وأنّ تصنيفنا الصارم المحدود للعاقل وغير العاقل معتمد على مركزيتنا البشرية، ومركزية أدوات المعرفة (الحسّية والعقلية) عندنا، ومن ثمّ ينطلق تقسيمنا وتصنيفنا للأشياء من زاوية نظرنا وإدراكنا لها، لا من زاوية ما هي عليه في الواقع الفعلي الحقيقي.

أما النصّ القرآني والحديثي الثابت فهو وحيٌ مجالُ إدراكه أوسع من مجال إدراكنا الظاهري، ويرى من الحقائق مدى أوسع من المدى الذي يحويه إدراكنا المحدود، وحين يصنِّف الوحي الثابتُ أموراً على أنّها واقع يُقدّم ذلك على رؤيتنا التي تظنّه مجازاً.

ح – الأشياء:

يقول القرآن الكريم: **﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾**[2].

---

(١) سورة الكهف/ ٧٧.

(٢) سورة البقرة/ ١١٦.

فمع أنّ هذه الآية جاءت بـ(ما) التي تُطلق على غير العاقل فقالت: ﴿**لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، فإنّها لم تستمر في سياق الحديث بأسلوب غير العاقل لتقول: (كلّ له قانت)، بل عدلت إلى صيغة الحديث المناسب للعاقل، فقالت: ﴿**كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**﴾، بما تحمله صيغة جمع المذكر السالم من دلالة على العاقل.

ويقول القرآن الكريم: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾[1].

وهنا ينطلق التسبيح من ثلاثة اتجاهات:

الأول: السماوات والأرض: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ**﴾.

الثاني: مَن في السماوات والأرض: ﴿**وَمَن فِيهِنَّ**﴾.

الثالث: الأشياء: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ**﴾.

وهي ثلاث حلقات تشمل العالم المادي (السماوات والأرض)، والعالم العاقل ﴿**وَمَن فِيهِنَّ**﴾، وعالم الأشياء عموماً بما فيه من عاقل وغير عاقل ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ**﴾.

فتعبير ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ حمل في داخله الاسم الموصول (مَن) الدالّ على العاقل؛ ليشمل الكائنات العاقلة الموجودة في السماوات والأرض، سواء الداخلة في الحقل المعرفي عندنا من الأصناف الثلاثة (الملائكة/ الإنسان/ الجنّ)، أو غيرها مما لا نعلم!!

غير أنّ السماوات والأرض في عرفنا غير عاقلة، وكذلك الأشياء التي خارج دائرة (ومَن فيهن)، وقد أصرّت الآية على ذكر الحلقات الثلاث معاً؛ مما يبعد حمل (السماوات والأرض) على أنّ المقصود به: مَن فيهن من الكائنات العاقلة؛ لأنّ ذاك ذُكر مستقلاً، ولأنّ التعميم في الخاتمة جاء ليغطي دائرة كلّ الأشياء ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ**﴾.

فكلّ شيء في هذا الوجود يسبّح الله ويحمده، فهل هو عاقل يدرك توجّهه إلى الله دون سواه؟، وهل فعله ذاك قولي نجهل طريقته أم حالي وجودي يبرزه مقامه الوجودي؟، وهل للأشياء نصيب من العلم حتى تفقه التسبيح والحمد؟!

ولعلنا إزاء هذه التساؤلات نقف عند الأمور الآتية:

---

(١) سورة الإسراء/ ٤٤.

الأول: آيات القرآن تؤكد تسبيح الأشياء:

فالآيـة السـابقة ليسـت الآية الوحيدة فـي الذكر الحكيـم التي تحدثت عن تسـبيح الأشياء، فقد ذكرت آيات أخرى أنّ الأشياء - بشكل إجمالي عام - تسبّح الله:

- ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٢).

- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

وفي هذه الآيات جميعاً وردت (ما)، وهي - في التصنيف اللغوي - اسم موصول لغير العاقل، إذا أخذنا به كان مفاده أنّ ما نعدّه في اصطلاحنا غير عاقل هو هنا يسبّح الله، وأنّ تسبيح الله ليس مقصوراً على ما نعدّه عاقلاً مختاراً.

وإلـى جانب هذا الإجمال جاءت آيات أخرى فصّلت ذلك، وذكرت أشـياء بعينها تسبّح:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٤).

- ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٥).

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾(٦).

- ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾(٧).

- ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(٨).

---

(١) سورة الحشر/ ١، وسورة الصف/ ١.

(٢) سورة الجمعة/ ١.

(٣) سورة التغابن/ ١.

(٤) سورة النور/ ٤١.

(٥) سورة الأنبياء/ ٧٩.

(٦) سورة سبأ/ ١٠.

(٧) سورة ص/ ١٨.

(٨) سورة الرعد/ ١٣.

وهـذه الآيـات المفصّلة ذكرت أشـياء نعدّها غير عاقلة، ووصفتها بأنّها تسـبّح الله وتنزّهـه، ومـن ذلك: الطيور، والجبـال، والرعد، وإذا كان الأول منهـا (الطير) ينتمي إلى عالم الحيوان الذي نعدّه عالماً أعجم، ونفسّر حركاته بأنّها جبرية غريزية، فإنّ الثاني منها (الجبال) هو من عالم الجماد الذي لا صوت له ولا فعل أصلاً، والثالث منها (الرعد) هو ظاهرة طبيعية ليست إلا تفريغاً للشحنات الكهربية!!

الثاني: الروايات توضّح تسبيح الأشياء وفهمها:

وكون الأشياء - إجمالاً وتفصيلاً - تسبّح الله تعالى وتنزّهه، وتفهم وتفعل، ليست مسألة مقصورة على القرآن الكريم، فالروايات - كذلك - ذكرته، وفصّلت فيه.

- فقد ذكرت الروايات إجمالاً أنّ الأشياء تسبّح:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ نوحاً لما حضرته الوفاة دعا ابنيه، فقال: آمركما بسبحان الله وبحمده، فإنّهما صلاة كلّ شيء، وبها يُرزق كلّ شيء»(١).

- وذكرت تفصيلاً أشياء من عالم الحيوان تسبّح:

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «للدابة على صاحبها ستة حقوق: لا يحمّلها فوق طاقتها، ولا يتخذ ظهرها مجالس يتحدث عليها، ويبدأ بعلفها إذا نزل، ولا يسِمُها، ولا يضربها في وجهها فإنّها تسبّح، ويعرض عليها الماء إذا مرّ به»(٢).

وفي حديث آخر قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تضربوا وجوه الدوابّ؛ فإنّ كلّ شـيء يسبِّح بحمده»(٣).

وعـن أبي حمـزة الثمالي قال: «كنتُ عند علي بن الحسـين - عليه السـلام - فلما انتشـرت العصافيـر تصوّتتْ، فقال: يا أبا حمـزة الثمالي: أتدري ما تقـول؟، فقلتُ: لا..، قال: يقدّسن ربّها، ويسألنه قوت يومها»(٤).

---

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ١/ ٤٩، و جلال الدين السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ٩/ ٣٥٢.
(٢) الكافي/ ٩٧١، كتاب الدواجن، باب (نوادر في الدوابّ)، ح ١.
(٣) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٩/ ٣٥٢.
(٤) بحار الأنوار ٢٧/ ٢٦٩، الباب ١٦، ح ٢٠.

وعن الحشرات قال ﷺ: «النمل يسبِّحن»[١].

- وذكرت أشياء من عالم الجماد تسبّح:

روى الزهري أنّه أُتي أبو بكر بغراب وافر الجناحين، فقال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «ما صِيد صيد، ولا عُضدتْ عِضاه، ولا قطعتْ وشيجة، إلا بقلة التسبيح»[٢].

وهذا الحديث من رسول الله ﷺ يتكلم عن التسبيح لدى الحيوانات والطيور التي تستحضرها كلمة (صيد)، ولدى النبات الذي تستحضره كلمة (عضاه) وهي كلّ شجر له شوك[٣]، وجذور النبات وغصونه التي تستحضرها كلمة (الوشيجة)، وهي عروق الشجر، أو الأغصان التي تُصنع منها الرماح[٤].

وروى علقمة وابن مسعود قالا: «كنّا نجلس مع النبي ﷺ، ونسمع الطعام يسبّح ورسول الله يأكل، وأتاه مكرز العامري وسأله آية، فدعا بتسع حصيات؛ فسبّحن في يده، ونقل ابن عباس قال: قدم ملوك حضرموت على النبي - صلى الله عليه وآله وسلّم - فقالوا: كيف نعلم أنّك رسول الله؟، فأخذ كفاً من حصى، فقال: هذا يشهد أنّي رسول الله، فسبّح الحصى في يده، وشهد أنّه رسول الله»[٥].

وورد عن عائشة أنّها قالت: «دخل عليّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لي: يا عائشة، اغسلي هذين البردين، فقلتُ: يا رسول الله، بالأمس غسلتُهما، فقال لي: أما علمتِ أنّ الثوب يسبِّح، فإذا اتسخ انقطع تسبيحه»[٦].

وأما الحديث عن فهم الجوامد وفعلها:

فيقول النبي ﷺ: «إنّي لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعث، إنّي لأعرفه الآن»[٧].

(١) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٩/ ٣٥٤.
(٢) نفسه ٩/ ٣٥٦.
(٣) لسان العرب ٩/ ٢٥٨، مادة: (عضض).
(٤) نفسه ١٥/ ٣٠٥، مادة: (وشج).
(٥) بحار الأنوار ١٧/ ٣٧٩، الباب ٤، ح ٤٩.
(٦) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٩/ ٣٦٦.
(٧) بحار الأنوار ١٧/ ٣٦٨، الباب ٤، ح ١٦، وصحيح مسلم، م٤، ج ٧، ص ٥٨، كتاب الفضائل، باب (فضل نسب النبي، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة).

ويقول جابر بن عبد الله الأنصاري: «كنتُ إذا مشيتُ في شعاب مكة مع محمد ﷺ لم يكن يمرّ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليكَ يا رسول الله»[١].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة وجابر الأنصاري وابن عباس، وأبيّ بن كعب وزين العابدين عليه السلام: «أنّ النبي كان يخطب بالمدينة إلى بعض الأجذاع، فلما كثر الناس واتخذوا لـه منبراً وتحوّل إليه؛ حنّ [الجذع] كما تحنّ الناقة، فلما جاء إليه والتزمه كان يئنّ أنين الصبيّ الذي يسكت»[٢].

وينقل جابر بن عبد الله الأنصاري: «أنّ النبي ﷺ كان يقوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار - أو رجل -: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبراً؟، قال: إن شئتم، فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصّبي، ثمّ نزل النبي ﷺ فضمّه إليه، تئنّ أنين الصبي الذي يُسكَّت. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[٣].

وفي رواية ثانية نقل جابر: «أنّ امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه فإنّ لي غلاماً نجّاراً، قال: إن شئتِ، قال: فعملتْ له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صُنع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشقّ، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمّها، فجعلتْ تئنّ أنين الصّبي الذي يُسكَّت، حتى استقرّت»[٤].

الثالث: الفلسفة والعرفان وفهم الأشياء وعلمها:

تناولت بعض البحوث الفلسفية والعرفانية موضوع كون الأشياء تفهم وتعلم، ولو بنحو بسيط من الفهم والعلم، لا يصل إلى المستوى الذي بلغته الأصناف الثلاثة (الملائكة/ الإنسان/ الجنّ).

يقول الإمام الخميني: «لكلّ واحد من الموجودات علم وحياة ومعرفة، بل.. إنّ جميع الموجودات تحظى بالمعرفة لمقام الحقّ المقدس - جلّ وعلا -، فإنّ الوحي إلى الأعضاء والجوارح وبقاع الأرض بالكتمان، وإطاعتها للأمر الإلهي، وتسبيح

(١) بحار الأنوار ١٧/ ٣٦٤، الباب ٤، ح ٢.
(٢) نفسه ١٧/ ٣٨٠، الباب ٤، ح ٤٩.
(٣) صحيح البخاري، م ٢، ج ٤، ص ٢٣٧- ٢٣٨، باب (علامات النبوة في الإسلام).
(٤) نفسه، م ١، ج ٣، ص ٨٠، باب (النجّار).

الموجودات بأسرها الذي نصّ عليه القرآن الكريم، وأوردته الأحاديث الشريفة كثيراً..؛ كلّ ذلك دليل على علم وشعور وحياة الموجودات، بل دليل على الارتباط الخاصّ بين الخالق والمخلوق، لا يطّلع عليه أحد إلا ذاته المقدس - جلّ وعلا - ومن ارتضى من عباده.

وهذه الفائدة الدقيقة إحدى المعارف التي لمّح إليها القرآن الكريم وأحاديث الأئمة المعصومين، وتتطابق مع برهان الفلاسفة الإشراقيين وذوق العرفان ومشاهدات أصحاب السلوك والرياضة الروحانية»[1].

وقد علّق السيّد الطباطبائي على الآية السابقة: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾، فقال:

«كلامه تعالى مشعر بأنّ العلم سار في جميع الموجودات مع سريان الخلقة، فلكلّ منها حظ من العلم على مقدار حظه من الوجود، وليس لازم ذلك أن يتساوى الجميع من حيث العلم، أو يتحد من حيث جنسه ونوعه، أو يكون عند كلّ ما عند الإنسان من ذلك، أو أن يفقه الإنسان بما عندها من العلم»[2].

كما علّق عليها الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، فقال: «إنّ جميع الموجودات في العالم: الأرض والسماء، النجوم والفضاء، الأناس والحيوانات وأوراق الشجر، وحتى الذرات الصغيرة؛ تشترك جميعاً في هذا التسبيح العام.

يبيّن القرآن الكريم أنّ عالم الوجود قطعة واحدة من التسبيح والحمد، وأنّ كلّ موجود يؤدي هذا التسبيح، ويقوم به بشكل معيّن، ويثني على الباري - عزّ وجلّ -، وأنّ أزيز هذا التسبيح والحمد يملأ عالم الوجود المترامي الأطراف، ولكنّ الجهلاء لا يملكون قدرة سماع هذا الأزيز، بعكس المستبصرين المتأملين والعلماء الذين أضاء الله قلوبهم وأرواحهم بنور الإيمان، فإنّ هؤلاء يسمعون هذا الصوت بشكل جيّد، ويتلمسونه من جميع الجهات»[3].

«ومن جهة أخرى: فإنّ قسماً من العلماء يعتقدون أنّ كلّ موجود في العالم له

---

(١) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً/ ٣٣٢.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٣/ ١١٠- ١١١.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٩/ ١٠- ١١.

نصيب وقدر من العقل والإدراك والشعور، بالرغم من أنّنا لم ندركه، ولم نطلع عليه...، والعالم بأجمعه منشغل بحمد الله وتسبيحه وإن كنّا غير مطلعين على ذلك.

إنّ أولئك الذين فُتحت لهم عين الغيب يتبادلون أسرار الوجود مع كلّ موجودات العالم، ويسمعون نطق الماء والطين بصورة واضحة؛ إذ إنّ هذا النطق محسوس من قبل أهل المعرفة»(١).

الرابع: جهلنا بحقيقة التسبيح:

إنّ إدراكنا محدود، وسبلنا المعرفية (الحسّية/ والعقلية) محدودة، لكنّ الوحي – بوصفه مصدراً ثالثاً للمعرفة، ويفيدنا معرفة يقينية لا حدسية تخمينية – يخبرنا بحصول التسبيح من الأشياء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾، وأنّ المشكلة في الجهل بذلك ذاتية فينا: ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وهي لا تستدعي نفي الأمر عن الواقع الموضوعي الخارجي (في عالم الأشياء)؛ لأنّ لها لغة لا نفقهها، وقديماً قيل: «إنّ عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود».

وقد اختلفت آراء الفلاسفة والمفسّرين في حقيقة هذا التسبيح ونوعيته على آراء ثلاثة:

فبين من يرى أنّه تسبيح (تشريعي)، تقوله الكائنات بلسان القول، وأنّ جميع ذرات هذا الوجود لها نوع واحد من الإدراك والشعور، ولكنّنا لا ندركه ولا نسمعه.

وبين من يرى أنّه تسبيح (تكويني)، يحكيه لسان الحال لدى الكائنات الذي يشهد بعظمة الصفات الثبوتية لله، وينفي الصفات السلبية عنه.

وبين من يرى أنّه تسبيح (تشريعي تكويني)، يحكيه لسان القول والحال معاً(٢).

يقول السيّد الطباطبائي في تصوير الموضوع:

«والمراد بتسبيحها: حقيقة معنى التسبيح، دون المعنى المجازي الذي هو دلالة وجود كلّ موجود في السماوات والأرض على أنّ له موجِداً منزَّهاً من كلّ نقص متصفاً بكلّ كمال، ودون عموم المجاز وهو دلالة كلّ موجود على تنزّهه تعالى: إما بلسان القال [القول] كالعقلاء، وإما بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات، وذلك لقوله تعالى:

(١) نفسه ١٨/ ١٥٧– ١٥٨.
(٢) نفسه ٩/ ١٠– ١١.

﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، حيث استدرك أنّهم لا يفقهون تسبيحهم، ولو كان المراد بتسبيحهم دلالة وجودهم على وجوده، وهي قيام الحجة على الناس بوجودهم، أو كان المراد بتسبيحهم وتحميدهم بلسان الحال، وذلك مما يفقه الناس؛ لم يكن للاستدراك معنى»(١).

وقد ذهب الطباطبائي إلى أنّ تسبيح الأشياء قولي مقالي (تشريعي) لا حالي مقامي (تكويني):

«وبذلك يظهر أن لا وجه لحمل التسبيح في الآية على مطلق الدلالة مجازاً، فالمجاز لا يُصار إليه إلا مع امتناع الحمل على الحقيقة، ونظيره قول بعضهم: إنّ تسبيح بعض هذه الموجودات قالي [قولي] حقيقي كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الإنسان، وتسبيح بعضها حالي مجازي كدلالة الجمادات بوجودها عليه تعالى، ولفظ التسبيح مستعمل في الآية على سبيل عموم المجاز. وقد عرفتَ ضعفه آنفاً.

والحقّ.. أنّ التسبيح في الجميع حقيقي قالي، غير أنّ كونه قالياً لا يستلزم أن يكون بألفاظ موضوعة وأصوات مقروعة»(٢)، و«تسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة، وإن كنّا لا نفقهه»(٣).

بينما أخذ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بالرأي الثاني (تسبيح تكويني)، فقال: «ولكنّ التفسير الثاني - حسب الظاهر - أكثر قبولاً للنفس من التفسيرين الآخرين»(٤)، وبعد أن ذكر نصوصاً للمعصومين عليهم السلام عن تسبيح الكائنات قال: «إنّ هذه المجموعة من الأحاديث والروايات والتي لبعضها معاني دقيقة؛ تُظهر أنّ التسبيح العام للموجودات يشمل كلّ شيء بدون استثناء، وكلّ هذا يتطابق مع ما ذكرناه من التفسير الثاني: أي أنّ التسبيح هو تسبيح تكويني أو تسبيح بلسان الحال»(٥).

الخامس: ميم الجمع:

لعلّنا نعود أخرى للآية لنطلّ عليها فنلمحها تقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٩/ ١١- ١٥.
(٢) نفسه ١٣/ ١١٠- ١١١.
(٣) نفسه ١٩/ ١٤٤.
(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٩/ ١٣.
(٥) نفسه ٩/ ١٤.

﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، فمع أنّ كلامها عن الأشياء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ التي صنّفناها في مألوفنا الذهني البشري بأنّها غير عاقلة، وصنّفنا لغة الخطاب والأسلوب اللغوي معها بما يناسب غير العاقل..، مع ذلك كلّه فضّل القرآن الكريم أن يعبّر عن الأشياء بـ(ميم الجمع) التي تعدّها لغتنا من خواصّ الذكور العقلاء، فلم تقل الآية: (ولكن لا تفقهون تسبيحها)، أو (ولكن لا تفقهون تسبيحهن)، بل قالت: ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

ثالثاً: لوحة الآخرة:

حين نأتي إلى مشهد الآخرة والتعبيرات القرآنية عنها، فسنقف عند أمور نصنّفها في دائرة غير العاقل، في حين يتعامل معها القرآن الكريم بوصفها عاقلاً، ومن ذلك:

١- كلام الأرض:

الأرض كائن جامد لا يعقل، لكنّ القرآن الكريم يثبت له عند قيام الساعة كلاماً وفيراً سيقوله ويفرغه في آذان البشر، فالأرض هي التي ستجيب على تساؤلات البشر الحائرة عند قيام الساعة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[1].

والفعل (تُحَدِّثُ) فعل مضارع يفيد التجدد والحدوث، وأنّ ذلك لن يكون كلمة عابرة تقولها الأرض وتخلد لصمت مطبق، وإنّما هو متجدد، به حالة من الامتداد، لاسيما إذا قرنّا هذا الفعل بكلمة (أخبارها)، وهي جمع، فلديها أخبار مكتنزة ستعلنها - لا خبر واحد -، ومن ذلك أنّ ما تفعل هو تنفيذ لأمر الله لها الذي أمرها أن تميد وتتصدع وتلقي ما فيها: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.

ويقول رسول الله ﷺ في وصيته لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا أبا ذر، ما مِن رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له بها يوم القيامة، وما مِن منزل ينزله قوم إلا وأصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم. يا أبا ذر، ما مِن صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادي بعضها بعضاً: يا جارة، هل مرّ بكِ اليوم ذاكر لله أو عبد وضع جبهته عليكِ ساجداً لله تعالى؟، فمن قائلة: لا..، ومن قائلة: نعم..، فإذا قالت: نعم؛ اهتزّت وانشرحت، وترى أنّ لها الفضل على جارتها»[2].

---

(١) سورة الزلزلة/ ٤- ٥.

(٢) وسائل الشيعة ٣/ ٤٧٤، الباب ٤٢، ح ٩. وقريب منه: كنز العمال ٧/ ٢٩٠، (في فضائل الصلاة)، ح ١٨٩٢٩.

٢- النار:

نـار الآخرة تبصر وتعـرف المجرمين: ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾[(١)]، ولعلّنا نلتفت إلى أنّ القرآن يقـول ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾، ففعل الرؤية صـادر منها، وهي ترى مـن بعيد، فتعرفهم، ومن ثـمّ تغلي بالحنق وتتفجّـر بالغيظ منهم، وتتسارع أنفاسها وزفيرها: ﴿**سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾.

والمعرفة والإدراك، والتشـخيص للأشـياء والأعداء، والتغيّظ والزفير.. اجتماعها لا يتمّ لدى غير العاقل بهذه الكفية.

وفـي آية أخرى تتشـخّص النار لنا عاقلاً يفهـم الخطاب، ويحـاور، ويريد الانتقام مـن أعدائه المجرمين: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾[(٢)]، الله يقول للنـار، وهـي - كذلك - ترد وتقول، فهي عملية حوار بيـن طرفين، تتطلب من النار الفهم والإصغاء والرد!!

ويقول رسـول اللـه ﷺ: «تكلّم النار يوم القيامة ثلاثة: أميـراً وقارئاً وذا ثروة من المـال: فتقـول للأمير: يـا مَن وهب الله له سـلطاناً فلم يعـدل، فتزدرده كما يـزدرد الطير حبّ السمسم، وتقول للقارئ: يا مَن تزيّن للناس، وبارز الله بالمعاصي، فتزدرده، وتقول للغني: يا مَن وهب الله له دنيا كثيرة واسـعة فيضاً، وسـأله الحقيرَ اليسـيرَ قرضاً؛ فأبى إلا بخلاً؛ فتزدرده»[(٣)].

٣- أعضاء البدن وحواسّه:

لـم نألف في حياتنا الدنيا أنّ الأيدي والأرجل والجلود وغيرها من الأعضاء تدرك وتفهم ما نقوم به، ومن ثمّ تختزنه في ذاكرتها وتسجله أمانة وتتحمّله، وتدّخره لكي تشهد بـه في محكمة الآخرة؛ لأنّ أفواهنا (ألسـنتنا) هي التي تنطـق وتحمل التعبيرات التي نريد إبلاغهـا، وتعبّـر عنها بطريقـة لفظية، أما الأعضـاء الأخرى كالأيـدي والأرجل والجلود فلها وظائف أخرى طابعها عملي، وقد تسـهم فيما يندرج ضمن (لغة الجسد)، أو (الأداء التصويـري) أو (التصوير الحركي)، لكنّها في الجميع ليسـت لغة شـفوية، ولا تحمل أيّ

(١) سورة الفرقان/ ١٢.
(٢) سورة ق/ ٣٠.
(٣) بحار الأنوار ٨٩/ ١٨٩، الباب ١٩، ح ٨.

نوع من الكلام المنطوق.

أما في الآخرة، فسيُعاد توزيع الأدوار والوظائف، فيُختم على عضو الكلام (الأفواه)، ويُمنح الكلام للأيدي والأرجل فتشهد وتتكلم: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(١)].

وكما تنطق الأيدي والأرجل ينطق السمع والبصر والجلود ويشهد: ﴿**حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[(٢)].

وهكذا صمت عضو النطق (اللسان)، وتحدّث (السمع/ والبصر/ واللمس)، واتضح أنّ هذه الأعضاء كانت من لدن عالم الدنيا تفهم وتدرك وتعلم، تسمع وترى وتحفظ، وتجمع علينا كلّ ما نقوم به، وتعظّ على كلّ ذلك بالنواجذ، وتكلّمت به في الآخرة وأبدته: همسة همسة، ولمحة لمحة، ولمسة لمسة.. بالتفصيل الذي تعيى عنه ذاكرتنا الدنيوية!!

فهذه الحواس تحمل الشهادة وتؤديها، وتلك خاصّة يقوم بها العاقل المميِّز، ولذلك خاطبها أصحابها بميم الجمع المتعلّقة بالذكور العقلاء - لا بتاء التأنيث -، ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ**﴾، ولم يقولوا: (لِمَ شهدتِ).

ثمّ عبّر القرآن عن تلك الحواس بضمير العاقل - (واو الجماعة)، و(ناء المتكلمين) - فنقل ردّها وإجابتها فقال: ﴿**قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾، ولم يقل: (قالت أنطقني).

كما تبدو لنا من صفاتها القدرة العالية على الكلام والحوار حين تتجاذب أطراف الحديث مع الإنسان: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا؟. قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾.

يقول السيّد الطباطبائي: إرجاع ضمير أولي العقل إلى الجوارح؛ لمكان نسبة الشهادة والنطق إليها، وذلك من شؤون أولي العقل، فشهادة الأعضاء على المجرمين

---

(١) سورة يس/ ٦٥.
(٢) سورة فصّلت/ ٢٠- ٢٢.

كانت نطقاً وتكلّماً حقيقة عن علم تحملته سابقا بدليل[(١)].

وقوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾، يفيد أنّ النطق ليس مختصّاً بالأعضاء حتى تخصّ هي بتوجّه السؤال لها: ﴿**لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**﴾، بل هو عام لكلّ شيء، ولا دليل على فقدان الأشياء للشعور والإرادة، سوى أنّا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الاطلاع على حقيقة حالها[(٢)].

«وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة: ذكرُها وإخبارُها ما تحمّلتْه في الدنيا من معصية صاحبها، فهي شهادة أداء لما تحمّلته، ولولا التحمّل في الدنيا حين العمل - كما لو جعل الله لها شعوراً ونطقاً يوم القيامة فعلمَتْ ثمّ أخبرَتْ بما علمَتْه، أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به - لم يصدق عليه الشهادة، ولا تمّت بذلك على العبد المنكِر حجة، وهو ظاهر.

وبذلك يظهر فساد قول بعضهم: إنّ الله يخلق يوم القيامة للأعضاء عِلماً وقدرة على الكلام؛ فتُخبر بمعاصي صاحبيها وهو شهادتها. وقول بعضهم: إنّه يخلق عندها أصواتاً في صورة كلام مدلوله الشهادة. وكذا قول بعضهم: إنّ معنى الشهادة دلالة الحال على صدور معصية كذائية منهم»[(٣)].

وهكذا.. فشهادة الأعضاء يوم القيامة شهادة قولية نطقية، والقدرة على الفهم والكلام كانت لديها من الدنيا، ولذلك كانت تجمع المعلومات وتكتنزها، ولكنّ أداءها الشهادة وكلامها ذاك ظهر في الآخرة، ومن ثمّ فهي أمينة مصدّقة في نقل الشهادة؛ لأنّها تحمّلتها وخبرتها وقت حصول الفعل والحدث في الدنيا، والتقطته بكلّ موضوعية ونزاهة وأمانة ودقة، وسيُقِرّ الإنسان بصدق ما أخبرت به، إنّما سيتعجب وينكر عليها لِمَ أخبرت بذلك؟!، ولِمَ لم تخفه لتعينه في كتمان الحقيقة المرة؛ علّه يتلافى عاقبتها الكالحة، وسيبدو حينها أنّ كثيراً من الناس كانوا غافلين عن حقائق مذهلة، بعضها أخبرهم به الوحي مذ كانوا في الدنيا، ونطقت به آيات الكتاب، ومنه تحمّل الأعضاء للشهادة وأداؤها!!

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٧/ ٣٧٩.
(٢) نفسه ١٧/ ٣٨٠، ٣٨١.
(٣) نفسه ١٧/ ٣٧٨.

تفسيران لأسلوب الخطاب القرآني:

لطريقة القرآن الكريم الأسلوبية هذه في معاملة غير العاقل في تصنيفنا.. بمعاملة العاقل تفسيران:

١- التفسير البلاغي:

التفسير الذي يتبناه علماء البلاغة العربية يُرجِع الأسلوب لأمور بلاغية، منها:

أ- التغليب:

التغليب هو: «إعطاء الشيء حكم غيره»(١)، أو «ترجيح أحد المغلوبين على الآخر وإطلاق لفظه عليهما؛ إجراء للمختلفين مجرى المتفقين»(٢)، أو «ترجيح أحد اسمين مختلفين بينهما مناسبة، ثمّ تثنيته على أن يُقصد بمثناه الاسمين معاً»(٣).

وللتغليب أنواع كثيرة ذكر الزركشي في كتابه (البرهان) عشرة منها، من بينها: تغليب المذكر على المؤنث، وتغليب العاقل على غير العاقل(٤).

فإذا اجتمع المذكر مع المؤنث في جملة ثمّ عاد عليهما ضمير ونحوه، تغلّب العربية ضمير الذكور مثل: (أصحابكَ وإماؤكَ جاؤوني)، لا جئنني»(٥).

وعدّ الزركشي من تغليب المذكر في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿**وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾(٦)، فمع أنّ في الغابرين الهالكين نساء - منهم زوجته -، إلا أنّ الله لم يقل: (إلا امرأتكَ كانت من الغابرات) - بجمع المؤنث السالم -، وإنّما تمّ تغليب المذكر على المؤنث، فقال الله: ﴿**إلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ**

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٩٠.
(٢) نفسه ٣/ ٣٩٠.
(٣) المعجم المفصّل في اللغة والأدب ١/ ٤٤٣.
(٤) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٩٠- ٤٠٣.
(٥) رسائل المرتضى ٣/ ١١٢.
(٦) سورة العنكبوت/ ٣٣.

مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، فغلّب جمع المذكر السالم (الغابرين) الذي هو للذكور العقلاء[١].

وإذا اشترك العاقل مع غير العاقل في جملة، فيجوز أن يؤتى بالأسلوب التعبيري المناسب للعاقل، حتى لو كان العاقل واحداً وغير العاقل يمثل القطاع الأكبر عدداً، فتغليب العاقل يعني «أن يتقدم لفظ يعمّ مَن يعقل ومَن لا يعقل، فيُطلق اللفظ المختصّ بالعاقل على الجميع، كما تقول: (خلق الله الناس والأنعام ورزقهم)، فإنّ لفظ (هم) مختصّ بالعقلاء»[٢]، وحينها يصحّ أن نقول: (طفل وألف ناقة قدموا)، (غلام وألف شجرة ظهروا)، (رجل وألف منزل أبيدوا).

وعدّ الزركشي من تغليب العاقل في القرآن الكريم:

- ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

- ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾.

- ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾،[٣].

ب- التنزيل:

التنزيل هو «إطلاق اللفظ على ما يُقارب معناه من دون تجوّز أو كناية»[٤].

ويذهب علماء البلاغة - هنا - إلى أنّ القرآن لا يعدّ تلك الأشياء عاقلة، وإنّما ينزّلها منزلة العاقل، ويخاطبها تنزيلاً بذلك، فالقضية اعتبارية وليست فعلية، وهذا أمر تعارفت عليه العربية لاسيما في الشعر، ومنه قول المتنبي:

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٩١.
(٢) نفسه ٣/ ٣٩٤.
(٣) نفسه ٣/ ٣٩٤- ٣٩٦.
(٤) المعجم المفصّل في اللغة والأدب ١/ ٤٦٠.

يقولُ بشعبِ بوانٍ حصاني: أعنْ هذا يُسارُ إلى الطعانِ؟![1]

فقد نزّل حصانه منزلة العاقل الذي يأنس بجمال ذاك الشِّعب، ويرفض مغادرته إلى سوح الحرب والقتال، وفي الحقيقة ليس هناك من متكلم سوى المتنبي الذي خلع مشاعره على حصانه، وأسقطها عليه.

ويؤيد هذا التفسير ما يذهب إليه النقد الأدبي الحديث في (المعادل الموضوعي)، حيث يتخذ الأديب - ولاسيما الشاعر - من شيء خارجي موازياً لذاته يعبّر عن مشاعره، ويتيح له أن يُنطق الطبيعة وكائناتها، وما يذهب إليه في (القناع) و(قصيدة القناع)، حيث يتخذ الأديب من شيء أو شخص (قناعاً) يلبسه، ويستتر به، ويتخفّى خلفه؛ ليتحدث من خلاله، ويجعله يتحدث بالنيابة عنه، ويجعله ينطق بما يريد.

كما يؤيده ما يذهب إليه علم النفس في (الإسقاط الشعوري)، وكيف أنّ الإنسان يخلع مشاعره وعواطفه على الكون والأشياء، ويجعلها حاكية لمشاعره، فيجعلها فرحة لفرحه، حزينة لحزنه..

ورأى الزركشي أنّ هناك مواضع قرآنية تتحدث عن غير العاقل بأسلوب العاقل مع أنّ محتوى الكلام ومضمونه فيها مختصّ بغير العاقل، ومقتصر على غير العاقل، ولم يدخل ضمنه أيّ من العقلاء حتى يمكن حمله على (التغليب)، وقد حمل هذه المواضع على (التنزيل)، ومنها في نظره:

- ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

- ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

- ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

- ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(١) ديوان المتنبي ٢/ ٤٨٥.

- ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ﴾.

وبعد أن قدّم الزركشي هذه الآيات قال: «لما أخبر عنها بأخبار الآدميين جرى ضميرها على حدّ مَن يعقل»(١).

فهذا التفسير البلاغي يرى أنّ التعبيرات السابقة الواردة في شأن الأصنام واستخدام أسلوب العاقل معها أمر بلاغي - لا حقيقي - يكمن وراءه أمور، منها:

أ - تنزيل غير العاقل منزلة العاقل؛ لأنّهم يدّعون في أصنامهم صفات تناسب العاقل.

ب- الحديث عنها بما ينطوي وراءها من عاقل يدّعون أنّها تجسيم له، وذاك العاقل هو: الملائكة، والجنّ، وقديسو البشر.

وأنّ التعبيرات الأخرى عن بعض الأمور غير العاقلة بأسلوب العاقل هي تنزيل لها منزلة العاقل.

٢- التفسير الفلسفي والعرفاني:

يتبنّى الفلاسفة والعرفانيون تفسيراً أخلاقياً خاصّاً يرى أنّ الأشياء كلّها لها نصيب من الفهم والعلم، قد لا يصل إلى مستوى الإدراك الإنساني، لكنّها ليست فاقدة لذلك، وهي غير عاقلة في تصنيفنا نحن البشر الذين جعلنا أنفسنا معيار تصنيف الأشياء وفرزها، لا في حقيقة نفسها، وهي تتراءى لنا غير عاقلة ضمن إدراكنا المحدود، لكنّها في محضر الحقّ تعالى عاقلة: تفهم، وتتلقى، وتُؤمر، وتمتثل، وتتحمّل الشهادة، وتؤديها.

ثمّ إنّ مصادر المعرفة عندنا ينبغي ألا تقتصر على العقل والحسّ، بل.. ندرج معها (الوحي)، وهو أخبرنا - كما في الروايات السابقة عن حنين الجذع، وتسبيح الحصى - أنّ للأشياء شيئاً من الفهم والإدراك والتعبير نحن لا نفقهه، فهناك أمور كثيرة خلف محسوساتنا لا يمكن لنا نفيها لمجرّد أنّنا لا نحسّ بها.

وإلى جانب هذه الأمور البنائية التي يستدعيها الفلاسفة والعرفانيون للاستدلال على رأيهم، هناك أدلة نقضية يشهرونها في وجه التفسير البلاغي السابق، منها:

أنّ هناك تعبيرات قرآنية تتحدث عن غير العاقل وحده، وليس معه شيء عاقل حتى

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٩٦- ٣٩٧.

تُحمل على (التغليب)، منها قوله تعالى: ﴿لا الشَّـمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، فالكلام – هنا – عن الكواكب والأجرام السماوية، ولم يدخل بين المتحدَث عنه عاقل حتى يتمّ تغليبه.

ب – أنّ الكلام يُحمل على الحقيقة متى ما لم تكن هناك قرائن لفظية أو مقامية تصرفه إلى المجاز – ومنه (التنزيل البلاغي) –، وبعض آيات القرآن وما تحفل به من حيوية وفعل منطلقة من عالم الأشياء تجعل الحمل على المجاز ومبحث التنزيل أمراً غير مستساغ، ومن ذلك: القصص الواردة بين نبي الله سليمان والنملة والهدهد، فهي تحكي أحداثاً واقعية حصلت في الواقع الخارجي الموضوعي، وليس مجرّد فنّ بلاغي جمالي.

فوائد تربوية:

لماذا يتحدث الله عن غير العاقل بأسلوب العاقل؟

مما لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم الذي نزل ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾[1]، كان لديه خيارات استعمالية أخرى يتيحها المستوى الوضعي في اللغة، وكان يستطيع فيما نسمّيه بغير العاقل أن يعبِّر بالأسلوب الأصلي العامّ الذي تسير عليه قواعد اللغة، حيث الاستعمال الحقيقي، والأساليب والضمائر والأدوات المناسبة لذلك، لكنّه فضّل استعمال هذا الأسلوب لغايات؛ لأنّ الحكيم لا يعمل العبث.

وقد تناثرت الإجابة عن هذا السؤال المحوري بين سطور هذا البحث، ونحبّ في ختامه أن نجمعها، فمن تلك الفوائد:

١- بيان إدراك الخلق في حضرة الحقّ:

الخلق في مقام الله تعالى يفهم الخطاب، ويعي، ويسمع، وينفّذ، ومن ثمّ يكلّم الله السماوات والأرض والنار، ويوحي للنحل، ويتعامل مع الجميع بما يقتضي كونه مدركاً واعياً لخطابه وأمره، فالعالَم ـ لدى الله – أمم، كما أنّنا – نحن البشر – أمة: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾[2].

---

(١) سورة فصّلت/ ٩- ١٠.

(٢) سورة الأنعام/ ٣٨.

والقرآن بهذا يبيّن للإنسان حقيقة علمية وأخلاقية روحية، مفادها: أنّ هذا الكون يعي ويفهم، يسمع ويبصر، ويتبادل الحديث والحوار مع الله، فهو في مقام الخالق حاضر فاهم منفّذ لما يؤمر به.

٢- الجميع يتوجّه إلى الله:

والقرآن يخبرنا أنّ جميع هذا الكون بأسره يتوجّه إلى الله، ويسبّح الله، ويدرك أنّ الله خالقه، في معزوفة عذبة رقيقة، لكنّ أدوات إدراكنا المحدودة لا تسمعها، وربّما عند كثيرين - لا تعيها: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾[١]، والله بقدرته قد يكشف لبعض عباده شيئاً من ذلك، فيصغي للكون يسبّح ويترنم، ومن ثمّ كانت الجبال والطيور تسبّح مع نبي الله داوود عليه السلام، واستمع النبي سليمان عليه السلام لخطبة الهدهد عن وحدانية الله، وعلمه النافذ للسرّ والعلن، وسعة ملكه وعرشه العظيم، وتعجّب الهدهد من عبادة بعض بني البشر لغير الله!!

٣- محدودية سبل المعرفة عندنا:

أدوات الحسّ عندنا لها قدرة لا تتجاوزها: ترى، وتسمع، وتشم، وتتذوق، وتلمس.. بحدود، وسبل المعرفة العقلية عندنا - وإن كانت أوسع من الحسّ والتجربة - لكنّها كذلك محدودة: ﴿**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾، ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[٢].

ومن ثمّ ينبغي أن لا يستبدّ بنا الغرور والطيش؛ فنظنّ أنّنا أخذنا بناصية العلم نوجّهها كيف نشاء، فما نتعامل معه من الكون حتى في أقرب ما يكون منه إلينا كأعضائنا - ومنها القلب الذي نحتويه بجوانحنا -، تحمل أسراراً نحن لا نعلمها، وهناك من هو أقرب لجوارحنا منّا: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[٣].

(١) سورة الإسراء/ ٤٤.
(٢) سورة الإسراء/ ٨٥.
(٣) سورة ق/ ١٦.

٤- الوحي سبيل هامّ للمعرفة:

وما دامت سبل المعرفة البشرية عندنا محدودة، فلابدّ أن نقبل بدخول الوحي مصدراً هاماً من مصادر المعرفة، يستطيع الاتصال بعالم فوق مستوى الحسّ والإدراك عندنا، ويبلّغنا به، ومن هذا الوحي القرآن الكريم ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾(١)، والصحيح من السنة الشريفة ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾(٢).

وعن طريق التواصل مع عالم الوحي سنصل لبعض الحقائق فيما فوق عالمنا، ومنها: الحركة السارية في نسغ هذا الكون أجمع نحو الله، وإبصار ذاك التخاطب بين الله والكون والخلق، كما حكاه القرآن الكريم.

٥- الرفق بعالم الخلق:

وإذا علمنا أنّ الحيوان والأشجار والجماد أمم أمثالنا، تعي بمستوى معيّن لا نعرف مداه، فلابدّ أن نرفق بها، ولا نمارس دور الأذى والتدمير أو الاستهلاك الجشع لها.

إنّ للنمل روحاً تملك غريزة حبّ البقاء التي يملكها الإنسان، وتخاف أن تتحطم وتموت من دوس البشر ولو كان نبياً كسليمان ومرافقيه.

٦- الأشياء تتحمل الشهادة وستؤديها:

فعالم الأشياء الذي يبدو من حولنا أخرس ساكناً لا يدرك.. مدرك!!، وهو الآن يتحمل الشهادة علينا، ويتلقفها، ويحفظها، وسيأتي حين من الزمن يرفع الله الغشوة عن مداركنا فنبصر الحقائق جلية ماثلة مثول الحسّ، فنسمع حديث الأرض ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾(٣)، ونرى أعضاءنا تشهد علينا ﴿**حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا**

(١) سورة الشعراء/ ١٩٣- ١٩٤.

(٢) سورة الحشر/ ٧.

(٣) سورة الزلزلة/ ٤.

تَعْمَلُونَ﴾[1].

فعالَم الشهادة على الإنسان لا يقتصر على الله والملائكة، وذاك ما شعر به علي عليه السلام بعمق قلبه وملء كيانه ووجدانه حين قال في (دعاء كميل): «وكلّ سيئة أمرتَ بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتَهم بحفظ ما يكون مني، وجعلتَهم شهوداً عليّ مع جوارحي، وكنتَ أنتَ الرقيب عليّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم»[2].

(١) سورة فصّلت/ ٢٠ ٢٢.
(٢) مفاتيح الجنان/ ٦٦.



المجـال الخـامس: السورة

سورة الزلزلة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١).

مشاهد القيامة:

كثيرة هي الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة ومشاهده الباهرة، فتخطّ حقيقة دينية ستأتي يوماً وإن طال السرى، وسيعيشها الكلّ مشاهدة وإحساساً، وإن حكّم البعض في الدنيا فيها أهواءه وآراءه المادية، أو حاول السخرية من ذلك اليوم واستبعاده؛ ليفلت من ربقة الضمير، ويلهو في عالم اللذة والمعصية والفجور: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾(٢).

ويوم القيامة له مشاهد عدة، ومحطات كثيرة:

١ - منها: النفخة الأولى للصور، تلك النفخة التي تنفطر فيها السماء وتنشقّ، وتضحي وردة كالدهان، وتذوب كالمهل، وتتكوّر فيها الشمس، وينشقّ القمر، وتتناثر الكواكب، وتتفجّر البحار وتستعر، وتتطاير الجبال كالصوف المنفوش!!؛ فيموت فيها الأحياء، ويفنى الوجود!!

(١) سورة الزلزلة/ ١-٨.
(٢) سورة القيامة/ ٥.

٢- **ومنها**: النفخة الثانية والبعث والنشور، بدءاً من الصيحة، ودعوة الداعي إلى شيء نُكُر، وخروج الناس من الأجداث خُشعاً أبصارهم ترهقهم ذلة، متناثرين كالجراد المنتشر، ﴿**مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾[١]، وذهاب الجميع نحو ساحة المحشر.

٣- **ومنها**: الحساب، حيث تُنصب الموازين، وتُنشر الصحف، ويُؤتى بالرسل والأشهاد، فتُعرَض عليهم أعمال العباد وتوزن، ويُحاسبون عليها، فيحاسب المؤمنون حساباً يسيراً، ويحاسب الكافرون والعصاة حساباً عسيراً، وتتطاير الكتب، فيأخذ المؤمنون كتبهم بأيمانهم، ويأخذ الكافرون والعصاة كتبهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم، ويُفضَح البعض على رؤوس الأشهاد، ﴿**يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا**﴾[٢].

٤- **ومنها**: الجزاء بالجنة أو النار، فيكافأ المؤمنون بالجنة، حيث النعيم الأبدي المقيم: معنوياً ومادياً.. يتقلّبون في رضوان الله وبحبوحة خيرات الجنان، يسكنون القصور، ويفجرون الأنهار، ويشربون العسل والخمر واللبن، ويأكلون الفواكه واللحوم، ويجلسون على الأرائك والأسرّة متقابلين يتضاحكون، معهم الحور العين والولدان المخلدون، ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[٣].

ويُجزى الكفار والعصاة بالنار حيث العذاب المعنوي والمادي، فيأكلون من غسلين، ومن شجرة الزقوم، ويُسقون من ماء صديد، ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾[٤]، ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**﴾[٥]، يتجرّعون ﴿**نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا**﴾[٦].

ويمكث الكفار في النار ﴿**لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ**

(١) سورة القمر/ ٨.
(٢) سورة النساء/ ٤٢.
(٣) سورة الزخرف/ ٧١.
(٤) سورة المؤمنون/ ١٠٤.
(٥) سورة الحج/ ١٩.
(٦) سورة الكهف/ ٢٩.

نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾(١)، والمجرمون في لظى عذاب ﴿**لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**﴾(٢)، يتصايحون من شدة وقدته: ﴿**يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**﴾(٣).

ثمّ تتدارك الرحمة والشفاعة العصاة الموحدين، فيخرجون من النار إلى الجنة.

سورة الزلزلة:

وآيات سورة الزلزلة تبرز لوحتها مشهداً من مشاهد البعث، ومشهداً من مشاهد الحساب، وتتكلم عن الغرائب المدهشة التي تقع في البعث وأول الحساب، ومنها:

أولاً: الزلزال العام:

﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾:

وهذا ما لم تعهد البشرية مثله من قبل، صحيح أنّها شهدت زلازل في اليابان وأندونيسيا وإيران والجزائر وغيرها..، بعضها محا جزراً أو مدناً من خارطة الوجود، أو فصمها، لكنّ هذه الزلازل لم تكن تتجاوز منطقة محدودة ومعيّنة لا تمتدّ - غالباً - إلى دولة كاملة في وقت واحد، عوضاً عن أن تشمل الكرة الأرضية أجمع - كهذا الزلزال المرتقب الذي تذكره السورة -.

وتأتي الآية مصدّرة بـ(إذا) الشرطية الحينية الدالة على المستقبل، الرابطة بين الأحداث، كما يأتي الفعل بعدها مبنياً للمجهول ﴿**زُلْزِلَتِ**﴾، مع أنّه معلوم أنّ التقدير: زلزل الله الأرض زلزالها؛ لكي يفتح المجال خصباً للتركيز على الحدث، كما فعلت كثير من آيات القيامة الأخرى، كقوله:

- ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**﴾(٤).

- ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا**

---

(١) سورة فاطر/ ٣٦.
(٢) سورة الزخرف/ ٧٥.
(٣) سورة الزخرف/ ٧٧.
(٤) سورة الحاقة/ ١٣- ١٤.

الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾(١).

- ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾(٢).

- ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾(٣).

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٤).

ولقد كان القرآن دقيقاً حين لم يقل: إذا زُلزلت الأرض زلزالاً - بالتنكير -، فالتعريف في قوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ يفيد أنّه زلزالها الوحيد والمحدد والخاصّ الذي تترقبه بتلك الضخامة والعظمة والشمول، فهو ليس أيّ (زلزال) عابر مرّ على تاريخها، زلزال لم تشهد الأرض مثله، ولن ترى بعده مثله.

ثانياً: الخروج لا الدخول:

﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

ألفت البشرية في الزلازل الأرضية أن تهتزّ الأرض وتتشقق، فتهدّم ما على الأرض وتنسفه، أو تدخل أشياء مما على وجهها إلى بطنها، لكنّها لم تألف زلزالاً يُلقي ما بداخل الأرض إلى الخارج، ربّما يكون شيء من ذلك في البراكين.

ويمكن أن نعرف مقدار ما يتركه الفرق بين الأمرين: إذا علمنا ما فوق الأرض، وما يختبئ في أحشائها: ما فوق الأرض معهود مشاهد من وجودات طبيعية وصناعية: أناس، حيوانات، نباتات، جمادات، بنايات، و....، لكنّ ما بداخلها مختلف: فهناك موتى، ووحوش مندثرة، وحمم ملتهبة، ومعادن منصهرة، وأثقال أخرى..، فماذا لو ألقت الأرض ما في أحشائها من وحوش كالديناصورات والحيوانات الغريبة المنقرضة الذي يوحي به قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾(٥)، ثمّ ماذا عن الحمم التي تغلي في باطن الأرض، والتي نشاهد بعضها في لابة البركان حيث تبلغ درجة حرارتها ١١٠٠

(١) سورة التكوير/ ١- ١٣.

(٢) سورة المرسلات/ ٨.

(٣) سورة العاديات/ ٨- ١٠.

(٤) سورة إبراهيم/ ٤٨.

(٥) سورة التكوير/ ٥.

درجة مئوية[١]، أليس الأمر مفزعاً؟!

وإذا كان بعض هذا يكفي في إثارة الرعب والهلع، فماذا لو أخرجت الأرض جميع ما خبّأته واكتنزته في بطنها، كما يشير له الإطلاق في قوله: ﴿**أَثْقَالَهَا**﴾؟!

وقد تحوّل الفعل – هنا – إلى مبني للمعلوم ﴿**وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ**﴾، لكنّه لم يُنسب لله، بل.. نُسب للأرض، وهي طريقة أخرى للقرآن الكريم؛ ليبرز الحدث – كحدث – على ضخامته، وقد سارت على هذا الأسلوب آيات كثيرة من الذكر الحكيم، منها:

- ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ**﴾[٢].
- ﴿**فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**﴾[٣].
- ﴿**إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ**﴾[٤].
- ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[٥].
- ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا**﴾[٦].

وقد أشارت بنت الشاطئ إلى هاتين الظاهرتين فقالت: «وظاهرة بيانية أخرى مطردة قلّ أن نخطئها في أحداث اليوم الآخر، وهي أنّ القرآن الكريم يصرف الحدث عمداً عن محدِثه، فلا يسنده إليه، وإنّما يأتي به مبنياً للمجهول، أو مسنداً إلى غير فاعله: على المطاوعة أو المجاز....، وقد هدى تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية إلى أنّ البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث بصرف النظر عن محدثه. وفي الإسناد المجازي أو المطاوعة تقرير لوقوع الأحداث في تلقائية؛ إذ الكون كلّه مهيئ للقيامة على وجه التسخير، والأحداث تقع تلقائياً لا تحتاج إلى أمر أو فاعل»[٧].

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ٤/ ٣٤٤.
(٢) سورة الدخان/ ١٠.
(٣) سورة الرحمن/ ٣٧.
(٤) سورة الانفطار/ ١- ٢.
(٥) سورة القمر/ ١.
(٦) سورة الطور/ ٩- ١٠.
(٧) التفسير البياني للقرآن الكريم/ ٨٠- ٨١.

ثالثاً: الحيرة والذهول الإنساني:

﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾.

ومن فرط الذهول والدهشة سيتساءل الإنسان: ما لها؟!

وتأتي كلمة (الإنسان) محلاة بـ (أل)؛ لإفادة العموم والاستغراق، فهو ليس سؤال من (إنسان) مفرد، أو من بعض بني الإنسان؛ لأنّ الذهول عام، والحيرة شاملة. وتأتي تلك الأحداث غريبة عند الإنسان غير معهودة لديه، فقد رأى أو علم عن زلازل الأرض، لكنّ الذي يواجهه أمر جديد مختلف، لا عهدة له به من قبل؛ فيصدر منه سؤال حائر: ﴿مَا لَهَا﴾، لماذا تبدّلت طبيعتها؟، لماذا تغيرت عادتها؟!، ألم تكن كلّ تلك السنين الماضية ذلولاً نمشي في مناكبها، ونسخّرها لأمورنا كيف نشاء فتستجيب؟!

رابعاً: الأرض تتحدث:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.

ومن أماكن الدهشة والغرابة في ذلك اليوم الآتي: أنّ الذي سيجيب على تساؤلات الإنسان الحائرة، واستفهاماته التائهة.. هو الأرض!!، الأرض الذي ألفها جماداً ساكناً لا لسان له، ولا قابلية لديه للحديث والكلام. إنّ الأرض هي التي تتحدث وتتكلم، فذاك اليوم له طبيعته المختلفة.

لقد ظنّ البعض أنّ المقصود من حديث الأرض: ما يقع فيها من أحداث، فهي لسان الحال، لا لسان المقال، وظنّ آخرون أنّ الملائكة تتحدث على لسانها، وتجيب عنها!!، ولا نظنّ أنّنا في حاجة لهذه التفسيرات لاسيما بعد أن بيّنت آيات الكتاب أنّ الأرض في حضرة الحقّ تعالى: تفهم وتجيب وتتكلم (فهي لديه عاقل، وليس بمنزلة العاقل): ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1]. كما أشارت الروايات إلى أحاديث كثيرة تبثها الأرض في مسامع الإنسان، لكنّنا في عالم المادة محجوبون عن سماع ذلك، وحين يُرفع الغطاء وتُزال الحجب سنرى ذلك ونشهده بكامل قوانا الحسّية: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

---

(١) سورة فصّلت/ ١١.

(٢) سورة ق/ ٢٢.

ومن الأحاديث التي تكشف شيئاً من هذا المغطّى من حديث الأرض: قول رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات.. حائل بينكم وبين الشهوات، يا عباد الله، ما بعدَ الموت لمَن لا يُغفر له أشدّ من الموت، القبر فاحذروا ضيقه وضنكه وظلمته وغربته، إنّ القبر يقول كلّ يوم: أنا بيت الغربة، أنا بيت التراب، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الدود والهوام.

والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، إنّ العبد المؤمن إذا دُفن قالت له الأرض: مرحباً وأهلاً، قد كنتَ ممن أحبّ أن تمشي على ظهري، فإذا وليتُكَ فستعلم كيف صنيعي بكَ؛ فيتسع له مدّ البصر. وإنّ الكافر إذا دُفن قالت له الأرض: لا مرحباً ولا أهلاً، لقد كنتَ مِن أبغض مَن يمشي على ظهري، فإذا وليتُكَ فستعلم كيف صنيعي بكَ؛ فتضمّه حتى تلتقي أضلاعه»[1].

هذه لوحة من المخبّأ المستور الذي يحول دونه عالم المادة الكثيف، ومحدودية سبل الإدراك عندنا، وكثافة الأغطية والستور التي تراكمت على بصائرنا بفعل كثرة المعاصي والذنوب، لكنّ الأذن الشفافة للنبي الأكرم ﷺ واتصاله بعالم المعنى الشفيف.. عالم الروح والوحي، يجعله يسمع ذلك ويبصره، ومن إخلاصه للناس والبشر أن كشف بعضه لهم؛ ليتداركوا المصيبة والطامة قبل حلولها، ويستعدوا لتلك النوازل قبل نزولها، ويشرعوا لهم الطريق للعمل الخيّر الذي يقي منها.

ولدى الأرض حديث كثير ستقوله في ذاك اليوم ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾، فالفعل ﴿**تُحَدِّثُ**﴾ هو فعل مضارع يدلّ على التجدد والحدوث، و﴿**أَخْبَارَهَا**﴾ جمع، فالأرض تتحدث بأخبار موصولة، لا بخبر واحد ويطبق عليها الصمت، وهي تخبّر الإنسان - كلاً على حدة - ﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾.

إنّ الأرض مطيعة لله لا تعصيه، وجاء الوحي منه تعالى إليها مباشرة أن تقوم بتلك الأفعال المذهلة، ولعلّ مجيء الضمير في قول الأرض ﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ**﴾ - بكاف الخطاب المفردة -، بدلاً من ياء المتكلم (بأنّ ربي أوحى لي)؛ ليكون الخطاب للإنسان مباشرة، ووضعه في دائرة الغرابة والذهول من جديد، وتكثيف ذلك حوله، بما يحويه ذلك من إشعاره بأنّ الآمر (ربّكَ) الذي ربّما عصيته في السابق، أو أنكرته، كما يأتي بصورة المفرد (ربّكَ) لا الجمع (ربّكم)؛ ليكون الخطاب الآسي الحزين موجّهاً بعمق لكلّ شخص باستقلال وعلى حدة؛ ليدرك عظمته وجسامته، ويشرع له باب التفاعل المباشر مع وقع الحدث الصادم.

(١) بحار الأنوار ٧٤/ ٣٨٨، باب (مواعظ أمير المؤمنين)، ح ١١.

خامساً: الصدور العام:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.

ومن الطبيعي جداً: أنّ زلزالاً أرضياً يلتهم عدداً من البشر كضحايا له، وإذا علمنا عظمة وفظاعة زلزال الآخرة فستتوقع أنّ البشرية جمعاء ستكون ضحيته، وسيلتهمهم عن بكرة أبيهم كلقمة واحدة!!، وهذا ما ينفيه القرآن الكريم، فمن غرائب ذاك الزلزال أنّ الجميع معه ﴿يَصْدُرُ﴾ التي تستحضر مقابلها العربي (يرد)، فهناك ثمة ورود سابق؛ لأنّ الموت في الدنيا كان يجعلهم يردون القبور، ويلجون باطن الأرض: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾(١).

أما زلزال الآخرة فهو إيذان بالصدور الجمعي للحساب، حيث يتمنى الإنسان أن يتحوّل إلى تراب ويستريح: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾(٢).

فلن يموت أحد من زلزال الآخرة، ولن يتوارى أحد تحت ركام المنازل المحطمة والأشجار المتراكمة، ولن يُدفن أحد تحت الحجارة المنهارة من الجبال أو من كثبان الرمل، ولن تبلع الأرض أحداً منهم، بل سيصدرون جميعاً، دون تخلّف أحد، سيصدر الناس - كلّ الناس -: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾.

ومن ملامح الغرابة والوحشة في ذلك اليوم أنّ هذا الصدور مع كونه جمعياً لكلّ الناس، ومع أنّ وجهتهم التي يسيرون نحوها واحدة هي ساحة المحشر (وحدة الهدف)، لكنّ ما في ذلك اليوم من دهشة ورهبة ستترك كلاً منهم في شأنه وحاله، فيأتون ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرّقين، لا يعير أحد منهم باله لغيره ولو كان أقرب قرابته:

- ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾(٣).

- ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٤).

---

(١) سورة النازعات/ ١٠.

(٢) سورة النبأ/ ٤٠.

(٣) سورة القمر/ ٧- ٨.

(٤) سورة عبس/ ٣٤- ٣٧.

- ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[١].

سادساً: دقة المحكمة:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

ولن تنتهي مسيرة الذهول عند حدّ ما مضى، فهناك محكمة دقيقة جداً لابدّ وأن تمتثل البشرية أمامها، ومن عظمة تلك المحكمة أنّه لا يفوتها ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، بما يوحي به هذا التعبير من التناهي في الصغر والضآلة، فالعرب تعدّ (الذرّ) - سواء أكان ذرات الغبار التي تظهر في مساقط ضوء الشمس، أم النمل والحشرات الصغار - أصغر ما عهدته، والحساب سيُحضر عمل الإنسان ولو كان متناهياً في الصغر مثل ذلك!!

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٢].

ومن الملفت في القرآن الكريم حين يتكلّم عن الجزاء (الثواب أو العقاب)، أنّه يتناوله على ثلاثة أشكال:

أ- فهو تارة يعدّ ما يحصل عليه الناس في الآخرة (جزاء): ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٣]، ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[٤].

ب - وتارة يعدّه (العمل) الذي قدّموه لأنفسهم: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ﴾[٥].

ج - وتارة ترينا أنّ (ذات) العصاة هم وقود النار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ

---

(١) سورة الحج/ ٢.
(٢) سورة الكهف/ ٤٩.
(٣) سورة البينة/ ٨.
(٤) سورة الكهف/ ١٠٦.
(٥) سورة آل عمران/ ٣٠.

وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١)، **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾**(٢).

وهو ما أملى على بعض العرفانيين نظرية (تجسّم الأعمال)، ونظرية (اتحاد العمل والجزاء)، أو (وحدة العامل والعمل والجزاء)، فحين يقوم الإنسان بالعمل يوفر (المقتضي) و(الشرط) للأثر، لكنّ هناك (مانعاً) يحول دون رؤية ذلك الأثر وتمثّله على صورته الحقيقية، لكنّ الموت وعالم الآخرة يزيل ذاك المانع؛ فتكتمل أجزاء العلة الحقيقية، وتظهر الأمور على ما هي عليه، فإذا بتلك الأعمال الظاهرية التي كانت تبدو في صورة غيبة مرحة، أو التذاذ بأخذ مال الضعفاء أو...، لم تكن إلا أكلاً للحم الميّت، والتهاماً لنار تضطرم في الحشا، وأفاعي كالنخيل السحوق، وعقارب كالبغال!!:

- **﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾**(٣).

- **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾**(٤).

- **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾**(٥).

وكما تظهر الأعمال الظاهرية السيئة على صورتها الحقيقية القبيحة تظهر الأعمال الحسنة على صورتها الحقيقية البهيجة:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا دخل المؤمن في قبره كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبرّ مظلّ عليه، ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه»(٦).

---

(١) سورة التحريم/ ٦.
(٢) سورة الأنبياء/ ٩٨.
(٣) سورة الحجرات/ ١٢.
(٤) سورة النساء/ ١٠.
(٥) سورة التوبة/ ٣٤- ٣٥.
(٦) أصول الكافي ٢/ ٩٦، الباب ٢٣٣، ح ٨.

وقال رسـول الله ﷺ: «مانع الزكاة يُجرّ قصبه في النار (يعني: أمعاؤه في النار)، ومثِّل له ماله في النار في صورة شجاع أقرع له زبيبان أو زبيبتان يفرّ الإنسان منه، وهو يتبعه حتى يقضمه كما يقضم الفجل، ويقول: أنا مالك الذي بخلت به»[1].

وآيتـا الزلزلـة ﴿فَمَن يَعْمَـلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَـرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَرَهُ﴾ قالتـا: ﴿يَرَهُ﴾ في طرفي الفعل: الخيّر والشـرير، ولـم تقـولا: (يرَ جزاءه) أو (يرَ أثره)؛ مما يصبّ في أنّهم سيرون ما قدموه بعينه وقد ظهر في صورته الحقيقية وتجسّم فيها.

كما أنّ المحكمة عادلة لا تجور: فمَن يعمل خيراً لا يُجزى شـرّاً، ومَن يعمل شـرّاً سـيراه، إنّهـا تبرز لكلّ شـخص مـا فعل دون تحريـف، كما أنّهـا محكمة قويـة، فمع أنّها تحاسـب البشـر أجمعيـن لكن لا يمكن لأحـد فيها أن يهـرب، أو ينتفـض، أو يدلّس، أو يَخـدع، ولا يمكـن فيها أن تجتمع كلمة البشـر علـى الانقلاب عليهـا وتحطيمها.. مع أنّ البشر مليارات.

(١) بحار الأنوار ٩٣/ ١٥، الباب ١، ح ٢٩، والشجاع: «الحية العظيمة التي تواثب الفارس والرجل، وتقوم على ذنبها، وربّما قلعت رأس الفارس، تكون في الصحارى. و(الشجاع الأقرع): حية قد تمعّط فروة رأسها لكثرة سمّها» (مجمع البحرين ٤/ ٣٥١، مادة: (شجع)).



المجال السادس: الموضوع في سورة

عوامل انتصار المسلمين في معركة بدر:
قراءة في سورة الأنفال

للانتصار عوامل وللهزيمة عوامل، ومن روعة الخطاب القرآني أنّه حين يقرأ الأحداث لا يعرضها بوصفها تاريخاً وأحداثاً جرت، بمقدار ما يسعى لاستخلاص العبر والفوائد منها في المسيرة الإنسانية؛ لتكون رافد عطاء لا حدثاً ماضوياً حصل وانتهى.

ومن ثمّ يقرّر القرآن الكريم كيف يعرض الأحداث، كما يقرّر المقاطع التي سينتخبها وينتزعها؛ ليسلّط عليها الضوء.

وفي السابع عشر من شهر رمضان المبارك في السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة وقعت معركة بدر الكبرى التي لم تكن أول لقاء عسكري بين المسلمين وكفار قريش، ولكنّها كانت أول لقاء كبير يتمّ بينهما[1]، وقد نزلت سورة الأنفال في معركة بدر وتعليقاً على ما حصل فيها، فسلّطت الأضواء على تلك المعركة الخالدة، التي سمّاها القرآن الكريم (يوم الفرقان): ﴿.... **إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2].

(١) أول سرية أرسلها الرسول ﷺ لمقابلة قريش كانت بقيادة الحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من السنة الأولى للهجرة، ثمّ أرسل سرية أخرى على رأس تسعة أشهر من الهجرة، وثالثة على رأس ثلاثة عشر شهراً، ورابعة على رأس ستة عشر شهراً، ثمّ كانت سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً، وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال (في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٩).

(٢) سورة الأنفال/ ٤١.

فهـو «يـوم الفرقـان.. لا في الدنيـا وحدها، ولا فـي التاريخ البشـري على الأرض وحدها، ولكن - كذلك - في الآخرة في الأبد الطويل»[١].

ومن أهمّ الأمور التي كثّفت سـورة الأنفال الدراسة عليها عوامل النصر؛ فما سبب انتصار المسلمين - وهم قلة - في تلك المعركة؟!

وهذا السـؤال التحليلـي يعرضه القرآن لا لمجـرّد الوصف والمعرفـة، وإنّما لكي يوطّـن المسـلمون في زمـان النبي الأكـرم ﷺ ومن يأتـي بعدهم إلى آخـر الدهر تلك العوامل في بنيتهم القيمية والاجتماعية والسياسية والعسكرية؛ حتى يحافظوا على عنصر التفوق، وتكون لهم القوة والغلبة.

ومن أهمّ عوامل الانتصار تلك:

١- التأييد الإلهي (الإمداد الغيبي):

فالقـرآن - وهـو كتاب الهداية والإيمـان - يرى أنّ أهم عامل للنصـر هو الارتباط بالله تعالى، وعمق العلاقة بالله، وابتغاء مرضاته ووجهه الكريم، فالمسلمون - وهم أهل عقيـدة توحيـد - كان عامل العلاقة بالله هو أهمّ عنصر لانتصارهم العظيم السـاحق ذاك: **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾**[٢]، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾**[٣].

ومن ثمّ أغدق الله - سـبحانه - عليهم صروف التأييد والمدد الغيبي، وجعل أمور الغيب وأمور الشهود وأمور التكوين والطبيعة تتضافر لصالحهم، وتصبّ في نفعهم.

ومن أنواع التأييد في هذه المعركة:

أ- النعاس:

خرج المسلمون لملاقاة قافلة قريش التجارية (العير)، فواجهوا جيشهم الصاخب (النفير) على غير استعداد عسكري ونفسي، فكان الخوف مسيطراً على الأغلبية الساحقة

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣١.
(٢) سورة الأنفال/ ٩.
(٣) سورة الأنفال/ ٤٥.

منهم، وكانوا بحاجة إلى عنصر يهبهم الاطمئنان النفسي، فتدخلت يد الغيب لتمسح على أعيـن هؤلاء المرهقيـن، وتهدهد قلوبهم الخائفة؛ فتغدق عليهـم نعمة النوم وما يبعثه من استقرار وسكينة: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ**﴾(١).

لقـد عمل الإيمـان فيهم عمله، فبـرّد لهيب الأفئـدة الخائفة؛ فمالـت إلى النعاس، وأخلـدت إلـى قرير النوم وسـكن الراحة؛ فاسـتراحت الأعصـاب المشـدودة المتوترة، والأجسـام المنهكـة المتعبة، واسـتقرّت النفوس الهلعـة الذعرة، فنالت الأمـن والراحة، واستعدت لمعركة حاسمة في اليوم التالي(٢).

يقول الإمام علي عليه السلام: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن الأسـود، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – قائماً إلى شجرة يصلي ويدعو حتى الصبح»(٣).

ب- المطر:

وأقبلت قريـش بجلبتها وضجيجها، فنزلت بالعدوة القصوى في (يليل) خلف كثيب العقنقـل وبطن الوادي؛ فكانـوا الأقرب إلى مكة، وكانوا في أرض طينيـة صلبة تعينهم على المعركـة، ونزل الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم في (القُلُب) فـي العدوة الدنيا من بطن يليل؛ فكانوا شـمال المدينة المنورة، والأقرب لها، وكان الوادي رملاً دهساً يصعب على المسلمين القتال فيه!!، لكـنّ مَن بيـده أزمّة أمور التكويـن لا يخذل عبـاده المخلصين، فتدخلت مشـيئته وحكمته، وبعـث السـماء فهطل المطر، فأصاب رسـول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم منها ما لبّد لهـم الأرض، وجعلها خشنة ثابتة، ولـم يمنعهم المسير، بل أتاح لهم القدرة على الحركة والانتقال، وأصاب المطرُ نفسُه قريشاً؛ فحوّل أرضهم إلى طين لزج تتعكر معه الحركة، مما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه(٤)، وتلك قدرة الله التي تجعل الأمر الواحد – كالمطر – ذا مفعولين متغايرين!!

يقـول الله تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّـمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِـهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ**﴾(٥).

(١) سورة الأنفال/ ١١.
(٢) من هدى القرآن ٤/ ٢٤.
(٣) تاريخ الطبري ٢/ ١٣٥.
(٤) نفسه ٢/ ١٤٤.
(٥) سورة الأنفال/ ١١.

وهكذا حقق المطر للمسلمين أربعة أمور:

- فهو ماء صالح للشرب والرّي، وطرد الظمأ والعطش.

- وهو عنصر طهارة ونقاء، لاسيما لأولئك الذين أصابهم ما يصيب الرجال حين ناموا[(١)].

- وهو بشارة تهب القلب الطمأنينة بالتأييد الرّباني.

- وهو عنصر حيوي عسكري، ثبّت أقدام المسلمين في المعركة، حين حوّل تلك الأرض الرملية التي تغوص فيها الأرجل، وتصعب المناورة؛ إلى أرض ذات جهوزية عالية للمعركة.

ج- الملائكة:

والمعركة أمر شهودي يجري بين متقاتلين من بني البشر، بيد أنّ العلاقة بالله تُدخل شيئاً من عالم الغيب ضمن عناصر التأثير في المعركة، ومن ذلك الملائكة التي تنتمي إلى عالم غير العالم الإنساني، لكنّ الله المسيطر على دائرة الكون والوجود يربط بين العوالم لتأييد جنده ودينه، لاسيما وهم قلة ضعيفة: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * .... * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾[(٢)].

فقد رحم الله ضراعة المؤمنين واستغاثتهم، وأنزل عليهم الملائكة تساعدهم في المعركة، وهذا بدوره يدلل على أثر الأمور التشريعية ـ كالتضرع إلى الله ـ في أنزال الرحمة والإمداد الغيبي، مما يوصل بين عالمي التشريع والغيب.

وجملة ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ**﴾ تفيد أمرين هامين:

أولهما: أنّ إرسال الملائكة في المعركة ليس بديلاً وتغييباً للدور الإنساني، وإنّما هو دعم ومساندة، **وثانيهما**: أنّ السبب الحقيقي للنصر هو الفعل الإلهي، لا الملائكة ولا الفعل البشري، مع أنّ هذه معاً عناصر متكاملة متشابكة لا يلغي أحدها الآخر.

(١) البرهان في تفسير القرآن ٤/ ٢٧٨، ح ٤٢٠٨.
(٢) سورة الأنفال/ ٩- ١٠، ١٢.

د- تقليل المسلمين والكافرين:

فقد رأى الرسول الأكرم ﷺ في عالم الرؤيا جيش مكة قليلاً، ثمّ لما تواجه الجيشان في مكان واحد رأى المسلمون - عياناً وفي عالم الواقع - جيش مكة قليل العدد، وكذلك رأى كفار مكة المسلمين، ثمّ بعث كفار قريش عميرَ بن وهب الجمحي فقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد، فجال بفرسه حول العسكر، ثمّ رجع إليهم وقال: «هم ثلاث مئة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصونه، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أم مدد؟، فضرب في الوادي ثمّ رجع إليهم وقال: ما رأيتُ شيئاً، ولكنّي قد رأيتُ - يا معشر قريش - الولايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم»[(١)].

فالرسول والمسلمون من طرف، وكفار مكة من طرف آخر: كلّ منهم رأى الآخر قليل العدد، فما الفائدة في ذلك إذاً؟!

الفائدة تكمن في الأثر النفسي لذلك الصنيع الرّباني: فقد شجّع المسلمين لخوض غمار الحرب، وشحذ هممهم، وقوّى نفوسهم، وأغرى الأعداء، فزرع في قلوبهم الاستهانة والاستهتار، والاستخفاف بالمسلمين؛ مما حدا بهم إلى الغرور الذي أودى بهم إلى الضعف، فكان وبالاً عليهم: **﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾**[(٢)].

هـ- الرعب (الحرب النفسية):

كما أعمل الله عنصر الرعب والحرب النفسية في قلوب الأعداء؛ لتنهش في نفوسهم، وتفتّ شوكتهم، وتدفعهم نحو الهزيمة النفسية الداخلية قبل العسكرية الخارجية، فأوحى الله إلى ملائكته التي أسهمت في المعركة وإلى نبيه الكريم ﷺ: **﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ﴾**[(٣)].

وكانت بدايات تلك الحرب النفسية قد بدأت قبل التقاء الطرفين في أرض

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٤٥- ١٤٦.

(٢) سورة الأنفال/ ٤٣- ٤٤.

(٣) سورة الأنفال/ ١٢.

المعركـة، حيـن رأت عاتكة بنـت عبد المطلب في الحلم أنّ راكبـاً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثمّ صرخ بأعلى صوته: «أن انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم في ثلاث»، فلما اجتمع الناس له دخل المسجد والناس يتبعونه، فمثُل ببعيره فوق الكعبة، ثمّ صرخ بأعلى صوته ثانية: «أن انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم في ثلاث»، ثمّ مثُل به بعيره على رأس جبل أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثمّ أخذ صخرة فأرسـلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسـفل الجبل ارفضّت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلت منها فلقة، ففشـا أمـر الرؤيا في قريش، وفـي اليوم الثالث من هذه الرؤيا دخـل ضمضم بن عمرو الغفاري مكة وهو يصرخ ببطن الوادي - واقفاً على بعيره قد جدع أنفه، وحوّل رحله، وشقّ قميصه - وهو يقول: «يا معشـر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سـفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أنّكم تدركونها، الغوث.. الغوث»[١].

ثـمّ أكمـل الله ذلك حين خروج قريش للمعركة؛ حتى أنّ الرسـول ﷺ «أرسـل عمار بن ياسـر وعبد الله بن مسـعود، فأطافا بالقوم، ثمّ رجعا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقالا: يا رسول الله، القوم مذعورون فزعون، إنّ الفرس ليريد أن يصهل فيُضرب وجهُه، مع أنّ السماء تسحّ عليهم»[٢].

وطـرف هـذا النـصّ التاريخي، توضّـح مدى ذعـر الأعـداء بطريقتيـن: أولاهما: التصريـح بكونهم مذعوريـن فزعين، والثانية بمدى لطمهم الخيـل حتى لا يصهل؛ خوفاً من وصول صوته للمسلمين، وهي كناية عن غاية الذعر والرهبة، والرغبة في التخفي.

و- التـراب:

ومن عناصر التأييد الإلهي التي حصلت قبيل المعركة أن أخذ الرسول الأكرم ﷺ حفنة من الحصباء (الحصى)، فاسـتقبل بها قريشـاً، ثمّ قال: «شاهت الوجوه»، ثمّ نفحهم بها، فدخل غبارها في عيونهم، وقال ﷺ لأصحابه: شدوا، فكانت هزيمة الأعداء[٣].

وإلى هذا يشـير قولـه تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِـنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٤].

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٣٦- ١٣٧.
(٢) محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس ١/ ٥٤.
(٣) تاريخ الطبري ٢/ ١٥٠.
(٤) سورة الأنفال/ ١٧.

٢- طاعة القيادة:

وإذا كان ما سبق يدور حول التأييد الإلهي لجنده، فإنّ هناك عاملاً آخر من عوامل الانتصار يكمن في طاعة القيادة الرشيدة، فتماسُك قوى الجيش وطاعته للقائد الخبير الحكيم تسهم بشكل فعّال في اجتماع الرأي ووحدة الكلمة ونجاح المخطط الحربي.

والرسول الأكرم ﷺ في الرؤية الدينية لا يمثل مجرّد قائد رشيد، وإنّما فوق ذلك هو نبي موحى إليه، وواجب الطاعة على المسلمين؛ الأمر الذي دأبت الآيات الشريفة على غرسه في قلوبهم ونفوسهم:

- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾[١].

- ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[٢].

- ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[٣].

ومن الكلمات التي تنضح بعبق الولاء والطاعة للنبي الأكرم ﷺ كلمة المقداد بن عمرو التي قالها وجيش الأعداء مزدحم الصفوف، مدجّج بالسلاح، حين التفت إلى الرسول ﷺ وقال: «يا رسول الله، امض لما أمركَ الله فنحن معكَ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[٤]، ولكن اذهب أنت وربكَ فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثكَ بالحقّ لو سرتَ بنا برك الغِماد - يعني الحبشة - لجالدنا معكَ مَنْ دونه حتى تبلغه»[٥].

ولأنّ الأنصار حين بايعت الرسول ﷺ في بيعة العقبة قالت: «يا رسول الله، إنا برآء من ذمامكَ حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعكَ مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا»، لذلك أحبّ الرسول أن يستطلع رأيّهم في هذه الحرب التي ستجري أحداثها خارج المدينة، فقال ﷺ: «أشيروا عليّ»، فقال سعد بن معاذ:

(١) سورة الأنفال/ ٢٠.
(٢) سورة الأنفال/ ٤٦.
(٣) سورة الأنفال/ ١.
(٤) سورة المائدة/ ٢٤.
(٥) تاريخ الطبري ٢/ ١٤٠.

«والله، لكأنكَ تريدنا يا رسـول الله»، فقال الرسـول: «أجل»، فقال سـعد: «فقد آمنا بكَ، وصدّقناكَ، وشـهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحـقّ، وأعطيناكَ على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ – يا رسول الله – لما أردتَ، فوالذي بعثكَ بالحقّ إن استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخَضناه معكَ ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصُبَّر عند الحرب، صُدَّق عند اللقاء، لعلّ الله يريكَ منّا ما تقرّ به عينكَ، فسـر بنا على بركة الله»[1].

وهكذا انطلقت الكلمة الثانية التي تصدح عالياً بالولاء والطاعة للقيادة الرّبانية.

٣- المعنويات المرتفعة:

ومـن عوامـل النصر فـي معركة بـدر الكبـرى المعنويـات العاليـة التـي تحلّى بها المسـلمون: فقـد عمر الاطمئنان والسكينة قلوبهم، فزال الخوف والرعـب: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللّـهُ إِلاَّ بُشْـرَى وَلِتَطْمَئِـنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**﴾[2]، وغمـر قلوبهم ومواقفهم الثبـات والجلد: ﴿**إِذْ يُوحِـي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُـواْ**﴾[3]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ**﴾[4].

ومـن أبرز ما يرسـم تلك المعنويـات العالية أنّه لما حميت المعركة، واشـتد حمى الوطيس؛ خرج النبي ﷺ مشـجّعاً للمسلمين، محرّضاً لهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، فسـمعه عُمير بن الحُمام – أخو بني سـلمة – وكان في يده تمرات يأكلهنّ، فقال: «بخ .. بخ ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء»، ثمّ قذف التمرات من يده، وأخذ سيفَه، وهبّ للقتال وهو يرتجز ويقول:

ركـضــاً إلى الله بـغـيـرِ زادِ إلا الـتـقـى وعـمـلِ المـعـادِ
والـصـبـرِ في الله عـلى الجـهـادِ وكـلّ زادٍ عُـرضـة الـنـفـادِ
غـيـر الـتـقـى والـبـرِّ والـرشـادِ

(١) نفسه ٢/ ١٤٠– ١٤١.
(٢) سورة الأنفال/ ١٠.
(٣) سورة الأنفال/ ١٢.
(٤) سورة الأنفال/ ٤٥.

فقاتل القوم ببسالة حتى قُتل[١].

وتحلّي المسلمين بالمعنويات المرتفعة عنصر يقابل عنصر الهزيمة النفسية الذي خيّم بجناحه الحالك على قلوب الأعداء.

ومن المعنويات العالية: الثبات والاستقامة والصبر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[٢]، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾**[٣]، **﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[٤]، **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ۞ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[٥].

والوصف بالصبر الوارد في الآيتين الأخيرتين: **﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾**، **﴿مِّئَةٌ صَابِرَةٌ﴾**، ليس مجرّد صفة أخلاقية تكميلية يعرضها القرآن الكريم، وإنّما هي صفة أساسية مركزية في تحقيق النصر، لاسيما حين نعلم قسوة الحروب وحاجتها إلى ذلك، وحين نقرأ أثره البليغ في معركة بدر، والأثر المباين الذي تركه عدم تحلّي المسلمين به في معركة أحد.

٤- عظمة الهدف والتطلع:

وعظمة الهدف الذي يبتغيه المسلمون في الحرب حين يضعونه نصب أعينهم وهم يقاتلون، فسوف يبعث فيهم الهمة العليا للقتال، إنّهم يقاتلون لأجل الله وإحقاق الحقّ ومحو الباطل: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[٦].

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٥٠.
(٢) سورة الأنفال/ ١٥.
(٣) سورة الأنفال/ ٤٥.
(٤) سورة الأنفال/ ٤٦.
(٥) سورة الأنفال/ ٦٥- ٦٦.
(٦) سورة الأنفال/ ٣٩.

وهذا الهدف العظيم يجعلهم يتعالون على الانشغالات الجزئية والجانبية حتى لا تفتّ في عضد الهدف الكبير: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١).

إنّ حبّ الإنسان لأولاده أمر فطري لا يمانع منه الدين، لكنّ هذا الميل الفطري إن شُرع المجال له في الحرب بما يحيل المقاتل إلى شخص عاطفي يستعر في داخله أوار الحنين والرغبة في لقيا الأولاد والعودة إليهم، فسوف يكون مشلاً لحركته في المعركة، وعدم تفانيه في القتال.

فهذا الحبّ الفطري – وهو أمر هامّ وسام – يقف الآن في مقابل أمر أهمّ وأسمى هو الله سبحانه، ونصرة دينه، وهذا يستدعي السيطرة على مستوى الحنين الفطري؛ لئلا يتفجّر فيكون سيلاً مغرقاً لصاحبه الذي سيتيه في دوامة التذكر والعشق لأولاده، فيكون ساهماً عن متطلبات المعركة والمواجهة بما تستدعيه من حضور روحي ونفسي وعقلي وعملي في منتهى العمق.

وبعبارة أخرى، فهو نمط من (الإعلاء) يتمّ فيه الارتقاء بالعاطفة المشبوبة من الوِلد إلى الله والدين، أو هو – على الأقل – نمط من (التحويل) لمسار تلك العاطفة إلى الله، أو لا أقل نمط من التغلب الحيني الآني على تلك العاطفة الجامحة لوجود ضرورة ملحة.

ولا نريد أن نقول: إنّ هذه الأنماط الثلاثة ترد بمعنى واحد، وإنّما هي مستويات ثلاثة مختلفة تنازلية للمستوى الذي يحتلّه حبّ الله في قلب المؤمن، ومستوى مغالبته لألوان الحبّ الأخرى التي تتخذ لها مكاناً في قلبه.

٥- الوحدة (تماسُك الجبهة الداخلية):

فتماسُك الجيش ووحدته تحت كلمة واحدة وراية واحدة وقيادة واحدة أحد عناصر نجاحه في حربه ضد العدو، حتى تسري القرارات بشكل واحد بين أفراده، ولا يتمّ خرقها أو تركها من قبل بعض مَن ينطوي تحت رايته؛ فيكون المنفذ لدخول العدو، أو يكون منطقة الضعف التي منها يؤتى.

ولذلك أمر الله المسلمين بخلع جلباب التنازع عن ظهورهم، والتوحّد تحت لواء واحد: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ

---

(١) سورة الأنفال/ ٢٨.

الصَّابِرِينَ﴾[١].

إنّ اشـتعال نار الخلافات الداخلية في المعركة يؤدي إلى تخلخل الجبهة الداخلية وتفككها، وذاك يُنتج الفشـل في المعركة ﴿فَتَفْشَـلُواْ﴾، وتفتت القوة وتشظيها ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُـمْ﴾؛ لأنّ النـزاع - من جهـة - يضعف الإرادة، ويبعث الوهن في النفس، ويسـبّب فشـل القلـب وتوانيه وذهاب الهمـة والتطلع عنه، ومن جهة ثانية، يُذهـب القوة والكرامة والعزة والهيبة، وبالتالي يدمّر كلَّ فريق شـخصية الفريق الثاني، ومَن تحطمت شـخصيته وهانت نفسه عليه؛ فإنّه لا يحارب عدوّه، ولا يرى نفسه كفوءاً للصراع مع منافسيه[٢].

فمن أعظم النعم التي أسـبغها الله على المسـلمين في بدر هـي التغلّب على الفتن الداخلية وتجاوزها بما زرعه في نفوسـهم من ألفة ومحبة: **﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[٣].

٦- الكفاءة القتالية العالية:

لقـد كان عدد المسـلمين في المعركـة قليلاً لا يتجاوز الـ ٣١٣ شـخصاً، ولـم يكن لديهم إلا ٧٠ جملاً يتعاقبون على ركوبها، ولـم يكن لديهم إلا فارس واحد هو المقداد بن الأسـود، وإذا زيد في عدد فرسـانهم قيل: ثلاثة، ثانيهم الزبير بن العوام، وثالثهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، بينما كان العدوّ يبلغ الـ ٩٥٠ شـخصاً، ولديه ٧٠٠ بعير، و١٠٠ فرس، لكنّ المسلمين - قيادة وجيشاً - أظهروا كفاءة قتالية عالية جعلت ميزان القوة في المعركة يميـل لصالحهم، فقـد انجلت المعركة عن ٧٠ قتيلاً و٧٠ أسـيراً في صفوف قريش، ولـم يُستشهد من المسلمين إلا ١٤ شخصاً[٤].

لقـد أمر الله المسـلمين أن يوفروا في أنفسـهم أقـوى طاقة وقدرة من الاسـتعداد، فقـال: **﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْـتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**

(١) سورة الأنفال/ ٤٦.
(٢) من هدى القرآن ٤/ ٦٩، ٧١- ٧٢.
(٣) سورة الأنفال/ ٦٢- ٦٣.
(٤) سيرة النبي ﷺ ٢/ ٣١٢، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٥/ ٣٣٨، ٣٤١، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٤٥٦، والموسوعة العربية العالمية ٤/ ٢٤٠.

وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[(١)].

وتـرك جملـة ﴿**مَّـا اسْـتَطَعْتُم مِّن قُـوَّةٍ**﴾ مفتوحة تشـمل كلّ عناصر القـوة: القيمية والاجتماعية والثقافية والسياسـية والعسـكرية و....، وتشـمل كلّ أنواع القوة العسـكرية والتقانات الحربية، وبذلك رصف الطريق للمسـلمين ليكونوا على أهبّة الاستعداد لتوفير أقصى أداء وسـبل ووسـائل وإمكانيات ممكنة، ولا يعتمدوا علـى عنصر الغيب والعلاقة الروحية بالله وحدهما.

كمـا أنّ جملة ﴿**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُـمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ توضّح أهمية عنصر الردع في الحرب (سياسة الردع)، (سياسة توازن الرعب)، وبلوغ القوة مسـتوى بحيث لا يخيف قوة الأعداء في جبهة القتال فحسـب، بل.. والذين خلفها من جنودها خارج الجبهة، ولا يكفي ذلك، بل.. ويخيف أتباعها الموجودين ضمن بنية المجتمع الإسلامي، سواء أكانوا منافقين أو جواسيس أو متمصلحين أو غير ذلك..

فعنصر الردع يمتدّ لثلاث جهات:

- العدوّ في المعركة وجبهة القتال.
- أتباع العدوّ خارج المعركة وجبهة القتال.
- أتباع العدوّ الموجودين ضمن بنية الجسد المسلم.

وقد تجلت ملامح الكفاءة القتالية لدى المسلمين في أمور كثيرة، منها:

أ- القدرة الاستطلاعية:

فقـد بعـث النبي ﷺ جماعة من أصحابه - قبل أن يعلموا بخروج جيش الأعداء لحربهم -، لماء بدر، فورد الماء بعض روايا قريش، فأمسـك المسـلمون بغلامين منهم، وأقبلوا بهما نحو النبي ﷺ وكان يصلّي، فسـألوهما عن أبي سـفيان وقافلته، فحدثاهم عن قريش وجيشها، فكان العبد إذا أخبرهم عن قدوم قريش ضربوه وكذبوه، وإذا حدثهم عن قافلة أبي سفيان وقربها منهم تركوه، فانفتل النبي ﷺ من صلاته وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهمـا، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنّهما لقريش»، ثمّ دعا النبي الغلامين وسـألهما: أين قريش؟، فأجابا: هم وراء الكثيب الذي ترى، فسـألهما: كم القوم؟، فقالا: كثيـر، قال: ما عدتهم؟، فقـالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كلّ يوم؟، فأجابا: يوماً تسـعاً،

(١) سورة الأنفال/ ٦٠.

ويوماً عشراً، فقال النبي ﷺ: «القوم ما بين التسع مئة إلى الألف»[١].

وهكـذا قـادت حنكة القائد وخبرتـه إلى معرفة عدد جيش قريـش؛ عبر معرفة عدد الإبل التي ينحرونها.

ب- الاستشارة والاستفادة من الخبرات القتالية:

ومـع أنّ النبـي محمد ﷺ رسـول موحى إليه ومسـدّد من الله تعالـى إلا أنّه كان يشاور أصحابه، ويستفيد من خبراتهم القتالية، ويطبّقها ويعمل بها.

وقد جاءه الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا رسـول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنـزل أنزلكـه الله ليـس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخـره أم هو الرأي والحـرب والمكيدة، فقال ﷺ: بـل هـو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسـول الله، فإنّ هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم فتنزله، ثمّ تغوّر ما سـواه من القُلُب، ثمّ تبني عليه حوضاً فتملأه ماء، ثمّ نقاتل القوم، فنشـرب ولا يشربون، فقال الرسول ﷺ: «لقد أشـرتَ بالـرأي»، فنهض ومَن معه مِن النـاس حتى أتى أدنى ماءٍ من القـوم فنزل عليه، ثمّ أمـر بالقُلُـب فغوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليـه، فمُلىء ماء، ثمّ قذفوا فيه الآنية[٢].

ج- السيطرة على شريان القوة:

فقـد بـادر الرسـول ﷺ المشـركين بالانطلاق نحو مـاء بدر، وخيّم المسـلمون هنـاك[٣]، في حركة اسـتباقية تجعلهم قريبين من الماء الـذي كان يُعد - وفق مقاييس ذاك الزمـان - أحـد أهمّ شـرايين القوة، ومصدر اسـتمداد لمؤونة ضروية للحياة، لاسـيما مع لهب القيظ وحرارة الشمس وجهد الحرب.

د - تحديد موقع المعركة:

كما يتضمن النصّان السابقان أنّ الرسول ﷺ والمسلمين هم الذين حددوا موقع

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٤٠.
(٢) نفسه ٢/ ١٤٤.
(٣) نفسه ٢/ ١٣٢، ١٤٤.

المعركـة حين سـاروا نحو تلـك الآبار، وأهمّها بئر (بدر) الذي سُـمّي المـكان والمعركة باسـمه، وألجؤوا جيـش مكة على موافاتهم فـي ذلك المكان، وقد أعد المسـلمون ذلك المكان بما يناسبهم: سيطرة على الماء، وتغويراً للآبار الأخرى، فوجد المشركون أنفسهم في مكان لم يحتاطوا له بما يناسب خوض معركة وقتال.

المجـال السابـع: المقالة التفسيرية

كيف ندعو إلى الله؟

من أبرز الأمور المؤثرة في الدعوة إلى الله سبحانه: الطريقة التي يسلكها الداعي، فقد يقدّم دعوته بأسلوب بهيج يشدّ المدعو إلى الله، وقد يسوقها بطريقة فجّة تنفّر من طريق الله والخير!!

لذلك أولى القرآن الكريم أسلوب الدعوة إلى الله عناية كبرى، ومن أحفل الآيات التي اهتمّت بذلك قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾(١).

وقد ذكرت هذه الآية الكريمة ثلاثة شروط للدعوة الراشدة هي:

١- الحكمة:

﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**﴾.

وبها يضع الداعي كلّ شيء في موضعه الصحيح المناسب، ولا يتخبّط هنا وهناك؛ فيكون ذاك أكثر وقعاً على من يدعوهم.

و(الحكمة) التي هي وضع الشيء موضعه، تتعدد حسب الأشخاص المدعوين وقابليتهم، كما تتعدد حسب نوعية الطريقة الناجعة التي تؤثر فيهم، وتلامس شغاف قلوبهم.

---

(١) سورة النحل/ ١٢٥.

ومن الحكمة: التركيز على المشتركات عند دعوة المختلف لتشدّه إلى حبل التوافق والتآلف القلبي، وعدم البدء بنقاط الاختلاف التي قد تنفّره: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

كما تشمل الحكمة: التدرّج في الدعوة، الأمر الذي مارسه القرآن في تحريم الخمر على دفعات متوالية.

وحين نعود لحياة المعصومين عليهم السلام نراهم يولون أهمية قصوى لمجيء الدعوة في وقتها ومكانها المناسب، بحيث يضعونها في مكانها وزمانها وظرفها المناسب: فمرة تكون على العلن، وأخرى في السرّ، وتارة للجميع فيُعلن (الصلاة جامعة)، وأخرى يأخذ المعصوم بيد صاحبه ويذهب به إلى المقبرة (الجبانة) أو الصحراء ليكلّمه هناك.

وقد نشهد أشخاصاً مختلفين يطلب كلّ منهم الموعظة والنصح من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيأتي نصح النبي مختلفاً حسب ما يحتاجه كلّ واحد منهم، وتقتضي الحكمة قول ما يناسب المدعو.. ويحتاجه، فكلّ واحد منهم على انفراد قال: «أوصني يا رسول الله»، لكنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أوصى أحدهم وقال له: «احفظ لسانك»[٢]، وأوصى الثاني وقال له: «لا تغضب»[٣]، وأوصى الثالث وقال له: «أكثر ذكر الموت»[٤]، وأوصى الرابع وقال له: «أوصيك بتقوى الله، والتكبير على كلّ شرف»[٥].

وهكذا..، ينصح النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلّ شخص بما يرى أنّه ضروري له، ومحتاج إليه.

وفي فتح مكة كان بإمكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يجبر أبا سفيان على دخول الإسلام، لاسيما وقد أضحى ميزان القوة للنبي، لكنّه لم يفعل ذلك، بل قال: «مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[٦]، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أنّ أبا سفيان أحد كبار قريش، وكان رجلًا (زمّيلًا) يحبّ الأبهة والمدح والثناء والإطراء عليه!!، وقد استفاد الرسول من حادثة الفتح؛ ليوجّه سهمه الصائب لأبي سفيان الذي أثر المدح والإطراء فيه، فاعتنق الإسلام - ولو ظاهراً

(١) سورة آل عمران/ ٦٤.
(٢) تحف العقول عن آل الرسول/ ٤٥.
(٣) نفسه/ ٣٩.
(٤) نفسه/ ٣١.
(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٦٢٣، (مسند أبي هريرة)، ح ٨١١١.
(٦) بحار الأنوار ٢١/ ١٢٩، باب فتح مكة، ح ٢٦.

-، وأنهى الرسول ﷺ بذلك شيئاً من عدائه السافر للإسلام.

ويوم ابتُلي النبي الأكرم ﷺ بيهودي يلقي في طريقه الأشواك، لم يرد عليه بالمثل، بل.. تحيّن فرصة مرضه، ليعوده؛ ذاك الفعل الذي حوّل قلب اليهودي من نافر معاد، إلى مسلم.

كما جذب ﷺ أناساً آخرين عبر دفع المال لهم، فألفوا دائرة (المؤلفة قلوبهم).

ومن الدعوة بالحكمة: الدعوة بالفعل بدلاً من القول، فحين رأى رسول الله المسلمين محجمين عن النحر والتقصير بعد صلح الحديبية نحر هو هديه وقصّر، فتبعه المسلمون.

والأمر نفسه فعله الحسنان يوم كانا صغيرين، ومرّا على شيخ كبير في العمر لا يحسن الوضوء، فلم يعنّفاه، أو يحرجاه، وإنّما عالجاه بالتربية العملية والسلوك العملي، فأظهرا التنازع بينهما، ثمّ قالا: «أيّها الشيخ، كن حكماً بيننا، يتوضأ كلّ واحد منّا»، فتوضآ، ثمّ قالا: «أيّنا يحسن؟»، قال: «كلاكما تحسنان الوضوء، ولكنّ هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن، وقد تعلّم الآن منكما، وتاب على يديكما، ببركتكما وشفقتكما على أمة جدّكما»[1].

لقد كان بإمكانهما اختيار أسلوب توبيخي لاذع ممزوج بلفظ قاس؛ ليشرخا قلبه.. ويكسراه، لاسيما إذا كان الحدث بمرأى ومسمع من الناس، ويوجّه إلى شيخ طاعن أفنى عمره لا يعرف بديهيات دينه حيث أوائل أحكام الوضوء، وما يترتب عليها من أثر في الصلاة والأعمال المتوقفة على الوضوء، لكن.. ما هكذا عهدنا المعصومين عليهم السلام، لقد فضّلا شكل الدعوة العملي بدلاً من القولي، وقد أعاد الإمام الصادق عليه السلام صياغة هذا الأسلوب الحكيم حين قال: «كونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم»[2].

وهذا بخلاف ما نجده عند بعض الدعاة والمتزّيين بزيّ علماء الدين من قسوة وجفاء وغلظة، تكدّس فيها كلّ ما يصبّ في خانة العنف النفسي واللفظي والعملي، بدءاً من الكره النفسي للآخرين ومجالستهم ومخالطتهم والأكل معهم، والنظر إليهم من عل نظرة ازدراء ودون وتحقير، ومروراً باغتراف الألفاظ من أشدّ مفردات القاموس الديني لوصم الناس بأنّهم كفرة ومرتدون ومنحرفون وضالون وفسقة وآكلو حرام وأبناء حرام،

(١) نفسه ٤٣/ ٣١٩، الباب ١٣، ح ٢.
(٢) نفسه ٦٧/ ٢٩٩، الباب ٥٧، ح ٩.

وتجاوز حدود القاموس الديني إلى وصف الناس بالجواسيس والخونة والمهرطقين والدجالين..، واستعمال أسلوب الصراخ والتجريح ورفعة الصوت في الخطابة والوعظ، وانتهاء بممارسة العنف الفعليّ مع المدعوين، والإقصاء الاجتماعي والثقافي للمختلف الداخلي والخارجي، وطرده من المحافل العامة كالمجالس والمساجد، وإبعاده عن مكامن الظهور والتأثير، وانتهاء بتصفية الشخصية والشخص، حيث يتمّ إنهاء الطرف المقابل معنوياً وجسدياً بالتحريض على الكراهية والعنف، وإصدار فتاوى بحلية أموال المختلف وعرضه، وجواز قتله وقتل أطفاله، وممارسة ذلك فعلياً!!

ولعلّ واحدة من أشد المواقع حساسية والتي تحتاج إلى المزيد من الحكمة: اختيار الموضوعات التي تُعرض في منابر وأقنية الطرح الديني والثقافي، تلك التي يتولاها - غالباً - بعض علماء الدين والخطباء والكتّاب: والتي يشكّل بعضها صدمة أخلاقية ونفسية كبيرة تصفع بعض الفئات الاجتماعية، بما يصل - أحياناً - إلى درجة إصدار أحكام أخلاقية معيارية تعميمية أوسع من دائرة الموضوع والحدث تصف تلك الفئات بالفسق أو الخيانة أو تقليد الغرب، وتعمل على تنفيرهم من الدخول والتفاعل مع منابر الطرح الديني والثقافي، وهنا تندرج تلك الموضوعات التي تخوّن صغار العمر والشباب لإقدامهم على بعض قصّات الشعر أو موضات اللباس، أو تشكك في عفة البنات والفتيات لإقدامهنّ على بعض أنواع اللباس، كالكاب أو البرقع أو العباءات الكتافية أو....، لاسيما حين يكون ذاك الطرح في أماكن جماهيرية عامة يرتادها الجميع، ويتخذ صبغة دينية ملفعة بقول الله وقول المعصومين.

ويزداد الأمر خطورة كلّما اتجهنا صعداً نحو الأقنية الأكثر انتشاراً وتأثيراً، فمن عرض ذلك على شخص أو قريب في المجتمع، إلى عرضه في مجلس خطابي، إلى طرقه في مجلس في أقوى المناسبات حضوراً، إلى تناوله في مجلة أو جريدة أو موقع إليكتروني، إلى إبرازه صارخاً في الفضائيات، أو غير ذلك..

ولا يعني هذا أنّنا نقول بأنّ كلّ صرعة تقع في المجتمع فنحن نؤيدها، أو يجب أن نسكت عنها، أو نتقبّلها، ونزرّقها في كيان المجتمع، وإنّما نريد القول: إنّ اختيار الموضوع والوقت والشريحة والطريقة ينبغي أن يخضع للحكمة حتى يؤتي ثماره.

٢- الموعظة الحسنة:

وهنا يتمّ ممارسة دور الإرشاد والتنبيه بالأسلوب الحسن الرفيق: ﴿وَالْمَوْعِظَةِ

الْحَسَنَةِ﴾، فكم يرفض الناس حقاً لأنّه عُرض بطريق فجّ منفّر، وكم يصرّون على باطل لأنّ الأسلوب الخاطئ الذي ينهاهم عنه جعلهم يتمسّكون به، ويشعرون أنّه بعض ذواتهم!!

لقد كان فرعون طاغية زمانه، نازع الله رداءه وادعى الألوهية والربوبية، وصبّ على بني إسرائيل صنوف العذاب المهين، وقتّل أولادهم، واستحيى نساءهم، لكنّ الله حين أمر نبييه موسى وهارون عليهما السلام أن يدعوا فرعون لاعتناق رسالة السماء، أمرهما أن يدعواه بأسلوب رفيق طافح باللين: **﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾**(١).

إنّ واحداً من مبرّرات ذاك اللين في الدعوة هو إثبات الحجة على الطرف الآخر، حتى لا يرد محتوى الحقّ بحجة أنّ طريقة عرضه كانت خاطئة!!

كما أمر الله نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يقنّط الناس من رحمة الله؛ حتى يشرع أمامهم الطريق للتوبة والعودة إلى الله، وعدم التمادي في العصيان: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**(٢).

ومع أنّ الخطاب هنا مع أناس **﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾**، لكنّ روح الوداعة والحبّ والحنوّ هي التي تخاطبهم فتناديهم **﴿يَا عِبَادِيَ﴾**، وليس (يا أيّها المسرفون على أنفسهم) أو (يا أيّها الضُّلال المنحرفون)!!، ثمّ يشرع ذاك الخطاب الحاني باب الأمل أمامهم **﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾**، وزيادة في جرعة الأمل تتلو هذه الجملة جملة أخرى تؤكد سعة مغفرته تعالى لكلّ الذنوب **﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾**، ثمّ جملة أخرى ترسم لنا صفتين من صفات الله المناسبة لخلق الأمل في النفوس والعودة إليه سبحانه، تحملهما عبر التوكيد **﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

نعم.. إنّ هذا موقع أنّ الله غفور رحيم، وليس موقع أنّه شديد العقاب!!

وهذه الموعظة الحسنة هي ما جعل النبي الأكرم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يدأب على القول: «اللهم اغفر لقومي، إنّهم لا يعلمون»(٣)، مهما عتوا في وجهه، وأهانوه، وعذّبوه، حتى لو وضعوا معدة الغنم وهي مملؤة بالأوساخ والأقذار على رأسه الشريف وهو يصلي،

---

(١) سورة طه/ ٤٣- ٤٤.

(٢) سورة الزمر/ ٥٣.

(٣) بحار الأنوار ٩٥/ ١٦٧، الباب ٧٣، ح ٥.

أو فرضوا عليه الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنين حتى مات أحبّ الناس إليه، أو أمروا أطفالهم وغلمانهم في الطائف أن يرموه بالحجارة حتى أدموا رجليه، أو أخرجوه من مدينته التي أحبّها واستولوا على بيته وأموال المسلمين، أو قادوا ضده الجيوش العاتية.

٣- المجادلة بالتي هي أحسن:

من لم يسيطر على فكره، أو لم يتحصّن بالحجة، أو عَلِمَ زيف أفكاره وهشاشتها، يهرب من سوح الحوار حتى لا يُفتضَح أمره، وتُكسَر شوكته، وتذهب هيبته، وإذا ما نوقش فإنّه يغدو كالهرّ الذي حُصر في مكان يتقافز هنا وهناك، ويتسلّق هنا وهناك، علّه يجد المخرج والمهرب، ويتشبّث بأدلة واهية كما يتشبّث الغريق بقشة، ولا يلتزم في جداله بأدب الحوار والأخذ بالحسن أو الأحسن، بل يسعى للانتصار بأيّ وسيلة كانت، فمن أجل تلكم الغاية تُبرّر لديه كلّ الوسائل:

- **﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾**[1].

- **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾**[2].

- **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾**[3].

- **﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾**[4].

منهج الجدال:

وعلى الطرف المقابل سنّ الله - سبحانه وتعالى - منهج الجدال الموضوعي

(١) سورة الكهف/ ٥٦.
(٢) سورة غافر/ ٥.
(٣) سورة الحج/ ٨- ٩.
(٤) سورة الأنعام/ ٢٥.

وتـداول الرأي وعرْضِ الدليل في سـبيل الوصول إلى العلم والحقّ، ووضعَ ضابطة عامة لهذا الجدال هي أنّه (جدال بالتي هي أحسن): ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ففـي غمرة الجدال ولهبه المسـتعر، حيـث يفقد الكثيرون أعصابهـم، ويطوّح بهم الانفعـال فـي أوديـة وبيئـة؛ يأمر اللـه تعالـى بأخلاقيـة الجـدال، والمجادلـة ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ومعنى ذلك أنّ الطريق كان أمام مفترقٍ ذي أربع شعب، أمر الله بسلوكِ أسماها وأعلاها، فقد كان هناك:

أ- الجدال بالتي هي أسوأ.

ب – الجدال بالسيئ.

ج – الجدال بالحسن.

د – الجدال بالتي هي أحسن.

ويوضّـح القـرآن الكريم الأثـر الاجتماعي للتي هي أحسـن، وقدرتها على تحويل العـدوّ إلى صديق حميم: ﴿وَمَنْ أَحْسَـنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِـلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(١).

وقـد أشـارت كثير من الآيـات القرآنيـة إلى مجموعة مـن المحـددات والضوابط المؤطـرة لمنهـج الجـدال الـذي يسـنّه الديـن (الجـدال بالتـي هي أحسـن)، ومـن تلك المحددات:

أ- التركيز على الثوابت:

ينطلـق البعـض في جداله مـن مناطق التوتر والخـلاف، فلا يسـتطيع أن ينجح في إدخال الطرف المقابل في عملية حوارية، وإذا ما تمّ الدخول فيها، فليست إلا برهة يسيرة من الزمن حتى تترافع الأصوات، ويقع النزاع!!

لكـنّ القـرآن الكريم يعلّمنـا أنّه في ظلّ الجـدال بالتي هي أحسـن ينبغي الانطلاق مـن الثوابـت الجامعـة، والتركيز عليهـا، وعدم إنـكار التقاربـات العقديـة والمعرفية مع المخالفين.

---

(١) سورة فصّلت/ ٣٣- ٣٥.

فالدعوة إلى الله تبتغي الوصول إلى الحقّ والإيصال إليه، وما دمنا في عملية الحوار قد اكتشفنا أنّ بعض ذلك متحقق لدى الطرف المقابل؛ فتلك حقيقة لا يمكن تجاوزها، ولا نكرانها، ولا التعالي عليها، وإنّما ينبغي جعلها أساساً مشتركاً يُبنى عليه.

إنّ وجود (مشتركات) في عملية الحوار تمثل ركيزة جامعة يمكن الانطلاق منها، والارتكاز عليها، لاسيما حين تكون من الأدلة التي يمكن الاحتكام لها والارتكاز عليها في عملية بناء الأفكار ونقدها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[1].

يأمر القرآن المسلمين أن يقولوا لليهود والمسيحيين (أهل الكتاب) هذا، وهم يعلمون أنّ اليهود يقولون: عزير ابن الله، وأنّ المسيحيين يقولون: بالتثليث، وأنّ المسيح ابن الله ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ**﴾[2]، و﴿**إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ**﴾[3].

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[4].

والقرآن هنا يطلب من المسلمين أن يضعوا تعريفاً للمؤمن يرى أنّه: ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً**﴾، وأن يقولوا هذا لليهود والنصارى والصابئة، مع أنّهم يعلمون أنّ الصابئة يقدسون النجوم!!

فما أبعد البون بين أخلاق القرآن هذه وبين الروح الغريب السائد بين بعض المسلمين، والذي يدفع أناساً من كلّ فئة منهم ليقولواعن الفئة الأخرى: إنّ ربّهم ليس ربّنا، وكتابهم ليس كتابنا، ونبيّهم ليس نبيّنا، وجنتهم ليست جنّتنا، وإذا كان مصيرهم إلى الجنة فسنختار النار؛ لأنّا لا نريد الجنة التي سيدخلونها!!

---

(١) سورة العنكبوت/ ٤٦.
(٢) سورة التوبة/ ٣٠.
(٣) سورة المائدة/ ٧٣.
(٤) سورة البقرة/ ٦٢.

اليهـود والنصـارى والصابئة يمثّلون للمسـلمين آخـر مختلفاً خارجيـاً، ينتمي إلى دائرة خارج دينهم تماماً، بينما يمثّل المسـلمون (سـنة وشـيعة) بين أنفسـهم آخر مختلفاً داخليـاً، فهـو اختلاف مذهبـي ينطوي تحت دوحة ديـن واحد، لكنّ الله يأمر المسـلمين أن يتحدثـوا مـع المختلف الخارجي بأدب جمّ لم يسـتطع كثير منهم أن يجسّـده حتى في اختلافاتهم الداخلية!!؛ مما يقنعنا بافتراق (ثقافة الإسلام) عن (ثقافة المسلمين) في كثير من الموارد.

ب- فتح المجال للخصم ودليله:

يشـعر كثيـر من النـاس عندمـا يعتزمـون خوض نقـاش أنّهـم داخلون إلـى (حلبة مصارعـة) و(معترك حرب طاحنة)، و(قضية حيـاة أو موت)، ومن ثمّ لا يتركون للخصم أي منفذ للرد وعرض آرائه وأدلته، بل.. ولا حتى أسئلته.

إنّ هـذا المنهـج العقيـم لا يتبـدى فـي حواراتنا العقدية فحسـب، بـل.. يمتد لكلّ صنوف الجدال عندنا: السياسـية منها والثقافية وغيرها..، ويصلّ حتى لنقاش الشـيخ مع مريديه، والمعلم مع طلابه، والأب مع أبنائه، والأخ مع إخوانه الأصغر!!

وذاك ما يجعل نقاشـاتنا عقيمة غير مثمرة هي أشبه بـ(حوار الطرشان)، و(الجدال السفسطي)، و(الفكر السجالي)، تجعل الطرف إن استمع فإنّما يستمع لكي يكرّ وينقُض، وتجعل الطرف الآخر - ولو ظلّ صامتاً أو أظهر القبول - فهو غير مقتنع بشيء مما طُرح، وأنّ صمته لم يكن إلا تزجية للوقت، والانفكاك من ذاك الغثاء السمج!!

بينمـا يطلـب اللـه مـن معتنقي منهجـه في المجادلـة بالتي هـي أحسـن أن يفتحوا صدرهم لسـماع الطرف الآخر أو الخصم وأدلته، والركون إلى الحجة و(قوة المنطق) لا القهر و(منطق القوة): ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(١).

إنّ عدم فتح المجال لسماع فكر الطرف المقابل يجعله يترسخ لديه، وإن لم يستطع تطبيقه في العلن فسـيطبّقه في السـرّ، وإذا حانت الفرصة للتمرّد العلني على الفكر السائد الغالب فلن يأل جهداً في إبداء ذلك والثورة العاصفة عليه، وهذا ما يجعلنا نؤمن بضرورة فتـح المجـال للطرف المقابل ليعـرض ما لديه، والإصغـاء إليه بكلّ رويّة وسـعة بال، ثمّ مناقشته بالحجة، فـ(الحجة تقرع الحجة) و(الدليل يقرع الدليل).

---

(١) سورة البقرة/ ١١١.

كما أنّ فتح المجال لذلك من شأنه معرفة آراء الطرف المقابل وحججه، ومن ثمّ وضع اليد عليها؛ لمعالجة مكمن المشكلة والاختلاف، وذاك أمر لن يُعرف إذا لم يُتح له المجال لإبدائه وإبرازه.

إنّ صدورنا ينبغي أن تتسع لنسمع كلام الآخرين عن مبادئهم وأفكارهم ومواقفهم، ولو كانت حول تأييد التدخين والاستماع للغناء، أو (التفحيط بالسيارة)، أو استعمال الهاتف للمعاكسة والمغازلة، أو ترك الحجاب والصلاة والصوم، أو تعاطي الخمور والمخدرات، أو إقامة علاقات جنسية خارج إطار الزوجية، أو غير ذلك، ثمّ مناقشته مع صاحبه بالحجة والبرهان.

إنّ أهمّ مبدأ في دين الإسلام هو عقيدة توحيد الله، ومع ذلك قبل القرآن مناقشته برهانياً، وطلب من الآخرين الإتيان ببرهان على خلافه إن كان ثمة لديهم ذلك**!!**

يقول الله تعالى:

- **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾**(١).

- **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾**(٢).

- **﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾**(٣).

ج- إنصاف الخصم:

البعض حين يخوض النقاش يؤمن مسبقاً بضرورة الصلابة والقوة وعدم الانكسار أمام الطرف الآخر؛ لأنّ ذاك يمثّل هزيمة ماحقة مذلة له، وانتصاراً جبّاراً متغطرساً للآخر، قد يدوّنه التاريخ، وتسري به الركبان**!!**

وهذه الصلابة قد تعني - لدى البعض - عدم التسليم للطرف المقابل وأدلته مهما تكن إيجابية ومنطقية ومتينة ومؤصّلة، على طريقة (إنّها نعجة ولو طارت**!!**)، أو لا أقلّ

(١) سورة الأنبياء/ ٢٢- ٢٤.
(٢) سورة المؤمنون/ ٩١.
(٣) سورة الإسراء/ ٤٢.

عدم التصريح بأنّها مقنعة، والتخلص من ذلك إما بإغلاق الجدال، أو القيام بعمل موارب مموِّه كتبديل الموضوع، أو الانسلال منه بصمت، فهي في فكره الاستراتيجي حرب ضروس يتمّ اقتحامها بعنف والانسحاب منها بشكل تكتيكي!!

بينما يطلب القرآن منّا إنصاف الخصم (مبدأ النصفة)، هذا المبدأ النبيل الذي يرتكز على منطلق، وطريقة معالجة، وهدف:

فمنطلقه يقضي بخوض الحوار دون مسبقات حكمية معيارية لصالح الذات وضد الخصم، والتحلّي بالشجاعة الأخلاقية الكافية في إمكانية التشكيك في فكر الذات والتشكيك في فكر الغير على حدّ سواء: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾[1].

«فلم يعطِ النبي ﷺ في أسلوبه هذا لنفسه صفة الهدى، ولم يدمغ خصمه بصفة الضلال، مع إيمانه العميق بأنّ القضية في واقعها الأصيل لا تبتعد عن ذلك؛ ليترك المجال للقضية أن تتحرّك في حرية؛ لتصل إلى النتيجة الحاسمة من موقع الحرية الفكرية المنطلقة مع الحوار في الخطّ الصحيح»[2].

ومن هذا أمر الله لنبيّه محمد ﷺ أن يقول لنصارى نجران: ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[3].

فهو لا يقول: (ثمّ نجعل لعنة الله عليكم)، ولو قال ذلك لما قبلوه منه، وإنّما ﴿**فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾، وهي جملة مفتوحة ترضي الطرفين أخلاقياً؛ فاللعن على الكاذب، سواء أكان منّا أم كان منكم.

وإذا كان هذا وحياً إلهياً، ومارسه نبي معصوم، فما الذي يعيقنا نحن، ولسنا ممن تتنزل عليه الآيات والوحي، ولا نملك لأنفسنا عصمة من الخطأ؟!

وهذا يعني أنّ الذات حتى لو كانت في أتمّ درجات اليقين بفكرها من ناحية المضمون والمحتوى، عليها من الناحية الأسلوبية أن تقف على الحياد، وتتحدث مع المختلف بأسلوب الحياد.

---

(١) سورة سبأ/ ٢٤.
(٢) الحوار في القرآن/ ٥٥- ٥٦.
(٣) سورة آل عمران/ ٦١.

فالطـرف الآخـر إذا علم أنّنا في عملية الحوار نقطع سـلفاً بصوابنـا وخطئه، وعدم قابليتنـا حتى للتشـكيك في قناعات الذات؛ فسـيؤمن أن لا جدوى لدخـول الحوار معنا؛ لأنّـه يجـد أنّنا نعتقد بصرامة بـأنّ كلّ ما لدينا صـواب لا يمكن التنازل عنـه، وكلّ ما لديه باطـل لا يمكـن قبوله؛ فما فائدة الحـوار إذاً؟!، وهل يُرتجى من هكـذا عملية غير إضاعة الوقت والجهد، والتشـبّع بالضغط النفسي، والتشنج الفكري، وإثارة نقاط التوتر، وإيقاظ الجروح الغافية؟!

وطريقـة المعالجة فيه تبتني على إعطاء القيمـة والمنزلة والمعيار للبرهان والحجة والدليـل، فالبرهـان هو الذي يثبت صحة فكرة وخطأ أخـرى، وينبغي الاحتكام إليه حتى لا تُحكى الأفكار هذراً، وترسـل إرسـال المسـلّمات: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[١]، ﴿**أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٢].

فالبرهان في الحوار والمعرفة هو بمثابة (التجربة) التي ترتكن إليها العلوم التجريبية في التسليم بشيء أو رفضه.

والهـدف في مبدأ الإنصاف يقضي بالتسـليم لنتائج الدليل والبرهان، والاسـتعداد للتنازل عن الخطأ وقبول الصواب سـواء أكان لدى الذات أم لدى الطرف المقابل، وفتح الباب مشـرعة للوصول للأفضل والأحسـن واتباعه: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنـدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٣].

إنّ اتباع الحقّ خصلة نبيلة ينبغي الحرص عليها، ولو كلّف الأمر الاعتراف بالخطأ ﴿**فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾[٤].

والاعتـراف بالخطأ قيمة وفنّ، فالاعتراف به وتصحيح المسـار خير من السـير في متاهات الظلام، ومن شأنه أن يخدم الحقّ والعلم، ويسرع في خطى سيرهما نحو الكمال، وهو فنّ يحتاج إلى مهارة وحسن أداء.

الاعتـراف بالخطـأ ليس مهانة، بـل هو دليل على نبل وشـجاعة صاحبـه، وإعلائه

(١) سورة الأنبياء/ ٢٤.
(٢) سورة النمل/ ٦٤.
(٣) سورة القصص/ ٤٩.
(٤) سورة يونس/ ٣٢.

للقيـم والحـقّ، وصدقه مع ضميره والآخرين، وذاك يجعله يكبر في أعين الآخرين، وقبل ذلك يكبر في عين نفسـه، ويصل إلى مرحلة الرضا عن النفس والصلح مع الذات والقيم والآخرين ﴿**وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا**﴾[1].

وهذا يعني أنّنا إذا أردنا أن ندعو إلى الله – سبحانه وتعالى – فلابدّ أن يكون منطلقنا نزيهاً يحمل قابلية كوننا على الصواب أو كون غيرنا على الصواب، ومن ثمّ نعرض الأمور بحجة وبرهان، ونمتلك الشجاعة القيمية والأخلاقية والأدبية للتسليم بالحقّ.

(١) سورة الكهف/ ٢٤.



المصادر والمراجع

الكتب الدينية:

- القرآن الكريم.
- الإنجيل.
- التوراة.

الكتب:

(أ)

- **آل موسى**، الشيخ علي. **ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟**. ط١. بيروت/ لبنان: مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في حوزة الإمام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف العلمية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- **إبراهيم**، عبد الستار. **القلق قيود من الوهم**. د ط. القاهرة/ مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، د ت.
- **ابن الأثير**، علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٤م). **الكامل في التاريخ**. تحق: علي شيري. ط١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م.
- **الأشعري**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م). **الإبانة عن أصول الديانة**، تحق: الدكتورة فوزية حسين محمود. ط١. القاهرة/ مصر: دار الأنصار، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- **الأفغاني**، السيّد جمال الدين (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م). **الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني**. بعناية: الدكتور محمد عمارة. د ط. القاهرة/ مصر: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، دت.
- **الألمعي**، الدكتور زاهر بن عوّاض. **دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**. ط١. الرياض/ السعودية: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **الأميني**، الشيخ عبد الحسين أحمد النجفي (ت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧١م). **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**. ط٥. بيروت/ لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **ابن أنس**، الإمام مالك (ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م). **الموطأ**. تحق: محمد فؤاد عبد الباقي. دط. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- **الأنطاكي**، محمد. **المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها**. ط٣. بيروت/ لبنان: دار الشرق العربي، دت.
- **أنيس**، الدكتور إبراهيم. وآخرون. **المعجم الوسيط**. ط٢. استانبول/ تركيا. المكتبة الإسلامية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- **الأيرواني**، الشيخ باقر. **دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام**. ط١. إيران: دار الفقه للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(ب)

- **بازمول**، الدكتور محمد عمر، **علم المناسبات في السور والآيات**. ط١. مكة المكرمة/ السعودية: المكتبة المكية، ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م.
- **البحراني**، السيّد هاشم الحسيني (ت ١١٠٧هـ/ ١٦٩٦م). **البرهان في تفسير القرآن**. تقديم: الشيخ محمد مهدي الآصفي. تحق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة البعثة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- **البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م). **صحيح البخاري**. د ط. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، د ت.
- **البعلبكي**، منير. **موسوعة المورد العربية**. ط١. بيروت/ لبنان: دار العلم للملايين، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **البقاعي**، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٠٨م)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. تحق: عبد الرزاق غالب. ط١. بيروت/ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- **بلقزيز**، الدكتور عبد الإله. **العرب والحداثة: دراسة في مقالات الحداثيين**. ط١. بيروت/ لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، شباط/ فبراير، ٢٠٠٧م.
- **بنت الشاطئ**، الدكتورة عائشة عبد الرحمن. **التفسير البياني للقرآن الكريم**. سلسلة (مكتبة الدراسات الأدبية ٢٥). ط٣. القاهرة/ مصر: دار المعارف بمصر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.
- **بيومي**، الدكتور محمد رجب. **البيان القرآني**. ط١. القاهرة/ مصر: مجمع البحوث، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

(ت)

- **الترمذي**، محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)**. تحق: عبد الوهاب عبد اللطيف. ط٢. بيروت/ لبنان: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م.
- **التفتازاني**، سعد الدين مسعود بن عمر (ت ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م). **مختصر المعاني**. ط١. قم/ إيران: منشورات دار الفكر، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- **التميمي**، عبد الواحد بن محمد الآمدي (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م). **غرر الحكم ودرر الكلم**. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(ث)

- **الثعالبي**، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م). **تفسير الثعالبي، الموسوم بـ (جواهر الحسان في تفسير القرآن)**. د ط. بيروت/ لبنان: منشورات الأعلمي للمطبوعات. دت.
- **الثعلبي**، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م). **الكشف والبيان في تفسير القرآن، المعروف بـ (تفسير الثعلبي)**. تحق: أبي محمد بن عاشور. مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي. ط١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

(ج)

- **الجرجاني**، الإمام عبد القاهر (ت ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م). **دلائل الإعجاز**. شرح وتعليق: الدكتور محمد التُّنجي. ط٢. بيروت/ لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- **جريشة**، الدكتور علي محمد، ومحمد شريف الزيبق، **أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي**، ط١، المدينة المنورة/ السعودية: دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- **الجزائري**، السيّد نور الدين بن نعمة الله الحسيني (ت ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م). **فروق في اللغات**. تحق: الدكتور محمد رضوان الداية. ط٢. طهران/ إيران: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م.
- **ابن الجوزي**، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م). **زاد المسير في علم التفسير**. ط١. بيروت/ لبنان: دار ابن حزم، والمكتب الإسلامي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- **الجنيدي**، محمد سعيد. **القلق في الثقافة**. ط١. بيروت/ لبنان: منشورات عويدات، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

(ح)

- **الحاكم النيسابوري**، الحافظ محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م). **المستدرك على الصحيحين**. د ط. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، د ت.
- **أبو حجر**، أحمد عمر. **التفسير العلمي بالقرآن في الميزان**. ط١. بيروت/ لبنان. دار قتيبة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- **ابن أبي الحديد**، عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م). **شرح نهج البلاغة**. د ط. بيروت/ لبنان: دار مكتبة الحياة، د ت.
- **الحرّاني**، الشيخ الحسن بن شعبة (ت القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، **تُحَف العقول عن آل الرسول**. ط ٥. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- **الحرّ العاملي**، الشيخ محمد بن الحسن (١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م). **وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة**. تحق: عبد الله الرّباني الشيرازي. ط ٦. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- **حسن**، عباس. **النحو الوافي**. ط٣. القاهرة/ مصر: دار المعارف بمصر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- **حسن**، غالب. **نظرية العلم في القرآن**. سلسلة (قضايا إسلامية معاصرة). ط١. بيروت/ لبنان: دار الهادي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

- **ابـن الحسـين**، الإمام علـي (ت ٩٥هــ/ ٧١٢م). **الصحيفة السـجادية الكاملة**. تقديم: السيّد الشهيد محمد باقر الصدر. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- **الحكيم**، السيّد الشهيد محمد باقر (ت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م). **تفسير سورة الحمد**. ط٢. دن: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **الحكيـم**، السـيّد الشـهيد محمد باقر. **علوم القـرآن**. ط٣. بيروت/ لبنـان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- **ابن حنبل**، الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م). **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، ودار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(خ)

- **الخطيـب التبريـزي**، يحيـى بن علي الشـيباني (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م). **شـرح القصائد العشـر**. ضبـط وتصحيح: عبد السـلام الحوفي. بيـروت/ لبنان: دار الكتـب العلمية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- **الخمينـي**، الإمـام روح اللـه الموسـوي (ت ١٤٠٩هــ/ ١٩٨٩م). **الأربعـون حديثاً**. ترجمـة: السـيّد محمـد الغـروي. ط٧. بيـروت/ لبنـان: دار التعـارف للمطبوعـات، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **الخميني**، الإمام روح الله الموسـوي. **بلسـم الروح**. ترجمة: الشـيخ حسين الكوراني. ط٢. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **الخوئي**، السيّد أبو القاسم الموسوي (ت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م). **البيان في تفسير القرآن**. ط٦. بيروت/ لبنان: دار الزهراء عليها السلام، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **الخوئي**، السـيّد أبو القاسـم الموسـوي. **معجـم رجال الحديث**. ط٤. بيـروت/ لبنان: منشورات مدينة العلم، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- **الخوئي**، السـيّد أبو القاسـم الموسـوي. **منهاج الصالحين**. ط ٢٣. بيـروت/ لبنان: دار الزهراء، دت.

(د)

- **الدامغانـي**، الحسـين بن محمد بن إبراهيم (ت نحو ٤٧٨هــ/ نحو ١٠٨٥م). **قاموس**

القرآن، أو: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم. تحق: عبد العزيز سيّد الأهل. ط٥. بيروت/ لبنان: دار العلم للملايين، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **دراز**، الدكتور محمد. **المدخل إلى القرآن الكريم**. ط١. الكويت: دار القرآن الكريم، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- **الدغامين**، الدكتور زياد. **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**. ط١. عمّان/ الأردن: دار البشير، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(ر)

- **راجح**، الدكتور أحمد عزت. **أصول علم النفس**. ط٩. الإسكندرية/ مصر: المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، د ت.
- **الراغب الأصفهاني**، الحسين بن محمد بن المفضّل (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م). **مفردات ألفاظ القرآن**. تحق: صفوان عدنان داوودي. ط١. بيروت/ لبنان: دار القلم، دمشق/ سورية: الدار الشامية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **ابن أبي ربيعة**، عمر بن عبد الله (ت ٩٣هـ/ ٧١٢م). **شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي**. تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط١. مصر: مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.
- **رحماني**، الدكتور أحمد بن عثمان. **التفسير الموضوعي: نظرية وتطبيقاً**. دط. باتنة/ الجزائر: منشورات جامعة باتنة، دت.
- **رحماني**، الدكتور أحمد بن عثمان. **مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي**. ط١. إربد/ الأردن: عالم الكتب الحديث، وعمّان/ الأردن: جدارا للكتاب العالمي، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- **رضا**، الشيخ محمد رشيد (ت ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م). **تفسير المنار**. تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب. ط١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- **الروحاني**، السيّد محمد الحسيني (ت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م). **منهاج الصالحين**. ط٧. بيروت/ لبنان: مكتبة الإيمان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- **الرومي**، الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن. **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري**. ط٣. بيروت/ لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- **الرومي**، الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن. **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير**. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(ز)

- **الزركشي**، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م). **البرهان في علوم القرآن**. تحق: الدكتور زكي محمد أبو سريع. ط١. الرياض/ السعودية: دار الحضارة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- **الزركلي**، خير الدين (ت ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م). **الأعلام**. ط ١٣. بيروت/ لبنان: دار العلم للملايين، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٩م.
- **الزمخشري**، جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م). **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. تعليق: خليل مأمون شيحا. ط٢. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- **زين الدين**، الشيخ محمد أمين (ت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م). **الأخلاق عند الإمام الصادق** عليه السلام. د ط. د ب: دار الكتاب الإسلامي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(س)

- **سالم**، الدكتور محمد رشاد. **المدخل إلى الثقافة الإسلامية**. ط٩. الصفاة/ الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- **السايس**، الشيخ محمد علي. **تفسير آيات الأحكام**. تنقيح: محمد علي السايس، وعبد اللطيف السبكي، ومحمد إبراهيم كرسون. تصحيح وتعليق: حسن السماحي سويدان. مراجعة: محيي الدين ديب مستو. ط٣. بيروت/ لبنان، ودمشق/ سورية: دار القارئ، وبيروت/ لبنان، ودمشق/ سورية: دار ابن كثير، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- **السبحاني**، الشيخ جعفر، **الإلهيات**. بقلم: الشيخ حسن العاملي. ط١. بيروت/ لبنان: الدار الإسلامية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- **السبزواري**، السيّد عبد الأعلى الموسوي (ت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م). **منهاج الصالحين**. ط٤. بيروت/ لبنان: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- **السبزواري**، السيّد عبد الأعلى الموسوي. **مواهب الرحمن في تفسير القرآن**. د ط. بيروت/ لبنان: منشورات المؤسسة الفكرية للمطبوعات، د ت.
- **السجستاني**، أبو داوود سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م). **سنن أبي داود**. تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دط. بيروت/ لبنان: دار الفكر، دت.
- **سعيد**، الدكتور عبد الستار فتح الله. **المدخل إلى التفسير الموضوعي**. ط١. القاهرة/

مصر: دار الطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- **السمرقندي**، أبو ليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م). **تفسير السمرقندي**، المسمّى (بحر العلوم). تحق: الشيخ محمد معوّض، والشيخ عادل عبد الموجود، والدكتور زكريا النوتي. ط١. بيروت/ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- **السيستاني**، السيّد علي الحسيني. **منهاج الصالحين**. ط١. قم/ إيران: ستارة، ١٤١٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م). **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور**. تحق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية. ط١، القاهرة/ مصر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(ش)

- **الشاطبي**، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (ت ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م). **الموافقات في أصول الشريعة**. تحق: الشيخ عبد الله دراز. ط٢. مكة المكرمة/ السعودية: توزيع عباس أحمد الباز، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- **الشاهرودي**، الشيخ علي النمازي، (ت١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م). **مستدرك سفينة البحار**. تحق: الشيخ حسن علي النمازي. ط ١. قم/ إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- **شبّر**، السيّد عبد الله (ت ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م). **الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين**. تقديم: السيّد محمد بحر العلوم. ط ١. الكويت: مكتبة الألفين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- **الشريف المرتضى**، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م). **تنزيه الأنبياء**. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- **الشريف المرتضى**، علي بن الحسين الموسوي. **رسائل المرتضى**. تقديم: السيّد أحمد الحسيني. إعداد: السيّد مهدي الرجائي. ط١. قم/ إيران: دار القرآن الكريم، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **ابن شهرآشوب**، رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م). **مناقب آل أبي طالب**. دط. قم/ إيران: كتاب فروشي مصطفوي، ومؤسسة انتشارات علامة، دت.

- **الشيرازي**، حافظ (ت ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م). **أغاني شيراز (ديوان حافظ الشيرازي)**. ترجمة: الدكتور إبراهيم الشواربي. ط١. طهران/ إيران: المشرق للثقافة والنشر، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **الشيرازي**، السيّد محمد رضا الحسيني (ت ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م). **التدبر في القرآن**. ط١. بيروت/ لبنان: دار العلوم، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- **الشيرازي**، السيّد محمد مهدي الحسيني (ت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م). **الدعاء والزيارة**. ط١. بيروت/ لبنان: دار العلوم، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **الشيرازي**، السيّد محمد مهدي الحسيني. **الشورى في الإسلام**. ط١٠. بيروت/ لبنان: مؤسسة الوعي الإسلامي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- **الشيرازي**، السيّد محمد مهدي الحسيني. **لماذا يحاربون القرآن؟**. ط١. بنيد القار/ الكويت: لجنة الإمام المهدي، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- **الشيرازي**، الشيخ ناصر مكارم. **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- **الشيرازي**، الشيخ ناصر مكارم. **نفحات القرآن**. د ط. إيران: مؤسسة أبي صالح للنشر والثقافة، د ت.

(ص)

- **صاحب الجواهر**، الشيخ محمد حسن النجفي (ت ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م). **جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام**. ط١. بيروت/ لبنان: دار المرتضى العالمية، ودار المؤرخ العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **صافي**، محمود. **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**. مراجعة: لينه الحمصي. ط٢. دمشق/ سورية، وبيروت/ لبنان: دار الرشيد، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- **الصدر**، السيّد الشهيد محمد باقر (ت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م). **الإسلام يقود الحياة**. ط١. د ب: دار الكتاب الإسلامي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- **الصدر**، السيّد الشهيد محمد باقر. **اقتصادنا**. ط٢. قم/ إيران: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٥هـ/ ١٩٩٥م.
- **الصدر**، السيّد الشهيد محمد باقر. **فلسفتنا**. ط١٠. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- **الصدر**، السيّد الشهيد محمد باقر. **المدرسة القرآنية**. ط٢. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- **الصدر**، السيّد الشهيد محمد باقر. **المدرسة القرآنية (السنن التاريخية في القرآن)**. إعادة صياغة وترتيب: الشيخ محمد جعفر شمس الدين. د ط: بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- **الصدوق**، الشيخ محمد بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م). **الخصال**. تحق: علي أكبر الغفاري. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **صفوت**، أحمد زكي. **جمهرة خُطب العرب في العصور العربية الزاهرة**. دط. بيروت/ لبنان: المكتبة العلمية، دت.

(ض)

- **ضيف**، الدكتور شوقي (ت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م). **العصر العباسي الأول**. ط٨. القاهرة/ مصر: دار المعارف، د ت.
- **ضيف**، الدكتور شوقي. **العصر العباسي الثاني**. ط٢. القاهرة/ مصر: دار المعارف، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(ط)

- **ابن أبي طالب** (ت ٤٠هـ/ ٦٦١م)، الإمام علي. **نهج البلاغة**. جمع الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م). ضبط: الدكتور صبحي الصالح. ط١. بيروت/ لبنان: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- **الطباطبائي**، السيّد محمد حسين (ت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م). **الميزان في تفسير القرآن**. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- **الطبرسي**، أحمد بن علي بن أبي طالب (ت حوالي ٦٢٠هـ/ حوالي ١٢٢٢م). **الاحتجاج**. ط٢. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- **الطبرسي**، الشيخ حسين بن محمد تقي النوري المازندراني (ت ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م). **مستدرك الوسائل**. ط٥. بيروت/ لبنان: دار الهداية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- **الطبرسي**، الشيخ الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م). **جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد**. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار الأضواء، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **الطبرسي**، الشيخ الفضل بن الحسن. **مجمع البيان في تفسير القرآن**. د ط. بيروت/

لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر، د ت.
- **الطبـري**، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م). **تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)**. ط٤. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن (تفسير الطبري)**. ضبط وتعليق: محمود شاكر. ط١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- **الطريحـي**، الشـيخ فخر الدين بن محمد (ت ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م). **مجمع البحرين**. د ط. بيروت/ لبنان: دار الهلال، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(ع)

- **عاصـي**، الدكتـور ميشـال. والدكتـور إميل بديـع يعقـوب. **المعجم المفصَّل فـي اللغة والأدب**. ط١. بيروت/ لبنان. دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- **العامر**. الشـيخ توفيق. **مدخل إلى علم التفسير**. ط١. بيروت/ لبنان: دار البيان العربي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- **عبـد الرحيم**، الدكتور عبد الجليل، **التفسـير الموضوعـي في كفتي ميزان**. ط١. عمّان/ الأردن: د ن، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **عبده**، الشـيخ محمد (ت ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م). **الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**. د ط. القاهرة/ مصر: مطبعة محمد علي صُبيح وأولاده، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.
- **عبـده**، الشـيخ محمـد. **تفسـير جـزء عـمّ**. د ط. بيـروت/ لبنـان: دار ومكتبـة الهلال، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **ابـن عربـي**، الشـيخ محيي الديـن محمد بـن علـي (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م). **فصوص الحِكَـم**. تعليـق: الدكتور أبو العلا عفيفـي. ط٢. بيروت/ لبنـان: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- **ابن عسـاكر**، علي بن الحسـن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م). **تاريخ مدينة دمشق**. تحق: علي شيري. ط١. بيروت/ لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- **العسـكري**، أبو هلال الحسـن بن عبد الله بن سـهل (ت بعد ٣٩٥هـ/ بعد ١٠٠٥م). **الفروق في اللغة**. ط٥. بيروت/ لبنان: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **ابـن عقيـل**، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي المصري (ت ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م). **شـرح ابـن عقيـل على ألفيـة ابن مالـك**. ط١٤. القاهـرة/ مصـر: المكتبة التجاريـة الكبرى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

- **عمر**، الدكتور أحمد مختار. **علم الدلالة**. ط٣. القاهرة/ مصر: عالم الكتب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **العوامي**، الشيخ فيصل. **التفسير العلمي التربوي.. دراسة تمهيدية للمنهج المقترح لفهم القرآن**. سلسلة (القرآن نور) ١. ط١. بيروت/ لبنان: دار الهادي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- **العيص**، الدكتور زيد عمر عبد الله. **التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل**. ط١. الرياض/ السعودية: مكتبة الرشد، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- **العيوني**، علي بن المقرّب (ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٢م). **شرح ديوان علي بن المقرّب العيوني**. تحق: عبد الخالق عبد الجليل الجنبي وآخرين. د ط. بيروت/ لبنان: المركز الثقافي للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(غ)

- **غلاييني**، الشيخ مصطفى. **جامع الدروس العربية**. ط٢٦. بيروت، وصيدا/ لبنان: المكتبة العصرية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(ف)

- **الفخر الرازي**، محمد بن ضياء الدين عمر (ت ٦٠٤هـ/ ١٢١٠م). **تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب)**. ط٣. بيروت/ لبنان: دار الفكر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **الفرّاء**، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م). **معاني القرآن**. تحق: الأستاذ محمد علي النجار. ط٣. القاهرة/ مصر: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- **الفرماوي**، الدكتور عبد الحيّ حسين. **البداية في التفسير الموضوعي.. دراسة منهجية**. ط٢. القاهرة/ مصر: مطبعة جمهورية مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.
- **فضل الله**، السيّد محمد حسين. **الحوار في القرآن: قواعده، أساليبه، معطياته**. ط٢. بيروت/ لبنان: الشركة الإسلامية للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **فضل الله**، السيّد محمد حسين. **من وحي القرآن**. ط٣. بيروت/ لبنان: دار الزهراء، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **الفيروزآبادي**، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م). **القاموس المحيط**. ط١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- **الفيض الكاشاني**، المولى محسن (ت ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م). **التفسير الأصفى**. تحق:

مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية. ط١. إيران: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- **الفيض الكاشاني**، المولى محسن. **تفسير الصافي**. تعليق: الشيخ حسين الأعلمي. د ط. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د ت.
- **الفيل**، الدكتور محمد رشيد. **الهجرة وهجرة الكفاءات العلمية العربية والخبرات الفنية أو النقل المعاكس للتكنولوجيا**. ط ١. عمّان/ الأردن: دار مجدلاوي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(ق)

- **القاضي**، محمد عثمان. **منار السبيل في الأضواء على التنزيل**. ط١. د ب: مطبعة الحلبي، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- **القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري (ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م). **الجامع لأحكام القرآن**. منشورات (مكتبة دار الرياض الحديثة). تحق: أحمد عبد العليم البردوني. ط٢. الرياض/ السعودية: مطبعة دار الكتاب المصرية، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.
- **القرعاوي**، الدكتور سليمان بن صالح. **مصطلحات علوم القرآن: عرض وتحليل واستدراك**. ط٢. الدمام/ السعودية: مطابع دار الثقافة العربية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- **القطان**، مناع خليل. **مباحث في علوم القرآن**. ط٨. الرياض/ السعودية: مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- **قطب**، سيّد (ت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م). **التصوير الفني في القرآن**. ط ٨. بيروت/ لبنان، والقاهرة/ مصر: دار الشروق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **قطب**، سيّد. **في ظلال القرآن**. ط١٢. جدة/ السعودية: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- **القمّي**، الشيخ عباس (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م). **مفاتيح الجنان**. تعريب: السيّد محمد رضا النوري. د ط. بيروت/ لبنان: المؤسسة العالمية للكتاب الإسلامي، دت.
- **القمّي**، علي بن إبراهيم القمّي (ت ٣٠٧هـ/ ٩٢٠م). **تفسير القمّي**. تحق: السيّد طيّب الموسوي الجزائري. ط١. بيروت/ لبنان: دار السرور، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(ك)

- **ابن كثير**، إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م). **تفسير القرآن العظيم**.

مراجعة وتنقيح: الشيخ خالد محمد محرّم. دط. بيروت/ لبنان: المكتبة العصرية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- **الكفيشي**، عامر. **حركة التاريخ في القرآن الكريم**. سلسلة (قضايا إسلامية معاصرة). ط١. بيروت/ لبنان: دار الهادي، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **الكليني**، الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ/ ٩٤١م). **أصول الكافي**. تحق: محمد جعفر شمس الدين. د ط. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- **الكواكبي**، الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود (ت ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م). **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**. تحق: الدكتور أسعد السحمراني. ط٣. بيروت/ لبنان: دار النفائس، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

(ل)

- **اللاري**، السيّد مجتبى الموسوي. **الإسلام والحضارة الغربية**. ترجمة: محمد هادي اليوسفي. د ط. بيروت/ لبنان: دار الأمير، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- **لوبون**، الدكتور غوستاف (ت ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م). **السنن النفسية لتطوّر الأمم**. ترجمة: عادل زعيتر. ط٢. مصر: دار المعارف، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

(م)

- مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. **الموسوعة العربية العالمية**. ط ٢. الرياض/ السعودية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- **ابن مالك**، محمد بن عبد الله الأندلسي (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م). **ألفية ابن مالك في النحو والصرف**. ط١. بيروت/ لبنان: دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- **مؤنس**، الدكتور حسين. **الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**. (سلسلة عالم المعرفة ٢٣٧). ط٢. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، جمادى الأولى ١٤١٩هـ/ سبتمبر - أيلول ١٩٩٨م.
- **المتقي الهندي**، علاء الدين علي بن حسام الدين عبد الملك البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م). **كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال**. ضبط وتفسير: الشيخ بكري حيَّاني. تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا. ط١. حلب/ سورية: منشورات دار الكتاب الإسلامي، د ت.

- **المتنبي**، أبو الطيّب أحمد بن الحسين الجعفي (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م). **شرح ديوان المتنبي**. تحق: عبد الرحمن البرقوقي. د ط. مصر: المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م.
- **المجلسي**، العلامة محمد باقر (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م). **بحار الأنوار**. ط٤. بيروت/ لبنان: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- مجموعة من الكتاب. دائرة المعارف الإسلامية. د ط. بيروت/ لبنان: المؤسسة الإسلامية، د ت.
- مجموعة من الكتاب، **الموسوعة العلمية المبسطة (٤)، غرائب جسم الإنسان وعجائبه**، ط١، بيروت/ لبنان: دار العودة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **المحقق الحلي**، الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن الهذلي (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م). **شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام**. شرح وتعليق: السيّد عبد الزهراء الحسيني. ط٢. بيروت/ لبنان: دار الزهراء، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- **محمود**، الدكتور مصطفى. **القرآن: محاولة لفهم عصري**. د ط. بيروت/ لبنان: دار الشروق، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- **المدرّسي**، السيّد محمد تقي. **العرفان الإسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي**. ط٣. بيروت/ لبنان: دار البيان العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **المدرّسي**، السيّد محمد تقي. **الفكر الإسلامي.. مواجهة حضارية**. ط٥. بيروت/ لبنان: دار البيان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٨م.
- **المدرّسي**، السيّد محمد تقي، **القرآن حكمة الحياة**. ط١. بيروت/ لبنان: دار الكلمة الطيّبة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- **المدرّسي**، السيّد محمد تقي. **من هدى القرآن**. ط١. بيروت/ لبنان: دار البيان العربي، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- **المسعودي**، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م). **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. ط٢. قم/ إيران: مؤسسة دار الهجرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- **المظفر**، الشيخ محمد رضا (ت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م). **أصول الفقه**. ط٢. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **المظفر**، الشيخ محمد رضا. **المنطق**. ط٣. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **معرفة**، الشيخ محمد هادي (ت ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، **التفسير والمفسِّرون.. في ثوبه القشيب**. ط٢. مشهد/ إيران: مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدّسة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- **المغربي**، القاضي النعمان (ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م). **دعائم الإسلام**. تحق: آصف بن علي

أصغر فيضي. دط. القاهرة/ مصر: دار المعارف، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- **مغنية**، الشيخ محمد جواد (ت ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م). **التفسير الكاشف**. ط١. د ب: دار الكتاب الإسلامي، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **مغنية**، الشيخ محمد جواد. **التفسير المبين**. د ط. بيروت/ لبنان: مؤسسة عزّ الدين، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **ابن منظور**، محمد بن مكرّم بن علي الأنصاري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م). **لسان العرب**. تنسيق: علي شيري. ط١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- **الميداني**، أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م). **مجمع الأمثال**. تقديم وتعليق: نعيم حسين زرزور، ط١. بيروت/ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(ن)

- **ابن النحّاس**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي (ت ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م). **معاني القرآن الكريم**. منشورات (جامعة أم القرى بمكة). ط١. تحق: الشيخ محمد علي الصابوني. مكة المكرّمة/ السعودية: مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- **النراقي**، الشيخ محمد مهدي (ت ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م). **جامع السعادات**. ط٣. النجف/ العراق: مطبعة النجف، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- **النسفي**، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م). **تفسير القرآن الجليل، المسمّى بـ (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**. دط. بيروت/ لبنان، ودمشق/ سورية: المكتبة الأموية، وحماه/ سورية: مكتبة الغزالي، دت.
- **نوفل**، عبد الرزاق. **القرآن والعلم الحديث**. دط. بيروت/ لبنان: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- **النيسابوري**، علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م). ط١. **كتاب أسباب النزول**. بيروت/ لبنان: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- **النيسابوري**، مسلم بن الحجّاج (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م). **الجامع الصحيح (صحيح مسلم)**. دط. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، دت.

(هـ)

- **الهاشمي**، أحمد بن إبراهيم (ت ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م). **جواهر البلاغة.. في المعاني**

والبيان والبديع. ط١٢. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، دت.

- **الهاشـمي**، أحمد بن إبراهيم. **القواعد الأساسـية للغة العربية**. ط٢. إيران: دار الهجرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- **هانتنغتـون**، صامويـل. **صِـدام الحضـارات**. ط١. بيـروت/ لبنـان: مركـز الدراسـات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥.
- **الهذلـي**، أبـو ذؤيـب (ت نحو ٢٧هــ/ نحو ٦٤٨م). **ديـوان أبي ذؤيب الهذلي**. شـرح وتقديم: سـوهام المصري. مراجعة: ياسـين الأيوبي. ط١. بيروت/ لبنان، ودمشـق/ سورية، وعمّان/ الأردن: المكتب الإسلامي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- **ابن هشام**، جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري (ت ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م). **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**. ط٥. قم/ إيران: انتشارات سيد الشهداء، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.
- **ابن هشـام**، جمال الدين عبد الله بن يوسـف الأنصاري. **شـرح قطر الندى وبلّ الصدى**. تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط٢. بيروت/ لبنان: المكتبة العصرية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- **ابن هشام**، عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م). **سيرة النبي (صلى الله عليه وسـلّم)**. تحقّ: محمد محيي الدين عبد الحميد. د ط. القاهرة/ مصر: دار الفكر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- **الهلالي**، سليم بن قيس (ت ٧٦هـ/ ٦٩٥م). **كتاب سليم بن قيس الهلالي**. تحق: محمد باقر الأنصاري الزنجاني. ط١. قم/ إيران: مطبعة نكارش، ١٤٢٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **الهيتي**، مصطفى عبد السـلام. **القلق: دراسـات عن القلق والأمراض النفسـية الشـائعة**. ط١. بغداد/ العراق: مطبعة دار السلام، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(و)

- **وافي**، علي عبد الواحد. **الحرية في الإسـلام**. سلسـلة (اقرأ)، سلسـلة شهرية يشرف عليها: عادل الغضبان. العدد ٣٠٤. د ط. القاهرة/ مصر: دار المعارف بمصر، أبريل ١٩٦٨م.
- **الواقدي**، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م). **كتاب المغازي**. تحق: مارسدن جونس. ط٣. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

المجلات:

- **آل موسـى**، الشـيخ علـي. **(السـلطان والمجتمع: بحث فقهـي في آلية التعامـل)**، تقرير

لبحوث الشيخ عبد اللطيف الشبيب رَحِمَهُ اللهُ. مجلة (البصائر). العدد ٢١. السنة التاسعة. خريف ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

- **الحسن**، يوسف أحمد. (**الإيدز ومعضلة مكافحته**)، مجلة (الواحة)، العدد الخمسون، السنة الرابعة عشر، صيف ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.
- **داوود**، الشيخ زكريا. (**التضليل الإعلامي: أساليبه وآلياته.. السخرية مثالاً**). مجلة (القرآن نور). العدد ٢، السنة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- **زوّاد**، الشيخ ناجي أحمد. (**آفاق منهجية في نظرية الإصلاح**). مجلة (البصائر). العدد ٣١، السنة الخامسة عشرة، ربيع ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **سلوم**، الدكتور محمد غسّان. (**الفاكهة في القرآن الكريم، وأهميتها للإنسان**). مجلة (القافلة). المجلد ١١، العدد ١١، ذو القعدة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- **عمارة**، الدكتور محمد. (**القرآن والاجتهاد والعقلانية المؤمنة**). مجلة (العربي). وزارة الإعلام/ الكويت، العدد ٤٤٦، السنة التاسعة والثلاثون، شعبان ١٤١٦هـ/ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٦م.
- **الغنيمي**، معتصم. (**عراق الحرية والتعددية**). مجلة (البصائر). العدد ٣١، السنة الخامسة عشرة، ربيع ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **القرضاوي**، الدكتور الشيخ يوسف. (**مجالات الصبر في القرآن الكريم**). مجلة (المعارج). المجلد الأول. العددان ١١ - ١٢، ربيع الثاني - جمادى الأولى ١٤١٢هـ، تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٩١م.
- **المدرّسي**، السيّد محمد تقي. (**العقل والتأويل أصول المنهجية القرآنية المعاصرة**). حوار أجراه معه: الشيخ فيصل العوامي والشيخ عبد الغني عباس، مجلة (القرآن نور). العدد ٣، السنة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- **الموسوي**، السيّد محمود. **رؤية قرآنية في مسار الحضارات**. مجلة (البصائر). العدد ٢٩، السنة الرابعة عشرة، خريف ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م.

النشرات:

- **المدرّسي**، السيّد محمد تقي. **الاستفتاءات** (نشرة فقهية تصدر عن مكتب السيّد المدرّسي في السيّدة زينب)، العدد ٦، السنة الأولى، ربيع الثاني، ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م.

المحتويات

الفصل الأول
مقدمات تمهيدية في التدبر والتفسير

كيف فُهم القرآن الكريم؟ ٣٣

الفصل الثاني
التدبر الموضعي والتدبر الموضوعي

الفصل الثالث

منهج التدبر الموضوعي التجميعي

الفصل الرابع
منهج التدبر الموضوعي الكشفي

الفصل الخامس
تطبيق على مجالات التدبر الموضوعي

المشاركون في الكتاب

م	الاسم	البريد	العنوان
١	عبد العزيز حسن آل زايد	البريد الإليكتروني:	a-h-a-zaid@hotmail.com
٢	علي علي آل موسى	البريد الإليكتروني:	alialmusa1444@hotmail.com
		البريد العادي:	المملكة العربية السعودية المنطقة الشرقية ـ القطيف الرمز البريدي/ ٣١٩١١ العوامية ـ ص ب/ ١٠٧٧٢ علي علي آل موسى
٣	محمد حسن آل زايد	البريد الإليكتروني:	Anotherlanguage@hotmail.com
٤	موسى سعيد البحارنة	البريد الإليكتروني:	Mousa_s_b@hotmail.com